

مذكرات مجاهدة
من جيش التحرير الوطني
منطقة الجزائر المستقلة

زُهْرَة ظُرَيْف

مُذَكَّرَات مُجَاهِدَة
مِنْ جَيْش التَّحْرِيرِ الْوَطَنِيِّ
مِنْطَقَة الْجَزَائِرِ الْمُسْتَقْلَة

ترجمة محمد ساري

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب، 2014.

ردمك : 978-9947-39-085-6

الإيداع القانوني : 2014-3867

تخليداً لذكرى جميع الأخوات الشهيديات
تخليداً لذكرى جميع الإخوة الشهداء
تخليداً لذكرى المرحوم زوجي ، المجاهد رابح بطاط ،
الذي حقّزني دوماً من أجل تقديم شهادتي .
إلى أختي ليلي التي تعذّبت كثيراً بسبب تجنيدي في صف الثورة
إلى إخوتي وأخواتي الآخرين
إلى أولادي وأحفادي
إلى شبيبتنا

أحرار ومستقلون ، من أجل ماذا ؟

مولود معمري

تشكرات

بدايةً، أوجّه تشكراتي ومودّتي إلى خليفة تومي التي كانت تشجيعاتها لكتابة هذه المذكرات حاسمة في إنجازها. خلال سنوات طويلة، احتفظت في سري بما أجهر به اليوم إلى شعبي وبالأخص إلى شبيبة بلادي. احتفظت به في سري، حياءً، وربما بسبب سهوة بريئة لذلك الذي يعتقد أن الصمت عند النوائب يكفي لسعادته. تغلّبت الحجج المتكررة التي كانت خليفة تبديها لي بلطف، ودائماً بحماس فياض وإيمان واقتناع راسخين، عند ذكر هذه الحادثة أو تلك من حياتي كمجاهدة، وانتهى بي المطاف إلى مباشرة تمرين الكتابة حول هذه الفترة الحرجة من حياتي وحياة بلادي، الفترة التي كانت نتيجة تحضير السنوات السابقة، والتي شكّلت أسس كل ما تلاها في وجودي. هكذا، بدأت أستعين بذاكرتي وبذاكرة الفاعلين-الشاهدين لإنجاز هذه القصة المنسوجة داخل الألم والعذاب والجراح ووفاة عدد لا يُحصى من الأعزّاء والعزيزات، الذين سقطوا في ميدان الشرف، بعد أن خاضوا معارك ملحمة، هوميروسية، بطولية، بشرف وكبرياء وعدالة، كي يستعيد الباقون على قيد الحياة حريتهم وكرامتهم. كم كنت مُحقّقة، خليفة، عندما كنتِ تقولين أنّه من واجبنا خط دروب تواصل الأجيال، وأنّ علينا بتخصيب هذه الأرض بمادة الذاكرة المزروعة دوماً كي لا أحد ينسى ما حدث، كي يحمل الجميع هذه القصة كزادٍ مُغذٍّ، وباعث افتخار، وجوهر متجذّر، ومعرفة مؤكّدة، ونسغ

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

عائلي لبناء مستقبل الرفاهية والسلام. وباختصار، أن تُثَمِّن هذه القصة ونمنح لها المعنى الذي تستحق. هكذا، أكون قد أنجزت المهمتين معا : أروي ما سبق أن عشته. أشكرُ أختاه، لأنكِ كنتِ الحافز الأساسي في تجنيدي لإنجاز هذه الشهادة، وسترافقك محبتي إلى الأبد.

كما أوجّه تشكراتي وامتناني إلى السيدة سليمة هجرس، التي لم تدّخر، لا الوقت ولا الجهد، لترقين هذا المخطوط الغاص دوما بالتصحّيات والتشطيبات، وكل ذلك بصدقة وتфанٍ لا نظير لهما. لقد شجّعني على مواصلة الغوص في تفاصيل الماضي، خاصة بعدما اكتشفت قصة شخص من أقاربها : لالة « تسعديت بلحلفاف »، مؤكدة أنني ذكرتها واستحضرت حياتها كما هي حقا.

كما أوجّه تشكراتي وعرفاني بالجميل للامحدود إلى زهيرة ياحي التي أدخلت على النص – الذي عادت إليه مرارا وتكرارا، وبصرامتها المعهودة – التصحيحات والتصويبات الضرورية. إنَّ الاهتمام والفضول والتساؤلات، التي أثارتها فيها الفصول الأولى، انتهت إلى إقناعي نهائيا بأنّ تمرين هذه الكتابة حول هذه الفترة الحاسمة من حياتي وحياة بلادي، سيُساهم حتما، في توطيد تواصل الأجيال.

كما أوجّه تشكراتي وصدّاقتي إلى سليمان حاشي، الذي عبّر لي عن تأثره وانفعاله عند قراءة قسم من هذا النص، مما دّعمني في اعتقادي – وكم كنت بحاجة إلى مثل هذا التدعيم – أنّ كفاح أخواتنا وإخواننا، في الألم والموت، بقي وسيبقى حيّا نابضا في قلوب أبنائنا.

كما أوجّه تشكراتي أيضا إلى رشيد حاج ناصر على مساعدته الثمينة وسرعته في البحث عن الوثائق المتعلقة بالفترة المذكورة، وبالأخص تجميع جرائد الفترة الاستعمارية.

تشكرات

شكرا لنجاة خَدَّة، شكرا لحبيب أيّوب، على قراءتهما للصفحات الأولى،
وتشجيعهما لي على مواصلة الكتابة.

شكرا للجميع، نساءً ورجالا، باسم أخواتنا وإخواننا، عزيزاتنا وأعزائنا
الراحلين، باسم « العائدين » الذين نجوا من قساوة التعذيب والمحتشدات
والسجون وأروقة الموت.

مقدمة

هذا الكتاب ليس مؤلفا تاريخيا، لأنني، ببساطة، لست مؤرخة. كما أنه ليس سيرة ذاتية بالمعنى المتعارف عليه، ذلك أنني لا أمتلك لا فن ولا تقنية كتاب السير، زيادة إلى أنني أمقت «الكتابات الذاتية» نظرا لطبعي المتحفظ والتربية التي صقلت جيلي: الحياء، الخانق أحيانا، ولكنه الحياء دائما.

في جوان 2012، رحلت عن هذا العالم سامية لخضاري، صديقتي، أختي في الكفاح، مثلما عاشت دوما: باحتشام، وعلى أطراف قدميها. بعد أن دفناها في غفلة مطبقة، أدركت أنني أدفن، في ظروف مشابهة، جزءا كبيرا من ذاتي، من ذاتنا الجماعية، ذات جيل كامل ولد في ظلمات الاستيطان الكولونيالي، والذي تشكل ضد نظامه القمعي الذي أنكر إنكارا كليا كينونتنا الجماعية بكل حقوقها في الحرية والكرامة. عند دفن سامية، اعتراني إحساس كما لو أنني دفنت أيضا قسطا أساسيا من تاريخ أولئك، رجالا ونساء، الذين قرروا ذات يوم تكسير قيود الاستعمار القاسية القمعية، ودفعوا بأجسادهم وأرواحهم ودمائهم عربون تحرير شعبنا واستقلال بلادنا. ومما زاد من حزني وقسوة ألم فقداني لأختي في الكفاح إدراكي أن قليلا من الناس يعرفونها. لا يقدّر إلا القليل قيمة الكفاح الذي خاضته هذه المناضلة، كفاح عملاق بآمال عظيمة، ومعها الأخوات والإخوة، من أولئك الذين تحوّلت

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

بطولاتهم إلى أساطير إلى أولئك المتواضعين والمنسيين، داخل مسرح العمليات، الجزائر، عاصمة الجزائريين التاريخية منذ القرن الخامس عشر على الأقل، ولكنها أيضا العاصمة السياسية والإدارية والاقتصادية للسلطة الاستعمارية وجيشها المحتل. كم من الناس يعرفون أنّ « معركة الجزائر » كانت معركة السفاح ماسو ضد شعبنا في الجزائر العاصمة ؟ كم يعرفون معنى تسمية « صيد السمك » لثودار وجان بيار ؟ كم يعرفون معنى « جمبري بيجار » ؟ كم يعرفون كيف هي حملات التفتيش، والاعتقالات اليومية والاختفاءات والإعدامات ؟ كم من الناس يعرفون أنّ ماسو وترينكيي حوّلوا الجزائر إلى عاصمة عالمية للتعذيب ؟

أکید أنّ كثيرا من المؤرخين اشتغلوا في هذا الموضوع وأنتجوا كتباً قيّمة. ولكنني لن أحدثكم عن هذه الكتب وما تحويه من حقائق تاريخية مؤكدة. إنّها كتب أنتجها أكاديميون ولها قيمتها الضرورية التي لا غنى عنها. ولكنني أقول بكل تواضع أنّ هذه الكتب، بحكم أكاديميتها، لا تخاطب الجمهور العريض، وبالأخص شببتنا، وهو في الواقع ليس من مهامها.

ومثلما كتبت المجاهدة جاكلين فروج، التي حكمت عليها « العدالة » الاستعمارية بالإعدام، أختي في الكفاح ورفيقتي في الاعتقال، في كتابها الرائع « دواوير وسجون¹ » : « ... أعيش مع الشبان، أتحدّث معهم، أتفهم صعوبات معيشتهم. إنّهم أملنا المستقبلي، ولكن ليس لديهم صورة حقيقية عن ماضيهم، كيف كانت الجزائر المستعمرة، وما هي الدوافع العميقة التي جعلت الشعب ينتفض ويكافح إلى غاية نيل الاستقلال. لم يُدرّس لهم التاريخ، وإنّ حدث، ففي صورة مجرّدة، دغمائية، بقوالب جاهزة، بل وبطريقة منقّرة. لهذا أردت أن أحكي لهم، ليس التاريخ بمعناه الكبير، وإنما حكايات من الواقع المعاش، آملة أن أمنح لهم فرصة للحلم والتفكير ... ».

1. Jacqueline Guerroudj, *Des douars et des prisons*, Alger, Bouchene, 1993.

ثم جاء ذلك اليوم، بعد 50 سنة من نهاية احتلال بلادي من طرف القوة الأجنبية التي هي فرنسا، حيث اكتشفت بذهول، خلال نقاش عام في مرسيليا، أنّ الحرب التي جئنا نحتفل بالذكرى الخمسين لنهايتها لم تنته بعد في الضفة الأخرى للمتوسط. اكتشفت باندهاش أنّ منظمي ذلك الفوروم كانوا ينتظرون منّي أن أندّد، من أرض فرنسا، بالكفاح الذي خاضه شعبي لاستعادة كرامته وحريته وسيادته واستقلاله ؛ أنّ أندّد بكفاح العربي بن مهيدي وحسبة بن بوعلي وعلي لابوانت، وجميع شهيدائنا وشهادائنا الذين قبلوا التضحية بأرواحهم من أجل تحرير بلادنا !!!

كان أثر ذلك اليوم عليّ كالصدمة الكهربائية. فهمت أنّه من الواجب عليّ أن أطرد النسيان، هذا البلسم الوهمي الذي فرضته على نفسي بكتب سنوات النار والدم في عمق أعماق كياني، تلك السنوات الـ 132 من الخمود والإنكار والإذلال وما جرّته من أموات ومشردين ومختفين ومعذبين. في ذلك اليوم، اتخذت قرار تجنيد كامل قواي، واستدعاء ذكرياتي، وتفتيش ذاكرتي وحفر دروبها الموجعة. قرّرت أن أعود للبحث عن أهلي، المخفيين في صمتي، وأن أمنح لهم الكلام، أن أتحدّث باسم جميع أولئك النساء والرجال الذين ذهبوا بغير رجعة.

أردت أيضا أن أمنح صوتي إلى والديّ، ووالديّ سامية، والسيدة كارنكي أستاذتي، الذين لعبوا دورا أساسيا في اكتساب وعينا، ومن ثمة في تجنيدنا. أردت استحضار أسماء أولئك الذين، لولاهم، ما كان لي شرف وحظوة التجنيد في صفوف جبهة التحرير الوطني ومن ثمة الانضمام إلى المجموعات المسلّحة لناحية الجزائر المستقلة لأحييهم وأعبّر لهم عن امتناني وعرفاني، وهم : بوعلام أوصديق وعلي الهادي ومصطفى فتّال وعبد الله كشيدة.

مُذْكَراتُ مُجَاهِدَةٍ من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

كيف لي القول، كيف لي إعادة خلق وحكي أحداث وحيثيات وأجواء، وبالأخص الحديث عن كائنات من لحم ودم في حقائقها وإنسانيتها؟ كيف أعيد إحياء العظيم العربي بن مهيدي، والعبقري ياسف سعدي، وعلي لابوانت، الأعدل بين العادلين، والمكافحين الشجعان المتمثلين في مصطفى بوحيرد، عبد الغني مرسالي، طالب عبد الرحمن، دبيح شريف، عثمان حاجي، لوني أرزقي، عرباجي، الإخوة بلحفاف، حبيب رضا، دحمان، محمود... وأطفال القصة، الأبطال العظماء، مثل عمر ياسف، الهادي، إلياس بوحيرد، جمال حطالي وجميع الآخرين.

باستحضار ذاكرتي، كنت أودّ - أولا وأخيرا - أن أكون نزيهة إلى أقصى درجات النزاهة، وصداقة إلى أقصى درجات الصدق، ووفية إلى أقصى درجات الوفاء لهويتي الأولى، هويتي كامرأة. لقد اقتسمنا، أخواتي وإخواني وأنا، الآمال الأكثر جنونا، الإيمان الذي لا يتزعزع، ذلك الذي يشترطه الكفاح لحدّ الموت ضد عدوّ مشترك شرّس، البسالة والمكابدة لمواجهة المعاناة والأحزان والفقدان الحتمي لأخيارنا. كما اقتسمنا القناعات الحماسية التي يولّدها عهد النار والدماء حينما يحوم الموت بلا توقف.

ومع أخواتي، اقتسمت كلّ هذا وأزيد، اقتسمت معهن قدرا ومصيرا مشتركين، لكوننا كنا نساءً، يحملن الصبغيات المشتركة، بيولوجية، تاريخية، ثقافية وسياسية، والتي تحدّد جنسنا، حياتنا، مآلنا وموتنا.

أردت من خلال هذا الكتاب أن أتحدّث بصوت جماعي، مثل الجوق، مع أخواتي في الكفاح والآمال، من أشهرهن كجميلة بوحيرد، وحسيبة بن بوعلي، إلى أفلهن شهرة، ولكنهن لا يقللن شجاعة وكفاحا، مثل سامية لخضاري وأختي « فتيحة حطالي »، إلى اللائي ضاعت أسماؤهن في دروب

التاريخ المتشعبة أمثال ماما زهور، يَمَّا، خالتي باية، خالتي زَغْلة، لآلة، زينب وجميع الأخريات ...

بعد 56 سنة، أدركت أنه من واجبي أن أحمل أصواتهن لأنني امتلكت الامتياز العظيم للعيش معهن، ولأنني مازلت أحمل في عمق أعماق كياني مخاوفنا وصراخ المعذبين وألم موت إخواننا، وكذا آمالنا، وتواطأتنا وحميمياتنا ويا إلهي ! شلالات الزغاريد، وصرخات الالتحاق بالثورة والانتصارات، ورفض الخضوع والإيمان الصلب في تحررنا المقبل. كانت زغاريدنا، سلاح المرأة المخيف، ترهب العدو. وكانت قصبة الجزائر العاصمة هي قلعتنا جميعا، رجالا ونساءً، حصن منيع لحربنا التحريرية. هل يمكن لحظة تخيل القصبة بلا نساء ؟ بلا مكابدتهن، وشجاعتهن، وإيمانهن البطولي، بلا تجنيدهن في جميع الجبهات، السياسية والعسكرية واللوجستكية ؟ كنا جميعا، نساءً ورجالا، نحظى بالحماية والعلاج والعناية اليومية من ملابس ومأكل وحراسة، توفرها لنا نساء القصبة.

إنّ هذا الكتاب بمثابة ولادة عسيرة، ومَن غير أخواتي يعرفن أوجاعها. أريد أن أستبق ذلك اليوم الذي لن يبقى فيه أي حيٍّ من المشاركين في « معركة الجزائر ». حينئذ، لن يوجد أحد ليقول بالكلمات المنبثقة من « الذاكرة الشهبانية¹ » ما كانت عليه المجزرة التي اقترفتها القوة العسكرية الرابعة في الحلف الأطلسي، فرنسا، ضد شعب أعزل. لا أزعم أنني أقدم معرفة، ولا أنني أكتب التاريخ. أخذت عهدا على نفسي أن لا أحكي إلا ما عشته ورأيت وسمعت، واعية تمام الوعي بالفخاخ التي ينصّبها لي النسيان الذي لا مفر منه مع زحف السنوات. ليسمَح لي إخواني وأخواتي الذين لا

1. George Semprun.

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطنيّ منطقة الجزائر المستقلّة

يعثرون على أسمائهم داخل هذا الكتاب، فإنَّهم يعرفون، قبل غيرهم، نزوات
وتقلبات الذاكرة حينما يبدأ التلف نخر لفائفها.

زهرة ظريف-بطاط

الجزائر، أكتوبر 2013.

الفصل الأول في حضن العائلة

• أصولي وسلالتي الأبوية

وُلدت في تيارت، في سهل سَرَسُو، خلال رمضان من سنة 1934، وبالضبط في 28 ديسمبر، في مزرعة جدي من أبي، حاج عبد السلام ظريف. كان جدي، المنحدر من سلالة لالة فاطمة الزهراء، والمرتبطة بدولة الأدارسة، « مقدّما » أي قيّما لزاوية سيدي عباس بن عمر. إنّ جدّ جدي، حاج مولاي الطيّب، لم يُرزق بذرية من زواجه الأول في منطقتة، هو الذي انتظر، آملا في الذرية، إلى غاية الخمسين من عمره، قبل أن يقرّر الطلاق من زوجته العاقر، ويكرّس حياته للعبادة. اعتقد أنّ الله، حينما حرّمه من الذرية، يكون قد وجّه له رسالة، تتمثّل في واجب التخلي عن ملذّات الدنيا وتكريس حياته للتأمل والعبادة في « خلوة » بعيدة عن ضجيج الحياة. وهو ما فعل، فبعدما اقتسم خيراته مع أخواته وإخوته، التحق بزاوية جذور العائلة الأولى، زاوية سيدي مولاي إدريس، في واعليلي بالمغرب. ولم يكن هذا القرار الجذري الذي اتّخذه في حياته عقابا لزوجته على عقرها، وقد كان عادلا معها في تقسيم أرزاقه، وإنما نابعا وتطبيقا لقناعاته الفلسفية والدينية، المتشعبة بالمذاهب الصوفية.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

فعاد هذا الجدّ إلى زاوية سيدي مولاي إدريس، التي يسيّرُها مقدّم يُسمّى « حاج عبد السلام »، ونذر حياته للتأمل والعبادة. ويُحكى أنّه خلال خلوته ذات مساء وهو نائم، رأى حلما أحدث في نفسه هلعاً كبيراً، وأحسّ بأنه من واجبه أن يروي تفاصيل حلمه للمقدّم كي يفسّر له معانيه الخافية. بعد أن استمع إليه المقدّم، قال له : أطمئنك أنّ ما رأيته في منامك ليس أضغاث أحلام، وإنما رؤيا. لقد قدر الله وثمن ورّعك وصدقك وقرّر مكافأتك، يجب أن تعود إلى بلدك وزاويتك، وهناك ستطلب للزواج فتاة اسمها حليلة وستمنح لك، إن شاء الله، ابناً سمّه سيدي عبد السلام وسيمنحك هذا الابن سلالة طيبة الأعراق. لم يتأخّر جدّي الأول في تنفيذ هذه الرؤيا، فعاد فوراً إلى منطقة سّرّسو وتزوَّج جدّتي الأولى التي أنجبت جدّي حاج عبد السلام ظريف. وبما أنّ جدّي الأول حاج مولاي الطيب كان متقدّماً في العمر حين زواجه، فقد توفي تاركاً ابنه صاحب العامين فقط، فتولّت عائلة جدّتي تربية الطفل في زاوية سيدي أمحمد بن عمر حيث درس القرآن والسنة وتزوَّج جدّتي الزُهرة التي أنجبت له ثلاثة عشر طفلاً، منهم أبي أحمد. للإفادة أذكّر بأنّ الروايا، وإلى غاية القرن التاسع عشر، كانت تمثّل مراكز النظام التعليمي : تُدرّس فيها علوم اللغة والقانون والفقه والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والطب.

هكذا، وبعد أن أتمّ أبي تعليمه الأول في مسقط رأسه، انتقل إلى تلمسان لمواصلة دراسته في زاوية سيدي بومدين، فأقام بها سبع سنين قبل أن ينتقل إلى مدرسة ابن شنب قرب ضريح سيدي عبد الرحمن في الجزائر العاصمة ليُتمّ تعليمه والحصول على الشهادة التي ستسمح له بممارسة مهنة القاضي، تلك المهنة الشريفة التي يصعب الوصول إليها. ولكي لا تقف الإدارة الكولونيالية في وجهه، فقد تابع - بالموازاة مع تكوينه في مختلف مراحل القانون الإسلامي - تكويناً جامعياً في كلية الآداب بجامعة الجزائر وتخرّج

في حضن العائلة

منها بشهادة. ينبغي القول بأنّ أبي كان علامة كبيرا، يملك معرفة مزدوجة عميقة. فبعد هذا التكوين الطويل، تقلّد أبي جميع المناصب القضائية، وتدرّج فيها الواحدة تلو الأخرى، عون، عادل، باش عادل، قبل أن يُصبح قاضيا.

• سلالتي من أمي

إذا كانت سلالتي الأبوية تستمد سلطتها وأهميتها في السّلم الاجتماعي من إشعاع زاويتها، فإنّ عائلتي من أمي تتمتع، هي الأخرى، بوزن ديني واقتصادي. إنّ جدّي من أمي، جلّول بن زيان، ينحدر من الزينانيين المنتسبين إلى زاوية سيدي أمحمد بن شُعيب في سيدي الحُسنّي قرب مدينة تيارت. كان يشرف على ثروة عظيمة، تتشكّل من مئات الهكتارات من الأراضي الخصبة، ومن آلاف من رؤوس الغنم والأبقار والأحصنة. كان جدّي من أمي متعدّد الزوجات، وكانت جدّتي « عَرَبِيَّة » زوجته الأخيرة وهي مشهورة بجمالها الكبير، أنجبت معه بنتا وحيدة وهي أمي « سَعْدِيَّة »، قبل أن تُطلّق، إذ لم تتحمّل مشاكل تعدّد الزوجات وتسلّط زوجها. كانت تنحدر هي أيضا من عائلة ثرية، فرأت أنها لن تخسر الكثير عند طلاقها. كانت أمي محبوبة ومدلّلة من العائلتين اللتين لقننا إياها ثقافتهما وتقاليدهما وربّتاها بشكل أضحت هي الحارسة والمدافعة والمروّجة لهاتين الثقافتين بمختلف تفرعاتهما، وهو ما فعلته بتفانٍ إلى آخر رمق من حياتها. كانت، على سبيل المثال، تفرض علينا أن نحفظ عن ظهر قلب شجرة سلالتنا حتى قبل أن نبدأ تعليمنا الابتدائي. كما احتفظت أمي من أصول عائلتها المنتمية إلى كبار أثرياء ملاك الأراضي بحسّ نافذ لتسيير الأعمال والتجارة انطلاقا من بيتها، حيث كانت فعلا سيّدة الأماكن والعقول، تمكّنت من تسيير أعمالها المشكّلة من أراضٍ

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

فلاحية وقطعان من الغنم وأنواع متعدّدة من التجارة . وكان أخي عبد القادر، ابتداءً من سنه العاشرة، وسيطها مع مختلف شركائها. لقد علّمته أسرار المهنة وحرصت على أن يُمارسها بالصرامة اللازمة والمهنية المدهشة. ولم يكن أبي يعلم – هو القاضي المنشغل بقانونه وأدبه، والذي يمقت بطبيعته ضغوطات الحياة المادية – أنّ كثيرا من الأعيان الذين كان موثّقهم وناصحا لهم هم شركاء في الأعمال مع زوجته التي لا تغادر البيت أبداً .

أنجب والديّ ثمانية أطفال : خمسة ذكور وثلاث إناث . صُنِفْتُ الثانية في الترتيب العام، ولقد جئت إلى الحياة بعد قرن وأربع سنين من احتلال بلادي . قضيت طفولتي في بحبوحة مادية، ومغذاة عاطفيا وثقافيا من سلّاتي عائِلتي أبي وأمي، وذلك بفضل معلّمتي العظيمة الأولى ألا وهي أمّي . أدركت مبكرا من أنا وأين أوجد : جزائرية في بلدها . كما أنني أدركت بأنّ أرض بلادي محتلة بمعنى الاغتصاب والسرقة، وأنّ « الرومي » كان هو المغتصب وهو اللصّ . كنت أعيش في كل لحظة مع هذا الوعي الحاد، بحيث التصق بي كالجلد على جسدي، أو كالدم في عروقي، وكان يحياّ معي كنبضات قلبي، ينغزني في كل لحظة . حينما كنت، وأنا طفلة، أذهب في قافلة أمي وخالاتي وعماتي لزيارة الوليّ الصالح، ونحن نقطع الحقول الشاسعة الممتدة على مرأى البصر، تشرّح لي النساء بأنّ هذه الأراضي في حقيقتها ملك لهذه القبيلة أو تلك وقد سُلِبَتْ منها لثُمنَح لهذا الكولون أو ذاك... ومع هذا الخبر المحزن، كنت أتلقي أيضا أخبارا عن تاريخ بلادي وجغرافيتها وطبيعتها مجتمعتها، كما كانت أمّي تشرح أيضا، بمناسبة زيارة الطبيب الأوربي لأبي المريض بالحمى، لماذا تظهر أمامه في حين تختفي عند حضور الرجال المسلمين . إن الطبيب باعتباره « رومي »، أي من دين يختلف عن ديننا، فمن المستحيلات السبع أن تفكر في أن يكون يوما زوجا لها، أو أن تقوم أية علاقة ممكنة بينها

في حضن العائلة

وبينه، وانطلاقاً من ثقافتها الراسخة، كانت أمّي تضع هذا الطبيب في رتبة الخدم الخصيان، وقد تفهمون أنّ أمّي ومعها جميع نساء العائلة، قد لعبن دوراً حاسماً في كيفية تشكّل ما كنت سأصّبحه مستقبلاً،. ولهذا أعبرُ لهن الآن عن امتناني وعرفاني الأبديين.

• ما يخص أمّي

تربّي جدّي من أبي الذي تيّمّ في عامه الثاني مثلما أشرنا أعلاه عند خاله حاج طاهر، قائد زاوية سيدي عباس بن عمر ومن قبيلة أولاد قريش. ذات يوم، وهو يزور صديقه حاج جلول بن زيان، شاهد خال جدّي من أبي طفلة تلعب في ساحة الدار. كانت سَعْدِيّة الصغيرة، وهي في السابعة من عمرها، جميلة تنبض بالحياة وحسنة المعاشرة، فقد أدّت واجب الاستقبال والضيافة كما ينبغي لصديق أبيها الذي تراه لأول مرة. أدهش سلوكها الفطن حاج طاهر الذي أُعجب بها، فوضّع يده على رأسها، ثمّ التفت إلى صديقه، وخطب الطفلة لقريبه أحمد، فتى في الثالثة عشرة من عمره، وهو لا يزال طالباً. لم يكن من الممكن لأب سَعْدِيّة أن يرفض طلباً جاءه من صديقه حاج طاهر. ينبغي القول بأنه من الناحية الاقتصادية، يُعتبَر هذا الاتحاد غير متكافئ، وفي غير صالح حاج جلول. بالفعل، فلقد كان والد سَعْدِيّة من أكبر أعيان المنطقة ومالكاً لأراضٍ شاسعة وقطعان غنم بعدد لا يُحصى، فيما يستمد حاج طاهر وعائلته شهرتهما من مجد ونبل سلالتهما فقط. مرّت خمس سنوات، وفيما كان أحمد، صاحب الثامنة عشر، يواصل دراسته بزاوية سيدي بومدين بتلمسان، استقدم جدّي من أبي إلى العائلة الزوجة الموعودة كي تتعوّد على العيش وسط عائلة زوجها المقبل. لم تكن قد وصلت إلى البلوغ بعد، ولا تزال تلعب بالدمى ولا تعرف أنها غيّرت المنزل لتتزوج

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وتتحمل مسؤوليات ثقيلة تفوق سنّها. هكذا قضت السنوات التي تفصلها عن سن البلوغ تلعب مع قريناتها من فتيات عائلة « ظريف » في الوقت الذي تعمل نساء الدار على تلقينها أبجديات الحياة الزوجية. عند بلوغها، احتفلت العائلتان بزواج الشابين في عرس كبير وكان ذلك في سنة 1930، علماً بأنّ والدي واصل مزاولة دراسته بعد زواجه ولم يكن الزوج الحديث العهد يلتقيان إلا في العطل المدرسية. عاش والدّي وفق هذه الطريقة مدّة ستّ سنوات : أبي يدرس في تلمسان، ثمّ في الجزائر العاصمة، وأمّي عند أهله. وخلال هذه السنوات الستّ، أنجبت أمّي طفلتين توفيتا، وأخي محمد وأنا. هناك حادثة ينبغي الإشارة إليها لأنها تبين طبع أمّي العنيد والحازم وكذا شخصيتها القوية. فمنذ زواجها، تعود جدّي من أمّي، حاج جلّول، على زيارة ابنته كل يوم اثنين الذي كان يصادف يوم السوق الأسبوعي ويهدي لها في كل مرة حلية ما. وقد أثار تدفق هذه الهدايا المتميّزة غير نساء عائلة زوجها، فطفقن يستصغرن من قيمة الحلّي وينتقدن سوء ذوق جدّي. فكانت أمّي تُرجع الهدايا إلى الصائغ بعد يوم فقط من تلقّيها من أبيها. ولم يكتشف جدّي هذه اللعبة إلا بعد مُرور بضعة أشهر. إذ جاء ذات اثنين، في زيارة مباغتة إلى عائلة ظريف ليفاجأ بابنته المدلّلة وهي ترزح تحت ثقل غسيل الملابس العائلية. اعتراه غضب شديد أمام هذا السقوط الاجتماعي والاقتصادي لابنته المتعودّة على خدَم وحشَم يُلبّون طلباتها عند أول إشارة. فقرّر فوراً الرجوع بها إلى بيته برفقة طفليها، وهو يصرخ في وجه عائلة ظريف : « لقد أعطيتكم بنتي المفضلة وليس خادمة ». تبعنا، أخي محمد وأنا، أمنا وعشنا مدّة شهور فيما بدا لنا جنة، ونحن نركض في رحاب الدار الكبيرة الغاصة بالموّن والأحصنة والخرفان وجميع أنواع الحيوانات الأليفة. تغيّرت وضعيتنا جذرياً بكل ما يمكن تصوّره من توفير خيرات وخدمات مضمونة. وبعد أن

في حضن العائلة

أنهى أبي دراسته في العاصمة، جاء يسترجع زوجته وطفليه. وقعت أمي، صاحبة العشرين سنة، المرتبطة أشد الارتباط بوالدها وعائلتها، وكذا بزوجها وطفليها، في مأزق حقيقي، لأن أباهما حذرهما من العودة إلى زوجها وعائلته، وأنه سيقطع علاقته بها إن فعلت. فلم تتردد أمي، برغم ضغوط عائلتها التي انهالت عليها، فاختارت زوجها وطفليها. وهو ما كان يُعتبر في تلك الفترة فعلا شجاعا وحداثيا مؤكدا. وأدى هذا الخيار بأبي إلى أن ينفصل بدوره عن عائلته الكبيرة، فاختار الاستقرار مع زوجته وطفليه في مدينة تيسمسيلت، « فيالار » في العهد الاستعماري، ليؤسس حياة زوجية بعيدة عن العائلتين. كان الاختيار ثورة ضد تقاليد التنظيم الاجتماعي السائد. خرج والدائي من العائلة الموسعة حول الجد الأكبر ليدخلا في العائلة الصغيرة، مع حرصهما على عدم الابتعاد الكلي عن النموذج الثقافي للمجتمع التقليدي. في تيسمسيلت (فيالار)، سجلني أبي في المدرسة الابتدائية حيث حفظونا أناشيد تمجد بحياة ماريشال أجهل عنه كل شيء، وحتى لغته. لقد كنت « العربية » الوحيدة في القسم. كل صباح، أفلد زملائي : أقف مستقيمة مقابل راية لا أعرفها، كما أجهل ما ترمز إليه، وأكرر معهم : ماريشال نوفواسي دوفأنطوا... ».

حينما أعود إلى البيت، أحكي لأمي كل ما تعلمته في المدرسة، فكانت تقوم بنفض ثقافي حقيقي، وتشرح لي الأمور وفق رؤيتنا. شرحت لي بأن الراية هي لبلد أجنبي يسمى فرنسا، وأن الماريشال رئيس الفرنسيين، أما نحن، فإننا جزائريون وبلدنا الجزائر. كما شرحت لي بأن الفرنسيين محتلون لبلدنا وأنهم غرباء عن أرضنا، عن شعبنا، عن ديننا، عن لغتنا، عن ثقافتنا، عن تاريخنا... وتنطلق في وصف ساحر، يليق بأجمل حكايات السلاطين والأميرات، لحياة أجدادنا، من أقدمهم إلى أقربهم منا. هكذا، في عامي السادس، حينما كنت أعود بعد الزوال من المدرسة الابتدائية لفيالار،

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

كنت أعرف بأنني أسافر يوميا بين عاملين مختلفين تماما ومتضادين، عالم أمّي وعالم المدرسة الفرنسية. في البيت، بالداخل حيث تتسّد أمّي، أعيش الجزائر الكلية والشاملة، بعاداتنا وتقاليدها ولغتنا (العربية) وديننا (الإسلام)، وطريقتنا في العيش وفي الوجود، تاريخنا، أجدادنا، وكذا أساطيرنا. وفي المدرسة، بالخارج، تتسّد فرنسا بلغتها ورايتها ودينها وتاريخها وأساطيرها. في المدرسة الابتدائية، ولمدة خمس سنوات، كنت الطفلة « العربية » الوحيدة بضميرتها الضخمتين الطويلتين وتنانيرها الطويلة التي تتجاوز الركبتين بكثير بين حشد من الأوروبيات الصغيرات، بدا لي عددهن ضخما جدا، بشعرهن القصير، وتنانيرهن التي لا يتجاوز طولها الركبتين – وحينما كن ينحنين، تظهر مؤخراتهن الملفوفة في كيلوات صغيرة بيضاء – وجوارب بيضاء وأحذية « باليرين » سوداء. كان الاختلاف بين هذا الحشد وبينني يصل حتى إلى طبيعة اللمجة التي نتناولها على الساعة العاشرة في ساحة المدرسة : يُخرجن حلويات من نوع « البريوش » و« الكرواسان » ورغائف خبر بالشوكولاتة، وبالنسبة للأقل ثراء، يتناولن خبزا باريسيا بالمربي أو بأنواع أخرى من التحليات المنبثقة من نموذج الاستهلاك الأوروبي. أما فيما يخصني، فأخرج حلويات من نوع « المقرّوط » أو « لمبرجة » أو « لمسمّنة »، وعندما لا يكون لدى أمّي الوقت الكافي لتحضيرها، فتكون لمجتي عبارة عن خبز « المطلوع » مدهون بالعسل المحلي. لفترة طويلة، لم أفهم لماذا ولا كيف تفضل زميلاتي أكلتي عن أكلتهن، مرّ وقت طويل قبل أن أكتشف بنفسني بأنهن محقات بتفضيلهن « المسمّن » الذي تعجنه أيادي خبيرة ولا يمكن شراؤه من المخازن العمومية. كان صعبا على طفلة أن تعيش، داخل عالم غريب، وحيدة ومختلفة عن الجميع. ومع ذلك، أتممت سنوات دراستي الابتدائية بامتياز، بحيث اقتسمت المرتبة الأولى خلال جميع تلك السنوات مع زميلتي روزلين فارسيا، التي كنت أعتبرها صديقة لي

في حضن العائلة

إلى أن ظهرت نتائج مسابقة الدخول إلى « السيزيام »، كان امتحانا مصيريا لأنه يسمح بالمرور من مرحلة دراسية إلى أخرى، من الطفولة إلى المراهقة، وأنه يعني بالنسبة للبنات خاصة المرور إلى البلوغ وسنّ الرشد، الذي يبكر عند الإناث قبل الذكور. كنا في المدرسة يوم الإعلان عن النتائج، فكنّت أنا، زهرة ظريف، ابنة القاضي، ضمن الناجحين الأوائل في كامل المنطقة، وبناتج تمنح لي حق الدخول إلى أحسن ثانوية، ثانوية « فرومانتين » بالجزائر العاصمة، أما أفضل صديقة لي، روزلين فارسيا، ابنة خباز فيالار وتلميذة ممتازة، فقد رسبت !!! فنسيّت أن أكون سعيدة، وكنّت حزينة لمآل صديقتي، فانشغلت صادقة بمواساتها، بل أكثر من هذا، كنّت وَجَمَة كبقية زملاء المدرسة، ربما أكثر... ولكن روزلين كانت حزينة، لا تقبل عزاء أحد. في الرابعة زوالا، وقبل أن نفترق بقليل للعودة إلى البيت، قلت لها وأنا باكية : « أتعرفين، روزلين، بأن الجميع يعرف بأنك تلميذة ممتازة، وأنّ ما حدث لك يمكن أن يحدث لأفضل التلاميذ، وسترين، في السنة المقبلة، ستنجحين وستكونين على رأس القائمة ». أجابتنى روزلين : « ولكن زهرة، لا يتعلق الأمر بهذا، أنتِ لم تفهمي... كيف سأشرح لأمّي أنك أنتِ نجحت وأنا لم أنجح ؟ لن تفهم أبدا أن زهرة، العربية، تنجح وأنا أرسب ». ذهلت وبقيت صامتة من خوف أنني لم أفهم قصدها، أو أنني فهمت أكثر مما ينبغي... جفّت دموعي، حدّقت فيها جيّدا وقلت لها : « طيّب ! ما عليك إلا أن تشرحي لأمك أن العرب مثل زهرة هم الذين اخترعوا الحساب ».

أبدا، لم تبد لي المسافة الفاصلة بين المدرسة والبيت طويلة مثل ذلك اليوم. في ثوانٍ قليلة، فقدت في آنٍ واحد، أفضل صديقة لي وبراءتي. أدركت فجأة أنّ لا شيء يجعلني مساوية لروزلين الأوروبية، لا نتائجي الجيدة خلال كامل مساري الدراسي، أي جهودي وقدراتي في استيعاب اللغة والثقافة الفرنسيّتين، ولا أصولي الاجتماعية الأكثر رفاهية من روزلين، ولا حتى

مُذْكَرات مُجَاهِدَة من جيش التّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

صداقتي النزيهة معها . بجملة بسيطة ، أرجعتني إلى وضعي العربي . حينئذ ، ركضت مسرعة نحو أمّي ، بوصلتي في الصحراء ، معلّمي في الزوابع .

في البيت ، فهمت أنني كدت أحرم نفسي من سعادة كبرى أستحقها . قامت أمّي ، بحنكته المعهودة ، بتدارك الوضع . نادت على الخدم ، وجميعهن من النساء ، فاطلقن زغاريد مدوّية ، وقرّرن معا تحديد تاريخ الاحتفال بنجاحي .

وكعادتها دائما ، تكفلت أمّي بجميع التفاصيل ، بما في ذلك شرحها لي للمعنى الذي ينبغي أن نعطيه لنجاحي : إنه النجاح المستحق الذي جاء يكمل الجهود المتواصلة لابنتها ، ولكن بالأخص نجاح بنت مسلمة . فمن خلال نجاحي ، أرادت أن تشرح لمعارفها وعائلتها الكبيرة أن مبادرة زوج ظريف هي الجيدة : فمن الضروري تربية وتعليم البنات . استغلت الفرصة لتشرح لي أيضا أسس النظام الصارم الذي أخضعتني له دوما ، ففي نظرها ، ينبغي أن يكون سلوكي وعملي لا غبار عليهما ومن جميع الزوايا كي أستحق أن أصبح النموذج الذي تحلم به العائلات الجزائريات ، وبالأخص صديقاتها في علاقاتهن مع بناتهن . قالت لي أيضا : « زهرة ، يجب أن تكوني المفتاح الذي يفتح الأبواب لجميع الفتيات الأخريات » في تلك الأمسية ، كنت في الآن نفسه سعيدة ومرعوبة ، سعيدة بنجاحي ، وخاصة برؤية أمّي تفتخر بي وتعلنه للملأ ، هي المعهودة بالصرامة ومتطلباتها العسيرة التحقيق ؛ مرعوبة لأنّ أمّي تكلفني ، أنا ابنة الحادية عشرة ، بمهمة ثقيلة على كتفيّ النحيلتين ، بدت لي حوافها مضبّبة ، وبها مسؤولية ظهرت لي مخيفة . بعد سنوات من ذلك اليوم ، سمحت لي المراهقة والثانوية والمناقشات مع والدي القاضي بفهم مغزى ما أرادته أمّي .

• ما يخصّ أبي

ومثلما ذكرت سابقا ، كان أبي عالما كبيرا باللغتين العربية والفرنسية . لقد تابع جميع أطوار التكوين في القانون الإسلامي : قضى سبع سنين

في حضن العائلة

في مدرسة سيدي بومدين بتلمسان وسنتين في مدرسة ابن شنب بالجزائر العاصمة . كنت دوما قريبة من والدي، كنت فخورة بأنّ لي أبا مثل هذا الرجل الوسيم الذي يحترمه الجميع باعتباره قاضي المدينة، ولكن أيضا لأنه معروف بكفاءاته، واستقامته وقدراته، وهو القاضي، على التواصل مع الناس وسماع انشغالاتهم . كان أبي رجلا عادلا، ويُنظر إليه كذلك . أوصلت هذه الخصال الإدارة الاستعمارية إلى نعته بـ « القاضي الأحمر » . كان معجونا بالجزائر وأرضها وشعبها وتاريخها وثقافتها، وله معرفة عميقة وصحيحة لجميع « العروش والقبائل » وسلالاتها وذريتها وأماكن أصولها وأهمية خيراتها أو اتساع فقرها، كما كان أبي عادلا وصارما في معالجة قضايا زبائنه في الخارج، كما في البيت مع أبنائه وعائلته، فلم أرَ أبي يمارس تفريقا في تعامله مع بناته وأولاده، وقد أسند تربية أبنائه الثمانية لزوجته، لأُمّي .

بل ذهب أبي أبعد من هذه المساواة، أدركتُ ذلك بعد سنوات، لقد مارس تمييزا إيجابيا تجاه بناته . هل فعل ذلك لأنه مدرك لظلم المجتمع للمرأة ؟ بكل تأكيد ... أصرّ، هو الذي كان يمقت الظلم، على إبعاده عن بناته . في هذه النقطة، أعترف بأنّ أُمّي هي أيضا كانت تقول لنا دوما : « لا أريد أن يكون مصير بناتي كمصيري » . أما بالنسبة لدراستي وتكوينني، فكان أبي معلّمي ومكرّري في القراءة والفكر النقدي، وبالأخص مرشدي حينما كان يستوجب عليّ الاختيار .

ذات مساء، رجع أبي إلى البيت فوجدني باكية أمام كرسي وكتابي في مادة التاريخ . شرحتُ له أنني أبكي « رولان الشجاع » الذي أصابه جرح مميت ارتكبه « السارازيون » الأشرار، وكيف تمدّد على صخرة برغم جروحه العميقة، فنفخ في بوقه والسيف بيده ليخبر الإمبراطور شارلماني . كنت أبكي رولان وكلّي كراهية لأولئك السارازيين القساة، متمنية أن يقطع شارلماني

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أجسادهم إربا إربا. وحينما انتهيت، وسط شهيق، من شرحي سبب دموعي لأبي، انفجر ضاحكا، ثم جلس بجانبني وقضى كامل الأمسية وهو يشرح لي من هم السارازيون، وكيف يجب أن أقرأ وأفهم دروس التاريخ التي تُلقى علينا في المدرسة. بفضلته، عرفت أن « السارازين » هم أجدادنا الذين حاربوا شارلماني للدفاع عن حقوقهم وممتلكاتهم في ظروف تلك المرحلة. استدل بأمثلة عديدة ليفهمني بأن نفس الأحداث التاريخية يمكن أن تُحكى بكيفية مغايرة، حسب مصلحة الذي يحكيها. أعتقد أن إلحاح أبي وتكراره الدائم لدروسي، سببه هذه الحادثة. كان يعرف بأنني لن ألتقي في النظام المدرسي الاستعماري إلا تاريخ فرنسا في طبعته الأكثر كولونيالية. لهذا السبب، وإلى غاية البكالوريا، كانت جميع دروس التاريخ التي ألتقاها في القسم، يعيد أبي تلقينها لي معلّقا ومحلّلا. وكانت النتيجة أنني أدركت مبكرة أنّ هناك حقيقة أخرى، غير تلك التي نتعلمها في الثانوية، حقيقتنا نحن الجزائريين، التي تختلف عن حقيقة الفرنسيين. لا يمل من التكرار : « من تعلّم لغة قوم أمن شرهم ». لن أشكر أبي أبداً بالقدر الكافي لأنه علّمني الفكر النقدي ومميزاته.

مع توالي السنوات، أدرك بأنه لو لم يكن أبي في المكان الذي كانه أو لو كان فقط غائبا، سأكون في أحسن الحالات مندمجة كلية في ثقافة فرنسا وفي خدمتها ؛ ذلك أنّ كامل النظام التربوي لا يكون إلا من أجل فرنسا وفي خدمة فرنسا. وفي أسوأ الحالات، كنت سأكون مزدوجة الشخصية. أنقذني أبي من الموقعين المساويين. في نهاية المطاف، اعتبر اليوم بأنه كان مكوّني الأول في السياسة، وحينما حانت لحظة اختيار في أيّ ثانوية كان ينبغي أن أواصل دراستي لتحضير البكالوريا والالتحاق بالجامعة، كان أبي هو الذي ساعدني على اختيار ثانوية فرومانتين بالجزائر العاصمة، المشهورة كأفضل ثانوية. لو

في حضان العائلة

ترك الأمر لي ولأمي لاخترنا ثانوية مليانة، الأقرب إلى منزلنا بفيالار، مما كان سيسمح لي بزيارة العائلة كل نهاية أسبوع، ولكن أبي أقنعنا بأنه يريد إعطاء ابنته جميع حظوظها، ابنته أحسن تلميذة في فيالار، أن تدرس في أكبر ثانوية في الجزائر. « إنَّ بُعد ثانوية فرومانتين لا يشكل عائقاً أبداً، سأرافق ابنتي عند كل دخول، وكل عطلة. ستعيشين ضمن النظام الداخلي، وسيكون لك وسيط في شخص صديقي حاج حمّو، ترجمان لدى محكمة الجزائر العاصمة، وأصله من مليانة، وبالتالي من منطقتنا»، هذا ما قاله أبي، وهكذا اطمأنت أمي لأنها تعرف عائلة حاج حمّو، الرجل المحترم وذو السمعة الطيبة. أنا أيضاً، وتقليداً لمولود فرعون، أقول بأنني أتذكر يوم دخولي المدرسة كما لو أنّ ذلك حدث بالأمس فقط، كانت الأحداث جديدة كلية بالنسبة لي. لأوّل مرة أخرج من محيط فيالار- تيارت، ولأوّل مرة أستقل القطار ولأوّل مرة أكتشف الجزائر، عاصمة بلدي، الجزائر.

الفصل الثاني اكتساب الوعي

• الثانوية

بدأت قصتي مع ثانوية « فرومانتين » بالطلب الذي قدّمه أبي وتسجيلي والجواب الإيجابي المرفق بشروط الدخول، منها قائمة الألبسة الضرورية، « الجهاز » أو « التروسو » مثلما يسمّى، التي ينبغي أن تحمل كل قطعة منها رقمي بالداخلية : 175. قضينا، أمي وأنا، الصائفة بأكملها في اقتناء المشتريات اللازمة، ثم في الخياطة وطرز الرقم على جميع ما أحمله معي : بطانيتان، زوجان من الجوخ ذي المكان الواحد، اثنتا عشر « كيلوتّة » قطنية بيضاء، ثلاث قمصان نوم بأكمام طويلة، ثلاثة مآزر بأكمام طويلة، إلخ... في عشية الذهاب، وبعد أن رتّبنا جميع المستلزمات في الصندوق الكبير الذي اشتراه أبي خصيصاً، تكفّلت أمي بتحفيظي آخر النصائح والتعليمات. ما يعني أن لا أنسى أنني جزائرية، مسلمة، وأنحدر من سلالة قبيلتين كبيرتين، سواء من حيث الأب أو الأمّ، وابنة السيّد ظريف، القاضي المبجل، الذي ينبغي أن أدافع عن رتبته وشرفه مهما حدث. ولا أنسى خاصة أنني فتاة، وبالتالي فأنا ملزمة بسلك سلوك لا يرقى إليه الشك، وأنني لست مسؤولة عن مستقبلتي فقط، وإنما عن مستقبل الفتيات الأخريات سواء كنّ من العائلة أو من المنطقة.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

فلم يغمض لي جفن في تلك الليلة لهول المسؤولية الملقاة على عاتقي، يربعني المجهول الذي أنا ذاهبة إليه.

عند بزوغ الفجر، غادرنا البيت العائلي لنلتحق بمدينة أفروفييل (خميس مليانة اليوم) ونركب قطار وهران - الجزائر. لأول مرة أقطع المنطقة في هذا الاتجاه، فاكتشفت الأراضي الشاسعة، والمدن والقرى مثل بورباقي (خميسي اليوم) وثنية الحد بغابتها المشهورة بأشجار الأرز. على الساعة العاشرة، ركبنا القطار، لتبدأ عندي رحلة الاكتشاف الحقيقية. أنحدر من منطقة الهضاب العليا التي يسيطر عليها اللونان الأصفر والأحمر، فأصل عند سفح جبل زكار، وأعبر هذه المناظر الرائعة المكسوة بالاخضرار، المتموجة إلى غاية حمام ريغة كي تنفتح على سهول المتيجة ببساتينها، وحدائق البرتقال والمندرينة، التي تحميها حواجز مكسرة للرياح في خطوط مستقيمة من أشجار الزان. طبعاً كنت أمر من أصفر الهضاب العليا إلى سمفونية حقيقية للأخضر. كان ذلك السفر بمثابة تعليمي الأول وفرصة لوضع مناظر حقيقية، ولو أنني مررت عليها مرور الكرام، أما الأسماء فكنت على علم بها : جبل زكار، البلدية، المتيجة، إلخ... عبرت هذه المناظر وأنا واقفة في الرواق، رأسي على النافذة، وأنا منبهرة من العجب العجيب الذي يسحرني، زيادة إلى إيقاع هدير القطار. كانت الألوان تتغير مع تغير كثافة التضاريس وطبيعتها. كلما اقتربنا من الجزائر العاصمة، كانت المساحات أكثر اخضراراً، والمدن أكثر عدداً وأكثر تقارباً، والبنيات أكثر مهابة. كنت لا أزال في انبھاري حينما أطلّ عليّ امتداد عظيم أزرق يكاد يلامس بصر الطفلة الصغيرة التي كنت : البحر. انقطعت أنفاسي، اتسعت عينيّ، ولم أعرف كم وقتاً بقيت منذهلة في مواجهة هذه اللوحة الزرقاء، والتي تتألأ بألف انعكاس لأشعة شمس سبتمبر، وتلك الأمواج الآتية المنسحبة، والتي تبدو على شكل قطيع غنم حينما

اكتساب الوعي

نراه من بعيد . وبعد ذلك، دخلنا محطة كبيرة تعجّ بالمسافرين وضجيجهم، محطة الجزائر المركزية. هزّني أبي ليقول لي أننا في الجزائر العاصمة. الجزائر، الدزاير !!! سألت أبي وأنا حزينة : وأين البحر ؟ لقد اختفى... هل سنراه من جديد ؟ طمأنني أبي، وهو يستعجل إنزال الأمتعة، وأخبرني أن مفاجأة سارة تنتظرني عند الخروج من المحطة. بمساعدة حمّال، اتخذنا المصعد الذي يؤدي إلى واجهة البحر، وساحة « بريسون » (بور سعيد)، وهناك وفي أبي بوعده وقدم لي وقفة جميلة. في تلك الساعة من الزوال، كانت أشجار الساحة تغزوها أسراب من الطيور، غطّت بزقزقاتها ضجيج سيارات الشارع الكبير. كان البحر عند قدمي ويحطّر الجوّ بروائح. أصبت بذهول لا نظير له، ينبغي أن أعترف أنني، وطوال حياتي، سأعرف في كل مرة أصل فيها إلى الجزائر العاصمة الدهول نفسه والسحر نفسه. وبعد ذلك، اكتشفت العمارات الأوربية الشاهقة والشوارع العريضة والترامواي الذي يعبرها، وعلى أمتار قليلة ترتفع مئذنتا وصومعتا المسجدين، الجامع الجديد والجامع الكبير، الشاهدان القريبان الوحيدان بأن الجزائر كانت مسلمة. وبعد ذلك، أدخل لأوّل فندقا، واكتشف لأوّل مرة غرفة بسرير واحد على الطريقة الأوربية. أفهمني أبي بأننا سنرتاح قليلا قبل أن نخرج لنتعشى في مطعم. لم أكن أعرف كيف هو المطعم ! استرحنا قليلا، ثم خرجنا ومشينا طول الواجهة البحرية لنصل أمام عمارة بدت لي ضخمة جدا ومهيبة وبها مدخل غريب : فندق « أليتي » (السفير اليوم) وبابه الدائري. لقد ولجت عالما آخر أجهل عنه كل شيء. وجّهونا باتجاه صالة المطعم حيث كانت تنتظرنا الطاولة التي حجزها أبي. كنت متعودّة على « المائدة »، تلك الطاولة الواطئة، الموضوعة على السجاد، تحيطها أفرشة، فوجدت نفسي أمام طاولة عصرية، يغطيها سماط، وعليها صحون ومستلزمات الأكل الأخرى... فشرح لي أبي كيفية استعمال السكين

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

والفرشاة واقترح عليّ أن أقُلِّد حركاته . اكتشفت أن اختلافاتنا مع الأوروبيين لا تتوقف عند الطبخ ونوعية أطباقه، وإنما تتعدى ذلك إلى طريقة الأكل . عملت جاهدة على تقليد أبي لأنّه أفهمني بأنني سأفعل كذلك في الثانوية .

في صباح الغد، ساعدني أبي على إعادة تشكيل ضفيريّ الطويلتين . وبما أنّ موعدنا مع الثانوية كان على الساعة الثانية زوالاً، فقرّرنا تخصيص الصبيحة لأحد طقوسنا المقدّسة، ألا وهو زيارة ضريح ولي المدينة الصالح، سيدي عبد الرحمن . أبهجتني تلك المبادرة السارة لأنني، ومنذ وصولي إلى « الدزاير »، وباستثناء المسجدين وبعض المارة القلائل الذين بدوالي عرباً ومسلمين مثلي، كنت أتحرك في فضاء أوربي في أغلبه وبين وجوه أجنبية عنّي . وحده أبي كان إلى جانبي، يطمئنني ببرنوسه وشاشه الجميل ويشعّرنني بأنني كنت في أرضي وبلدي، برغم العيون الفضولية التي تنحط عليّ والتي تشعّرنني بغربيّتي . غادرنا الفندق، والتحقنا بساحة الحكومة (ساحة الشهداء اليوم)، ثم ثانوية بيجو (الأمير عبد القادر اليوم) وبعد ذلك، سلكنا سلماً جانبياً أوصلنا إلى شارع « مارِنغو » وضريح سيدي عبد الرحمن . هناك اكتشفت، إلى جانب الضريح، بداية مدينة أخرى، كان سور من العمارات الأوروبية العالية يحجبها عنّي، مدينة عربية بعمرانها وأزقتها وساكنيها وضجيجها وروائحها ونظرات أهلها وسلوكاتهم . كنت في بيتي ! إنهم أهلي ! كانوا سكاناً ينطقون من عيونهم، من أبصارهم، وكانت كيفيات تعاملهم دافئة ومتحفظة في آن واحد . أخيراً، ومنذ وصولي إلى « الدزاير »، ها أنا أسمع لغتي العربية في الأزقة، تخرج حيّة لذيذة من أفواه الناس من قومي . إنني داخل قصبة « الدزاير » !!! وبعد أن قرأنا الفاتحة على روح الولي الصالح سيدي عبد الرحمن وتمننا بعض الأدعية، خاشعين، مبتهلين، وتبركنا بروحه الطاهرة، أخذني أبي لأكتشف المدرسة التي أنهى فيها دراسته في القانون

اكتساب الوعي

الإسلامي، مدرسة ابن شنب، المهيبة بعمرانها، وأبوابها المسمرة الضخمة، ورخامها وأعمدتها وفسيفسائياتها المتنوعة. وأقولها بدون مبالغة، كانت تلك الصبيحة أجمل صبيحة في حياتي. ثم أخذنا سيارة أجرة وساح بنا عبر أغلب شوارع العاصمة، مروراً بشارع إزلي، البريد المركزي، شارع ميشلي، قصر الحكومة، فندق سان جورج، ثم « لارودوت » وأخيراً ثانوية فرومانتين. دخل الطاكسي من السياج الرئيسي، وسلك ممراً طويلاً وعريضاً ليتوقف أمام باب عمارة الأمانة العامة للداخلية حيث وجدنا حشداً مكثفاً يتشكل أساساً من سيدات أوروبيات يرافقن بناتهن.

كان لوصولنا أثر جلي، حيث استقبلنا بصمت رهيب ونظرات مندهشة، كنا نتميز عن جميع الحضور خاصة بلباس أبي ووجهته. أي نعم ! عربي وابنته في هذا المكان المخصص للثقافة والمعرفة الفرنسية ! استقبلتنا امرأة أنيقة، السيدة « فناسيا »، رئيسة مراقبات القسم الداخلي. أنجز أبي كامل الإجراءات الضرورية بما في ذلك ملء الاستمارات التي تؤكد على معتقد التلميذة وإن كانت ستأكل لحم الخنزير أم لا. بعد ذلك، وجّهونا إلى الجناح الذي تجمّعت فيه تلميذات « السيزيام » والذي يحتوي على قسمين للدراسة، قاعة الاجتماعات، حجرات وضع الثياب وتغيير الملابس في الطابق الأرضي، ومركدين. وضعنا « التروسو » في مصلحة حفظ الملابس وغسلها حيث تركوا لنا الأدوات اللازمة للاستعمال الأسبوعي وكذا البطانيات والأغطية الداخلية. داخل المرقد، تسارعت الأمّهات، كل واحدة تنافس الأخرى بأنقتها، لمساعدة بناتهن على ترتيب أمتعتهن وسريرهن. كنت الفتاة الوحيدة التي رافقها أبوها وقد أدّى المهمة على أحسن ما يرام. فيما شلّني خوفي من هذا العالم الذي لا أعرفه، تصرّف أبي بثقة وهدوء، وساعدني على ترتيب أمتعتي وتغطية سريري بزوج الجوخ على الطريقة الأوروبية. لقد انتبه إلى هلعي،

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

فهزّني برفق وشرح لي بأنّ أصعب مهمة هي العمل الجاد والنجاح الدائم في الدراسة، مؤكداً بأنني كنت قادرة عليها، وقد سبق لي أن بيّنت قدراتي في المرحلة الابتدائية. أما ما تعلّق بترتيب أمتعتي والنجاح في تغطية السرير، فليس الأمر بالعمل السحري: يكفي أن أشاهد الأخريات وأقلّدهن. بعد تمرين السرير، انتقلنا إلى قاعة الدّرس لأتعرّف على مكاني وخزانتني الصغيرة لترتيب كراريسي وكتبي. كان أبي في ذلك اليوم حريصاً على أن لا يتركني فجأةً بمفردي داخل عالم كان غريباً عنّي وكلي لا أُؤخذ على حين غرّة، فقد رافقني إلى كل مكان وشرح لي جميع التفاصيل اللازمة. وأخيراً، وصلت اللحظة الحاسمة، لحظة الافتراق. كنت مرعوبة حقاً، فبقيت صامتة، خائفة من الإجهاش بالبكاء، مثل الفتيات الأخريات حولي وهن يتشبثن بتلابيب أمهاتهن عند لحظة مغادرتهن. أمّا أبي الذي لم يكن مندفعاً في سلوكه، فقد شدّني من الكتفين وشرح لي بصوت رزين بأنه عليّ أن أكون صبورة، قائلاً: « ستعودين بسرعة على حياتك الجديدة وستقيمين صداقات كثيرة من بين زميلاتك في الدراسة. ثم إنّ بهذه الثانوية أساتذة أكفاء وسيقدّمون لكم دروساً في مستوى عالٍ، وستتعلمين أشياء كثيرة. المهمّ في كل هذا هو أنّ تعملي بجِدٍّ وتنجحي في الدخول إلى الجامعة. إنّي معتمد عليك وثقتي في نجاحك كبيرة ». لم أكن قادرة على التفوّه بكلمة، فلم أقدر على أن أصرخ له بأنني لا أريد البقاء هنا وأنني كنت أريد شيئاً واحداً فقط: الرجوع معه إلى البيت. حينما تخلّصت من ذهولي، رأيت ظهر أبي وهو يغادر الثانوية ليتركني لحياتي الجديدة: العربية الوحيدة في مرقد فرنسي، حيث الجميع، التلميذات والمراقبات، كنّ فرنسيات، بطريقتهن الخاصة في العيش والتعامل، والتي تختلف اختلافاً جذرياً عن عاداتنا وكيفية تعاملنا.

في الغد، بدأت الدراسة في القسم ب، مع العلم أنّ هناك ثلاثة أقسام من مستوى « السيزيام » (السادس) بحوالي ثلاثين تلميذة لكل قسم. كنت

اكتساب الوعي

العربية الوحيدة في دفعتي. شيئاً فشيئاً، اكتشفت أنّ هناك عربية أخرى في قسم «السانكيام» (الخامس)، وأخرى في قسم «البروميوار» (الأول)، وأخرى في القسم النهائي (الترمينال). بعبارة أخرى، حينما دخلت إلى ثانوية فرومانتين في 1947، كنّا أربع عربيات، (أنديجان)، ضمن الـ 2000 تلميذة اللائي يدرسن بالثانوية، أي بنسبة 2 على ألف، أي 0,2 % !!! قضيتُ سبع سنين في هذه الثانوية، وخلال كامل دراستي لم يتعدّد عددنا ثمانٍ تلميذات عربيات. لحظات لا تمحى من الذاكرة، فقد نجحنا بتشكيل طاولة بلا لحم الخنزير داخل المطعم، وكي تتشكّل الطاولة، يجب أن يصل العدد إلى ثمانية. إذا، في أقوى الحالات، كان «الأنديجان» لا يمثلون إلا 0,8 % أي أقل من 1 % من العدد الإجمالي لتلاميذ الثانوية !

بعد أسابيع قليلة من العزلة والحزن، ألزمت نفسي على التأقلم، فقضيت بقية السنة في سعادة الدراسة والمثابرة. بعد صبر مضنٍ، وجهود جبارة للتأقلم، وبفضل مراسلات أبي المنتظمة، انتهى بي الأمر إلى الاندماج والتمتع بالاكشافات المتنوعة التي تفاجئني كل يوم. كان نهاري يبدأ بـ «صالة الماء» حيث كنا نغتسل كل صباح، وبعد ترتيب أسرّتنا وارتداء ألبستنا، ننقل إلى قاعة الدراسة لأخذ الأدوات المدرسية الضرورية لدروس الصباح. وبعد ذلك، نلتحق بالمطعم، متراصفات في صفين، كي نتناول فطورنا الصباحي.

تبدأ دروسنا على الساعة الثامنة صباحاً وتستمر إلى غاية الحادية عشرة والنصف. نتناول غداءنا عند منتصف النهار ثمّ نستأنف الدروس من الثانية زوالاً وإلى غاية الخامسة. ثمّ نلتحق بقاعة الدرس لأداء واجباتنا المنزلية إلى غاية السابعة. نتعشّى على السابعة والنصف مساءً وبعد ذلك نستفيد من نصف ساعة للراحة، ونلتحق بالمراقد على الساعة التاسعة ليلاً. تبقى لدينا ثلاثون دقيقة لمسائل الغسل والتنظيف قبل إطفاء الأنوار. لقد خضعتُ لهذا النظام

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

اليومي لمدة سبع سنين طويلة، تعلّمت خلالها أشياء كثيرة في الكتب وفي اتصالي مع محيطي. كانت أوقاتي المفضلة بكل تأكيد تلك الساعات التي أقضيها في المكتبة وتلك المخصصة للراحة. كانت الأولى تمتعني بسفرياتهما، والثانية تسمح لي بالحديث مع زميلاتي والترويح عن النفس. نتحدّث كثيرا عن قراءتنا وعن الأحداث التي نعيشها أيام نهاية الأسبوع خارج الثانوية. تجدر الإشارة إلى أنني كنت حالة نادرة لأنني كنت أقضي معظم نهايات الأسبوع داخل الثانوية، ولم أكن أغادر الداخلية إلا عند إجبار إفراغ المراقد، كما في عيد العمال (أول ماي) وعيد جميع القديسين (أول نوفمبر). كان مراسلي وعائلته لطفاء جدا معي، ولكنني كنت خجولة ومتحفظة. وكنت، خلال أيام نهاية الأسبوع، أنجز كامل واجباتي المنزلية وأقرأ كثيرا. وعند بداية الأسبوع، كنت أشكل جمهورا ممتازا لصديقتي العائدات من زيارة عائلاتهم أو مراسلهم. لقد تعلّمت الكثير جدا من حياتي في الثانوية ومن تبادل الأحاديث والنقاشات، فعرفت أشياء كثيرة عن حياة الأوروبيين وثقافتهم وطريقة عيشهم، بما في ذلك كيفية تفكيرهم ونظرتهم إلينا.

ذات يوم، بعد عودة صديقتي « أولامب » من عطلة نهاية الأسبوع التي قضتها عند أهلها في قرية برتوتة، حكّت لنا حيثيات أوّل مباراة حضرتها في كرة القدم، كانت مقابلة بين فريق الأوروبيين وفريق « الأنديجان ». وكجواب عن سؤالي أين كانت تجلس وإن كان الجمهور مختلطا، أجابت بعفوية : « آه ! ولكن عندنا في برتوتة، نحن دائما في جهة و » الراتون « (Les rats) في جهة أخرى ». نظرتُ إليها بذهول، مدركة فجأة بأنني كنت، في نظرها وفي نظر صديقاتها الأخريات المشاركات في النقاش، واحدة من « الراتون ». أدركت بسرعة بأنني فهمت قصدها جيّدا، فأسرعت إلى القول : « ولكن، زهرة، أنت لستِ مثل الآخرين ! ». في سني الثالثة عشرة، وبفضل أولامب،

اكتساب الوعي

وآن وصديقات أخريات، فقدتُ ما تبقى من براءتي . عادت إلى ذهني كلمات أمي، تُذكّرني بواقعي : إن صداقتي مع الأوروبيات، مهما كانت صادقة، ستتكَسّر عند جدار التفريق بين وضعيتنا المختلفتين . ولم يمنعني هذا من مواصلة معاشرتهن بل وربط علاقات صداقة مع زميلاتي، دون أن يغيب عن بصري ذلك الجدار المتين . وضع رهيب تعيشه فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، « الأنديجينة » الوحيدة وسط ثلاثة أقسام من الأوروبيات . ينبغي القول بأنّ وضعي كتلميذة نجية في الدراسة ساعدني كثيرا على تحمّل بل وتجاوز هذه الضغوطات، وأتممت سنة « السيزيام » (السادسة) بين الأوائل، مما أسعد عائلتي كثيرا وجعلها تفتخر بي أيما افتخار . في السنة الموالية، سنة « السانكيام » (الخامسة)، غيّر وصول أنديجينة أخرى حياتي وحياتها معًا .

• سامية، صديقتي، أختي

في وسط الثلاثي الأول، عند نهاية درس الرياضة الذي كنت أحبه كثيرا، لاحظت عند حافة الملعب تلميذة متكئة على الجدار الواطئ، تلميذة لم أشاهدها قبل ذلك اليوم، ولكن قسمات وتعابير وجهها، وهيئة جسدها، وبالأخص نظرتها، كل ذلك يشير إلى أنها جزائرية، مثلي . فاتجهت بعفوية نحوها وقلت لها بالعربية : « أنتِ عربية ! » . أجابت هي أيضا بالعربية : « نعم، وأنتِ أيضا ! » تلك هي سامية لخضاري، تلميذة جديدة، والتي ستُصبح من تلك اللحظة أفضل صديقة لي، بل هي نصفي الثاني، شريكتي الدائمة . . . لم أعد وحيدة . أحسّت سامية بأنّها تعود إلى الحياة، هي التي وصلت في ذلك اليوم إلى الثانوية وكانت تائهة ومرعوبة وسط هذا الفضاء الأجنيبي . كنتُ أنا « القديمة »، فأخذتها مباشرة تحت جناحي وطفقت أكشف لها عن جميع أسرار المكان، شارحة لها جميع القوانين المعمول بها، الرسمية وغير الرسمية .

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

بعد ذلك التحقنا بقاعة الدرس، ثمّ المطعم، وأخيرا النادي، ثمّ المرقد، كصديقتين متلاصقتين. هكذا كان يسمّينا الجميع منذ ذلك اليوم : المتلاصقتان، حتى وإن كنا في قسمين مختلفين وإلى غاية مستوى السنة الخامسة ثانوي، أو « الثانية » مثلما كانت تسمّى. كانت سامية لخضاري في سني تماما، تسكن حيّ « سانت أوجان »، وأبوها قاضي « الدزاير ». أمّها قسنطينية وأبوها من بسكرة. حينما حكّت لوالديها، خلال خروجها الأول في نهاية الأسبوع، بأنها تعرّفت على صديقة جديدة، جزائرية باسم زهرة ظريف وأعطت معلومات حول عائلتي ومهنة أبي، أجابها أبوها بأنه على معرفة جيدة بالسيد ظريف قاضي فيلار. هكذا اقترح لخضاري الأب أن يكون مراسلي مع إدارة الثانوية. قبل والدي الاقتراح مباشرة، ومنذ ذلك الحين، أصبحنا، سامية وأنا، نقضي نهايات الأسبوع عندها في سانت أوجين، فأضحى أسبوعنا يتكوّن من قسم في وسط كله فرنسي وهو الحياة في الثانوية، وقسم ثانٍ في نهاية الأسبوع، حيث نسبح من جديد في بيئتنا، في ثقافتنا، في نواميسنا وفضاءاتنا. بمجرد وصولنا إلى البيت، نتخلّص من ألبستنا الأوروبية التي كنا نعيش بها مثل البذل العسكرية، ونستبدلها بفساتين وغنادير أنيقة نتنفس بداخلها بكل حرية. فكنا نغيّر اللغة والطبخ وموضوعات المناقشة. كان كل شيء يختلف عن الثانوية، وإلى غاية روائح الشارع : الياسمين، مسك الليل، ماء الزهر، النعناع، الكُزبور، القرفة، القرنفل... تبدأ عطلة نهاية الأسبوع يوم السبت على الساعة الثانية زوالا وتنتهي يوم الاثنين على الساعة السابعة والنصف صباحا، تتخللها عادةً يوم الأحد : الاستحمام في حمّام سانت أوجين، وتحتاج الزيارة إلى تحضيرات دقيقة قبلية وبعدية، فنأخذ داخل (الصابّة) قفة نبات السوخر، المكسوة من الداخل بقماش الساتان الوردي ومرآة لاصقة بأحد الجوانب، كل المستلزمات، لا شيء كان ينقص : فوطات الدخول والخروج والتجفيف،

اكتساب الوعي

ملابس التبديل، وكذا الزيوت والمراهم وأواني الفخار، دون أن ننسى دلو النحاس وطاساته وقباقيبنا. كنا نعيش تلك الطقوس في أدق تفاصيلها في سعادة لا توصف ونخرج من الحمام نظيفات وناشطات، مستعدات لخوض غمار الأسبوع الجديد. هكذا اكتشفت تقاليد وعادات الدزائر، وكذا تلك الخاصة بقسنطينة، المدينة التي تنحدر منها أم سامية. تعجبني تلك العادات وتبهرنني أناقتها. بعد ذلك، أدركت أنّ هذه العادات تشترك مع عاداتنا في الهضاب العليا من حيث منطقها العام وأسسها وأهدافها وإن كانت تختلف في بعض تفاصيلها. وكان هذا يملأني بهجة ويزيدني ثقة في نفسي.

هكذا قضيت جزءاً من طفولتي ومراهقتي في ثانوية فرومانتين ونهايات الأسبوع في سانت أوجين. سمح لنا تكويننا، وبالأخص قراءتنا المتعددة في الأدب والتاريخ، وأخيراً في الفلسفة، مرفقة بالفكر النقدي الذي علّمنا إياه آبائنا، باكتساب مناهج ووسائل تحليل الوضع في بلدنا.

خلال العطل، كنت ألتحق بعائلتي في فيالار حيث ألتقي أخواتي وإخوتي، وبالأخص أخي « قادر »، هو أيضاً طالب ثانوي في العاصمة. يأخذنا أبي معنا في سيارته وكان لزاماً عليّ أن أرتدي الحايك من أجل السفر، ابتداءً من السن الحادية عشرة. استمرّ الوضع إلى غاية الجامعة. وكانت المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى قريتي برأس سافر وشعري للريح، بعد الاستقلال. كانت الحياة في فيالار، قرية كولونيلية صغيرة تحوطها مزارع شاسعة، تختلف تماماً عن الحياة في الدزائر وسانت أوجين. فلا تترك القرية التي تتشكّل من بعض الإدارات الأساسية الضرورية لحياة المعمرين أدنى مكانة لأية حياة اجتماعية أو ثقافية، ولا لأيّ اختلاط مهما كانت طبيعته. إنّ الأهالي، باستثناء بعض الأعيان الذين لا يختلط أكثرهم بالأوروبيين، مجمّعون على طرف القرية في حيّ جانبي يسمّى بـ « الحيّ الزنجي » (!!!). فكانت عطلي، وبالأخص عطلي

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الصيفية، لانهائية، وكنت مقطوعة عن العالم الخارجي، لولا أنّ أخي عبد القادر كان يزودني بالمعلومات المتنوعة والجرائد. كانت سنة 1954 هي السنة التي نلت فيها البكالوريا. مرّة أخرى، قضيت شهورا طويلة وأنا أنتظر الدخول إلى الجامعة الذي تقرّر يوم 12 نوفمبر. وقبل ذلك بأيام، وبمناسبة عيد جميع القديسين، عاد أخواي قادر وبومدين اللذان لا يزالان يداومان دراستهما في ثانوية بن عكنون إلى البيت. كان « قادر » يذهب كل صباح على الساعة العاشرة لانتظار حافلة الدزاير – تيارت التي تأتي بالجرائد. لا أنسى أبدا يوم 2 نوفمبر 1954، حينما عاد أخي مسرعا، دافعا باب الدخول بقوة، وشاهرا وسط رواق المنزل الطويل الجرائد كما تُشهر أعلام الحرب عند الانتصار، وهو يقفز ويصيح بملء صوته : « لقد فجّروها !!! لقد فجّروها !!! ». كنا، أمّي وأنا، منشغلين في المطبخ، فتبادلنا النظرات وأدركنا مباشرة سبب سعادة قادر الصاخبة. تركت ما كان بيدي وأسرعت نحو أخي ونزعت الجرائد من يديه، وكانت إحداها قد نشرت في الصفحة الأولى وبالبنط العريض : « سلسلة من الاعتداءات عبر كامل البلد في ليلة 31 أكتوبر إلى 01 نوفمبر 1954 ». قرأت المقال دون توقف، بنفس واحد. كانت أمّي لا تقرأ الفرنسية ولا تتكلّمها، ولكنها فهمت كل شيء دون أن نشرح لها. الغريب أنّ أمّي في ذلك اليوم سمحت لي بمواصلة قراءة الجريدة دون أن تعترض كعادتها دائما إذ لا تتحمّل أنّ أترك الأعمال المنزلية من أجل القراءة. فبعد أن تخاطفنا الجرائد وأطلنا قراءتها، أفسحنا المجال لانفجار فرحتنا، وقد شاركت أمّي بهجتنا، برغم محاولتها، دون قناعة، لتهدئتنا. وقع الأمر كما لو أنّ الجميع في البيت كان يتوقع وينتظر انفجار حرب التحرير منذ بعض الوقت. وقع الأمر كما لو أنّ هذا الإعلان عن تفجير الحرب كان حتميا، وغير ممكن تفاديه منذ بضعة شهور، بل وسنوات. بالفعل، فمنذ مجازر 8 ماي 1945 بسطيف وقلمة وخراطة، عرفنا

اكتساب الوعي

بأن نهرًا من الدماء يفصلنا، من ذلك التاريخ فصاعداً، عن الفرنسيين. كما أننا كنا نعرف، منذ احتلال الألمان لأراضيهم وانهزامهم في حرب ديان بيان فو، أنهم ليسوا في مأمن عن الهزيمة وأنه باستطاعتنا أن نعلن حرباً ضدهم ونقهرهم كما فعل الألمان والفيتناميون. وبما أن العمليات العسكرية حدثت في وقت واحد وعبر كامل تراب الجزائر؛ استنتجنا، أخي قادر وأنا، أن وراءها تنظيماً حقيقياً يهدف إلى القضاء على النظام الكولونيالي، وقد أعلنه صراحة: تحرير البلد بقوة السلاح. طبعاً، هكذا فهمه جميع شباب فيالار.

في صائفة 1954، عاد إلى قريتنا سبعة فتيان، اثنان منهم جامعيان: مولاي إدريس فرحات، طالب في قسم الرياضيات بجامعة الجزائر، وأخي البكر محمد، طالب في كلية الطب بمدينة نانسي الفرنسية. في تلك الصائفة إذاً، زيادة إلى الحرارة اللاهبة والجافة لهضاب سَرسو العليا، انتشر غليان غير عاديٍّ وحَمَى خافتة بين سكان الأهالي، تغذيها أخبار وحكايات عجبية تنتقل شفاهة، وتعلن قيام اضطرابات تَمَسُّ كامل البلد. وزاد خيالنا الجماعي الذي يعجُّ بالأساطير والقصص البطولية من تغذية وانتشار تلك الحكايات. كما شاركت النساء أيضاً في ترويح حكايات غريبة، كذلك الشيخ المجلَّج بلحيته البيضاء الذي ظهر في مدينة «أورليانفيل» (الشلف) والذي تنبأ بحدوث تغييرات مستقبلية ونادى أمة المؤمنين، أمة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بتهيئة نفسها لاستقبال الحدث الجلل. طبعاً، لم يكن هذا الشخص وتنبؤاته إلا من صنع الخيال، ولكن نساءنا آمَنَ برسالته ونقلنها بصدق كما لو أنها منزلة من السماء. وكانت زيارة النساء الأسبوعية إلى ولي القرية الصالح سيدي بن تمارة مناسبة سانحة لتلقي مثل هذه الأخبار ونقلها والتعليق عليها. أما الفتيان، فلم يجدوا مكاناً للقاء والتعليق عما يروِّج من أخبار إلا المقهيين العربيين، مقهى زروالي الشعبي المفتوح لجميع فئات الأهالي

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الاجتماعية، ومقهى « مُحمد سعيد » الذي يُعتبر مقهى راقيا، لا ترتاده إلا فئة « المثقفين »، والتي يمثّلها في الغالب فتيان الكشافة الإسلامية. في حقيقة الأمر، كان المقرّان، الأول كما الثاني، متواضعين ؛ ويلتقي فيهما الشبان حول مقابلات الدومينو والرونّدا، حول كؤوس الشاي وفناجين القهوة، والتي تدوم إلى ما لانهاية. وكانوا يعلّقون على ما جدّ من أحداث، سواء تلك التي تنشرها الجرائد أو تلك التي ينقلها الناس مشافهة. وكان أغلب شباب القرية من الكشافة الإسلامية، بما في ذلك الفتيات اللائي يواصلن دراستهن، وكنّ للأسف الشديد يُفصلن منها عند البلوغ.

• الكشافة الإسلامية، مدرسة الوطنية

كانت الكشافة الإسلامية مدرسة حقيقية لتعليم الوطنية، ومشتلة رائعة للوطنيين اللاحقين والمكافحين من أجل الاستقلال. أريد هنا أن أقدم تكريما خاصا لمؤسّس خلية الكشافة الإسلامية في فيالار، أرزقي أيت حمادوش، المدعو كاشيش، وكذا لمحمد دريزي، ذلك المنشط الذي لا يتعب، والمنظم والمؤطر والمبادر إلى ترسيخ الوطنية في أنفسنا. كان يعلمنا الأناشيد الوطنية، القديمة منها والحديثة، ويشرح لنا مضمونها ومعانيها. كان مسؤول فرقة « المسافرين » (Les routiers)، ويشرح للأولاد كيفية تنظيم المخيمات في الهواء الطلق، وكيفية العيش في الغابة والجبل، وكيفية تقديم الإسعافات الأولية. كان إخواني يحكون لي وقائع هذه اللقاءات بكل تفاصيلها، لأنّ العائلات تمنع الفتيات من المشاركة. ينقلون لي أيضا السهرات الليلية حول النار التي يُشعلونها بالحطب والتي يجب على كل واحد أن يتقن إشعال النار وكيفية تأجيج لهيبها كي لا تنطفئ. وخلال تلك السهرات، كان محمد دريزي يحدّثهم عن تاريخ بلدنا منذ ماسينيسا ويوغورطا وإلى غاية الشيوخ الحدّاد والمقراني وبوعمامة، مرورا بلالة فاطمة نسومر وبوبغلة وبالأخص الأمير

اكتساب الوعي

عبد القادر . يشرح لهم بأن شعبنا كان دائما يقاوم الغزاة الأجانب ويكافح إلى غاية استرجاع حريته وهو ما يشكل مصدر اعتزاز وافتخار . كان يروي لهم ملحمة الحركة الوطنية، شارحا لهم أسباب وأهداف كل واحدة من الجمعيات، وكل واحد من الأحزاب . يُلقّنهم أسماء زعمائها، وأناشيدها في مجد وطننا وثقافتنا وشعبنا . وكان إخوتي يكرّرون على مسامعي ومسامع أفراد العائلة كلما يتعلّمونه في تلك اللقاءات الكشفية، وكنا نستفيد جميعا من تلك الدروس القيّمة، وذهب بنا الحماس إلى حدّ حفظ تلك الأناشيد الوطنية « من جبالنا، جزائرنا، عليك منّي السلام... » عن ظهر قلب .

فمنذ بداية عطلة صيف 1954، قرّر شبان القرية، الذين كان يؤطّرهم محمد دريزي، تكسير رتابة الأيام الحارة بتركيب مسرحيات مقتبسة من الحكايات والخرافات التي غدّت طفولتنا ومن نصوص كتبها رضا حوحو . لقد بادر فتيان الكشافة إلى جمع الأموال من عند أعيان القرية ليواجهوا بها المصاريف الضرورية لإنجاز تلك المسرحيات التي شكّلت بداية لحفلات متنقلة عبر جميع قرى ومدائر المنطقة . وقد شاركنا، أمني وأنا، في هذا النشاط وذلك بنسج ملابس متنوعة للممثلين .

وينبغي القول بأنّ المعمّرين والشرطة، الذين تفاجأوا وتساءلوا عن سبب هذا الاهتمام المفاجئ بالمسرح، كانوا يتابعون تلك النشاطات التي تجمع كل مساء في قرية من قرى السرسو، حشدا كبيرا من سكان الأهالي الذكور، أطفالا وشبابا وكهولا . وكانت هذه العروض المسرحية التي يقوم بتمثيلها شبان بأعمار تتراوح ما بين 15 و17 سنة، تُخرج العمال الزراعيين من سباتهم، هم الذين يقضون جلّ أوقاتهم بين أحيائهم « الزنجية » وبين سهول القمح والشعير والحمص والعدس الشاسعة، التي يقومون بحرثها وزرعها وحصاد غلتها لصالح مستخدميهم ومستغليهم، المعمّرين الأوروبيين .

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

كان هؤلاء الرجال وعائلاتهم يعيشون فقرا مدقعا داخل هذا « السَرسو » بخيراته الخرافية التي تشكّلها آلاف الهكتارات من الأراضي الخصبّة التي عجنها أجدادهم وسقّوها بدمائهم. وزيادة إلى الفقر وشقاوة العمل، فإنّ هؤلاء الرجال، أصحاب « المَظَل » الذي لا يغادر رؤوسهم حيث يحتمون به من أشعة الشمس، واعين كل الوعي بأنّ هذه الأراضي الشاسعة كانت ملكا لأجدادهم وقد اغتصبها الكولون، ممّا يعمّق آلامهم ومراراتهم. في منطقة السَرسو الغنية، تمتد أراضي الكولون على مدى البصر بمجرد وقوفك على حافة القرى والمداشر، وفي وسطها تنتصب بنايات بقرميد أحمر، تحيطها ستائر من أشجار الزان، تشكّل السكنات التي يعيش بها الكولون وعائلاتهم، بعيدا عن القرى والمداشر التي تحوي الإدارات العمومية والمحلات التجارية والمهن الرسمية كالشرطة وغيرها. في منطقة السَرسو الغنية بأراضيها الشاسعة الخصبّة، يعيش الكولون حياة بذخ فيما تقتات أسراب من الرجال والنساء والأطفال بوجوههم الضامرة التي لفحتها الشمس، بفضل حبات الحبوب القليلة التي تتمكن من جمعها من بقايا الحصاد لصالح الأسياد الأوروبيين. إنّ هذه الحبوب القليلة، التي يجمعها الأهالي بعد انتهاء الحصاد، وهم منحنون فوق الأرض المملوءة بالتبن، يلتقطون السنابل الساقطة، المهملة، وينتقون حبوبها، سواء كانت قمحا أم شعيرا أم حمصا أم عدسا، هي قوتهم الوحيد الذي يسمح لهم بمقاومة صقيع الشتاء.

وإلى اليوم، رسخت في ذهني تلك الصورة، نابضة لا تريد أن تُمحي، صورة ذلك الجبلي بقدّميه العريضتين، الذي نزل من جبال الونشريس إلى السوق الأسبوعية. كان ذلك في شهر ديسمبر من عام 1944، وكان عمري آنئذ لا يتجاوز العشر سنوات وصقيع الشتاء يجمّد الأجساد. كان الثلج يسقط والبرد قارس والأرضية زلجة تحت حذائي بسبب الجليد. لقد بعثتنا أمي، أخي

اكتساب الوعي

وأنا، لنشتري الشاي والسكر عند عمّي عيسى، مُزايي السوق . فجأة، جذبت بصري هيئة رجل بدا لي ضخما، مغطى بقشابية بالية ويرتجف من البرد. بقيت جامدة أحدّق في قدميه ذات النعلين الغريبين. كانت قدماه ترتكزان على نعلين سميكين لونهما رمادي. أخبرت أخي باكتشافي الجديد، فاقترح عليّ، هو الفضوليّ بطبيعته، أن نقرب منه كي نتأكّد. استدرنا نحو ذلك العملاق، وانحنينا ومسسنا النعلين الغريبين. كان صلبا جدا. مسسناه طويلا بل وقرصناه. فلم يتأثر عملاقنا لوخزاتنا الصغيرة. وعند إمعان النظر، اتّضح لنا أنّ الأمر يتعلّق بأخمص القدم، شكّلت نعلا طبيعيا : كان الرجل حافي القدمين ويبدو أنّه لم يلبس حذاءً في حياته. هكذا، ومنذ سنّي المبكرة، عايشت البؤس المدقع الذي كان يعيشه ذوونا. كنت أشاهد الفقر بعيوني عندما أخرج للعب، أو أذهب لشراء حاجات من السوق، أو عندما تبعثني أمّي برفقة إخوتي عند خالتي بَحْثَة وخالتي عائشة الجنايدية كي نخبرهما إن كانتا بحاجة إليها. تعيش الاثنتان بذريتهما المتعددة في غرفة ضيقة، بفتحة واحدة، هو باب الدخول الذي ينفتح على فناء صغير نصفه مغطّى بصفائح الزنك وأكياس الخيش ويستعمل كمطبخ. أما نصفه الآخر، فكان في الهواء الطلق يزيّنه عريش كروم، تتدلى منه عناقيد ثقيلة من العنب ابتداء من نهاية شهر أوت. كنت أحبّ الذهاب عند خالتي بَحْثَة وخالتي عائشة لأنهما تظهران لي تعاطفهما ومودتهما. في الصيف، كانت تنبعث من تلك الغرفة وذلك الفناء النظيف المبلل بالماء رطوبة منعشة، فكنت أستخدم جميع الوسائل لإقناع إخوتي بإطالة زيارتنا، شارحة لهم بأنّ تلك الأرضية تسهّل لنا لعب الكريات ونوى المشمش أفضل من أرض بيتنا المبلّطة.

بعد سنوات عديدة، أصبحت أقدر الفاقة التي كانت خالتي بَحْثَة وخالتي عائشة تعانيانها، ولكن أيضا درجة الحفاظ على كرامتهما. فرغم ذلك الفقر

مُذْكَرات مُجاهِدة من جيش التّحرير الوطنيّ منطقة الجزائر المستقلّة

البادي للعيان، كانتا تجدان دوما شيئا تهديانه لنا وتحرصان على نظافة البيت وتزيين الفناء بنباتات فواحة كالحبق والفجلة والنعناع. خلال الحرب العالمية الثانية، كان الأهالي يعيشون بؤسا مطلقا ؛ لأنّ الكولون، ومعظمهم ساندوا الماريشال بيتان، كانوا يستحوذون على خيرات الجزائر ويبعثونها إلى احتياجات الجيش الألماني الذي كان يحتل فرنسا ابتداء من 1940. ومما زاد الوضع بؤسا ووجعا أنّ شبان الجزائر كانوا يُجنّدون عنوة لاحتياجات الحرب.

كانت عائلتي تقطن في شارع ينفتح على مقر البلدية المختلطة التي تحاذي منزل مسيرها. وكم مرّة عند خروجي من المدرسة خلال تلك السنوات، حضرت مشاهد مؤلمة لنساء بأسمال رثّة يبكين ويصرخن من الألم ويندبن وجوههن، كنّ يتشبثن بالقضبان التي تحمي مقر البلدية المختلطة ويتوسّلن أنّ يعاد إليهن أبنائهن. كنّا نركض إلى البيت ونروي ما شاهدناه، فتشرح لنا أمّي بأنّ القايد الذي يشتغل لصالح الإدارة الفرنسية، ذهب إلى الدواوير الريفية وجنّد بالقوة فتيانا لإرسالهم إلى الحرب، بعيدا جدا عنّا، في بلد الكفّار. طبعاً، لم أكن أفهم كل ما تقوله لي أمّي. في المقابل، ما كنت أعيه جيدا لأنني رأيته بأمّ عينيّ ويمكن لي أنّ أتخيله بسهولة هو أنّ القايد، وهو عربي مثلنا، قد أخذ بالقوة أبناء تلك النساء اللاتي رأيت آلامهن وسمعت صراخهن وبكاءهن. فكرهت جميع « القيّاد » منذ سنّي المبكّرة.

خلال صيف 1954، قام فتیان الكشافة والثانويون السبعة بتمثيل مسرحياتهم عبر القرى. وقد لقيت عروضهم نجاحا لا نظير له لدى جمهور عريض يتشكل في معظمه من العمال الزراعيين الفقراء والشباب البطال الذي حرم خاصة من التعليم والعمل. كان العرض يبدأ عادة بخطاب تقديمي يلقيه محمد دريزي، ثمّ ينتقل الممثلون الهواة إلى لعب أدوارهم فوق الخشبة، ويُنهون العرض دائما بنشيد « عليك منّي السلام »، نشيد تمجيد شهداء مجازر

اكتساب الوعي

سطيف وخراطة، وأخيرا نشيد « من جبالنا » الذي يؤجج الحشود. كان أخي قادر مجتندا بقوة في هذه النشاطات، ولا يلبث، بمجرد عودته إلى البيت، أن يحكي لنا ما وقع بالتفصيل الدقيق ويُنهى حديثه دوماً بذكر « فارسيا » محافظ الشرطة وعبد الرحمن « البوليسي » اللذين لم يفوتا مشهدا واحدا من العرض، لأنهما كانا دوماً يحومان حول مكان النشاط. ومع ذلك لم تكن هناك مشاكل لأن الشرطة لم تعتقل محمد دريزي. وهو ما كانت تفعله، عند أي حدث يمس الحياة السياسية للبلد، فتقوم بتوقيفه ورميه في السجن، مثلما حدث مباشرة بعد تفجيرات أول نوفمبر، فاعتقلته بمعية محمد بولوفة وزميتي صاحب مطعم شعبي. مهما كان الوضع، فإن صيف 1954 كان صيفا مليئا بالنشاطات التي قام بها فتیان الكشافة وثنويو فيالار. أما فيما يخصني، فباستثناء المهام المنزلية التي كنت أشارك في أدائها كما تفعل أي « فتاة حسنة التربية »، فقد كنت أساعد أخي بقدر استطاعتي، وأقرأ كثيرا من الكتب والجرائد والنشريات وأتناقش مع أبي وأعمامي وإخوتي عن الوضع في البلد وكذا الآفاق التي تقترحها أحزابنا الوطنية.

فمنذ أحداث سنوات الخمسينيات، وبالأخص تلك المتعلقة بـ « المنظمة الخاصة »، كنّا نعرف أنّ مناضلين شباب يشغلون لتحرير البلد. لم نكن نعرف أين ولا كيف، فتلقينا الجواب يوم 02 نوفمبر 1954 عن طريق الجرائد. ابتداءً من تلك اللحظة، كنت أستعجل وصول يوم 12 نوفمبر، تاريخ الدخول الجامعي، كي ألتحق بالجزائر العاصمة وأستخبر أكثر عما يجري من أحداث وأتصل بهؤلاء الناس الذين أجهل عنهم كل شيء ولكنهم يحققون حلمي : تحرير البلد. ولكن قبل ذلك التاريخ المصيري في تاريخ بلدي وكذا حياتي الخاصة، سمحت لي سنواتي السبع في داخلية ثانوية فرومانتين بالمرور من الطفولة البريئة إلى المراهقة الواعية وذلك باكتساب قناعات فلسفية وسياسية

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

صلبة . لقد سبق لي أن أوضحت كيف صقلت قراءاتي ثم نقاشاتي مع سامية وأبيها قناعاتي . ويجب أن أضيف أن الإحساس العميق بالظلم الذي تركته في نفسي معاملات بعض الأساتذة تجاهي، فقط لأنني من الأهالي، وعنصريتهم وكذا الكفاح، - وإن كان ضئيلا - الذي قمت به للدفاع عن نفسي، كل هذا جعل مني متمردة قبل الأوان . في نهاية المطاف، يمكن القول بأن السنوات السبع التي قضيتها في الثانوية شكّلت بالنسبة لي فترة طويلة من المخاض واكتساب الوعي . فمع توالي الشهور والقراءات والاتصال مع الإدارة والأساتذة وصديقاتنا من الأوروبيات، وبالأخص عطل نهاية الأسبوع في الوسط الحضري عند عائلة سامية، تفتّحت عيني على وضعيتي ووضعية الشعب الذي أنتمي إليه (الأهالي)، وضعية « الفرنسيين المسلمين » بلا هوية وطنية ولا مواطنة . انتهى بي المطاف إلى أن فهمت بأنه يُمنع عليّ أن أكون جزائرية، وأنني كنت مُجبرة على أن أكون « فرنسية »، « فرنسية مسلمة »، ولكنني « فرنسية » . ومع ذلك « فرنسية » بدون الحق في المواطنة . كانت تلك الوضعية أكثر مما يمكن لعقل مراهقة أن يتحمّلها . وقد شاركتني سامية هذا الإحساس بالعنف غير المحتمل المسلط علينا، ومعها صديقة أخرى، ميمي بن سماعيل . شكّلنا مجموعة مشهورة من قسم « الأولى الثانوية »، سنة الجزء الأول من امتحان البكالوريا . كانت هذه المجموعة تمثّل لكل واحدة منا في الآن نفسه المكان الوحيد لاشتراك حقيقي ونزيه، نقاوم بداخله عزلتنا، مأوى يطمئن قلوبنا الهشة، فضاء لتثمين جهودنا وحميمية مطلقة، وبالأخص وسيلة لتأكيد ذواتنا والتضامن الذي لا يخضع للمزايدات . كنا، سامية وأنا، في القسم الداخلي، أمّا ميمي فكانت ضمن القسم الخارجي، مما سمح لنا، بفضلها، بأن نكون على علم بجميع الأحداث الوطنية والدولية . تجدر الإشارة هنا، لذكرى ميمي، بأن لهذه الصديقة شخصية قوية، خارقة للعادة، تفرض

اكتساب الوعي

نفسها على الجميع وهي في السنّ السابعة عشرة فقط. تنتمي ميمي إلى عائلة دزيرية بوجوازية اختارت الاندماج مع كل ما يترتب من إهمال طوعي للهوية والثقافة وخاصة الأحوال الشخصية. في السجل المدني، كانت ميمي تحمل اسم « دونيز - ميمي ». ولكن صديقتنا، وبمجرد أن وعت بُعد تلك الوضعية التي فرضتها عليها عائلتها، قرّرت محو اسمها الأوّل. وكانت النتيجة الأولية أن الجميع أصبح لا يعرفها إلا باسم « ميمي »، اسم جزائري صرف. كانت ميمي بقامتها الطويلة المنطلقة الجذابة، وطريققتها الحيّة المحبّة في التعبير وفكرها المستقل المتمرد على كل سلطة، تملك الثقة بالنفس التي تنقصنا وقدرة على صقل وجهة نظر خاصة حول كل حدث كنا فخورات به. كنّا، الثلاثة، تلميذات نجيبات. كنّا، سامية وأنا، ننجح دوماً في امتحاناتنا لأننا ببساطة كنّا من المجتهدين المثابرات، يشهد لنا الجميع. أما ميمي، فبدت لنا أنها تملك سهولة أكثر منّا دون أن تبذل مثل جهودنا. ولم يغيّر هذا الأمر شيئاً في صداقتنا خاصة أنّ ميمي تصرّ على اقتسام - اختياراً وتضامناً - بعض المعاملات الظالمة التي لا تُفسّر إلا بكون انتمائنا إلى « الأهالي ».

وكمثال على ذلك، القضية التي صدمتنا، والتي حدثت مع أستاذتنا في مواد اللغات الفرنسية واللاتينية واليونانية، السيّدة « لوفايان »، وفوق كل هذا فهي الأستاذة الرئيسية. كنّا في قسم « الأولى »، سنة الجزء الأوّل لامتحان البكالوريا. أظهرت السيّدة « لوفايان » من بداية السنة نوعاً من العدوانية والفظاظة الظاهرة، غير المبرّرة، تجاه الجزائريات الثلاث الوحيدات في القسم. وقد استمر هذا التعامل الفظ طوال السنة دون أن يؤثر قيد أنملة على إرادتنا في النجاح وقدراتنا على العمل، حتى وإن كانت النقاط التي تمنحها لتمريننا تبدو في قمّة الظلم والعنصرية. كنّا على وعي تام بمعاملتها التمييزية التي لا تعتمد إلا على اختلاف العرق بيننا وبين بقية تلميذات

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

القسم، ولكن لم يكن أماننا من اختيار إلا الصبر والمثابرة في العمل . وبرغم عنصريتها المندفعة، كانت السيّدة « لوفايان » أستاذة جيّدة، تُكلّفها وزارة التربية الوطنية الفرنسية بتدريس متربصي شهادة التبريز أي الأستاذية . وحينما كانوا هؤلاء يصحّحون أوراق امتحاننا، كانت نقاطنا لا تختلف عن نقاط زميلاتنا الأوروبيات، وكان ذلك يعيد لنا ثقتنا بمستوانا ويشجّعنا على المواصلة . وكانت دروس السيّدة لوفايان تشكّل لنا امتحانات حقيقية كنا خلالها نواجه اضطهاداتها المتواصلة مع الحرص الشديد على عدم الوقوع في أفخاخها . نجحنا طوال السنة الدراسية، إلى أن اتهمتنا السيّدة لوفايان بالغش، أنا وميمي، وذلك قبل شهر فقط من امتحان الجزء الأول للبكالوريا، وأحالتنا على لجنة التأديب ! كانت الأستاذة تحفزنا دوماً على العمل المشترك في إنجاز تماريننا الخارجية على أساس البحوث التي ننجزها في مجموعات عمل . وبعد أن سلّمنا لها ثمار عملنا طوال كامل الأسبوع، اتهمتنا بالغش . عشت هذا الاتهام والانتظار للمرور أمام لجنة التأديب كمأساة عار مطلق، أنا المراهقة التي لم تأتِ إلى الجزائر العاصمة إلا للدراسة، والتي عملت جاهدة طوال تلك السنوات كي لا تخون العهد الذي قسمته على نفسها وعلى عائلتها بأن تنجح وتكون تلميذة مثالية . سلّمت وثيقتي يوم السبت، ونزل الاتهام يوم الأربعاء وحدّد يوم السبت لوقوفي أمام ما اعتبرته مقصلة . فقضيت الأيام الثلاثة التي تفصلني عن يوم السبت أبكي كامل دموع جسدي، وأنا في قمة الغضب والعجز والإحساس بالظلم . لم يغمض لي جفن، ولم تنجح مواساة صديقاتي ومحاولاتهن للتخفيف عن حزني الشديد . كيف أطهر نفسي من العار الذي يدنسني وأنا بريئة منه كل البراءة ؟ كيف أشرح لوالديّ ما يحدث لي وأنا لا أستحقّه ؟ كيف أقنع والديّ بتصديق براءتي ؟ ماذا أفعل كي لا أفشل في امتحان البكالوريا ولم يبق على تاريخه إلا شهر واحد فقط ؟ لذلك

اكتساب الوعي

قرّرت كتابة رسالة إلى أبي وسط بصري المشوّش بالدموع لأحكي له المأساة التي تعصف بي .

أخيرا، حان السبت الموالي المحتوم، فكنّا، ميمي وأنا، منذ الثامنة صباحا، منعزلتين، داخل صالة في الطابق الأرضي، ننتظر المثل أمام مجلس التأديب المجتمع في مكتب المديرية. على الساعة العاشرة، أدخلوا ميمي، وبعد نصف ساعة، جاء دوري. لقد أقسمت مع نفسي أنّ لا أبكي أمام القضاة الذين سيحاكمونني، أنا الخجولة بطبعي، وأنّ أدافع عن براءتي بشراسة وأن لا أتركهم يؤثرون على معنوياتي. دخلتُ غرفة باردة وصامتة، حيث تتصدّر المديرية المجلس وهي جالسة إلى مكتبها، يقابلها خمسة أساتذة جالسين هم أيضا. بلا أدنى انتظار، راحت المديرية تلقي عليّ اتهاماتها، شارحة أنّ هذه القضية هي تكليل لسلوك سلبي ومعاملات يرفضها جميع من في قسمي، وذلك منذ سنوات عديدة. لحظتها، اقتنعتُ بأنّ الإدانة لم تكن على أفعال بعينها، إذ كان سلوكي وتعاملي خلال كل سنوات الدراسة لا تشوبهما شائبة، وإنما لكوننا عربا ليس إلا. كما أدركت أيضا أنّ المسألة لا تتعلق بمسؤولية فردية وإنما بمسؤولية جماعية. وأدركت بالأخص أنّ مجمع الحكماء هذا يُدين ثلاث تلميذات من الأهالي لأنّهن نجحن في دراستهن ووصلن إلى أعلى مراتب قسم « الأولى »، وعوض أنّ يقضين حياتهن في الاعتراف بأفضال الفرنسيين عليهن، رُحن يشكّلن كتلة لئيبتين اختلافهن. حينئذ عرفت أنني كنت مدانة سلفا ولا يفيدني في شيء محاولتي لإقناعهم ببراءتي. وسقط الحكم... كانت العقوبة في أقصاها : إنذار يُسجّل في دفترتي الدراسي. اتضحت الأمور : كان الهدف المنشود هو التقليل من حظوظنا في امتحان البكالوريا. هكذا، دخلت مجلس التأديب وكلّي مسحوق من الغيظ والشعور بالظلم، ولكنني خرجت منه مملوءة بالسكينة والهدوء، وقد نضجت بعشر سنوات

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أخرى ! التحقت بزميلاتي برأس مرفوع، وأكثر إصرارا وعزيمة، فقرّرنا باتفاق مشترك أن نضاعف جهودنا كي نتحصّل على شهادة البكالوريا ضمن الأوائل ليكون نجاحنا ضربة قاصمة في وجه المديرية والسيدة لوفايان وجميع عنصريي الثانوية.

بعد أيام، تلقيت رسالة من أبي أثلجت صدري وأراحنتني كلية من القلق والإحباط، لأنّه أكّد لي فيها مرّة أخرى ثقته الكلية في شخصي وقدراتي، واصفا إدانة مجلس التأديب بالحدث العابر الذي لن يقلل في شيء من عزمي في النجاح. أضاف أنه مقتنع بنزاهتي الفكرية ذلك أنّ نجاحي الدائم طوال مساري الدراسي هو الدليل القاطع، مضيفا أنّني كنت « خير خلف لخير سلف ».

قضينا شهرا كاملا نجتهد بلا هوادة ولا كلل، برغم شهر رمضان الذي تزامن مع شهر المراجعة، ولم يكن في تصوّرنا أنّ لا نصومه مثلما تعودنا دائما. أدّينا الامتحانات بسهولة مذهلة وجاءت النتائج كصفعة جماعية لجميع أعضاء المجلس التأديبي، وبالأخص لمدبرتها، السيدة لوفايان. تحصّلنا على نقاط ممتازة، خاصة في مواد الفرنسية واللاتينية واليونانية. في تخصّصي، آداب وفلسفة، كنت الأولى في الدفعة بتقدير « جيّد ». وفي نهاية السنة، وبعد توزيع الجوائز، وقد تلقيت منها الكثير، جاءت السيدة لوفايان تهنئني. أحسست بالقرف، فابتعدت عنها مسرعة، أركض باتجاه باب الخروج حيث كان أبي ينتظرني ليرافقني ونعود معا إلى البيت، إلى فيالار، لقضاء صيف طويل، صيف 1953.

في سبتمبر من نفس السنة، استأنفت الدراسة ضمن القسم النهائي في ثانوية فرومانتين، حيث تحصّلت في آخرها، في جوان 1954، على البكالوريا، تخصّص فلسفة. أحتفظ لقسمي النهائي بذكريات جيّدة. لقد أحببت دروس الفلسفة، المادة التي كانت تدرّسها السيدة كارنيكي التي أحدث سلوكها

اكتساب الوعي

قطيعة مع سلوك أغلبية الأساتذة وتذكرنا بأستاذتنا في مادة التاريخ والجغرافيا في السنة الماضية، السيّد توماس. كانت الأستاذتان تتميزان بكفاءة عالية وعدلٍ جليٍّ، ولا تظهران أدنى تمييز تجاهنا، وعرفتُ فيما بعد أنهما تعتنقان المذهب الماركسي. لقد أعطت لي الفلسفة وسائل ومناهج التحليل والفهم، أمّا دروس التاريخ، فكانت تهمني مباشرة لأنّ البرنامج يخصّ مباشرة الفترة المعاصرة. وكانت هذه المواد كلها مهمّة ونتمحّس لتلقي دروسها، لأنها تدفعنا إلى القراءة النهمّة مزيدا للمعرفة والتعمق الفكري، مما سمح لنا بالدخول في مناقشات لا نهائية، تغذّيها الأخبار اليومية التي تمطرنا بها ميمي والجرائد التي نلتهمها التهاما كل نهاية أسبوع عند سامية. في الثلاثي الثاني، وبالضبط في مارس 1954، وقعت حادثة طبعت اختلافنا مع بقية الزميلات بشكل نهائي، فبعد أولى ساعتين من الدراسة، خرجنا إلى ساحة الثانوية للراحة. وكان المكان، كعادته، يعجّ بالتلميذات وضجيجهن. فجأة، خيم صمت تدريجي وبدأ خبر ينتقل من مجموعة إلى أخرى: انهزمت فرنسا في حرب ديان بيان فو في الهند الصينية! في ذلك اليوم الربيعي، كان الجو جميلا وسماء «الذواير» الزرقاء صافية، ومياه الخليج تتلألأ، خيم صمت كئيب على الساحة. أجهشت بعض التلميذات بالبكاء، فيما صمتت الأغلبية وكفت عن الكلام. إنه الحداد. تبادلنا النظرات، سامية وميمي وأنا، وابتسامة تترقق في العيون: لقد انتصرنا بصمت للهنود-الصينيين. وبالعيون دائما، صرخنا صرخة انتقام «الشّخ»! وبمجرّد انفرادنا، عبّرنا عن فكرة واحدة في نفس الوقت: لماذا لا نستطيع نحن؟ ففرنسا لم تعد ذاك البلد القوي الذي لا يُهزم... وها قد أكّد ذلك الهنود-الصينيون بالدليل الملموس. ولم يكن تسأولنا تجريديا لأننا كنا نعرف واقعنا الوطني ونتابع بشغف وأهمية قصوى الكفاح الذي كانت أحزابنا وجمعياتنا تخوضه ضد القهر الاستعماري: حزب الشعب

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الجزائري، الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، الحزب الشيوعي الجزائري، جمعية العلماء المسلمين... إلخ. وكانت شخصية مصالي الحاج بالطبع هي الأكثر شهرة ورمزية. وكنا معجبات بفرحات عباس وأحمد فرانسيس وبومنجل وهجرس... إلخ. كنا نتابع النقاشات داخل الأحزاب والشجارات الفكرية والسياسية. في واقع الأمر، كانت قلوبنا تميل دوماً باتجاه مستقلي حزب الشعب وحركة انتصار الحريات الديمقراطية. لذلك قرّرت، بعد حصولي على البكالوريا، التسجيل في كلية الحقوق بهدف الدفاع عن مكافحينا المستقبليين لأنني لم أشك يوماً بأن الانفجار سيحدث حتماً وليس بالبعيد، ولكنني لم أكن أتصوّر بأنه سيحدث سنة نيلي شهادة البكالوريا ودخولي الجامعة.

● الجامعة

بعد طفولتي في فيالار وسبع سنين قضيتها في الداخلية بالعاصمة، أواجه مرة أخرى حياة جديدة كلية بالنسبة لي. فكان عليّ أن أسير استقلالي وحريتي، وضعيتان مجهولتان لديّ إذ لم أكن مستعدة لهما. أيام الداخلية، كنت أخرج كل نهاية أسبوع لأذهب عند عائلة سامية التي تتكفل بكل شيء. كنا في حقيقة الأمر، نغادر من داخلية إلى أخرى، الاختلاف الوحيد أنها تناسب ثقافتنا وأكثر عدلاً تجاهنا. وحتى حينما كنا نذهب إلى الحمام أو إلى السينما، كنا دوماً تحت وصاية وحراسة والدّة سامية أو أختها البكر ليلي المتزوجة.

كان دخولي الجامعة يوم 12 نوفمبر 1954. قبل أيام قليلة من ذلك التاريخ، رافقني أبي من فيالار وهو الذي ساعدني على أداء إجراءات الاستقرار في الحي الجامعي بين عكنون. عند لحظة الافتراق، أصرّ أبي، هو العارف بطبعي

اكتساب الوعي

الخجول، على أن يشرح لي مرة أخرى التزاماتي الجديدة : « أنتِ تباشرين مرحلة جديدة حاسمة في حياتك، وعليك أن تواجهي واقعك الجديد بثقة كبيرة في النفس وأن لا تشكّي في قدراتك، ولا تنسي أبدا أن هدفك الوحيد هو النجاح في الدراسة وأن تكوني دوما ضمن الأوائل، دون أن يغيب عن عينيك من أنتِ وما هي واجباتك تجاه ذويك ». في واقع الأمر، كان يعيد عليّ، بتحفظه المعروف ولطفه، ما أمطرني به أمّي طوال سهرة البارحة بطريقة مباشرة ودون موارد : « ابنتي، ستعيشين بمفردك في مدينة كبيرة، مكان كل المخاطر. ستكونين في الجامعة مع كثير من الذكور. لا تنسي أبدا أننا بعثناك للدراسة ولا لشيء غير الدراسة، وعليك أن تحافظي على شرفك وشرف العائلة. صحيح أنك بعيدة عن فيالار، ولكن لا تنسي أنّ لأبيك أصدقاء ومعارف كثر في « الدزاير » وأنّ عينهم عليك دوما. وإذا حدث – لا سمح الله – أن انحرفت عن الطريق المستقيم، فسيسقط العار عليك وعلى أبيك الذي سيموت قهرا وعلينا جميعا. يجب أن لا تنسي أننا لسنا فرنسيين : لهم دينهم ولنا دين، لهم تقاليدهم وعاداتهم التي تختلف جذريا عن تقاليدنا وعاداتنا. كوني واعية تمام الوعي بأنك مسؤولة عن شرفك وشرف جميع أهللك، وأنك، بسلوكك القويم، ستكونين المفتاح الذي سيفتح باب الفتيات الأخريات أو سيغلقها إلى الأبد ». ينبغي الاعتراف أنّ مثل هذه الأقوال زادتني إحساسا بمسؤوليتي، وأنني قضيت ليلة آرقه لأنني سأعيش بمفرد في مدينة كبيرة كالعاصمة. أثقلتني جميع هذه التوصيات وحملتني مسؤوليات عظيمة، وأغرقتني في خجلٍ وصرامة يصعب التخلص منهما إلى اليوم. ومع ذلك، كنت دوما أحس بالاعتراف والامتنان تجاه والديّ اللذين فرضا حقي في الدراسة، مثل الذكور تماما، على منطقة بأكملها. في هذا المضمار، أشير أيضا إلى أنّه، وعند حصولي على كل شهادة، الأهلية أو

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

البكالوريا، كان جمع من أعيان المنطقة يتصلون بأبي في مكتبه كي يطلبوا يدي لأحد أبنائهم، مقدّرين أنه حان وقت تزويجي. هكذا، وعند انتشار خبر نبلي البكالوريا، انتقل وفد من رجال « العرش » إلى مكتب أبي لتهنئته على نجاحي والتعبير عن افتخارهم بكوني الفتاة المسلمة الوحيدة في وسط الأوروبيين التي واصلت دراستها إلى هذا المستوى، بعيدة عن المنطقة والأهل، وقد حافظت على شرفها وشرف القبيلة. ومع ذلك، قدّروا بأنه حان وقت تزويجي، لأنني تجاوزت حدود عمر تزويج الفتيات. ولم يكن أحدهم يتصوّر أنّ فتاة من فتياتهم يمكنها مواصلة الدراسة إلى غاية العشرين من عمرها، بل ويزيد عن ذلك. استمع إليهم أبي ثم شكرهم وشرح لهم أنّ له مشروعاً آخر لابنته، وهو أن يبعثها تكمل الدراسة في الجامعة. عند هذه الكلمات، انتفض رئيس الوفد وقال بامتعاض : « زهرة امرأة، وحتى لو واصلت الدراسة طوال حياتها، فهي ليست في نهاية الأمر إلا امرأة. ولن تصبح رجلاً » وحينما رأى أبي أنه من غير المجدي مناقشتهم في مستقبل ابنته، ردّ عليهم قاطعاً كل حوار : « زهرة ابنتي أنا وليست ابنة العرش. أنا المسؤول عنها، وأتحمل كامل نتائج هذا الاختيار ». في المساء، عندما روت لي أمي هذه الحادثة، أدركت حجم الكفاح الحقيقي الذي يخوضه والديّ، كفاح ضد النظام الكولونيالي العنصري الذي لا يسهّل حياة ابنتهم، وكفاح أيضاً ضد وسطهم الخاص كي يتقبّل حق الفتيات في التربية والتكوين، وبالتالي حقهن في الاستقلال.

في العشرين من عمري، كنت أقدر مدى أهمية هذا الكفاح في وسط لا يرى أيّ وضع للمرأة خارج كونها زوجة وأماً، ولا شيء آخر. لهذا السبب، وجدت نفسي دوماً شاكراً وممتنة لوالديّ، يعتريني باستمرار الإحساس الكبير بالمسؤولية وبواجب الوفاء والإخلاص لهما. كنت أفكر بأنّ أسوأ شيء يمكن أن يحدث بسببي هو خيانة كفاحهما وآمالهما. لذلك، اتخذت قراراً بأنّ

اكتساب الوعي

لا أُصدم أو أن أكَسّر قوانين ونواميس تقاليدنا، مدفوعة بإحساس قوي بأداء الواجب، بكامل راحة ضميري وباختياري الواعي والإرادي. كان الأمر عندي بمثابة واجب نضالي صِرف. كنت أحمل الآمال الكبرى لكفاح في خدمة جميع بناتنا. وهناك سبب آخر دفعني إلى أداء هذه المهمة ألا وهو الاستعمار الاستيطاني الذي يفرض علينا الحضور الحاشد للأوروبيين ومواقفهم المحتقرة لنا، أو على الأقل المتسمة بذلك التسامح المتعالي. كان من واجبي أن أُكذّب يوميا تلك الادعاءات المغرضة في حقنا، ولن يكون ذلك إلا بالعمل المثابر والنجاح وحمل عاليا ثقافتي وهويتي كراية لأُسجّل اختلافي في كل لحظة : لست ولن أكون أنتم، ولستم ولن تكونوا نحن. لذلك كانت قوانين وسطي قرائن أساسية لتأكيد هويتي. وخيانتها تعني الاستسلام والخضوع. ولم يكن مثل هذا الأمر واردا بتاتا. كانت جميع هذه المعطيات تفسّر سلوكنا، سامية وأنا، ابتداء من تسجيلنا في السنة الأولى حقوق بجامعة الجزائر التي كان مقرها واحدا لجميع التخصصات : مكان الجامعة المركزية اليوم في قلب العاصمة.

كُنّا حوالي 200 طالبا جاءوا من كل البلد وكذا من تونس والمغرب. ولم نكن، ضمن عدد الـ 200، إلا 6 طلبة من « الأهالي » : فثاتان و4 فتيان، من بينهم لخضر براهيممي. ابتداءً من اليوم الأول، وبمجرد أن بدأ الأستاذ ينادي على الحضور، تعرّفنا على العدد : 6 طلبة من العرب. وبما أننا تلقينا نفس التربية ونفس قواعد الهوية المشتركة، قرّرنا خلسة تطبيق قواعد سلوكنا الاجتماعي ابتداءً من اليوم الأول. فكُنّا، سامية وأنا، لا نجد حرجا في الحديث مع زملائنا الأوروبيين الذكور لأنهم، مثلما أفهمتني أمي ذات يوم، لا جنس لهم. ولكن معاملتنا مع رجال قومنا تختلف تماما. كُنّا نترقّب بعضنا بعضا من بعيد، وإذا التقت العيون خلسة، نتظاهر بالعمى. وإذا اضطررنا، بحكم ظروف الدراسة، كإنجاز البحوث مثلا، أن نتواجد في مجموعة بحث واحدة

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

داخل المكتبة، فلا نخاطبهم بشكل مباشر، بل نلجأ دائما إلى وسيط أوروبي .
إنها القاعدة وعلينا باحترامها : الحرمة. في تلك الفترة، رفعنا، سامية وأنا،
رہانا آخر : العمل أحسن والتفوق على زملائنا الجزائريين . كنا نريد، عبر
نجاحنا وسلوكنا المثالي، أن نقنعهم أننا النموذج الذي يجب أن يُحتذى
لأخواتهم وفتيات عائلاتهم . لقد استثمرنا في هذا التحدي كمن يعتنق دينا
جديدا . الآن وعندما أنظر إلى تصرفاتنا في تلك الفترة، أعترف بأنها كانت
عصية الاحتمال، بل ومنفرة أحيانا .

أتذكر ذات يوم، وقد كنا داخل قاعة المكتبة، اتصل بي زميل عربي ليطلب
معلومات حول درس من الدروس، كان ردّ فعلي الرفض اللفظ والغريزي بحيث
ابتعد الفتى مسرعا دون أن يسأل عن السبب . احتفظت بإحساس بالخجل
ولمت نفسي على ذلك التصرف، ولكنني في نفس الوقت، كنت أقول بأنه
سيفهم تصرفي لأنه لم يكن ليقبل لأخته أن تتحدث مع رجل أجنبي ليس
بزوجها . لم يكن تصرفي ينطلق من ازدراء أو أي نوع من الاحتقار أو التعالي،
وإنما كنت أحترم تطبيق قواعدنا في التعامل الاجتماعي . لحسن الحظ أننا التقينا
بعد سنوات من ذلك، في زمن الاستقلال، وضحكنا كثيرا من تلك الحادثة .

وهنا ينبغي الاعتراف بأنّ قواعد تقاليدنا لم تمنعنا، سامية وأنا، من
الاستمتاع بحياتنا الجديدة، باكتشاف « الدزائر » وجمالها وأسرارها . لقد
استفدت بغرفة في الإقامة الجامعية بن عكنون لأنني قادمة من مدينة داخلية
بعيدة عن العاصمة، بخلاف سامية التي تسكن عند أهلها بحي سانت أوجين .
كنت كل صباح أستقل الحافلة للذهاب إلى الجامعة، وأعبر أحياء كثيرة،
ابتداءً من حيّ بن عكنون وجنّته الخضراء، ثمّ « الأبيار » بشارعه الرئيسي
الذي يعجّ بالنشاطات التجارية، فمرورا بحيّ « طغارين » ومسجده وشرفته
وفتحاته نحو البحر، وشارع « دي لاتردي تاسيني » (فرانتز فانون حاليا)

اكتساب الوعي

المنحدر، ينتابني إحساس يتجدّد دوماً خلال الهبوط بأننا سنلقى بحبور داخل أمواج البحر الأزرق. أثناء فصل الربيع، كان جوّ ذلك السفر الصباحي يمتلئ بروائح الياسمين المختلطة بسُلطان الغابة والوستاريا، وفي نهاية الظهيرة برائحة « مسك الليل » العطرة التي لا نظير لها. كانت سامية تنتظرني دوماً عند مدخل الجامعة، فنذهب إلى مقهى صغير لنحتفل يومياً بحريّتنا. نتناول قهوة وهلالاً ونتصفح الجرائد التي تكون سامية قد اشترتها. فنقرّر معا بتفاصيل برنامج يومنا، ثمّ نلتحق بدروسنا. وكنت أقضي نهاية الأسبوع وأيام الأعياد عند سامية. وفي هذه المناسبات، وبالأخص في فصليّ الربيع والخريف، كنا نفصّل قطع المسافة بين الجامعة المركزية وحيّ سانت أوجين راجلتين، عبر الواجهة البحرية. وكان الانبهار كاملاً في كل مرّة والانفعال في الموعد. كنّا نشعر بأننا في ديارنا بمجرد تجاوز البريد المركزي وفندق « أليتي » (السفير اليوم). وكلّما اقتربنا من سكوار بريسون، وطونطونفيل وباب الواد، كانت الوجوه والهيئات واللغة وحتى الروائح مختلفة عن تلك التي تركناها وراءنا، وكانت رائحة النسمة البحرية المخدّرة تلف الجوّ لتزيده سحراً. حينئذ، يعترينا إحساس بالحيوية، فنتشجّع ونتجرأ على رفع أصواتنا بالعربية ونصل إلى البيت سعيدات بوجودنا، مستعجلات لنقل حبورنا إلى من حولنا.

كانت « الدزاير » وما زالت لا تنضب أبداً، ليس بطول كيلومترات شوارعها وإنما بالأحاسيس التي تثيرها وبالمفاجآت التي تنبثق منها دوماً. إنها تملك موهبة خاصة في إهداء زوارها زقاقاً جانبياً غير منتظر، وسلاّم منقذة تسمح باختصار المسافات، وفتحات من الاخضرار بكل تنوعاتها وروائحها وطيوها المحتفلة. تمنح ساحاتها وسكواراتها توقفات مريحة كمكافأة على الجهود المبذولة لاكتشافها. وكانت ساحة الحكومة بتمثالها الذي يمثل الجنرال دي بورمان على فرسه الجامح تمثّل بداية « ديارنا »، برغم محاولة ذلك التمثال بهيئته الحربية

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

طبع المكان وللأبد بحضور فرنسا وعظمتها. ذلك أنّ تلك الساحة تحوطها مساجد عديدة : الجامع الكبير والجامع الجديد وجامع كتشاوة، دون أن نضع في الحسبان جميع تلك الأزقة الموصلة إلى القصبة، مدينتنا. مهما فعلوا، فإنّ ساحة الحكومة تقع في القصبة السفلى. وكنا منبهرتين بالقصبة وتاريخها وقصصها، ولكن أهلنا لم يسمحوا لنا إلا بزيارة ضريح سيدي عبد الرحمن والمكتبة الوطنية. وكان ذلك المنع يؤجج انبهارنا ويضعف حلمنا باكتشاف، ذات يوم، هذه القصبة بأحشائها ودروبها المثعبنة وسلامها الصاعدة. كانت قراءتنا والقصص التي تُروى داخل عائلاتنا وبوقالات نساء سانت أوجين، تدفعنا أكثر فأكثر إلى اكتشاف أسرار القصبة. فكلّما سألنا جارة عن أصل قماش جميل ورائحة مخدّرة أو عن تحفة من التحف القديمة إلا وكان الجواب : القصبة. تجدر الإشارة إلى أنّنا، سامية وأنا، كنا نقتني مشترياتنا الشخصية من شارعٍ ميشلي وإزلي، وهما الشارعان التجاريان الأساسيان للدزائر حيث تتجمع جميع محلات الماركات المشهورة والمحلات الكبرى مثل « السوق الجميل » و« أروقة فرنسا ». كنا نتبصّع من هذه المحلات بسعادة ظاهرة لأنها، أولاً، توفر لنا اختيارات متنوعة للسلع، ولأننا، أيضاً، نكتشف فرحة اختيار ملابسنا بأنفسنا زيادة إلى سعادة دفع أثمانها بأنفسنا كذلك، مما سمح لنا بنمو أذواقنا وغزو جميع أسرار الأناقة الأوروبية، تلك الورقة الراححة الثمينة التي ساعدتنا كثيراً بعد سنوات قليلة على تقنّعنا.

ابتداءً من السنة الأولى، كان توقيتنا معبّأً بالدروس النظرية والحصص التطبيقية والأعمال الموجهة والبحوث في المكتبة. نجحنا في تنظيم وقتنا بسرعة فائقة بحيث استفدنا استفادة كاملة من الدروس التي تعجبنا، وكذلك من ساعات حريتنا لاكتشاف « الدزائر »، بمفردنا وبلا مصاحب، كالراشدات. هكذا استطعنا مشاهدة أفلام كثيرة، روسية وإيطالية لما بعد الحرب الثانية والتي فتحت لنا آفاقاً

اكتساب الوعي

جديدة، كما كنا لا نفوّت درسا من دروس أندري ماندوز الذي كان مجندا ضد الاستعمار ومساوئه. جلبت لنا تلك الدروس خطابا جديدا كلية كشف لنا أوروبيين يقتسمون معنا أفكارنا ومواقفنا. كانت دروس أندري ماندوز، التي تقام في كلية الآداب، تُتبع بنقاشات صاخبة، وأحيانا عنيفة بين مُريديه وخصومه. اكتشفنا قراءات ونقاشات الشاعر جان سيناك، الذي كنا لا نعرفه إلا من خلال مقالاته في جريدة « الجزائر الجمهورية »، والتي كانت هي أيضا تنتهي بشجارات. فبرغم قواعد تقاليدنا، إلا أنّ حياتنا اضطربت كلية تحت تأثير تلك المحاضرات والندوات والنقاشات وكذا بالتعرف اليومي على أخبار الجرائد والمجلات : الصحافة المحلية مع « ليكو دالجي »، « لاديباش دالجي »، و « ألجي ربوبليكان » (الجزائر الجمهورية)، والصحافة الفرنسية الباريسية مع « فرانس أوبسرفاتور »، « لِكسبريس »، « لوموند »، « لومانيتي »، ومجلات إيسبري والأزمنة الحديثة التي كان يشرف عليها جان بول سارتر. هكذا، وفي عام واحد، السنة الجامعية 1954/1955، تمكّنّا من سدّ ثغرات السنوات الماضية. وقد كنّا نطالع أيضا نشرات أحزاب وجمعيات حركتنا الوطنية : الجمهورية الجزائرية (UDMA) والجزائر الحرة (PPA/MTLD) والبصائر لجمعية العلماء. فتزوّدنا الصحافة بالأخبار ومقالات الرأي والتحليل المختلفة، فيما كانت محاضرات الشخصيات المجتدة في كفاحها ضد الاستعمار تمنح لنا الوسائل للفرز بين أصدقائنا وأعدائنا من الأوروبيين. كما كنا أيضا نكتشف الكتاب الجزائريين : محمد ديب، مولود فرعون، مولود معمري، وكاتب أعمدة لامع وصاحب في « الجزائر الجمهورية »، كنا نجهل صِغَر سنّه، هو كاتب ياسين. ومع ذلك، فإنّ كل هذه الصحافة، كل هذه الكتابات التي كنا نلتهمها يوميا، كل تلك المحاضرات والندوات التي لم نتأخر عن واحدة منها، لم تتمكن من الإجابة عن سؤال واحد كان يؤرّقنا ويقضّ مضاجعنا :

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

كيف نتمكن من الاتصال بمُفجِّري 1 نوفمبر 1954 ؟ من هُم ؟ وكنا نعرف أنَّ الجواب لن تمنحه لنا الصحافة الفرنسية، سواء المحلية منها أو الباريسية.

منذ البداية، فقد أدانت هذه الصحافة انفجار حرب التحرير، بما في ذلك جريدة « ألجي ريبوبليكان » المتعاطفة مع العرب عموما، وقد تصدر صفحاتها الأولى عنوان « اعتداء انتحاري »، وقد أثارت خيبة أملنا. فكانت الصحافة الفرنسية طوال السنة الجامعية 55/54، تعلن بانتظام، ومدعِّمة بالصور، اعتقال أو وفاة مناضلين، تقدِّمهم كأشخاص ارتكبوا جرائم القانون العام. وكان اعتقادنا بأنَّ حركة 1 نوفمبر 1954 هي الحلُّ الوحيد والحقيقي للتخلص من الاستعمار يتعاضم كلُّما راحت الصحافة الفرنسية تقلل من شأن العمليات العسكرية وتشوُّه طبيعة هذه الحركة التحررية. وكان هذا اليقين الراسخ في نفوسنا تُدعِّمه وتشرحه أربعة أسباب : يكمن أولها في طبيعة الاستعمار الاستيطاني بظلمه وقساوة معاملاته اليومية تجاه الجزائريين وذلك منذ أزيد من قرن من الزمن. ولم نكن بحاجة إلى الصحافة ولا إلى المحاضرات لنعرف أسرار وواقع شعبنا المحروم من أراضيهِ وتاريخهِ وهويته، وحتى من اسمه. لم يكن لدينا الحق لأن نكون جزائريين، كنا فرنسيين مسلمين. لقد تحوّل شعبنا إلى « أنديجان » بهوية ممسوخة، وهو على أرضهِ التي سقاها بدمائه، ولكنه يُغتصب ويُسرق ويهان يوميا، إلى حدِّ طوَّقوا هويته في « قانون الأهالي » الذي يرفض مساواته في مواطنة واحدة مع الفرنسيين، أي ينكر عليه حتى طبيعة « شعب » بكل ما تحمل هذه الكلمة من مقومات ثقافية وتاريخية. وكنا على دراية عميقة بهذه الحقيقة، ولم يمنعنا الانتماء إلى فئة اجتماعية محظوظة، وهي قليلة العدد مقارنة بالواقع المزري لأغلبية الشعب الجزائري، من التمسك بهويتنا الأصلية، بل وصدّنا ضد الانسياق خلف الدعايات الزائفة التي تروّجها الصحافة الفرنسية – وقد عشنا في مسارنا المدرسي ذلك الشرخ والتمزّق في

اكتساب الوعي

هويتنا وتقاليدنا - ووسائل إعلامها، وذلك بفضل يقظة عائلتنا في تعليمنا لثقافة وتاريخ شعبنا. وإلى جانب الأخبار التي تذيبها الصحافة، كانت هناك أخبار أخرى، أكثر أهمية ومصداقية بالنسبة لنا، تنتقل سرًا من شخص لآخر، داخل عائلة سامية، وفي الحَمَام، وحتى في الجامعة. وكانت هذه الأخبار تكذب وتفكك تلك التي تروجها الصحافة الاستعمارية بحيث حولتها إلى وسيلة دنيئة للدعاية المغرضة.

يُعتبر الحَمَام عندنا ميدان السيادة المطلقة الذي لا يعوّض ولا يُخترق، تختلف إليه وتتعايش بداخله النساء من جميع الأوساط الاجتماعية والأعمار في التحام تضامني لمواجهة جميع السلطات : سلطة الرجال وسلطة فرنسا. بفضل سحر الحَمَام، تنهار جميع القيود الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أسّسها رجالنا أو المجتمع الأوروبي. وداخل الحَمَام، تصلنا تفاصيل الأفعال البطولية والأحداث الجسام عبر حكايات لا تقدر على نسجها إلا نساء بلدي. تنسجها كما تنسج الزرابي وتطرزها كما تطرز قطع القماش الرائعة وتفصلها كما تفصل الخياطة أقمشة لتصنع منها ألبسة تفتن الأبصار. تقدّم نساؤنا هذه الحكايات ملفوفة في دقة متناهية بأسماء الأماكن والتواريخ المضبوطة وأنواع الأفعال وأسماء الأشخاص، وتضيف إليها - لتمنح لها تناسقا وانسجاما مع خيالنا الخاص - علاقات مذهلة مع تاريخنا وأساطيرنا، علاقات مع شخصياتنا المشهورة وأبطالنا الخرافيين، وإلى غاية صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم. في الحَمَام، علّمنا النساء بأنّ أبطالنا يُسمّون بـ « المجاهدين »، وأنّ أولئك الذين قتلهم عسكر فرنسا هم « الشهداء ». كان المجاهدون، في تلك الحكايات، مغلفين بضياء رباني، ويتصف جميعهم بطول القامة، والقوة، والجمال الفحولي، ولا يموتون ولا يُقهرُونَ أبدا لأنّ لهم حياة أخرى بعد الموت، وقد يظهرون تحت أشكال أخرى في هذه الحياة. كنّا نلتهم أقوالهن، ولا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

نفوت شيئا من أقاصيصهن التي يحكونها دائما باعتبارها أسراراً لا تُروى إلا للأعزاء والمقربين. فنخرج من الحمام متحمسات، ومجندات للقضية الوطنية ومقتنعات أكثر من أي وقت مضى بأن حركة مفجّري 01 نوفمبر 1954 قد انتشرت وسط الشعب وتجذّرت، وأنه يساندها ويحملها على عاتقه، ومستعد للتضحية من أجلها، خلافاً لما تروّجه الدعاية الاستعمارية. إنها حركة ثورية حقيقية، ولكن حماسنا يصطدم دوماً بعجزنا على الدخول في اتصال مع أولئك الثوريين. كنّا نغادر الحمام، نستعجل الوصول إلى الدار كي نتقاسم كنوز أخبارنا المستقاة مع والدة سامية. تنحدر ماما زهور، من جانب أمّها، من سلالة الأمير عبد القادر، وكانت تملك وعياً وطنياً شبه غريزي وهي دوماً مجنّدة إلى جانبنا، حتى وإن اقتضى الأمر مواجهة زوجها بعد ذلك، لتحميننا. لقد أظهرت لنا ذلك مبكراً، فكنا نعتبرها شريكنا وحليفتنا دون الإجهار بذلك. وقد أدركنا، خلال مناقشة وحوار صاحب داخل عائلة سامية ابتداءً من نوفمبر 54، إلى أي حدّ يمكن لكل واحدة منا أن تذهب في تجنيدها لصالح الاستقلال.

ذات يوم، وكنا في نهاية الأسبوع، عاد والد سامية ويده بيان جمعية العلماء المسلمين الذي يندّد فيه بوضوح لا يقبل النقص بإعلان الحرب التحريرية وبرجالها. قرأ علينا البيان وشرحه لنا وربما كان غرضه أن يحمينا من إمكانية اختيار حقل النوفمبريين، وأن يجعل في عيوننا بديل جمعية العلماء « أكثر واقعية »، وأقل خطورة، وبالأخص تهدئة حماسنا الذي لم نخفه يوماً، سامية وأنا، لصالح حرب التحرير منذ اندلاعها. في البداية، لم نتجرأ على نقض أقوال السيّد لخضاري، قاضي الدزاير، ولكن ماما زهور أنقذتنا بردها الحاسم والحجج الدامغة، معلنة موقفها بقناعة راسخة، قائلة : « من جهة توجد فرنسا وحلفاؤها، ومن جهة أخرى الثوار الشباب الذين

اكتساب الوعي

أرادوا تحرير البلد . يجب على كل جزائري أن يحسم موقفه ويختار الجهة التي يساندها : أن نكون مع أو ضد استقلال بلدنا مهما كلفنا الأمر . وليس من حقّ علمائنا أن يكتبوا ما قرأته علينا حول المجاهدين . « . مما أدّى بزواجها إلى تغيير موضوع المناقشة، قبل أن يصفق الباب ويخرج إلى الشارع .

ومنذ ذلك اليوم، تغيّرت نظرتنا تجاه ماما زهور اللطيفة، وإن كنا نحبتها ونحترمها كثيرا قبل تلك الحادثة ؛ لأنها اكتفت بتوجيهنا من بعيد، بسبب انشغالاتها المنزلية الكثيرة، حتى وإن لم تبخل أبدا عن تسديد نصائحها لنا وحضنها بلطفها وحنانها . لقد صنفنا في مرتبة أعلى من مرتبتها لأننا جامعيتان، وكادت أن تقنعنا بهذه المرتبة من كثرة تكرارها . في ذلك اليوم، زادت ماما زهور نضجا لأنها سمحت لنا بفهم أهمية التجربة والمعاش وتواصل ثقافة الأجيال وترسّب عناصر هويتها . أهدت إلينا في ذلك اليوم الحجة التي لم نتخلّ عنها أبدا والتي قادت خطانا نحو جبهة وجيش التحرير الوطني . لقد عبّرت ماما زهور بوضوح وبصوت مسموع عمّا كنا نحسّ به في أعماقنا ولكنه مشوّش ولم نعرف كيفية تسميته كما أننا لم نجرؤ على مناقشة المسألة مع أحد . بل ذهب ماما زهور بعيدا في حل المعادلة، فلم تكتفِ بطرح عناصرها فقط بل تجاوزتها بأمرها لزوجها وابنتها ولي أيضا أن نختار موقعنا ابتداءً من تلك اللحظة، كان اختيارنا واضحا للعيان : موقعنا هو نفسه موقع النوفمبريين وحرب التحرير الوطني . حدث كل ذلك بفضل مشاركة وحماية وتدعيم ماما زهور . أما سبب اختيارنا الثالث، فإننا صقلناه منذ أن كنا في الثانوية : يتعلق بموازين القوى الجديدة التي ظهرت كنتيجة للحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد هزيمة فرنسا في ديان بيان فو والكفاح من أجل الاستقلال في تونس والمغرب ومدغشقر . هكذا، ستسكننا فكرتان قويتان : أنّ فرنسا ليست تلك القوة التي لا تُقهر، فلم يقاوم جيشها أمام زحف القوات الألمانية

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

لاحتلالها، بل أكثر من هذا، لقد عمد 80 % من النواب الفرنسيين إلى الانتخاب لصالح الهدنة، ما يعني الاستسلام أمام الجيش الألماني، دون حساب أنّ النخبة الفرنسية في أعمها تعاونت مع المحتل الألماني، وساندت الماريشال بيتان وحكومة فيشي. وفي الوقت نفسه، كنا على وعي تام بأنّه لولا بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية، كان يصعب على فرنسا أن تتخلص من الاحتلال الألماني. أتفهم اليوم جهود فرنسا لتأسيس روايتها الوطنية التي تسند تحررها إلى الجنرال ديغول ولمقاوميهها، ولكننا، حتى في تلك الفترة، لم نكن سُدجا. كنا نعرف أنّ أمثال ديغول وجان مولان لم يكونوا يشكلون الأغلبية في فرنسا، أيام الاحتلال النازي.

ابتداءً من 1952 و1953، سمّحت لنا دروس أستاذتنا الممتازة في مادتي التاريخ والجغرافيا، السيّدة توماس، وكذا قراءتنا المتواصلة لجريدة « ألجي ريبوبليكان » (الجزائر الجمهورية) التي كانت تزوّدنا بها خفية وكل يوم ميمي بن سماعيل، بفهم أنّ الحرب العالمية الثانية، زيادة إلى ملايين القتلى، جرّت معها تقسيما جديدا للعالم، بين قوتين عظميتين : الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي. لقد تمّ رسم خريطة جديدة للعالم، لا تحتل داخلها فرنسا – تلك القوة الامبريالية السابقة، والتي كان إعادة بنائها يخضع كلية لمشروع مارشال الأمريكي – أيّ موقع مؤثر بل أصبحت تدور في فلك الولايات المتحدة الأمريكية. إنّ السؤال الذي طُرح علينا نحن الثلاثة، سامية وميمي وأنا، هو معرفة في أيّ جهة ينبغي أن نتموقع، علما بأنّ بلدنا كان عبارة عن ثلاث مقاطعات فرنسية، فيما كانت مصالح شعبنا متناقضة تماما مع مصالح الفرنسيين الذين يستعمرون أرضه. وكانت النتيجة الطبيعية أننا انضممنا إلى جانب الاتحاد السوفييتي بكل وعي ومنطق. ولا يعني هذا أننا كنا نشعر بالتقارب مع الشيوعيين، حتى وإن كنا نلجدهم أكثر إنسانية واحتراما

اكتساب الوعي

لآخر وأعجبنا بنضالهم (وهي حالة السيّد توماس مثلاً)، فكنا نصنّف الأحزاب والجمعيات والجرائد وفق مواقفهم تجاهنا نحن « الأهالي »، موقفهم من وضعنا كمستعمرين، كمواطنين من الدرجة الثانية وكذا موقفهم من النظام الاستعماري. فابتداءً من 1952 و1953 كنّا نملك زادا من الثقافة الأدبية والتاريخية والسياسية كي نعرف بأن الشيوعيين قد ندّدوا بالمظاهرات السلمية للثامن ماي 1945، بل وأيدوا القمع الشرس، وبالتالي المجازر التي ارتكبت في حق الشعب الجزائري، باسم تحليل لا يستقيم عند كل عقل سليم. كنّا نحن الثلاثة نشكّل (حركة أصدقاء بيان الحريات)، المتعاطفة مع حركة انتصار الحريات الديمقراطية. كنّا نحترم جمعية العلماء ولكننا وجدنا مواقفهم لينة، وكان الشيخ العربي التبسي أفضلهم عندنا وكان يدرّس في بلكور؛ كما كانت شخصية فرحات عباس تفرض نفسها علينا وكنّا فخورات به، ونتابع ونحلل تصريحاته وجميع خطبه، حتى وإن كنا نعتقد بأنّه هو وحزبه (الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري) يضيّع وقته بمشاركاته في مختلف الانتخابات التي كانت نتائجها معروفة سلفاً. كنا - في حقيقة الأمر - نشكّ في إمكانية تحرير شعبنا عن طريق الانتخابات وفي إطار النظام الاستعماري، فلم نكن نؤمن بهذا الحل إطلاقاً. وكان الأفضل عندنا هو مصالي الحاج والحزب الذي كان يتوافق مع أفكارنا وأحلامنا هو حركة انتصار الحريات الديمقراطية. كنا نقسم تحليلاته لوضع شعبنا، لأسباب يؤسه المدقع وجهله وأميته والتي تعود إلى سبب واحد لا غير: الاستعمار الاستيطاني ونظامه الظالم وهيمنته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية. كنا متوافقات كلية مع حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية حينما تصف النظام الكولونيالي بنظام عنصري قائم على الاعتقاد الخاطئ بتفوق الجنس الأوروبي على جنس الأهالي والذين حوّلهم إلى وضع تحت البشر، غرباء عن أرضهم. كنا نقسم ونعجب

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

بدقة وصحة تلك التحاليل وشجاعة مواقفه، وفوق كل هذا، كنا معجبات بارتباطه ودفاعه عن الجماهير الشعبية العريضة والفقيرة والتي تشكّل أغلبية الشعب الجزائري، وحقنا في الاستقلال مهما كلفنا ذلك من ثمن. كانوا يشكلون « الاستقلاليين التاريخيين » ويتكلمون باسمنا جميعا. اعترفنا بحق وشرعية تمثيلهم لنا. في تلك الفترة (1952/1953)، كنا تلميذات بسيطات في الثانوية، ولا نناضل في أي تنظيم. كانت مواقفنا واختياراتنا فكرية محضة، ندين بها لقراءاتنا ونقاشاتنا الحماسية، قراءة أدب عصر الأنوار، وتاريخ الثورة الفرنسية، وإعلان حقوق الإنسان والمواطن لسنة 1793 والذي أعدنا كتابته بخطّ يدنا وكانت سامية تتدرّب من أجل حفظه عن ظهر قلب، أما ميمي فكانت تتشبه أحيانا بدانطون، وأحيانا أخرى بسانت جوست. أما فيما يخصني، فبعد أن أُعجبت بمونتسكيو، اكتشفت مقالا لكليمانصو ناولتني إياه السيدة توماس، فقد صُدمتُ فعلا... أن يرى « الأنديجان » حياته موصوفة بدقة في كتاب، يترك في نفسه انطبعا خاصا، حتى وإن كان يعيش هذه الحياة ويحتك بناسها يوميا.

ابتداءً من سنّ 17 ونحن في قسم « الثانية » ثانوي، بدأت عائلتنا تكشف لنا بعض الأخبار العامة وتسمح لنا بقراءة بعض المنشورات السياسية والجرائد وحتى البيانات التي توزّعها المنظمات والأحزاب الوطنية. ويحدث أن يعيش تحت سقف واحد مناضلون من تيارات مختلفة من الحركة الوطنية. هكذا كان عمّي من الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وأخي من حركة انتصار الحريات الديمقراطية. أما ماما زهور، فكانت النموذج المكتمل لمناضل حزب الشعب وحركة انتصار الحريات الديمقراطية المطالبة بالاستقلال، حتى وإن لم تحمل بطاقة الحزب. وأضيف هنا أن والد سامية وابنه مالك كانا وطنيين بقناعة راسخة، فهما يملكان ثقافة مزدوجة كبيرة، ولكنهما حذران وأقل جذرية

اكتساب الوعي

من ماما زهور، وقد ساهما بشكل فعال في تشكيلنا الفكري واكتساب وعينا الوطني. في سنتي 1953 و1954، كشف لنا مالك عالم السينما الساحر والمسرح بقوة تأثيره، كما علّمنا أيضا استعمال الإحصائيات، خاصة تلك التي تقدّمها الإدارة الاستعمارية وهي مزوّرة عمدا، كي تتشكّل لدينا معرفة « علمية مدعّمة بالحجج » - مثلما كان يقول - للوضعية الاجتماعية والسياسية والثقافية لشعبنا. كان يكرّر دوماً بأنّ عائلتي المرفّهتين من الناحية المادية تمثلان قطرة ماء في بحر البؤس العصبي الاحتمال الذي يزرع تحته شعبنا الذي يقتات على فضلات الكولون، وهو في أرضه، في بيته. كان يقول : « حوالي 50 % من ذويننا بطالون ودخل الأوروبي المتوسط يفوق 10 مرات دخل الأنديجان ! » ثمّ يؤكّد : « لا تعتقدن أنكن، أو أننا نمثّل جماهير الشباب الأمّي : أقل من 9 أطفال من العرب على 100، يسجّلون في المدرسة الابتدائية، وعدد قليل جدا منهم يصل إلى الجامعة ». كان يتلفظ بهذه الحقائق بغضب أصم، متحفّظ ولكنه جلي للعيان. في تلك اللحظات، كنا، سامية وأنا، نحتمي داخل صمت مزعج، كما لو كنّا مذنبتين كوننا من المحظوظين.

كان « مالك » ذا طبيعة مرحة ووجه بشوش وميّال للتسامح، فيعود باستمرار إلى الموضوع ويعتذر ويشرح لنا بأنه من واجبنا أن نستغل الوسائل والفرص المتاحة أمامنا كي نساعد شعبنا مستقبلا : « إنّ الفتيات مثلكن هنّ اللائي سيغيّرن الأوضاع لصالح الجميع. حينما لا نعرف الكتابة ولا القراءة، ولا حتى صناعة إبرة، لا نستطيع تقديم شيء لشعبنا، وبالأخص تحريره ». تتجرّأ سامية وتجيبه : « وليست جمعية المعهدين (Assemblée des deux collèges) التي انبثقت عن مسخرة الانتخابات هي التي ستغيّر الأوضاع ! » انطلق مالك يضحك بصوت مسموع، وأسرّ لنا بغموض : « أتفق معكما، ولكن الوقت لم يحن بعد لتغيير الأوضاع رأسا على عقب، لأنّ الشعب غير مستعد

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

لذلك . تساءلت في رأسي الصغير عن هذا الشيء الذي لم يكن الشعب مستعدا له وغرقت في أفكار حزينة، مليئة بالمرارة. استحضرت الصور التي تصدمني في كل مرة حينما ألج حيا عربيا لمدينة « الدزاير »، بعيدا عن الشوارع النظيفة والفيلات البراقة وعمارات الأوروبيين المهيبة. فكانت ذاكرتي تتعج بمشاهد لحشود من الرجال والنساء والأطفال الضمر، بأسمالهم الرثة، ونظراتهم الوقورة، المتعالية أحيانا، الذين يعيشون في فقر مدقع، ترزح أكتافهم تحت هذا البؤس الذي يوجع بطن الذي يشاهده، كما يعذب الجوع أولئك الذين يُجربونه. يعتريني الغضب، وتصعد الدموع إلى عيني، وقبل أن تبدأ في السيلان، يهزني مالك ويسألني بالعربية الدزيرية : « واش بيك زهرة ؟ غرقوا بوابرك ؟ » فأستعيد رباطة جأشي وأتجرأ بدوري لأعبر له عن رفضي لهذه الانتخابات وتلك الجمعية التي تمنح للناخب الأوروبي الثقل السياسي لـ 9 ناخبين مسلمين ؛ فأوضح له كيف أن 900 000 أوروبي يهيمنون ويسحقون 9 ملايين من المسلمين بفضل قوانينهم التمييزية، وخطرستهم الفظة ونظام الامتيازات، وأن بؤس ذويننا وجهلهم نتيجة تلك القوانين الجائرة، وليس السبب. انطلق مالك في ضحك جهوري وتنبأ لي بمستقبل زاهر في سلك المحاماة لأنه يعرف بأنني كنت أريد دراسة القانون لأصبح محامية. ولقد دفعتنا تلك المناقشات والحوارات عند نهاية كل أسبوع من سنة 1954 إلى أن نطلب منه أن يزودنا أكثر بالأخبار والمنشورات المتنوعة. كنا نشك أنه ينتمي إلى حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري الذي يترأسه فرحات عباس، ولكنه كان يُبقي نشاطاته خارج البيت في سرية تامة ولم يرد تأكيد أو نفي شكوكنا. وزادتنا حماسا هزيمة فرنسا في ديان بيان فو، وانتصار الهنود الصينيين الذي عشناه مثل انتصارنا الخاص وانتصار جميع الشعوب التي تعيش وضعاً مشابها لوضعنا. لقد انتهت تجربة المدغشقرين وإخواننا

اكتساب الوعي

في المغرب إلى إقناعنا بأننا كنّا في مواجهة مرحلة تاريخية جديدة، تطبعها ثورة الشعوب وحركاتها المطالبة للحق في تقرير المصير والاستقلال. وكنا، سامية وميمي وأنا، ننتهي دوماً في حواراتنا ومناقشاتنا إلى نتيجة واحدة: متى سيأتي دورنا؟ سيحدث حتماً، وعن قريب. وأخيراً، كان السبب الأخير الذي يفسّر اختيارنا للوقوف مع المبادرة التي فجّرها أهل نوفمبر 1954، يتمثل في الوضع الوطني منذ ماي 1945. في تلك السنة، كان عمري 10 سنوات، وما أتذكره هو جوّ الخوف والقمع والاعتقالات في الخارج، وهمسات الكبار المخيفة داخل البيت الذي كان يأوي، أحياناً، اجتماعات مجموعة من الرجال ابتداءً من سقوط الليل. خيم جوّ من السرية المطلقة ومداهمة الخطر. بمجرد أن يجمعونا، نحن الأطفال والنساء، في المطبخ، أدرك أنّ غرباء جاءوا إلى البيت وكانوا من ذوينا دون أن أراهم أو أعرفهم. كنت أعرف أنه يحرم عليّ طرح الأسئلة أو إفشاء خبر هذه الزيارة إلى أحد مهما كان، لأنني سأعرض حتماً أبي وكل عائلتي إلى الخطر. كنت أعرف هذه الأشياء بالغريزة، بلا شرح. خاصة وأنّ عمّي قد اختفى منذ أيام ليهرب من موجة الاعتقالات التي نزلت على شباب المنطقة، وحينما كنت أصر على معرفة مكان اختفائه ولماذا اختفى، كانت النساء يوبخنني ويحذرنني من طرح مثل ذلك السؤال، بنبرة جادة ومهدّدة، وأن لا أروي ما يحدث في البيت وداخل العائلة إلى أحد. وانتهى بهنّ الأمر إلى تغذية ثقافة السر والشك في الآخر عند جميع الأطفال. وفي الوقت نفسه، كانت النساء يعلمننا الأغاني التي لا يجب أن نغنيها إلا داخل البيت، وبصوت خفيض، وأن لا نجهربها في الخارج أبداً.

فهمت فيما بعد، في الثانوية، أنه نشيد حزب الشعب الجزائري، تكريماً للشهداء الذين سقطوا في مجازر الثامن ماي 1945 تحت رصاص القوات الاستعمارية. وقد شكّل ذلك التاريخ بالنسبة إلينا، ميمي و سامية وأنا،

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

والذي تعرفنا على تفاصيله أيام كنا في الثانوية، القطيعة النهائية والختمية مع النظام الكولونيالي. وكانت سامية وأمها ماما زهور، وهي قسنطينية الأصل، تحتفظ من تلك المجازر بمشاهد مؤلمة وتفصيل تدمي القلوب. وقد خصصت ماما زهور بعض الوقت، عند كل نهاية أسبوع، لتحكي لنا أولا شجاعة رجالنا ونسائنا وأطفالنا الذين خرجوا يتظاهرون وليس بأيديهم أي سلاح، يدفعهم حقهم في الحرية في يوم تحرير أوروبا من الهمجية النازية، والذين شاركوا بالآلاف، وأغلبهم ضحوا بأرواحهم من أجل أن تتحرر شعوب أوروبا؛ ثم تروي لنا الهمجية والقساوة والبربرية التي استخدمها الفرنسيون لقمع تلك المظاهرات السلمية. استشهد عشرات الآلاف من الجزائريين، بالأخص في مدن سطيف، وقلمة، وخراطة. وقد تعرض كثير من أقرباء ماما زهور إلى القتل الوحشي والاعتقال والتعذيب الحيواني. تُكرّر على مسامعنا أسماءهم وتصف لنا الطريقة التي قُتلوا أو عذبوا بها. انتهى بالكثير منهم إلى الرمي في مقابر جماعية. حدثتنا ماما زهور عن أطفال وفتيان الكشافة الإسلامية لمدينة سطيف الذين قُتلوا دون اعتبار لحدثة سنهم، كما حدثتنا عن السفاح « أشياري » وجرائمه في قلمة، وكذا مطاردة النساء والشيوخ والأطفال في جبال ضواحي بجاية وجبال البابور، التي قام بها الجنرال دوفال الذي بعثه ديغول لقمع المتظاهرين. كان يوم الثلاثاء، الثامن ماي 1945، يوم سوق أسبوعي في سطيف، وكان يرتاده عدد كبير من الفلاحين الفقراء وسكان الأرياف المجاورة للمدينة. وقد انضموا للمظاهرة، التي نادى بها حزب الشعب الجزائري، بغفوية وتلقائية، يتقدمها أطفال وفتيان الكشافة الإسلامية وشباب الثانوية، وكان أحدهم من عائلتها. وقد رفع أحدهم الراية الوطنية التي تظهر لأول مرة وسط الجمهور. وعند رؤيتهم لتلك الراية، استشاط الأوروبيون غيظا وبدأوا يطلقون الرصاص في كل الجهات. حدثت مجزرة لا نظير لها في التاريخ الحديث، لأنّ الجزائريين كانت أيديهم فارغة ولا تحمل أي سلاح،

اكتساب الوعي

ثمّ استتبع ذلك مطاردة شرسة للعرب أينما كانوا، والتي دامت أسبوعين في سطيف وقسنطينة وبرج بوعرييج وخرّاطة وقلمة. في مدينة قلمة، قام السفّاح « أشياري » رئيس الدائرة، على رأس مليشية من الأوروبيين، فنظم مطاردة وحشية لا نظير لها ضد العرب. لقد اخترع طريقة جديدة لإبادة العرب : كان يرمي الرجال والأطفال داخل حفر ويرمي فوقهم الجير المغلّي. كما بعث ديغول الطيارات لقنبلة المداشر والقرى الجبلية. فبعد أسبوعين من المجازر وقتل عشرات الآلاف من العرب الذين رُموا في حفر جماعية، دون الحد الأدنى من احترام كرامة الميت ودفنه وفق دينه وطقوس ثقافته، نظم الجنرال دوفال، صديق ديغول، عملية استسلام العرب ليزيدهم إذلالا وتعذيبا. حكّت لنا ماما زهور أنّ هذا الجنرال وجيشه جمع، في سهل ملبو الضيق، بضواحي بجاية، سكان منطقة البابور من الرجال والنساء والأطفال، وأجبرهم على الركوع على ركبهم وطلب العفو من فرنسا وإعلان خضوعهم وأن يصرخوا : « نحن كلاب وتحتيا فرنسا ». كما نظموا يوم 11 ماي 1945 استعراضا لوححدات الجيش الفرنسي من المشاة والبحرية والطيران ليبينوا عظمتهم أمام الأهالي المذهولين. وفي تلك المناسبة، صرّح الجنرال دوفال : « ها قد جلبت السلم لمدة 10 سنوات على الأقل ». أقل من عشر سنوات، فكان تاريخ 01 نوفمبر 1954... وعندما تصل ماما زهور إلى هذا المستوى من الحكاية، تجهش بالبكاء وتردّد بمرارة : « واش يدير الميت في يد الغسّال ؟ ». ثمّ، وفي وصية ودعاء أخيرين، تحرّضنا على « عدم نسيان موتانا وأن لا نثق أبدا في فرنسا، عدونا وعدوّ رسولنا ». نقسم بالوفاء بالعهد وبأننا سننتقم يوما.

كان يوم 08 ماي يوم عطلة ويحتفل به أصدقاؤنا الأوروبيون في بهجة وحبور. لم يكن كذلك بالنسبة إلينا، كان يوم حداد لنا. فنجتمع بماما زهور لتروي لنا، مرة أخرى، تفاصيل تلك المجازر الوحشية في حق جزائريين خرجوا يتظاهرون

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

سلما . ابتداء من قسم « الأولى » في 1953، وعمري آنئذ 19 سنة، مررنا من الاحتفاء العاطفي إلى الاحتفاء السياسي وتغذية الذاكرة بإرادة واعية .

كانت سنة 1954 سنة حصولي على شهادة البكالوريا، وسنة ذلك الصيف الحار في فيالار، وسنة انفجار ثورة التحرير في 01 نوفمبر، وسنة دخولي الجامعة في 12 من نفس الشهر. بداخل الجامعة، كان يسود جوّ من الحمّى والعنفوان شبيه بالذي تركته في فيالار. عدنا، سامية وميمي وأنا، إلى اللقاءات اليومية الغاصة بالمناقشات الصاخبة. سجّلت ميمي في كلية الآداب، وكانت أكثر راحة وتأنقلا مع الوضع الجديد داخل الجامعة، فخلافا لنا، كان لها أصدقاء من بين الطلبة سواء من المسلمين أو من الأوروبيين، وكم كانت تتسلّى كثيرا من موقفنا المتحفّظ، وتسمينا « الأختان الطيّبتان » وتعمل على إخراجنا من « سذاجتنا »، مثلما تقول مقهقهة بصوت مرح. كانت ميمي « الدزيرية » تعرف كل شيء عن الحياة في العاصمة وأوساطها الغنية، عن الجامعة ونواحيها وجمعياتها وكل تيارات الأفكار التي تحدث بها. كنا، سامية وأنا، مبتدئتين، فلقّنتنا ميمي ما يجب أن نعرفه للاندماج في فضاءنا الجديد، كتعليمنا أسماء الفاعلين والناشطين والمتعاطفين لكل تيار : الشيوعيون، المسيحيون اليساريون، جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا – فرع جامعة الجزائر – و « المتطرفون » من الفرنسيين، وكان أحد قياديينهم السّفاح « لاڤيارد ». كانت ميمي عضوا نشطا في جمعية الطلبة المسلمين وخليتها النسائية، وطبعاً، باعتبارها مناضلة جيدة، عملت المستحيل لتجنيدنا. وقد تزامنت تلك الأيام مع قرب انعقاد الجمعية العامة لفرع جامعة الجزائر لمناقشة تقرير نشاطه السنوي والمصادقة عليه وانتخاب المكتب الجديد. عرضت علينا ميمي كامل حججها لتشرح لنا أنّ الحملة من أجل انتخاب مكتب جديد كانت في أوجها وأنّ المنافسة شديدة وشرسة لأنها تواجه طلبة مناضلين في أحزاب وطنية متعدّدة – الحركة من أجل

اكتساب الوعي

انتصار الحريات الديمقراطية، والاتحاد الديمقراطي من أجل البيان الجزائري، وجمعية العلماء، والشيوخيون - فاقترحت علينا الانضمام إلى جمعية الطلبة المسلمين كي نتمكن من الانتخاب والتأثير على اختيار المسيرين الجدد. ولكن ميمي، برغم موهبتها كـ « رقيبة تجنيد » وقوة إقناعها، فشلت في إدخالنا إلى صفوف جمعية الطلبة المسلمين، فكان رفضنا رفضا مؤدبا وباردا وعنيدا، ولكنه قاطع لا يقبل النقض، ذلك أنّ اختيارنا كان قد تمّ. وكنا نعرف بالضبط ماذا نريد : الالتحاق بأولئك الذين فجّروا ثورة الفاتح من نوفمبر، وتمثّل مشكلنا الوحيد في كيفية الاتصال بهم. ثمّ إننا كنا نعرف، بفضل قراءتنا والأفلام حول المقاومة ضد النازية والمناقشات مع مالك، أخ سامية، أنّ الخاصية الأولى لمناضلي السرية هي الكتمان المطلق والاحتراس الشديد كي لا تلاحظ الشرطة أي نشاط من نشاطهم. لم يكن بوسعنا أن نشرح كل هذا لميمي، فلو فعلنا، كانت ستسخر من زعمنا، وتحذرنا من سلك ذلك الطريق لأن عواقبه خطيرة، نظرا للقمع البغيض الذي يسلّط على من يُكتشف عنده علاقة ما مع المقاومة المسلّحة، وكانت الجرائد تذكر باستمرار بعض الأمثلة من الواقع اليومي. وأمام لامبالتنا وكتماننا لسبب رفضنا، ضاعفت ميمي من جهودها لتقودنا إلى المشاركة في أشغال الجمعية العامة، مقتنعة بانضمامنا إلى جمعية الطلبة المسلمين إنّ وطئت أقدامنا قاعة الجمعية العامة، ولكن كل جهودها باءت بالفشل لأنّ رفضنا أصبح جدارا غير قابل للاختراق. حينئذ، استخدمت ميمي آخر ورقة لديها بغية إقناعنا والتأثير على عزوفنا من الانضمام إلى جمعية الطلبة : « اسمع يا بنات، يعلم الجميع من أنتما، ومقدار شجاعتكما. هل تتصوران أنكما ستقضيان سنواتكما الجامعية منعزلتين، كفتاتين مدلتين، غير معنيتين بنضال جمعية الطلبة المسلمين، إلا إذا قبلتما أن نعتبركما متعاطفتين مع الإدارة الكولونيالية ». تمكّنت ميمي

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

من هزّ رصانتنا بهذه الحجة الأخيرة، وإنّ كانت تعرف جيّدا قناعتنا بعدم فائدة الاجتماعات والجمعيات العامة ومقالات الصحف والمجلات، وأنها لا تشكّل، بأي حال من الأحوال، الجواب الذي يتطلبه الوضع في بلدنا، بل وكانت ميمي تعرف تعاطفنا مع « النوفمبريين » مثلما كنا نسميهم فيما بيننا. ومع ذلك، قاومت سامية بعناد فولاذي وقالت بأنه يستحيل عليها حضور وقائع الجمعية العامة، وكانت أشغالها ستنتطلق على الساعة السادسة مساءً، نظرا للنظام الداخلي الصارم للعائلة. أما أنا، بطبعي المتسامح نوعا ما، فقبلت على مضض أن أرافق ميمي إلى الجمعية العامة، وكلي انقباض وغيظ لأنني سأخترق قانونا وضعناه، سامية وأنا، وقد تواعدنا على احترامه، يتمثل في البقاء خارج دائرة عيون الشرطة ومصالح الاستخبارات الفرنسية التي كانت طبعا تتابع نشاطات الجميع. وكانت ميمي فرحة لأنها ستقدّم للجمعية مجنّدة جديدة، فيما اعترتني الكآبة لأنني قبلت مرافقتها وبالتالي ملاحظة أطراف عديدة لشخصي داخل قاعة الاجتماع. وقضيت الليلة أتخيل جميع السيناريوهات الممكنة كي يمر حضوري بأقل الأضرار. في الغد، ذهبت لأوّل مرة برفقة ميمي إلى نادي الطلبة المسلمين. عند وصولنا، كان الرواق يعجّ بحشد صاحب من الفتيان، ومن بينهم عدد قليل من الفتيات، يدخلون إلى قاعة المطعم حيث نصّبت منصّة وعليها طاولة. تسلّلت خلف ميمي التي كانت تحيي معارفها، فتطلق ملاحظة تجاه مجموعة، وترسل ضحكاتها المرحّة للردّ على تعليقات ومزح من هنا وهناك. كانت صديقتي تتميّز بشعبية كبيرة بحيث استقطبت جميع الأنظار، وتغطي كل من يحيطها، الشيء الذي سرّني لأنه سيسمح لي بالمرور خلسة، دون أن تنتبه إليّ العيون. جلست منزوية في مكان نصف مظلم، ركّزت اهتمامي أكثر على تفحص الوجوه الحاضرة، عوض سماع الخطب والنقاش الدائر الذي لم يكن يصلني منه شيء واضح. ولم يبق

اكتساب الوعي

لي من صور لذلك الاجتماع إلا صورة فتاة صغيرة وجميلة جدا بجداولها الطويلة والتي أبهرتني عفويتها وثقتها في نفسها، إنها مريم بلميهوب، وكانت لا تزال في الثانوية. ومع ذلك، أوصلت هذه الجمعية العامة إلى رأس قيادة فرع الجامعة لجمعية الطلبة المسلمين طلبة مناضلين في حركة انتصار الحريات الديمقراطية المطالبة بالاستقلال. أعلمتنا ميمي نهار الغد، ولم تفقد الأمل في تجنيدنا، فواصلت مطاردتنا بدعوات لحضور نشاطات « نادي الطالبات المسلمات »، مقترحة علينا تقديم كتب صدرت حديثا ككتاب « طبيعة الإسلام » لمالك بن نبي أو كتابة مقالات لمجلته، وبالأخص حول موضوع : « المرأة الجزائرية والحجاب ». حينها انزعجنا وشرحنا لميمي بوضوح لا يقبل أي تأويل رأينا حول نشاطاتها في نادي الطالبات المسلمات، فصرّحنا لها بأن مثل هذا النشاطات، ومهما كان نبيل وسخاء أهدافها، فإنها تبقى بلا أدنى فعالية وبعيدة كل البعد عن التضحيات اليومية للذين رفعوا السلاح لتحرير البلد. وفي جذريتنا الشبانية، واجهنا ميمي المسكينة بقولنا : « ليس الوقت وقت المحاضرات والمقالات الصحفية. الكلمة للسلاح ». ولكن ميمي الذكية والمقتنعة مثلنا، ردّت بشموخ : « ولكن الأسلحة أيضا تحتاج إلى اجتماعات وكلمات تحملها ». أجبناها : « لدينا هدف واحد، ولكن ربما نختلف في الطرق التي توصلنا إليه ». لم تؤثر قساوة أقوالنا على صداقتنا، فواصلنا لقاءاتنا ونقاشاتنا، مع احترام كل طرف للآخر. كان هدفنا واحدا : تحرير البلد.

• البحث عن مفجّري أول نوفمبر

كنا، سامية وأنا، نحرص يوميا على عدم إظهار موقفنا من الثورة، وأن لا نلفت الانتباه إلينا بالتدخلات العمومية وأن نحافظ على « حيادنا الظاهري » حتى وإن ألصقت فينا الإشاعة تهمة التعاطف مع « الإدارة ». ذلك أن هدفنا

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

كان واضحا ومسطرا ومقرّرا : نريد أولا وأخيرا أن نتجنّد داخل « التنظيم السري للمكافحين »، كي ننشط بالجزائر العاصمة، وشيئا فشيئا أن ننظّم إلى المجموعات المسلحة وأن ننقل الحرب إلى الأحياء الفرنسية والمدينة الأوروبية.

في 1955، في الجزائر وفي جميع مدن البلد، كان هناك نوعان من التجمعات السكانية : من جهة المدينة وأحيائها العربية ومن جهة أخرى المدينة وأحيائها الأوروبية، يفصل بينهما جدار غير مادي من التمييز العنصري، عصي الاختراق، ومثلما كتب مولود معمري : « إن حراسة الأبواب أمام الجدار شرسة ». كانت الحرب قد انتشرت في المَدَن والأحياء العربية وكذا الأرياف والجبال، أما المدن والأحياء الأوروبية، فكانت تعيش هدوءا يثير الغيظ مقارنة بالقمع المسلّط على سكان المدنيين الأهلالي.

فكرنا، سامية وأنا، بأننا نملك أوراقا رابحة عظيمة : امرأتان بهيئة أوروبية، تتقنان الفرنسية جيّدا، وتحدران من عائلتين مرفهتين، ومجهولتان كلية من قبل وسائل الأمن الفرنسية. لذلك كنا مقتنعتين بأننا سنكون سندا قويا للمكافحين لأننا نملك القدرة والسهولة لتسلل إلى أي مكان دون أن نشير الشكوك التي يبديها الأوروبيون عموما كلما شاهدوا « رأسا عربيا »، « محمد » أو « فاطمة » في حيّ من أحيائهم. ولكن مشكلتنا بقيت كاملة ولم نجد لها حلا : كيف نتصل مع « المنظمة » ؟ ومن هو هذا الشخص الذي سيوصلنا إليها ؟ فقرّرنا أن ننتبه أكثر وأن نطيل النظر ونسترق السمع من حولنا جيّدا مع أمل التقاط المؤشرات الأولى التي ستقودنا حتما إلى ما نبحث عنه . فبدأنا بالجامعة وبأصدقاء ميمي من جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، ولكن يبدو أنه في ربيع 1955، كان أعضاء المكتب الجديد لفرع جامعة الجزائر يركّزون جهودهم ونقاشاتهم لتأسيس تنظيم خاص بالطلبة المسلمين

اكتساب الوعي

الجزائريين، التنظيم الذي سُمّي فيما بعد : « الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ». ما علاقة هؤلاء بالمكافحين ؟ لم نلاحظ أي مؤشّر، كما أننا لم نعر على شيء وسط أفراد العائلة ولا الأصدقاء. كانت الجدران تنتصب أمامنا دوماً لتسدّ جميع الآفاق. ومع ذلك، كان النوفمبريون موجودين. وفي الوقت نفسه، كنا نتابع الدروس النظرية والتطبيقية والأعمال الموجهة بجد وانتظام، مع الرغبة الجامحة في النجاح في امتحانات جوان 1955. كان الرسوب بالنسبة لي شيئاً غير ممكن الحدوث إطلاقاً لأنه سيؤدي بي إلى العودة النهائية إلى فيلار، وبالتالي سيتبخّر حلمي في الانضمام إلى المكافحين. لذلك، كنا في معظم الوقت داخل قاعة العمل لكلية الحقوق، المزوّدة بالكتب في جميع المواد القانونية المدرّسة والقواميس الضرورية لبحوثنا. كنا نلتقي هناك بطلبة السنة الثانية والثالثة، ومن بين هؤلاء : بن بعطوش وبن حمودة. ذات يوم من ربيع 1955، وعند وصولي القاعة، التقيت بأستاذتي القديمة في مادة الفلسفة، السيّدة كزاغنيكي والتي أحتفظ لها بذكريات طيّبة... تعانقنا كما تفعل صديقتان قديمتان، ثم خرجنا نشرب قهوة ونعلّق على أخبار الجرائد حول « الأحداث »، هكذا كانت الصحافة تسمّي الكفاح من أجل التحرير. لاحظت أن السيّدة كزاغنيكي لا تزال بفكرها الإنساني وتوجهها التقديمي، لأنها تعذّبت كثيراً من النازية ولها كثير من أفراد عائلتها ومعارفها ماتوا في تلك المحتشدات النازية. وقد تناقشنا طبعاً عن مفهوم « المقاومة » وحدوده والأشكال التي ينبغي أن تتخذها واختيار الكفاح المسلّح كحل جذري. فاكشفتُ أنني أشارك أستاذتي قناعات تتجاوز الصداقة، كنت أقتسم معها تضامناً وتواطؤاً وضماً للعدالة كما يمكن لجائعين أن يقتسماً رغيف خبز. لم تحدّثني عن النظريات الكبرى حول العدالة والظلم، ولكنها تنازلت من عليائها كأستاذة الفلسفة، الوضع الذي تستحقّه وأكثر، وحدّثني حديث

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

القلب، واستخرجت من ذاكرتها الموجعة بالظلم القاسي والشر المطلق، وراحت تروي لي المقاومة المسلّحة ليهود محتشد فارصوفيا والمجزرة التي استتبعَت. ومن هذا المثال الحي، حاولت إقناعي بأنها وإن كانت تتفهّم الأسباب التي دفعت « النوفمبريين » إلى رفع السلاح لاسترجاع حق مغتصب، إلا أنها كانت تخشى على مستقبل هذا التنظيم الذي سيتعرّض أعضاؤه للقمع والقتل بسبب عدم توازن القوتين، قوة الاستعمار وقوة هذه الجماعة الصغيرة. حاولت أن تفهمني الفرق بين حركة من المناضلين وأسلحتهم الضعيفة والقليلة وبين دولة عتيقة قوية تملك جيشا مهنيا وشرطة مدربة. في لحظة ما، أجبته بأنني لو كنت في محتشد فارصوفيا، لكنت اخترت أن أموت والسلاح بيدي، لأنهم كانوا على كل حال سيقتلون بالسلاح أو بدونه. امتلأت عينا السيدة كزاغنيكي الحزيتان بالدموع، ثم أخذتني بين ذراعيها وتوسّلتني بأنّ أفهم أنّ الأوروبيين ليسوا كتلة واحدة، بل إنّ الكثير منهم يتعاطفون معنا وأنّ المسألة ليست مسألة اختلاف الأعراق، وإنما مسألة عدالة وحرية. ثم دعّنتني إلى حضور إحدى الاجتماعات التي تنظمها في بيتها كل يوم خميس يلتقي فيها أوروبيون ومسلمون. كان طبعي الخجول والمتحفظ يدفعني في الحالات المماثلة إلى رفض الدعوة، ولكنني في ذلك اليوم، قررت قبول الدعوة لأبّين لها أنني أشترك معها في موقفها وأني كنت جدّ متأثرة بالرعب الذي طال أهلها هناك في الحرب الثانية، والتضامن الذي تبديه لنا، هنا، نحن غير الأوروبيين. في الخميس الموالي، بعد دروسي، ومثلما اتفقنا، ذهبت إلى منزل السيدة كزاغنيكي، شقة واسعة تقع في عمارة أنيقة. كنت أتصارع مع نفسي، تشلّني فكرة الدخول إلى صالون مليء بأشخاص لا أعرفهم، ولكن الذي شجعني على مواجهة خجلي والذهاب إلى الموعد، هو أمل لقاء ذلك الشخص، رجلا كان أم امرأة، والذي سيقودني إلى الاتصال بـ « التنظيم ».

اكتساب الوعي

طبعاً وصلت مع المتأخرين واستقبلتني السيدة كزاغنيكي بلطفها المعهود. كانت تعرف خجلي المرضي، فأحاطت كتفي برفق ودفعني إلى داخل الصالون الذي كانت تنبعث منه النقاشات والضحكات وقدمتني للحضور كإحدى « أنبغ تلميذات درس الفلسفة في ثانوية فرومانتين ». جلست في ركن ورحت أتابع المناقشة التي كانت تدور حول الوضع في البلاد والتعليق على أخبار الجرائد والمجلات المحلية والباريسية، وبالأخص : « فرانس أبسرفير » و « الإكبريس » باعتبارهما ينتميان إلى اليسار، مثل جرائد « الأومانييتي »، « الكنار أونشيني »، « لاكوا » و « ألجي ريبوبليكان ». بسرعة، لاحظت أنني المرأة المسلمة الوحيدة، وفي المقابل، لاحظت وجود رجال من المسلمين، ويُعرفون بطريقة نطق حرف الراء، حيث يتعمدون نطقه بكيفية تمنح لهم خصوصيتهم.

ينبغي التذكير بأنني لم أتفوه بكلمة خلال تلك الجلسة، ولكن الشيء الذي جذب انتباهي هي أقوال فتى جزائري، عرفته بطريقة نطقه لحرف الراء والذي كان يسرد تفاصيل أحداث لم تذكرها أية صحافة إلى حد الساعة، كنت متأكدة لأنني أتصفح الجرائد كل صباح وأقرأ جميع أخبار « الكفاح التحرري ». استنتجت أن تلك المعلومات كانت دقيقة وحديثة بحيث يكون صاحبها قد استقاها من المنبع، لدى « التنظيم السري ». وحينما حان وقت مغادرة السيدة كزاغنيكي، اقترب مني الفتى وقدم لي نفسه : « محمود بوعيداد، مكاتب مساعد في المكتبة الوطنية ». رغم خجلي، قدمت نفسي أيضاً : « زهرة ظريف، طالبة سنة أولى حقوق ». لم يُخفِ اندهاشه وكرّر : « طالبة في الحقوق ! ». فقررنا المشي معاً لمسافة معينة لأن وجهتنا كانت مشتركة، هو ليلتحق بالمكتبة الوطنية وأنا لاللتحاق بمحطة الحافلة المتوجهة إلى الحي الجامعي بن عكنون. هنا أيضاً، أظهر اندهاشه ثانية وكرّر : « الحي الجامعي بن عكنون ؟! » الحق يقال أنني كنت أمشي إلى جانبه وأوصالي

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

ترتعد وأنا أحاول تخيل أفكاره : « فتاة غريبة، مسلمة وتدرس الحقوق وتسكن في الحي الجامعي لبن عكنون حيث أجنحة البنات بقرب أجنحة الذكور ! » وفي الوقت نفسه، أختلس النظرات يمينا وشمالا، أراقب كل مارٍ بحثا عن أصدقاء أبي الكثر والذين حذرتني منهم أمي والذين يراقبونني عن قرب وفي جميع الأمكنة !!! ولكن بحثي الدؤوب عن النوفمبريين دفعني إلى اختراق كثير من الممنوعات وقوانين القبيلة المقدسة . بالفعل، كنت أمشي إلى جانب رجل غريب وقت غروب الشمس !!! لا علينا، يمكن لهذا الغريب أن يصلني بالمكافحين الأسطوريين ! ليحدث ما يحدث ! مشينا طويلا وقد تفهّم السيّد بوعياذ وضع الرعب الذي اعترائني، فراح يمطرني بأسئلة حول عائلتي ومنطقتي ومشاريعي بعد الدراسة، مت دخلا بين الفينة والأخرى ليسدي لي نصائح أخوية . كنت أجيب على أسئلته باختصار شديد . افترقنا عند ساحة الحكومة، فمدّ لي بطاقته مؤكدا لي أنّه تحت تصرفي في أي وقت فيما يخص بحوثي أو قراءاتي . شكرته وركبت الحافلة .

رجعت منتصرة إلى الحي الجامعي، مستعجلة انقضاء الليل لألتقي بسامية وأحكي لها ملحمتي . في الغد، وجدتها في مقهى الصغير وحكيت لها بحماس فياض لقائي عند السيّد كزاغنيكي، بالتفصيل الممل . ألحّت كي أكرر لها كل جملة تلفظ بها الأشخاص الحاضرون، ومثلي، جذبت أقوال السيّد بوعياذ اهتمامها، فوصلت إلى نفس النتيجة التي توصلت إليها : إنه الخيط الذي سيوصلنا إلى ما نبحت عنه منذ شهور، لذلك ينبغي اللقاء به ثانية . فقرّرت أمرة أنّ الدور يعود إليّ وحدي، لأنّ حضورها قد يثير بعض الشكوك : « إنّ هؤلاء الناس يعيشون في سرية تامة، وإنّ أيّ حركة مريبة ستؤدي بهم فورا إلى قطع العلاقة . إنه يثق فيك أنتِ، لأنه أعطى لك بطاقته ولا ينبغي أنّ تضيّعي هذه الفرصة، إنها حظنا الوحيد ! » لقد فصلت سامية في هذه المسألة،

اكتساب الوعي

ولكن بقيت مسألة أخرى عالقة وستثير نقاشا ساخنا وصاخبا ألا وهي : كيف سنباشر الحديث عن مسألة الاتصال بـ « المنظمة السرية ؟ » . وكعادتها، تريد سامية دوما أن تخطط كل شيء وتندرب عليه كما في المسرح تماما، ابتداءً من الوصول إلى المكتبة الوطنية وإلى غاية التطرق إلى هذه العقدة وحلها . أصرت على تكرار كل تفصيل بحيث لا تترك شيئا للصدفة أو للارتجال . انتهى بي الأمر إلى استئصال جميع تلك الاعتبارات خاصة وأنني سأذهب وحيدة إلى النار فأعلنت أنني سأجرب حظي بالتصرف حسب المواقف التي ستعترضني . قررت الذهاب يوم الخميس زوالا عند نهاية الدروس ، فسرنا معا إلى غاية ساحة الحكومة ثم افترقنا : واصلت سامية طريقها باتجاه سانت أوجين فيما عرجت أنا نحو المكتبة الوطنية الواقعة في القصبة السفلى . إنني أكتشف لأول مرة هذا الجزء من المدينة العتيقة الأسطورية . سرت بمحاذاة الكاتدرائية التي كانت أجراسها ترن، فيما لا يزال سكان الأهالي يسمونها « جامع كشاوة » . لقد حوّل الأوروبيون هذا النصب المهيب، هذا المسجد القديم بمئذنتين عظيمتين، إلى كنيسة بحكم قوة المراسيم البشرية الظالمة والجائرة . واصلت الطريق عبر بضعة أمتار، ثم عرجت يسارا داخل زقاق يفتح طرفه على المكتبة الوطنية التي احتلت قصرا قديما وجميلا، قصر مصطفى باشا . دخلت عبر باب خشبي ثقيل كان منفتحاً واتجهت نحو الفناء الذي يفتح على غرف متعددة، تحوي إحداها مجموعة من الصناديق الصغيرة بها البطاقات الخاصة بالكتب والموضوعات تحت تصرف الزوار ومرتادي المكتبة الوطنية بحثا عن أرقام الكتب التي يريدون قراءتها في نفس المكان أو استعارتها . من هناك، يتوجهون إلى قاعة ثانية حيث يوجد أعوان المكتبة لخدمتهم . ألقيت نظرة متفحصة حولي ولم أرَ أثرا لشخص محمود بوعياذ من بين أعوان الطابق الأرضي، المكان الوحيد المفتوح للجمهور . في لحظة ما، فكرت في الرجوع وأنا أجتزّ جَم

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

غضبي على سامية التي تركتني وحيدة لأواجه وضعاً غريباً، ولكنها مجرد فكرة عابرة، إذ لم يكن ممكناً لي أن أتخلى عن مهمتي وأنا قريبة جداً من إنجازها. حينئذ، قرّرت الاتصال بعون من المكتبة وأطلب منه أن يدلني عن مكان تواجد محمود بوعياذ، المكتبيّ المساعد. سألني العون إن كان لي معه موعد. وبعد تردد بسيط، أجبت بنعم وأعطيت له اسمي وأنا متأكدة أنّ السيّد بوعياذ يكون قد نسي حتى وجودي. وكنت أستعد لمغادرة المكان بخفيّ حنين، غاضبة على حماقتي، وعلى سامية وضد جميع الشخصيات الأسطورية التي تدفعني إلى التصرف خارج راحة العقل، حينما عاد العون وطلب مني أن أتبعه، فعدت إلى الواقع، وفجأة اعتراني الهلع وأنا أجهد نفسي لاسترجاع رباطة جأشي وثقتي بنفسي وبالأخص الظهور أمام محدّثي في صورة أكثر وقاراً ورزاقاً والتحكم في النفس.

كان مكتبه يقع في الطابق الأخير. بدا لي ضيقاً وخانقاً، بتلك الكتب التي تحيط به من جميع الجوانب، تغطي جميع المساحات وتتراكم فوق المكتب الذي يجلس خلفه السيّد بوعياذ. وقف ليستقبلني دون أن يبدي أيّ مظهر من مظاهر المفاجأة، ودعاني إلى الجلوس مقابلاً له. تهت في ذلك الجوّ ولكن الكتب أنقذتني وأعادت إليّ توازني، فطلبت منه إن كان بإمكانني إلقاء نظرة على الكتب المنتشرة فوق الرفوف والتي تتزيّن أغلفتها بخطوط عربية. لأوّل مرة تقع عينيّ على مجلدات بذلك الجمال. قبل طلبي بطيبة خاطر وقدم لي مخطوطات قديمة وجميلة، على غلافها خط منمق ولامع. فراح يشرح لي الفرق بين مختلف الخطوط، ذات الأصول المختلفة : المغربي والمشرقي والفارسي والكوفي العراقي... إلخ. وبعد هذه الشروح التي قدّمها لي، مُرّفة بتفاصيل أخرى حول أسرار التغليف والتلميع، طلب مني بلطف ما هي نوع الخدمة التي سيتشرف بتقديمها لي، هو المدرك بكل تأكيد أنني

اكتساب الوعي

لم آتِ إلى المكتبة الوطنية لتأمل مخطوطات كنت أجهل وجودها أصلاً. تملّكني الهلع لحظة وحاولت أن أتذكر السيناريوهات المتنوعة التي أعدناها سامية وأنا لمواجهة الموقف، فقرّرتُ أن أرمي بنفسي داخل المعمة وأفصح عن رغبتني دون أن أنظر إليه. شرحت له بتلعثم جلي أنني اندهشت لدقة وحداثة المعلومات التي قدّمها في اجتماع السيّدة كزاغنيكي، فاستنتجت أن له اتصالاً أكيدا مع أعضاء « المنظمة السرية » لأول نوفمبر 1954 والذين أبحث عنهم منذ شهور لأنني أريد أن أكافح إلى جانبهم. لم أرفع بصري. سكّ يصغي إليّ فيما كنت أواصل سرد رغبتني، مصرّة بأن لا أتوقف إلا عند إفراغ كامل ما بجعبتي، فواصلت أشرح لماذا وكيف أريد المشاركة في الكفاح المسلّح وأنهيت قولي بأنهم سيسرّون بتجنيد واحدة مثلي، مثقفة بالفرنسية وعندها هيئة أوروبية، أي أنها تمر في شوارع المدينة كسمكة في البحر. وألححت أن « المنظمة » ستكون بحاجة ماسة إلى أشخاص مثلي كي ينقلوا العمليات الحربية إلى المدينة الأوروبية. أنهيت كلامي متوسلة له أن ينقل طلبي هذا إلى « المنظمة » حتى وإن بدا له غير معقول. بعد صمت دام دهرًا، سألني بوعيد من أين استقيت هذه الفكرة السخيفة بأن له علاقات واتصالات بأية منظمة سرية، وإن كنت أعيش فراغا وأريد أن أنشط فإنه سيقدّمني للسيدتين مامية شنتوف ونفيسة حمود، المسؤولتان عن جمعيتين خيريتين. في تلك اللحظة فقط، رفعت بصري تجاه محدّثي، ورفضت اقتراحه بحركة يد عفوية مؤكّدة أن تلك النشاطات الخيرية لا قيمة لها في وقت يكافح إخواننا بالسلاح ويتعرضون للاعتقال والتعذيب والتشنيع والقتل، في وقت يضحي أحيارنا بحياتهم كي يتحرّر وطننا. وبنبرة خطابية صارمة، أعلنت أن الوضع الراهن يتطلب أشكال عمل أخرى تختلف عن تلك التي اقترحها عليّ. في تلك الأثناء، وقفت وشكرته على حسن الاستقبال، وأخبرته بأنني سأزوره لاحقا

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

كي أتلقي جوابا لطلبي . فغادرت مكتبه دون أن أُلقي عليه نظرة وأنا أهمهم ضد هذا الشخص البارد، البعيد المنال، والذي يبدو لي أنّه غير مكترث بما قلت له .

بعد تلك الحادثة بشهور عديدة، في قلب « معركة الجزائر »، وأنا أعيش في سرية تامة، أدركت جنون مبادرتي، نظرا للضغط الرهيب الممارس على المناضلين وأقربائهم، والحراسة الشديدة التي تُفرض على المثقفين المسلمين في كل لحظة، وكيف أنّ السيّد بوعياذ المسكين أظهر برودة دم وورصانة نادرة في تلك المواجهة السخيفة . بالفعل، فهو لا يعرفني : كان يمكن جدا أن أكون « محرّضة » أو « إدارية » مثلما يقال في تلك الفترة ! ودون رباطة جأشه، كان سيعرّضنا، سامية وأنا، إلى الخطر. التقيت بالسيّد بوعياذ بعد الاستقلال، وبما أنه لم يذكر تلك الحادثة، فلم أذكره بها. كنا في مارس 1955، وبرغم فشل مبادرة المكتبة الوطنية، واصلنا، سامية وأنا، مسعانا، نترقّب كل مؤشّر يمكنه أن يوصلنا إلى « المنظمة ». مرّ السداسي الثاني من السنة الجامعية 1954/1955 بسرعة واقترب تاريخ امتحانات نهاية السنة أولى حقوق، فغرقنا في مراجعة الدروس، نجتهد كالعفاريت . ونجحنا بامتياز في دورة جوان 1955 . بعد ذلك، التحقت بعائلي بفيالار حيث كانت تنتظرني مفاجأة سارة . كمكافأة لي على جهودي ونتائجي الجيدة في الامتحانات، قرّر والدي أن أرافقه في بداية أوت 1955 إلى فرنسا، حيث كان يقصدها كل صائفة ليقوم بفترة علاج بالمياه المعدنية في منطقة البيريني أو في فيشي . في ذلك الصيف، ذهبنا إلى مدينة « لوشون »، وهي أول مرة في حياتي أكتشف فيها فرنسا، هذا البلد الذي يستعمرنا والذي أبهرني تاريخه وتاريخ أدبه . في الأيام الأخيرة من شهر جويلية، قصدنا، أبي وأنا، الجزائر العاصمة كي نأخذ الطائرة « بريغي 2 » باتجاه تولوز، شيء جديد بالنسبة لي أيضا، ومنها ركبنا

اكتساب الوعي

القطار باتجاه « لوشون »، في الجبال، للوصول إلى الحمام المعدني . فقضيت شهرا كاملا وأنا أقرأ في غرفتي أو بحديقة الفندق الكبيرة وأتجول برفقة أبي في القرية أو في الأماكن المجاورة . طبعاً، كان كل شيء مختلفاً، ولكن الذي شدّ انتباهي أكثر كان الهدوء والصمت الذي يخيم على المكان . وتساءلت أحياناً هل يعرف هؤلاء السكان في منطقتهم الهادئة، البعيدة عن أي إزعاج أو توترات من أي نوع، أين تقع الجزائر، وهل توجد أرض اسمها الجزائر ؟ كنت متيقنة بالنفي . في لوشون، كنا نشترى الجرائد، المحلية منها والوطنية ونجلس في شرفة مقهى لقراءتها ونحن نرتشف عصير الليمون . كان جوّ القرية المعزول عن قلاقل العالم والمسافة التي تفصلنا عن بلدنا، يقللان من ثقل الأصدقاء التي توصلها إلينا تلك الجرائد . ذات ظهيرة، مدّ لي أبي جريدة محلية تعلن، بالصورة، حضور رئيس الوطنيين التونسيين، الحبيب بورقيبة، في « لوشون » لفترة علاج . طبعاً كنت أعرف وأُعجب بكفاح التونسيين والمغاربة من أجل استقلالهم، وكانت أسماء زعماء البلدين مألوفة لديّ، وبالأخص أسماء بورقيبة، وبن يوسف، وعبد الكريم الخطابي، والملك محمد الخامس . في نهار الغد، في نهاية الظهر، وفيما كنت أقرأ في حديقة الفندق الكبيرة، رأيت رجلاً يافعا ملفوفاً في معطف ويحمل وشاحاً، يحيط به ثلاثة أفراد بهيئات مهيبة . إنه بورقيبة ! أردت الركض خلفه لأحييه، لأشكره باسم جميع شعوبنا من أجل الكفاح الذي يخوضه، ولكن أبي ثنى عزمي، شارحاً لي أن حراسه الشخصيين سيمنعونني من الاقتراب منه، فاكتمت بالنظر إليه، بإعجاب كبير، قائلة مع نفسي بأنه سيأتي يوم، يكون لدينا، نحن أيضاً، زعيم يتجول بهذه الطريقة، ويحيطه حراسه الشخصيون ليبينوا أهميته في عيوننا وعيون العالم .

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

لم أكن أعرف وقتذاك، أنني، ذات يوم من سنة 1967، سأكون ضمن وفد رسمي للدولة الجزائرية الفتية يستقبله الرئيس الحبيب بورقيبة وأنا أصبح صديقة لزوجته الفدة هي أيضا، وسيلة بورقيبة.

الفصل الثالث

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

• سكيكدة، أوت 1955 : مجزرة أخرى ضد الأهالي، منعطف آخر

خلال الأسبوع الأخير من إقامتنا في « لوشون »، ذكرت الصحافة الفرنسية على طريقته أخبارا مقلقة آتية من البلد : لقد قامت « جماعات متوحشة » من « الأنديجان » بهجوم على مدينة فيليبفيل (سكيكدة اليوم) وكامل الشمال القسنطيني وارتكبت « جرائم حرق وابتزاز » ضد الأوروبيين وأملاكهم ؛ وكرّد فعل، قامت السلطة الاستعمارية باعتقال جميع « الأشخاص الخطرين الذين كانوا محل بحث من قبل الشرطة ». ابتداءً من ذلك اليوم، لم تسيطر عليّ إلا فكرة واحدة مستعجلة، ألا وهي العودة إلى الجزائر لتكون لديّ معلومات صحيحة يقدّمها لي أخي عبد القادر وأصدقائه. حينما التحقنا، أبي وأنا، بفيالار، كان الجوّ في القرية ثقيلا ومتوتّرا، والسكان الأهالي قلقين ومنطوين على أنفسهم. لقد أخبرنا أعمامنا وإخوتنا، خاصة قادر، وهم يتأججون غضبا وغيظا، ما حدث فعلا يوم 20 أوت 1955 في الشمال القسنطيني، (سكيكدة تحديدا)، المنطقة-الشهيدة التي أعطت الكثير في مجازر الثامن ماي 1945. وذكروني بتلك المجازر الرهيبة التي ارتكبتها الجيش الاستعماري منذ عشر سنوات خلت، حيث عاش سكان

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

منطقة الأوراس وضواحيها بؤسا وقمعا متواصلين لسنوات عديدة إلى أن انفجرت شرارة الثورة في 01 نوفمبر 1954، ومباشرة بعد تفجير الثورة، أطلقت السلطة الاستعمارية جيشها لتمشيط المنطقة، وقمع سكانها وحرقت المداشر والدواوير. فعاش السكان وضعا رهيبا من المطاردات والاعتقالات والإهانات والإذلال، خاصة خلال عمليتي « فيوليت » و « فيرونك » في جانفي وفيفري 1955. وما فتئت الصحافة الاستعمارية خلال أشهر تحرّض الجيش « بتطهير » المنطقة من المتمردين، أولئك الخارجين عن القانون أو « الفلاقة »، الذين يجبرون الأهالي على التمرد ضد السلطة الفرنسية. وستسمح تلك العمليات العسكرية بطمأنة الأوروبيين وإعادة السكنية إلى قلوبهم وترهيب الأهالي بقتل كل رغبة لمساندة « النوفمبريين » أو الالتحاق بهم. وبعد شهور من الزحف القمعي للجيش الفرنسي والعقاب الجماعي وحرقت المداشر بقنابل النابالم، قام سكان المنطقة العزل بالانتقام لأنفسهم، وذلك بالهجوم الجماعي، يوم 20 أوت 1955، على القرى والمدن. لم يعد سكان الأهالي يطيقون انتظار الموت في ديارهم، فحملوا ما يملكون من أسلحة بيضاء، عصي ومذارٍ ومناجل وسكاكين وسيوف، وهجموا على كل ما يرمز إلى السلطة الاستعمارية الظالمة. فقتلوا 120 شخصا، منهم 70 أوروبيا و50 مسلما من الموالين للإدارة الاستعمارية، باعتبارهم خونة. صُدم الأوروبيون واعتراهم الخوف وانتشر الشك والرعب في أوساطهم، وكانت الصحافة المحلية والباريسية تعرض على صفحاتها « وحشية الفلاقة ». وطبعا، لم يتوان الجيش الاستعماري عن شن هجوم للانتقام وإحداث مجزرة لا تختلف عن مجازر الثامن ماي 1945، تحت قيادة المحافظ العام سوستيل، وذلك بمساعدة فرق الميلشيات المشكلة من المدنيين الأوروبيين، على رأسهم رئيس بلدية فيليبفيل « بانكي كريفو ». أمر المحافظ العام، جاك سوستيل، بنفسه بإطلاق النار على المساجين، وقنبلة

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

المدامر والدواوير وحرقتها بالنابالم. لقد جمَعَ الجيش الفرنسي عددا كبيرا جدا من السجناء المدنيين في ملعب سكيكدة وأطلقوا عليهم الرصاص بكل برودة دم. روى أخى قادر بأنّ جثث القتلى انتشرت بشوارع المدينة، وكادت تتعفن، وقد تمّ حفر خنادق بالبلدوزير كمقابر جماعية لهم. كان وجهه مبللا بالدموع، حينما سألته عن عدد القتلى. فردّ بعينين محمرتين من الغضب بأنّ سوستيل قدّم عددَ 1200 قتيلًا، ولكن «الكلب بن الكلب» يكون قد قتل ما لا يقل عن 15 000 مدنيا، إن لم يكن أكثر. طبعًا، لم تكن لدينا الوسائل اللازمة لمعرفة عدد القتلى بالتدقيق.

غبت لمدة شهر، تاركةً أخى الصغير فتى مبتهجا، مفرط الحيوية، رأسه يعجّ بالمشاريح الجنونية، وهو يملك دوما كلمة أو مزحة لتخفيف الجو. فاكتشفت قادر جديدا، شاخ بسنوات عديدة، رأسه يكاد ينفجر من الغيظ المكبوت بحيث سود له نظرتة أكثر. لقد لاحظت أمي ذلك التغيّر المقلق في سلوك وردود فعل ابنها، فتساءلت بصوت عالٍ: «لماذا دفع هؤلاء القرويون بأنفسهم إلى التهلكة؟» انفجر قادر، وراح يشرح لأمي ما فجر غضبه ومأله غيظا: «أتعرفين يا أماه الحياة التي يحياها هؤلاء القرويون مثلما تسميهم وجميع إخواننا في كل مكان وحتى هنا في أريافنا القريبة منذ أول نوفمبر 1954؟ أنا متأكد أنك لن تصبري على واحد في المائة من المعاملات القاسية والمهينة التي كان الجيش الفرنسي يعاملهم بها. نعم، «الروامة» يريدون الحرب، فسنديقهم علقمها!» نظرت إليه أمي بعين قلقة، هي التي لا تسمح في العادة لأحد أبنائها بأن ينفعل ويرفع صوته أمامها، وهمست: «ربي يفرّج إن شاء الله علينا وعلى أمة محمد أجمعين». في ذلك اليوم، أحسست بنفسى قريبة جدا من أخى قادر برغم أنه أكبر المتحفظين والكاتمين للأسرار وأكثر لغزا من العادة. فهمت أنّ أخى كان مجندا كلية مع المكافحين من أجل استقلال

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

البلاد. لم أ طرح عليه أي سؤال، ولكنني أدركت، هذا كل ما في الأمر. ربّما كانت أمّمي، هي أيضا، فهَمّت.

حين عدنا في نوفمبر 1955، إخوتي وأنا، إلى الجزائر العاصمة، هذا إلى ثانويته، وهذا إلى الجامعة، لاحظنا أنّ الجوّ الكئيب الذي تركناه في فيالار، هو نفسه المستشري في كل مكان. الظاهر أنّ القطيعة مع الأوروبيين، المدنيون منهم والعسكر، حدثت فعلا، ولا رجعة فيها. هم في ضفة ونحن في الضفّة المقابلة، بل أسوأ من هذا من زاوية نظرنا : « نحن أو هُم ». لقد عمّقت أحداث الشمال القسنطيني والقمع الوحشي الذي استتبعها الحفرة الفاصلة بينا، بين « الروامة » والمسلمين، ويصعب ترميمها. لقد انتشر الريب والخوف لدى الجميع. كان الأوروبيون يرون خلف كل « محمد » و « فاطمة » متمردا فلاّقا سيُشهر سلاحا في وجوههم. وكنا، سامية وأنا، يعترينا إحساس نعتبر بموجبه أنّ كل تقارب مع الأوروبيين وكل مشاركة، وإن كانت انتخابية، مع النظام الكولونيالي، ليس إلا فعل خيانة لا غير. إن شعور اللاأمن والريب المعمّم، الناتج عن مجازر 20 أوت، لم يكن ليخيفنا أو يقلل من حماسنا، بل كان يقوي اعتقادنا بأنّ كفاحا مميتا قد انطلق ضد النظام الكولونيالي ويدفعنا، اليوم أكثر من أي وقت مضى، إلى المشاركة فيه بكل حيوية وبجميع الطرق الممكنة. وقد لاحظنا بسرعة أنّ شعورنا ذاك تقتسمه معنا شريحة واسعة من سكان الأهالي وبالأخص الشباب منهم.

في الجامعة، سنة بعد اندلاع حرب التحرير، كان يسود المدرجات جوّ من الهيجان والاندفاع حيث ارتسمت معالم المواجهات الحتمية بين ذوينا و« المتطرفين من الأوروبيين ». بالفعل، في ديسمبر 1955، وبمجرّد نشر قائمة أعضاء المكتب الجديد للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، خلية الجزائر العاصمة، وبها لأول مرة طالبتان، حفصة بسّكر كأمينة عامة، وزليخة بقادور

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

كأمانة المالية، أوقفت الشرطة أربعة من أعضائها، متهمين إياهم بالانتماء إلى جبهة التحرير الوطني وهم : عمارة رشيد، محمد لونيس، مصطفى صابر، وأحمد تواتي. مباشرة، نظم مكتب الاتحاد اجتماعات وتجمعات في الجامعة وداخل الأحياء الجامعية للتنديد بتلك الاعتقالات وتحديد الأفعال التي ينبغي القيام بها لتحرير إخوانهم. وكان الثانويون يشاركونهم في تلك النشاطات.

كان أخي عبد القادر يزاول دراسته في ثانوية بن عكنون، السنة « الأولى »، سنة ما قبل النهائي والبيكالوريا، ويقوم بزيارتي باستمرار بالحي الجامعي، مرفقا بأصدقائه، ومنهم ميلود براهيم، ليزودني بالمعلومات، وبالنشاطات المرتقبة وبالشعارات الرائجة. لقد سبق لي أن رأيت أخي قادر مناضلا نشطا في فيالار، فكنت فخورة به. لقد تم إرسال وفود من الطلبة والثانويين نحو محافظات الشرطة، وكذا نحو محكمتي الجزائر العاصمة وتيزي وزو، ونحو المحافظ العام لتحديد أمكنة سجن الطلبة الموقوفين، والتنديد بالحجز غير الشرعي والمطالبة بإطلاق سراحهم. ولإظهار قوة احتجاج هذه الحركة وتبيان تمثيلها الواسع وتمتين قناعات أعضائها، قرر الاتحاد تنظيم يوم إضراب عن الدروس، تحدّد بتاريخ 20 جانفي 1956. لقي الإضراب نجاحا منقطع النظير لدى الطلبة والثانويين المسلمين، وكان تجنيدهم وتضامنهم مطلقا. فأطلق سراح إخواننا الأربعة، ضمن حرية مقيّدة. بعد فترة ليست بالطويلة، انتشر خبر صعودهم إلى الجبال والالتحاق بالمجاهدين مباشرة بعد إطلاق سراحهم، تفاديا لمسخرة محاكمتهم. وعشنا هذه النتيجة كانتصار راح يدعم أكثر فأكثر كفاحنا وتجنيدنا. وقد واجهنا في الفترة نفسها، زيادة إلى السلطة الكولونيلية، التنظيم العنصري للمتطرفين الأوروبيين المتواجدين داخل الجامعة، وكان أحد قادتهم السفّاح لاڤيارد. كان هذا التنظيم يحاربنا كما يحارب أيضا جمعيات الطلبة الأوروبيين ومنهم الجمعيات الكاثوليكية اليسارية مثل بيار شولي والشيوعيين

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أمثال الإخوة تمسيت وآخرين. ولم يسلم من هجومات هؤلاء المتطرفين الطلبة والأساتذة المضادون للنظام الكولونيالي أمثال أندري ماندوز، والذين قرروا يوما منعه من إلقاء دروسه بالعنف، قائلين بأن ماندوز صديق « الفلافة »، وحينها اتخذ الاتحاد قرار تكسير ذلك المنع، فنادى جميع الطلبة المسلمين لاحتلال القاعة وحماية الأستاذ ماندوز بإحاطته بمجموعة من الطلبة كي لا يؤذيه أولئك العنصريون، والسماح له بإلقاء درسه دون إزعاج. فعلا، تجنّد جميع الطلبة المسلمين ومعهم الطلبة الأوروبيون التقدميون. وبرغم حضور « المتطرفين » بحشود كبيرة واستخدام الوسائل الدنيئة، استطاع ماندوز أن يلقي درسه إلى النهاية، وهو محاط بمناضلي الاتحاد لحمايته. وتواصلت المواجهات بين المتطرفين وبين بقية الطلبة، سواء من المسلمين أو الأوروبيين التقدميين، وهي عنيفة أكثر فأكثر. هكذا، قرّر المتطرفون تنظيم إضراب عام للتنديد بقرار اتّخذه المحافظ العام جاك سوستيل والذي قدّروا أنه يمنح امتيازاً كبيراً للمسلمين. ويتمثّل ذلك « الامتياز » في فتح مركز للتكوين السريع لأعوان إداريين لصالح بعض الشباب المسلمين ذوي المستوى البسيط الذي لم يصل إلى الثانوي بعد، ذلك أن السلطة الفرنسية بدأت تدرك خطورة الفارق الشاسع الذي يفصل المسلمين عن الأوروبيين والذي يزلزل كيان النظام الكولونيالي، وأمام تصاعد « الأحداث »، أرادت أن تبيّن « حسن نواياها » تجاه الأهالي، ولكن ذلك الإجراء لا يمثل إلا قطرة ماء في بحر الأمية والبطالة والبؤس المدقع الذي تتخبط فيه الشرائح الواسعة من الشباب المسلمين. ومع ذلك، اعتبر « المتطرفون » أنه امتياز كبير أعطي للمسلمين على حساب الأوروبيين، فنادوا إلى إضراب عام ضد هذا الإجراء وقرروا منع دخول الطلبة والأساتذة بالقوة إلى الجامعة. لذلك، نظموا ما سمّوه « حصن الجامعة » : جدار بشري لمنع أي مرور.

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

وكرر فعل ضد تلك المبادرة، نادى اتحاد الطلبة إلى تكسير ذلك « الحصن البشري » وحدث الذي كان يجب أن يحدث . فكسّرنا ذلك الحبل البشري والتحقنا بقاعات الدرس في فوضى عارمة، اختلطت فيها الشتائم بالضربات . وكالعادة، استعملنا، سامية وأنا، محافظنا الكبيرة كدروع وقائية، ورؤوسنا تحميها قلنسوات ضخمة لتخفيف الضربات المحتملة، فاندفعنا وسط الحشد كالثيران، وكان أخي قادر قد تكفل بتعليمي بعض تقنيات الدفاع الذاتي وتكسير الحبال البشرية لاستخدامها عند الضرورة . ربّما جلبنا، سامية وأنا، انتباه طالب أثناء تلك المواجهة مع المتطرفين، هذا الطالب الذي اتصل بي بعد أيام قليلة فقط . ذات صباح، بعد الدروس، كنت جالسة بمفردي على السلالم المؤدية إلى إدارة الجامعة، حينما باشرني فتى وسيم وطلب مني إن كنت الآنسة ظريف . كان بقامة متوسطة، نحيفا نوعا ما، بلون ونبرة أوروبية، فبدالي من أصل إسباني . أجبت عفويا بالإيجاب، وقبل أن أتقصى عما يريده مني، قدّم نفسه : « أنا بوعلام، أخ صديقتك صليحة أوصديق » .

• بوعلام أوصديق : أخيرا الاتصال بجبهة التحرير الوطني

كانت صليحة أوصديق تلميذة بثنائية فرومانتين ؛ سبقناها، سامية وأنا، بقسم لأنها كانت أصغر منا بسنة . كنا نعرفها جيّدا ونحبها كثيرا لأنها اقتسمت معنا ولسنوات عديدة « الطاولة الخالية من لحم الخنزير » . كانت صليحة في صداقة متينة مع تلميذة أخرى مسلمة تدعى حسينة مُحمّدي . وكانت الصديقتان تلميذتين مُمتازتين وأمامهما مستقبل زاهر في الدراسات العليا . طبعاً، سألت عن مصير صليحة بعد البكالوريا التي أكيد أنها تحصّلت عليه بعدي بسنة وبامتياز، أردتُ معرفة الكلية التي تزاوّل بها دراستها ونوع الاختصاص الذي اختارته . أحسّ بوعلام أوصديق بالحرج وشرح لي

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أَنَّ أباهما، وتحت ثقل تقاليد القرية، رفض لابنته أن تواصل الدراسة بالجامعة التي لا يمكن أن توفر لها الانغلاق وعدم الاختلاط كما في ثانوية فرومانتين. ولكن، نظرا لنتائجها الممتازة خلال سنواتها السبع، تنازل أبوها ليسمح لها بمواصلة تكوين في مدرسة تكوين المعلمين ببوزريعة والتي توفر نفس شروط ثانوية فرومانتين : الداخلية للبنات !!! سألتُ بوعلام أوصديق كيف واجهت أخته ذلك القرار وماذا فعل هو لمساعدتها وإقناع أبيه كي تواصل دراستها بالجامعة، فأجابني بأن أخته تعذبت كثيرا بعد قرار والدها وعاشته كظلم جائر، أما ماذا قدمه من مساعدة ومساندة لأخته، فأجابني بأنه من غير الممكن حتى التفكير في مواجهة رب العائلة، « الشيخ »، « أمغار »، في قراراته مهما بدت غير مقبولة، وأن مصير أخته كمعلمة في القرية أفضل من المكوث في البيت ! فقلت مع نفسي كيف يقبل بسهولة المصير المفروض على أخته، صديقتي صليحة، وفي الآن نفسه، لا يخلو من الوقاحة ليحدثني، أنا، الفتاة الحرة التي تواصل دروسها بالجامعة، مثله، هذا الكون « الخطير » على أخته. فأجهرتُ له بهذه الملاحظة دون تردد، ثم أدت له ظهري طالبة منه بأن لا يكلمني لاحقا وغرقت في كتابي ثانية.

رويت تلك الحادثة لسامية، وأنا فخورة من رد فعلي الذي عشته كانتقام لصديقتنا الصغيرة صليحة. وبعكس كل انتظار، لاحظتُ سامية أنني، مرة أخرى، تسرعت في سلوكي بل وكنت فظة مع ذلك الفتى. فذكرتني بأن صليحة كانت تحكي لنا كثيرا عن أخيها المفضل بوعلام والذي كان قريبا جدا منها، وبأفكار وطنية، كان أبوه يعتبرها خطيرة على ابنه وعلى عائلته. كما ذكرتني بالحب الكبير الذي كانت صليحة تكنه لأخيها بوعلام، وتحديدًا لأنه شجاع ومجند كلية إلى جانبها، وكذا من أجل الدعم الكبير الذي كانت تلقاه عنده ضد جميع قرارات الأب القاسية. أجبْتُ سامية بأنني لن

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

أسمع نصائحها هذه المرة وكان عليها أن تكون مكاني كي تتحمل هي أيضا مسؤوليتها. ولكن سامية عنيدة ولا تنهزم بسهولة. فأعادت اقتراحها عليّ بالاتصال ثانية بأخ صليحة، لأنه طالب في الجامعة وعضو نشيط باتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، وأضافت أنه لن يعترض، ولا حتى عائلتنا، على إقامة صداقة معه لأنه أخ صديقتنا صليحة والتي تكون قد حدثته طويلا عنا. وكعادتها دائما، خططت لكل شيء، وتخيلت كل التفاصيل، مرددة: « أنا متأكدة أن هذه المرة هي الفرصة الجيدة والأخيرة، بوعلام هو الذي سيقم اتصالنا مع « المنظمة ». زهرة، أنت حاملة وليست لديك دقة النظر، أما أنا فأدركت، خلال مواجهتنا لفك الحصن البشري الذي أقامه المتطرفون، أنه ينتمي إلى مجموعات شبه عسكرية من خلال حركاته فقط » هكذا قرّرت سامية بضرورة الاتصال ثانية ببوعلام أوصديق، وكان الدور عليّ طبعاً كالعادة. قبلت المبادرة دون مضمض لأنّ رغبتني في مكافحة الاستعمار كانت أقوى من جميع الاعتبارات الأخرى. هكذا، وبعد أيام قليلة، وأنا جالسة في نفس المكان، رأيت أخ صديقتي صليحة يصعد السلالم. حدّقت فيه جيّداً، ثمّ وقفت وقرّرت مكالمته. كان اللقاء عفويا وبسيطا، وتحدّثنا بحماس عن الموضوع الحساس للوضع في بلدنا. كان بوعلام أوصديق فتى منفتحاً، طيب المعاشرة ومرحاً، يتميز بأسلوب مباشر وبسيط، كلامه يتميز تارة بالصرامة والجدية والعمق، وتارة أخرى بالطرافة والمزاح الخفيف. بسرعة، أصبحنا صديقين كما لو أننا كنا نتعارف منذ زمن طويل. تكلمنا طبعاً عن أخته صليحة، وعن قراءتنا والدراسات التي أنجزناها وتلك التي نريد إنجازها، ولكن أيضاً عن اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، وعن نادي الطالبات المسلمات، واجتماعاتهن وعن الموضوعات المعالجة في مجلتهن. فشرح لي أنه يقاسمني رد فعلي تجاه وضع أخته صليحة ويتفهّمه جيّداً ولكنه أكّد أنه لم يتمكن

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

من فعل شيء لمساعدتها برغم محاولاته المتكررة. أخبرني أنه طالب في قسم الآداب، وحدّثني عن نشاطاته في جمعيات شبانية ينتمي إليها وحكى لي عن أسفاره التي كان يقضي لياليها في إقامات الشباب. كان يضحك كثيرا من عينية المنذهلتين دوما وعن جهلي الكلي عن عالم الشباب وجمعياتهم ونشاطاتهم وأسفارهم. ثم تحدّثنا عن الموضوع الوحيد الذي كان في الحقيقة يشغل بالي، الوضع في بلدنا، ومشاجراتنا مع المتطرفين والتجنيد المسلح ضد النظام الكولونيالي. وشرحت له مطولا وصراحة مواقف من نشاطات الطلبة والطالبات داخل الجامعة وفي نواديهم.

أوضحت أنني لم أكن أشكّ في نزاهة قناعاتهم الوطنية وإنما أرى بأنّ أفعالهم والوسائل المستخدمة غير متناسقة مع متطلبات المرحلة التي يعيشها شعبنا. شرحت قناعاتي بأننا نعيش مرحلة حاسمة من تاريخنا كشعب مستعمر، وبالأخص منذ 01 نوفمبر 1954 ومجازر 20 أوت 1955، وأننا نحن الطلبة، وقد ساعدنا حظ الولادة والدراسة كي نتجنّد في الكفاح المسلّح، وأن نشارك بكل جوارحنا وأن نستثمر كامل طاقاتنا. تحدّثت طويلا، بحماس ولكن بهدوء ورزانة. وكانت آذان بوعلام أوصديق صاغية باهتمام واضح، دون أن يحاول توقيفي ولو مرّة. حينما انتهيت، في حين كنت أنتظر تعليقا أو تساؤلا منه وكنت مستعدة لمواصلة النقاش للدفاع عن قناعاتي، فاجأني بوعلام أوصديق بسؤال عن أي حزب أريد أن أتجنّد في صفوفه : « الحركة الوطنية الجزائرية، جبهة التحرير الوطني أو الحزب الشيوعي الجزائري ؟ ». طلبت منه إن كان جادا أو أنه يستهزئ بي، ثم ألقيت عليه جوابي على شكل سؤال : « وإذا قلت لك جبهة التحرير الوطني، فهل يمكن أن تصلني بأحد رجالها ؟ ». بقي هادئا وواقفا من نفسه : « سأحاول ». كان هذا هو جوابه، لا غير : « سأحاول ». ذهلت، ولم أصدّق أذني. حدّقت فيه مليا، بحثا في

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

تقاسيم وجهه عن معلم يؤكد لي صدقه أم كذبه الذي كان سيردمني تحت الأرض من شدة خجلي وزعمي المتطاول، ومن خوفي أن ينفّضح أمري. لم يتزحزح بوعلام أوصديق. بقي وجهه صلبا كالرخام، هو الذي كان في بداية المناقشة مرحا، يراوح بين الجد والهزل. افترقنا، وكنت صامتة، فيما كان هو يكرّر : « سأحاول »، بمثابة صيغة وداع. افترقنا بعد أن تناقشنا من منتصف النهار إلى الثانية زوالا، ونحن جالسان جنبا إلى جنب في زاوية من السلالم المؤدية إلى الإدارة، كصديقين قديمين. كنا بمثابة أخ وأخت يلتقيان بعد غياب طويل ولم يكن أمامهما أي سبب ليشرحا لماذا هما أخوان. كان لدينا مرجع وطني واحد ووحي جريح لتاريخنا المشترك، وذاكرة معذّبة واحدة من المظالم الجائرة التي عاشها شعبنا منذ زمن طويل، ثم وللمعجزة، كانت تؤجّجنا رغبة واحدة في التخلص من هيمنة الاستعمار. إن هذا الإحساس بالأخوة المتضامنة والتواطؤ الخافت، لا يُقرّر هكذا بالمصادفة ولا يُعلن عنه، وإنما يُعاش. وسنعيشه بيننا طوال « معركة الجزائر » كمناضلين أولا ثم خلال إقامتنا في السجون، ولكننا سنعيشه أيضا مع أغلبية السكان مهما كان مستواهم الاجتماعي أو التعليمي.

حينما التحقت بي سامية على الساعة الثانية زوالا لنستأنف الدروس، وجدتني مرتبكة وتحت تأثير هول المفاجأة. كنت مستعجلة لأحكي لها جميع التفاصيل لأجد لديها التأويل والتفسير اللازمين لجميع المعاني الخفية خلف كل جملة وكل كلمة نطق بها بوعلام أوصديق، وكذا خلف كل إيماءة من إيماءات وجهه وكل حركة من حركات جسده، فهجمت على صديقتي واقترحت عليها عدم حضور جزء من الدرس كي يتسنى لي أن أحكي لها كل شيء. أزعجها الاقتراح للحظة ولكنها وافقت مسرورة لأنها كانت هي أيضا تستعجل سماع جديد الأخبار. لأوّل مرة نتغيّب عن الدرس. فرويت

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

لها بالتفصيل الدقيق حيثيات النقاش الذي دار بيني وبين بوعلام أوصديق، الجوّ، العبارات، والإيماءات، وتقلب قسّمات وجهه من الصرامة إلى الارتخاء، من الجدّ إلى الليونة، وبالأخص القسم الأخير من حوارنا، أي السؤال الذي صعّقني به، وسؤالي أنا الذي كان بمثابة جواب لسؤاله، وجوابه المقتضب : « سأحاول ». ختمت تقريرتي لسامية قائلة : « أتعرفين سامية، إن بوعلام أوصديق، هو في آنٍ واحد أنت، أنا، أخوك مالك وأخي قادر ». نظرت إليّ سامية في صمت ثم قالت : « إذا كان هذا هو إحساسك، فإنه كائن بالفعل ! ولكننا لا ينبغي إعادة تكرار حماقة المكتبة الوطنية ». وكعادتها، راحت سامية تخطّط للمستقبل. أرجعنا الثقة التي حظينا بها عند بوعلام أوصديق وسماعه لمطلبنا وتواطئه المبدئي معنا إلى صداقتنا الطويلة مع أخته صليحة، ولكن لم يكن بإمكاننا أن نعرف في تلك الظهيرة إذا كان بوسعنا أن نبتهج ونظهر سعادتنا لقرب الوصول إلى هدفنا الذي نطارده منذ عهد طويل، أم أننا سنعيش مرة أخرى الفشل الذريع لحادثة المكتبة الوطنية. فاتخذنا قرارا بعدم التغيب عن الجامعة والحضور يوميا حتى في أوقاتنا الفارغة بهدف رؤية بوعلام أوصديق ومعرفة جوابه.

ابتداءً من ذلك اليوم، أصبحنا نصل إلى الجامعة مبكرتين على غير عادتنا ونبقى نطوف في الرواق الذي يؤدي من مدخل الجامعة إلى مدرّج « موران »، في هيئة متجولتين ومتحدثتين في شأن الدروس، كي يرانا أخو صديقتنا صليحة، إذا كان فعلا له اتصالات مع جبهة التحرير الوطني ويثق فينا. مرّت الأيام ولم نر شيئا في الأفق. وخلالها اعترانا القلق، وذهبنا إلى حدّ لوم أنفسنا على الطريقة التي باشرنا بها الموضوع معه، فكانت سامية تعود إلى تفاصيل ذلك اللقاء وتلحّ عليّ لأسرد الحوار ثانية وثالثة، لعلّها تكتشف ثغرة تدعّم بها موقفها المربك. وكنت أخضع لتمرين الإعادة دون مضض على أمل التشبث

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

أكثر بوعد محاورى، لأنّ اليأس بدأ يتسرّب إلى قلبي وبدأت فعلا أشك أن يكون بوعلام على اتصال بالمنظمة. هكذا قضينا أسبوعا كاملا ونحن ننتظر على أحر من الجمر، يكبر قلقنا كل يوم جديد بلا أي خبر. في اليوم الثالث من الأسبوع الثاني، في وقت طففنا نستعد فيه لدفن أملنا، جاء القدر يدق بابنا ليعيده إلى الحياة. كان اليوم خميسا مشمسا من شتاء « الدزاير » الجميل، حيث خرجنا من الدروس في حوالي منتصف النهار، وبمجرد خروجنا من مدرّج « موران »، وقفنا على بوعلام أوصديق الذي بدا أنه كان ملازما الباب كي لا يفوت فرصة لقائنا، فخاطب سامية بنبرة مرحة وحركات مرتخية: « أنت سامية لخضاري، إن لم يخطئ ظني ! » ودون تردّد وبصفة طبيعية، مدّت صديقتي يدها له للمصافحة قائلة: « نعم، أنا فعلا سامية لخضاري. وأنت، لن تكون إلا بوعلام أوصديق، أخو صليحة صديقتنا ». تبادلنا بعض الأخبار العمومية، ثم قرّرنا الخروج إلى شارع ميشلي الغاص بالمارين في هذا الوقت من النهار. بدا بوعلام رائق المزاج ولم يتوقّف عن الضحك. كان بلا شك يعرف تحفظنا في مخالطة الذكور، وتلك التسمية التي تلازمنا « الأخوات الطيبات »، فأدرك انزعاجنا ونحن نمشي وسط الشارع وهو يتبختر بيننا. كنا نتظاهر بهيئة طبيعية، بل وتسلينا بالموقف، ولكننا كنا متوترات كما يحدث لنا في الامتحان الشفهي. ذلك أننا كنا ننتظر جوابه لأنه وعدني بجملته: « سأحاول » حينما طلبت منه أن يصلني بأحد رجال « الجبهة ». فجأة، ودون مقدمات، أخبرنا بما كنا نحلم به منذ أزيد من سنة كما لو كان خبرا عاديا، فقال بوعلام أوصديق مبتسما: « عندكما موعد غدا في سكواري لافريير على الرابعة بعد الزوال. ستجلسان على أحد المقاعد العمومية، وجريدة لوموند واضحة على ركبتيكما. سيتصل بكما رجل ». قالت سامية: « سكواري لافريير؟ ولكن على بعد أمتار من الجامعة،

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

مقابل البريد المركزي ! « ردّ بوعلام أوصديق : « بالضبط ». تبادلنا النظرات المندهشة، كنت أعرف أنها تفكّر مثلي « موعد على الرابعة بعد الزوال في وسط المدينة الأوروبية مع مكافح من الظل ؟ ». غادرنا بوعلام أوصديق وهو يتمنى لنا حظا سعيدا، والابتسامة لاصقة على شفثيه، ويده اليسرى يحش بها شعره المبعثر واليمنى حرة ممدّدة ليحيينا بها.

بعدها تلقينا الرسالة واستوعبنا مضمونها، خيم علينا الهدوء الممزوج بالشك. فعلا كنا كمن صرّعنا بضربة قاضية. وقبل أن أعبر عن أمنيّتي، سبقتني سامية إلى البوح بها : « تعالي معي هذا المساء إلى سانت أوجين ونقضني الليلة معا ». كنا بحاجة إلى البقاء معا أطول مدّة ممكنة. إنّها مهمتنا الأولى وكنا نريد أن نكون في مستوى الثقة التي وُضعت فينا. ابتداءً من تلك اللحظة، لم نفترق. ولم نُشر ولو بتلميح خفيف إلى موعدنا نهار الغد. بالطبع، قضينا ليلة بيضاء وقرّرنا حضور دروس الصباح وبداية الظهيرة كي يبدو كل شيء عاديا ولا نثير شكوك أحد. وأخيرا، وصلت لحظة الموعد الحاسم !

• اللقاء مع علي الهادي، المدعو كمال

في ذلك اليوم، كان الجو جميلا في سماء « الدزاير ». والشمس ترش الأشجار بنورها الدافئ، تلك الأشجار التي تظلّل سكوار لافيريير الصغير، والذي كان يعجّ بالمارين الأوروبيين أساسا، من النساء والرجال، عابرين المكان في الاتجاهين. وكنا لا نزال واقفتين أمام مقعد من الخشب الأخضر، وباليد اليومية « لوموند »، حينما اقترب منا رجل ليس كبيرا في العمر، ولكنه أكبر من بوعلام أوصديق. فكّرت فاعرة فمي : « يا إلهي، إنّهُ براسنس ! ». كانت مقدّمة رأسه خالية من الشعر، مثل المغني تماما، وله نفس العينين والشلاغم

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

الكثّة نفسها التي تخفي شفّتيه والذقن المربع الشكل . خاطبنا ببساطة قائلاً : « مساء الخير ! أنتما في الموعد تماما . من الأفضل أن نتمشى قليلا » . وضعناه بيننا ومشينا باتجاه البريد المركزي ثم سلكنا شارع إزلي . يبدو أنّه يعرفنا منذ زمن طويل . سأل عن توقيت دراستنا، دون أن يكون جاهلا بأحوالنا وبنوعية الدراسة التي نقوم بها . طلب منا أن نحدّد له الأيام التي ليست لنا فيها دروس والساعات التي نكون فيها شاغرات أثناء النهار، ثمّ أنهى حديثه موجها كلامه إلى سامية : « ما هي آخر ساعة يجب أن تلتحقي فيها بمنزل والديك في سانت أوجين ؟ » .

كان محدّثنا واعياً تمام الوعي بذهولنا . فقبل أن يفارقنا، قدّم نفسه تحت اسم كمال (واسمه الحقيقي عليّ الهادي) وأعطى لنا موعدا بعد ثلاثة أيام قرب مدخل الكلية على الجهة اليمنى للعمارة، « اللقاء وسط الطلبة لا يثير انتباه أحد » . بعد تلك الكلمات، ذهب كمال تاركا إيانا جامدتين كتمثالين . قصدنا المحطة وركبنا الحافلة ونزلنا قرب بلدية سانت أوجين، ومنها التحقنا بشارع صالفاندي ومنزل سامية . لم نتبادل كلمة واحدة خلال مسافة السفر . كان قلبي منقبضا، واعية تمام الوعي بخطورة القرار الذي اتخذناه، وبالمسار الحاسم والمهم الذي تجندنا داخله، والذي لم يكن لحدّ ذلك اليوم إلا تجنيدا فكريا وعاطفيا، وكنت أبحث بعمق أعماقي عن القوة والطاقة والكفاءات التي ستسمح لي بالجواب الأكيد على ما ينتظره منّي أولئك الذي وضعوا فيّ ثقّتهم العظيمة . في تلك اللحظة، حضرني ما حكته لي السيّد كزاغنيكي عن محتشد فارصوفيا : « لم يقاوموا فقط بالسلاح، لم يكونوا يملكون منه إلا القليل . لقد كافحوا أيضا بفضل القوة التي منحتهم لهم قناعاتهم بأنهم لن يموتوا دون أن يفعلوا شيئا، وكذا الطاقة التي أججتهم أمنيّتهم بأن ينقذ موتهم شخصا أو شخصين »، ثم تذكّرت أندري مالرو . ولكن سامية التي

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

كانت تعيش توترا شبيها بتوتري، هزّنتي وطلبت مني الإسراع في المشي، لأنها تستعجل الوصول إلى البيت للبوح بمعجزتنا إلى ماما زهور، مرشدتنا وشريكتنا الدائمة. في حقيقة الأمر، كنا بحاجة إلى من يطمئننا بأننا نسير في الطريق المستقيم. وكانت لماما زهور موهبة خاصة في إعطاء الأشياء حجمها الطبيعي، وللكائنات بعدها الحقيقي، كما أنّ لها ذلك السخاء الناتج عن حياة مليئة بالتجارب السعيدة، لكن أيضا بالتجارب المريعة ونوائب الدهر الكثيرة. فانغلقتنا معها في غرفة وروينا لها ما حدث، مع بوعلام أو صديق أولا ثم مع برانسّس (هكذا اتفقنا سامية وأنا أن نسَمّي كمال). وقبل أن نعبر لها عن مخاوفنا وعن حاجتنا إلى دعم نفسيّ، أطلقت زغرودة وشرحت لنا أنّ الله اختارنا لنشارك في إنقاذ أمة محمد صلى الله عليه وسلّم من براثن الاستعمار الكافر وظلمه الجائر. انتابنا هلع أن تصل تلك الزغرودة إلى الجارات ويأتين للاستفسار عن السبب، فردّت ماما زهور بثقة واطمئنان : « تعرف جميع الجارات أنكما تجتهدان في دروسكما لتتفوقا على « الرومي » في جامعته الخاصة، سأشرح لهن أنكما نجتهدان في الامتحان ». فواصلت بمدح قدراتنا الدراسية، وطمأنتنا على قواتنا التي لا ينبغي أن يرقى الشك إليها، لأننا من سلالة شريفة فلا يمكن أن نخيّب ظن وارتقاب جميع أفرادها فيما نقوم به من أفعال. دقّت بعض الجارات على الباب مثلما خشينا، ولكن ماما زهور كانت عند وعدّها فاستقبلتهن بالابتسامة وشرحت لهن بأننا نجهن في امتحان مصيري وتوفقنا على جميع الفرنسيين. وبعد أن عادت إلينا، أكّدت أنها لم تكذب على جاراتها لأنّ ما نعيشه يعتبر بحق أكبر انتصار في أصعب امتحان وفي أصعب جامعة : جامعة الكفاح ضد الاحتلال الفرنسي الذي بدأه جدّها الأول الأمير عبد القادر ابتداءً من 1830 ! هكذا استطاعت ماما زهور أن تطمئننا في صحة اختيارنا وقدراتنا وكفاءتنا، لتطرد جميع

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

شكوكنا، وأنهت حديثها بالقسم على المصحف أن سرّنا يبقى مدفوناً في صدرها ولن تبوح به لأحد، وأكدت لنا دعمها الكامل وغير المشروط، محدّرة إيانا بأن لا نثق في أحد سوى الإخوة المكافحين، والله ورسوله. « تعلّقاً بالله وبهذه الأرض الطيبة : سيساعدكم ويحميكم ». فقضت الأمسية تحضّر لنا ما لذّ وطاب من الأكل، مرفّقا بالكلمات الطيبة المطمئنة، بحيث قضينا ليلة طويلة وهادئة.

• مهماتنا الأولى كمناضلات جبهة التحرير الوطني

بعد ثلاثة أيام، عرفنا طبيعة المهمات الأولى التي أسندت إلينا. أعطى لنا كمال محفظة صغيرة بداخلها ظروف سميكة ومغلّفة بلبصيقة « سكوتش »، يحمل كل ظرف اسم المرسل إليه. وكانت جميع عناوين الأشخاص في ورقة مستقلة، تخصّ حياً واحداً : بلكور، وكان علينا أن نتلفها مباشرة بعد تسليم الأمانة. لم أكن أعرف حيّ بلكور بخلاف سامية التي اختلفت إليه مراراً برفقة أمها لزيارة خالتها وقرباتها.

في المساء، في سانت أوجين، حدّدنا موقع جميع العناوين وذلك بفضل ماما زهور التي تعرف الدزائر وأسرارها بعمق. شرّحت لنا أنّ زيارتنا ستكون في الجهة المسلمة من حي بلكور، ابتداءً من سيدي امحمد والعقبة. فقرّرنا ارتداء الحايك الدزيري، العصي الاستعمال، لحماية غفلتنا وعدم جذب الانتباه بهيئتنا الأوروبية وسط حيّ عربي. أعطت لنا ماما زهور، شريكتنا الدائمة، حايكين وعجارين، نرتديهما عند وصولنا إلى حيّ بلكور قبل مباشرة عملنا كساعيتي بريد.

في الغد، طوينا الحايكين والعجارين وأخفينا الكل داخل حقيبتينا اليدويتين، وأخذنا الترامواي من ساحة الحكومة إلى بلكور. في ذلك اليوم،

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

اكتشفت الجهة الشرقية للعاصمة، ساحة 01 ماي، شارع الأقواس الذي يمتد إلى غاية حديقة التجارب والحامة، ثم يستمر إلى غاية سيدي أمحمد، أحد الأولياء الصالحين للجزائر المحروسة. نزلنا في هذه المحطة الأخيرة لنتحقق بضريح سيدي أمحمد ومزاره والمقبرة المحيطة به، كي نخرج منه مُلحفتين على الطريقة الدزيرية. اكتشفتُ متأخرة أنَّ الصعوبة لا تكمن في ارتداء اللحاف عموماً، ولكن أن ترتديه على موضوعة هذه المدينة العتيقة. إنَّ اللحاف الوحيد الذي أحسن ارتدائه منذ أن كان عمري 12 سنة هو لحاف منطقتي الذي ترتديه النساء قبل الخروج : قماش كبير على شكل مستطيل، يغطينا من الرأس إلى القدمين، ولا يترك من كامل الجسد إلا عينا واحدة، تلك الفتحة الكافية التي تسمح برؤية الأرضية التي نخط عليها القدمين. كنا نشده على مستوى الحزام والصدر، ونمسك القماش باليدين، تحت الذقن مباشرة. ولكن اللحاف الدزيري يتطلب معرفة متألفة وخفة ومهارة لم أتعود عليها. فبعد محاولات عديدة وحينما اعتقدت أنني نجحت، اقتفيت قدمي سامية التي تلحفت جيّداً وبسرعة وغادرنا سيدي أمحمد لنباشير دورتنا. فبمجرد أن مشينا قليلاً حتى تفكك لحافي من جميع الجهات، تاركا إياي حاسرة الرأس تارة، ونصف جسدي مكشوفاً تارة أخرى. وكلما أصابني الارتباك، كلما فقدت توازني، وكلما زادت سامية انفجاراً بالضحك وتحت أنظار المارين المندehشة أو المتسلية، وكان أغلبهم من الرجال، يكونون قد فهموا أنني أتلهف لأول مرة. أحدث هذا الارتباك عكس ما خططنا له، فكنا نودّ أن نمر خلسة دون أن ينتبه إلينا أحد، ونحن نرتدي الحايك في حيّ لا يرتاده إلا الأهالي، ولكن رعونتي أفسدت اللعبة وأوقعتنا في حيص بيّص. وفي الوقت الذي كدت أجهش فيه بالبكاء، تقدّم نحوي شيخ في حركات أبوية وأخذني من مرفقي وطلب مني بلطف أن أتبعه إلى حانوته القريب. ذهبنا إلى غاية دكان الخياطة الذي يملكه،

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

فأغلق الباب، وراح يثبّت الحايك إلى فستاني ببعض نقاط الخياطة بحركات سريعة وماهرة، وهو يشرح لي أنني لا يمكنني التخلص من الحايك إلا بفك نقاط الخياطة. ثم تمنّى لنا حظا سعيدا، دون أن يعرف شيئا عنا، ودون أن يطرح علينا أي سؤال. ودّعنا قائلا : « الله يحفظكم. عندكم حظ كبير. في هذه الساعة، لا يوجد إلا أهل الحي ». كانت الساعة الثامنة والنصف صباحا. في ذلك اليوم، اتخذ شكل التضامن والتواطؤ المضمّر صورة خياطنا، ذلك الشيخ الطيّب. أينما يوجد، أطلب من الله أن يرحمه برحمته الواسعة وإلى الأبد. أكيد أنه يكون أحد « إخواننا » أو أحد متعاطفيهم المتحمسين. ليست لدينا أدنى معلومات عن هويته، كلما نعرفه عنه أنه أنقذنا من جميع المخاطر التي يمكن أن تحدّق بنا في إنجاز مهمتنا الأولى، المتمثلة في تسليم ظروف تحوي علاوات التضامن مع عائلات مناضلي جبهة التحرير الوطني المعتقلين أو المفقودين أو الذين أعدمتهم السلطة الكولونيالية. لقد سمح لنا خياط سيدي امحمد بفهم أبعديات تحضير مهمة ما، بحيث لا ينبغي التفريط في أيّ تفصيل مهما بدا غير ذي أهمية، بما في ذلك التدرّب على ارتداء الحايك على الطريقة الدزيرية.

في بلكور، كان معلّمنا الأول ضريح سيدي امحمد المحيط بمقبرته الواسعة، ثم زنقة العقبية، هذا الشارع الصاعد نحو الجبل حيث يقام برصيفيه يوميا سوق، وبه دكاكين صغيرة، يتزاحم حولها حشد من المتسوّقين، أغلبيتهم من الأهالي، تتوسّطهم بين الفينة والأخرى قامات رشيقات من النساء الملحفات جيّدا في الحايك الدزيري الأبيض الناصع. إنّ أغلبية العائلات التي زرناها تقطن بشارع سرفانتس. إنّ العظيمة التي أحدثها فينا اسم هذا الكاتب العظيم، صاحب دون كيشوت، لم تتمكن من إخفاء البؤس والفاقة اللتين يتخبّط فيهما سكان الشارع الذي يحمل اسمه بطريقة مفخّمة. في هذا الشارع،

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

تتراصّف منازل متواضعة بسقوفها ذات القرميد الأحمر والأبواب الحديدية الخضراء، والتي تنفتح على أفنية صغيرة تنطلق منها روائح تدغدغ الأنف قبل حتى أن ينفتح الباب، روائح الياسمين صباحا ومسك الليل مساء. وقد أيقظت تلك الروائح العطرة حاسة شمننا بمجرد دخولنا في شارع سرفانتس، حيث كانت تتنافس مع نوار الجهنمية الأزرق الحاد، بحيث تتدفق كشلالات مزهرة فوق الجدران والأسيجة البسيطة الأخرى.

وحينما نصل قبل وقت الغداء بقليل، كانت تستقبلنا، زيادة إلى روائح الأزهار العطرة، رائحة شُرْبَةِ « المَقْطُفَةِ » المسيلة للعباب، والتي نتعرّف عليها بفضل رائحة « القُصْبُر » الساحرة، ورائحة « شَطِيطْحَة سَرْدِين » التي لا مثيل لها بفضل قوة « الدَّرَسَة » المصنوعة من خليط من الثوم المدروس والكمون. كنا، في العادة، نقوم بزياراتنا صباحا، ما بين الثامنة والنصف إلى الحادية عشر والنصف. وقتها، يكون الشارع هادئا، لا تعكر صفوه إلا بعض الفتيات اللاتي يلعبن لعبة الحَجَلَة (la marelle)، وبعض الفتيان الذين يتدربون على رمي الدوّامة (la toupie)، أو يتقاذفون كرة صغيرة مصنوعة من الجرائد والأقمشة البالية، مربوطة بخيوط صوفية خشنة. نبحت، سامية وأنا، عن الرقم المقصود ثم ندق على الباب الذي عادة ما يكون مفتوحا. نتنحّح قليلا ثم نطلب إذا كان البيت فعلا لعائلة فلان. في العادة، تصادفنا امرأة بـ « سروال المسلمين » مشمّر قليلا، وهي منحنية على جَفَنَة نحاسية وعاكفة على غسل الملابس، فتنهض وتسرع باتجاهنا، ثم تحوطنا مجموعة أخرى من النساء، بعضهن لا يزلن فتيات، وأخريات يحملن رضيعا بين الذراعين. وبمجرّد أن نشرح لهن بأننا نبحت عن شخص بعينه أو عن عائلة فلان، نُقَادُ مباشرة إلى داخل الغرفة الوحيدة، وأحيانا غرفتين متداخلتين، والتي تنفتح على الساحة الداخلية الصغيرة. وكانت تلك العُرف التي تسكن فيها عائلات مختلفة مؤثثة على نمط مشابه إلى حدّ التماثل : بداخلها خزانة بمرآة لاصقة

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

على الباب، يقابلها من الجهة الأخرى فراش مبطن ومغلف بقطعة قماش بلون بهيج، وعليه عند كل طرف وسادة من نفس القماش. وقرب الفراش، تتصدر مائدة مغطاة هي أيضا بسماط جميل، وعليها صينية نحاسية أو فضية مملوءة بفناجين القهوة وكؤوس الشاي والبُقراج التقليدي وسكرية نحاسية أو فضية هي أيضا، والكل مغطى بقماش أبيض ناصع من النظافة. أحيانا، يملك بعض « المحظوظين »، زيادة إلى خزانة المرأة والفراش والمائدة، طبقية تحتل الجدار المجاور للخزانة. تتكوّن الطبقية من قسم سفلي خشبي بأبواب مغلقة دوما بالمفتاح وقسم علوي بأبواب زجاجية يسمح بظهور « كنز » ربّة البيت : فناجين وصحون صغيرة، كؤوس شاي بتزيين مذهّب وأواني طبخ أخرى نظيفة ومرتبّة بأناقة بحيث تجذب نظرة أول زائر. كانت تلك الغرف التي زرناها تقوم بوظائف متعدّدة، فهي في آنٍ واحد غرفة نوم ومطبخ وحمام وصالون جلوس واستقبال الضيوف ؛ ومع ذلك، كنا نجد دوما مرتبة ترتيبا أنيقا وفي نظافة تبهرنا وتشير حيرتنا.

كنا نُسْتَقْبَل دوما بحفاوة كبيرة، تغلفها الحشمة والكبرياء. ولم تكن أية أختٍ من تلك الأخوات تقبل بأن نغادر بيتهن دون أن نذوق طبقا من أطباق الحلويات التي يحضرنها بإتقان وتفانٍ كبيرين، وهن يلحنن ويقسمن ويذكرن الله ورسوله وقواعد الضيافة وعلاقات الجوار والتضامن الأخوي. آه على حلويات « المقرّوط » تلك، والتي تقطر بالعسل الذائب، وعلى مربى البرتقال والأترج والنارنج ! تذهب بعضهن إلى سدّ الطريق أمامنا وهن يقسمن بأغلظ الأيمان بأن لا نعتّب باب الخروج دون « أكل الملح »، وإن كانت قهوة ساخنة لا يزال البخار يفور منها. الملح، آه على الملح ! كلمة صغيرة بمعاني كبيرة، تعبّر عن الوعد والوفاء وعن التضامن والتآخي وبالأخص عن الالتزام الراسخ بأن السر المتقاسم لن يُخَانَ أبدا.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

لن أتوقف عن ذكر خصال تلك النساء : لم تكتفِ هذه الأخوات بتأجيج النار المشتعلة بداخل قلوبنا كي لا تنطفئ شعلتها حتى في أعصف الزوابع، بل عملن على ضمان قواعدا الخلفية التي بدونها لم نكن لننجز شيئا ذا بال، وكنّ الأوائل اللائي يواجهن ضجيج وغضب العساكر الفرنسيين وشرطتها وحركيها من العرب . كنّ يحافظن يوميا، في سلسلة متواصلة من الأجيال، من الأمهات إلى البنات، على الحديقة العظيمة والعميقة لتاريخنا الذي خرّبه الاستعمار منذ 1830، بانتظام ومنهجية، وذلك بنسج وإعادة نسج خيوط ذاكرتنا. فكُنّ يعلمننا بأننا موجودون فعلا كشعب، بأننا موجودون فعلا كإخوة وأننا سنوجد حتما كأمة من المواطنين الأحرار مستقبلا . طبعاً، لم يكنّ يعرفن القراءة والكتابة، ولكنهن يمتلكن معرفة مهولة، ثرية، متنوعة ومتعددة، عن الحياة، عن كامل الحياة، والتي لا يمكن لأي مؤرّخ ولا أنثروبولوجي ولا أكاديمي أن يتنكّر لها أو ينفيها عنهن . لقد طبعت النساء الجزائريات هذه الأرض إلى الأبد، جميع النساء الجزائريات، من بلكور والقصبة وسانت أوجين وتيارت وفيالار وقسنطينة وسكيكدة وجرجرة والأوراس والصحراء، شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، فأذهلت أصدقاءنا وأعداءنا معا، وتركت بصماتها واضحة جلية على تاريخنا .

في بلكور، كانت النساء يستقبلننا في كل مرّة كما لو أنهن كنّ ينتظرننا . فبعد كل زيارة، وحينما نكون منشغلات بالبحث عن غرفة تقطن بها عائلة أخرى، كنا نحاول أن نتعرف، من بين تلك النساء اللائي تجتمعن لاستقبالنا في الفناء الداخلي، على هوية تلك التي قصدتها إعانة جبهة التحرير الوطني، وما هي علاقتها مع الأخ المكافح : من هي أمّه ؟ من هي زوجته ؟ من هنّ أخواته أو بناته ؟ كنا نجهل كل شيء عن الأخ الذي جئنا نساعد عائلته، فكنا نحاول فهم وضعيته الحاضرة . كانت النساء لا يتكلّمن كثيرا، ولكن عيونهن

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

ونظراتهن وحركاتهن يعبرن عن معاني عميقة مؤثرة. كنا نتحاشى ذكر الرجل الغائب، المكافح الذي لا نعرف عنه شيئا، فنكتفي بذكر الأحداث الأخيرة بطريقة سريعة وسطحية. ولكن، يا إلهي، كم كانت عيونهن ونظراتهن تعبر عن الحزن الدفين، والقلق الذي يحصرهن : ما مصير الأخ أو الابن أو الزوج ؟ هل قُتل ؟ هل اختفى ؟ أم هل لا يزال على قيد الحياة، وأنه اعتقل ورمي في غياهب السجن ؟ أم أنه التحق بالجلال ؟ كانت نظراتهن ملحاحة بأسئلتهن الصامتة، ولكن حركاتهن تحاول المستحيل لإراحتنا وإظهار تضامنهن الإنساني العظيم. كنا في عيونهن ذلك الرابط الحي والملموس مع الغائب. وكانوا في عيوننا التجسيد السحري لأخيना المجهول. وكنت أجد عند حضريات بلكور نفس كبرياء خالتي بخنة أو خالتي عيشة من « حي الزوج » في قرية فيالار. يبدو الفقر الذي يعشن فيه أضعف وأعجز مقابل ذكرياتهن، بل أقول مقابل ثقافتهن. نعم، كان الفقر المادي تتكسر أسنانه على صخرة ذاكرهن المتراكمة عبر العصور لتشكّل ثقافة تسمح لهن بالبقاء واقفات شامخات حتى في أحلك الظروف. يظهرن ثقة بالنفس وكبرياء لا يمكن تفسيره إلا بربطه بوعي جذورهن البعيدة، ذكرى الماضي المشترك الذي لا يزال ينبض بالحياة، ذكرى عصر كنا فيه شعبا حرا في أرضه. لم تكن نظراتهن وتعابير وجوههن لتظهر أناسا محطّمين أو مستسلمين خاضعين. بدا كما لو أنهم يقلن للعدو : « لقد هزمتونا ولكننا سنعود يوما إلى ما كنا عليه ذات يوم، شعبا حرا ». كانت تلك النظرات وتعابير تلك الوجوه هي التي سمحت لي، حينما ألتقي بشخص ومهما كان مستواه الاجتماعي والثقافي، بأن أعرف مباشرة إن كان جزائريا أم لا. كنت أعرف إن كان ينتمي إلى « الشعب الذي يتحدث بعينه » أم لا. كنا، سامية وأنا، نسلّم تلك الظروف لأصحابها، واعيتين بأنها تقدّم مساعدة ضرورية لتلك العائلات كي تواجه حياة الشظف والعوز، ولكنها

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

تعبّر في الآن نفسه عن التضامن العميق الذي لا يعوّض بين أعضاء شعبنا. وكنا ننهي دوما دوراتنا ونحن في أحسن حال من الناحية النفسية والجسدية، منتعشات، في حيوية أكبر، ينتابنا إحساس نبيل بأننا نفيد قضيتنا وملتونا الاعتراز والافتخار بإخوتنا الذين فجروا حرب التحرير الوطني. كما كانت تلك الدورات تدعّم قناعتنا بأن الاختيار الذي انتهجته جبهة التحرير الوطني يستجيب كلية لتطلعات أغلبية شعبنا. وبعد أداء مهماتنا، كنا نلتقي « براسانس »، وسيطنا، ونقدّم له تقريراً مفصلاً عن جولاتنا في أزقة بلكور. كان لطيفاً ومهذباً ولكنه متحفّظ جداً معنا، ربّما لم يتعوّد العمل مع النساء. وكنا، باتفاق مشترك، نقصّر مدة مواعيدنا التي كانت تُختزل في التقرير السريع الذي نقدّمه، ثمّ يعطي لنا ظروفًا أخرى لتوزيعها في أحياء بلكور، وديار الشمس، ولازُدوت، وزُغارة، وبعد ذلك نفترق. دام هذا العمل شهرين كاملين، إلى أن جاء ذات يوم إلى موعدنا المحدّد في شارع « نَغْرِي » الموازي لشارع إزلي، خلف « أروقة فرنسا »، وبرفقتة رجل قصير القامة ونحيل الجسم، ولكنّ عينيّه الماكترتين لم تتوقفا عن النظر العميق إلينا، حيث ينتقل من الواحدة إلى الأخرى، كما لو أنه أراد أن يرسخ بذهنه صورة جسدينا. وخلال اللقاء لم يتوقف من إلقاء النظرات الخاطفة حوله. فكّرت أنّ القادم الجديد يكون شخصا متعوّدا على الحياة السريّة.

• اللقاء مع مصطفى فتال، "الفنك"

قدّمنا براسانس : « نبيلة » وهو يشير إلى سامية، « فريدة » وهو يشير إليّ. فهمنا أنّ السيّد النحيل هو قائدنا الجديد. ألقت نحوي سامية نظرة فهمت منها أنها تتساءل عن المعنى الذي ستمنحه لهذا التغيير. بعد التقديم، حيّانا براسانس، تمنى لنا حظاً سعيداً وغادرنّا. كان قائدنا الجديد

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

أكثر استعجالا واختصارا للكلام من سابقه . بخطى سريعة، مشى صاعدا عبر شارع « نغريي » باتجاه الحكومة العامة . عندما وصل إلى طرف الشارع الذي ينفتح على الشارع الكبير، توقّف وقال : « سيكون هذا المكان موعد لقائنا المقبل بعد يومين على الساعة 11 صباحا . لقاء اليوم ليس إلا للتعارف » . تركنا واقفتين وعاد أدراجيه بخطى سريعة، ويداه بداخل جيبيه . كان الجو باردا، ومع ذلك كان يوما شتويا بسماء زرقاء وشمس مُشعّة، يوما أحسّسنا فيه بسعادة الحياة، وبحظنا بالانتماء إلى هذه الأرض . كان فرحنا مضاعفا لأننا فسّرنا تلك الإجراءات الجديدة كتعبير عن رضا إخوتنا الكبار على العمل الذي قمنا به منذ شهرين ؛ ربّما سيكلّفوننا بمهمات أكثر أهمية ؟ لذلك ينبغي مواصلة تأدية عملنا بكيفية جادة ومنضبطة، لنقنعهم بالتزامنا الصارم وإصرارنا في العمل، قبل أن نطلب منهم – في الوقت المناسب – إدماجنا في المجموعات المسلّحة . وكنا، سامية وأنا، نحضّر حجّجنا ونحن ننحدر عبر الشارع المؤدي إلى الجامعة التي أهملناها شيئا ما منذ تجنيدنا جسدا وروحا في نشاطنا الجديد، فقررنا الالتحاق بالدروس في الفترة المسائية كي نستدرك ما ضاع منا بسبب زيارتنا المتكرّرة إلى بلكور مما أجبرنا على التغيب عن كثير من المحاضرات والدروس التطبيقية والموجّهة .

في حقيقة الأمر، لم يكن الهيجان والغليان المنتشران داخل الوسط الطلابي يشجع على البحث والدراسة . في المرات القليلة التي ذهبت فيها إلى قاعة البحث، لم أعرّ على جوّ وحماس عمل السنة الماضية . بدا لي أنّ عدد الطلبة المسلمين قد قلّ بشكل ملحوظ . لا تعلّمنا الجامعة شيئا عن بلدنا وعن شعبنا، وكان هذا بالنسبة إلينا كطلبة ملتزمين يزيدنا نفورا وابتعادا عنها . كنا نتعلّم بفضل اتصالاتنا النضالية أكثر من دروس الجامعة . وكنا نعرف، من عائلاتنا وجيراننا وزيارتنا للحمام العمومي وإلى عائلات المكافحين، ومن قائدنا،

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

بالدقة ماذا تعني « عمليات حفظ النظام » و« التهذئة » التي تتحدّث عنها الصحافة الاستعمارية التابعة لنظامها بكثير من التبجح والاعتزاز .

خلال زيارتنا للأحياء الشعبية للجزائر العاصمة وضواحيها، تعرّفنا بانتظام، سامية وأنا، على العائلات الناجية من القرى المحروقة والتي تعرّضت للقصف في جبال البليدة والمدية وباليسترو أو جبال جرجرة . كانت تلك العائلات ترتزق وتقتات في بؤس وعوز عصي الوصف، وكانت النساء يروين لنا بأدق التفاصيل ما حدث لهن، كما لو أنهن سيتخلّصن من مآسيهن بعد روايتها مباشرة . حكّت لنا تلك الناجيات الرعب الذي عشنه والطرق الجهنمية التي استخدمها الجيش الفرنسي باسم الدولة والشعب الفرنسيين : حصار، تمشيط، مطاردات، قنابل النابالم، اختيار عدد من الرجال بطريقة عشوائية، وكلّهم من المدنيين، ليطلق عليهم الرصاص أمام عيون النساء والأطفال المرعوبين . ولم يتوقّف الانتقام من السكان المدنيين والذي ارتكبته الدولة « الديمقراطية » الفرنسية عند هذه المجازر المرعبة المتمثلة في هدم وحرق القرى والمداشر ومسحها من الخريطة في جبال جرجرة والونشريس والأوراس، ولكنها ذهبت إلى ما هو أبشع : الاغتصابات الجماعية كسلاح الدمار الشامل والمتواصل . لا أنسى أبدا تلك الفتاة الجميلة، الطويلة القامة، بشعرها الفحمي الذي يتدفق على كتفيها كشلال ماء، ببشرتها الشفافة وعينيها الغزائيتين، ولكن يديها ورجليها كانت باستمرار مقيدة . كانت بين الفينة والأخرى تطلق صراخا يشلّ أجسادنا ويملأنا رعبا . استقبلتها عائلة مجاهد سقط شهيدا في منطقة القبائل، وكانت تضطر إلى تكميم فم الفتاة كي لا يُسمّع صراخها في الحي كله . كانت الفتاة علجية في 16 من عمرها وهربت مع أمها جوهر عند إحدى قريباتها فاطمة وهي أرملة وأم لأربعة أطفال . وكانت فاطمة ضمن قائمة الأرامل التي تتلقّى مساعدة مالية من جبهة التحرير الوطني وتسكن في « العقيبة »

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

ببلكور. عندما اكتشفنا وضع عُلجِيّة وصراخها المرعب، روت لنا فاطمة تفاصيل ما وقع لها : كانت تقطن في قرية بقرب تَغْزيرت، تعرّضت للقصف بالقنابل خلال 21 يوما. في اليوم 21، احتلّها العسكر الفرنسي، فقتلوا جميع الرجال والفتيان ووضعوا الفتيات في غرف المنازل الفارغة. وخلال أسبوع كامل، قام العسكر باغتصاب فتيات القرية ودون توقّف. وعندما استرجعت جُوهَر ابنتها علجية، كان جسد الفتاة وروحها قد دُمّرا إلى الأبد. وإذا كانت يداها ورجلاها مقيّدة فلأن الفتاة كانت تدمي نفسها باستمرار وتحاول الهرب من المنزل. كانت فاطمة تهمس لنا هذه المأساة وهي تبكي بصمت. وقد تجمعت كثير من النساء في ذلك اليوم وبمناسبة زيارتنا، وهنّ من مناطق مختلفة من باليسطرو وحمام الوان وجمال الشريعة، فبدأت كل واحدة تحكي العمليات الانتقامية التي قام بها العسكر الفرنسي ضد السكان المدنيين العزل. كنا نتواصل في وجع لا حدّ له، ولكن أيضا، في تضامن وتآخٍ عظيمين. أبدا، لم تجعل هذه النساء جبهة التحرير الوطني مسؤولة غير مباشرة عن مآسيها. بالعكس، يتعرّفن جميعا على أنفسهن داخل « المنظمة »، ويقدّسن مكافحيها ويؤمنن إيمانا صلبا بمثلها ومشروعها التحرري.

ولكن تبقى عُلجِيّة، في نظري كقانونية، الممثّلة الحيّة لآلاف الفتيات، ضحايا مدنية مطلقة، استعملت أجسادهن وأرواحهن كحلبة لحرب شاملة قادها الجيش الفرنسي باسم دولته « المتحضّرة »، بواسطة الاغتصابات الجماعية، هذا السلاح الرهيب الذي يدمّر الضحية أثناء التنكيل بالجسد وبعده بل وإلى الأبد. ولم تكن قصص نساء الأحياء الشعبية حول القمع الوحشي الذي يقوم به الجيش الفرنسي في جبالنا وأريافنا لتثبّط عزيمتنا في مقاومة الأوروبيين والقضاء النهائي على نظامهم الكولونيالي، بل تزيدنا عزيمة على عزم وتؤجج غيظنا وتقوي إصرارنا على الالتحاق بالجماعات المسلّحة التي كانت، في بداية

مُذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

عام 1956 في الجزائر العاصمة، تقوم بعمليات عسكرية تستهدف العسكريين ورجال الشرطة وكذا مساعديهم من بين العرب .

وكنا عشية كل لقاء مع قائدنا نتناقش، سامية وأنا، حول الطريقة المثلى لإظهار رغبتنا في الانضمام إلى المقاومة المسلّحة، ولكن كنا عند حضوره نكتفي بالإجابة على أسئلته ولا نجرؤ على الإفصاح عن رغبتنا الدفينة. كان الانضباط الذي تحلينا به والاحترام الكبير الذي نكنّه لقائدنا يمنعنا من الإيغال بعيدا عمّا سطرته المنظمة لنا. مع أنّ الفرص لم تكن تنقصنا، خاصة بعد زيارة في مولاي، رئيس مجلس الوزراء ووزيره المكلف بالحرب، ماكس لوجون، إلى الجزائر في 06 فيفري 1956. في فرنسا، فاز في الانتخابات التشريعية تحالف اليسار الوسطي وأدّى ذلك إلى وصول قائد حزب SFIO الخادع إلى رئاسة المجلس، في مولاي، الذي رفع شعار « السلم في الجزائر » أثناء حملته الانتخابية، مقترحا بعض الإصلاحات التي لن تغيّر من وضع الجزائريين شيئا. في الجزائر، رفض الأوروبيون ونظامهم الجائر، يدعّمهم المتطرّفون وتقوم صحافتهم بالدعاية المغرضة اللازمة، كل حديث عن أيّ سلم مع « الفلاقة » وعن أيّة إصلاحات وإنّ كانت ذرا للرماد في العيون فقط. داخل الجامعة والمقاهي وكذا على صفحات الجرائد المحلية، كنا نرى ونسمع ونقرأ عن المشادّات الكلامية الهستيرية التي تواجه أغلبية تدافع عن رأي المتطرفين بأقلية تساند تلك الإصلاحات الضعيلة التي لم يكن القصد من ورائها إعادة النظر في الطبيعة الظالمة والجائرة للنظام الكولونيالي وإنما التنازل عن بضع فئات لملايين الجياع والأميين من الأهالي الذين سحقهم البؤس وأذلهم القمع الوحشي. وفي هذه المشدّات الكلامية الفرنكو-فرنسية، كان المتطرّفون يعتبرون أن بؤس الأهالي هو دليل على دونية المسلمين الطبيعية، الجينية، الذين يجب عليهم شكر الله الذي بعث إليهم الأوروبيين لتمدينهم وإخراجهم من « حالتهم الوحشية ».

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

أما الأقلية القليلة من اليسار الوسطي، فكانوا يفسّرون هذا البؤس كنتيجة لخطأ في الاستراتيجية الاقتصادية والاجتماعية التي يمكن إصلاحها بخلق بضعة مناصب شغل وفتح عدد من مراكز محو الأمية والتكوين المهني . ولم يُعَد الطرفان أبدا النظر في الأسباب الحقيقية العميقة التي تشكّل نظام الهيمنة الكولونيالي . أما مسألة الوضع السياسي للأهالي وحقهم في الحرية والكرامة، فلم تكن محل نقاش أبدا، ولم تخطر في بال أحد الطرفين .

لقد طفح الكيل في نظرنا، سامية وأنا، الطالبتين في السنة الثانية حقوق . وفي بداية سنة 1956، حدثت مناقشة حادة مع صديقتنا ميمي كادت تحدث قطيعة نهائية بيننا . لقد وصلت ذات صباح، مهيّجة كبرغوث، لتزف لنا « خبرا عظيما »، مفاده أنّ مثقفين فرنسيين، على رأسهم ألبير كامو، كاتب من الأقدام السود، أطلقوا « نداءً تاريخيا »، يتعلّق الأمر بـ « نداء من أجل الهدنة المدنية » . شرحت لنا بأنّ لهؤلاء المثقفين أثرا كبيرا على الرأي العام في فرنسا، وبما أن الحزب الراديكالي قد فاز بالانتخابات، فستغيّر كل شيء ولصالح شعبنا في الجزائر . طبعاً، لم تكن ميمي تعلم شيئا عن انتمائنا إلى « المنظمة » ولا عن نشاطاتنا السرية ولا عن زياراتنا إلى الأحياء الشعبية ولا عن المعلومات الدقيقة التي كنا نلتقطها عن وضعية اللاأمن القصوى والقمع الوحشي الذي يسلّط على جبالنا وأريافنا . . . ولم يكن ممكنا أن نسرّلها بشيء من هذه الخفايا، لذلك، تمحور نقاشنا حول حقل المبادئ والجانب الفكري للمسألة وحول ما قرأناه عن ألبير كامو في جريدة « ألجي ريبوبليكان » . فذكرناها بأنّ « ألبير كامو كاتب فرنسي بآتم معنى الكلمة، فيما كنّا ننتمي إلى « الأهالي »، أي إلى كائنات دونية في الحقوق، ولم يكن لدينا الحق في المواطنة ولا في الجنسية الفرنسية . وبما أنّنا شعب مستعمر، فليس لدينا الحق في أن نكون جزائريين . وفي الحُصلة، لسنا فرنسيين ولا جزائريين ؛ إنّنا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

لا شيء في نظر السلطة الفرنسية. نحن شعب أنكر النظام الكولونيالي هويتنا ووجودنا منذ 126 سنة من الاحتلال. وفي نهاية المطاف، لا يخجل هذا النظام بالقول أنّ الجرائر هي فرنسا ! ما يعني أنّ الأوروبيين ومعهم ألبير كامو هم هنا في بيتهم ونحن أجانب على أرضنا ». ثم أضفنا : « هل يطرح هذا » النداء من أجل هدنة مدنية « المسألة بهذه الأبعاد الحقيقية لقضيتنا ؟ هل يؤكد أنّ أصل وسبب مآسينا هو النظام الكولونيالي ؟ هل يقول بأنّ الحل الوحيد هو إلغاء النظام الكولونيالي والقضاء عليه بكل الوسائل ؟ » ارتبكت ميمي وردّت بفضاظة : « أنتما متطرفتان و لن يقودكما موقفكما هذا إلى أي حلّ. اقرأ تحقيقات كامو حول ظروف حياة سكان منطقة القبائل وستريان بأنه صادق، إنّهُ إلى جانبنا ». ردّت سامية بهدوئها المزيف : « اسألي كاتبك كامو ليقول لنا كيف تحرّر بلده، فرنسا، من الاحتلال النازي. إنهم المتطرفون مثلما تسمينهم، أولئك المقاومون، بمساعدة الأمريكيين، الذين حرّروا فرنسا، وليس » النداءات من أجل هدنة مدنية ». لماذا لم يقترح كامو ولا أصدقائه هدنة مدنية على الألمان لحل مشكل احتلال بلدهم ؟ أما فيما يتعلق بأوراق كامو في « ألجي ريبوبليكان » فسبق لنا أن قرأناها. إن مشكلتنا في نظره هي فقط مشكلة بؤس نتيجة البطالة والأمية، بينما نرى نحن بأنّ البؤس ما هو إلا نتيجة مشكلتنا الحقيقية والتي تسمى « الاستعمار الفرنسي ». في نظره، يكمن الحل في إصلاح النظام الاستعماري، بينما نرى نحن أن الحل في القضاء على هذا النظام الجائر الذي ينتمي إليه. يجب عليك أنت، المختصة في الآداب، أن تغيّري كاتبك المفضل. أقترح عليك قراءة أندري مالرو : ستفهمين، أنّ الحق، في بعض الفترات التاريخية العويصة، يوجد عند المقاومين، أو المتطرفين مثلما تسمينهم ». نظرت إلينا ميمي وعيناها تطفحان بالدموع وفارقتنا دون أن تنبس بكلمة.

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

لم نجد الوقت لنحسّ بالندم على موقفنا الفظ مع ميمي، لأنّ في مولاي، عندما جاء إلى مدينة الجزائر في 06 فيفري 1957، استقبله الأوروبيون بقذائف الطماطم والصرخات الهستيرية، وقد نظّمت لجنة الدفاع عن الجزائر الفرنسية حملة عنيفة ضد « إصلاح » رئيس المجلس، رفعت لواءها الصحافة المحلية عبر مقالات نارية. وفي 09 فيفري 1956، عُيّن الاشتراكي روبير لاكوست، المناضل من أجل « جزائر فرنسية » في منصب « الوزير المقيم » بالجزائر. وفي مارس 1956، بعد شهر فقط من زيارة في مولاي إلى الجزائر، صوّت الجمعية الوطنية الفرنسية على قانون « السلطات الخاصة ». ها قد قرئ القدّاس وأغلقت الدائرة علينا : على الجزائر أن تبقى فرنسية، ويبقى معها النظام الكولونيالي بقوافل الهيمنة والإذلال والقمع والبؤس وإنكار وجود الأهالي وإعطاء الأقلية الأوروبية كل الامتيازات السياسية والاقتصادية والثقافية. ولبلوغ هذا الهدف، يجب القضاء بكل الوسائل، القانونية وغير القانونية، على المنادين بالاستقلال في الجزائر وقتل كل رغبة عند المسلمين لمساندتهم، وإطلاق حرب شاملة وإعطاء كامل الصلاحيات للجيش في الجزائر، مع ما يستتبع من تجاوزات أذاقت الجزائريين العلقم. لم يتردّد النواب الفرنسيون ومعهم الشيوعيون في التصويت على القانون الجائر لـ « السلطات الخاصة »، وقد ساندتهم في ذلك في مولاي وحزبه الراديكالي، فزادوا في مدّة الخدمة العسكرية، وأغرقوا الجزائر بجيش تجاوز عدد أفرادهِ النصف مليون عسكري، مدجّجين بالسلاح ونشروهم عبر كامل مناطق الجزائر.

ابتداءً من مارس 1956، مباشرة بعد التصويت على « السلطات الخاصة »، امتلأت شوارع الدزاير بالعساكر. في 16 مارس، خضعت مدينة الجزائر الكبرى لحظر التجوّل بين منتصف الليل والساعة الخامسة صباحاً، كجواب على العمليات العسكرية التي تمكّن مناصلونا من تنظيمها. عشية فرض

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الحظر، أي في 15 مارس، قام إخواننا بحرق محطة البنزين القريبة من الجامعة. امتلأنا، سامية وأنا، فخرا واعتزازا عندما رأينا نتائج الحريق. ليست هذه العملية إلا عدلا في نظرنا، لأننا لم نحتمل رؤية هؤلاء الأوروبيين السعداء، الذين ينعمون بلطف الحياة والسكينة والسلم، فيما يخضع أهلنا في الجبال والمدائر البعيدة إلى القمع والقتل والحرق والاعتصاب. وبرغم حظر التجول، استمرت التفجيرات وبدأ الأوروبيون يشعرون بالخوف والأمن داخل مدينة الجزائر. وطبعا كان العساكر ورجال الشرطة يردّون على تلك العمليات بقمع وحشي : وكما في الجبال، كانوا يطبقون العقاب الجماعي وعلى المدنيين، فيحاصرون أحياء بأكملها، ونقصد الأحياء العربية طبعا، ويعتقلون رجالها، بلا أدلة، بقصد التخويف والترهيب وقتل « التمرد » أو أية رغبة في مساندة أصحابه.

وقد تسببت غياباتنا المتكررة عن دروسنا للسنة الثانية حقوق في تأخر واضح، ولم يكن ممكنا لنا اللحاق بالركب إلا ببذل جهود مضنية، بالحضور الدائم والبحوث المنتظمة في المكتبة. ففهمت بسرعة أنّ لا طائل من المحاولة لأننا لن نكون مستعدّتين لامتحانات جوان 1956. كان أستاذنا في القانون العام هو السيّد حسان، جزائري بشهادة التبريز ويدرس في الجزائر وباريس. في الدروس الموجهة، تفاجأ فوجنا بامتحان غير مبرمج. وطبعا، لم يكن جوابنا، سامية وأنا، في المستوى المطلوب نظرا لاهتمامنا بنشاطاتنا الجديدة، الشيء الذي عكسته النقاط الضعيفة التي تحصيلنا عليها في الامتحانات الأولى، وكم كانت مفاجئتنا صاعقة حينما استدعانا السيّد حسان إلى مكتبه بعد نهاية الدرس الموالي للامتحان. أحسّسنا بخجل مهين وهو يشير إلى أسمائنا أمام الجمع الغفير للطلبة، ولم نلتحق بأستاذنا إلا عندما غادر الجميع المدرّج. كان ينتظرنا في الرواق وطلب منا أن نتبعه إلى مكتبه. فبعد أن حدّد هوية كل

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

واحدة منا، قال لنا : « من بداية السنة، لاحظت حضور طالبتين مسلمتين، الآنستان زهرة ظريف وسامية لخضاري، ومثلما يمكن أن تتوقعن، ذهبت إلى الإدارة أستخبر عن نتائجكما في السنة الأولى، فلا غبار عليكم، كانت النتائج جد مرضية، بل وممتازة في بعض المواد. كنت فخورا بكما، ولكن أُصِبت بخيبة أمل كبيرة عند تصحيح وثيقتيكما في الامتحان الأخير، فلا علاقة لهما بنتائج السنة الماضية ولا تستجيبان للصورة التي رسمتها عنكما. ماذا حدث ؟ هل مادة القانون العام لا تثير اهتمامكما أم أنكما قرّرتما إهمال دراستكما ؟ » لقد شلّنا الخجل أمام السيّد حسان. ها هو أستاذنا، مبرز الجامعات في القانون، يوضّح لنا خيبته أمام نتائجنا السيئة، ويحثنا على إعطاء تفسير لها. ماذا عسانا نقول ؟ ماذا عسانا نجيب ؟ بأننا لسنا الآنستين زهرة ظريف وسامية لخضاري للسنة الماضية ؟ بأنّ حياتنا الجديدة ليست مخصصة للدروس الجامعية وإنما لمناصرة قضيتنا الكبرى، قضية استقلال بلدنا ؟ وبأنّ ما نقوم به من نشاطات ليس له علاقة بالقانون العام وبالجامعة ؟ وبأنّها تتمثل في نقل طرود خفيفة الوزن وظروف سميكة، مغلفة ومحكمة الغلق، تحمل على ظهرها اسما بسيطاً من أسمائنا فنحملها وننقلها إلى عناوين مكتوبة في ورقة مستقلة أمّرنا بتمزيقها وإتلافها مباشرة بعد أداء المهمة، مع الإصرار بالمنع التام عن كتابة العناوين على وجه الظروف ؟ وبأنّ مواعيدنا مع قائدنا تحدث وسط الشارع غير بعيد من الجامعة ؟ وأنّنا قبل أن نفترق يحدّد لنا مكان وتاريخ الموعد المقبل والذي يمكن أن يحدث في يوم مماثل ولكن في مكان وتاريخ مغايرين، بعد أداء مهمتنا ؟ وأنّ قائدنا ينتظرنا لنسلم له الطرد الذي سلّم لنا في إحدى تلك الغرف الصغيرة في بلكور دون أن نعرف شيئاً عن محتواه ولا عن هوية المرسل إليه ؟ وأنّنا كنا نؤدي مهمتنا بأحسن وجه وبتفانٍ واقتناع كبيرين، يعترينا في كلّ مرّة إحساس رهيب بالخوف عند اقتراب كلّ موعد مع

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

قائدنا، ليس علينا، وإنما بسبب احتمال عدم حضوره إلى الموعد ؟ وأنا نعرف منذ اللقاء الأول ماذا يعني غياب قائدنا للموعد المحدد سلفا ؟ وبأنه حدد لنا السلوك الذي يجب اتّباعه عند حصول مثل هذه الحالة ؟ بأن لا نحاول أبدا العودة إلى مكان الموعد وأن نلتحق فورا ببيت سامية في سانت أوجين وانتظار أن يتم الاتصال بنا من جديد ؟ كنت أفكر في كل هذه التفاصيل وبصري لاصق بالأرض، عاجزة على مواجهة نظرة السيّد حسان الذي كان ينتظر بصبر حجج فشلنا في الامتحان، لنشرح له وضعنا الجديد المتصف بـ « عَرِيان وفَنطازي » مثلما يقول المثل . كنا مثقلتين بالخجل وعيوننا تطفح بالدموع، لأنّ حججنا يكتنفها سرّ مقدّس، ويستحيل علينا الجهر بها، فتخذقنا في صمت ثقيل وطويل انتهى بالسيّد حسان إلى إطلاق سراحنا وهو يغلي من الغضب والحزن، لأنّه لم يفهم سبب فشلنا في الامتحان .

ومع ذلك، عندما خرجنا، وجدّت سامية الكلمة المناسبة للتخفيف عن خرجنا، قائلة : « مسكين السيّد حسان ! ها هو يفقد وإلى الأبد طالبتيه الممتازتين اللتين كان يفتخر بهما ويقدمهما كنموذج للنجاح . ألا يعرف الأستاذ حسان أنّ شعبنا يخوض حربا ضروسا ضد الاستعمار بينما يثرثر هو في جامعات العدو ؟ » قهقهت سامية بعصبية، قهقهة مرّة . فغادرنا الكلية لنلتحق بمكان موعدا الجديد مع قائدنا في حيّ لا أعرفه جيّدا رغم أنني أعبره كل صباح وأنا بالحافلة حينما أذهب من الإقامة الجامعية إلى الكلية : الأبيار، بشوارعه التجارية النشطة . سمحت لنا مهماتنا باكتشاف جميع أحياء الدزاير وضواحيها . وبما أنّ ثقتنا في الاستقلال كانت مطلقة، تواعدنا، سامية وأنا، أنّنا بعد نيل استقلالنا سنؤلّف مرشدا نسميه « الدزاير حسب براسانس والفنك » . و « الفنك » هو الاسم الذي أعطيناه لقائدنا الجديد . عند وصولنا إلى الأبيار، وكان أمامنا متسع من الوقت، فتعرّفنا أولا على الشارع ورقم مكان

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

موعدنا، ثم عرّجنا باتجاه ساحة كبيرة وجميلة، تغرق في السكينة والسعادة وابتهاج الحياة. وليس بها إلا الأوروبيون ! جلسنا على مقعد وطفقنا ننظر إليهم وهم ينعمون في تلك السعادة، كما لو أنّ لا وجود لأي عربي على هذه الأرض التي استولوا عليها بقوة جيشهم... كما لو أنّ مناطق هذا البلد لم تخضع لتمشيط عسكري دقيق ولا لقصف مرعب بالقنابل. كنّا ناغمين على سعادة حياتهم، بينما يعيش أهلنا في الرعب والقمع الوحشي. في لحظة ما، وبغفوية الشباب، قلت لسامية : « عندما ننال استقلالنا، سأسكن في الأبيار ». لقد وُقيت بوعدني الثاني ولكنني لم أنجز وعدني الأول المتعلق بمرشد مدينة الجزائر.

عندما التقينا بالفنك، تجرأتُ وعرضتُ عليه باختصار نظريتنا في نقل الحرب إلى حقل العدو، وذلك باستعمال أشخاص مثلنا نحن الاثنين. استمع بلطف إلى عرضي ثم غادرنا. فقررت سامية أنّها ستطرح عليه الموضوع مجدداً في اللقاء المقبل. كانت سامية أقل خجلاً منّي، وأوضحت موقفنا بحجج أكثر دقة واقتناع أوضح ولكنها لم تحصل على أية نتيجة. وبالفعل، في الموعد الموالي، شرحت سامية أنّ الحرب، ابتداءً من 01 نوفمبر 1954، بقيت محصورةً في الجبال والمداشر والقرى النائية، ويتضرر منها سكان هذه المناطق، وتستثنى المراكز الحضرية الكبرى. هكذا، كانت المدن الكبرى مثل وهران وقسنطينة وبوّة (عنابة) والدزاير (الجزائر العاصمة)، لا تختلف عن المدن الفرنسية الأخرى وراء البحر ويعيش فيها الأوروبيون في سلم وأمن وسكينة، بعيداً عن الحرب ونوائبها. مع أنّ احتلال بلدنا لم يكن بفعل الجيش الفرنسي وحده، وإنما أيضاً بفعل السكان المدنيين الأوروبيين الذين لولاهم لما كان لمفهوم الاحتلال الاستيطاني أي معنى يُذكر. وقد خلّصت إلى ضرورة أن يعيش هؤلاء ويلاّ الحرب، وشرحت أنّ فتيات مثلنا يمكنهن التنقل داخل أحيائهم بلا صعوبة

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

ودون لفت انتباه الفرنسيين وإثارة شكوكهم، ويمكن للمنظمة أن تستخدمهن ضمن مجموعات المسلحة. استمع إليها « الفنك »، القليل الكلام دائما، دون أن يوقفها أو يعلق على كلامها. أعطى لنا التعليمات الجديدة وغادرنا. ولم يثبط صمته من عزيمتنا في تكرار طلبنا عدد المرات اللازمة وحتى يُستجاب لنا، بل قرّرنا أن نذهب في البحث عن بوعلام أو صديق لنعرض له أسباب طلبنا بالالتحاق بالمجموعات المسلحة. وكنا واثقتين بأنه سيستمع إلى طلبنا وإن تمكّنا من إقناعه، سيوصل طلبنا إلى قادة المنظمة الكبار، مثلما فعل من أجل تجنيدنا أول مرة.

• اعتقال الفنك

كنا منكبّتين على البحث عن بوعلام حينما فوجئنا بضربة نزلت علينا كالصاعقة في الأسبوع الأخير من أبريل 1956. ذات صباح، كنت واقفة داخل الحافلة التي تقود الطلبة من الإقامة الجامعية إلى الكلية، فألقيت نظرة إلى الجريدة التي يقرأها مسافر جالس على المقعد الذي اتكأت على ظهره كي أقاوم هزّات الطريق. وبينما كانت الحافلة تسير بهدوء كما لو أنها فوق سجاد، أحسست بصعقة تعبر كامل جسدي. وجدت صعوبة في مقاومة الارتجافات المتشنجة التي اعترتني من الرأس إلى القدمين.

على الصفحة الأولى من الجريدة، وبالحروف البارزة، تراقص أمام بصري الخبر الرهيب : « توقيف القائد الإرهابي لمدينة الجزائر ». وصورة قائدنا « الفنك »، واقفا ويده مغلولتان، ينظر أمامه، في هيئة عناد وإصرار، كما لو أنّه يحدّق فيّ. أدّرت بصري بصعوبة، وأنا أكرّر مع نفسي بأن لا أترك أحدا يلاحظ اضطرابي. غيّرت المكان واتّجهت بخطى مترنحة نحو نافذة كي أستعيد رباطة جأشي بالانشغال بمناظر الطريق. ولكنني لم أكن أرى شيئا. ولم

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

أعرف أبدا كيف وجدت نفسي عند مدخل المقهى التي تواعدنا، سامية وأنا، على اللقاء بداخله. فبمجرد ظهوري، التقت عيوننا : كانت على علم بالخبر ! فشرينا قهوة بنكهة قوية كي نتخلص نوعا ما من هلعنا. كيف يُمكن لقائدنا النحيل جدا - إلى درجة أننا تساءلنا مرارا إن لم يكن قد خرج توا من مرض عضال (كالسل مثلا) - أن يتحمل المعاملات السيئة والتعذيب الذي كان يُسلط آليا على المناضلين المعتقلين ؟ نشرت سامية أمام بصيرنا المشوشين جميع الجرائد التي اشتريتها. التهمناها، ونحن مُنبهرتان بنظرة الفنك الصارمة وهو في حالة توقيف وباسمه الحقيقي : مصطفى فتال. انتابنا خليط من العواطف والأحاسيس. الخوف أولا، هذا الصديق الرهيب للجنس البشري. وبعده الضجر، المختلف عن الخوف بما يحمل من شكوك وتساؤلات : إلى أي حد يمكن لأخبار العدو أن تصل ؟ فبدأت سامية، التي تحب أن تخطّط وترصد لكل شيء، تلوم نفسها وتلومني على أننا تصرفنا بعجالة ولم نفكر بما فيه الكفاية في مختلف الوضعيات المحتملة التي يمكن أن تعترضنا بمجرد أن دخلنا في نضالنا السري. لقد نسيت، فقلت بتذكيرها بقاعدة أساسية : لقد سبق أن فكرنا قبل ذلك اليوم المشؤوم، بأننا لسنا إلا مناضلات من القاعدة، وكنا فوق هذا جديدا، فلا يمكن في هذه الحالة إذا إلا أن يكون قائدنا ومؤطرنا مناضلا بسيطا في سلم الترتيب النضالي للمنظمة. وقد كنا، إلى ذلك اليوم من شهر أفريل 1956، نجهل تماما بأن قائدنا « الفنك » هو القائد الكبير للجماعات المسلحة لمدينة الجزائر، إلى أن أخبرتنا به الجرائد. طبعاً، لم نكن نعرف شيئا عنه باستثناء لقبه الذي اختصر في اسم عادي استخلفناه بالفنك. أما هو فأكد أنه كان يعرف هويتينا الحقيقيتين ووضعنا كطالبتين في السنة الثانية حقوق بجامعة الجزائر، وتساءلنا عن طبيعة المعلومات الأخرى التي تكون بحوزته ؟

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وكان قائدنا الأول، براسنس، يعرف هو أيضا عناويننا وأكد أنه سلمها للفنك. وكلّما أمعنا التفكير في وضعنا كلّما تضاءلت الأجوبة على التساؤلات التي تعكر صفاء ذهنينا. هل سيُعذّب الفنك إلى حدّ الموت؟ وكنا شبه متأكدات من هذا المصير المحتوم لأنّ الجميع يعرف بأنّ كل مَنْ يُعتقل من المناضلين إلا ويخضع للتعذيب اللاإنساني. سيُجبر على الكلام، على « إفشاء السرّ »، وباستخدام جميع الوسائل، وكان التعذيب هو الوسيلة المفضّلة عند السلطة الاستعمارية: الكلاب الذي يقلع الأظافر واللحم البشري، خيوط الكهرباء التي تُلصق بأكثر أجزاء الجسم حساسية وهشاشة، الشعلة النارية، القنينة، القماش المبلل بالجافيل ومواد التنظيف الأخرى، حوض الحمام، إلخ... ولم نجرؤ على صياغة السؤال الذي يحرق ألسنتنا: « هل سيذكر الفنك أسماءنا تحت تأثير التعذيب؟ » لم نجرؤ لأنّ الجرأة تعني في أعيننا أعظم الانتهاكات، لأنّ الفنك هو القائد الكبير لمنطقة « الدزاير » وقد ألصقنا به، بعد أن عرفنا هويته الحقيقية، طاقات تفوق أية طاقة بشرية. أنّ نجرؤ كان يعني في أعيننا أيضا أن نمنح لأنفسنا أهمية أكبر داخل المنظمة فيما أننا متأكدتان بأننا لسنا إلا مناضلتين بسيطتين من القاعدة.

وبعد عواطف الخوف والضعف، انتابنا إحساس بالغضب والتمرد مقابل هذا الكم الهائل من الظلم، وموازين القوى اللامتوازنة: الفنك الضامر ويداه المقيّدتان في مواجهة دولة ومصالحها الاستخباراتية وجيشها وأجهزتها القمعية وحلفائها المساعدين وجرائدها. ومن جهة أخرى، اعترانا إحساس بالكبرياء، كنا فخورتين بالانتماء إلى شعب تمكن من تأسيس منظمة، جبهة التحرير الوطني، كي تخلصه من نظام يقهره ويستعبده منذ أزيد من قرن. كنا فخورتين بالانتماء إلى هذه المنظمة، كنا فخورتين أن نكون أخوات الفنك وأخوات جميع الإخوة والأخوات الذين لا نعرفهم ولكن يربطنا بهم هذا

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

الالتزام والمثل العليا والمصير المشترك. كنا فخورتين بالفنك النحيل، وتلك الصورة التي تطفح منها عزة النفس والكرامة والحزم، وتصرخ بهذه الخصال ليسمعها العالم أجمعين، والعدو على وجه الخصوص. لقد خُصّصت جرائد كثيرة مقالات متعدّدة لتوقيف الفنك. إذا كانت هذه المقالات لا تترك لدينا أدنى شك في المصير الذي ينتظره، في المقابل، أخبرتنا بشيء أذهلنا وشلّ تفكيرنا : ليس « الفنك » قائدنا فحسب وإنما هو « مسؤول العمل المسلّح في مدينة الجزائر ! ». كنا في العادة نقرأ هذه الجرائد بنوع من الاحتراز وعدم تصديق كل ما تنشره من أخبار، ولكننا في هذه المرّة حينما قرأنا « توقيف مسؤول العمل المسلّح لمدينة الجزائر »، صدقناها بكل اعتزاز، ذلك أنّه لو كان « الفنك » صيدا صغيرا لما خُصّصت جميع هذه الجرائد، وبلا استثناء، مساحات معتبرة وعلى صفحاتها الأولى. لو لم يكن كذلك، لما حظي « الفنك » بقيد يغلّ يديه، سلسلة حديدية وليس مجرد أغلال عادية، ولا بصور تصدّرت الصفحات الأولى للجرائد وهو يقف بعزة نفس وحزم، ونظرته مستقيمة وتعبّر عن ثقته بنفسه وافتخاره بما قام به من أعمال. ولقد ساعدت تلك الجملة « توقيف مسؤول العمل المسلّح لمدينة الجزائر » على إدراكنا بأننا، نحن المناضلات المبتدئات، كنا ننشط تحت الإمرة المباشرة للقائد الكبير للعمل المسلّح !!! أدركنا أنّ حلمنا الكبير قد تحقّق دون أن نشعر به، دون أن يُخبرنا به أحد !!!

في تلك اللحظة، وزيادة على أحاسيس الخوف والضجر والغضب والتمرد، امتلأنا بالاعتزاز والفرح. نعم الفرّح، بل وسعادة اكتشاف أنّ أمنيّتنا بالانتماء إلى « المنظمة المسلّحة »، والتي عبّرنا عنها بوضوح إلى براسنّس وإلى بوعلام أوصدّيق على سلالم الجامعة، قد تحقّقت، وأنّ إخوتنا في المثل العليا والكفاح قد وضعوا فينا ثقتهم. وقد أدخلنا هذا الخليط من العواطف المتناقضة في حالة

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

غربية، وإلى حدّ الغبطة. فجأة انتابتنا رغبة عارمة في إطلاق زغاريد صامة داخل المقهى على شرف « الفنك » وشرف جميع القادة « الإرهابيين » مثلما تسميهم الصحافة الاستعمارية. نطلق الزغاريد على شرف وضعنا المكتشف حديثاً، وضع « الإرهابيين » مثلما يسمّينا أعداء قضيتنا. للأسف الشديد، كنا جالسين إلى طاولة داخل مقهى أوروبي، فابتلعنا زغاريدنا وأخفيناها داخل صمت قلوبنا القاهر، ومزجناها بدموع الابتهاج. أخيراً، طرحت سامية السؤال الذي أيقظنا وأخرجنا من حالة الهيجان الداخلي : « ما العمل الآن ؟ ما هو السلوك الذي سننتهجه بعد اعتقال الأخ الكبير ؟ » بدأنا بتفحص أول فكرة خطرت على بالنا، والتي خرجت مباشرة من قراءتنا ومن الأفلام التي شاهدناها حول المقاومة ومختلف حركاتها السرية في أوروبا في مواجهة النازية. وتمثّلت الفكرة في الاختفاء عن الأنظار لبضعة أيام إلى أن يُحال قائدنا إلى المحاكمة. ولكن هل سيُحال فعلاً إلى المحاكمة ؟ نختفي نعم، ولكن لنذهب إلى أين ؟ عند أهلي في فيالار، أم عند سامية في سانت أوجين ؟ عنوانان معروفان عند الإدارة الفرنسية. بل الشيء الأخطر هو كيف نفسّر لوالديّ ولوالد سامية غيابنا عن الدراسة ؟ في انتظار ماذا ؟ انتهى بنا الأمر إلى إبعاد فكرة الاختفاء نهائياً واتخذنا القرار المعقول الوحيد في مثل هذه الظروف ألا وهو انتظار أن تتصل بنا « المنظمة ». فحَقَّقنا من خوفنا بالقول أنّ الآلة القمعية ستسأل السجين، باعتباره المسؤول الأول عن العمل المسلح في مدينة الجزائر، عن أحداث وشخصيات أكثر أهمية مما مثله نحن، طالبتان جُنَدتا منذ بضعة أشهر ولم تقوما بأي عمل مسلّح. ومع ذلك، ونظراً للمخاطر المحدّقة بنا، تمّ اتخاذ قرار مغادرتي، أنا زهرة، (فريدة عند الإخوة)، للإقامة الجامعية والاستقرار لبعض الوقت عند سامية (نبيلة عند الإخوة) في سانت أوجين. همست لي سامية : « إذا أتوا لاعتقالك في منتصف الليل وأنت في الإقامة

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

الجامعية، من سيخبرنا بذلك. أنتِ تعرفين بأننا لا نعرف أحدا، باستثناء ميمي وبوعلام أو صديق وهما لا يسكنان داخل الإقامة الجامعية ». كانت على صواب، وكنا نعرف، بفضل دروسنا في الحقوق، أن أسوأ ما يمكن أن يحدث في حالة الاعتقال هو أن يبقى الأمر سرا. وبرغم انهيارنا النفسي، تمكّنت سامية من إضحاكنا عندما وشوشت لي في أذني : « لن تجرؤ مصالح الشرطة على مداهمة منزل القاضي لخضاري إلا إذا كانت بحوزتها أدلة لا تقبل النقض. وزيادة على ذلك، ماذا يمكن أن تفعله ابنة قاضي الجزائر وحفيدة قاضي قسنطينة الكبير وبنت قاضي فيالار بمعية » خارج عن القانون وإرهابي » خرج مباشرة من حي عربي أو قرية الزوج ؟ هيه ماذا تقولين ؟ سوف تعميهم عنصريتهم البليدة والقبليحة من جديد. إذا، ستأتين للعيش عندنا، وستفرح ماما كثيرا بحضورك معنا ». كنا في مقهانا الصغير وقضينا ساعتين كاملتين في قراءة الصحف والتعليق عليها ثم في التدبير حول السلوك الذي ينبغي أن نسلكه. في حقيقة الأمر، كنا نبحث خاصة عن طمأنة أنفسنا وتبرير القرارات التي فُرضت علينا فرضا.

لذلك، ذهبنا مباشرة إلى الإقامة الجامعية لأخذ بعض الأغراض الأساسية ثم قصدنا سانت أوجين لنتحقق بشريكتنا العزيزة، ماما زهور. سقطنا في أحضانها نجهش بالبكاء، وروينا لها كل التفاصيل. ذرفت الدموع معنا ولكنها قامت بمواساتنا، بدعائها الخاشع إلى الله ورسوله وجميع الأولياء الصالحين كي يحفظوا قائدنا ويبقى على قيد الحياة، فرفعت يديها إلى السماء ودعت الله أن يكسر شوكة أعدائنا بقدرته اللامتناهية. فقطعت الأمسية وهي تدللنا، متأكدة أنّ « الحَبَرَجِيّة » القذرين لن يتمكنوا من إخراج كلمة واحدة من « الفنك »، ولا من أي قائد من قادتنا، وأن « المنظمة » ستتصل بنا مجددا. كانت تقول بثقة كبيرة : « لقد اختار الله قادتنا للقدرّة التي منحها إياهم،

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

ولا تنسوا أبدا أنّهم، حتى في حالة قتلهم من طرف الكفّار، فإنهم لا يموتون وإنما في جنة ربّهم يُرزقون، خالدون فيها أبدا، وأنّ الله سيعوّضهم بآخرين، وما أكثرهم، ليواصلوا المسيرة. والكفار لا يؤمنون بهذه الأشياء، وهو خير لنا... ذلك أن الله أعمى أبصارهم ! « إذا لم تتمكن ماما زهور من محو حزننا الذي انتقل إليها أيضا، في المقابل نجحت بالتخفيف عن كربنا بموافقتها، جملة وتفصيلا، على التدبير الذي اتخذناه. في تلك الليلة، وأنا ممددة في فراشي، فكّرت بأنّ ماما زهور، لو كانت رجلا، لكانت قائدا كبيرا في « المنظمة ». هكذا ونحن مستقرتان في سانت أوجين، ترقبنا بفارغ الصبر أن يتصل بنا بوعلام أوصديق، الذي لم نره منذ لقائنا الأخير في ديسمبر 1955، ليحرّرنا من الضجر الذي يحاصرنا ويضع حدّا لانتظارنا.

• إضراب الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين

كنا نترقب ظهور بوعلام أوصديق حينما انبثق حدث آخر سيعيد النظر في أوراقنا ويزرع خططنا. منذ فترة، كان يُتداول خبر مفاده أن الطلبة المسلمين سيطلقون نداءً من أجل إضراب عام عن الدروس والامتحانات بقصد التعبير عن مساندتنا وتضامننا مع كفاح التحرر الوطني الذي يخوضه شعبنا تحت قيادة جبهة التحرير الوطني. طبعاً كنا متضامنتين مع شعبنا في كفاحه التحرري، أما فيما يخص جبهة التحرير الوطني، فكنا، سامية وأنا، منخرطتين بحكم نشاطنا السري. ولكنّ إضراباً عن الدروس والامتحانات في تلك الفترة كان بالنسبة إلينا كارثة حقيقية لأن هذا ببساطة كان يعني قطع كل علاقة بالمنظمة وذلك خلال كامل فترة الإضراب، لأننا لن نكون حاضرتين بداخل الجامعة، بل أكثر من هذا، سيجبرنا الأب لخضاري على البقاء في البيت. وبدوري، كنت خائفة، أن يطالبني أبي هو أيضاً بالالتحاق ببيتنا في فيالار :

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

« فوداعا للكفاح، ووداعا للمنظمة ! » وقد أدركنا طبعاً أن مثل هذا القرار لا يمكن أن يصدر إلا من مسؤولي جبهة التحرير الوطني، ومع ذلك، قرّرنا محاولة إقناع مسؤولي اتحاد الطلبة بأنّ الإضراب ليس هو الحل الأمثل للتعبير عن تضامننا.

من جهة أخرى، بدا لنا من الضروري أن نحاول إقناع أعضاء الاتحاد أن إضراباً عاماً عن الدراسة والامتحانات، برغم مداه السياسي الأكيد، قد يضرّ بتطور كفاح تحريرنا الوطني لأنه سيسمح لقوات الأمن الفرنسية وكذا المنظمات المتطرفين الأوروبيين بتحديد هوية جميع الطلبة والثانويين الوطنيين. كنا نفكر بصدق أنّ الإضراب يضرّ بدعم الطلبة لكفاحنا في وقت تقوم فيه فرنسا بحرب شاملة وعبر كامل تراب البلد ضد المناضلين الاستقلاليين، دون أن تتردّد عن تعميم طريقة العقاب الجماعي للسكان المسلمين باعتبارهم يتحملون المسؤولية الجماعية على « الجرائم البربرية » التي يقوم بها « الخارجون عن القانون » والفلافة. نزل خبر إضراب الطلبة والثانويين عن الدروس والامتحانات في ذلك الجوّ المشحون، في وقت كنا فيه مصدومتين بتوقيف الفنك، جاهلتين لمصيره، منقطعتين عن المنظمة، وقد راكمتنا تأخراً معتبراً في دروسنا، ليزيد من هلعنا. كان يقال همساً أن اجتماعاً قد تمّ في القصبة السفلى لمناقشة فكرة الإضراب وأنّ القرار قد تأجّل دون تقديم المبررات.

بعد أيام قليلة، علمنا أنّ اجتماعاً لجميع الطلبة المسلمين سيُعقد في نهاية الظهيرة في الحي الجامعي « روبستو ». قضينا، سامية وأنا، كل الظهيرة ونحن نعدّ الحجج التي سنقدّمها لرفض اقتراح الإضراب واتفقنا أن نأخذ الكلمة الواحدة وراء الأخرى لإقناع الحاضرين بصحة ومثانة موقفنا. ولكن، عندما حان وقت الالتحاق بروبيستو، انتابني الهلع لفكرة أخذ الكلمة أمام الجمهور، إلى حدّ أنّ أمنية الابتعاد وعدم الذهاب إلى الجمعية العامة استولت

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

عليّ بالحاح . تخيلت نفسي أنني أخوض معركة فوق طاقتي لمواجهة أشخاص مجهولين وأنا قد أنهار قبل التعبير عن رأيي وأتحول إلى مسخرة . ولكن ذهبت إلى الاجتماع برغم نوبة هلعي ووجدت نفسي مثلما بدا لي في ساحة واسعة مليئة بالفتيات والفتيان يتحدثون ، يضحكون ، يتبادلون النداءات ، ولم أَرَ أي وجه صديق لي . فقررت أن أترك سامية تتناول الكلمة قبلي متمنية أن لا أجد ضرورة للتدخل . صعد شخص فوق مصطبة تقابل حشد الطلبة الضاج وطلب منهم التزام الصمت . ثم رأيت على يميني وصول مجموعة من الشبان يتوجهون نحن المصطبة في رتل متتابع . خيم صمت نسبي ، فصعد واحد منهم على المنصة ، وكان بقامة طويلة وشعر كثيف رماه إلى خلف رأسه ، طلب الصمت هو أيضا وأمسك بمكبّر الصوت وبدأ يقرأ بيانا . إنه نداء إلى إضراب عام عن الدروس والامتحانات تضامنا مع كفاح شعبنا من أجل الاستقلال . وقد تمت المصادقة على البيان بالتصفيق ولم يخضع للنقاش ، الأمر الذي أراحني كثيرا . وقد تحدّد تاريخ بداية الإضراب بيوم 19 ماي 1956 .

بمجرد أن خرجنا من قاعة الاجتماع ، فهمت أنّ مصيري قد تقرر وأنّ أهلي سيأمرونني بالعودة فورا إلى فيالار حيث يستحيل عليّ مواصلة نضالي . يجب عليّ إيجاد سبب متين لإقناع عائلتي بأن تتركني أبقى بالعاصمة . في الغد ، طلبت من أخي قادر أن يتصل بأبي ليفهمه بأنّ الإضراب يخص فقط الطلبة الذكور دون الفتيات . وكجواب على طلبي ، نزل أبي إلى العاصمة في الأسبوع الموالي ، مُصمّما على مساعدتي في جمع أمتعتي والعودة بي إلى البيت . حاولت سامية أن تقنعه ليسمح لي بالبقاء في سانت أوجين لمدة أسبوعين فقط ، كي « أستريح من تعب هذه السنة الجامعية التي كانت مضنية » . ردّ عليها : « تنتظرها العائلة كاملة في فيالار . ربما ستعود في الصيف لتمتع بالبحر إن لم تغادروا الدزاير » . ربما لأنّ سامية كانت أصغر أخواتها ومتعوّدة على أن

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

تحصل دوماً عما تريد، فألحّت في طلبها مع أبي، ولكن هذا الأخير، ودون أن يعنفها، لم يتنازل عن موقفه، وقال : « إن لم تلتحق بفيالار خلال الإضراب، سيصل الخبر إلى المعمرين هناك، وأكد أنهم سيتساءلون عن الأسباب التي جعلتها تبقى في العاصمة ». ردّت سامية : « طيب، قل لهم بكل بساطة أنها بقيت لتكسير الإضراب ! » قال أبي مقاطعاً : « لا، إنهم سيتأكدون ». فكفّت سامية عن الإلحاح، خوفاً من إيقاظ الشكوك حول تجنيدنا. فغادرت الجزائر العاصمة في بداية شهر جوان 1956، يائسة، وقلبي يتحسّر ألماً. مرّ حوالي شهر ونصف من اعتقال قائدنا ولم تتصل بنا « المنظمة ».

بعد ذلك بشهور، وخلال « معركة الجزائر »، علمت أنّ مصطفى فتّال قد حوّل إلى سجن بربروس، وقد قضى هناك خمس سنوات في رواق الموت ولم يُطلق سراحه إلى بعد الإمضاء على اتفاقيات إفيان. عند الاستقلال، التقيت به وهو محافظ شرطة. أنا فخورة بأنني عرفته كأخ وصديق، هو النوفمبري الحقيقي، المناضل الفذ والقائد البارِع. لقد شاء القدر أو الصدفة أن ينتمي إلى مجموعة زوجي رحمه الله، رابح بطاط، لتفجير حرب التحرير في الجزائر العاصمة يوم 01 نوفمبر 1954.

• جزء من الصيف في فيالار

هكذا عدت إلى فيالار أتوجّع ألماً، مقتنعة أنه لن تكون للمنظمة أبداً إمكانية الاتصال بي. على كل حال، قضيت الأسبوعين الأخيرين من ماي 1956 عند سامية. وهناك عشنا « في المقصورات الأولى » لمشاهدة تكديس آلاف الرجال من أهلنا، حوالي 5000 رجلاً، داخل ملعب سانت أوجين لكرة القدم، الذي يشرف عليه منزل سامية. ذات ليلة، خلال حظر التجوّل، حاصر الجيش والشرطة القصبة واعتقلوا رجالها. جمّعوا آلاف الأبرياء،

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

ملأوا بهم الشاحنات وأفرغوها داخل المقلب. رجال بالبيجامات وجلاليب النوم، وآخرون بتريكوات خفيفة على الجسد، وأغلبيتهم حفاة الأقدام. بكل تأكيد، لقد أخرجوهم من أسرّتهم بفضاظة وفجائية غير متوقعة. دامت رحلة الشاحنات قرابة الثلاث ساعات.

رافقت الصحف الاستعمارية هذا القمع وهذه الاعتقالات الظالمة بتبريريهما وبالدعوة إلى صرامة أكثر في التعامل مع « المشبوهين » الذين لم يكونوا في حقيقة الأمر إلا مدنيين مغلوب على أمرهم وغير مسلحين. وقد قامت هذه الصحافة بعمل قذر وهو إيصال صوت المتطرفين كي يرفض الحاكم العام لاكوست طلب العفو الذي تقدّم به المحامون لصالح المناضلين الوطنيين المحكوم عليهم بالإعدام. كانت وسائل الإعلام الكولونيالية تدعو يومياً إلى تطبيق العقاب الأمثل وإلى مزيد من القمع. بعد حوالي عشرة أيام من وصولي إلى فيالار، وصلني خبر تنفيذ الإعدام في حقّ أول مناضلين حكمت عليهما المحكمة الاستعمارية بالإعدام، ألا وهما أحمد زبانه وفراج. كدت أنفجر غيظاً وأنا منغلقة في فيالار، لا أستطيع الخروج ولا التخفيف عن حزني. كنت ناقمة على العالم بأسره : ناقمة على الفرنسيين الذين يطاردوننا في ديارنا، وعلى عائلتي التي حرمتني من إمكانية الاتصال، وعلى سامية أيضاً التي ركزتُ جميع آمالي عليها وعلى بوعلام أوصديق الذي تبخّر دون أن يترك خلفه أثراً نهتدي به. كيف السبيل إلى الاتصال به ؟؟؟ كان آخر موضوع نقاش لي مع سامية، كانت مكلفة باستخدام جميع الوسائل لمحاولة للعثور عليه. الاتصال بأخته صليحة ؟ الذهاب إلى جريدة ألجي ريبوبليكان ؟ ربما كان يتعاون معها ؟ وباختصار، لقد قلبنا السؤال من جميع أوجهه دون أن نعثر على درب حقيقي يوصلنا إليه. وبعد أسبوعين كاملين وأنا أجتُر مرارتي ولم أتلّق أثنائها أي إشارة من سامية، نقلت آمالي باتجاه أخي قادر

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

الذي وعدني بالالتحاق بي في نهاية جوان. قال لي : « سترين. سنكون في فيالار أحسن من الدزاير. الجميع يعرفنا في المنطقة، ولن نكون بحاجة إلى امتحان ». لم أفهم حكاية « الامتحان » الذي تحدّث عنه، ولكنني أحببت صيغة الجمع وجملة « الجميع يعرفنا ». المؤكّد أن أخي لن يعزلني عن مخططاته إنّ كانت فعلا موجودة. ولكنني كنت في وضعية انتظار قلقة في فيالار، حيث استقبلتني أمّي بحفاوة كبيرة غير معهودة. لم أكن أظهر عبوسي ولا أيّ مزاج سيّئ : لم تكن أمي لتقبل ذلك. ولكن فتوري والصمت الذي فرضته على نفسي طواعية، وأنا منغلقة طوال اليوم داخل غرفتي أحاول تزجية الوقت بقراءة الكتب، أزعج أمّي وأقلقها. كنت أعيش مقطوعة عن عالم الأحياء وتخنفني رتابة الانشغالات اليومية. في تلك الفترة، لم يكن استعمال الهاتف معمما : وحدها الإدارات العمومية وكبار الكولون ينتفعون به، فلم يكن لديّ أيّ اتصال بسامية ولم تكن لدي من وسيلة اتصال بها إلا البريد. وطبعاً، لم يكن ممكناً استخدام الرسائل المكتوبة بيننا، إنها احتياطات أمن ضرورية.

كلّما مرّت الأيام كلّما انغلقتُ على نفسي أكثر، وكلّما زاد انهيار فتوري كلّما زاد قلق أمّي وكثرت أسئلتها. لقد جرّبت أمّي في البداية الطريقة اللطيفة لتفهم ما يعكّر مزاجي، ثمّ وحينما رأت بأنّ ذلك اللطف لم يأتِ بأية نتيجة، انتقلت إلى الطريقة الفظة وإلى اللوم المتواصل، ولكن دون جدوى. وبما أنّ أمّي لا تستسلم بسهولة، فقرّرت اللجوء إلى خدمات « الأم العبدونية »، شخصية رمزية مشهورة تستنجد بها نساء فيالار حينما يستنفذن جميع قدراتهن في الصبر على شقاوة الدهر ومقاومة صعوبة الحياة اليومية، فتجلب لهن الأم العبدونية قطعاً من الأحلام وأطرافاً من الآمال، وإلى غاية النوبة القادمة. كانت سيّدة متقدّمة في العمر، قصيرة القامة، منحنية

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الظهر، ثقيلة السمع، تتقدّم منحنية ومتكئة على عصا معقودة وتملك موهبة منح لحظات هدوء للحياة الشقية وذلك بتنبؤ مستقبل كله ورود وأيام سعيدة . تكفي ظهيرة واحدة برفقتها لتخرج أيّ امرأة من فتورها، لأنّ لها القدرة على رسم مستقبل يليق بكل عمر وبكل وضعية، فتقترح أحلاما مناسبة لكل حالة . ولهذا، فجميع النساء، بما فيهم أمّي، يحبونها ويجلون قدرها . تدخل البيوت بلا كلفة ولا حرج، تجلس وتطلب غربالا (البوسّيار) وحفنة من القمح، وحبّة شعير تنزع منها نصف قشرتها، وقطعة صغيرة من الفحم وحفنة متوسطة من الملح . فتمسك بيد حفنة القمح وحبّة الشعير والفحم والملح وترمي الكل بمهارة على سطح الغربال المقلوب . ثمّ تركّز على الشكل الذي ارتسم أمامها لتقرأ لكل واحدة مصيرها، بثقة لا يتسلل إليها الشك أبدا . من حين لآخر، حينما تكون الحالة ميؤوسا منها أو جدّ صعبة، تتوقف لتشتكي من الضجيج الذي يملأ رأسها بسبب نباح الكلاب المختلط بضجيج الرحي، وخشخشة أوراق الأشجار التي تهزّها الريح وبالأخص همسات الجان الذين يسكنونها، وكانت الوحيدة التي تسمع كامل هذا الضجيج الضخم، ومع ذلك كان الجميع يؤمنون بما تقول . في قرانا البعيدة في الهضاب العليا، حيث يعيش أغلبية السكان العرب في بؤس وعوز مطلّقين، محرومين من كل شيء وحتى من إمكانية الحلم والأمل، كانت الأمّ العبدونية تنتقل من عائلة إلى أخرى، وبسّخاء عجيب وقدرة خارقة على السماع، توزّع الاطمئنان والضمادات للأرواح الممزّقة، فتفتح القلوب الجريحة للحلم والأمل اللذين بدونهما لا يمكن لأيّ إسقاط مستقبلي أن يُتصوّر . هكذا، استنجدت أمّي بخدمات الأمّ العبدونية لتعالج ابنتها العزيزة التي يبدو أنّ جنا عنيذا سكنها . كانت في العادة تصل إلى بيتنا وهي تهمهم كلاما غير مفهوم، لا تكاد تردّ على كلمات الترحيب التي تُستقبل بها وتتّجه نحو زاويتها المعتادة، في الصيف

تحت عريش الكروم الذي يغطي نصف الفناء، وفي الشتاء باتجاه « الهيدورة البيضاء » المصنوعة من جلد الكبش، الموضوع في زاوية المطبخ الكبير وقرب الموقد. خلال فصل الشتاء البارد في الهضاب العليا، يُستخدَم الموقد لتدفئة المكان، ولكن أيضا كمطبخ لطهي الطعام والخبز الذي يعجن يوميا. حينما تصل الأمّ العبدونية في الشتاء، تجلس مباشرة بقرب الموقد، تشرب قهوتها بالحلويات أو بالكُسرة (خبز الدار) كما أنها تتغذى إن تزامن مجيئها مع وقت الغداء. نلتف حولها، نترقب كل حركة أو كلمة تصدر منها، محاولات فكّ شفرات حركتها وفهم معنى كلامها. كنا في شهر جوان 1956. وصلت الأمّ العبدونية في بداية الظهيرة، واتخذت مكانها في الفناء تحت عريش الكروم. أحطناها بحفاوة كبيرة، فأكثرنا أمي من كلمات الترحيب، وقدمت لها القهوة مع صحن من الحلويات، متوسلة إليها بأن تشرب وتأكل وتزيد في الشرب والأكل. كانت أمي مستعدة لمنح كل مجوهراتها كي تعود إليها ابنتها مُعافاة شافية كما كانت في الصائفة الماضية. كانت مقتنعة بأنّ جنا يسكنني ويمعني من المشاركة في حياة المنزل، ويبقيني في فتور كلي وفي صمت عميق. أما أنا، فكنت أعتقد أنّ كل هذا المشهد عبارة عن عادات بالية لا طائل من ورائها، وأنّ الأمّ العبدونية لن تقول إلا ما يعرفه الجميع، أي أنني طالبة في « الدزاير »، وأنّ الثانويين والطلبة سواء من الدزاير أو من المدن الأخرى عادوا إلى ديارهم بسبب إضراب عام تقرّر لمساندة إخوانهم المكافحين من أجل الحرية، وأنّ الكولون كانوا في غضب وفي احتراس كبيرين، وأنّهم يراقبون كل تحركاتهم وأنّ الكثير منهم، عوض العودة إلى البيت العائلي، اختفوا في الطبيعة وأنّ عائلاتهم تخضع يوميا للمداهمة والتفتيش والمعاملات السيئة التي تقوم بها الشرطة الفرنسية، بحثا عن أدنى معلومة يمكن أن تؤكد أو تنفي التحاق هؤلاء الشبان بمكافحي جبهة التحرير الوطني. أنا، مريدة العقل

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

النقدي، بدأت أعذي أمل أن تتنبأ لي الأمّ العبدونية بالعودة الفورية إلى الدزاير وإلى الكفاح. أنجزت حركاتها المعتادة بمهارة، فرمت حفنة الحبوب على الغربال (البوسيار)، وحدقت في الرسم المُشكّل وصرّحت قائلة: « يا بنيّتي، أرى سفرا طويلا. لن تتأخري في الانتقال إلى مكان بعيد ». أصيبت أمّي بخيبة أمل، وألحت على الأمّ العبدونية كي تعيد قراءة الأشكال التي شكّلتها الحبوب وتوسّلت إليها: « آه، أمّيتي، لقد عادت إلى الدار منذ أيام فقط وبعد غياب طويل، أين ستذهب من جديد ؟ انظري جيّدا إلى هذا الانتقال، ربما كان مجرد زيارة خفيفة إلى وليّ من أوليائنا الصالحين ! » وهنا، انتفضت قارئ الغيب وردّت بعصبية: « أقول لك بأنها ستسافر إلى الدزاير. يحميها أوليائنا الصالحون الذين هم أجدادنا. لا يمكنني أن أكذب، سيعاقبني الله ». خاب أمل أمّي وانتابها الحزن، فيما امتلأت بسعادة غير عقلانية، فدست كمية محترمة من الأوراق النقدية في صدار شوافتنا. وطبعاً لم تتحقق المعجزة وقضيت شهر جوان كما لو أنه دهر.

وصل قادر في الأيام الأخيرة من شهر جوان، الشيء الذي سمح لي بالعيش عن طريق الوكالة، عبر ما يأتيني به من أخبار. فكان أوّل خبر يخص عبد القادر دزيري، مسؤول فرع الكشف الإسلامية في فيالار، أستاذنا في الوطنية، الذي صعد إلى الجبال والتحق بالمكافحين. سألته: « ومن أين لك بهذا الخبر ؟ » ردّ واثقا: « لقد اختفى، فقامت قوات الأمن المشتركة بصحبة كلابهم بتفتيش محله وبيته. أوقفوا أخاه وجميع رجال حوشهم. هكذا يفعلون حينما يصعد أحد إلى الجبال ». وسألت بعناد: « هل أنت متأكّد بأنهم لم يعتقلوه ويقوموا بإخفائه ؟ ». ردّ بحزم وثقة قبل أن يغيّر موضوع المناقشة: « لا ! أقول لك بأنه صعد إلى الجبال ». أمطرته بالأسئلة عن مجموعة الشبان الذين لم يعودوا إلى القرية. فأجابني بأنه لا يعرف شيئا عنهم، ثمّ نصحني بعدم

طرح مثل هذه الأسئلة. كان يغادر البيت عند الصباح ويغيب طوال اليوم حيث يقول بأنه سيقضي نهاره في تيارت أو في بوردو أو في فكتور هيجو. سألته عما يفعله بأيامه وإن كان بإمكانه أن أساعده في شيء. وكان قادر يهزأ بافتراضاتي « الحمقاء »، مقسما أن ما يقوله لأمه هي الحقيقة وشرح لي أن القيام بأية محاولة في فيالار هو فعل انتحاري لأن الكولون وأعوانهم يراقبون جميع الناس بل وحتى الذباب ! كانت أمي قلقة على غيابات ابنها اليومية، وألحت على أبي كي يبعد قادر بإرساله في عطلة إلى نانسي الفرنسية عند أخي البكر، الطالب في كلية الطب. ولكن قادر رفض الذهاب في عطلة إلى فرنسا وأقسم بجميع الأولياء الصالحين بأنه سعيد عند أهله في فيالار. وقد طمأن أبي أمي وخفف من قلقها قائلاً بأن فيالار قرية صغيرة وأن لا شيء يخفى بها.

هكذا قضيت شهر جويلية 1956 في فيالار وأنا أحاول معرفة نوعية النشاطات التي يقوم بها قادر وأستمع إلى ما يتداوله الناس من أخبار حول المكافحين الذين يصبغون عليهم طاقات خاصة وخصال خارقة للعادة. كان الناس فخورين بالمكافحين ويشرحون بأن العساكر الفرنسيين لن يتمكنوا من الوصول إليهم. ويعترف لهم الجميع بالجميل لأنهم تمكنوا من إدخال الخوف في حياة المعمرين بعد أن كانوا يعيشون في سكينه ولامبالاة. واعتبروا الأمر تحقيقاً للعدل. لقد تأكدت بأن المكافحين، وبعد أقل من سنتين منذ اندلاع ثورة التحرير في 01 نوفمبر 1954، أصبحوا شبه أساطير، يفتنون البعض، ويُرهبون البعض الآخر. ومن الواضح أن قوة حركتنا مستمدة من تجديدها وسط شعبنا. كان أخي قادر يأتييني بأخبار حول الكمائن المنظمة في منطقة الوُنْشريس والتفجيرات والاعتداءات التي تحدث في الدزاير، وهي بوتيرة أسرع وبعدد أكبر منذ إعدام زبانة وفراج. كنت أستشيط غضبا لأنني مسجونة في

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

فيالار وكان قادر يردّد دوما : « يجب على الخوف أن يغيّر مُعسكره ». كنت متفقة معه ولكن لم يكن بإمكانني أن أفعل شيئا .

عند نهاية شهر جويلية 1956، عاد أبي من المحكمة وأخبرني بأنّ سامية كلمته عبر الهاتف، وطلبت منه أن يخبرني بأنّ الإضراب علّق بالنسبة للبنات . لذلك يجب عليّ العودة فورا إلى الدزاير لتحضير الامتحانات التي تحدّدت لشهر سبتمبر . فهمت مباشرة أنّ « المنظمة » قد اتّصلت بها ولكنني لم أظهر شيئا من هذا، بل عكس ذلك تماما، فرّحت أعبر عن قلقي في قدرتي على التحضير الجيّد لمواجهة الامتحانين الكتابي والشفهي في الفترة القصيرة الفاصلة . بقي أمامي حوالي شهر للاستعداد، لذلك قلت لأبي : « سنذهب غدا ؟ يجب بدء مراجعة الدروس فورا كي أكون في الموعد . لم أفتح كتابا واحدا منذ أن وصلت ». كنت بصدد التوجّه إلى غرفتي كي أباشر تحضير أمتعتي حينما انفجرت أمّي غاضبة وصرخت : « من المستحيل العودة إلى الدزاير . لا تصوّري بأننا سنُصدّق حكاية تعليق الإضراب للبنات دون الذكور ! ». ثم وجّهت كلامها إلى أبي قائلة : « ستتهف إلى الأب لخضاري وتطلب منه أن يوصل رسالتي هذه إلى زوجته : أنّ تهتم جيّداً بابنتها وتمنعها من التأثير السيئ على ابنتي ». أذهلني عنف أمي اللفظي، فحاولت تهدئتها . شرحت لها أنّ سامية لن تتجرّأ على اختراع ذريعة فقط لترجعني إلى الدزاير واقترحت عليها أن تسأل قادر لتتأكّد بأن تعليق الإضراب يخص فعلا البنات دون الذكور . كنت أعرف أنه يمكنني الاتكال على تواطؤ أخي معي، ولكن حجتي أحدثت عكس ما كنت أنتظر، لأنّ أمّي أمرتني بالسكوت وردّدت بأنها لن تسمح لي بالعودة إلى الدزاير أبدا وأضافت غاضبة : « لا نعلم القرد الكبير كيفية التكشير . إذا كنت تعتقدين أنني لم أفهم سبب تغيّرك، فأنت مخطئة . أنا التي أُجَبِّتُك وليس العكس، وليس لأنك تدرسين بالجامعة يمكنك

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

أن تخدعيني بهذه السهولة. تريدان العودة إلى الدزاير لتلتحقي بأولئك الذين يختفون خلف النساء لغلبة فرنسا. فلن تغادري هذا المنزل. لست مختلفة عن بنات أعمامك وأخوالك. وانزعي من رأسك فكرة العودة إلى الدراسة في الدزاير. أما الذين يريدون محاربة فرنسا، فليقوموا بها بأنفسهم، هم الرجال ! ». كنت مرعوبة، أنظر إلى أبي، أتوسل مساعدته. بدا حزينا، التزم الصمت وخفض عينيه. عندئذ، انغلقت في غرفتي أنتظر عودة أخي قادر لأطلب منه أن يؤكد لأمي أنّ الطالبات معفيات من الإضراب. أردت أن أطلب منه أن يساعدني على الهرب في حالة ما إذا رفض أبي مرافقتي. عاد قادر وأكد دون أي تردد إعفاء الطالبات من الإضراب، بل وقدم معها الأسباب. تصنع أبي بتصديقه، ولكن أُمِّي، في حالة هيجان، أمرتني أن أعترف هنا وأمام الجميع، حفاظا على شرفها، بأن عودتي إلى الدزاير ليس لها من سبب إلا الالتحاق بأولئك الذين رفعوا السلاح ضد فرنسا. حاول قادر أن ينقذني شارحا بأنه لو كان الوضع كذلك لما عدت إلى فيالار في شهر جوان وأنني كنت اختفيت عن الأنظار مثلما فعل دزيري. رفضت أُمِّي أن تسمع أي تبرير وكثرت مرارا بأنه من المستحيل عليّ العودة إلى الدزاير. عندئذ، نطق أبي الذي بقي ساكتا طوال تلك المشاجرة موضحا أنه سينتقل بنفسه إلى الدزاير ليتأكد من صحة تعليق الإضراب للبنات ابتداءً من الغد.

في الغد، عاد أبي من العمل باكرا وأكد لي أمام أُمِّي بأنه استخبر جيّدا لدى أشخاص مقربين. فأقرّ بأن الإضراب قد علّق فعلا بالنسبة للبنات وبالتالي سأعود للدراسة، لذلك سننتقل في أقرب وقت إلى الدزاير كي أتمكن من مراجعة دروسي قبل الامتحانات. كان أبي شريكا لنا، بوعي وإرادة. ها هو أبي يمنح لي الضوء الأخضر، بل ويعطي لي بركته كي أتمكن من أداء واجبي تجاه بلدي، كان منسجما مع قناعاته. أما أُمِّي، فلم تتوقف من البكاء عجزا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

ويأسا... كنت مضطربة وحزينة لأنني تسببت في شرخ عائلي، منقسمة بين واجب احترام وطاعة أمي المسكينة وبين واجبي تجاه القضية والمنظمة. فلم تسهّل لي أمي المهمة ببكائها المتواصل وتوسلاتها وأدعيتها وتذكيرها بتضحيتها لتفرض على العرش فكرة تعليم ابنتها على نفس حقوق تعليم الذكور. اتهمّنتي بالجحود كما اتّهمت أبي بأنه أب لا يستحق الاحترام لأن ابنته تقوده من طرف أنفه. كم رغبت أن أضم أمي إلى صدري وأقبلها وأطمئنّها وأشرح لها بأنني تجنّدت جسدا وروحا للدفاع عن أقدس قضية، ألا وهي تحرير بلادي، وأنها لو كانت في مكاني لتصرّفت مثلي. ولكنني لم أفعل شيئا من هذا، مكتفية بتحضير أمتعتي في صمت، صمت ثقيل، وجوّ خائق بسببي. قضينا أحزن أمسية، ولم نتبادل إلا النظرات لأنّ أمي بدورها غرقت في صمت محير.

في نهار الغد، باكرا، وقبل السفر بقليل، جذبتني أمي نحوها، حدّقت في مباشرة وقالت : « أنا التي أخرجتك إلى العالم وأعرف كل شيء عنك، بما في ذلك ما تخفيه في أعماقك. إن قلب الأم لا يخطئ أبدا وقلبي حدّثني ». كانت آخر كلماتها، ثمّ قبلتني بطرف شفيتها، وتخلّصت من ذلك التقليد المتمثل في سكب الماء على خطواتنا عند انطلاق السيارة كي يمر السفر في أحسن الظروف وأن تكون عودتنا أكيدة. هكذا غادرتُ فيالار بقلب منقبض أطلب الله في صمت بأن يغفر لي لأنني أزعجت عائلتي وتسببت في حزن أمي. كان السفر طويلا وثقيلا لأنّ أبي التزم الصمت بدوره، بدا أنه كان منشغلا بوضعي وإن لم يفصح عن قلقه. انتهى بي الأمر إلى اختيار معسكري مكررة بأن واجب تحرير البلد مقدّس وفوق جميع الاعتبارات الأخرى، وأنّ حياتي ليست أثمن من حياة فرّاج وزبّانة. عندما وصلنا إلى الحي الجامعي، بقي أبي معي حتى بعد أن انتهينا من ترتيب أمتعتي. من الواضح أنّ

الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

مفارقتي صُعَبَتْ عليه. بدأت أخشى أن ينتهي به الأمر إلى الندم وتغيير قراره بمساندتي ويفرض عليّ العودة فوراً إلى فيلار. أخيراً، أعلن عن ذهابه، ألقى نظرة إلى قاعة الحمام، ثم عاد إلى المكتب، تصفح كتاباً، حطّه، ثم قال لي وهو ينظر إليّ عينيّ : « أتمنى أن تكوني واعية بفحوى قرارك، وأنتك تقدّرين خطورته وجميع ما يترتّب عنه. إنّ قرارك هذا لا يخصّك وحدك، عاجلاً أم آجلاً، سننتأثر به، ولكن هذا أقلّ الأضرار لأننا مستعدون للمواجهة. السؤال الذي أطرحه عليك هو الآتي : هل تعتقدان بكل وعي وراحة ضمير أنك قادرة، أنك مستعدة لمواجهة جميع الوضعيات الممكنة وغير المتوقعة ؟ افهميني جيّداً، لا يتعلق الأمر بالرواية والشعر، وإنما بحرب تحريرية حيث قاعدتها الأساسية هي « الانتصار أو الموت »، ما يعني أنه واقع صعب وعنيف وأحياناً بقسوة عصية الاحتمال، وفي كل اللحظات. إنها وضعيات يصعب عليك حتى تخيلها لأننا لا نتعرف عليها إلا بعيشها. ويجب أن تعرفي أن الوضع سيكون صعباً جداً، وأحياناً عصي الاحتمال لفتاة مثلك. كما يجب أن تعرفي أن الانضباط صارم لا مكان فيه للعواطف ولا لأية اعتبارات مزاجية أخرى، لأنّ كل واحد مسؤول عن حياته وعن حياة جميع الآخرين، وبالأخص إنجاح القضية. وستكون فرنسا بلا رحمة، وهي تملك جيشاً كبيراً ومصالحاً أمن متدربة على استخدام الوسائل الجهنمية لتكسيركم وسحقكم. ولن تفيدك دروسك القانونية ولا كتبك في شيء لأنّ حقوق الإنسان والمواطن وإعلان 1793 لن تصلح إلا لذويهم، وليست لنا أبداً. لذلك، سننتهج الخطة التالية : سأخذ غرفة في فندق « أليتي »، وأترك لك فترة تفكرين فيها جيّداً حول ما قلته لك، وإنّ غيّرت رأيك، وهذا من حقك المطلق، اتصلي بي غداً قبل منتصف النهار ونعود معا إلى البيت ». ضمّني بقوة إلى صدره، هو الأب المتحفظ عادة، وهمس في أذني : « لا تحكمي بسوء على أمّك، لقد تصرّفت

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

كما يمكن لأي أم أن تتصرّف. إنها تحبك وتخاف على حياتك ». طفحت دموعي، قبلته وطلبت منه أن يطمئنّها، وأن يطلب منها أن تسامحني إن أسأت إليها وأن تدعو لي بالخير. ترك لي حزمة أوراق نقدية وخرج دون أن يلتفت وراءه، كما لو أنّه كان يعرف مسبقا بأنني لن أذهب نهار الغد إلى فندقه قبل منتصف النهار. فبقيت وحدي في غرفتي وأجهشت بالبكاء وأطلقت العنان لحزني، ثمّ أعدت أمتعتي إلى حقيبتني وخرجت متوجّهة إلى سانت أوجين.

الفصل الرابع في قلب العمل المسلح

• الانضمام إلى المجموعات المسلحة

كانت الساعة الرابعة بعد الزوال عندما ضغطت على جرس باب عائلة الخضاري، وكان رمزنا : ضربتان، توقف، ثم ضربة واحدة. نزلت سامية عبر السلالم لتفتح لي الباب. ضمّنتني بين ذراعيها وهمست في أذني : « أخيرا حدث الاتصال ! لهذا هتفت لأبيك. سأروي لك التفاصيل، ولكن لا تقولي شيئا، ولا حتى لماما زهور، لأنّ المنظمة أدمجتنا في المجموعات المسلحة ». صعدنا السلالم بخفة لنلتحق بماما زهور في بيت القعدة (الصالون التقليدي). لقد حضّرت للتوّ المائدة لقهوة العصر، بذلك الرحيق المدخن الرائع وحلويات المقرّوط المعسل وماء الزهر. ارتمت في حضنها وسألتها عن أحوالها وأحوال زوجها وكامل أفراد العائلة. أجابت بأن الجميع في صحة جيّدة، ثم شكرتني وحدّقت فيّ جيّدا وقالت : « كنتِ تبكين ! عيناكِ حمراوان ومنتفختان، أتمنى أن تكون أحوال عائلتك بخير ». أحببتها بأنّه صعب عليّ فراق أمّي. وصفتني ماما زهور بالبنت الطيّبة الحنونة، وسكبت لي القهوة وأجبرتني على ابتلاع مقرّوطتين.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

بمجرد أنْ انْعَزَلْنَا فِي غُرْفَةِ سَامِيَةِ، صرّحت لي بأنها لا تصدّق ولا كلمة واحدة مما قلته حول احمرار عينيّ، ثم أضافت : « أوّلاً سأخبرك بكامل تفاصيل الاتصال، لنكون في نفس مستوى المعلومات ثم احكي لي أنتِ كل شيء، ولا تنسي بأنني أملك الوسائل التي تجعلك تعترفين بكل التفاصيل ! ». أخبرتني أنّ بوعلام أوصديق اتصل بها ابتداءً من بداية شهر جوان. ومن أجل ذلك، تقدّم إلى بيتها بتّبَان وقميص قصير الكُمين مثل شاب رومي تماماً. كاد الأب لخضاري الذي فتح الباب أن يُصاب بصدمة قلبية وهو يكتشف أمام باب منزله هذا الشاب الأوروبي في مظهره، ويرتدي ذلك اللباس الوقح ويطلب منه بالفرنسية : « هل هذا بيت الأنسة سامية لخضاري ؟ ». سمعت سامية الأصوات وتهديدات الأب، فنظرت من النافذة التي تشرف على الشارع وتعرّفت على بوعلام أوصديق الذي كان يلحّ على رؤية الأنسة سامية برغم صراخ الأب. بسرعة أخبرت سامية ماما زهور التي ركضت عبر السلالم دون خوف السقوط، ودفعت زوجها جانبا، وأدخلت الزائر غير المنتظر إلى الردهة وقدمته كابن خالة زهرة ! فأعادت عليّ سامية المشهد بتقليد كل واحدة من الشخصيات :

— ماما زهور : مرحبا بك يا ابني. أكيد أنّ زهرة هي التي بعثتك إلينا ؟
أتمنى أنّ بحوزتك أخبارا سارة.

— بوعلام أوصديق : بالفعل يا خالة، غدا على الساعة التاسعة صباحا، ستنعقد جمعية عامة في الجامعة للنظر في العودة إلى الدروس. وبما أنّ زهرة بعيدة في فيالار، فلا يمكنها الحضور وطلبت مني أن أخبر صديقتها سامية ».

— ماما زهور : مع السلامة يا ابني وشكرا على أنك كلّفت نفسك وجئتنا بالخبر. سنذهب سامية غدا صباحا إلى الجامعة. وأتمنى أن تُستأنف الدروس فيمكن لزهرة أن تعود إلى الدزاير، لقد اشتقنا إليها كثيرا ».

في قلب العمل المسلح

كاد الأب لخضاري أن يصاب بجلطة دماغية :

« هكذا أكون قد رأيت العجب العجائب في حياتي الحقيرة، بما في ذلك مسلم في هيئة رومي يجرؤ على الدق على بابي ويطلب الحديث مع ابنتي ! »

في الغد انتظر بوعلام أوصديق سامية عند مدخل الجامعة. فَمَشيا معا للحظات كي يتفقا على مكان وتاريخ وساعة الموعد المقبل. أُعيدَ الاتصال من جديد وقضت سامية قرابة الشهرين في إنجاز مهمات متنوعة كلفتها بها « المنظمة ». استمعتُ إليها بعناية وغيره وُلُتُها على أنها لم تحاول الاتصال بي وإعادتي إلى الدزاير. شرحت لي أنها تصرّفت وفق التعليمات : لقد اقترحت للمتّصل بها إمكانية رجوعي قبل اليوم، ولكنه رفض وفضل من باب الاحتياط الأمني أن ننتظر نهاية شهر جويلية، لأنّ في هذه الفترة، تصبح حجة استئناف الدراسة للبنات وتحضير الامتحانات مقبولة لدى الجميع. ثم أضاف قائلاً : « إذا لم يصدّق أهلها حجة استئناف الدراسة، فسنعيدها بوسائلنا الخاصة ».

حكّت لي سامية بأنها عندما اتصلت بأبي عبر الهاتف لتخبره بتعليق الإضراب بالنسبة للبنات وضرورة عودتي العاجلة إلى الدزاير، ردّ عليها بأن لا تحكي مثل هذه الخزعبلات غير المقبولة لذهن سليم. حينئذ، حاولت أن تُقسّم بأنها تقول الحقيقة، ولكن أبي قاطعها واعدّا إياها بأنه سينقل الخبر لابنته وأغلق السماعه دون أن ينتظر منها جواباً. وقد اقتنعت سامية بأنّ أبي لم يصدّق قولها، فباتت في سهاد قلق منذ محادثتها معه، لأنها فكّرت بجذ أن « الخاوة » سيُجبرون على تهريبي من عند عائلتي للعودة بي إلى الدزاير. وحينما رأنتني أمام بيتها في هذه الظهيرة، أدركت أنها أساءت الفهم وأنّ أبي انتهى به الأمر إلى تصديق حكاية تعليق الإضراب بالنسبة للبنات. في تلك النقطة من حديثها، أوقفتها، وأفهمتها بأنّ أبي لم يصدّق حكايتنا أبداً،

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وأنه تصنع ذلك أمام أمي . وأضفت أنه الآن ينتظر في غرفته بفندق الأليتي، مقتنعا بأنني لن أذهب عنده نهار الغد قبل منتصف النهار مثلما اقترح عليّ دون اقتناع ظاهر. ولكن هكذا هو أبي، القاضي الأحمر : يحب أن ينفذ الناس اختياراتهم باقتناع وأن يتحملوا مسؤولياتهم بكل حرية وراحة الضمير ! وبعد ذلك، رويت لسامية كيف عارضت أمي رجوعي إلى الدزاير، وكيف واجهتها بالكذب وكيف استسلمت لأنني استفدت من مساندة أخي الثمينة، ومساندة أبي التي لا تعوض . وعبرت لها عن إحساسي بالذنب لأنني تسببت في حزن أمي وأحدثت شرخا في عائلتي . فأسرعت سامية، أختي وصديقتي، إلى مواساتي، وإبعاد فكرة الشعور بالذنب عني، وأكدت لي بأن أمي تكون فخورة بي وقد تتفهم جيدا حسن اختياري، حتى وإن كانت في الوقت نفسه خائفة على حياتي . أنهت حديثها بالقول : « لا يمكننا أن نفعل شيئا ضد « كبد » وحب الأمهات » فبكينا على مصيري، أنا الفتاة « الممزقة » بين واجبي تجاه أهلي، ووضعي كامرأة وكعربية، بلا مواطنة ولا هوية، وبين واجبي تجاه بلدي وشعبي ومنظمتي، جبهة التحرير الوطني، التي تجنّدت معها جسدا وروحا . كما بكينا على الوضعية القاسية التي فرضها علينا النظام الكولونيالي الغاشم، الظالم، العنصري، وأن استمراره يعني اختفاءنا من الوجود على المدى الطويل، بما في ذلك وضعنا كأهالي . ثم هزنا أنفسنا وصرّحنا بملء حناجرنا « حياتنا لا تساوي أكثر من حياة زبانة ! » . وحكت لي سامية عن تجنيد « الإخوة » وعن محطاتهم وأصدقائهم في سلك المحاماة ولدى شرائح من الأوروبيين الذين يساندون قضيتنا كي يتحصلوا على العفو الرئاسي من روني كوتي لصالح زبانة وفراج . حكّت لي الحملة الهستيرية التي قادها المتطرفون الأوروبيون في الدزاير وبوفاريك وفي كامل قرى سهل متيجة، تسانداهم في دعايتهم المغرضة الصحافة الاستعمارية المحلية والباريسية، كي يُرفض العفو .

في قلب العمل المسلح

كما روت لي الجوّ الكثيب للأمسية التي تمّ فيها تنفيذ إعدام زبانة داخل سجن سركا جي في باب جديد وفي كامل القصبة : « في اللحظة التي أُخرج فيها زبانة من زنزانتها، بدأ جميع الإخوة المساجين ينشدون نشيد « من جبالنا طلع صوت الأحرار ». شغل الجلاد المقصلة فتوقفت مرتين، ولم تمنع الدولة الفرنسية الجلاد من تشغيل المقصلة للمرة الثالثة. صاح أحمد زبانة : « تحيا الجزائر ! بنا أو بدوننا، ستعيش الجزائر الحرة ! » وقد ردّ عليه الإخوة المساجين صائحين : « تحيا الجزائر ! الله أكبر ! الله أكبر ! ». وقد أطلقت نساء القصبة عشرات الآلاف من الزغاريد المدوّية المتواصلة والتي أثارت خوفا مرعبا في نفوس حراس السجن. في نهار الغد وفي الأيام الموالية، وبفضل جبهة التحرير الوطني، تداولت مدينة الدزاير أولا، ثم كامل الجزائر، الرسالة الأخيرة التي وجهها زبانة لأُمّه عبر محاميه : « قل لأُمّي أنني لا أموت من أجل لا شيء، وهكذا لن أموت فعلا ».

بتنفيذها لحكم الإعدام في حق المناضلين زبانة وفراج في 19 جوان 1956، جنت السلطة الاستعمارية عكس ما كانت تتوقع : سارع الآلاف من الرجال والنساء إلى الالتحاق بصفوف جبهة التحرير الوطني، وبالأخص الشباب الذين أقسموا أن يثأروا لشهداءنا. وأصبحت مقولة زبانة الأخيرة « تحيا الجزائر ! بنا أو بدوننا، ستعيش الجزائر الحرة ! » قسما لدى الإخوة ورسالة توجّج حماس شعبنا. لقد عاش إخواننا وقادتنا وشعبنا تنفيذ الإعدام في حق زبانة كتحرير أعلى، احتقار بلا اسم لكفاحنا التحرري الوطني، كجواب عنيف ومتعجرف من السلطة الاستعمارية ضد آمالنا في الحرية والكرامة. جاء هذا الإعدام ليُضاف إلى ما سلّطته الآلة الاستعمارية من حملات قمع شرسة ومجازر وعقاب جماعي ضد شعبنا عبر شرطتها وجيشها منذ 01 نوفمبر 1954 ». هكذا روت لي سامية هذه القصة بنفس واحد.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وقد ناقشت سامية وحلّلت الوضع بعد إعدام إخواننا في الكفاح مع مراد الصغير، واسمه الحقيقي هو (عبد الله كشيدة). فطلبت منها أن تحدّثني عنه. فروت لي أنها عندما اتصل بها بوعلام أوصدّيق من جديد، وجدته عند مدخل الجامعة، فمشيا معا إلى غاية السكوار بريسون للقاء بمُتصلنا الجديد، مرافق لا يتجاوز عمره 16 أو 17 سنة، اسمه مراد. فسَمّته مراد الصغير أو «بُتي مراد». كان ببشرة خمرية داكنة وشعر أسود فحمي ويتحدّث بنبرة أهل بسكرة التي تعرّفت عليها سامية بسرعة لأنّ أباهما، القاضي لخضاري، أصله من هذه المدينة الجنوبية. بعد أن قدّمهما بوعلام لبعضهما وتركهما وحيدين، قال مراد الصغير لسامية: «سنركب الحافلة من ساحة الحكومة، كل من جهته، كما لو أننا لا نعرف بعضنا بعضا، ونتوجّه نحو سانت أوجين. وسينزل كل واحد منا من جهة في موقف «لاكونصولاسيون» غير بعيد عن البلدية وعن منزلكم. مقابل الموقف، توجد بقالة وهي ملك لواحد من مناضليننا. ستتبعينني عن بعد، وتدخلين الحانوت بعدي وتلفظين بجملة الاعتراف هذه للبقال». لقد أدهش مراد الصغير سامية بمهارته ودقة تعليماته، برغم أنه ليس إلا في عمر أبناء و بنات إخوتها. فطبقت تعليماته بالحرف. كانت البقالة، التي تعرّفت عليها فيما بعد، تقع في تجويف من الشارع الرئيسي الذي ينبثق من سانت أوجين وينتهي عند مستدير، تتشعب منه أزقة متعددة، واحد منها باتجاه مستشفى مايو (الأمين دباغين اليوم)، والثاني باتجاه السيّدّة الإفريقية والثالث باتجاه باب الواد. إنه حانوت صغير بأبواب زجاجية بلون السماء، ويواجه ساحة حديقة جميلة تزيّنها أشجار رائعة بأوراق مميزة بخضرة داكنة، وسُمك كثيف، وعند أسفل جذوعها عُرسّت مقاعد إسمنتية أنيقة، مساحة الجلوس مرصّعة بمربعات من الفسيفساء الزرقاء والصفراء والخضراء، وطبعا كانت تلك الحديقة تعجّ دوما بالناس خاصة في الظهيرة وابتداء من السادسة.

في قلب العمل المسلح

وفوق هذا كله، يوجد هذا الديكور الرائع بقرب الحي الذي تسكن به سامية. فبعد أن تأكّدت من أن لا أحد يهتم بها، دلفت سامية إلى الحانوت حيث كان ينتظرها مراد الصغير منذ حوالي خمس إلى ست دقائق. على بعد متر واحد من الباب، يوجد المصرف الذي يقف وراءه رجل نحيف يشعر أشقر كثر وبعينين زرقاوين خلف نظارات بزجاج سميك وهيكل معدني. وخلف ظهره، ترزح الرفوف الخشبية تحت ثقل أدوات متنوعة. تأكّدت سامية بأنها وحيدة داخل المحل، فاقتربت ونطقت صيغة الاعتراف بصوت خفيض. وفي الوقت الذي كان البقال يجيب على جملتها، سمعته ينادي مراد ورأت هذا الأخير يرمق من تحت المصرف بخفة قط. ولم تتمكن من كتم صوت « آووه ! » بتأثير الدهشة لأنها لم تتصوّر أن بإمكان شخص أن يختفي تحت ذلك المكان الضيق. فتبادلا الضحكات وقام مراد بالتقديم الضروري. ثم أخبرها بأن البقالة هي من الآن فصاعدا مكان مواعيدهما، سواء للاتصال أو كمكان وضع أو سحب الطرود من أجل « المنظمة ». حذّرها أنه في حالة غيابه عن الموعد، ستجد جميع التعليمات والأخبار عند البقال. وبما أن سانت أوجين هو حيّها، شرحت سامية بأن كثرة التردّد إلى البقال يمكن أن يثير شكوك الجيران. فأجاب بأنه سينقل ملاحظاتها للإخوة الكبار وحدّد لها موعدا لنهار الغد زوالا. وفي الغد، ومثلما تمّ الاتفاق، وجدت مراد الصغير الذي سألها مجموعة من الأسئلة :

1. هل أنت حرة تماما في جميع أوقات النهار ؟
 2. هل تعرفين الدزابر جيّدا ؟
 3. إذا حدث أن كلفك « الخاوة » بمهمة قبل ثلاث ساعات من إنجازها، هل ستكونين مستعدة لتنفيذها ؟
- أجابت سامية :

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

1. نعم، إنني تحت تصرف « المنظمة ». ولكن ينبغي الأخذ بعين الاعتبار طبيعة مجتمعنا. فأبي يفرض عليّ الرجوع إلى البيت قبل السادسة والنصف مساءً، وأنّ جميع الأوروبيين يعرفونني وكذا أفراد عائلتي ؛

2. نعم، أعرف مدينة الدزاير وضواحيها جيّدا بفضل « المنظمة » والمهمات التي كلفتني بها مع الأخت فريدة قبل إضراب اتحاد الطلبة المسلمين ؛

3. نعم يمكن لي أن أنجز مهمة تُسند إليّ قبل ثلاث ساعات من تنفيذها. ولكن في حالة الاستعجال وإذا كانت الساعة غير مناسبة، هل يمكن أن ترافقني أمّي ؟ إنها شخص يحظى عندي بثقة مطلقة ومجندة معنا، وستكون غطائي المثالي في نظر أبي، وبقية العائلة والجيران .

4. ومن جهة أخرى، هل يمكن أن أطلب عودة صديقتي، الأخت فريدة، التي تعرفها « المنظمة » جيّدا والتي سبق أن كلفتها بمهمات خلال عدة شهور ؟ توجد الآن عند أهلها في فيالار. وفي رأيي، نحن بحاجة إليها هنا. أجابها مراد الصغير : « سأنقل كل ما قلته لي وسأتيك بالتعليمات في المرة المقبلة » .

وقبل أن يغادر، أعطى لها طردا صغيرا ولكنه ثقيل ومغلق جيدا، طالبا منها أن تضعه داخل صندوق بريد لعمارة تقع في المدينة الأوروبية مع العنوان الكامل الذي كان مكتوبا في ورقة مستقلة، وعليها بإتلافها مباشرة بعد إنجاز المهمة. أدّت سامية مهمتها على أحسن ما يرام، وتلقت بعد يومين الأجوبة عن أسئلتها :

1. يقول لك الإخوة الكبار أنهم سيحدّدون الوقت الذي ستطلبين من الأخت فريدة العودة إلى الدزاير ولكن ليس الآن، ينبغي تقديم سبب معقول، وفكرنا في استئناف الدراسة للبنات. لذلك فعودتها لا تكون قبل نهاية شهر

في قلب العمل المسلح

جويلية . ويقولون لك إذا رفضت عائلة فريدة السماح لها بالعودة إلى الدزاير، سيتكفلون بإرجاعها بطريقتهم الخاصة .

2. وفي انتظار ذلك، يقول لك الإخوة الكبار أنهم موافقون على أن ترافقك أمك، ماما زهور، في حالة الاستعجال والتوقيت غير المناسب لك . ستعوض الأخت فريدة .

دارت هذه المحادثة في حوالي 14 جوان 1956 داخل بقالة « لاكونصولاسيون »، وهكذا، وخلال أزيد من شهر ونصف، من منتصف جوان إلى نهاية جويلية، التقت سامية مرارا بمراد الصغير . وقد أدّت مهماتها سواء بالمشي خلفه على الرصيف، على بعد أمتار، أم برفقة ماما زهور . تحب المناقشة مع مراد الصغير لأنها تعلّمت منه أشياء كثيرة عن الحياة وعن التضامن في أحيائنا الشعبية . تعلّمت منه أنّ عدد متعاطفي ومناضلي جبهة التحرير الوطني كبير جدا، أكثر مما يتصوره الأوروبيون . وصف لها الخصال الإنسانية وشجاعة قادتنا . كان مراد الصغير يتصرّف مع سامية باعتباره حاميا المطمئن وانتهى الأمر بصديقتي إلى أنّ غدّت حنينا شبه أمومي تجاهه . كان يبهرها ويسليها في آن واحد . ذات يوم، قالت له بأنها قرأت في الصحف مقالات توحى بأن المناضلين الموقوفين لا يقاومون التعذيب الذي يسلّطه الفرنسيون عليهم وينتهي بهم الأمر إلى إفشاء المعلومات التي بحوزتهم، فرفض مراد هذه الأقوال بحركة من يده قائلا : « أتعرفين أخت نبيلة... أنا أعرف إخوة فضلوا، عند توقيفهم، ابتلاع قرص السيانور المخفي في جيب سري في سراويلهم تفاديا لإفشاء أسرار الجبهة تحت التعذيب » . وذكر لها اسمين لم تسمع عنهما أبدا . بدا مراد مندهشا أمام جهل سامية وقد سارعت إلى القول : « كلما عرفت أقل كلما كان ذلك في صالحني، فلا أظن أنني سأصمد طويلا تحت التعذيب في حالة توقيفي » . نظر إليها بغرابة، وبدا ذلك المراهق النحيل أنه لا يخشى شيئا، ولا حتى الموت .

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

هزأ من التعذيب وحينما سألتها سامية إن كان يملك هو أيضا قرص سيانور في جيب سرواله، أجابها بعفوية : « أنا لست قائدا كبيرا ! » ردّت عليه سامية : « أنت قائدي الكبير ! ولكن هل تعرف قادة كبارا آخرين ؟ » أجاب وهو يضحك : « ليسوا جميعا طبعاً. ولكنني أعرف البعض منهم ». وكانت سامية، مثلي تماما، تلصق لقادتنا خصالا خارقة للعادة، فبدأت تنظر إلى مراد كما لو كان أخاها الصغير العبقري وصاحب موهبة متميزة، خاصة أنه ينحدر مثل عائلة أبيها من بسكرة، فتخيلته يخرج تَوّاً من ضريح أجدادها « سيدي عقبة لخضاري » وسط واحة النخيل، ليس بعيدا عن سيدي عقبة. وكان مراد يتصرف تارة كطفل حينما يصل وفي يديه قرنان من الثلجات من عند « غروزولي »، يلحس قرنه ويمد قسم سامية ضاحكا، غير مدرك أنه يصعب عليها تقليده بسبب تربيتها البورجوازية، وتارة كراشد، مسؤول وشجاع حينما ينقل التعليمات والأخبار أو يمنح لها الطرود. وكان رائعا حينما يقومان ببعض المهمات في المدن الأوروبية : « أختي، سنركب الحافلة، ولكن كل واحد يذهب من جهته كما لو أننا لا نتعارف. وننزل في الموقف الفلاني، كل من جهته أيضا. وسنمشي كل واحد منا على رصيف مختلف، وأنت تتبعيني، تاركة بيني وبينك خمس دقائق كي يمكننا التصرف في حالة ظهور مشكلة. في هذه الحالة، لا تتوقفي، واصلي طريقك، حتى وإن رأيت الكلاب يوقفونني أو يضربونني. هل فهمت ؟ انظري، ألبس تريكو أحمر كي تتمكني من رؤيتي عن بعد ». حكى مراد الصغير جميع التفاصيل حول إعدام زبانة وفراج يوم 19 جوان 1956، وعن الجوّ في جناح السجناء في سركاجي، وعن جملة التحدي التي تلقّظ بها زبانة لجلاديه، وعن الرسالة التي وجّهها لأمه قبل أن يموت وعن زغاريد النساء في القصبه والتي دامت طويلا وإلى غاية ترهيب الفرنسيين. فختم قوله : « يحتقرنا الأوروبيون ومع

في قلب العمل المسلح

ذلك يكفي لزغاريد نسائنا لتدخل الرعب إلى قلوبهم وتثير في أنفسهم خوفا مرجفا . وكلما تحدّث عن زبانه، إلا وأقسم أن « الخاوة » سينتقمون لقتله ولقتل آلاف المناضلين الآخرين « لأنهم لم يموتوا لأجل لا شيء » .

● 14 جويلية : محاولة "المتطرفين" حرق القصبة

في 16 جويلية 1956، كان لسامية موعد مع مراد على الساعة الرابعة زوالا عند البقال، فلم تجده. أخبرها الحانوتي أنّ مراد أعطى لها موعدا آخر ليوم الغد على الساعة 11 صباحا في مقبرة سيدي عبد الرحمن وعليها أن تذهب ملحفة بالحايك. فهمت أنّ حدثا خطيرا يكون قد وقع. في الغد، ذهبت إلى الموعد وهي ملحفة. وجدت مراد حزينا وشاحب الوجه وفي حالة قصوى من الغضب. حكى لها أنّ منظمات المتطرفين من الأوروبيين قتلت عشرات المسلمين المدنيين، بما في ذلك خادمت النظافة، وقد كادت أن تنجح في حرق 80 000 من سكان القصبة في نومهم ليلة 14 جويلية وخلال حظر التجوّل. روى لها كيف استقدم أولئك المتطرفون، ومن ضمنهم « الكلب روني كوفاكس » شاحنات بخزانات مليئة بالبنزين إلى غاية « باب جديد » قصد سكب السائل السريع الالتهاب من الأعلى على أزقة القصبة. فكان البنزين سيغرق المدينة العتيقة باتباع دروبها الهابطة وإلى غاية جانبها السفلي. حينئذ، كانت تكفي شعلة صغيرة من علبة كبريت لتتحوّل القصبة إلى لهيب جهنمي وفرن لإحراق البشر القاطنين في الحي، وجلهم من المدنيين. وحدها يقظة أفراد من أهاليها سمحت بتجنّب المجزرة، إذ وصل ضجيج محركات الشاحنات وأصوات المتطرفين إلى أسماع السكان، فخرجوا يستخبرون الأمر، وأدركوا بسرعة التهديد البشع، فطفقوا يصرخون ويتنادون، وحاصروا الشاحنات وقاوموا بأيديهم الفارغة. فخاف المتطرفون

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وانسحبوا هاربين، تاركين أدوات الجريمة التي أرادوا ارتكابها في يوم ذكرى الاستيلاء على « لابسّتي » ! تصرف أحفاد روبسيير ودانتون كأحفاد هتلر بتواطؤ السلطات المدنية والعسكرية الكولونيلية ! شرح مراد بأنّ قادتنا، وبعد التأكد من المؤامرة الإجرامية، قرّروا تنظيم السكان للقيام بالحراسة حول كامل القصبة. وهذا هو السبب الذي حال دون أن يتمكن مراد من المجيء إلى « لاكونصولاسيون » في موعد 16 جويلية. فكان ضمن مجموعة الحراسة في الليلة الأولى في باب جديد، ثمّ أنجز مجموعة من المهام الموكلة إليه واستأنف الحراسة في الليلة الموالية. فهتّت سامية سبب شحوبه وتهيجّه وتوسّلت إليه بأنّ يذهب للنوم قليلا. كما فهتّت بأنه يسكن في حي القصبة، لذلك اقترحت عليه أن يذهب معها إلى بيت أهلها في سانت أوجين ليأكل ويأخذ قسطا من الراحة. ضحك وشكرها على اقتراحها، وأقسم لها بأنه في حالة جيّدة، ثمّ شرح لها بأنّ « الخاوة » طلبوا منه أن يتصل بالأخت فريدة لتعود إلى الدزاير في أقرب الآجال لأنّ « المنظمة » بحاجة إلى جميع أبنائها، إناثا وذكورا، وهنا في الدزاير. ختم كلامه بالقول : « يا أختي الكبيرة، يجب إقناع أب فريدة كي يرجعها بنفسه وإلا سيقوم « الخاوة » بتنظيم هروبها نحو الدزاير. من الضروري أن ننظّم الهجوم المضاد ! لا يمكن أن نتركهم يقتلون رجالنا ويحاصرونهم كالجرذان أو يطلقون علينا الرصاص في الشوارع كما لو كنا أرناب ! أنتركهم يقطعون رؤوسنا في سركاجي فيما يتبختر ذووهم في حياة ناعمة ! من الآن فصاعدا، سنطبق مبدأ " السن بالسن والعين بالعين، والبادئ أظلم " ». أخذته سامية بين ذراعيها كأمّ مع ابنها وتوسّلت إليه أن يقبل ورقتها النقدية كي يشتري عشرة قرون من الثلجات على صحة جميع أولئك الذين سينتقمون لنا. قبل عرضها ثمّ افترقا. كنا في 30 جويلية 1956 وحكت لي سامية لمُدّة ساعتين كاملتين ما عاشته خلال غيابي، وهي لا تزال

في قلب العمل المسلح

تحت تأثير الغضب بسبب محاولة المتطرفين الأوروبيين لحرق القصبه، موضحة أن الصحافة الكولونيالية تمر بصمت أمام جرائم هؤلاء المتطرفين.

لاحظت أنّ سامية حكّت لي كل شيء عن مراد الصغير ولكنها لم تذكر شيئاً عن طبيعة مهماتها. لم أقدم لها الملاحظة، ولا لمتها على إخفاء السرّ، بل زاد إعجابي بها لأنها تحوّلت إلى مكافحة حقيقية تشتغل في الظلام بجدية وانضباط مهني. انتابني إحساس بالفرحة والامتنان اللامحدود تجاه « الخاوة » الذين لم ينسوني، والذين استدعوني ووضعوا في شخصي الضعيف ثقتهم الكبيرة، لأنّ الوضع يتعقّد أكثر فأكثر، وأنّ الثقة هي الشرط الأول في أيّ مناضل قبل تجنيده. صرّحت لسامية بكل هذه الأحاسيس ثم سألتها : « الآن وقد قلت لي كل شيء تقريباً، هل يمكنك أن تشرحي لي ما هي النحلة التي لسعت بوعلام أوصديق كي يتقدّم إلى باب بيتكم بتلك الهيئة الغريبة ويصرّ أمام والدك على التحدث معك ؟ هل طرحت عليه السؤال ؟ » انفجرت سامية بضحكها المعتادة وشرحت لي أن السبيل الوحيد لإعادة الاتصال بنا هو المجيء إلى بيتنا، الواقع في حيّ، ثلاثة أرباع سكانه من الأوروبيين والربع الباقي من أهالي البورجوازية الكبيرة والمتوسطة. فتنكر بوعلام، المناضل السري، بلباس أوروبي كي لا يلفت الانتباه. وقد نجح في ذلك لأنّ القاضي لخضاري نفسه انخدع بمظهره. أضافت سامية موضحة : « من سيرتاب في طالب أوروبي ؟ لا أحد. أما لو كان شاباً مسلماً، غير معروف في الحيّ، كان سيلفت الانتباه ويصل خبر دخوله الحيّ إلى مصالح الأمن والشرطة قبل حتى أن يدقّ على الباب ». بعد عشاء دسم بطبق « التريدة » حضرتها لنا ماما زهور بحب لا مثيل له، التحقنا بأسرّتنا استعداداً للنوم، فتذكرت كلمات مراد الصغير حول أقراص السيانونور. كنت دوماً منبهرة بالأشخاص الذين يملكون شجاعة القرار لحظة موتهم. وقد طرحت دوماً على نفسي سؤالاً لمعرفة إن

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

كنت أملك تلك الشجاعة في اتخاذ القرار دون أن أتمكن من الإجابة. وفي تلك الليلة أيضا، لم أتلّق جوابا. غرقت في النوم وأنا أردّد بأنني لن أقول شيئا تحت التعذيب لأنني لا أعرف شيئا، سنرى فيما بعد. كانت تلك الليلة أول ليلة بعد عودتي إلى الدزاير، وبدالي أنّ غيابي لشهرين قد دام سنوات. كما أدركت أن الوضع في الدزاير الذي كان متوترا في بداية جوان 1956 لحظة ذهابي إلى فيالار، أصبح مُسمّما للغاية ومهترئا، بل وعلى شفا حفرة من الانفجار بالمعنى الظاهر والاستعاري للكلمة.

بالفعل، فإلى جانب حظر التجوّل المفروض على مدينة الدزاير بين منتصف الليل والخامسة صباحا ابتداءً من 16 مارس 1956 و« السلطات الخاصة » التي عشت تعبيراتها المجسدة وما ترتّب عنها على حياة شعبنا في كل لحظات أيامه، انضاف إلى ذلك تسييج العاصمة والمطاردات اليومية للقوات المشتركة من الجيش والشرطة ضد المسلمين، والاعتقالات المكثفة لآلاف المدنيين وسجنهم وتعذيبهم والإعدامات الفورية للموقوفين. كان القمع شرسا وأصبحت عمليات حصار أحياء بكاملها والعقاب الجماعي من يوميات السكان المدنيين الذين يحسّون بأنهم ضحايا عزّل، بلا حماية ولا إمكانية الدفاع عن النفس، عرضة للتعسف الأعمى. وحينما تردّ جبهة التحرير الوطني باستهداف العسكريين ورجال الشرطة أو وُشاتهم وكذا المصالح الاقتصادية الفرنسية، تسارع أغلبية الصحافة المحلية والباريسية، الخاضعة للسلطة الكولونيالية، إلى تنظيم حملات هستيرية من الدعاية المغرضة بتزوير الحقائق والقدح، واصفين مناضليننا بـ « الخارجين عن القانون » و« الفلافة »، و« المجرمين » و« القتلة » و« الجماعات المتعطشة للدماء ». كانت هذه الصحافة الذراع الإعلامية للسلطة الكولونيالية وكذا أداة الدعاية لصالح الحرب الشاملة التي تخوضها قوات الأمن الفرنسية ضد حركتنا ومثلها العليا،

في قلب العمل المسلح

وفي خدمة « المتطرفين الأوروبيين » العاجزين عن تصوّر جزائر أخرى غير تلك الفرنسية الظالمة . وكانت تلك الصحافة تقلل من هول التعذيب أو أنها تبرّره ، كما تقدّم حملات العقاب الجماعي على أساس أنها « عمليات بسيطة لحفظ السلم واستتباب النظام » و « واجب شرعي يقوم به الجيش لحماية الأملاك والأشخاص » الأوروبيين طبعاً . فيما كان سجن سرکاجي يعجّ بالآلاف الموقوفين المسلمين ومنهم الأخوان زبانه وفراج اللذين نُفّذَ فيهما حكم الإعدام . ولم يكتفِ النظام الكولونيالي بإعدامهما ، بل استمر ، عبر صحافته ومتطرفيه ، يصفهما بأقذع النعوت ، أقلها أنهما « مجرمان خطيران » و « شرّيران » .

حكّت لي سامية بأنّ « المنظمة » أعدّت منشورا وُزّع في كل مكان تعيد فيه الاعتبار لشهادتنا ، وتؤكد على مثل الحرية والكرامة التي من أجلها ضحوا بحياتهم ، كما ذكرت جملة التحدي التي واجه بها زبانه جلاديه لحظات قبل أن يُقطّع رأسه . فضربت منظمنا في قلب الدزاير وبيّنت أن عمليات الانتقام التي يقوم بها الجيش الاستعماري واعتداءات المتطرفين وتنفيذ حكم الإعدام في سجنائنا لا يمكنه أن يقضي على مثلنا الأعلى في نيل الحرية والكرامة ، وأنّ زبانه وفراج هما مكافحان أصيلان للتحرير الوطني وليسا مجرمين . طبعاً لم نكن نملك الوسائل العسكرية وقوة شرطة الاستعمار ولا صحافته ووسائلها الدعائية ، ولا أمواله ووسائله الاقتصادية ؛ ولكننا كنا نملك مساندة شعبنا وقوته وشرعية قضيتنا ، وبالأخص أننا كنا على أرضنا المسلوبة ، ولكنها أرضنا التي نكافح من أجل تحريرها . بينما أوروبيو الجزائر غرباء على هذه الأرض حتى بعد 126 سنة من الاحتلال . هكذا وبرغم وسائلهم الضخمة ، ومدفعاتهم وطائراتهم وسفنهم الحربية وقنابلهم للنابالم وجلاديهم وقتلتهم المهنيين ووسائل إعلامهم وأفلامهم المصوّرة ومستعمريههم ومتطرفيههم ، كنا ننظر إليهم كغاصبين حقراء ، كلصوص ومغتصبي هذه الأرض التي سيغادرونها ذات

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

يوم، أحبوا أم كرهوا، مثلما خرج الرومان قبلهم بقرون. إنه وعد ماسينيسا ويوغورطا، قادتنا الأوائل : إفريقيا للإفريقيين ! الجزائر للجزائريين ! نمت وبذهني هذه الصور المبهمة للأفليذ يوغورطا يكافح ضد الرومان. هزّنتني سامية وأخبرتني بأنها ذاهبة إلى موعدها وأنها ستخبرهم بعودتي إلى الدزاير. عند منتصف النهار، قالت لي بأن مراد الصغير ينتظرني صباح الغد.

يوم موعدي، خرجنا أخيرا من عند سامية بعد أن غادر أبوها المنزل ليلتحق بمكتبه. آه ! كم كانت فرحتي كبيرة بالمشي على قدمي، حرة، وشعري للريح عبر شارع « صالفاندي » والنزول نحو البلدية القريبة من موقف الحافلة ! كانت الصبيحة دافئة ومضيئة من الأصباح الأولى لشهر أوت 56 المعطرة بالياسمين وسلطان الغابة وروائح أخرى منعشة. مشينا بخطى ثابتة تليق بالفاتحين المنتصرين، سعيدتان بحياتنا لأنّ لها هدفا، وأيّ هدف ! حينئذ، قلت لسامية : « قللي، متى ستكفين عن الكفاح ؟ ». نظرت إليّ بذهول ثم أجابت : « يا له من سؤال ! وأنت، متى ستكفين عن الكفاح ؟ » قلت لها : « حينما أموت أو أُكسر من الداخل، وهو عندي نفس الشيء، أي لا يصبح لحياتي أي معنى. أترين، لقد قصّت المقصلة على زبانة، ولكنه لا يزال يكافح ! أريد أن أقول أنّ ما كان يمنح معنى لحياته، يمنح معنى لملايين أخرى من الحيوانات، لهذا فإنه لم يمّت. وكان محقا حينما قال لأمه : « إنني لا أموت من أجل لا شيء، ما يعني أنني لن أموت فعلا ! » ضحكت سامية من هذيانني وركبنا الحافلة إلى غاية ساحة « لاكونصولاسيون ». فتوجهنا إلى البقال في اللحظة التي خرجت منه فتاة ذات جمال أخاذ لا تترك أي بصر غير مبالٍ. قالت سامية : « شوفي ! فأوريّة ! » أجبت : « أبدا ! » لأنّ الفتاة شيئا يصعب تحديده في تعابير وجهها وفي نظرتها، يؤكّد أنها جزائرية مثلنا. إنها حسيبة بن بوعلي التي التقيتها بعد شهور قليلة والتي عشت معها أحلك أيام « معركة الجزائر »، إذ تمّ اعتقالها في

في قلب العمل المسلح

سبتمبر 1957، وتركتها على قيد الحياة، ولكنها استشهدت بعد أيام قليلة، تحت أنقاض دار بالقصبة إلى جانب علي لاثوانت وعمر الصغير ومحمود. ولجنا داخل البقالة وتعرّفت على الحانوتي ومراد الصغير الذي تعرّفت عليه فوراً بفضل شعره الأجعد الفحامي اللون وبشرته الداكنة ونبرته الخاصة بأهل الجنوب، وأحسست بتعاطف مباشر نحوه. قدّمتني سامية باعتباري الأخت فريدة العائدة توا من فيلار، مضيضة: «إننا قريبتان جداً الواحدة من الأخرى منذ سنوات دراستنا في الثانوية ثم في الجامعة، وهي الآن تقيم عندي في سانت أوجين منذ أن قرّر «الخواوة» عودتها إلى الدزاير». طرح عليّ مراد أسئلة كما لو أنّ ذلك يخضع لطقوس إجبارية: «مرحبا بك أخت فريدة! إننا جد مسرورين بعودتك بيننا. قلّي، هل أنت حرة تماماً في جميع أوقات النهار؟ هل تعيشين ضغوطات خاصة؟ هل تستطيعين تنفيذ المهمات التي تُسند إليك في أي وقت من أوقات النهار؟ وإذا حدث أن كلفك «الخواوة» بمهمة قبل ثلاث ساعات من إنجازها، هل ستكونين مستعدة لتنفيذها؟ هل تعرفين الدزاير جيّداً؟» فأجبت عن كل هذه الأسئلة موضحة أنني حرة مثل الريح منذ إضراب الطلبة المسلمين عن الدروس والامتحانات، وأني مستعدة لتنفيذ جميع المهمات التي يكلفني بها «الخواوة»، حتى تلك التي ستُسند لي قبل ساعتين أو ثلاث، وبأنني أعرف جيّداً الدزاير، باستثناء القصبة، مع أنني أعرف جيّداً منطقة سيدي عبد الرحمن والمكتبة الوطنية. أضفت بأنني على دراية تامة بالأحياء الأوروبية حيث يمكن لنبيلة وأنا أن نتجول بداخلها بلا أدنى مشكل، وبقليل من التقنّع فقط. ضحك مراد بصوت مرتفع وقال: «جيّد بالنسبة للأحياء الأوروبية، أما بالنسبة للقصبة فلست بحاجة إلى معرفتها، هناك آخرون سيتولون أمرها. أترك لك هذه الأوراق للقراءة، هذا كل ما لديّ لنهار اليوم. سأكون مُتصلك، وإذا لم آتِ ستجدين الأخبار سواء عند

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

نبيلة أم هنا عند الحانوتي . ستُسند لك المهمات على انفراد، أو بالاشتراك مع نبيلة . وداعا أختاه وحظا سعيدا ! » .

غادرنا البقال، واستقلّت سامية حافلة نحو اتجاه لا أعرفه لأنّ مراد كلّفها بمهمة خاصة بها . فعدت إلى المنزل مشيا على الأقدام بقفتي ومؤنّتي المزوّرة . نحو منتصف النهار، عادت سامية إلى البيت ولم تنبس بكلمة حول ما قامت به، ومع ذلك أخبرني بأنّ لي موعدا مع مراد نهار الغد على الساعة العاشرة صباحا عند البقال . في الغد، التقيت ثانية بمراد، الأخ الصغير الذي بدا لي كما لو أنني أعرفه منذ زمن بعيد . كلّفني بالذهاب إلى حيّ « حسين داي » وأنّ أكون في منتصف النهار داخل محل لتحميص القهوة حيث سأستلم طردا أخفيه تحت الخضر والفواكه بداخل قفّة أعطاها لي . مدّ لي قطعة ورق تحمل العنوان الدقيق للمحل وعليّ بحفظ محتواه وإتلافه فورا، ثمّ، وكما فعل مع سامية، شرح لي كيف يجب أن نركب في حافلة واحدة، كل من جهته، وكيف ينبغي لي أن أتبعه عن بعد ... إلخ . أدّيت مُهمّتي وفي منتصف النهار بالضبط، تسلّمت الطرد الذي كان صغيرا وثقيلا، ملفوفا في قطعة قماش، أخفيته جيدا تحت الخضر والفواكه وأوصلته إلى البقال دون أن أعرف ما بداخله ودون طرح الأسئلة .

خلال الأيام العشرة الأولى من شهر أوت، نقلت طرودا متوسّطة الحجم وظروفا بريدية من أمكنة نحو البقالة أو العكس . كنت أجهل كل شيء عن محتوى الطرود والظروف وكذا عن هوية المرسلين والمتلقين . ولم أكن أريد أن أعرف شيئا، لأنّ الجهل في هذه الحالة أنفع لي . والسبب واضح : كانت الجرائد تنشر يوميا أخبارا عن التفجيرات وعن اعتقالات المكافحين أو القضاء عليهم من قبل قوات القمع الكولونيالية . إن التعذيب آلة حرب حقيقية ضد جبهة التحرير الوطني وتسحق كل شخص يتم توقيفه . لذلك كان جهلي لا

في قلب العمل المسلح

يزعجني ولا يحزنني، بل يريحني ويطمئنني. كنت مشبعة بالأدب النضالي العالمي، وبالأخص أندري مالرو وكتابه «الوضع البشري»¹ وفكتور سرج وكتابه «خفايا أمن عام: الأخرانا»² حيث يشرح فيه كل ما يجب على مناضل في السرية أن يعرفه ويفعله، وكنت أردد باستمرار: «كلما كانت معرفتي قليلة كلما كان أحسن لي». بالفعل، كانت جبهة التحرير الوطني منظمة فعالة ومتجذرة في أوساط الشعب ولكنها مغلقة وتعمل بسرية كبيرة، بحيث لم أكن أعرف - في شهر أوت 1956 - من جبهة التحرير الوطني إلا نبيلة التي هي صديقتي سامية، ومراد والبقال اللذين لا أعرف عنهما شيئا. كنت أشك أن يكون مراد قائدا برغم صغر سنه، ولكنني لا أعرف أي منصب يشغله داخل المنظمة ولا مستوى مسؤولياته، ولا حتى مسؤولياتنا نحن. كان الفصل بين المناضلين صارما إلى حد لا يمكن لمناضل أن يعرف إلا واحدا أو اثنين من الذين يتعامل معهم يوميا، وكم كان الفضول يؤججنا لطرح أسئلة حول مصير قائدا السابق «الفنك» الذي تم اعتقاله في أفريل 1956، ولكننا لم نجروا على ذكر الموضوع مع مراد. كانت الأمور تسير على هذا الشكل وكان علينا أن نقبلها دون مناقشة، ومع ذلك كنا نتناقش كثيرا مع مراد، ولكن تبادلاتنا تنحصر على الأعمال التي تقوم بها المنظمة والتي تتحدث عنها الصحافة بنوع من التضخيم، وعن اعتقالات مناضلين التي تُنشر صورهم على صفحات نفس الجرائد. في تلك المناسبات، كان مراد يحدثنا عن التعذيب كوسيلة قارة يستخدمها الفرنسيون للحصول على المعلومات حول «المنظمة»، ويحكي بطولية قادتنا المعتقلين وكذا أولئك الذين يفضلون ابتلاع قرص السيانونور. علمنا أن القاعدة المتبعة عند الاعتقال هي الصمود لمدة 48 ساعة بدون كلام.

1. André Malraux, *La condition humaine*, Gallimard, 1933.

2. Victor Serge, *Les coulisses d'une sûreté générale : l'Okhrana*, Librairie du Travail, rééd, sous le titre *Ce que tout révolutionnaire doit savoir de la répression*, François Maspéro, 1970. Rééd. Zone/La Découverte et Lux, 2010.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

في هذه الأثناء، ستجد المنظمة الوقت الكافي لاتخاذ الإجراءات اللازمة كي تصبح المعلومات المقدمة دون أية قيمة. كنا نمطره بالأسئلة لمعرفة إن كان هناك من المناضلين من « تكلم » قبل المدة المحددة. وكانت إجابته دائما : « أبدا ! لا يمكن لمثل هذا أن يحصل. أعرف إخوة فضّلوا الموت على « الكلام » . يجب أن تعرفوا بأن كثيرا من المناضلين، بل ومن المواطنين العاديين، لفظوا أنفاسهم تحت التعذيب، ذلك أن ممارسة التعذيب لا يخص رجال الشرطة والعسكريين الفرنسيين. وإنما هناك منظمات المتطرفين، وبالأخص تلك التي يقودها كوفاكس وأشياري، اللذين أسّسا مراكز حقيقية للتعذيب توجد في منازل خاصة وفي مخازن يملكها الأقدام السود ». وذكرنا مراد بالتفصيل بمحاولة حرق القسبة وسكانها في ليلة 14 جويلية 1956، ثم عدّد لنا جميع التفجيرات والاعتداءات التي قام بها هؤلاء المتطرفون ضد مناضلين والسكان المدنيين المسلمين. وحدث كل هذا في لا عقاب كليّ وتواطؤ العسكريين ورجال الشرطة الذين يشغلون في مدينة الجزائر وضواحيها. كنا نستمع إليه بخشوع، مذهولتين ومعجبتين بهذا الرجل الصغير الذي لا يخاف من أي شيء وبحوزته كل هذه المعلومات. وعندما نضايقه بسؤالنا من أين يأتي بكل تلك الأخبار، يضحك ويردّ قائلا : « أعرف كل شيء، يجب أن تصدقوني ولا تطرحوا عليّ أيّ سؤال ». بالطبع، كانت الصحافة الفرنسية تقول كل شيء وبتضخيم كبير حول العمليات العسكرية التي تقوم بها جبهة التحرير الوطني، وفي المقابل لا تنشر خبرا حول اعتداءات وتفجيرات المتطرفين الأوروبيين، ولا شيء طبعاً حول التعذيب البشع الذي يمارس على المكافحين الجزائريين.

كنت أشعر بغیظ شديد بسبب هذه الحرب الشاملة التي يقودها الجيش الفرنسي ضدنا، وبالأخص ذلك التعذيب الممارس على أوسع نطاق وتلك

في قلب العمل المسلح

الاعتداءات والتفجيرات التي يقوم بها المتطرفون الأوروبيون بتواطؤ من أغلبية الصحافة الفرنسية. اقترحتُ على مراد أن يحكي بالتفصيل حالات التعذيب والاعتداءات التي يقوم بها أولئك المتطرفون كي أحضّر مقالا موثقا، نحاول سامية وأنا نشره في جريدة مضادة للنظام الاستعماري، باستخدام علاقاتنا بأستاذة في الأوساط الأوروبية الليبرالية يؤمنون بقضيتنا ويساندونها. أجابني مراد بأن ذلك لا يدخل في صميم مهماتنا، ولكنه سيخبر الإخوة الكبار. وكنا سامية وأنا نتحدث كثيرا عن اللاتوازن المفرط بين قواتنا وقوات الاستعمار. يملكون دولة عتيقة وقوية وجيشا وريث جيش نابليون الإمبريالي، ومساعدة حلفائهم الغربيين ووسائلهم المالية ولكن أيضا وسائل الإعلام الدعائية المكونة من الجرائد والإذاعات، ولا يمكن لمنظمتنا برغم تجذيرها في الأوساط الشعبية أن تواجهها. وكانت الحرب التي يخوضها العدوّ ضدنا متعددة الأشكال، وفكرنا أيضا أنه علينا أن نواجهه بدورنا بوسائل متعددة الأشكال.

● 10 أوت 56 : اعتداء المتطرفين ضد شارع طيبة في القصبة

كنا بصدد كتابة مقال حول الموضوع لنقدّمه لمراد كي يسلمه بدوره إلى إخواننا الكبار حينما عاد أبو سامية لتناول غدائه، وهو مرتبك، فأعلمنا بالخبر الرهيب : ليلة البارحة، وخلال حظر التجوّل، وقع اعتداء تفجيري في القصبة وتسبّب في قتل عشرات الأشخاص ؛ أمطرناه بالأسئلة التفصيلية ولكن القاضي لخضاري المسكين المتأثر جدا أخبرنا أنّ القصبة محاصرة وأنّ الأخبار المتداولة متضاربة، حسب هوية ناقلها، أكان من المسلمين أم من الفرنسيين. تبادلنا، سامية وأنا، النظرات الاستشارية، وقرّرنا أن نخرج للاستخبار مباشرة بعد ذهاب الأب لخضاري إلى مكتبه. في حوالي الثالثة بعد الزوال، كنا عند البقال الذي أخبرنا بأنّ قنبلة انفجرت ليلة أمس، أي ليلة 9 إلى 10 أوت،

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وفي منتصفها، في قلب القصبة، بشارع طيبة، وتسببت في عدد كبير من القتلى والمجروحين. ثم أوضح أنّ المكان يعجّ برجال الشرطة والعسكريين، مؤكداً أنّ الفاعل ليس إلا المتطرفون الأوروبيون. سألناه عن أحوال مراد الذي قدّرنا أنه يسكن القصبة، فأجابنا بأنه لا يملك أي خبر عنه، ومهما حصل فإنّ له موعداً عند البقال نهار الغد، أي يوم 12 أوت على التاسعة صباحاً. انتابنا إحساس بالغیظ ضد هذا الظلم وقلقنا على مصير مراد الصغير، فلم يغمض لنا جفن طوال الليلة المואلية، خاصة أنّ الجارات كنّ يتوافدن إلى بيت ماما زهور للحديث عن الاعتداء الجبان وتزويدها بالتفاصيل التي بحوزتهن، والتي كانت في مُعظمها مرعبة. كنّ جميعاً غاضبات وحزينات، وكانت ماما زهور بهدوئها العجيب تحسن التخفيف عن غضبهن، فتطلب منهن أن يبدأن بجمع المعونات اللازمة، بما في ذلك الأموال، لمساعدة المتضررين. في الغد، جاءت أخت سامية الكبرى، ليلي، بصحبة زوجها وأولادها، وكذلك فعل أخوها مالك. أخذوا غداًهم جميعاً في المنزل العائلي فأشركتهم ماما زهور في جمع المؤونة والأموال. وحينما سألها ابنها عن الكيفية التي ستوصل تلك المساعدات إلى القصبة، أجابت بحزم أنّ صاحب الحمام الذي تتحمّم به سيتكفّل بإيصالها لأنّ كثيراً من أقربائه يقطنون القصبة. يا لجرأة ماما زهور وسرعة بديعتها ! كنا، سامية وأنا، على علم بأنها ستعتمد علينا لإيصال ما جمعته إلى حيث يجب. وحينما وجدنا أنفسنا وحيدتين في غرفتنا، تناقشنا حول الكيفية التي عاجلت بها الصحافة الكولونيالية هذا الاعتداء ضد السكان المسلمين وهم نيام في بيوتهم. وكنا نعرف أنها ستعتبره حدثاً عابراً، وستقلل من عدد الضحايا، وستنسبه إلى « المنظمة ». لم يخطئ حدسنا لأنها لم تشر إلى المتطرفين، لا من قريب ولا من بعيد، ولم نكن ننتظر أكثر من هذا. قالت الصحافة أنّ التفجير كان نتيجة خطأ في استعمال القنابل من قبل مبتدئين

في قلب العمل المسلح

في الميدان واتّهمت صراحة مكافحيننا بالقيام بالفعل الشنيع. انفعل الأب لخضاري واستشاط غيظا وأطلق الشتائم ضد الصحافة الكولونيلية ومالكيها وسلطتهم، هو المعروف برزاقته واختيار كلماته. كان يردّد بأن القنابل لا يحسن استعمالها إلا المتطرفون الأوروبيون، وأنّ مكافحيننا لم يستخدموها أبدا، وأن الجميع على دراية بذلك. ليس التفجير إلا عملية مدبرة سلفا وقد استهدفت مدنيين أثناء نومهم ! والجميع على دراية بذلك أيضا، باستثناء صحافتهم العمياء ! بالفعل، تناولت صحافتهم أيام 11 و 12 و 13 أوت 1956 الحدث باعتباره حدثا « إجراميا » قام به « الخارجون عن القانون »، وقد قللت من عدد الموتى والمجروحين. إنّ أبشع دنيئة أن يُتَهَم مكافحونا بالاعتداء على شعبهم، لقد قرأنا جميع الصحف واستمعنا إلى الإذاعة. صمت مطبق... لا إعلان صادر عن السلطات ولا رسالة تعزية. وقد قامت الصحافة بحملة دنيئة وكاذبة، زوّرت الأحداث، فكانت بوقا دعائيا للسلطة الكولونيلية. ولم تصدر أية منظمة أوروبية أدنى رسالة، ولا حتى رسالة تعاطف مع الضحايا.

يوم 14 أوت، خرجت سامية باكرا لشراء الجرائد، فعادت في اللحظة التي جلس فيها أبوها لتناول قهوته. لاحظنا بحزن وسخط أنّ الصحافة قد مرّت إلى موضوعات أخرى. وقد فاجأنا الأب لخضاري وهو يعلن أنّ الحرب التي يخوضها الجيش والشرطة بمداهماتهم وتمشيطاتهم، واعتقالاتهم التعسفية لآلاف المدنيين الأبرياء، وممارستهم للتعذيب البشع الذي تسبّب في قتل كثير من المسلمين، والإعدامات المتكررة بالمقصلة، كل هذا لم يكف، وقد تدخل المتطرفون الأوروبيون وتنظيماتهم التي خطفت كثيرا من الأشخاص وقتلتهم بلا أدنى محاكمة، وفجّرت محلات كثيرة للنقابات والأحزاب الوطنية، كما حدث مع مقر الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري. وقد أخبره أحد أصدقائه أنّ عائلة كاملة، الأب والأم والأبناء، قد لفظت أنفاسها تحت الأنقاض في شارع

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

طيبة بالقصبة . وبعد هذا، وضع كمية من الأوراق النقدية على المائدة لصالح المساعدات التي تجمعها ماما زهور وخرج . كان مضطربا بصدق وساخطا على الاعتداء، وكانت هي المرة الأولى التي نراه في ذلك الانفعال وذلك الغيظ ويدلي برأيه دون تحفظ . وزيادة إلى السخط والغضب والتمرد، كنا قلقتين على مصير مراد الذي لم يأتنا أي خبر عنه منذ يومين . غادرنا البيت على الساعة 8 و15 دقيقة وقررنا قطع مسافة طويلة مشيا على الأقدام . أثناء الطريق، أكدنا أن الأخبار التي بحوزة الأب لخضاري حول المنظمات الأوروبية المتطرفة لا تختلف كثيرا عن تلك التي حدثنا عنها مراد، ربّما ساعدته وظيفته كقاضٍ على الحصول على مثل تلك الأخبار، زيادة إلى انتمائه إلى جمعية العلماء المسلمين . يوم 14 أوت على الساعة التاسعة صباحا حينما دخلنا إلى البقال، كان مراد الصغير ينتظرنا خلف المصرف بجانب الحانوتي ؛ كان أخونا الصغير في حالة يُرثى لها، شاحب الوجه، عيناه حمراوان وتقاسيم وجهه شوّها الغضب العاصف . أخذناه بين أذرعنا . ولم يستجب لعاطفتنا الأمومية . استبق أسئلتنا، فراح يحكي ما وقع وهو يثبت نظره في نقطة غير مرئية، أبعد من الباب الزجاجي : « في ليلة التاسع والعاشر أوت، قام المتطرفون الأوروبيون بتفجير قنبلة لا يقل وزنها عن 30 كيلوغراما في قلب القصبة، في شارع طيبة . كان الناس جميعا، شيوخا ونساء وأطفالا، يغرقون في سبات هادئ، وكلهم مدنيون . انهارت مجموعة كبيرة من المنازل . وقد تمّ عدّ 73 قتيلا و300 جريح، وعدد مماثل بلا مأوى . أغلبية الضحايا من النساء والأطفال والشيوخ . إنها لمجزرة حقيقية : الدماء في كل مكان، أطراف بشرية ممزّقة، وقطع لحم لاصقة بالتراب والأحجار، وكثير من الأشخاص يعنون تحت الأنقاض . كثير من المجروحين في حالة خطيرة وأغلبهم قد لا يعيشون، وإن نجوا فإعاقات دائمة . رأيت فتاة أُخرجت من تحت الأنقاض وهي بلا أذرع

في قلب العمل المسلح

ولا أعين سليمة، وطفلا صغيرا لن يلعب كرة القدم لأنّ ساقيه سحقتهما الأعمدة المنهارة، ولا أحدثكم عن الأطفال الذين حملتهم بين ذراعيّ خلال عمليات الإنقاذ الأولى. إنها مجزرة شنيعة أيتها الأخوات، ولم يصل رجال المطافئ إلا على الساعة الثانية صباحا، لأنّ الضحايا هم نحن، وليسوا هم، ولنا الحرية الكاملة في الموت كالجرذان ! وصلت فرق الإنقاذ برفقة الشرطة والجيش وأول ما قام به رجالها شتم المتطوعين الأوائل الذين حاولوا تقديم المساعدة وإخراج المنكوبين من تحت الأنقاض. وكان سكان القصبة كلهم في الشارع وعلى الشرفات والسطوح. كانوا ساخطين وأرادوا النزول نحو المدينة الأوروبية لينتقموا لموتاهم. ولم يتركهم « الخاوة » يفعلون لأنّ ردّ فعل الشرطة سيزيد من عدد القتلى والمجروحين. أقسم لهم قائد من الإخوة الكبار أنّ « الجبهة » ستنتقم لهم. وها قد أتيت بهذا المنشور كي تقرأوه. إنه الجحيم أخواتي، إنه منظر مرعب يدمي القلوب ! وهذا الجحيم من فعل الكلاب مثل أشياري وكوفاكس. قنبلة في قلب القصبة ! أرادوا إبادةنا جميعا ! لذلك يجب نقل الجحيم إلى مدينتهم ! وقد قام « الخاوة » بأولى الانتقامات. بالأمس فقط، قتلوا 20 مدنيا و10 من الشرطة، ولكنهم قتلوهم بطريقة نظيفة، لم يرتعدوا في نومهم. يجب تحويل أحيائهم إلى جحيم مثلما فعلوا مع أحيائنا ! ». تكلم مراد دون أن ينظر إلينا، بنفس واحد، دون حتى أن يأخذ وقتا للتوقف بين جملة. لم نقاطعه وكانت عيوننا تطفح بالدموع. اقترحت عليه سامية أن يذهب ليستريح في منزل والديها، لأنه كان متعبا جدا. رفض قائلا : « لا أستريح إلا وأنا في القبر، أو حينما تتحرّر بلادي. على كل حال، فأني واحد فينا معرّض للقتل، وإن كان شيخا أو طفلا نائما في بيته وفي فترة حظر التجوّل، ولا يفعل شيئا خطيرا. لذلك، من واجبنا أن نبقي يقظين وأن نفعل المستحيل لنقل الجحيم إلى أحيائهم ! ». أكيد أنّ مراد لا يزال تحت صدمة التفجير الجبان. ثم وبعد

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

لحظات، استعاد رباطة جأشه، اعتذر وقال موجهًا كلامه إلى سامية : « أختاه، لك موعد غدا على الساعة العاشرة صباحا عند شارع هنري مارتين، بموقف الحافلات، قرب شارع « لا لير »، ستنتظرك امرأة سمراء البشرة، ستكون واقفة في نفس المحطة، وترتدي تنورة رمادية داكنة، وقميصا أبيض اللون، وأحذية صيفية بيضاء، وتحمل جريدة « لوموند » في اليد . تسلمين عليها وتلفظين بكلمة السرّ . ستجيبك مثلما اتفقنا عليه وستذهبين معها نحو مكان موعد آخر لا تعرفه إلا هي » . طلبت سامية إن كان بوسعي أن أرافقها، فأجاب : « لا ! أخت نبيلة، من الآن فصاعدا، ستكون المهمات أكثر صعوبة وجديّة . سنواجههم باستخدام وسائلهم، لذلك سيكون الانضباط والصرامة ديدنا الجديد . ستذهبين وحدك لأنّ لك موعدا خاصا يخصك أنت فقط . للأخت فريدة مهمات أخرى تنتظرها » . ألحنا على أختنا الصغير كي يستريح قليلا لأنّ « المنظمة » بحاجة إلى خدماته، كما أخبرناه بما كانت تجمع ماما زهور من مؤنّ ونقود لتتبرع بها لناس القصبة المتضررين كي يتّخذ إجراءات توزيعها، وبعد ذلك غادرنا البقال . وعوض الرجوع إلى البيت، أخذنا الحافلة باتجاه المكتبة الوطنية . إنه المكان الوحيد الذي نعرفه من القصبة، خارج جامع كتشاوة وضريح سيدي عبد الرحمن ومدرسة ابن شنب المجاورة . وكانت كل هذه البناءات توجد على حدود المدينة العتيقة . أما بالنسبة للقصبة بالمعنى التام للكلمة، فلا نعرف عنها شيئا، لا عن قلبها ولا عن ضواحيها الأخرى . انتابنا الرعب لفكرة الدخول إلى مدينة يقال بأنها لا تحوي إلا المحلات التجارية إلى جانب محلات مشبوهة للقمار وبيوت للدعارة . لهذا، ذهبنا إلى المكتبة الوطنية . كما لو أننا أردنا تكسير الكبح الذي يقيدنا .

حينما كنّا في نفس المكان، حدّدنا جيّدا مكان الموعد بفضل إشارات إخواننا العرب . في حقيقة الأمر، كان موعد سامية على بعد 20 دقيقة مشيا

في قلب العمل المسلح

من المكتبة الوطنية دون إسراع الخطى . موقعنا شارع هنري مارتين والسوق وموقف الحافلات . تقع صيدلية بوكزودنة مقابل موقف الحافلات ، وقد تسمح واجهتها الزجاجية الضخمة بمراقبة وصول مُتصِلتنا . وبعد ذلك ، سأتبعهما ، مخالفة لتعليمات مراد الصغير . كنا في أوج عدم الانضباط ، ولكن الأمر تجاوزنا .

في الغد ، وصلنا إلى الصيدلية على التاسعة و45 دقيقة وتسمّرنا أمام الواجهة الزجاجية التي تعكس بشفافية موقف الحافلة . راقبنا الأمكنة بعناية ، وبعد خمس دقائق ، رأينا امرأة جميلة ، نحيلة ، بقامة طويلة ، سمراء ، بشعر جميل يتدلى كالشلال على كتفيها . وكانت بالفعل ترتدي تنورة بلون رماديّ داكن وقميصا أبيض وأحذية بيضاء بكعب من موضة ذلك الصيف ، وتمسك بجريدة « لوموند » في اليد اليمنى . فكانت تطابق في جميع الأوجه المواصفات التي أخبرنا بها مراد ، غير أنها كانت أنيقة جدا ولا تتماشى بتاتا مع الفكرة التي كانت لدينا عن سيّدة لها مسؤوليات نضالية . بعد بضعة دقائق من التردد ، بقيت في مكاني ، فيما اتجهت سامية نحو المرأة المجهولة . رأيتهما تتبادلان الكلام ثمّ القُبل على الواجهة الزجاجية للصيدلية . أدركت أن المرأة هي مُتصِلتنا الحقيقية . ثم مشيا معا عبر السوق ، قبل أن تدلّفا عبر شارع راندون الذي يعجّ بالمتسوقين في هذا الوقت من النهار . مشيت خلفهما بصعوبة ، لأنّ حشد الناس كان يعيق تقدّمي السريع لمُدّة أربع أو خمس دقائق ، ثمّ اختفتا عن نظري . انتابني الهلع ، حاولت التقدّم من جديد ، التفتت حولي ، باحثة بيأس عن قميص سامية الأحمر ، بلا جدوى . فلم أجرو أن أعبر واحدا من تلك الأزقة الفرعية التي انفتحت أمامي خوفا من التيه داخل متاهة أزقة القصبة . وعندما يئست من رؤيتهما ، عدت أدراجي والتحقت بمحطة الحافلة ، حيث بقيت هناك حوالي الساعة آملة في رؤية سامية تظهر من

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

جديد . وبعد ذلك، يئست من الانتظار، فعدت باتجاه سانت أوجين . وصلت إلى البيت قبل منتصف النهار بقليل، وقلقتُ ماما زهور وهي تراني عائدة بمُفردي، فشرحت لها بأنَّ سامية بقيت في المكتبة الوطنية لإكمال البحث، فيما عدت أنا للكتابة .

• عندما أصبحنا متطوعات للموت

عند منتصف النهار ونصف، عاد الأب لخضاري، فكررت على مسامعه نفس الحجّة لأشرح له غياب ابنته . أخذنا أمكنتنا حول الطاولة لتناول الغداء، وهنأني على جديتنا في الدروس، قائلاً : « سيُرفع الإضراب عن قريب ومن الأفضل أن تكونا مستعدتين للامتحان » . شكرته وأنا أحسّ بذنب بسبب أكاذيبنا المخجلة . وبعد ذهاب الأب لخضاري إلى مكتبه على الساعة الواحدة و45 دقيقة زوالاً، اعتذرت من ماما زهور واختليت بغرفة سامية، بحجة البدء في الكتابة . وهناك بدأ الانتظار الطويل . أخيراً، في حوالي الرابعة، ظهرت سامية . صعدت السلالم بخطوات سريعة وأغلقتنا على أنفسنا بداخل الغرفة . كانت مبتهجة ووجهها يشع نورا كما لو أنّ وحيًا نزل عليها أو رأت ليلة القدر . أجبرتها على الجلوس وتهدئة نفسها لتحكي لي أسباب حبورها . أخذتني بين ذراعيها، وقالت بأنَّ « الخاوة » ناس رائعون، هائلون، خرافيون، واصفة إياهم بجميع الخصال العجيبة الممكنة . ثمّ همست في أذني : « خلاص ! لقد أدمجونا في العمل المسلّح . هل تدركين هذا زهرة ؟ أخيراً، يتحقّق حلمنا ! الأخ الأكبر هو الذي أخبرني اليوم » . وبعد ذلك حكّت لي كل التفاصيل . إنّ المرأة الجميلة هي اسم على مسمّى، إنها جميلة (جميلة بوحيرد) . بعد لقائهما في موقف الحافلات، سلكتا شارع « راندون » ثم عرّجتا عبر زنقة « بورّت نيف » (لهذا السبب تمكنتا من الابتعاد عني دون أن أتفطن لهما) ،

في قلب العمل المسلح

ثم دارتا على اليسار للوصول إلى زنقة « غرناطة » وأخيرا الدرب الذي يحمل نفس اسم الزنقة. وهناك، دخلتا منزلا رائعا من العمران الأندلسي الأصيل، والذي وصفته سامية بـ « قصر ألف ليلة وليلة »، بطوابقه الثلاثة، وسقيفة وفناء بأعمدة رخامية. كانت عائلة جميلة تقطن بالطابق الأخير. فيما يحتل سكان آخرون الطابقين الأرضي والأول.

عند الوصول، طلبت جميلة من سامية الانتظار في الطابق الأول لدى امرأة، عرفنا فيما بعد، أنها المجاهدة فاطمة مزيان. وهي امرأة مضيافة جذابة وظيفية محبة، وقد أراحت سامية بحديثها عن أشخاص بعض الصور المؤطرة والتي كانت موضوعة على كومودة جميلة مرصعة بعرق لؤلؤ براق تعلوها مرآة عالية من الموضوعة القديمة. في إحدى الصور المؤطرة الجميلة، يظهر شاب بشعر أسود مدهون وبعينين ضاحكتين تبتسمان، قدمته فاطمة على أنه عمها وخطيب جميلة، وهكذا تعرّفت سامية على الاسم الحقيقي لتتصلها الجديدة وكذا الاسم المستعار، لأن فاطمة شرحت لها أنّ عائلة « جميلة » هي مالكة المنزل الذي تسكنه كأجيرة. بعد لحظات، عادت جميلة وأخذت سامية إلى الطابق الأخير حيث استقبلت في صالون واسع مؤثث بطريقة حديثة، بطاولة كبيرة وكراسي وأثاث لوضع وترتيب الأواني المطبخية. ضيقتهما فتاة جميلة في سنّهما، كانت جميلة تسميها « أُخَيَّتِي » وقدمتها كزوجة عمّها الأصغر. أعجبت سامية ببشاشة وحسن ضيافة وأناقة ودفع الاستقبال لدى كل تلك النساء : كانت كل واحدة تعمل ما بوسعها لتقدم أفضل ما عندها من كلمات الترحاب وحركات حسن الضيافة كي لا يشعر الضيف بالغرابة ولا بحرج الزائر غير المرغوب فيه.

فبعد طقوس الاستقبال، غادرت « أُخَيَّتِي » الغرفة، وتركت المكان لرجل في مثل سنّ جميلة، بهيئة ممثل إيطالي ومشى متمایل قليلا، مبتسما ولطيفا.

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

جلس الثلاثة حول الطاولة وبدأ الرجل يذيب جليد الصمت المخيم عليهم. ربّما أدرك أنّ سامية بدأت تمحي تلك الكليشيهات الجاهزة حول القصة وسكانها. فرحّب بها أولاً ثمّ أفهمها بأنه على علم بجميع المهمات التي قامت بها قبل ذلك اليوم وأعرب عن رضاه على أدائها. عبّرت سامية عن امتنانها وقدّمت نفسها باختصار. استمع إليها الأخ بلطف كبير، دون أن يكف عن الابتسام، رغم أنه كان ربما يعرف عن سامية أكثر مما تعرفه هي عن نفسها. بعد ذلك، وقف ودعاها إلى أن تتبعه، خرجا إلى الردهة ودخلا إلى غرفة ثانية حيث كان يجلس بها ثلاثة رجال بنفس عمر الأول: رجل طويل القامة، أشقر، بعينين زرقاوين أشبه بالفيكينغ (عبد الغني مرسالي)، ورجل طويل القامة أيضا، أسمر اللون بعينين ضاحكتين وابتسامة تبدو عصية الانمحاء (علي لابوانت)، والثالث بقامة متوسطة وسحنة سمراء وطبع سكوت (رشيد كُوش). بندقيتان من نوع الرشاش كانتا مسندتين على الجدار. وقف الثلاثة وهم يبتسمون، وشدّ كل واحد منهم يد سامية بحرارة ورحبوا بها ثم قام الستّة وجلسوا إلى الطاولة لتناول الغداء والمناقشة. كان الجميع، جميلة وعبد الغني وعلي ورشيد، ينادون ذلك الشخص الذي استقبل سامية باسم « الخُو ». فأدرّكت طبعا أنه القائد الكبير، قائد الجميع. كان الرجل هو ياسف سَدي، قائد المجموعات المسلّحة لمنطقة الدزاير المستقلة. تفاجأت سامية ببساطته وحيويته وسهولة معاملاته لغيره، فامتلأت عيونها بدموع الامتنان والاعتراف. مع أنّ الآخرين أيضا لا تنقصهم تلك الخصال، فلم يتوقف علي، المرح دوما، عن رواية مُزح ونُكت وهو يروي مغامراته تتخللها الضحكات المرحّة. بدأ عبد الغني ورشيد أكثر رزانة وتفكيرا، وكان لطفهما يتناقض مع قسوة البنادق الرشاشة الحارسة خلفهما. أما جميلة، فكانت تثير الإعجاب برشاقتها الطبيعية وأناقة حركاتها ولغتها وبحضور بدا أنه يتحمّل ثقل كامل البيت كما يفعل العمود الرئيسي الذي بدونه ينهار البيت. كانت جميلة جميلة

في قلب العمل المسلح

تتصرّف في البيت كما لو أنها الأخت الوحيدة داخل عائلة من الذكور . نعم ، لقد أحسّت سامية في ذلك اللقاء بأنها داخل عائلة فتحت لها كامل حضنها لاحتضانها كواحدة منها بجميع الحقوق والواجبات . وقد انبعث من تلك العائلة جوّ تضامني وتشاركي وأخوي يصمد لجميع الصعاب إلى حد ملء الغرفة والتسرب إلى جميع كيان سامية . وبكلمات أكثر دقة ، كان ينبعث من الأشخاص الخمسة المجتمعين إحساس بالتضامن والشراكة والأخوة يغمرك ويلفك ويلوّن الحياة بابتهاج لا مثيل له ، حياة أجمل وأخف ومليئة بالأمنيات الواعدة . أدركت سامية لحظتها أنّ أولئك الأشخاص هم حياتها الجديدة وآمالها المستقبلية ؛ ذلك أنهم كانوا فعلا هم الحياة لأنهم يكافحون ويحاربون ليستحقوها . يخوضون حربا ليمنحوا للحياة كل معانيها المتمثلة في تحرير البلد مهما كان الثمن . كان الرهان عظيما : الحرية ومُستتبعاتها من الكرامة والعزّة والعيش الكريم . تناولوا الغداء وتناقشوا طويلا بمدنية طبيعية ولذيذة . وكانت سامية غارقة في أفكارها الجديدة ، حينما قام عبد الغني ورشيد وعليّ وجميلة وغادروا الغرفة محيين إياها ، وتاركينها وحيدة مع « الخو » . فشرح لها القائد العسكري لمنطقة الدزاير المستقلة بأنّ جبهة التحرير الوطني قرّرت ، بعد اعتداءات المنظمات الأوروبية المتطرفة ضد السكان المدنيين العزلّ ، إثر محاولتهم لخرق القصبة في ليلة 14 جويلية ، والتفجير الذي قاموا به في ليلة 10/9 أوت والذي تسبّب في قتل وجرح العشرات من أهلنا ، قرّرت مواجهتهم بنفس الأساليب . وأخبرها بأنّ مشروعا بصدد التحضير . سألتها « الخو » :

– هل أنت مستعدة للعمل مع المجموعات المسلّحة ؟

ردّت سامية : طبعاً ، كانت هذه أمنيّتي الدائمة ورسالتنا أنا وصديقتي زهرة . هل يمكن أن أحكي عن كل هذا لصديقتي زهرة ؟ أكيد أنك تعرف زهرة ، أو إن شئت الأخت فريدة .

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

قال « الخو » : نعم، يمكنك إخبارها، ولكن يجب أن تعلمي أن الأمر يتعلق بالقنابل وبالتطوُّع إلى الموت .

ردّت سامية : نعم، لقد فهمت جيّداً، ونحن موافقتان . ماذا يجب أن نفعل ؟ قال « الخو » : سنُتَّصل بكما لاحقاً لنشرح لكما ذلك في الوقت المناسب . من الآن فصاعداً، عليكم باحترام صارم للانضباط والسرية التامة . أتركك الآن، مع السلامة وحظ سعيد .

بقِيَت سامية بمفردها وفهمَت لماذا كان « الخو » هو القائد . أيّ فرق بين الشخص الذي أراحها وهو ينشّط جلسة المناقشة خلال طول مدة الغداء وبين ذلك الذي تحدّث معها على انفراد ! لم يبتسم الثاني ولم يبدُ متردداً ولا متلعثماً . عادت جميلة برفقة « أَخِيَّتِي » الرائعة . فأفرغَن الطاولة من بقايا الغداء وهنَّ يعلّقن على الأطباق المقدّمة في جوٍّ من المرح والضحك . وبعد ذلك أعلنَت جميلة لسامية بأنّ وقت المغادرة قد حان ، فرافقتها إلى غاية ساحة الحكومة حيث استقلّت الحافلة بأنّجاه سانت أوجين . نزلت في الموقف الذي يسبق موقف البلدية كي تمشي قليلاً وتهدّئ من غبظتها قبل الدخول إلى البيت ، وبلا جدوى ، فقد وصلت هائجة كبرغوثه ونجحت في نقل عدوى نشوتها إليّ . ذرفنا دموع الفرح والسعادة والامتنان للإخوة والأخوات الذين فتحوا لنا أذرعهم ووضعوا ثقتهم فينا ، وبالأخص لـ « الخو » الذي اختارنا ، نحن ، مناضلات القاعدة اللائي لم يقمن إلا بعمل اجتماعي مع عائلات الإخوة الذين صعدوا إلى الجبال أم سُجنوا ، أم عُدّوا من المفقودين ، أم قُتلوا في المعارك أو تحت التعذيب . كانت مهماتنا تتلخص في نقل طرود خفيفة أو ظروف بريديّة من مكان إلى آخر ، من بقالة أو حَمّام أو صندوق بريد داخل عمارة أو من رفّ في سوق الخضّر والفواكه وأحياناً من مزبلة عمومية . لم نكن نعرف فحوى تلك الطرود والظروف ولا هوية مرسلّيها ولا مستقبلّيها . وبعد

في قلب العمل المسلح

ذلك مباشرة، نجد أنفسنا في خضم جيش التحرير الوطني، إنه لشرف عظيم كدنا نفقد أمل الوصول إليه من كثرة انتظارنا له.

• بين حياتنا وأمننا الجزائر، اخترنا أمننا

يجب عليّ أن أشرح لماذا كان إدماجنا في المجموعات المسلحة بالنسبة إلينا أكثر من نتيجة مسعى ميؤوس منه، وإنما شرف عظيم خصّنا به « الحَاوَة ». كنا نقرأ كثيرا وتأثرنا أيما تأثر بالكتابات المتعلقة بالثورة البلشفية لأكتوبر 1917، والثورة الإسبانية والمقاومة ضد النازية. فقرأنا وأعدنا قراءة « الديمقراطية في أمريكا » لألكسي دي توكفيل، ابتداءً من نهاية المرحلة الثانوية، والمصير الذي أرادت فرنسا أن تحدّده لنا : مصير شبيه بهنود أمريكا من قبل الأوروبيين، والمتمثل في إبادةهم وتطهير عرقهم وتعويضهم بالسكان الأوروبيين. وهذا بالضبط ما أرادت أن تفعله فرنسا بالسكان الجزائريين عبر سياستها الاستيطانية، المرفقة بالمجازر والإبادات والمحارق الوحشية وسلب أراضي الأهالي الشرعيين وإعطائها للأوروبيين القادمين، وتحت الحماية العسكرية. ولتحقيق ذلك الهدف، جنّدت كامل جيشها الامبراطوري وقانون « وارنبي »، وقرارات مجلس شيوخها وقانون الأهالي (الأنديجينا)، الذي كان لا يزال ساري المفعول في 1956 برغم إلغائه في 1947. وكنا، سامية وأنا، مقتنعتين بأنه إذا تمكن شعبنا من تفادي مصير الهنود الحمر في أمريكا، فليس لأنّ فرنسا لم ترغب في ذلك بل لأنها فشلت في مسعاها. لم تتمكن فرنسا من ذلك لأنّ شعبنا قاوم الاستعمار وسياسة الاستيطان منذ الأمير عبد القادر وإلى غاية فاطمة نسومر، ومنذ بوبغلة إلى الشيخ الحدّاد، ومنذ بوعمامة إلى الزعاطشة... إلخ.

كان القرن 19 عندنا قرن مجازر واسعة الانتشار أسالت وديانا من دماء أجدادنا، وحرقت آلاف الهكتارات من الأراضي الخصبة والغابات قبل أن

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

تسلبها من أصحابها الشرعيين، وتخرب آلاف القرى والمداشر قبل حرقها. ولم يكن القرن 20 عندنا أفضل، وما مجازر 08 ماي 1945 و20 أوت 1955 إلا الشعلة التي ألهبت قلوب مكافحيننا الأبرار ليعلموها حربا عاصفة على الاستعمار ليلة أول نوفمبر 1954 والتي ما كان لها أن تتوقف أو تضحل أو تنطفئ قبل تحرير البلاد من نير الاستعمار. وكنا نعتقد دائما أنّ شقاءنا واستعبادنا وإنكار وجودنا كشعب وأمة حرّة، كان نتيجة حتمية لنظام الاستعمار الاستيطاني الذي فرضته علينا فرنسا وجيشها. وكنا نعتقد دوما بأنه من الأفضل لنا الموت بشرف الكفاح المسلح لاسترجاع كرامتنا وتحرير بلدنا أفضل بكثير من العيش تحت إهانة الاستعمار ومذلتة لنا ليلَ نهار. وكنا نؤمن بثلاث قيم عُليا : الحرية والكرامة والشرف، ثلاث قيم لا تمحى لأنها راسخة في طبيعة الإنسان، وهي القيم التي أثبتها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. وباعتبارنا شعبا مستعمرا بقانون الأنديجينا، فلا تعترف فرنسا لنا بأي حق من هذه الحقوق الثلاثة. هل يمكن القول بأننا، في نظر فرنسا، « أمّ الفنون والأسلحة والقوانين »، كنّا خارج الوضع البشري الطبيعي ؟ بكل تأكيد ! يكفي النظر إلى ما كان يعيشه شعبنا تحت نير الاستعمار، وقراءة الأدبيات المتنوعة وفي جميع التخصصات، المنتجة منذ 1830 وإلى غاية 1956، لنتأكد أنّ طبيعتنا كشعب يتكوّن من أشخاص بكامل حقوقهم الطبيعية، مرتبطين بحقوقهم المقدّس في الحياة الكريمة، ومساعدتهم الشرعي إلى الحرية والكرامة، لم تُذكر يوما ولا حتى تمت الإشارة إليها ولو من باب الإيحاء أو الافتراض. في أحسن الأحوال، كان الاستعمار ينظر إلينا كيد عاملة لأنّ اقتصادها بحاجة دائمة إلى أذرع رجالنا ونسائنا وحتى أطفالنا، فكان لزاما عليه أن يرمي لنا الفتات كي نتقوّ ونستطيع أداء العمل الشاق في الزراعة والصناعة والخدمات. فهل يمكن للأهالي أن يطمحوا إلى الحرية والكرامة كغيرهم من الشعوب ؟ وهل

في قلب العمل المسلح

تعتبر قيم الحرية والكرامة والشرف قيما تستحق تضحيتنا بالنفس والنفيس ؟ يمكن لهذه الأسئلة أن تشكل موضوعا عاديا لامتحان مقالة للثانويين في بلد حرّ ومستقل . بينما كانت بالنسبة إلى سامية وأنا رهان حياة أو موت، فرديا وجماعيا . وحتى على شكل تساؤلات ليس إلا، كنا نرى بأن الوحيد الذي يستطيع الإجابة هو ذلك الذي عاش مثلنا و « ذاق » ظلم واستعباد هذا النظام الكولونيالي لشعبنا .

لنأخذ مثالا عن « باتريس لومومبا »، الذي عاش بجسده وكيانه وبلده تحت ظلم الاستعمار، وعن فرد من بلجيكا أو من أي بلد أوروبي آخر، عاش بجسده وكيانه وبلده في كنف الحرية والاستقلال، ولنطرح عليهما نفس الأسئلة، أو إذا شئتم، لنستحضر روح محمود درويش وشعبه ومحتليهم الإسرائيليين، ولنطرح عليهم نفس الأسئلة . أو إن أردتم، لنوقظ فارسيا لوركا ونستدعي أميناتو حيدر، المناضلة الصحراوية الجديرة والتي يرزح شعبها تحت احتلال المغرب ونطرح عليهما السؤال نفسه . للأسف الشديد، يمكنني مواصلة ذكر الأمثلة إلى ما لا نهاية، طالما مازالت توجد شعوب وبلدان محرومة من حقها في الحرية والاستقلال . ولكن الشيء الذي أعرفه مسبقا، أنّ معاني الشرف والارتباط بمعنى الحرية لن تتخذ نفس الدلالة لدى الطرفين، وأن قيمة الحرية لن تكتسب معناها الحقيقي إلا على أفواه الذين عاشوا ظروف الظلم الحقيق والبشع التي سلّطت ومازالت تسلّط على الشعوب الضعيفة والمقهورة . وفي المحصلة، فإن هذه الظروف القاسية، اللاإنسانية، هي التي كنا نعيشها نحن الجزائريون في 1956، وذلك منذ 126 سنة . هذه هي الأسباب التي جعلتنا، سامية وأنا، على دراية بكل الرهانات المطروحة، وبحرية ضمير وقناعة راسخة، قمنا باختيار طريق « متطوعي الموت »، و« واضعي القنابل » أو إن شئتم « المُقنبلون » مثلما

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

سمونا فيما بعد . وكان مثلنا الأعلى في عمق أعماقنا في 1956 ولا يزال إلى اليوم : العيش في كنف الحرية والكرامة والاستقلال أو الموت . صحيح أنه من الموضة اليوم عند البعض ، في 2013 ، السقوط في المراجعة التعديلية ، ولو بشكل طفيف ، باتخاذ موقف تنكري ، محبب عند بعض الأوساط الفرنسية ، والذي يتمثل في التأسف والندم على وضع قنابل في أماكن عمومية يرتادها المدنيون الأوروبيون . إنه موقف يخفي المشكل المركزي للاستعمار الاستيطاني واعتبار المدنيين الأوروبيين آنذاك كسائحين يمرّون من الجزائر ، أو في أسوأ الحالات ، أوروبيين عندهم بعض الحقوق الطبيعية في بلدنا مكان أبنائه الشرعيين الذين هم الأهالي . ولكنني لن أتخذ هذا الموقف لأنني أمقت الكذب ومرافقه المراجعة التعديلية والإنكار لقناعاتي التي ضحيت من أجلها ورميت بنفسي في نيران الكفاح التحرري . فمهما كانت الجهة التي تُصدّر مثل هذه المراجعات ، فإنني لن أقبلها ولن أغيّر موقفي ، لأنني لم أندم أبداً على تلك الأفعال التي قمت بها ، لا في 1956 و 1957 ولا اليوم ولا في يوم لاحق . أتكلّم هنا باسمي وباسم صديقتي وأختي ، سامية لخضاري المتوفاة في صيف 2012 . بل أفضل من هذا ، إذا حصل اليوم – لا قدر الله – أن تعرّض بلادي لاحتلال من قبل قوة أجنبية ، أعرف أنني وبرغم شيخوختي ، بأسناني وأظفاري وعصاي التي أتكلّى عليها ، فسأكون ضمن أولئك الرجال والنساء (وأنا مقتنعة بأنّ شعبنا سيهبط كجسد واحد ضد أية محاولة احتلال أجنبي) الذين سيمنحون حياتهم لتحرير هذه الأرض الطيبة المقدّسة . بإعلانني هذا الموقف ، لا أقصد من ورائه أيّ تعصّب ولا أيّ تحدّ لأحد ، أحاول فقط أن أنقل فكرة وقناعة بسيطة مرتبطة بمفهوم المسؤولية .

في قلب العمل المسلح

في أوت 1956، قرّرنا، سامية وأنا، وبكل مسؤولية، أن نتحوّل إلى « متطوعات للموت » كي نحرّر أمّنا الجزائر التي سُلّبت واغتُصبت واختُطّفت منذ 126 سنة، نحرّرها أو نموت. كنا في ذلك التاريخ في مواجهة اختيار بين أمّنا وبين حياتنا، فاخترنا أمّنا مثلما فعل البير كامو، وفي نفس الوقت، لم نكن مثل كامو، أمام الخيار بين أمّه والعدالة، فضحّى بالعدالة واختار أمّه. وبالفعل، كانت أمّه هي موطنه فرنسا، وكانت ضد العدالة باعتبارها قوة استعمارية. بينما كانت أمّنا نحن هي الجزائر، وكان تحررها يمتزج مع العدالة، بل أفضل من ذلك، كان تحررها يمتزج مع العدالة والكرامة والشرف. أما بالنسبة للمدنيين الذين ماتوا خلال حرب التحرير الوطنية، وإن كانوا جزائريين، أقترح عليهم التوجّه إلى جيش التحرير الوطني ليطالبوا منه : « لماذا قُتلنا ؟ » أعرف أنّ جيش التحرير الوطني سيجيب : « إنّ أرواحكم جزء من الثمن الذي دفعناه ليكون بلدنا حرا ومستقلا ». وإن كانوا فرنسيين، أطلب منهم أن يتوجّهوا إلى السلطة الفرنسية ويسألوها : « لماذا متنا ؟ » ولا أعرف ماذا سيكون جواب السلطة الفرنسية، ولكنني أقترح عليها أن تردّ بالحقيقة الوحيدة المقبولة : « مُتّم لأنكم جزء من مئات الآلاف من الأوروبيين الذين استخدمناهم لاستعباد واحتلال بلد أجنبي، الجزائر، كي نشكّل جاليتنا الاستيطانية. ومهما كان الأمر، فلا أنسى جميع الفرنسيين الذين اختاروا العدالة وقيم الحرية والكرامة التي كانت أمّهم فرنسا تتشدّق بها والتحقوا بمعسكرنا. فإنني هنا أعبر عن شكري وامتناني لهم على مساعدتهم ومساندتهم وإلى الأبد. ولن أنهيّ هذا التوضيح الضروري الطويل دون التأكيد على قناعاتي العميقة : إنّ الحالة الوحيدة التي يملك فيها شعب ما حق وواجب رفع السلاح، حينما تعتدي عليه قوة خارجية وتحتل بلده. ويُسمّى هذا الدفاع الشرعي عن النفس، وهي الحالة التي كنّا فيها في نوفمبر 1954.

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

• التحضير المجسّد لأعمالنا الأولى في الكفاح المسلّح

في أوت 1956، بعد تفجير المتطرفين الأوروبيين للقنصبة ضد السكان المدنيين، قرّر ياسف سعدي أن يلحقنا، سامية وأنا، بالمجموعات المسلّحة كمتطوعات للموت. ولم نكن محضّرات للعمل المسلّح، ولا لوضع القنابل في الأماكن العمومية. وهل من الضروري القول أيضا أننا في الـ 22 من عمرنا، لم نَر في حياتنا سلاحا ناريا (خارج الأفلام طبعا)، ولا آلة تفجيرية، من أي نوع كانت. هذا عن الرؤية، أما عن اللمس والاستعمال، فذاك مآل بعيد. زيادة إلى أنّ الوسط الذي ترعرعنا فيه، كان يحمي المرأة من أي عمل شاق أو عنيف، ولم نكن مستعدات لدورنا الجديد الذي خصّه لنا جيش التحرير الوطني. لذلك، بقدر سعادتنا لأنّ « الخو » اختارنا للقيام بالعمل المسلّح، كان يعترينا نوعان من الخوف : أولهما ذلك الخوف الطبيعي، الضيف المزعج والحتمي، الذي ينتاب كل إنسان عند مواجهة خطر الموت، ولكننا استطعنا ترويض هذا الخوف بفضل عمل فكري استقينا طاقته من ثقافتنا الواسعة المليئة بالقيم والمبادئ المقدّسة والثقافة والمرجعيات المتعددة والمتنوعة، أمّنتها ذلك الشعار الذي كنا نردّده دوما : « هل حياتنا أفضل وأعلى من حياة زبانة ؟ ». في المقابل، كان الخوف الثاني أصعب للترويض بكثير، ألا وهو الإحساس بعدم القدرة على أداء دورنا الجديد على أحسن ما يرام، بل الخوف الأفظع من الفشل. إن ما أنقذنا هو طبع سامية العنيد والميال إلى التدقيق في كل صغيرة وكبيرة : فكانت تصرّ دوما على تفكيك وتحليل وتخيل وتخطيط أية مهمة قبل الشروع في أول خطوة، ولا تترك لا شاردة ولا واردة إلا وحركتها من جميع جوانبها، سواء تعلّق الأمر باللباس أو الحركات أو النظرات أو الأقوال. بهذه الطريقة، تمكّنا من ترويض هذا الخوف الثاني بل والانتصار عليه بالتحضير النفسي والفكري والسياسي الجيّد لمواجهة وضعنا

في قلب العمل المسلح

الجديد كـ « متطوعات للموت »، ونحن نواصل أداء المهمات الصغيرة التي كان مراد الصغير يكلّفنا بها، على انفراد أو معا. وكانت الأدبيات النضالية لجهة التحرير الوطني مفيدة جدا لتحضيرنا السياسي. وبالأخص المنشورات التي ورّعت قبل وأثناء وبعد إعدام زبانة وفراج والمنشور الذي يندّد بتفجير شارع طيبة في القصبة، واعداد بالانتقام لموتانا. ولكن النص الذي أّجج عاطفتنا هو دون منازع الرسالة التي بعثها زبانة لأمه عن طريق المحامي، والتي صوّرتها جبهة التحرير وورّعتها على أوسع نطاق.

لقد سبق لملك، أخ سامية الأكبر، أن جلب لنا من إحدى أسفاره إلى سويسرا، في أكتوبر 1955، عددا من المجلة الممنوعة الدخول إلى الجزائر، أسبوعية « لوْبَسْرَفاتور »، حيث نشرت المجلة حوارا أجراه الصحفي الشجاع روبير بارا مع عبان رمضان، ونُشر الحوار إلى جانب بيان أوّل نوفمبر 1954. وقد أخفت ماما زهور ذلك العدد من المجلة داخل خزانة المهية ذات المفتاح الذي لا يفارق صدارها. كان تكويننا في المدرسة الفرنسية، لذلك فمن الطبيعي أن نستمدّ بعد ذلك في مرجعيات فرنسا الحجج القانونية من الحقوق والواجبات والقيم العالمية والمبادئ الإنسانية للدفاع عن قضيتنا. ومن أجل ذلك، عدنا إلى المكتبة الوطنية، واستعرنا جميع الكتب التي قدّرتنا أنّها ستفيدنا في الموضوع وتغذي عزميتنا في الدفاع عن حريتنا واستقلال بلدنا، فأخذنا الكتب الكلاسيكية حول الثورة الفرنسية، وبالأخص كتاب المؤرّخ ميشلي وكذا جميع خطب دانطون وروبسبير وسانت جوست. وبما أنّنا كنا طالبين في القانون، فأعجبنا كثيرا بكتاب مونتسكيو حول « روح القوانين »، ونصوص كليمانصو التي أعطتنا إياها السيّد كزاغنيكي في القسم النهائي، وطبعاً، الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن لعام 1793 الذي حفظنا مادته الـ 35 : « عندما تخترق الحكومة حقوق الشعب، تصبح

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

انتفاضته وانتفاضة كل قسم منه، من أقدس الحقوق ومن الواجبات الأكثر ضرورة». كما أننا تجولنا عبر جميع قاعات السينما، بحثا عن أفلام حول مقاومة النازية. وبعد ذلك، أكملنا « غداءنا » بكتب أندري مالرو وفكتور سرج وكذا الأشعار والأقوال المأثورة التي كتبت في أوج المقاومة ضد الاحتلال الألماني، خاصة كتاب « الصخب واللغز » لشاعر المقاومة الأصيل « روني شار »، دون أن ننسى روايات الكتاب الجزائريين الجدد، الحريق لمحمد ديب، والربوة المنسية لمولود معمري ومقالات كاتب ياسين. وبما أننا كنا شبه أميات في اللغة العربية، فكانت معلوماتنا في هذا المجال لا تكاد تخرج عن الأناشيد الوطنية التي حفظناها عن ظهر قلب بفضل الكشافة الإسلامية : من جبالنا، جزائرننا، على السطيفية اللي ماتوا على حب الحرية... ولكن ماما زهور تمثل لوحدها جميع المرجعيات وجميع « الأطباق » التي كنا بحاجة إليها، ذلك أنني أعترف الآن، أننا، سامية وأنا، قد اخترقنا طوعية قانوننا من قوانين الجبهة الصارمة، رغم اقتناعنا بأنه لولا تلك الصرامة في الانضباط، لا يمكن لأي كفاح مسلح أن ينتصر على عدو شرس، قاسٍ ومصرّ على إبادةنا. ولكن لم يكن ممكنا أن لا نشرك ماما زهور في مشروعنا الكبير المقدس !

ما ينبغي معرفته هو أنّ جبهة التحرير الوطني، قبل مجزرة شارع طيبة في ليلة 10/9 أوت 1956، كانت تشتغل بمناضلين ومكافحين، جلهم من المدنيين، بعضهم يهتم بالعمل السياسي، والبعض الآخر يقوم بعمليات عسكرية ضد كل ما يمثل السلطة الاستعمارية ومصالحها : الجيش، الشرطة، المساعدين المسلحين، المنشآت الاقتصادية... إلخ. وحينما يقوم مكافحونا بتصفية أوروبيين مدنيين فلأنّهم متورطون في عمليات عسكرية ضد شعبنا أو قاموا هم أنفسهم بقتل أفراد من ذويها. إنها حالة التنظيمات الأوروبية المتطرفة وكذا معاونيهم من الأهالي في خدمة السلطة الكولونيالية. فقبل الاعتداء التفجيري

في قلب العمل المسلح

على شارع طيبة بالقصبة، لم تكن جبهة التحرير ولا جيش التحرير يملكان القنابل ولا مخابر صناعتها، ولا مختصين في إتقانها ولا مناضلين مهيّئين لوضعها في الأماكن العمومية. حينما قبلنا، سامية وأنا، بإرادتنا وقناعتنا (أكّرر)، أن نُلحق بـ « مجموعات المتطوعين للموت »، لم تكن منظمنا تملك أي نوع من « مدارس التكوين » ولا « مراكز التحضير والتعبئة » مثل الجيش الفرنسي وحلفائه، لم تكن لدينا حتى حصص لاجتماعات متخصصة لتحضيرنا، ولا كراسات لترشدنا. لا أعترف بهذه الأشياء اليوم لإدانة منظمنا، بل العكس هو المقصود ! وهذا يعني أننا كنا مناضلين ومكافحين لقضية مقدّسة مرتبطة بتحرير وطننا، ولسنا مجرمين أو قطاع طرق، مثلما كانت تسمينا السلطة الاستعمارية وصحافتها. وهذا يعني أيضا أن اعتداءاتنا بالقنابل كانت جوابا جدّ ضروري ولكنه غير مسبوق التفكير إطلاقا، وردّة فعل على الاعتداءات بالقنابل التي قام بها المتطرفون الأوروبيون ضد سكاننا المدنيين العزل، زيادة إلى أنّ الحرب ومجازرها لم تصب إلا شعبنا وفي أحيائه، فيما بقيت الأحياء الأوروبية بعيدة عن أيّ عنف، ويعيش سكان هذه الأحياء حياة هانئة وجميلة في « مدينتهم » التي تحميها أرماذا من العسكريين ورجال الشرطة.

أقصد باعترافي هذا، بعد سبع وخمسين سنة، إلى إيضاح الأسباب الحتمية التي أدّت بنا، سامية وأنا، إلى إلحاق ماما زهور، شريكتنا الحنونة وحاميتنا الفضلى دوما، بمجرد أن أدمجنا ياسف سعدي ضمن المجموعات المسلّحة، دون أن يكون على علم بذلك طبعا. بالفعل، ربما لم أتحدّث بما فيه الكفاية عن الدور العظيم لماما زهور في اكتساب وعينا ونضجنا، ولكن أيضا في تجنيدنا وتمتينه. إنها تُشخص قوة مثلنا الأعلى والحصن الحصين ضد كل زارعي الشكوك وتثبيط العزائم. وعلى العكس منا تماما، لم تكن ماما زهور بحاجة إلى قراءة سانت جوست ولا دانطون ولا مونتسكيو. كانت تمثّل جميع

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أولئك وأزید، وهي تحدّثنا یومیا عن وضع أمتنا قبل 1830 وما سنكونه بعد استقلالنا : شعب حرّ، کریم ومستقل فوق أرض عجنها وأخصبها أجدادنا وسقوها بدمائهم الزكية. وكانت تنقل إلینا باستمرار إرادة الکفاح بلا کلل، والأسباب التي تجعلنا لا نشكّ أبدا في استقلالنا الحتمي، وكذا قوة البقاء کرماء وواقفين حتى في أحلك الظروف مثلما حدث عند توقيف قائدنا في أفريل 1956. كما لعبت نساء أخريات دورا مشابها في حياتي. وألمعن هي خالتي باية، والدة جميلة بوحيرد، جدّتها یامنة وأُخيتي زوجة عمّها، دون أن أنسى لالة بلحّفاف. سأحتفظ في قلبي وإلى آخر نفس في حياتي، بحبّ كبير لهذه النساء – الكنوز وأعتبر أنّ لقائي بهنّ كان أجمل هدية ربانية في حياتي. لقد قلت إذا أنا، سامية وأنا، وبعد أن أدمجنا في المجموعات المسلّحة، أخبرنا فورا ماما زهور. فبدأت المرأة المؤمنة، والتي تمارس شعائرها الدينية بخشوع، بدأت بالقسم على نسختها من المصحف الشريف أن تحتفظ بالسرّ مثل القبر. ثمّ، وبصوت متأثر ومليء بالقلق على حياتنا، شرحت لنا بأنّ القدر هو الذي دفع بـ « الخو » إلى اختيارنا لهذه المهمة المقدّسة. وأنّ مصيرنا كفدائيات كان قد سطره الله لنا ويجب تقبله وعيشه كشرف وامتیاز رباني : « إنّ الله هو الذي اختارکما، ويجب الخضوع لإرادته والعمل بكل مجهودکما من أجل النجاح ». اقترحت علينا مشاركتها في تحضير وتنفيذ المهمات إلى جانب ابنتها، فقبلنا. وهو الاختراق الثاني لقوانين الجبهة الصارمة. ومن حسن حظنا أنّ منظمتنا لم تكن « نقابة للجريمة » مثل تنظيم المتطرفین الأوروبيین، ولا ميليشية سرية فاشية في خدمة المخابرات الفرنسية مثل « اليد الحمراء »، التي تخضع لقوانين غیر إنسانية في مجالي الانضباط والعقاب في حالة العصیان. كنا ننتمي إلى منظمة من المناضلين أغلبهم شباب، إنسانيون، يطفحون حياة ویحبون العیش الکريم، يدفعهم إلى النضال

في قلب العمل المسلح

شغفهم بالمثل المقدس المتمثل في تحرير بلدهم وشعبهم من ربقة الاستعمار، ومستعدون للتضحية بحياتهم لتحقيق هدفهم النبيل. تستمد منظمتنا قوتها من صحة ونبل وشرعية مثلها الأعلى، ومن انغراسها في أوساط شعبنا الذي يحمله ويحميه بدفع الثمن الباهظ المشكّل من المحاصرات والمطاردات والتمشيطات والمداهمات والتوقيفات والتعذيب الآلي المطبق على نطاق واسع والإعدامات بأحكام قضائية وبدونها، ومن كامل الآلة الحربية التي تهدف إلى إخماد تمرّدنا تحت صيغة « عمليات الحفاظ على النظام » المزينة. تستمد منظمتنا طاقتها من الشعب وتشتغل وفق مخطط محدّد في مجالي الانضباط والسرية، ولكنها تبقى منفتحة وتستمع إلى كل اقتراح يخصّ طرائق العمل. وهذه هي نقطة قوّتها الثانية : الثقة في روح المبادرة والاختراع لمناضليها الذين يعرفون جيّدا أسرار الميدان. لقد امتحنتنا المنظمة، سامية وأنا، ونجحنا في تطبيق تلك الخصوصيات الرائعة، وتمّ إدماجنا في المجموعات المسلّحة وفق تلك النتائج، في وقت أخضعت القوات الفرنسية المشتركة من جيش وشرطة الأحياء العربية إلى نظام من الرعب ابتداءً من سقوط الليل، بمداهمات المنازل وتوقيف آلاف المدنيين وسجنهم وقتلهم وتعذيبهم، دون حساب الاعتداءات التفجيرية التي نفّذها المتطرفون. ولتكسير هذا الطوق الجهنمي، كان من الواجب نقل الحرب إلى المدن الأوروبية كي يغيّر الخوف معسكره. ولكنّ قليلا من إخواننا يمكنهم الولوج إلى الأحياء الأوروبية دون لفت انتباه الشرطة وأعوانها، فناهيك عن تنفيذ مهمات عسكرية بها والخروج منها سالمين. إن الحالات النادرة التي حاول فيها بعض الفدائيين تنظيم عمليات بهذه الأحياء، لم يتمكنوا من النجاة بجلودهم لأنّ السكان الأوروبيين المدنيين طاردوهم شرّ طردة ورجموهم إلى حد الموت، بل قُتل بعضهم برصاصات أطلقها هؤلاء المدنيون. لهذه الأسباب جميعها، فكّرنا بأنّ إدماجنا في المجموعات المسلّحة

مُذْكَراتٌ مُجَاهِدَة من جيش التّحرير الوطنيّ منطقة الجزائر المستقلّة

يسمح لنا بالقيام بمهمات داخل هذه الأحياء لأنّ بإمكاننا الذوبان داخل السكان المدنيين الأوروبيين وتنفيذ مهمات مع احتمالات قليلة لتوقيفنا أو تصفيتنا.

لقد استمع ياسف سعدي جيّدا إلى رسالتنا واستجاب لها، لهذا نُكَنّ له كامل الشكر والاعتراف. زيادة إلى أنّ « الخو »، باعتباره قائدا مسؤولا ومحترما لمناضليه، كان يسمح لنا بالمشاركة في اختيار الأهداف التي سنقوم باستهدافها في اعتداءاتنا المقبلة. لهذا، فبقدر ما كنا واعيات باختراق قوانين المنظمة الصارمة، إلا أنّنا كنا نبررها بالقول أنّنا لا نعرّض في هذه الحالة إلا حياتنا، سامية، ماما زهور وأنا. ذلك أنّنا لا نعرف شيئا عن أحوال المنظمة وأشخاصها. فبدأنّا نحضّر جدّيّا لمهماتنا ونحن نتجوّل داخل الأحياء الأوروبية خلال كامل أسبوع أوت الأخير والأسابيع الأولى لشهر سبتمبر. فبعد مراقبة دقيقة، اخترتُ مقهى « الملك بار » في شارع إزلي، فيما مال رأي سامية إلى « الكافيتيريا » في شارع ميشلي، مقابل الجامعة. وكان « الملك بار » رمزا للحادثة الكولونiale في خدمة الأوروبيين، ولامبالاتهم الشاتمة، واستخفافهم بشقائنا وعجرفة السلطة الاستعمارية، ولأنّ هذا المقهى / الحانة يحاذي ساحة بوجو، باسم ذلك الجنرال السفاح الذي حاول إبادة شعبنا في القرن 19. أما الكافيتيريا، فتمثل مكان الالتقاء المُحبّد عند الشباب الأوروبيين الأثرياء، وبالأخص طلبة التنظيمات المتطرفة الذين عرفناهم جيّدا في الجامعة. وعلمنا فيما بعد أنّ جميلة اختارت مقرّ الخطوط الجوية الفرنسية لما يمثله من رمزية فرنسا الرسمية التي نمكّتها جميعا. نقلت سامية اختيارينا وقبّلهما « الخو ».

وبعد ذلك مررنا إلى المرحلة الثانية المتمثلة في دراسة أدنى تفصيل يخصّ أهدافنا، محيطها وروادها. ثمّ جاء دور اختيار الملابس المناسبة، وحقائبنا اليدوية، والأحذية وتسريحة الشعر والماكياج. ساعدتنا ماما زهور بحسّها وتجربتها في هذا الميدان، فاشترينا فساتين صيفية وأحذية وحقائب متناسقة

في قلب العمل المسلح

ومن النوع الرفيع وقصدنا أفضل صالون للحلاقة جعل منّي « بروتانية » حقيقية، كما جعل من سامية « كورسيكية » حقيقية أيضا، بفضل تسريحة الشعر وقصّه. أما الماكياج، فلم نكن نعرف دقائقه لأننا، سامية وأنا، لم نتجمل أبدا، فتكفّلت المعنية به في صالون الحلاقة، بمساعدة ماما زهور، وأعطت لنا الأدوات اللازمة وشرحت لنا أسرار تجميل خفيف وفعال، وطبقت نصائحها الثمينة على وجوهنا. وبما أننا دفعنا مبلغ التسريحة والتجميل كاملا غير منقوص، فاقترحت علينا أن نعود إليها لنستفيد مجانا ببعض التعديلات إن كانت لذلك ضرورة.

في 28 سبتمبر، أخرجت جميلة وسامية القنابل الثلاثة الأولى من القصة، حيث قام الأخ طالب عبد الرحمن بصناعتها (والذي سوف نتعرّف عليه لاحقا)، لإخفائها في شقة تقع برقم 5 من شارع « بوغيلي لاصابي » في باب الواد. في تلك الفترة، كانت القصة محاصرة، ومعزولة عن بقية العالم ومسيّجة بأسلاك شائكة تتخلّلها نقاط مراقبة عسكرية تُخضع للتفتيش جميع الأشخاص المشبوهين، أي جميع المارين لأن جميعهم عرب، والعربي مشبوه ومتهم بالطبيعة. فكانت عملية نقل القنابل الثلاث مهمّة محفوفة بالمخاطر وتتطلّب شجاعة وبرودة دم والتحكم في النفس. وكان « الخاوة » يراقبون عن بعد الأختين جميلة وسامية ومستعدين للتدخل في حال حدوث أي مكروه. ولكن الأختين نفّذتا المهمة بنجاح باهر. حكّت لي سامية أنها عندما وصلت إلى آخر نقطة مراقبة، طلب منهما حارس عسكري ماذا تحملان في حقبيتيهما، فردّت سامية مبتسمة: « قنابل طبعاً ! ». ففقهه العسكري برفقة سامية وجميلة من المزحة الطريفة، فمرّت الفتاتان الجميلتان الأنيقتان المبتسمتان عبر نقطة التفتيش بكل سهولة، مستعجلات للوصول إلى شاطئ البحر مثلما صرّحتا بذلك وبصوت مرتفع لمجموعة العسكريين الفرنسيين

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الجاثمين فوق مركبة « الجيب »، فقال أحدهم : « أنتما محظوظتان ». فردّت سامية : « ما عليكم إلا المجيء معنا ! »، ولكنهم تأسفوا لعدم إمكانية مغادرة الخدمة ! وحكت لي سامية كل تلك التفاصيل مساء 28 سبتمبر، وهي لا تزال متأثرة ومعجبة بشجاعة أختنا جميلة وبرودة دمها وتحكمها في النفس وسرعة بديتها.

• أخيرا وصل اليوم الحتمي : آخر أحد من شهر سبتمبر 1956

خضعتُ لتمرين سامية المفضل : أن نتدرّب مسبقا على جميع الحركات والإيماءات والأقوال والسلوكات التي يجب أن نسلکها يوم الأحد 30 سبتمبر بين الساعة السادسة زوالا و25 دقيقة، والسادسة و30 دقيقة والسادسة و35 دقيقة، وهو تاريخ وضع القنابل الثلاثة التي تمّ تحديد أوقاتها. تعرّفنا على العنوان بباب الواد منذ قرابة الأسبوع، فكان لدينا الوقت الكافي لدراسة أفضل مسار واقتراحه على « الخو » كي يصادق عليه ويُدخل التعديلات المحتملة، ثم تدرّبنا على حساب وقت قطع المسار بالدقيقة. فقطعنا المسافة مرارا مشيا على الأقدام، من باب الواد إلى الهدف المسطر لكل واحدة منا، نحمل حقيبة يدوية وحقيبة ثانية لا يقل وزنها عن خمسة كيلوغرامات. وأخيرا جاء اليوم المحتوم لآخر أحد من شهر سبتمبر 1956.

وصلنا في الوقت المحدد إلى الطابق الأول من 5 شارع « بوغيلي لاصابي » حيث توجد الشقة – الملجأ، التي نجت من بحوث الشرطة خلال توقيف مختار بوشافة، مسؤول جميلة السابق. ولهذا، كانت جميلة تملك نسخة من مفاتيح الشقة. كنّا في بداية الظهيرة، وكان اليوم دافئا وجميلا، يصلح للشمس على شاطئ الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، ولذلك فلم نصادف أحدا في سالالم العمارة، ولا في ردهة الطابق الأوّل حيث كان موعدا. دققنا على

في قلب العمل المسلح

الباب حسب الكيفية التي اتفقت حولها سامية وجميلة. انفتح الباب ودخلنا إلى شقة بدت لي في أول وهلة غير مأهولة. فتعرّفت بسرعة عن الفتاة التي فتحت لنا الباب : إنها تلك التي جاءت تنتظر سامية قرب سوق « لالير » ذات صباح من شهر أوت والتي تأملتُ جمالها فيما عكسته لي الواجهة الزجاجية لصيدلية بوكردونة. تبادلنا سامية وجميلة القبل كما تفعل صديقتان قديمتان سعيدتان بلقائهما. قدّمتني سامية باسم الأخت فريدة، فاستقبلتني جميلة بدفء وأخوة تثلج الصدر، هي التي تبدو عليها صفات اليُسّر والأناقة واللفظ الطبيعية. فرحّبت بي بحفاوة ظاهرة، بصوتها الفخم الفريد وبوابل من الكلمات والعبر التي كانت تنزل عليّ كشلال من نور. كان ذلك أوّل اتصال لي مع اللغة الراقية والنبرة الثمينة الفريدة من نوعها لمولودات القصبة، فانبهرتُ حينها وتخلّصتُ من الضجر الذي كان يلاحقني منذ ساعات الصباح من ذلك اليوم ومن خجلي المرضي. دعتنا جميلة، وهي تتصرّف بعفوية وثقة في النفس، إلى متابعتها نحو الغرفة الوحيدة المضياء. فدخلنا إثرها إلى غرفة واسعة كانت نوافذها مغلقة والنور الكهربائي مشتعلا. هناك في زاوية، وُضعت طاولة قاعة الأكل بكراسيها الستّة، وفي المقابل أريكة كان رجل يقربها منحنيا ومنشغلا بأداء مهمة لا أرى تفاصيلها جيّدا. كان الرجل شابا، أسمر البشرة، ويشعر فحامي وعينين سوداوين. قدّمته لنا جميلة باسم سي رشيد (رشيد كواش)، وكان يعرف سامية. بعد أن حيّانا، عاد إلى وضعيته السابقة مقرّصا على ركبتيه مقابل الأريكة. استغرق مني وقت طويل كي أعرف ماذا كان يفعل في تلك الوضعية المنحنية، خاصة وأنّ سامية كانت تشدّني من فستاني كي أجلس قائلة لي : « زُهرّة، ليس هذا وقت الأحلام، يجب أن نكون مستعدات ». كنت أرغب في الردّ عليها : « ولكننا على أهبة الاستعداد ! ماذا تريد أن نفعل أكثر من هذا ! » ولكنني لم أقل

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

شيئا، لأنَّ شعورا بلاواقعية غريبة انتابني فجأة كما لو أنني كنت أمثل في فيلم سينمائي. فجأة، تسارعت وتيرة الفيلم ولكن إلى الوراء، منذ صبيحة ذلك اليوم المصيري وإلى اليوم الذي بدأنا فيه تحضيرنا. كنا قد استيقظنا باكرا، سامية وأنا، وقمنا بتلك الحركات اليومية العادية، وتقضينا فكرة أن يكون ذلك اليوم هو آخر يوم من حياتنا، أم اليوم الذي يحدّد بقية كفاحنا ووجودنا. لم نكن نجهل بأن نسبة نجاح المهمة تتساوى مع نسبة فشلها. زيادة إلى أنَّ الفشل كان يكتسي صيغا متعدّدة، أسوأها أن يتم توقيفنا ونتعرّض للتعذيب. لهذا، كان ينتابني شعور قوي وعزم على النجاح. كان علينا وضع القنبلة، والعمل على أن لا يكتشف وجودها أحد قبل انفجارها، ثمّ التصرف بحيث لا يتم توقيفنا أبدا.

ابتداءً من اللحظة التي وافق « الخو » على اقتراحاتنا، قرّرنا أن لا نترك شيئا للصدفة. وبدأنا بدراسة وملاحظة أهدافنا في مختلف أوقات النهار مع العناية القصوى لتفادي إثارة الانتباه. إن الكافيتريا التي جعلتها سامية هدفا لها مكانٌ راقٍ، مقابل للجامعة، حيث يُعدّ مركز التقاء الطلبة المتطوّرين وأصدقائهم في كامل أوقات النهار. فكانوا يتّصفون بالعُنجهية والهيمنة، ويعرضون ثراءهم وقوتهم وقناعاتهم. يمثلون فعلا الأعداء الشرسين لشعبنا ومُثل استقلالنا العليا، إنهم الصوت الناطق لأولئك الذين يرفضون أن يروا فينا « شعبا آخر » بشريا مثلهم وإنّ اختلف عنهم، أولئك الذين تسمّيوهم ماما زهور « أعداءنا وأعداء رسولنا »، أولئك الذين اقترَف تنظيمهم الإرهابي الاغتيالات والتفجيرات بالقنابل ضد المدنيين العزل، تلك الجرائم التي دفعتنا إلى تحضير هذه المهمات الرهيبة. ذهبنا إلى ضواحي الكافيتريا في مختلف أوقات النهار ودخلنا ذات يوم، مقنعات بشعر اصطناعي، كي نلاحظ بدقة المكان المناسب لإخفاء قنبلة. وُضعت مقاعد جلدية على طول الجدار إلى غاية

في قلب العمل المسلح

الزاوية القائمة ؛ ورُصِفَتْ إزاءها طاولات دائرية وأرائك جلدية ذات المقعد الواحد. تأكّدنا خلسة بأنّ فراغا يوجد تحت المقاعد، وذلك بترك محتوى إحدى حقيبتينا اليدوية يسقط أرضا، فانحنينا للتقاطه. ثمّ قدّرنا عمق ذلك الفراغ بنظرة دقيقة. كما سجّلنا بأنّ الكافيتريا تمتلئ عن آخرها بين الساعة الخامسة والثامنة مساءً، وهي نهاية أيام الصيف المتوسطي. فدقّقت سامية الحريصة دوما على أن لا يفوتها شيء ودرست جميع المواقع المحتملة والتي يمكن أن تتعرّض لها مع أجوبتها المحتملة أيضا. ولم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وعرضتها للمناقشة والتمحيص، إلى غاية كيفية دخولها عرين المتطرفين فراقبت المستهلكين والنادلين وكذا نوع الفتيات المرتادات إلى المقهى : ألبستهن وكيفية ارتدائها وتعاملهن مع الآخرين وطريقة مناقشتهن وتجاوزهن وتسريحات شعورهن... دقّقت في كل شيء، بهدف تقليد ما يمكن تقليده في اليوم المحتوم. في حقيقة الأمر، وجدتُ صديقتي مفرطة في احتياطاتها، مع أنّي مقتنعة بأنّه من الضروري أن لا نترك شيئا للصدفة. ولكنني أيضا، كنت أفكر بأن علينا أن نترك هامشا من اللامتوقّع ومن حبة الرمل غير المتخيلة كي لا نؤخّذ على حين غرّة إن لم نحسن المواجهة السريعة. انتهيتُ إلى أنّه من واجبنا ومن الضرورة بمكان أن ننمّي برودة أعصابنا وثقتنا بنفسنا والتحكم في أعصابنا، تاركين كل حواسنا يقظة مترقبة وقادرين على التغلب على عدوّين : الخوف والهلع، قد ينتجان عن وضعية غير متوقعة يوم الحسم. في تلك اللحظات، غادرتُ سامية ذهنيا وسافرتُ لأجد نفسي في القسم النهائي خلال درس الفلسفة الرائع للسيدة كزاغنكيكي حول « الرواقية » وموت سيّسرون الذي أجبره نيرون على تمزيق شرايينه. هكذا يحتضر سيّسرون، صبورا، هادئا، ورائقا، يعيش موته الخاص ثانية بعد أخرى بدون حتى إطلاق تنفس. أرجعتني سامية من سفري الذهني والتي تريد مرة أخرى أن تحسّب

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وقت المسافة بين الكافيتريا وموقف الحافلة للعودة إلى سانت أوجين. وكانت الوضعية التي كان يجب مقاومتها في مقهى « الملك بار » مختلفة تماما، إنَّ المقهى حديث النشأة، ويحتل الزاوية التي يشكلها شارع إزلي مع زقاق فرعي على اليمين، يتعامد مع منحدر « بوجو » ويحيط جزءاً من ساحة بنفس الاسم. وفي الجهة المقابلة، يقع مقر القيادة العامة للجيش الكولونيالي. وكان شارع إزلي، الذي تقطعه تلك الساحة الصغيرة، يتواصل طوله عبر مقهى « طونظونفيل » والأوبرا والسكوار بريسون. لقد صُمم « الملك بار » كي يمنح لزبائنه إيهام التواجد في الخارج. كانت جدرانها الجانبية كلها بالزجاج ومنفتحة على الخارج عبر باب شفاف يفتح على شارع إزلي، وعبر باب ثانٍ شفاف أيضا يفتح على زقاق جانبي، وُضعت على رصيفه الطاولات والكراسي وواقيات الشمس، يشكّل شرفة للمستهلكين الذين يريدون التمتع بالجو الجميل وبالسكوار. وبعد مراقبة دقيقة للهدف خلال فترات مختلفة من النهار، اتضح لنا بوضوح أنَّ الصعوبة الكبرى تتمثل في إيجاد مكان بالداخل لوضع القنبلة دون أن يُكتشف أمرها بسرعة. بالفعل، كان « الملك بار » نموذجاً جديداً للاستهلاك الحديث، مكيفاً بحيث يسمح للزبائن بالتمتع بالمشروبات الباردة وأنواع أخرى من الثلجات بأثمان معقولة لدى عودتهم من الشاطئ. كانت المساحة الداخلية ضيقة نوعاً ما وتتمثل في مستطيل يحدّده جدار من المرايا يعكس صور المستهلكين الواقفين عند المصرف. ولاحظتُ أنَّ مجموعة من المقاعد المرتفعة ذات الأقدام الحديدية الطويلة، لا يتجاوز عددها الأربعة، كانت مسندة إلى المصرف ولكن الزبائن لا يستخدمونها للجلوس، مفضلين الوقوف. وكان عمال المقهى يستجيبون بخفة للطلبات، اثنان خلف المصرف والثالث للقاعة والشرفة.

في قلب العمل المسلح

ففهمت بسرعة أنّ الإمكانية الوحيدة التي ستسمح لي بوضع القنبلة في مكان آمن هي انتقاء مكانٍ للجلوس على أحد المقاعد الطويلة الأقدام، قرب المصرف مباشرة، ووضع حقيبة الشاطئ التي أحملها معي بين أقدام المقعد ودفعها برجلي نحو المصرف، متمنية أنّ لا يلاحظ المستهلكون شيئاً، هم الذين تكون الشمس قد سكرتهم وأعماهم إحساسهم بالسلم والرفاهية، فيما يخضع ذوونا للتمشيط المهين والمجازر الوحشية. كما أدركت أنني سأكون مجبرة على تأخير لحظة مغادرتي المقهى إلى أقصى حدّه قبل انفجار القنبلة والخروج من الباب المنفتح على شارع إزلي، لأنّ الباب الثاني يكون مزدحماً بالطاولات وبالمستهلكين الكثير. تقاسمت سامية معي النتائج التي توصّلت إليها. ولكنني رفضتُ أنّ أشوش ذهني وأضعف من هاجسي، إن ناقشت معها النقطة التي ما فتئت تؤرّق ضميري، وهي ضيق القاعة الداخلية وعدم وجود أدنى مكان لوضع حقيبة القنبلة التي وصفتها لي سامية بالضخامة المفرطة، وقد لاحظنا ذلك منذ مراقبتنا الأولى من الرصيف المقابل، ثمّ تأكّدت خشيتنا حين دخلنا لشرب عصير. بقي لي أن أدرس محيط « الملك بار » والمسافة التي سأقطعها راجلة من شارع « بوغيلي لاصابي » في باب الواد وإلى غاية هدفي، وذلك باختيار أفضل مسار آخذة بعين الاعتبار نقاط مراقبة الشرطة والجيش، وكذا الدوريات المتنقلة وكثافتها وعددها، وأخيراً حساب وقت المسار بالدقيقة، وكذلك فعلت سامية وجميلة. وعندما حان اليوم المحتوم، كانت كل واحدة منا على دراية كاملة بما ينبغي القيام به، ابتداءً من حمل الحقيبة التي تحوي القنبلة، والمسار الدقيق الذي سنسلكه راجلات، والأماكن التي يجب تفاديها والسلوك الذي يجب اتخاذه عند كل وضعية، ثمّ تخيلها لمرات عديدة. « اللّبي فيه الخير، ايجيبو ربّي » هذا ما كنت أردّده صبرة، ينتابني إحساس قوي بالنجاح.

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

في صبيحة 30 سبتمبر 1956، تقدّمنا، سامية وأمّها وأنا، إلى صالون الحلاقة الراقي « روكي » في شارع إزلي، غير بعيد من « الملك بار » لمشط خفيف والرتوشات الأخيرة للماكياج، تماما كما اقترحته علينا الموظفة قبل يومين. على الساعة الحادية عشر. كنا قد رجعنا إلى سانت أوجين حيث خصّصنا بقية الوقت لتحضير بذل « متطوعات الموت ». كانت بذلتي جميلة ملفتة للانتباه، وهي عبارة عن فستان صيفي بحمّالات تبرز نصف الجسد الأعلى، تضيق قليلا عن الخصر ثمّ تتسع إلى نهايتها في دائرة مقوّد فوق القدمين بحوالي عشرة سنتيمترات. كان لونها أزرق شفافا، بتخطيطات قماشية بيضاء، يتناسب جيدا مع حذائي الصيفي ذي اللون الأبيض، وبكعبين مدعّمين بمادة الفلين، وكذا حقيبتني اليدوية الصغيرة بنفس اللون. كان فستاني البوهيمي ومستلزماته في ريح الموضة لصائفة 56. عند الارتداء التجريبي، تبين لنا أن الألبسة مع تسريحة الشعر والماكياج ستديننا كلية ضمن الشباب الأوروبي الراقي، بل وضمن أغناهم. في منتصف النهار، تناولنا غداءنا مع والدَي سامية، اللذين أعجبنا بهدوءهما وسكينتهما، فيما كانت أحشائنا تعصر لفكرة أنّ خبرا مفاجعا قد ينزل على العائلة في نهاية الظهيرة، سواء بالموت أم بإيقاف إحدانا، أو الاثنان معا، أو ثلاثنا، لأنّ ماما زهور سترافق ابنتها إلى الكافيتريا. مسكين القاضي لخضاري ! في الساعة الواحدة والنصف زوالا، ارتدّينا ألبستنا، وبما أنه من غير المعقول أن نخرج بتلك الملابس الأنيقة من منزل القاضي لخضاري، ارتدينا فوقها مآزر عريضة وطويلة.

حينما فتحت لنا جميلة الباب بعد ساعتين، في شقّة باب الواد، كنّا، ثلاثتنا، نتنأّس أناقة وجمالا. لذلك يستحيل على الأوروبيين الذين أعمّتهم عنصريتهم أن يكتشفوا فينا « فاطمة » استيهاماتهم. بمجرد أن جلسنا حول الطاولة المقابلة للأريكة التي انحنى عليها سي رشيد والذي التحقت

في قلب العمل المسلح

به جميلة، خطر على بال سامية أنْ تدربني مرة أخرى على الكيفية التي سأدخل بها إلى « الملك بار »، وأجلس وأضع قنبلتي وأتسلل لمغادرة المكان قبل عشر دقائق من لحظة الانفجار. كانت تريد أن تعرف ما نوع المثلجة التي سأطلبها، وإن كنت حَضَرْتُ المبلغ المحدد للدفع، مع إضافة البقشيش اللازم، كي أحافظ على مظهري كفتاة بورجوازية نظرا للباس الأنيق الذي دخلت به. انزعجتُ ورفضت الانصياع إلى أمرها، ولكن سامية، بعنادها، ألحَّت شارحة أنْ هدفي كان أصعب الأهداف الثلاثة بسبب ضيق المكان وشفافية جدرانها الزجاجية، دون نسيان قربه من مقر قيادة أركان الجيش. عندئذ، بدأت وعلى مضض تكرار ما سأفعله بعد ساعات قليلة فقط، ولكن صديقتي لم يرضها تكراري الأول، وطلبت مِنِّي أن أقف أمامها كتلميذة ابتدائية وأحفظ درسي بحماس ظاهر، مقلدة الحركات التي من المفترض أن أقوم بها داخل « الملك بار »، متخيلة أن الطاولة هي المصرف الذي سأخفي عند أسفله القنبلة، وهي ما فتئت تكرر بنبرة جادة : « يجب أن لا نترك لا شاردة ولا واردة إلا ودرسناها جيّدا ». وفي تلك اللحظة، ثارت أعصابي فلم أتمكن من السكوت وأخبرتها بأنني قد درست كل تفصيل، بما في ذلك احتمال وجودي في وجه وضعية غير منتظرة بتاتا، وأنني في هذا الحالة سأقرّر لحظتها وفي عين المكان ما يتوجّب عليّ فعله ؛ المهم في كل هذا هو أن أحافظ على برودة أعصابي، وأن أبقى هادئة ولا أترك الخوف والهلع يهيمنان عليّ. وأضفت بأن علينا أن نتوقف عن التدريب من أجل هذا الهامش الصغير من المجهول الذي قد يصادفنا أثناء أداء مهمتنا. هنا، تعالت ضحكات جميلة وسي رشيد اللذين تناسينا وجودهما، وأوقفت نقاشنا السريالي. كانا واقفين، مكتوفي اليدين، وينظران إلينا بابتسامة متسلية، وقد شاهدنا منظرا سيبقى مشهورا لدى الإخوة، وإلى غاية بن مهيدي نفسه. حينئذ، أخبرنا سي رشيد أن

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

القنابل جاهزة وموضوعة داخل حقائب الشاطئ. كان توقيتها محسوبا بحيث يؤخذ بعين الاعتبار الوقت الضروري للمسافة بين باب الواد وأهدافنا في وسط « الدزاير »، وجلسنا داخل المقهى وطلب مشروب ودفع ثمنه ومغادرة المكان. ذكرنا سي رشيد بأن قنبلتي ضُبطت على السادسة و25 دقيقة، وقنبلة سامية على السادسة و30 دقيقة، وقنبلة جميلة على السادسة و35 دقيقة. وقد أُلح أنه من الحتمي علينا مغادرة المكان قبل ثمانٍ أو عشر دقائق قبل وقت الانفجار والابتعاد فورا بأطول مسافة مُمكنة. ثم أضاف بأن الجبهة تضع ثقتها الكاملة في أشخاصنا وأنها على ثقة تامة بأمل نجاح مهماتنا، وتمنى لنا حظا سعيدا. خلافا لسامية وجميلة، لم أحظَ برؤية القنبلة إلا في ذلك اليوم : مقلمة خشبية طويلة وعريضة، وبدخلها جهاز ميكانيكي صغير لا أفقه في تفاصيله شيئا، سوى المنبّه الغليظ الدائري الشكل ؛ الكل يزن ثلاثة كيلوغرامات. لم يسبق لي أن رأيت قنبلة في حياتي، وكنت فخورة بمعرفتي أنّ صناعتها قام بها إخوة لنا وأنّ للجبهة كثيرا من المختصّين في صناعة القنابل والمتفجرات أمثال سي رشيد.

كانت جميلة هي أول من خرج لأنّ مقر الخطوط الجوية الفرنسية هو الأبعد من باب الواد. حَضّنتنا بين ذراعيها وقالت : « حظا سعيدا ! ربّي يكون معنا ! » ثمّ التفتت إلى سي رشيد وقالت : « إلى اللقاء، حُو ! » بعد حوالي عشرين دقيقة، حان دور سامية لمغادرة ملجئنا. قَبَلتُنا، أخذت حقيبتها اليدوية وحقيبة القنبلة وقالت لي : « تشجّعي ! سنلتقي بعد قليل إن شاء الله ! » أحرصني التأثر لأنني كنت أفكّر : « ربّما كنت أراها للمرة الأخيرة... »، وكى لا أبكي، أدّرت وجهي إلى النافذة. فبقيت وحدي مع سي رشيد، ولكن في الحقيقة لم أكن أراه، نسيته، وأنا منهمكة في تذكر فقرات من الرسالة التي بعثها زبانة إلى أمّه، بهدف استعادة رباطة جأشي والتركيز على مهمتي. لذلك، تفاجأت عندما سمعته يقول : « إنه وقت

في قلب العمل المسلح

الخروج، اخْتُو ! ». آهٍ على كلمة « اخْتُو » الساحرة ! صفعتني هذه الكلمة الطافحة بالتضامن الإنساني والأخوة الحنونة، وأعادَت إليَّ قوتي وحمَّستني أكثر من ذي قبل. عندئذ، التفتت بعفوية نحو « الخو » الجديد، قبَّلته وقلت له : « ربِّي يكون معنا ! »، أخذت قنبلتي، فتحت باب الخروج ونزلت السلالم، وحقيبة الشاطئ تتدلى على كتفي اليمنى مثلما يحملها شباب ذلك العهد. كانت كلمة « اخْتُو » ترقص في رأسي وأحسست بأجنحة تنبت في ذراعيّ، وأنا ممتلئة بجميع أنواع « الخو » و « اخْتُو » المتواجدين على وجه الأرض.

• وها قد أصبحنا "مجاهدات حقيقيات"

اليوم، أجد صعوبة لإعادة تشكيل عبوري تلك المسافة بين باب الواد وشارع إزلي حيث يوجد « الملك بار »، في قلب المدينة الأوروبية والسلطة والجيش الفرنسيين. بدا لي أنّ وجود الكائن البشري تعبُّره لحظات من القوة والفظاظة بحيث يعيشها كما لو كانت غير واقعية، أو كما لو كان هو تحت التخدير. لقد عشت تلك اللحظات، ولكنني لم أتمكن من التعبير عنها. كنت أعرف وكنت متأكدة من شيء : ما كان يقودني هو التطلُّب الأقصى، الواجب المقدّس لنجاح مهمتي كي لا ييأس شعبي.

فجأة رأيت « الملك بار » مقابلا لي، كلّه بياض وشفافية ولمعان. وصلني ضجيج أحاديث الناس، فرحين، والضحكات والهتافات وشبابية بعض الأصوات، والألوان التي لا تزال صيفية، وعطور محلات الحلويات بل وحتى زقزقة الطيور البعيدة في سكوار بريسون. لفّتنني كل هذه الصور والأحاسيس ورافقتني إلى داخل « الملك بار ». دخلت عبر الباب المنفتح على شارع إزلي، الأقرب إلى المصرف والأقل ازدحاما. من حسن حظي، كان مقعد الوسط ذو الأقدام العالية شاغرا. توجَّهت نحوه بهدوء، جلست فوقه ووضعت الحقيبة الثقيلة

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

على الأرض، أمامي، بين ساقَيَّ، وأحذيتي على الدائرة المعدنية التي تحوط أقدام المقعد المرتفعة. وضعت حقيبتَي اليدوية الصغيرة أمامي على المِصْرَف. عَادَت إلى ذهني التعليمات الأولى : يجب أن أبدأَ زبونة طبيعية جاءت لتشرب عصيرا وتستريح بعض الوقت. أَلْقَيْتُ نظرة حولي : كانت طاولة لاصقة إلى جدار المِرآة وبالضبط عند المدخل. لاحظتُ شخصين جالسين، وخلف ظهري مباشرة، تزاحم نفر من الزبائن، رجالا ونساءً. ومقابلا لي، يشغل نادلان بمآزر بيضاء، وفي آخر المِصْرَف، يجلس القابض على مقعد ذي أقدام عالية مثل الذي أجلس عليه. كانت التعليمات صارمة : مغادرة المكان قبل عشر دقائق من لحظة الانفجار. لقد وصلت قبل 25 دقيقة، وفي نفس الوقت، قدّرت أنّ خمس عشرة دقيقة مدّة طويلة تمكّن الحاضرين من ملاحظة حضوري. طلبت مثلجتي، وضعت ذراعي اليسرى على حقيبتَي اليدوية، بحيث يكون إطار ساعتَي باستمرار تحت بصري وأنظر إليه دون لفت الانتباه، فلم أثق في الساعة الحائطية المعلقة أمامي. قدّم لي النادل كأس الثلج بسرعة وبدأت في استهلاكها. عندما جلست، تركت فستاني البوهيمي الطويل يحيط ويخفي المقعد كلبية، بحيث أستطيع تمّتين حقيبتَي القنبلية مع أسفل المِصْرَف خلسة، وأنا أرسم ابتسامة خافتة أعبرُ بها عن مُتعتي وأنا أتناول مثلجتي كأية فتاة أوروبية. تأكّدت مرة أخرى بأنّ حقيبة الشاطئ كانت ثابتة ولا تتحرّك عندما أنزل من المقعد العالي. بدأ ينتابني الهلع حينما اكتشفت فجأة أنّ رقاص ساعتَي يدور بسرعة بدّت لي غير عادية. لم يبقَ لي من الوقت إلا تسع دقائق كي أدفع ثمن المشروب الذي كان قابعا داخل حقيبتَي اليدوية، وأنصرف بهدوء. دفعت المبلغ وأنا أرّدّد : « الصّبر، الصّبر ». قبل سبع دقائق من الانفجار، تركت نفسي أنزلق بهدوء من المقعد العالي، لممت حقيبتَي بهدوء وقطعت الخطوات القليلة التي تفصلني من الباب المنفتح على شارع « إزلي ».

في قلب العمل المسلح

كنت أحسّ بيدٍ غير مرئية تسحق رقبتني، وأقاوم ضد ساقبي وقدمي كي أفرض عليها السرعة التي تليق بفتاة هادئة تعود إلى بيتها، فعرجت يمينا وتجاوزت الشُرْفة الضاحجة الواقعة في الهواء الطلق، وسلكت الزقاق الفرعي الذي قادني مباشرة نحو مُنحدر « بوجو ». أجهدت نفسي لأمشي بكيفية عادية ولكن رقبتني كانت تتصلّب أكثر فأكثر، ورأسي يغلي ويريد أن ينفجر في مكان الطرد الذي تركته قبل دقائق في « الملك بار ». أجهدت نفسي أكثر لأقطع المنحدر المؤدي إلى شارع واجهة البحر وركوب الحافلة باتجاه سانت أوجين. كنت أمشي ورأسي داخل قيد حينما هزّني انفجار قوي، متبوع بكسر الزجاج. كنت أرتعش بكامل جسدي، فأدركت أنني مشلولة وعاجزة عن التقدم. كان رأسي فارغا، وأطرافي لا تستجيب لرغبتني في التحرك والمشي، ولم أكن أسمع شيئا. أردت الجلوس في عين المكان، على الرصيف. ولكن رؤية الناس يصرخون ويركضون في جميع الجهات أعادت الحياة إلى جسدي، فأدركت أنني قد وصلت إلى نهاية مُنحدر « بوجو »، مقابل السلالم التي تؤدي إلى شارع طَنْجَة. تذكرت أنّ صديقة للعائلة، السيّد « كو » تسكن على بعد أمتار من هناك. وفي الوقت نفسه، كانت فكرة واحدة تدقّ في رأسي : « يجب العودة سالمة إلى سانت أوجين. إنه جزء من مهمّتي ». وبلا تفكير، سلكت السلالم المؤدية إلى شارع طَنْجَة. كان أغلب سكان ذلك الشارع في النوافذ والشرفات يتحدثون ويتصايحون في وقت واحد. مررت وسط هذا الحشد الضاح دون أن ألقى نظرة إليهم كي ألج مدخل عمارة السيّد « كو ». كانت في نافذة صالونها المنفتح على شارع طَنْجَة، رأيتني فتعرّفت عليّ وطلبت مني بحركات واضحة أن أعود إلى شقتها. استقبلتني وجذبتني إلى الداخل، وأغلقت الباب بالقفل وهي تتساءل عن السبب الذي تركني « أتسكع » خارج البيت في هذه الساعة المتأخّرة وفي هذه الظروف

مُذْكَراتٌ مُجَاهِدَةٌ مِنْ جَيْشِ التَّحْرِيرِ الْوُطْنِيِّ مِنْطَقَةُ الْجَزَائِرِ الْمُسْتَقْلَةِ

المضطربة. قادتني إلى المطبخ وقدمت لي كأس ماء وهي تسألني إن كنت أعرف المكان الذي وقع فيه الانفجار.

السيدة « كو » : « إنَّ مكان الانفجار ليس بعيداً من هنا، لقد اهتزَّ زجاج نوافذنا. أنتِ شاحبة يا بنيتي، خذي، اشربي. ولكن، أين كنتِ ؟ »
أنا : « شكراً. كنت في قاعة العمل وحينما خرجت سمعت الانفجار. عندئذ، أحسست بالخوف و... ».

السيدة « كو » : « حسناً فعلت. يجب أن تقضي ليلتك هنا. أنا قلقة على قريبي أندري الذي لم يعد بعد من الشاطئ. راح يقضي يومه عند أختي في كَسْتِغْلِيون (بو اسماعيل)، ربّما تعرفينها، تلك التي تملك محلاً لبيع لحوم البقر والخنزير ».

أنا : « اطمئني سيديتي، كَسْتِغْلِيون في الجهة الأخرى من « الدزاير »، في غرب سانت أوجين. سيعود أندري عبر الحافلة التي ستحطّه في ساحة الحكومة ».

قلت كل هذا وأنا عائمة في ضباب قطني يفصلني عن مضيّفتي وعن العالم.

اعتذرت السيدة « كو »، وتركتني جالسة إلى طاولة المطبخ وركضت تستخبر الأمر، فاتحة نافذة الصالون.

تصاعدت صيحات من الشارع، ووصلت إلى مسامعي جُمل الحشد الغاضب، والتي ردّدها السيدة « كو » : « الأوباش ! الأوباش ! القنبلة في « الملك بار » ! إنها مجزرة ! أسمع صغارات الإنذار ؟ أووه ! الملك بار ! ولكنه مقابل قيادة أركان الجيش آووه ! الأوباش ! القتلة ! »، عادت السيدة « كو » تاركة النافذة مفتوحة. لم تتوقف عن الكلام وعن إبداء سخطها ضد « جماعة الأوباش »، و « جماعة القتلة » الذين تجرّؤوا على الهجوم على

في قلب العمل المسلح

« الملك بار الجميل واللطيف ». ثم ركضت ثانية إلى النافذة قائلة بأن هناك جديدا. عادت بعد لحظات أكثر اضطرابا وهي تفرك يديها : « يا مسيحي الحنون، يبدو أن قبلة أخرى انفجرت في شارع « ميشلي » ! لا نعرف المكان بالضبط. يبدو أن الجيش التحق بالشرطة وأغلقوا جميع منافذ شارعي إزلي وميشلي. سأكلّم مارفريت، أنا متأكدة بأنها ستخبرنا ». استعدت رباطة جأشي وأنا أسمع جملة « قبلة أخرى انفجرت في شارع ميشلي »، فخفق قلبي بسرعة وفكرت أن سامية وماما زهور قد نجحتا أيضا. وجميلة؟ يا إلهي، إن ساحة « موريتانيا » حيث الخطوط الجوية الفرنسية هي الهدف الأبعد. دعوت من صميم قلبي كي تنجو أخواتي الثلاث، سامية وماما زهور وجميلة. التفتت، كانت السيّدة « كو » - وهي فرنسية من فرنسا، جاءت حديثا من ضاحية باريس - تتكلّم في الهاتف مع صديقتها مارفريت، زوجة ضابط في الجيش الكولونيالي. أيقظتني هذه المعلومة الأخيرة، وأعادتني إلى رشدي. وقفت، اتجهت عند السيّدة « كو »، شكرتها بحفاوة على لطفها وشرحت لها بأنه عليّ الخروج فوراً للالتحاق بالحي الجامعي بن عكنون قبل سقوط الليل، لأكمل بحثي الجامعي المستعجل. حاولت إقناعي بالبقاء، مخبرة إياي بأن الجيش أغلق جميع المنافذ المؤدية إلى شارعي إزلي وميشلي. طمأنتها بالقول أنني سأتوجّه إلى الجهة المقابلة، نحو ساحة الحكومة، حيث يوجد موقف الحافلات المؤدية إلى بن عكنون، نفس المكان الذي سيصل إليه قريبها أندري من كستغليون. شكرتها ثانية على حفاوة استقبالها لي، ونزلت عبر السلالم لأجد نفسي في شارع طُنْجَة حيث يتزاحم حشد هستيري من النساء والرجال، من كل الأعمار. تصرخ أصوات : « الأوباش القذرون ! لا يفوتون أيّة فرصة لإساءتنا ! » « الجرذان القذرون ! سيدفعون الثمن ! يجب أن يدفعوا الثمن غاليا ! الأنذال ! سنكسر شوكتهم، سنسحقهم، الجرذان

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

العفنين !»، « يجب توقيف الجميع ورميهم في السجن كالكلاب !»، « يجب إبادتهم ! إنّ أفضل عربي هو عربي ميت، أقول لك !»، « يجب جمعهم ورميهم في البحر، أقول لك !». كان الشارع غاصا بمثل هذا النوع من الناس الغاضبين ؛ كان الحقد والعنصرية يخرجان من جميع الأفواه، ويلطّخان الجدران والإسفلة، فتسلّلت عبر الأجساد الناقمة ومفاصلي ترتعد فالتحقت بالطرف الآخر من شارع طُنْجَة وعَرَّجت عبر زقاق فرعي إلى غاية قصر العدالة ثم واصلت طريقي مسرعة إلى غاية ساحة الحكومة. كان الصراخ والتهديد بالانتقام يطاردانني كضُراة وإلى غاية المحكمة، وأنا أحاول التملّص للابتعاد عنهم بالمشي السريع والرأس الخفيض وأنا أكّرر مع نفسي : « نحن أيضا نعرف صناعة القنابل وتفجيرها، نحن أيضا نعرف كيف ننقم لقتلانا !». كنت متوترة وجسدي كله يرتجف. بدأ الليل يخيم على المدينة وينفث في نفسي إحساسا بأنه يمكن لي أن لا أكمل المرحلة الأخيرة من مهمتي : الرجوع إلى البيت سالمة. في المسافة بين قصر المحكمة وساحة الحكومة، على الواجهة البحرية، مرّ بقربي رجل يجري بسرعة البرق، متبوعا بثلاثة رجال أوروبيين، بنية الإمساك به. أُرعبني المشهد واحتميت بتجويف باب جانبي. توقّف الأوروبيون الثلاثة بعد أمتار قليلة، وقال أحدهم لاهتا : « فلنتوقّف هنا، لقد اتّجه نحو باب عزّون ؛ بعد ثلاثين ثانية، سيكون الجرذ وسط أهله ؛ ولكنني سأمسك به، وأفجّر وجهه القذر ! سأفجّرهم جميعا ! لا يمكن لأحدهم أن يمر حيا بقرب فندق « الأليتي !»، قال لي ثانيهم وهو يراني محتمية بتجويف الباب مرتعدة الأوصال : « لا تبقي هنا يا آنسة، ألاحظ ماذا فعل هؤلاء الأوباش ؟ الآن، يضعون القنابل في ديارنا ! القذرون ! الكلاب ! ولكنهم سيدفعون الثمن غاليا، غاليا جدا !». لم أنبس بكلمة، استأنفت مشيي السريع فورا، بصري ملتصق بالأرض، أشدّ حقيبتَي اليدوية بقوة كما لو أنّ حياتي متعلقة بها، وصوت داخلي يجيبني : « ياله من حقد ! ياله من

في قلب العمل المسلح

حقد ! ». وصوت آخر يجيبه : « ها قد دخلنا حربا شاملة، بلا رحمة. إنَّ قنبلتك لم تُحدث من الأضرار ولو واحدا في المليون من الجرائم التي ترتكبها قنابلهم ودباباتهم يوميا ضد القرى والأرياف، دون حساب قنابل النابالم التي تحرق مداشرنا وجبالنا، ولا تفرّق بين العباد والحيوانات والنباتات والغابات، ولا تترك إلا الدمار والخراب والموت. لذلك، فتقدّمي، تقدّمي ! يجب الوصول سالمة معافاة إلى سانت أوجين ! ».

وصلت إلى الحافلة وركبت بداخلها دون تفكير ولا تردّد. لم تكن هناك أمكنة شاغرة للجلوس، فبقيت واقفة أنظر إلى « الجامع الكبير » و « الجامع الجديد ». فكّرت : « إنهما شامخان، لا ينهران ! ». انطلقت الحافلة، وكانت الساعة السابعة و45 دقيقة. ألقيت نظرة مختلصة حولي : جميع المقاعد محتلة، وأنا وحدي الواقفة. لا أحد يتكلّم... خيم على الجو صمت مضجّر... الأبصار غائبة، منشغلة بصور بعيدة، الرؤوس منخفضة، ولا أحد ينظر إلى جاره، بل يتجنّب كل واحد لقاء النظرات الأخرى. كان الخوف يتسرّب من الأجساد، خوف الآخر. وكان خوفي يكاد يُلمَس : ما مصير سامية وماما زهور ؟ هل هما على قيد الحياة ؟ هل هما ميتتان ؟ هل تمّ توقيفهما ؟ وجميلة، ما مصيرها ؟ هل تمكّنت من الالتحاق بالقصبة ؟ كنا في آخر أحد من سبتمبر 1956، أحد دافئ جميل، ولكن الشوارع المقطوعة كانت شبه فارغة، وكذلك كانت شواطئ بادوفاني وسانت أوجين وشرفاتهما التي تكون في العادة غاصة بالناس إلى غاية العاشرة ليلا. حينما وصلنا إلى الموقف المحاذي لبلدية سانت أوجين، لم يبقَ في الحافلة إلا عدد قليل من المسافرين. نزلت وبدأت أصعد السلالم المؤدية إلى شارع صالفاندي حيث تسكن سامية في الرقم 9، في فيلا جميلة بحديقة في الخلف، أما نوافذ الصالون وغرفة صديقتي فكانت تنفتح على الشارع. بمجرد دخولي إلى الشارع صالفاندي، رفعت بصري وتعرّفت على سامية منحنية على درابزين الشرفة، وهي تحدّق

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

نحو مفترق الطرق الذي جئت منه. اختفت مباشرة ففهمت أنها خرجت تنزل السلالم كي تفتح لي الباب الخارجي. تعانقنا بحرارة لا مثيل لها، نتبادل القبل واللمس، كما لو أننا نتأكد بأننا لا نزال على قيد الحياة، ولكننا عاجزان عن نطق حرف واحد. التحقت بنا ماما زهور عند مدخل الباب. في تلك اللحظة، انهارت قواي وجلست عند أسفل السلالم، غير قادرة على الكلام وعلى ردّ دموعي. جرّتني ماما زهور لأنّ ساقّي عجزتا عن حملي، ودفعتنني إلى البهو ثم أدخلتني إلى « بيت القعدة » ومددتنني فوق فراشية سميكّة موضوعة على الزربية. طلبت من سامية التي كانت تبكي معي أن تُدلك صدغيّ وراحت تُحضّر ماء الزهر. دلّكت جبيني ووجهي ووضعت ضمادات على عينيّ. فأحسست بالراحة تعود إلى جسدي المنهك. ساعدتنني على شرب كأس ماء منعش وهي تردّد : « في رأسهم ! في رأسهم ! الحمد لله، لقد نجحت. الحمد لله، لقد نجحنا. ربّي معنا ». وأضافت : « من الطبيعي أن تجهشي بالبكاء. لقد عشت ضغطا كبيرا لم تعرفيه من قبل، فالبكاء في هذه الحالة يساعد على الراحة واستعادة النفس. ولكنك ملأت قلوبنا رعبا، لماذا قضيت كل هذا الوقت للعودة إلى البيت ؟ هل حدث لك مشاكل ؟ على كل حال، المهم في كل هذا أنك عدتِ سالمة معافاة. وقلبي مع نفسك أنّك نجحت في أداء مهمتك النبيلة والصعبة. اليوم، أنت مجاهدة حقيقية، مكانك في جنة الرضوان ». وأضافت دون أن تترك لي وقتا للردّ أو للتعليق : « يا بنيتي، هل لديك معلومات عن أختنا الأخرى، جميلة هذا هو اسمها، أليس كذلك ؟ هل تعرفين ماذا حدث معها ؟ المسكينة، مهمتها صعبة للغاية. ولكنني متأكّدة من أنها تكون قد نجحت هي أيضا. ربّي يحفظها ويغلبها على أعدائنا، مثلكما تماما. الآن، قوما اغتسلا وغيّرا ملابسكما، لقد حان وقت الأكل ». التحقت بالمطبخ، تاركة إياي وجهها لوجه مع سامية.

في قلب العمل المسلح

دامت أزمة بكائي خمس دقائق كاملة، بقينا صامتتين لحظة، وأكد أن فكرة واحدة كانت تُشغل بالينا : وجميلة ؟ لم تكن لدينا أية وسيلة، خارج مساعدة مراد، للدخول في اتصال معها. ما يعني أننا مجبرتان لانتظار نهار الغد للذهاب إلى البقال للاستخبار. وما يعني أيضا أننا سنخترق تعليمة الانضباط التي أعطيت لنا بعدم الخروج إلى أن تتصل بنا « المنظمة ». فجأة، وقفت سامية، وساعدتني على الوقوف على قدمي وقالت ضاحكة : « الآن، نحن مجاهدات حقيقيات، ننتمي حقا وحقيقة إلى جيش الظلام ».

• لا نولد مكافحات، وإنما نصبح كذلك

كنا متأثرتين، فامتزجت دموعنا بضحكاتنا، وكعادتها دائما، وجدت صديقتي بأننا لم نحضر مهمتين كما ينبغي للتحضير الجيد أن يكون، ودليلها في ذلك أننا لم ندرس الكيفية التي سنتصل بها ببعضنا لنتأكد من أن الجميع سالم معافى. وقد أعطت سامية إشارة بأنها على أحسن ما يرام برغم الضغط الكبير الذي عشناه في تلك الظهيرة. وقلت لها لأطمئنها بأن مراد و « الخاوة » كانوا بقرب محيط الأمكنة المستهدفة، وإن حدث، لا سمح الله، أي مكروه لجميلة، لكان أحدهم قد أوصل لنا الخبر حتما. وبرغم هذه الكلمات المعقولة، كان الضجر يقضم أحشاءنا وينغص راحة بالنا. سألت سامية : « كنت أقرب مني من ساحة موريتانيا، ألم تسمعي شيئا ؟ ». ردت قائلة : « لا، لم أسمع شيئا، ولا حتى انفجار قنبلتي أنا، ولا قنبلتك أنت. عندما كنا نمشي، ماما زهور وأنا، نحو موقف الحافلات، ووصلنا قرب « دار الطلبة » (في شارع عميروش الحالي)، سمعت دويًا خافتا، صاما. ففكرت أنها قنبلتي أنا لأن الكافيتريا مكان مغلق على نفسه، جدرانها مغطاة بالخشب ومقاعد جليدية. ولكن عندما وصلنا إلى الموقف، سمعنا أوروبا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

جاء من الجهة المقابلة، يصرخ شاتما ناقما : « الأوباش، الأوباش، لقد فجّروا الملك بار ! »، مما سمح لنا بالفهم بأنها كانت قبيلتك . ابتداءً من تلك اللحظة، كانت رغبتنا الجامحة الوصول إلى البيت بأقصى سرعة ممكنة، ونحن نأمل أن نجّذك قد سبقتنا . آه، تذكّرت، لماذا كل هذا التأخر ؟ لقد كدنا نموت قلقا عليك » . شرحتُ لها : « خلافا لكما، انتظرت أن أسمع الانفجار وأحسّ به يهزّ كياني، في وقت كنت في طرف منحدر « بوجو » لألتحق بفندق « أليتي » وأتوجّه إلى ساحة الحكومة، أظن أنّ الهلع قد تمكّن منّي وأدركت أنه من غير الممكن أن أواصل التقدّم دون أن يلاحظني أحد، فركضت عند السيّدة « كو » في شارع طُنْجَة » . شحّبت سامية من الرعب وقالت : « ماذا فعلت أيتها البليدة ؟ ماذا دهاك ؟ هل جننت ؟ ذهبت إلى فوهة الغول ! مع أننا كنا قد تدربنا على كل شيء، مرارا وتكرارا، وأنا تخيلنا وخططنا لهذه اللحظات منذ شهور ... » . فشرحتُ لها كيف وجدت نفسي في حالة غريبة من الإحساس بالضبابية، نصف مشلولة، عاجزة حتى عن المشي، ورأسي يعصره قيد مؤلم وفكرة واحدة ترج بذهني : أن لا توقفني الشرطة . كنت واعية بحالتي غير الطبيعية، وخشيت أن يخونني مظهري، فدلّفت إلى أول مكان أعرفه، وختمت بتلك الحبة الرملية غير المتخيلة، غير المتوقعة، والتي سبق أن حدّثت صديقتي عنها حينما كانت تصر على دراسة كل شاردة وواردة، وعلى تخطيط كل التفاصيل .

توجد تجارب في حياة الإنسان لا يفهمها جيّدا إلا عندما يعيشها على أرض الواقع، كمن يحرق يده مثلا أو يعيش تحت احتلال نظام استعماري استيطاني . ويمكننا الحديث مطولا عن الموضوع وتعبير كتب كاملة، ولا يمكن معرفتها في واقعها العميق والدقيق، في حقيقتها الجوهرية . فقلت لسامية : « كيف يمكن لي معرفة حقيقة قبيلة أضعها في مكان عمومي وتنفجر دون أن

في قلب العمل المسلح

أقوم بتجربة فعلية ؟ كيف يمكن لي معرفة رد فعلي بالضبط بعد الانفجار لولا أنني عشت التجربة بنفسني في منحدر « بوجو » ؟ . ثم أضفت : « مهما يقوله أعداؤنا، فلسنا قتلة ولا مجرمين أفظاها وبلا رحمة. إننا نساء ورجال، نطفح إنسانية، ولا نخلو من التأثير ومن العواطف الإنسانية النبيلة. ولا ينبغي نسيان أن الحب هو دافعنا الحقيقي : حب هذه الأرض وهذا البلد وهذا الشعب وحرية، هذا هو حب الحياة الحقيقي. زيادة إلى أننا لا نولد مكافحات وإنما نصبح كذلك مع الزمن ». وافقت سامية على كلامي واعترفت أنها لم تكن ستعرف كيف تتصرف لو لم تكن أمها معها، وحكت لي كيف تصرفت ماما زهور في الكافيتريا : « لا تتوقف أمي من إدهاشي الدائم. عندما وصلت إلى الكافيتريا قبل ثلاثين دقيقة من اللحظة المبرمجة للانفجار، وجدتني جالسة في المكان الذي اخترناه سويا قبل أيام قليلة، وفنجان قهوة موضوع أمامها وجريدة « لاديباش دالجي » مفتوحة أمام عينيها. لو رأيته، لأقسمت بجميع المقدسات أنها متعودّة طوال حياتها على ارتياد مثل هذه الحانات ! تخالينها دوقّة بارمّة بشعرها الرمادي، في تلك التسريحة الكلاسيكية الرائعة، المزيّن بسلسلة من اللآلئ، و"طايورها" الرمادي الشفاف ! بدا لي كما لو أنّ ذبذبات الحماية الأمومية تشع منها وتعدي كل من في محيطها. استقبلتني وهي تنهض من مقعدها وتقبلني وطلبت لي مشروبا باردا. ثمّ دفعت ثمن ما استهلكنا بعد أن تأكّدت أنّ حقيبتها القنبلية في مكان آمن. وقبل 12 دقيقة من توقيت الانفجار، أشارت إليّ بالوقوف وغادرت المكان، تشدّ ذراع كل واحدة منا خصر صاحبتها. هي التي كانت تطبع السرعة لخطانا، هادئة، منطلقة، كما لو أنّ الحياة تبتسم لها اليوم وإلى الأبد. كنت بكامل كياني تحت حمايتها الواقية وأنا أتخيّل خالاتي القسنطينيات الأرستقراطيات وهنّ ينظرن إليها وهي جالسة داخل الكافيتريا ؛ لالة زهور، مثلما يسمونها، تجلس

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

إلى طاولة فرنسية، حاسرة الرأس، في « طايور قاوُريّة ! » يا له من عار ! ». ضحكتُ طويلا لقصة سامية ولكن صدري بقي منقبضا، فنهضت لأغتسل وأغيّر ملابسِي كي أُمْنَح لجسدي راحة أكبر بداخل « عباية » داخلية. وبعد ذلك، جلسنا بقرب المذيع الضخم الذي يتصدّر زاوية من زوايا « بيت القعدة » كي لا نفوّت الجريدة الناطقة لأخبار الثامنة مساءً، وحينها سمعنا قفل الباب يفتح من الخارج. قفزت سامية وراحت مسرعة تستقبل أباهما وتستحلب منه آخر الأخبار التي يحملها، ولكنّه صعد مباشرة إلى غرفته كي يغيّر بذلته الأوروبية بالجلابية العربية الواسعة، تاركا إيانا على أحر من الجمر. ثمّ نزل يلتحق بنا وتمدّد على الفراش، يسند رأسه بذراعه الموضوعة على مكدتين الواحدة فوق الأخرى. ودون أن ينتظر أسئلتنا، قال : « انفجرت قنبلتان في نهاية الظهيرة، واحدة في شارع ميشلي، والثانية في شارع إزلي. مجاريح كثيرة وربما موتى. لَقُور كالمجانين. هذه المرّة، « الجماعة » (جبهة التحرير الوطني) ضربت ضربة قوية، وخاصة « في عقر دارهم »، في قلب « أحيائهم » التي يظنونها محمية، إنهم كالمجانين فعلا. الله يستّر ! عرف قصر القائم العام حركة حثيثة، مدنيون، عسكري، شخصيات... الله يستّر ! الله يستّر ! ». قاطعته سامية بقولها أنّ القنابل يمكن أن تكون من فعل « اليد الحمراء » كي تحرّض قمعا أكثر ضد المسلمين وزيادة من المداهمات في الأحياء العربية، مثل القصبة، بلكور... إلخ. ولكن الأب لحضاري لم يكن موافقا، لأنّه أجابها على الفور : « لا، لا، لا ! كان الهلع باديا على جميع الوجوه، وكلهم قد تفاجأوا من الانفجارات. لا ! أكيد أنّ الفعل قام به « الخاوة »، وسينتقم الجيش والشرطة بكيفية شرسة، رهيبة. الله يستّر ! » وكعادتها، لا تستسلم صديقتي بسهولة، فقالت : « كيف يمكنهم التأكيد الحاسم بأنّ الفاعلين هم من ذوينا ؟ ألمّ يتهموا ظلما جبهة التحرير بارتكاب تفجير القصبة،

في قلب العمل المسلح

فيما يعلم الجميع أن المتهمين الحقيقيين هم المتطرّفون الأوروبيون وبتواطؤ من الشرطة والجيش ؟ « تحرّك الأب لخضاري قليلا، والذي لم نكن نرى منه إلا رأسه الجميل بلون الرضيع والشعر الأبيض والعينين البرّاقَتين الموغلتين في محجريهما، وعبر عن تشاؤمه فيما يخص قدرة الإنسان على التصرّف السليم حول مستقبله، فقال بسخريته المعهودة : « آه ! نتحدّث عن تفجير القصة، في الأسابيع الأخيرة لا حديث في « الدزائر » إلا عن القَسَم الذي وعدت به جبهة التحرير بالثأر لقتلى شارع طيبة. وأرى أنّ فكرة الانتقام خطأ جاسم، بل وأراه كارثة ستعصف بنا جميعا. الله يستر ! ». وهنا فتح المذيع كي يتابع أخبار التاسعة، وأظهرت ماما زهور رأسها من الباب لتطلب منا تحضير المائدة للعشاء. كان والد سامية لا يؤمن بقدرة الإنسان على تغيير مصيره، ولا في حرية أفعاله. حينما يذكر طفولته وشبابه في الأوراس، ومساره إلى حين تقلّده منصب قاضي « الدزائر » الأعلى، يفعله بكثير من السخرية وبنبرة يأس كما لو أنه يقر بأن لا فضل له في ارتقائه إلى ذلك المنصب، وبأنّ كل صغيرة وكبيرة في حياته « تسطير رباني »، مكتوب وقضاء وقدر. هذا كل ما في الأمر. فبالنسبة إليه، إنّ النظام الكولونيالي مع قوافل المجازر التي رافقته عبارة عن امتحان رباني لإيماننا وأنّ تحريرنا متعلّق بالإرادة الإلهية. وكانت هذه الفلسفة هي نقطة اختلاف كبير بينه وبين زوجته وابنته، ذلك أن ماما زهور، وبرغم تدينها، وربما بفضله، تؤمن بأنّ الكفاح ضد المستعمر كان أكثر من واجب لنا. تعتبر بأنّه من واجب كل مسلم حقيقي أن يكافح لتحرير أرضه من المحتلين غير الشرعيين، وبالأخص حينما يكون المحتل كافرا. ولهذا أيضا، وبمجرّد أن أظهرت رأسها من الباب إلا وأوقف زوجها مناقشته مع ابنته وأسرع إلى تشغيل الراديو الذي أذاع موجزا للأخبار بعد حوالي دقيقتين، وقد عاد

مُذْكَراتُ مُجَاهِدَةٍ من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

الصحفي إلى انفجارات الظهيرة، ولم يقل كلمة حول قبلة نهائي الخطوط الجوية الفرنسية في ساحة موريتانيا.

قمنا والتحقنا بالمطبخ كي نأتي بالأطباق وأواني الأكل وتحضير المائدة. تركتُ ساميةً تنشغل بالتحضير وقلتُ لماما زهور مازحة : « كيف تعرفين الحالة التي سيكون فيها مبتدئ مثلي في « مهنة » « واضع القنابل » ؟ قبل قليل، أقنعني شرحك حول الضَّغط الرهيب الذي يجب تخفيفه بالبكاء، كيف عَرَفْتِ كل هذا ؟ لا تقولي بأنك عشت التجربة... ». بهدوء، أجبتني بأنَّ ابنتها وأنا كنا صغيرتين جدا كي نتذكَّر ابن أخيها محمَّد الذي جنَّدته فرنسا في حربها ضد الألمان كغيره من آلاف الأهالي لتحرير فرنسا من الاحتلال النازي. ذكَّرتني بأنَّ عشرات الآلاف من رجال أهلنا فقدوا الحياة هناك ولم يعودوا أبدا، وكان قريبها محمَّد من الذين حرَّروا مدينة مرسيليا. عند عودته، كان يحمل جراح الجسد والروح معا نتيجة الأوضاع القاسية التي عاشها هناك، فقامت هي بعلاجه فيزيولوجيا ونفسيا. وتعلَّمت كثيرا عمَّا قاساه قريبها في تلك الأرض البعيدة وهو يدافع عن فرنسا وعلمِها. حكى لها بأنَّه وخلال شهور عديدة كان يرى نفس الكابوس المتعلِّق بعملية قام بها مع المجموعة التي كان يقودها والمتشكِّلة أساسا من الجزائريين ومن مغربيين. ذات ليلة، وفي الجنوب الفرنسي، في منطقة تحيط مارسيليا، دخلت مجموعته في مزرعة كبيرة من أشجار الحمضيات، وفي طرفها لمعت فجأة أضواء بناية جميلة وثرية هي بلا شك منزل ملاك تلك المزرعة. فمشوا إلى غاية أسفل أسوار البناية بنوافذها الكبيرة العالية، حيث تواصلت إلى مسامعهم أصوات وموسيقى : ضباط ألمان برفقة نساء ورجال باللبسة أنيقة، يتقاسمون سهرة عشاءٍ مسقيٍّ بمشروبات كحولية. وفي وسطهم، يتحرك نادلون باللبسة رسمية، ينتقلون من مجموعة إلى أخرى، يحملون بين أيديهم صواني الكؤوس المملوءة. أدرك

في قلب العمل المسلح

محمد أنه أمام عشٍّ من النازيين وأعوانهم، على مدى أمتار من قنابل رجاله وبنادقهم الرشاشة. فنصّب عسكرياً عند كل نافذة، سدّ الباب الخلفي للبنية والذي يبدو أنه يؤدي إلى الصالة الكبرى وطلب من ثلاثة من رجاله الذهاب إلى مستودع الحصيد للبحث عن أنبوب ودلو لثعب بنزين السيارات المتوقفة في الساحة الشاسعة المحاذية للبنية. لم يكونوا بحاجة إلى هذه المناورة الحربية لأنّ الرجال الثلاثة عادوا بجيريكانين مملوءين بالبنزين. حكى محمد لعمته كيف أنّه ورجاله كسّروا زجاج النوافذ ورموا القنابل إلى داخل القاعة الكبرى وأمطروا المحتفلين الهاربين بالرصاص. ثمّ بلّلوا الصالون الغاص بالأموال والجرحى بالبنزين وأضرموا النار. رمى اثنان (رجل وامرأة) نفسيهما من نافذة الطابق الأعلى حينما رأيا الحريق يتصاعد، فوقّعا في الساحة قرب المكان الذي كان يتواجد فيه محمد، فأجهز عليهما بمسدّسه تفاديا لأيّة مفاجأة. حكّت لي ماما زهور أنّ محمد كان يرى كل ليلة في حلمه تلك المرأة الشابة، وهي مكسّرة العظام بسبب السقوط من الطابق الأعلى، تتوسّل إليه كي يتركها حيّة « باسم مريم أمّ الربّ »، معتقدة أنه أوروبّي نظرا لشعره الأصهب وعينييه الخضراوين. وعدّته بأن تمنح له كل ثروتها، مردّدة أنها تملك ثروة ضخمة. ولكن محمد لم يكن لديه الخيار، كان عليه أن لا يترك أيّ ناج خلفه، لذلك قضى عليها هي وصديقها. لقد رافق بكاء المرأة وتوسلاتها ليالي محمد لشهور عديدة، وقامت ماما زهور بعلاجه كي يستعيد توازنه النفسي ونومه الهادئ، فساعدته على أن يتحرّر من كل ذلك العنف ومن جميع ذلك الرعب الذي امتلأ به كما يمتلئ إسفنج بالماء. ختمت قائلة : « كان محمد يكلمني كثيرا، ويحدث له أن يروي لي المشهد نفسه عشرات المرات دون وعي منه. يكرّر لي كيف تقيأ كل ما بأحشائه حينما اضطر، ولأول مرة، أن يقتل رجالا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

لا يعرفهم. حدث في الكمين الأول الذي نصبه، وكان خلف قائده الفرنسي الذي أصيب بجروح خلال تلك العملية العسكرية.

أوقفنا سامية التي جاءت تبحث عنا، قائلة بأن العشاء قد برد وأنها وأباها ينتظراننا منذ عشرين دقيقة وأن أباها بدأ يفقد صبره. تعشينا بسرعة، ونحن نحاول تشريف الأكل الذي حضرته ماما زهور بتفانٍ وحُبٍّ لا نظير لهما. ومع ذلك كنّا نستعجل اللحاق بأسرتنا. كان القلق حول مصير جميلة يقضم أحشاءنا، لأننا لم نفهم الصمت المفروض حول انفجار الخطوط الجوية الفرنسية. استمعنا إلى أخبار الحادية عشرة ليلاً ولم تذكر إلا تفجيرَي الملك بار والكافيتريا. ألح المعلق على الضحايا من الأموات والجرحى، شارحاً أنّ عددهم في « الملك بار » كان كبيراً، لأنّ « قوة الانفجار نسفت الواجهات الزجاجية التي أحدثت لوحدها جروحا كثيرة، بما في ذلك على المارين في الشارع المكتظ بالعائدين من الشاطئ في تلك الساعة من اليوم الصيفي... ». نظفنا المائدة، غسلنا الأواني، وصعدنا نختبئ في غرفة سامية. فبرغم التعب، لم يغمض لنا جفن. ذهبنا إلى الشرفة، اتكأنا على الدرابزين وبقينا نحدّق في شارع « صالفاندي » الفارغ الهادئ. كان يضيئه نور خافت، ويمتلئ بروائح أزهار الحمضيات والياسمين وسلطان الغابة، وعطر مسك الليل المهيمن. إن شارع شبابنا يدعو دوماً إلى الأحلام ولطف الحياة، وحتى في تلك الليلة، بدت لنا الحياة تساوي نفسها هدوءاً وسكينة. ومع ذلك، كنا نرى، عبر الأوراق الكثيفة لأشجار الحدائق، الأنوار المشتعلة خلف النوافذ المغلقة لتلك الفيّلات. أكيد أنّ عدداً قليلاً من الناس غرقوا في نوم مريح. إنّ الصخب والعنف اللذان استوليا على المدينة يكونان قد وصلا إلى غاية هذه الواحة من السكينة التي يمثلها شارعنا العزيز « صالفاندي ». أحسست بضجري

في قلب العمل المسلح

يتنامى واقترحْتُ على سامية أن نلتحق بالغرفة، ونغلق النوافذ وشبابيكها. اندسنا داخل الفراش وحاولنا بدون جدوى العثور على النوم، وبرغم التعب والضغط الأقصى بشحنته من الأدرينالين والقلق الذي عشناه طوال تلك الظهيرة، إلا أننا بقينا ساهرتين إلى غاية صلاة الفجر التي أعلنت عنها ماما زهور بضجيج وضوئها.

• السخط غير المنصف في تحقيقات الجرائد الكولونiale

انتظرنا أن تكمل ماما زهور صلاتها، ثم نزلنا للاغتسال قبل أن نلتحق بها في المطبخ كي نحضّر معا فطور الصباح : المَثَقَبَة، المَسْمَن، القهوة، الحليب والعسل. على الساعة والنصف، جاء عمّي الطاهر السائق وأحضر معه الجرائد التي كدنا نخطفها من يديه. ناولتني سامية « لاديبيش كوتيديان دالجري » وغطستُ أنفي بين صفحاتها. ألقيت نظرة متلهفة على عناوين صفحاتها الأولى، باحثة عن تلك الكلمات التي تتصدّر الصفحة وبالبنت العريض، كعادتها دائما، كلما تعلّق الأمر بالضربات التي يقوم بها ذوونا ضد الفرنسيين ومصالحهم، ينتابني إحساس مُبْهَم يمتزج فيه الافتخار بالواجب المنجز بنجاح ومهمتي مع شعور غير محدّد بالقلق العميق وعدم التصديق والذعر. ولكن لا، لا شيء من هذا. لم تُذكر أخبار القنابل إلا في أسفل الصفحة مع مجموعة من العناوين الأخرى مع الإحالات إلى الصفحات الداخلية لقراءة تفاصيل التحقيق، كما لو أنهم بهذه الطريقة في التقديم، يقلّلون من هول الحدث وتخفيف أثره على السكان الأوروبيين. على كلٍّ، لم أُنْفَاجاً بهذه الكيفية التكتيكية في تسيير الإعلام الكولونiale، ولكن الذي أدهشني حقا هي تلك المعلومات التي قُدِّمت والتي تقول بصريح العبارة أن القنابل الموقوتة وضعتها امرأتان أوروبيتان في الكافيتريا وامرأة أوروبية في الملك بار. وأنا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

التي ظننت أنّ مروري لم يلفت انتباه أحد، فقد أخطأت التقدير فعلا. مع أنّ « الملك بار »، في تلك الساعة من نهاية ظهيرة يوم الأحد 30 سبتمبر، كان غاصا بالزبائن الضاحين، غير المبالين، المرحين بقضاء أوقات لطيفة منعشة بعد يوم حارٍ من أيام نهاية الصيف، وأنّ أغلبهم قضّوه على الشاطئ، مثلما علّق صاحب المقال. ومع أنني كنت متأكّدة من أنني دخلت المقهى خلصة، وجلست على « الطابوري » ذي الأقدام الطويلة دون ضجيج، وطلبت مشروبي بصوت أردته طبيعيا جدا، وبالتالي لم ألفت انتباه أحد. كان المقال نموذجا من الخطاب الإيديولوجي الكولونيالي العنصري الحاقدا، المنتهج منذ اندلاع حرب التحرير الوطني، والذي يصف مكافحينا بـ « قطاع الطرق الجبناء » و « بالمجرمين بلا رحمة ولا شفقة »، و « القتلة القذرين »، و « جماعات الخارجين عن القانون » و « الفلاّقة »، آخر لفظة ابتكروها من الفعل « فلق » الذي يعني شقّ الشيء إلى شقين، كما يعني أيضا « فَجَّر ». أعطت الجريدة قائمة بأسماء الجرحى وجنسهم وأعمارهم وعناوينهم، منوّهة بسرعة ونوعية تدخل فرق الإنقاذ والعلاج الذي قدّمه الفريق الطبي. ورافقت المقال صورتان : واحدة تمثل « الملك بار » وقد تمّ « تخريبه كلية، وكانت الواجهات الزجاجية التي انهارت على شكل وابل من الفتات الزجاجي قد تسببت في أضرار جسيمة على المستهلكين » ؛ أما الصورة الثانية، فأظهرت نادل مقهى، من الشباب العرب، بجرح في اليد ووجه يعتصر ألما، وهو يُزجّ داخل سيارة إسعاف. قرأت وأعدت قراءة المقال وبني رغبة جامحة لأصرخ عاليا كي أحرّر الغيظ الذي يخنقني. رفضت من عمق أعماقي أنّ أترك نفسي يتسرّب إليها الشعور بالذنب. فبدأت أكرر أننا، سامية وأنا، قررنا المشاركة في كفاح التحرير الوطني والاندماج في المجموعات المسلّحة كي نوّدي واجبنا المقدّس تجاه وطننا. ولقد اخترنا طوعية هذا الطريق وقبلنا أن ندفع ثمنه ولو بدمائنا.

في قلب العمل المسلح

فمنذ 01 نوفمبر 1954، وبدون احتساب ملايين الأهالي الذين قتلوا بين 1830 و1945، لم يتوقف شعبنا ومكافحوه عن دفع هذا الثمن من الدماء. وقد تذكّرت المادة 35 من الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن لسنة 1793 : « حينما تخترق حكومة حقوق شعب، يصبح التمرد بالنسبة لهذا الشعب ولكل جزء منه حقا مقدّسا وواجبا ضروريا »، وكذلك المادة 121 التي تقول : « لا يعقد شعب معاهدة سلام مع عدو يحتل إقليمه ». وكُنْتُ أُرَدِّدُ بداخلي بأن لا تصالح ولا سلّم مع عدوّ يحتل أرضنا، مما يعني أنني سأحاربه إلى غاية التحرير. كما كنت أُرَدِّدُ أيضا أن العدو الذي يحتل بلادي وأرض أجدادي وحوّلنا إلى « أنديجان » أي غرباء بلا أدنى حق من حقوق البشر الطبيعية، العدو الذي اغتصب وسلب منا أراضينا بقوة الحديد والنار وأخرجنا من قُرانا ومداشرنا وتنكّر لثقافتنا ولغتنا وعاداتنا وتقاليدينا، هذا العدو يسمّى « الاستعمار الاستيطاني » بحكومته وجيشه وشرطته وإدارته وجرائده وإذاعاته والمليون نسمة من سكانه والذين قبلوا احتلال أرضنا المغتصبة ليبيني، على أنقاض قُرانا ودواويرنا المحروقة، قرى ومدنًا تناسب صيغة عيشه وثقافته. وكنت أُرَدِّدُ أنّ كاتب المقال هو أيضا ينتمي إلى هؤلاء السكان الأوروبيين الذين جاءوا لاحتلال أجود وأخصب أراضيها، وإبادة سكانها بالمجازر التي ارتكبتها جيشهم ضد أجدادنا. كما كنت أُرَدِّدُ أنّنا، إن تركناهم يفعلون، سينتهي مصيرنا كمصير الهنود الحمر في أمريكا. وأرَدَدُ أنهم لم يكتبوا أبدا مقالا حول إبادة الهنود الحمر في أمريكا...

حينما هزّني ماما زهور، انتبهتُ أنني قد نهضت من مكاني وكُنْتُ واقفة قرب النافذة وأرَدَدُ بصوت مرتفع ما كان يتبادر بذهني من أفكار. حصّنتني بين ذراعيها وقادتني إلى الطاولة، أجلسّني وأخذت الجرائد ورمتها في سلّة المزبلة وهي تحرّضنا أن لا نقرأ مستقبلا أكاذيبهم. شرحتُ لها أنّ

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

ما يثير سخطي هو قدرتهم على تكييف مواقفهم وفق رغبة آلة الاستعمار الدعائية : « لماذا لا يقولون الحقيقة ؟ إنّ ما تسميه الصحافة بـ « السكان المدنيين » ، ما هم في حقيقتهم إلا أولئك الأوروبيون الذين جلبهم الجيش عبر البواخر كي يحتل بهم بلادنا . إنّ ما يسمونهم بـ « السكان المدنيين » هم الأعوان الذين لم يكن مُمكنًا أن تتشكّل بدونهم الولايات الفرنسية الثلاثة في الجزائر ! إنّ ما يسمونهم بـ « السكان المدنيين » والأبرياء هم الذين صادقت من أجلهم الجمعية الفرنسية على قانون « السلطات الخاصة » كي تشنّ ضدنا حربا شاملة وإبادتنا، نحن المدنيين الأبرياء الحقيقيين، العُزْل، وبلا أدنى وسيلة دفاع، فيما يقضي « سكانهم المدنيون » رغد العيش ورفاهية الحياة ! » كانت ماما زهور تشدّ يدي بلطف وتحمّل بصبر خطاباتي المليئة بالغيظ والضعينة . أحسّست بالخجل من نفسي ومن تلك الاندفاعات غير المعهودة لديّ ورفعت بصري باتجاه سامية . كانت خافضة الرأس، تحاول، بكلّتي يديها المفتوحتين، إخفاء وجهها المتشنج من كثرة البكاء والغيظ المكتومين . فأجهشنا بالبكاء في اللحظة التي تلاقت فيها نظراتنا، فوقفنا لتتعاقد بدفء وحرارة، وتخفي كل واحدة وجهها في تجويف كتف أختها . كان علينا أن نخفّف من الضغط الذي يحاصرنا، فبكينا على بلدنا العزيز المغلوب على أمره وعلى مصيرنا : دموع الغضب والعجز أمام تلك العجرفة والوقاحة الكولونيالية . وعند قراءتنا للمقالات المخصّصة لـ « الاعتداءات الجبّانة » التي استهدفت « السكان المدنيين الأبرياء » ، تذكّرنا مباشرة جميع المقالات بوقاحتها المدمّرة وتضليلها الإعلامي الإجرامي لنفس هذه الصحافة التي كتبت عن تفجيرات شارع طيبة بالقصبة والتي ارتكبتها التنظيمات الأوروبية المتطرفة، هؤلاء الذين تنعتهم اليوم بـ « السكان المدنيين الأبرياء » . فجأة، توقفتُ عن البكاء، وقلت لسامية

في قلب العمل المسلح

وأنا أبتسم : « ماذا تفضلين من الأسامي ؟ بليد أم جرد أم فلاقة ؟ » . فردّت : « فلاقة وفخورة به ! اسم باسمين بل وأكثر ! » .

عُدنا إلى أماكننا في طاولة المطبخ، يعترينا شعور بالراحة وثقة في النفس والاطمئنان، ونحن نفكر بأننا نجحنا فعلا في أداء مهمتنا الأولى . كنّا فخورتين بانتمائنا إلى منظمة وضعت ثقتها الكبرى فينا لاختيار أهدافنا وتحديد كيفية القيام بالعملية . أدّينا مهمتنا كجنود حقيقيين لجيش التحرير الوطني الذي يُخضع عملياته الميدانية لظروف الميدان الموضوعية، كما يكيّف أشكال كفاحه وفق الشروط التي تفرضها عليه السلطة الكولونيلية . وتبيّن المقالات الصحفية المُخصّصة لمهمتنا ومحتواها وشكلها والمساحة الورقية التي أُعطيت لها أنّ قناعات الأوروبيين وسلطتهم وعجرفتهم قد تزعزعت واهتزت حقا وحقيقة . لم تتمكن صحافتهم من إخفاء هلع وذ هول ذويهم . وكانت كل هذه الأمور تتمنّ قناعتنا بأن الهدف الذي سطره قادتنا قد تحقّق : زعزعة السكينة والقضاء على ذلك السّلم الوهمي الذي يعيش فيه الأوروبيون، فيما يزرع الأهالي تحت حرب شاملة منذ اندلاع حرب التحرير . « يحبّون الجزائر، طيّب ! إنّ الجزائر في حرب، فليذوقوا واقعها المر ! » ، هذه هي رسالتنا التي ستجبرهم على فتح عيونهم وإدراك الواقع الجديد الذي يُزجّ فيه يوميا مئات الأهالي إلى السجون، ويُعذّبون ويُعدّمون ويُهجّرون وتُقبّل قراهم وجبالهم، كي يحظوا هم بالسلم والسكينة وتُحمى مصالحهم وأحيائهم ومدنهم، ويبقى الوضع على حاله دون تغيير . ومن جهة أخرى، لقد حقّقت جبهة التحرير الوطني هدفها الأساس وهو أن تُظهر لمواطنينا بأنها قادرة على حمايتهم، والوفاء بوّعدها بالردّ القوي على جرائمهم، وذلك بالضرب في قلب المدينة الأوروبية، بما في ذلك حيّ قيادة أركان الجيش الكولونيالي .

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

في مدينة الجزائر، وبالأخص منذ مارس 1956 وإعلان « السلطات الخاصة »، أضحى شعبنا الأعزل، غير المسلح، يعيش كل ليلة في القلق والخوف، ودون قدرة على الدفاع، عرضة لرعب مدهمات القوات المشتركة للشرطة والجيش، تضاف إليها تدخلات المنظمات المتطرفة. لذلك فنعم ! كنا سامية وأنا مسرورتين كوننا شاركننا بإعادة جزء من العدل للسكان المدنيين الأبرياء. أخيراً، أدركنا فعلاً أثر عمليتنا على الرأي العام الأجنبي، بما في ذلك داخل فرنسا الأوروبية. لا يمكن لمراسلي الصحف والوكالات الأجنبية الموجودين بقوة في العاصمة أن لا يتحدثوا عن تفجير شارعي إزلي وميشلي. أراد « الأفلان »، حينما قرّر نقل الحرب إلى أحياء العدو، أن يخلق وضعية جديدة بحيث يصعب على فرنسا أن تمرر سياستها القمعية الشرسة ضد شعبنا باعتبارها « عمليات بسيطة للحفاظ على الأمن العام ». وفي نهاية المطاف، رضينا بنتائج تحاليلنا، فاستسلمنا بطيبة خاطر إلى الفرح والسعادة لانتمائنا إلى جيش التحرير الوطني والعمل مباشرة تحت أوامر الإخوة الكبار الذين بحثنا عنهم طويلاً حتى كدنا نفقد الأمل بالعثور على شخص يوصلنا إليهم. ومع ذلك، كان غياب الأخبار عن جميلة يرمي بظلاله على سعادتنا الطارئة، حتى وإن كنا نؤمن في قرارة أنفسنا أنها بخير، ذلك أنه لو أصابها مكروه – لا قدر الله – لفعل مراد المستحيل، لقطع البحار والجبال والسهول كما تقول حكايات ألف ليلة وليلة، ليوصل لنا الخبر. فلم يبق لنا إذا إلا احترام التعليمات والمكوث في البيت والانتظار الصبور، برغم القلق الذي ينغص لحظات هدوئنا، لاقتسام نشوة الانتصار مع سكان القصبة الذين لا تزال جراح تفجير شارع طيبة تدمي قلوبهم. وبعد ذلك، وبلا أدنى خجل، التقطنا الجرائد من سلة المزبلة وذهبنا إلى « بيت القعدة » لإعادة قراءتها ونحن نحتسي فنجان قهوة على صحة جميلة، سي رشيد، الخو، وجميع « الخاوة » والأخوات في بلدنا

في قلب العمل المسلح

الشاسع. تمَدّدنا جيّدا على الأفرشة الوثيرة وواصلنا قراءة بقية أخبار الجرائد. عبّرت سامية بصوت مرتفع عمّا أوَحّته لي قراءة تلك الجرائد. « إنها الحرب الشاملة وفي كل مكان ! إنها الحرب عبر كامل مناطق البلد ! ». بالفعل، لقد أوردت الجرائد مجموعة من العمليات العسكرية نظّمها إخوتنا المكافحون، مثل القنبلة التي ضربت قطار الدزاير - وهران، أو تبادل إطلاق الرصاص بين « القوات المسلحة » و « جماعة الخارجين عن القانون » والفلاقة في أماكن متفرقة عبر البلد أو توقيف « المشوّشين » والقضاء على بعض المكافحين. ولكن وقعت جميع تلك « الأحداث » خارج « جزائر الأوروبيين » في المدن الكبرى كالدزاير و وهران وبونة...

• نقل الحرب إلى إقليم العدو

توقفتُ عن القراءة. أردتُ أن أعرف الفرق بين جميع هذه العمليات التي تتحدّث عنها الصحافة وعن تلك التي تصمت عن ذكرها وبين القنابل التي وضعناها أمس في قلب الأحياء الأوروبية. لم يكن الفرق في مستوى البسالة والشجاعة الذي تشترطه هذه العمليات، ذلك أنّه من البديهي أنّ المناضل الذي يستعين بمسدّس لقتل شرطي أو عسكري في شوارع المدينة الأوروبية يملك كثيرا من البسالة والشجاعة لشبه تأكّده أنه سيقتل بدوره أو أنّه سيرجم من طرف السكان المدنيين الأوروبيين مثلما حدث أكثر من مرّة. كما أنّ الفرق لا يكمن في مستوى ضخامة الخراب الذي تخلّفه هذه العمليات، فهنا أيضا، يخلف كمين ينصبه إخواننا في الجبال، على سبيل المثال، عددا معتبرا من القتلى في صفوف الجيش الفرنسي وهي تُعتبر خسارة لا يُستهان بها ؛ بل يكمن الفرق بين هذه العمليات « الضرورية والتي تطفح بسالة وشجاعة » وبين ما قمنا به بالأمس في مستوى ما تتركه من أثر على السكان الكولونيين

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

بمختلف فئاتهم وكذا على السلطة الكولونيالية المستقرة في بلادنا وعلى السلطة الفرنسية بداخل فرنسا وعلى الرأي العام في الخارج. بالفعل، لقد مرت حوالي سنتين منذ اندلاع حرب التحرير تحت إمرة « الأفلان »، ولكن واقع هذه الحرب القاسية لم يعيشه إلا الأهالي، بحيث يمكن لفرنسا الرسمية أن تسمح لنفسها بتقديم الحرب التي يخوضها شعبنا ضد الاحتلال الأجنبي لبلده كما لو كانت « مناوشات ضد النظام العام » في إطار إشكالية داخلية للدولة الفرنسية التي تمتد حدودها من دَنكرك في الشمال إلى تامنراست في الجنوب. لقد عملت السلطة الفرنسية على تنظيم الأمور بحيث عزلت شعبنا الذي خضع إلى قانون الأنديجينا إلى غاية 1962 في أحياء شبيهة بأحياء السود في جنوب إفريقيا، ومنفصلة عن السكان الأوروبيين القاطنين في أحياء راقية ومحمية. زيادة إلى أن مدينة الجزائر أُخضعت ابتداءً من ماي 1956 إلى حظر التجوّل. لم تكتفِ السلطة الاستعمارية بهذه الإجراءات التعسفية، بل راحت تحيط حيّ القصبة الذي يحوي ثمانين ألف نسمة بأسلاك شائكة وحراسة مشددة عند جميع مداخله ابتداءً من سبتمبر 1956، إذ حوّلت إلى سجن حقيقي على الهواء الطلق. لقد تمّت محاصرة المدينة العتيقة بأسياجٍ من الأسلاك الشائكة العالية ونقاط مراقبة متعددة من الجيش والشرطة، وُضعت في جميع المخارج التي تربط المدينة بباقي أحياء مدينة الجزائر. هكذا، يمكن للجيش الفرنسي أن يقوم بتمشيطاته العسكرية وتوقيف آلاف الجزائريين في المدن العربية البعيدة وزجّهم في السجون والمحتشدات وتعذيبهم في بنايات سرّية خاصة، وفي الوقت نفسه حماية السكان الأوروبيين المدنيين « الأبرياء » ليتمكنوا من العيش في رخاء وهناء. وبصريح العبارة، إن كان ممنوعاً على أي « محمّد » أو « فاطمة » أن يُخرج أنفه من كوخه أو من الزقاق الضيق لأي سبب من الأسباب بين الحادية عشرة مساءً والخامسة صباحاً، كان الأوروبيون يتمتعون بالحرية وضمن جميع الخدمات الثقافية والتسلية وإلى غاية الفجر إنْ رغبوا في ذلك، بشرط البقاء

في قلب العمل المسلح

في « مدينتهم البيضاء » : « أُلجئهم » التي لا تختلف عن مدن فرنسية مثل « كان » أو « نيس »، و « أورانيهم » التي تنافس باريس. كان بلدنا خاضعا لسياسة « تهئية الإقليم الاستعمارية ». وكانت هذه المدن بعيدة كل البعد عن التمشيط والمداهمات والقمع والتعذيب والإهانات اليومية. كل هذه المظالم تحدث في مكان « آخر » وتخصّ « الآخرين ». وعلى النظام الاستعماري أن يعمل على إبقاء هذا « الآخر » وهؤلاء « الآخرين » تحت سياسة الخضوع الكلي والحفاظ على الوضع « كما هو » لاستمرار دوام « الجزائر الفرنسية ».

لهذا قلت لسامية : « ستحدث قنابلنا نقطة مفصلية في حرب تحريرنا. ذلك أنّ نقل الحرب إلى شارعٍ ميشلي وإزلي ونهائي الخطوط الجوية الفرنسية في ساحة موريتانيا، يعني نقل الحرب إلى باريس وليون أو مرسيليا. يجب نقل الحرب إلى أرض العدو. أبوك على حق، إنهم كالمجانين. سيكون ردّ فعلهم شرسا ورهيبا، ولكن علينا بالاستمرار لأنّ تحرير بلدنا يمر عبر نقل الحرب إلى « أقاليمهم ». هنا والآن ستتخذ صيغة « الانتصار أو الموت » كل معناها بالنسبة إلينا. سيكون الأمر صعبا وصعبا جدا، ولكن يجب تحمل مسؤوليتنا. وحتما سنتحملها ! ». كانت سامية تستمع إليّ حاملة. نظرت إليها وأدركت فجأة أننا فقدنا لامبالتنا وانبهارنا الطفولي. لقد انتقلنا بفضاظة إلى ما يسمّى بسنّ الرشد. إنها الحرب، الحرب الشاملة، بلا رحمة، وقد اخترنا أن نكون إحدى فاعلاتها، مثلما اخترنا معسكرنا. نتحمل مسؤوليتنا كاملة غير منقوصة. تمنيت بداخلي أن لا تفقد سامية ضحكاتها الجميلة التي تتخلل خطاباتاتها، ولا تأكيدات الصرامة والتي تخفف من وقعها بإيماءات وحركات كي تطمئن محاورها وتوحي له بأن لا يأخذ كلامها بعين الجدّ. قضينا النهار ونحن نسمع إلى ماما وهي تردّد علينا ما روت لها بعض الجارات والصديقات من سانت أوجين، لهنّ أقارب في القصبة وبلكور وبوزريعة. يبدو أنّ السكان المسلمين كانوا راضين في كل مكان، وينوّهون بالمجاهدين الذين أعطوا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

درسا قاسيا للأوروبيين وللمتطرفين منهم. كانوا فخورين لكون مجاهدين يتقنون صناعة قنابل تنفجر في الدقيقة التي يرمجونها. قالت خالتي عائشة، جارة سابقة لماما زهور : « ربّي يحفظهم وينصرهم ! »، ثم أضافت : « لقد أراحوا جميع أرواح أبنائنا، ضحايا الكولون والشرطة الفرنسية ». شاركنا في المحادثة، ناسيات أنّ هذه السيّدات تتحدّثن عن أفعال عسكرية بطولية. وحينما بقينا وحيدتين، تساءلنا كيف يكون « الخاوة » قد عاشوا فعلينا ولماذا لم يتحدّث أحد عن قبلة جميلة. وكانت هذه التساؤلات تزيد من توترنا وتطيل انتظارنا في حدوث أول اتصال بنا، وكى نخفف عن قلقنا، انشغلنا بالتنظيف والأعمال المنزلية الأخرى.

• سانت أوجين بعد الملك بار والكافيتريا

تمكّنت من النوم في مساء 01 أكتوبر 1956. فكان نومي مضطربا، سكنه وجه السيّدة لافايان المرعبة، أستاذتنا في مادة اللاتينية في القسم النهائي. رأيت في منامي حشدا من الأوروبيين يصرخون ويتزاحمون، وينتشلونني من جميع الجهات، ومن بينهم أستاذتي القديمة التي لم تتوقف عن الكلام. لم أكن أفهم شيئا مما كانت تقول، ولكنّ عينيها المثبتتين في وجهي وفمها المنفتح المنغلق يرعبنني. استيقظت في الفجر على صوتي لأنني كنت أصرخ لأهرب من الحشد الذي كان يحاصرني ومن نظرة السيّدة لافايان المخيفة.

أخرجني خريبر الماء الذي كانت تتوضأ به ماما زهور من الدهول المرجف الذي خدّر جسدي وذهني. ترقّبت خطواتها وحينما نزلت السلالم، ركضتُ إلى غرفة الحمام لأغسل وجهي وأتطهّر من آثار الكابوس، وبعد ذلك التحقت بماما زهور في المطبخ وانشغلت بمساعدتها. ثمّ جلسنا الواحدة إلى جانب الثانية، دون أن ننبس بكلمة، وتناولنا فطورنا الصباحي. بعد صمت قليل،

في قلب العمل المسلح

قالت بصوتها الحنون : « لقد نمتِ نوما مضطربا، بسبب الشيطان، لعنه الله في الدنيا والآخرة. اذكري الله واقربي إحدى عشرة مرة سورة الإخلاص . ستشعرين بالراحة بعد ذلك ». نفذت طلبها دون انتظار، وأضافت : « يا بنيتي العزيزة، تأكّدي أن والديك، سيدي أحمد ولالة سعادية، سيفتخران بك لأنك شرفت العائلة وكامل سلالتك بكفاحك وتجنّدتك. تأكّدي أنه لا يوجد عمل أنبل وأشرف من الكفاح من أجل تحرير بلدنا من نير الاستعمار الغاشم. ربّي معك ويحميك ». التحقت بنا سامية بصحافة اليوم التي أتى بها عمي الطاهر، سائق والدها. انقضضنا عليها لأنها الوسيلة الوحيدة التي تصلنا بالخارج. بالفعل، فلم يتصل بنا « الخاوة » منذ الأحد 30 سبتمبر. أخيرا، أعطت لنا الجرائد سبب صمتها بالأمس عن قنبلة جميلة، مفاده أن موظفا في نهائي الخطوط الجوية الفرنسية اكتشف يوم الاثنين 01 أكتوبر صباحا « حقيبة شاطئ ضخمة » نسيها، مثلما تصوّر، زبون من زبائن الشركة. وعندما فُتحت الحقيبة، عثروا بداخلها على القنبلة التي تعطلّ نظام تفجيرها. كان نظام الإشعال مرتبطا بمنبه توقّف عند الساعة الخامسة والنصف، وكنا، سامية وأنا، نعرف أنّ قنبلة جميلة كانت مبرمجة على الساعة السادسة و35 دقيقة. تلقينا خبرين يوم الثاني من أكتوبر، واحدا سارا والثاني سيما. كانت جميلة سالمة، ولكن للأسف الشديد، استحوذت الشرطة على كامل النظام التفجيري، وهو الشيء الذي سيمنحها بعلامات تستعين بها في تحقيقها، ما يشكّل صعوبات إضافية لتنفيذ العمليات المستقبلية لمنظمتنا. قضينا النهار ونحن ننتظر أخبارا من قادتنا. بدأت أتساءل إن لم يقرروا تركنا منعزلتين لفترة طويلة، لأنّ زائرا غير منتظر جاء إلى البيت بأخبار مقلقة : السيناتور لخضاري، عمّ سامية، وصل في اليوم نفسه آتيا من باريس حيث يعيش. فأخبرنا بأنه تقرّر تجنيد جميع قوى الشرطة والجيش لمدينة الجزائر كي « تفكّك وتقضي على » شبكة

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

واضعي القنابل. شرح لنا أنّ السكان الأوروبيين، وعبر ممثلهم، يضغطون على الحكومة العامة في « الدزاير » والدولة الفرنسية في باريس، يطالبونهما بوضع كل ما في وسعهما من إمكانية لإيقاف الفاعلين، وعقابهم عقابا صارما، بحيث لا يمكن لمثل هذه التفجيرات أن تقع مرة ثانية. سألت ماما زهور – الهادئة في فستانها القسنطيني، بشعرها الذي لمّته في وشاح جميل من الساتان، تزينه خطوط طويلة – سلفها إنّ توصّل الروميون إلى تكوين فكرة عن فاعلي هذه التفجيرات. أجابها بالنفي، ولكن الفاعل لا يكون إلا « منظمة تملك وسائل مادية وأشخاصا مدربين ومكوّنين، يمكنهم أداء مثل هذه العمليات الجريئة التي تتطلب معرفة متطورة في ميدان التفجيرات وإرادة فولاذية لدى مناضليها ». تفادينا، سامية وأنا، تبادل النظرات. تابعا المناقشة بين الأب لخضاري وأخيه السيناتور وماما زهور التي بدت بعيدة عن هذا العالم المليء بالصخب والعنف. كانت تهزّ رأسها لتبيّن أنها تعي جيّدا خطورة الوضع، ولم تتوقف من طرح أسئلتها على سلفها. ولم يفوّت هذا الأخير فرصة إعطاء صورة جيّدة عن نفسه أمام تلك التي تنحدر سلالتها إلى غاية الأمير عبد القادر، فراح يشرح بأنّه بالأمس فقط كانت باريس بناسها ومكاتبها وقصورها لا حديث لها إلا تفجيرات « الدزاير »، وكيف أنّ الاتهامات الأولى ذهبت مباشرة إلى الشيوعيين لأنّهم يملكون معرفة كبيرة وخبرة عالية في التفجيرات منذ سنوات المقاومة ضد النازية، بل ومن الحرب الإسبانية. ثم أضاف بأن التأثير في « الدزاير » وصل إلى ذروته سواء عند العسكريين أو عند المدنيين، ذلك أنّ لا أحد في أوساط الأوروبيين كان يتوقع مثل هذه التفجيرات. تفاجأنا، بل ودّهلنا بالآثار التي خلفتها قنابلنا في الأوساط الرسمية في باريس نفسها. وهذا لم يمنع سامية من سؤال عمّها : « وعن اعتداء شارع طيبة بالقصبة، ماذا يقول الرسمىون في باريس ؟ » فردّ فوراً : « توقفي سامية عن أسئلتك المستفزة

في قلب العمل المسلح

دائما. طبعاً، أتفهم معنى سؤالك وموضوعه، ولكن يجب أن تعي جيّداً خطورة الوضعية التي ولّدها تفجيراً الأحد الماضي. وتعني هذه القنابل أن ما يحدث في الجزائر ليست اضطرابات بسيطة للنظام العام وإنما يتعلق الأمر بحرب حقيقية ! إنك طالبة في السنة الثانية حقوق وأظن أنك تفهمين هذه الأمور ». ثم خاطب أخاه قائلاً : « إذا أصبح الوضع خطيراً في « الدزاير »، لا تتردد في إرسال سامية لإنهاء دراستها في باريس في ظروف حسنة وهادئة. شكر الأب لخضاري أخاه وشرح بأن الطلبة الجزائريين في إضراب منذ نداء اتحاد الطلبة في شهر ماي، وأن ابنته ستتزوج عن قريب. وأوضح بأن تاريخ الزواج تأجل مرتين، وقد تمّ تحديده أخيراً بتاريخ 24 ديسمبر 1956. وكان السيناتور لخضاري يعرف خطيب سامية، قريبها من أمها، أنيس، طالب حقوق في مدينة ليون الفرنسية. وقرّر الأخوان أن سامية ستواصل دراستها في فرنسا مع زوجها. صعدنا إلى الغرفة، وأطلقنا العنان لضحك مجنون تمكّننا من كتمه بحضور العم السيناتور وأخيه القاضي. قلنا بأنه من المستحيل عليهما، حتى في كوابيسهما الأكثر رعباً، أن يتصورا أنهما يجلسان إلى جانب واضعات القنابل : ابنة القاضي ظريف، وابنة القاضي لخضاري وزوجته. إنّ ما بدا لنا غريباً حقاً وأغرقنا في ضحك هستيري هي صورة ماما زهور، تارة في فندورة ووشاح يغطي الرأس، وتارة بطايور « شانيل » رمادي لؤلئي والحذاء والحقيبة اليدوية المتناسقة.

• ريموند بيشار، مناضلة شيوعية، تُتهم ظلماً وبلا أدلة

في الغد، أي يوم 03 أكتوبر، أكّدت الجرائد ما قاله لنا السيناتور بالأمس، أي أنّ تفجيرات الملك بار والكافيتريا من « تنفيذ الشيوعيين الذين يملكون المعرفة والتجربة، ويتحكمون في تقنيات صناعة القنابل ولهم مناضلون محنّون، قادرون على وضعها في الأماكن التي يرتادها الأوروبيون دون

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

إثارة الشكوك ». وذهبت الجرائد إلى حدّ كشف هوية واضحة قنبلة « الملك بار » : ريموند بيشار، مناضلة شيوعية معروفة بتجنيدها الكلي وبنشاطاتها داخل الحزب الشيوعي الجزائري. ونُشرت صورة لها، غير واضحة. إنّ التشابه الوحيد بيني وبينها هو اللون الأشقر وقصّ الشعر. كنّا، سامية وأنا، متذمرتين ومرعوبتين للسهولة التي تتّهم بها السلطات الكولونيالية وجرائدها وبلا أدلة ريموند بيشار المسكينة والتي لا نعرف عنها شيئا. أعلنت المقالات أن الشرطة تبحث بنشاط حثيث عن المعنية، وأنّ إشارات الشاهدين هي التي وجّهتها نحو تلك المناضلة. امتلأنا سخطا وتذمرا على النظام القضائي الذي يفخر بانتمائه إلى « بلد حقوق الإنسان والحريات » ولا يتردّد في اختراق مبدأ افتراض البراءة إلى غاية إصدار الحكم، ويرمي ببريئة فعلية وفرنسية الجنسية إلى الثأر الشعبي. كنّا نعرف أنّ النظام الفرنسي لا يأخذ بعين الاعتبار كل هذه المبادئ الإنسانية في العدل والحرية حينما يتعلّق الأمر باتهام ومحاكمة « الأهالي » لأنه لم يعتبرهم يوما مواطنين بكامل حقوق المواطنة، ولا حتى بشرا بحقوقهم الطبيعية الأساسية. ولكن ريموند بيشار مواطنة فرنسية، ولم تكن محل شكوك فقط وإنّما مُتّهمة باعتبارها المنقّذة الفعلية للتفجير، وبلا أدلة. إذا فلم تكن مُتّهمة لما يمكن أن تكون قد قامت به، وإنّما لأنها مناضلة شيوعية، فكنا في مواجهة منطق استبدادي، أي منطق اغتصاب كلي لجميع المبادئ العامة للقانون. يا لها من دولة منافقة هذه الدولة الفرنسية ! مع أنّنا كنا متذمرتين ومرعوبتين من هذا الظلم الجائر، إلّا أنّنا طمأننا أنفسنا لأنّ ريموند بيشار تنتمي إلى حزب جاد، صارم، وبمناضلين متضامين والذين سيقومون بالمستحيل للدفاع عنها.

ومن جهة أخرى، كانت أخبار الصحافة وتحليلاتها دليلا على الازدراء القوي الذي يكتّنه الفرنسيون لشعبنا وعلى جهل الأوروبيين الكلي لمجتمعنا.

في قلب العمل المسلح

بالفعل، أعلنت الجرائد صراحة بأنّ الأهالي عاجزون عن المعرفة والتجريب كما عبّروا بوضوح أنّ نساءنا لا يمكن لهن أن يشبهن الأوروبيات من حيث المظهر الفيزيائي. إنّنا في نظرهن لسنا إلا « فاطمة » و« محمّد »، لا نصلح إلا كخادمت ديار ننظف أوساخهم أو حمّالين لسلعهم في الأسواق. كانت ماما زهور ترتّل آيات قرآنية وتدعو الله القدير أن يتركهم يرزحون في عنصريتهم ويعمي أبصارهم أكثر. فقد هنّأنا أنفسنا على تصرّفنا داخل الجامعة والمتمثل في البقاء على هامش النشاط السياسي والنقابي، وقد رفضنا جميع اقتراحات صديقتنا ميمي التي نشتاقي إليها كثيرا، مما كان سيؤدي حتما بالشرطة إلى تشكيل ملفات أمنية عنّا. وكانت نتيجة ذلك السلوك أننا بقينا، سامية وأنا، مجهولات تماما عند الشرطة ومصالح الجيش والمنظمات المتطرفة، وهذا أدى بنا أن نكون مفيدات جدا للمنظمة. وقد سرّتنا هذه النتيجة وملأتنا حبورا وبهجة، فاقترحت سامية أن نجتمع أغراضنا ونذهب إلى الحمام كي نغتسل جيّدا ونزيل التعب والضجر الذي يعصرنا منذ بضعة أيام ونسمع ما يقوله "الصوت الشعبي". وأضافت: « وبعد ذلك، نطلب من عمي الطاهر أن يأخذنا إلى صالون الحلاقة » روكس « كي نسوّي تسريحة شعريّنا ! ». رفضت اقتراحها بالذهاب إلى الحمام شارحة لصديقتي أنه علينا احترام تعليمات « الخاوة » احتراماً صارماً وعدم الخروج إلى غاية تلقي إشارات من قادتنا، أما فيما يخص صالون الحلاقة، فلم أكن راغبة بتاتا في الاحتكاك ثانية بوسط أوروبي خالص. وهذا ما فعلناه بتعقل.

ذات صباح على العاشرة تقريبا، كنا في الغرفة حينما سمعنا رنة في رقم 9 من شارع صالفاندي. انتفضنا، ولكن سامية كانت الأسرع وتدحرجت عبر السلالم لفتح الباب. ومن خلال صيحات المفاجأة والضحكات الصاخبة الواضحة المعالم، فهمت أنّ الزيارة تخصّصنا. تعرّفت على جميلة بفضل

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

صوتها المميز بين الجميع، أسرع إلى الصالون فوجدت فعلا جميلة مبتسمة وأنيقة، تجلس مقابل سامية التي تطفح سعادة. تعانقنا بحرارة، ووقفت سامية وانضمت إلى عناقنا وكأنها تتأكد من أننا، ومنذ شارع « بوغيلي لاصابي »، لا نزال على قيد الحياة ومستعدات لمواصلة كفاحنا معا، يؤججنا شعارنا « الانتصار أو الموت ! ». بعد فترة الانفعال الأولى، نقلت لنا جميلة رسالة الأخ الكبير : يجب أن نلتحق بالقصبة للإقامة هناك لبعض الوقت. شرحت لنا أنه احتراز أمني مؤقت، فرضه تطوّر الوضع. سألناها توضيحا أكثر، فقالت أنه ليست لديها أية معلومات إضافية. أوضحت أنها تنتظرنا نهار الغد على العاشرة صباحا في نفس مكان موعدها الأول مع سامية، قرب سوق شارع « لا لير ». حاولت سامية أن تشرح لجميلة أنه يستحيل عليها البقاء بعيدة عن البيت العائلي لعدة أيام، وأنّ أباهما يجهل كل شيء عن نشاطاتها. ردّت جميلة أنها « أوامر للتنفيذ » وأن عليها أن تشرح وضعها للأخ الأكبر عندما تراه. غادرتنا جميلة مباشرة بعد أداء رسالتها، رافضة البقاء لتناول الغداء معنا لأنّ « الخاوة » ينتظرون عودتها وتقديم تقرير عن مهمتها الاتصالية. بقيت سامية حائرة، لا تعرف كيف تبرّر غيابها لأبيها، فقرّرنا عرض مشكلتنا على شريكنا العجيبة، وحدها القادرة على إخراجنا من هذه الورطة. استمعت ماما زهور وأصدرت حكمها فورا : حضّت ابنتها على احترام التعليمات واقترحت عليها أن تطلب من أبيها الإذن بقضاء أسبوعين عند أختها الكبرى ليلي، وهي متزوجة وأم لثلاثة أطفال، مطمئنة إياها بأنها ستتكفل بتنظيم كل شيء.

الفصل الخامس

داخل القصة، في قلب المقاومة

• أخيرا في القصة

في الغد، على العاشرة صباحا، كنا في مكان موعدا مع جميلة. ثم، وبخطوات ثابتة، ولجنا داخل شارع « راندون »، الصعب المسلك بسبب الحشود المزدحمة في هذه الساعة من النهار. حشد متنوع يجمع الرجال والنساء والأطفال ؛ الرجال بألبسة متعدّدة، من الأزرق الصيني إلى القندورة والشاشية القبائلية، بعضهم حاسر الرأس، والبعض الآخر يعتمر شاشا أو شاشية اسطمبول حمراء ناصعة. وخلف مناضد البضائع، يروّج الشبان لسلعهم، قاصدين بالأخص النساء الملحفات بالحايك الأبيض الناصع على الطريقة « الدزيرية ». كان لزاما علينا أن نتشبّث الواحدة بالأخرى في التحام شديد كي لا تفصلنا حشود المارة الرائحين والغادين في ازدحام مفروض. كانت تدغدغ أنوفنا الروائح العطرة لمختلف المتبلات ودخان الأطباق المهيئة والنباتات الطريّة مثل الكزبرة والنعناع، وكذا الروائح النتنة للمياه الراكدة، كما كان الضجيج الذي يصمّ الآذان ويمنع كل حديث بيننا. دارت جميلة نحو اليسار وباشرنا المشي عبر شارع « بورت نوف » (الباب الجديد) الأقل ازدحاما والذي بدا أنّه يغوص في أحشاء القصة. وبسرعة، سلطنا زقاقا ثانيا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

على اليسار، أقل إضاءةً، تحيطه منازل عالية دون فتحات على الشارع باستثناء الأبواب الخشبية المسّمة داخل إطاراتها السميكة، والتي لا تُظهر من السماء إلا شريطاً ضيقاً بلونه الأزرق. تبعنا آثار جميلة بخطوات سريعة وحاسمة، نردّ على تحيات النساء الملحفات والأطفال الصغار من البنين والبنات. بدا لنا أن الجميع يعرف جميلة ويحترمها. توقفت قرب إحدى المنازل ودقّت الباب دقتين بواسطة الدقّاقة التي على شكل قبضة اليد. انفتح الباب ودخلنا عبر فضاء تغلفه ظلمة شفافة وأكثر رطوبة من الخارج، وهي السقيفة التي تؤدي إلى شعاع نور يلج من باب منخفض فرعي على اليسار. عتَبنا ذلك الباب ووجدنا أنفسنا في فناء داخلي مربّع الشكل، مبلّط بقطع من الرخام الأبيض، « وسط الدار » مثلما يُسمّى، محاطاً بأعمدة رخامية أيضاً، تسند أروقة دائرية حول الفناء وفوقه، مع أبواب غرف عديدة تنفتح نحوه. وكانت الجدران المدهونة بالجير مغلفة إلى المنتصف بمربعات من السيراميك بزخارف زرقاء وصفراء وخضراء. أدهشتني هذه السمفونية الرائعة من الأضواء والألوان. سرت خلف جميلة وسامية اللتين بدأتا صعود السلالم المؤدية إلى الطابق الأعلى والذي رأينا رواقه والدرازين الخشبي من الطابق الأرضي. كانت السلالم مغطاة بألواح الأردواز، وعلى الجدران نفس سيراميك « وسط الدار ». كانت الأبواب الخشبية بمصراعين عاليين عُلو الجدران، بمصراع صغير في الوسط، يحوي بدوره على مصراعين صغيرين بعلو قامة رجل. اتجهت جميلة نحو واحدة من تلك الأبواب ودخلنا غرفة واسعة مستطيلة الشكل بسقف خشبي تتقاطع فيه أعمدة متوازية. على الجدار، ومقابل الباب المتقن الصنع، علّقت مرآة كبيرة بإطار خشبي مزّين بأزهار من الصدف، وتحت مباشرة مقعد من الخشب والصدف هو أيضاً. على اليسار، في عمق الغرفة، سرير (بَنك القُبّة) ويحتل طول عرض الغرفة. وتقابل السرير من الجهة الأخرى خزانة كبيرة

داخل القصة، في قلب المقاومة

وجميلة، تؤثت كامل جدار اليمين، كلها خشب وصدف، وتنعكس صورنا على مرآتيها الطويلتين. وعند أسفل الخزانة، تمتد زربية تغطي كامل مساحة الغرفة، وعليها ثلاثة أفرشة مبطنّة بقماش ثري يتقابل اثنان منها بينما كان الثالث مسندا إلى الجدار، وتتناثر عليها وسائد صغيرة بنفس لون القماش. ومن جانبي الباب، توجد نافذتان صغيرتان منخفضتان تنفتحان على الرواق. كنا، سامية وأنا، منبهرتين من وفرة هذا الجمال وهذه الأناقة والانسجام في الجمع بين الألوان والأنوار والفضاءات. نزعنا أحذيتنا، جلسنا على الأفرشة، ومددنا سيقاننا على الزربية اللطيفة الملمس. بقينا طويلا صامتتين، منذهلتين، خوفا من تكسير تلك الهيبة، خاصة وأن لا صوت ولا ضجيج ينبعث من الدار كما لو أنها غير مأهولة. وأخيرا تجرأنا على مكالمة جميلة بهمس لا يكاد يُسمع لنعبّر عن امتناننا الصادق لأنّه بفضلها اكتشفنا هذا الجمال وسألنا إن كانت جميع بيوت القصة بهذا الجمال وتلك الأناقة. أحسست كما لو أنّني خارج الواقع، وأصبح في عالم من الخيال. كانت المرة الأولى التي أدخل فيها بيتا بالقصة، والمرة الأولى التي أرى فيها سريرا بهذا الحجم، والمحاط بإطار من الحديد المرصع الجميل الصنع، والمغطى من الداخل بقماش من الساتان الأزرق. كان السرير مرتفعا نوعا ما إلى حدّ أنني سألت جميلة إن كان السرير للنوم فعلا أم أنه عبارة عن ديكور فقط. نظرت إليّ بعينين مندهشتين وانفجرت ضاحكة : « طبعاً ! وما أحلاه من نوم ! ».

• عند عائلة بلّحفاف والرائعة لالة

كان كل شيء جديدا بالنسبة لي، مُختلفا عن بيوت منطقتي. يا لها من أناقة وانسجام في الألوان والأشكال ! أحسست بسعادة قصوى وأنا أردّد مع نفسي بأنني سأعيش أيما داخل منزل قاوم الاستعمار وتخريبه، ذلك أنّ المنزل

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

يمثل حقا طبيعة بيوتنا قبل الاحتلال الفرنسي . وكانت جميلة تسخر من جهلنا وسذاجتنا برغم مسارنا الدراسي . همست لي جميلة بعد ذلك بأن لا أكثر من التكلم بالعربية أمام ربّة البيت ، لأنّ ناس القصبة لا يرون بعين الاحترام والتقدير نساء الغرب الجزائري . أسرّرت لها أنّ الناس في منطقة وهران لهم نفس نظرة الازدراء تجاه ناس القصبة . وضحكنا بصدق من هذه الكليشيهات المشوّهة لحقيقة الناس في كل منطقة . وغرقنا بعد ذلك في الصمت الذي فرضته علينا سكيننة الأمكنة . في ذلك الحين ، دخلت علينا فتاة شابة وجميلة ، دون أنّ تُحدث أي جلبة ، ووضعت أمامنا مائدة صغيرة وصينية نحاسية واسعة . حينئذ خرجت لتعود بعد لحظات بالغداء المشكّل من أطباق طُهيّت بكثير من الأناقة والاعتناء ، مهياة كما لو أنها ستُعرض لمصوّر يقدّمها لمجلة طبخ مشهورة . كانت الفتاة شقراء اللون وجميلة حقا ، بعينين بلون الياقوت الأزرق الذي يمنح لوجهها الحنون جدية تتناقض مع خفتها وابتسامتها الطفولية . فحظينا بوليمة تشكّلت من سلاطات متعددة ومتنوعة ، وشربة « مقطّفة » يعطرها حشيش الكزبرة وأخيرا « دولمة لحم » بالبقدونس وقطع الليمون . بعد الغداء ، جاءت إلينا سيّدة في عمر محترم ، متوسطة القامة ، تحمل نظارات طبية ولباسا دزيريا ، فرحبت بنا وسألتنا عن طلباتنا . أعطت لكل واحدة منا زربية صلاة صغيرة ، ودعتنا بنبرة طبيعية أن نتبعها لثريّنا بيت الوضوء استعدادا لتأدية صلاة الظهر . بادرت جميلة إلى همس كلمات إلى مضيفتنا ، وهي خافضة الرأس ، لم أتبيّن منها شيئا ، هي التي أظهرت احتراما كبيرا للسيدة ربة البيت ، وذلك بهزّ الرأس المتواصل والإجابات المتكرّرة بصيغ الآداب المتعدّدة والمزهرة والملتوية التراكيب . تبعتها سامية بـ « أنا أيضا » . عندئذ خاطبتني السيّدة ، أنا التي بقيت بكما ، وطلبت مني أن أتبعها . فهمت متأخرة أنّ صديقتي قد أعفتا نفسيهما من « الواجب المقدّس لكل مجاهدة » في نظر مضيفتنا .

داخل القصة، في قلب المقاومة

ألقيت نحوهما نظرة شزراء بسبب الضحك الذي كاد ينفلت منهما، وتبعتهما السيّد نحو بيت الوضوء عبر الرواق الطويل. بدا لي أنّ كل شيء في هذه الدار قد تمّ التفكير فيه بعناية قصوى، بما في ذلك « بيت الماء » المجهّزة بشكل جيّد، لا شيء ينقص : الأحواض المصنوعة من الصلصال الرملي، الدلاء والطاسات النحاسية المزينة بموتيفات جميلة ومتناسقة، تبرق بألف بريق من كثرة الحك والتنظيف وحزمة المنشفات ببياضها الناصع، الموضوع على رفّ، في طيّ متقن. بعد الوضوء، تبعته لآلة، هكذا ينادي الجميع هذه السيّد الوقورة المثيرة للاحترام، إلى غرفة نظيفة، منعشة الهواء، ومؤثثة بأناقة. فأتمت لآلة الصلاة بخشوع ونفوذ. أما أنا، فأعترف اليوم بأنني كنت خلفها أقلد حركاتها بشكل آليّ، شبه مخدّرة بما رأيت وسمعت في تلك السويغات القليلة. بعد انتهاء الصلاة، التحقنا بجميلة وسامية كي نقسم القهوة التي ملأ عطرها البيت. استقبلتني صديقتاي بلفظة : الله يقبل. أحسست بأنها قيلت هزءا وسخرية بي. ردّت لآلة بأنها تأمل أن ينتهي « إعفاؤهما » في آجال قريبة كي تكون صلاة جماعية، تحملها أربعة أصوات عوض صوتين فقط، فامتألت غبطة سلفا وأنا أتخيلهما معي في صف واحد، نؤدي الصلاة معا. بعد احتساء القهوة، طلبت منا لآلة أن نتبعها لتُرينا غرفتنا. اكتشفنا طابقا ثانيا، صورة طبق الأصل للأوّل، وانتهينا إلى السطح الذي يشرف على كامل القُصبة السفلى وجزء من المدينة الأوروبية، وخليج الدواير الرائع الجمال المتماهي مع السماء في الأفق البعيد. تحتل غرفتان، الواحدة مقابل الثانية، جزءاً من السطح، وتبدوان حديثتي البناء. أما الجزء الباقي من السطح، فإنه مخصّص لقاعة واسعة للغسيل. عرفت أنّ هذه القاعة يسميها أهل القُصبة بـ « المنزّه ». كانت الغرفة مربعة الشكل ومشمسة جيّدا. بداخلها سرير عريض بحشية سميكة، يحتل ثلاثة أرباع الغرفة، وبقرب السرير، طاولة

مُذْكَراتُ مُجَاهِدَةٍ مِنْ جَيْشِ التَّحْرِيرِ الْوُطْنِيِّ مِنْطَقَةُ الْجَزَائِرِ الْمُسْتَقَلَّةِ

صغيرة عليها جهاز راديو كبير. ومقابل السرير وبقرب الجدار طاولة مستطيلة الشكل بكرسيها الوحيد، وعليها مناشف وقطع صابون. قالت لالة: « ها هي غرفتك. السرير كبير وأنتن الثلاث قليلات الحجم والوزن ». ثم توجهت إلى جميلة: « إذا احتجتن إلى أي شيء، نادين على زينب ». تركتنا واختفت. زينب هي تلك الفتاة الرائعة الجمال، صاحبة العينين الزرقاوين والشعر المذهب مثل شمس « الدزائر ».

حينما بقينا وحيدات، سألنا، سامية وأنا، جميلة: « ماذا نفعل الآن ؟ ». ردّت ضاحكة: « ننتظر ! ». أخبرناها بهمومنا لأننا جئنا بلا ألبسة استبدال. كنا نأمل العودة إلى سانت أوجين في نهاية الظهيرة لإخبار ماما زهور عما جدّ من أمور، فلم نحمل معنا، طوعا، أي لباس خارج تلك التي نرتديها. وضعت جميلة حدا لحيرتنا، مُطمئنة إيانا بتوفير كل الملابس التي سنحتاج إليها. وبعد القول، جاء الفعل مباشرة. بعد دقائق قليلة، عادت صديقتنا برفقة زينب الملك الصغير وهي تحمل « سروايل المسلمين » وهي سراويل تقليدية خاصة بالنساء، و« كزاقات » وهي صدارات تقليدية للنساء أيضا، زيادة إلى أوشحة متجانسة. وفي لحظات قليلة، وبخفة يدٍ مدربة، ساعدتنا جميلة، ابنة القصبة الأصلية، على استبدال بذلنا المدينية بتلك الملابس التقليدية. وبسبب غياب أية مرآة في الغرفة، وضعنا ثقتنا في تقييم كل واحدة منا للأخرى، فاتفقنا أن اللباس الدزيري يناسبنا جيّدا. كانت سامية طويلة القامة ونحيلة، فكانت كاملة الجمال في « السروال والكازاكة ». أما فيما يخصني، أعلنت سامية وجميلة بأن اللباس جاء على جسدي كقفازة يد. وحاولت جميلة إكمال تأقلمنا بإشارات وتعليمات متعلّقة بقوانين الحياة الاجتماعية في القصبة. كان الأكل يأتينا إلى غاية غرفتنا، ولالة تزورنا في مواعيد مضبوطة، مع مواقيت الصلاة، بما في ذلك صلاة الفجر. وبدأت أستثقل لعبة

داخل القصة، في قلب المقاومة

الغسل خمس مرات في اليوم وأنا أظهار بالصلاة. ولم يكن غسل الصبح مريحاً، خاصة أن صديقتي المختفتين تحت الفراش الدافئ تكتمان بصعوبة ضحكتهما وهما تشاهدان لالة الجادة والمستقيمة والخاشعة في صلاتها وأنا خلفها، أترقبها خلسة كي أضبط حركاتي مع حركاتها. هكذا قضيت يومي الأول وليتي الأولى في القصة، داخل هذا القصر حيث كانت جميع الأشياء لذيدة، متناسقة، لامعة، هادئة وصامتة. كانت الأصوات الوحيدة تُخزَل في الضحكات المختلصة وهمسات صديقتي، فكلُّ حضورهما وتواطؤهما تعميدي « قَصْبِجِيَّة » (أي من سكان القصة) في جوٍّ من الفرح والسعادة والغبطة. سألنا، سامية وأنا، جميلة إن كانت تعرف أصحاب هذه الدار الرائعة، وإن كانت « لالة » وزينب الساكنتين الوحيدتين، ولكنها أجابت بالنفي الكلي، وأنها لا تعرف شيئاً ولا أحداً. الشيء الذي لم يكن صحيحاً البتة، ولكننا لم نُلح لأننا نعرف قواعد الانضباط والسرية التي تلتزم بها منظمنا. قضينا جزءاً من الليل في السطح نتأمل الخليج المتألي، الغارق في صمت ثقيل، لا تكسره إلا ضحكاتنا العصية الكتمان بين الفينة والأخرى.

في صباح الغد، بعد فطور الصباح، فارقتنا جميلة لأداء مهمة. أحسنا، سامية وأنا، بالتيه والضياع. فهمنا أن يومنا الأول في العزلة مرّ في السكينة بفضلها وبفضل حضورها القوي. كما أدركنا أننا عاجزات عن العثور ثانية على الطريق الذي قطعناه بالأمس مع جميلة. كنا مرتبطتين كلية بها. وقد حثَّ البيتُ الغارق في النور والصمت الثرثارتين على الصمت وتعلُّم الانتظار والصبر. فتحت سامية قلبها لي هامسة : « لم يبق لي من الوقت الذي أقتسمه معكم إلا شهران ونصف على أقصى تقدير. إذا أمدني الله في حياتي، سأزوّج في 24 ديسمبر. وقد تمَّ تحديد التاريخ، مثلما تعرفين، ولا يمكن لي تأجيله مرة ثالثة بعد التأجيلين السابقين. وحتى ماما زهور لا تريد سماع أيّ رأي في هذا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الموضوع . قالت لي بأنها ستقتل نفسها إن لم يتم الزواج في 24 ديسمبر، هي المحرّضة لنا والمجنّدة جسدا وروحا إلى جانبنا من أجل تحرير بلدنا . قالت لي بأنّ أبي وإخوتي سيموتون خجلا لأن تأجيلا ثالثا يعني أنني فقدت شرفي وشرف عائلتي، خاصة أنّ أنيس قريبي . هل تفهمين شيئا عن هذا التفكير ؟ . « . أجبته بأنني أفهم جيّدا بأنها خاضعة لمعضلة تختزل في سؤال واحد : « هل يمكن أن تقولي الحقيقة ؟ حقيقة أنك واضعة القنابل ؟ ولهذا الغرض فلا يمكن أن تتزوّجي في الحين . ولكن طبعاً، الاعتراف غير ممكن البتّة . لذلك، يا عزيزتي، إن ماما زهور على حق » . اعترفت لي سامية بالصعوبة التي تشعر بها لشرح كل هذه الأشياء لإخوتها الكبار . فأجبتها : « اتركي الأمر للوقت، عندئذ يمكن أن تشرحي، وأنا متأكّدة أنهم سيتفهّمون » . فبدأت تغني أغنية مشهورة في تلك الفترة : « اللّي ضرا إيصير... » .

• لقائي الأول مع ياسف سعدي (الحو) وعَمّار علي (علي لابوانت)

فجأة، ملأ رجل فضاء باب الغرفة . وقبل أن يظهر سمعتُ أولاً صوته، قويا، واضحا، يطفح بالضحك : « واشّ يا ختو، ورّتي لهم الزّنباع وين ينباع ! » . كان أسمر اللون، طويل القامة، بجسد رياضي مليء بالخفة والأناقة الطبيعية . كانت حيوية المراهقة لا تزال تصبغ وجهه وعينه . عرفته سامية وقفّزت تلاقيه، فحضّنها بذراعيه الكبيرتين، مواصلا الكلام والضحك . ثم التفت إليّ : « إذن، أنتِ الأخت فريدة ! تلك التي لا يعرفها أحد، مرحبا بك اختو . لقد استرجعتِ الفرح والكرامة لكامل ناس القصبة، يا اختو ! » لفّني بدوري بذراعيه الكبيرتين اللتين أحسست بهما تمتلئان أخوة وحماية لي، وهو يردّد : « إنني في قمة السعادة وأختان مثلكما معي ! » وجدنا أنفسنا، سامية وأنا، تحت حماية جناحي ذلك الذي وصفته الصحافة الكولونيالية

داخل القصة، في قلب المقاومة

بـ « قائد أقدر أنواع الأوغاد »، أو « أكبر شرير على وجه الأرض »، وكانت جميع مصالح الشرطة والجيش الفرنسيين تبحث عنه في كل مكان، ولكن شعب الدزاير البسيط معجب بشجاعته الأسطورية، وحسه الحاد للعدالة والكرامة : علي لابوانت. جلس على السرير، وطلب منا الجلوس إلى جانبه، ففعلنا بحيث وضعناه بيننا. فحطّ ذراعا على كتفي كل واحدة منا وشدنا كما يفعل أخ كبير بأخيه الصغيرتين أو أب يلتقي بأبنائه الذين يفتخرون بهم بعد غياب طويل. كان يتكلم بصوته الرنان المليء بالضحك والقهقهات كما لو أنه يخاطب شخصا غير مرئي لنا في لغة أولاد القصة : « يا خو، يا خو، ارّواح تشوف « الروميات » المزيّفات اللي أعطوا درس كبير للفرانسييس ». أحسست بنفسى صغيرة جدا تحت ذراع علي لابوانت القوي. ولم أكن أعرف بأنني سأعيش إلى جانبه لعدة شهور، يلفني عطفه الكبير، وتغذيني أخوته التي لا تنضب، وتطمئنني شجاعته الأسطورية وبأسه العجيب خلال الأوقات الأكثر ألما، والأكثر صعوبة من « معركة الجزائر »، والذي سافرقه ذات مساء برفقة « الخو » (ياسف سعدي) ولن أراه مرة أخرى أبدا. وبعد ذلك، وصل « الخو » الذي تعرّف عليه فورا، لأن سامية كانت قد قدّمت لي وصفا دقيقا عنه. كان وجهه يطفح ضحكا، وعيناه السوداوان، وفوقهما حاجبان كثيفان من نفس اللون، تتألآن حياة وحيلة. حيّانا بحرارة وقال دون مقدمات : « إنهم كالمجانين. توقفت جميع مصالح الشرطة والجيش عن أي نشاط لتتفرّغ لقضية القنابل، وقد علمنا أنهم تعرفوا على واحدة من واضعات القنابل، لذلك، لم نرد أن نعرّضكما لأي خطر. لا تصدّقوا ما تقوله الصحافة التي تتحدّث عن أوروبيين وشيوعيين. ولهذا جئنا بكما إلى هنا ووضعكما خارج أي حركة، في انتظار أن تكون لدينا معلومات مؤكّدة ». لم أكن أصدّق عيني وأذني ! أنا إلى جانب علي لابوانت وأواجه « الخو » ! في الحقيقة، لم أكن أسمع

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

إلا بأذن واحدة. ذلك أنَّ « الخو » يذكّرنا بـ « الفنك »، قائدنا الذي اعتُقل في أفريل 1956، لنعتقد جازمين أنَّ جميع القادة الكبار هم أصحاب قامات قصيرة، وبخفة كبيرة وبعينين نقّابتين. كانت حركات « الفنك » وعباراته متحفّظة، لشباب الأحياء الشعبية في المدن، أمّا « الخو » فكان منطلقا مع ثقة في النفس ومرّحا باستمرار. كنت بعيدة جدا عن صورة « الفلاقة » كما تقدّمها الصحافة الكولونيالية، باعتبارهم « دمويين بلا شفقة ولا رحمة »، يجسّدون الشر المطلق والقوة الفظة. أما ياسف سعدي، قائدنا العسكري لمدينة الجزائر، فكان مضيافا وبشوشا وسهل المعاشرة ودافعا وأخويا. سحقتني التواضع في ذلك اليوم، فحاولت أن أثمن الامتياز الضخم الذي يقدّمه لي قدرتي بوضعي أمام مجاهدين أصيلين ويا لهما من مجاهدين ! القائدان العسكريان الكبيران لمنطقة « الدزاير »، كان أحدهما، علي لابوانت، حسب الأسطورة الشعبية، يملك القدرة على التواجد في مكانين مختلفين ومتباعدين في اللحظة نفسها، ويؤدي مهمتين ناجحتين في آن واحد. فبقدر ما كانت الصحافة الكولونيالية تطارده بمقالاتها الخاقدة، متهمة إياه بارتكاب جميع الموبقات والأفعال الشريرة، بقدر ما يحظى عند سكان القصبة بالإعجاب والحب والاحترام، كما لو أنه أحد الصحابة الأجلاء، مثل سيدنا حمزة حامي الفقراء، رجل القلب الكبير، أو سيّدنا عليّ بشجاعته التي لا نظير لها. وعند مرافقته، عرفت أنَّ الناس في القصبة يحكون أنَّ المظليين الفرنسيين الذين يجوبون أزقة المدينة العتيقة ليل نهار، عندما يرون علي لابوانت يبرز من درب أو زقاق، يسرعون إلى إدارة وجوههم نحو الجدران وحمائتها بأذرعهم وهم يصرخون باكين : « أمّا ! النجدة ! علي لابوانت ! ». وكان علي لابوانت هنا إلى جانبي، بلحمه وعظمه ! ولم يكن به شيء يُرعب. بالعكس ! يملك وجها جميلا مليئا بالحيوية والطاقة التي يمنحها الإيمان بهدف نبيل مقدّس.

وكان كلما يوجّه كلامه إليّ أو إلى سامية، يبدأ جملة بـ « يا اختو »، بنبرة خاصة في الصوت المليء بالانفعال والريب والاعتراف. حينما كان يتلفّظ بكلمة « اختو »، التي تكتسي سحرا عنده وعندنا معا، كان يتبعها بضحكته الشبابية المضيفة. بدءاً، شعرت بنفسى قريبة جدا من علي، وطفّت على لساني، صادرة من عمق أعماقي، صفة « العادل » التي تليق بشخصه.

بعد ذلك بشهور، أثناء حياتنا المطاردة، أوّكد أنني لم ألاحظ لديه أيّ مرارة ولا ذرة حقد. كان كله وفاء واستقامة وشجاعة في طبيعتها الصافية. كان يتصرّف بعفوية مربكة كما لو أنه ولد للدفاع عن الخير والضعيف، ومكافحة المستبدين والشر والظلم. بالنسبة لعلّي، كان الاستعمار يجسّد الشر المطلق، سبب وأصل شقائنا الجائر، ومن ثمة، فمن واجب أي رجل خير وشريف أن يحارب هذا النظام بلا هوادة. كنت جالسة إلى جانب عليّ العادل، وأنا أثبت في ذاكرتي جميع تفاصيل تلك اللحظة المقدّسة من شبابي، حينما هزّني بذراعه التي تلف كتفي قائلاً: « إذن، يا اختو، أنت هي « الفاورية » اللّي فجرّت « الملك بار » انتاعهم ! ». لم أجرؤ على الجواب خوفا من إحداث تبخّر النشوة التي أحدثتها في نفسي كلمة « اختو ». في حين كان علي يجلس على حافة السرير بيني وبين سامية، كان « الخو » يجلس على الكرسي الوحيد الموضوع إزاء الطاولة. فتشعب بنا الحديث إلى موضوعات أخرى كما لو كنّا أصدقاء قدماء. وكانت سامية، المتحمّسة، تشاركهم الحديث أكثر منّي. أما أنا، فلم أتحدّث كثيرا. أولا لأنني لم أتمكن بعد من السيطرة على الانفعال الذي أحدثه في نفسي لقائي بالمجاهدين والقائدين الكبارين. ثانيا، لأنني خشيت أن تفصح عربيتي أصولي الغربية الجزائرية، لأنّ جميلة حدّرتني من أن ذلك قد يسيء إليّ بطريق ما. لحسن حظي أن « الخو » يميل دوما إلى تخفيف الجوّ ومباشرة كل موضوع بعفوية ظاهرة ودون تعقيد، تمكّنت عيناه

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الماكرتان وضحكه العفوي من تذويب الحرج. وفي تلك اللحظة، وصلت جميلة، فكرت أنها وصلت في نفس وقت وصول الأخوين وإنما انتظرت قليلا لتلتحق بنا، ربما لتترك لنا وقتا للتعارف ! لتمنح لنا الإحساس بأنها تجهل مكان اختفائهما. وأظن أنّ السببين يصلحان معا. جلست معنا على السرير الضخم، فأكملت أخوتنا واستأنف النقاش بحيوية بسبب حضورها المهيّب. كنا كخمسة إخوة يلتقون بعد غياب طويل، وفي تلك اللحظة أيضا، كنت مجروحة القلب وإلى حدّ الوجع، من ظلم وبهتان الدعاية الكولونيالية بصورة المزيّفة الحاقدة، حول إخواننا وشعبنا. وبالعكس تماما، كان كل شيء عند جميلة وعلي والخو يوحى بالمعرفة والتجربة والثقافة العظيمة الأصيلة، الحضرية، الأنيقة والسخية. نظرت إليهم بامتنان كبير ونهم زائد لأنهم يؤكّدون، بكيانهم في هذا العالم وله أيضا، كلّما اكتشفناه، سامية وأنا، منذ دخولنا بالأمس فقط إلى هذا القصر الصغير داخل القصة : تحضّرنا، وتمدّنا كما كان يمكن له أن يوجد قبل الشقاء المطلق الذي نزل على شعبنا ذات يوم من أيام 1830. توجه « الخو » بكلامه إلينا، أنا وسامية : « لا ينبغي أن تقلقا. لأسباب أمنية، يجب أن تبقى هنا إلى غاية تلقّي أمر جديد. إذا احتجتما إلى كتب أو إلى أي شيء آخر، لا تتردّدا، واطلبا ذلك من جميلة. كل صباح، ستزوّدان بالجرائد، المحلية والفرنسية، ولكن لا تتركا دعايتها تلوث ذهنكما. أرى بأنكما تملكان جهاز راديو، هذا جيّد ». أرخيت أسناني لأقول بخجل أنه لا يمكنني البقاء طويلا في القصة، وعليّ الالتحاق بالإقامة الجامعية، لأنّ أبي يمكن أن يأتي لزيارتي، وإذا لم يجدني سيقلق دون شك، وسيّصل بالأب لحضاري الذي يعتقد أن ابنته عند أختها بوادي الفضّة. ردّ الخو بسلطته الهادئة : « لا تقلقي. من جهة أبيك، اتخذنا جميع التدابير اللازمة ». ماذا يريد « الخو » أن يقول بالضبط عن أبي ؟ لم أجرؤ، بسبب الخجل،

داخل القصة، في قلب المقاومة

أن أ طرح السؤال . عند تلك اللحظة، وقف الرجلان استعدادا للخروج، وقاما بتحيّتنا بحفاوة، وربّت عليّ بحنان على كتفينا قائلا : « إلى اللقاء . أنتما في أمن هنا . نحن بحاجة إليكما » . فتمنى لنا الأخوان حظا سعيدا واختفيا في السلالم، تاركين إيانا واقفات عند عتبة الباب، بقلوب منقبضة، برغم ذلك العطف وتلك العناية التي أبدّاها إزاءنا الرجلان . خرجت جميلة بدورها لتتركنا عرضة إحساس كبير بالعزلة . كان المجهول أمامنا . أحسست بانقباض في الصدر لأنّ بداخلي تشكّلت فكرة أنني، أبدا، لن أعود إلى حياتي اليومية العادية . فوعّيت فجأة بأنني أبدأ حياة جديدة أجهل عنها كل شيء . فاستحضرت كلمات أبي في لقائنا الأخير، حينما ألحّ لي عرف إن كنت حقا على علم بالنتائج الحقيقية لاختياري . فحاول، بتحفظه وخجله، أن يحذّرني من الصعوبات التي تنتظرني، دون أن ينجح في تثبيط عزيمتي . انتابتنني رغبة عارمة لرؤيته وضّمّه إلى صدري والحديث معه لأقول له أنه كان على صواب . نعم، إنّ حياتي الجديدة مجهولة لدي كلية، لم أهيئ نفسي لها بالقدر الكافي، ولكن المبادئ والقيم التي لقّنتني إياها وحب بلدي وشعبي يدفعني إلى محاولة المستحيل لمكافحة الاستعمار لنعيش في كنف الحرية والكرامة في أرضنا المستقلة من ربقة الاستعمار .

دخلت إلى غرفتنا، تمدّدت على بطني فوق السرير كي أخفي الدموع التي بلّلت وجهي . لم تتأخّر سامية عن الالتحاق بي، فتحولّ سرير لالة الكبير إلى سرير « النحيب » . وكلّما فكّرت في أبي، وأمي – كيف يكون ردّ فعلها إن علمت أنني أعيش في القصة عند عائلة مجهولة ؟ – كلّما زاد منسوب دموعي . أما سامية، فلم تكن تعرف كيف تشرح للإخوة الكبار بأنها ملزمة بتوقيف كل نشاط في ديسمبر المقبل بسبب زواجها الذي كان مبرمجا منذ تاريخ طويل . لقد تمّت قراءة الفاتحة وتنظيم مراسيم الخطوبة في أفريل 1956

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

في سانت أوجين، في حفل باذخ حتى وإنْ خصَّ عائلتي لخضاري وبن ساسي فقط، وهما كثيرتا العدد حقا. كان الحدث بهيجا لأنّه عقد اتحاد شابين يحبان بعضهما بعضا منذ مراهقتهما. يعرف جميع أعضاء العائلة الميول المتبادلة بين سامية وقريبها أنيس، ابن خالتها، الذي يكبرها بأعوام قليلة فقط وهو طالب حقوق في ليون الفرنسية. مازلت أتذكر تلك الأسابيع المكّسة لتحضيرات « الفاتحة » وهيجان الأيام الأخيرة. كنا، سامية وأنا، غارقتين في تنفيذ المهمّات التي كان « الفنك » يكلّفنا بها خلال النهار، ونعود إلى البيت، فنساعد على أداء بعض الأشغال المنزلية. وفي ظهيرة الأربعاء التي تسبق نهاية الأسبوع الذي خصّص لحفلة الخطوبة، ذهبنا برفقة مجموعة من الفتيات إلى الحّمّام العمومي، نحيط سامية مثلما تقتضيها تقاليدنا. كانت مناسبة لي لأكتشف هذه التقاليد الدزيرية حيث ترافق الفتيات من القريبات والصديقات والجارات « المخطوبة » إلى الحّمّام العمومي في طقوس عجيبة، تدفن فيها الفتاة بشكل رمزي حياة العزوبية. وبمجرد دخول المتزوجة المستقبلية، يتحوّل الحّمّام إلى مكان عرس حقيقي، تشارك فيه جميع النساء الحاضرات بفرح وبهجة صادقة، تعبّر عنها زغاريدهن المدوّية التي ترافق المخطوبة عند كل تنقلاتها، من قاعة التبدّل إلى الغرفة الباردة، ثم إلى الغرفة الساخنة أو إلى الفضاء المخصّص للتدليك والعناية الجسدية الأخرى. وكانت سامية ترتدي فوطة جميلة وقبقابا ورديّ اللون. وكانت جميع مستلزمات الحّمّام جميلة وتليق بأميرة: الدلو والطاسة النحاسيين، الفنيّيق النحاسي وهو جهاز صغير بطوايق يحمل أنواع الصابون وأدوات الغسل الأخرى، إزار الحمام الكبير، « البنيقة » وهي قلنسوة الحمام المطرّزة بموتيفات رائعة، « الصابة » أي صندوق السوخر الكبير بداخله المبطن و « البشكير » وهو نوع من الإزار المزّين بتطريز أنيق. جاءت إحدى قريباتها بـ « مَحْبَس » (دلو نحاسي) وحلويات « المقروط » و « الصامصة »

داخل القصة، في قلب المقاومة

بالعسل واللوز، والثانية بكامل مستلزمات تحضير القهوة والشاي بمساعدة صاحبة الحمام، بتلك الصواني النحاسية المزينة برسومات وموتيفات رائعة الجمال والكؤوس والفناجين. وحينما كنّا نتمدّد داخل الغرفة الساخنة، وبعد ذلك في نهاية « التخميمة » حينما التحقنا بقاعة التبديل، وُزّعت علينا كؤوس « الشربات » المنعشة وهو مشروب ليموني بماء الزهر والقرفة، كما تمّ توزيع القهوة والشاي والحلويات على جميع النساء الحاضرات في الحمام واللائي رددن على الهدية بزغاريد صامة والدعاء الصادق للمخطوبة بزواج سعيد مليء بالذرية الصالحة، وللعائلة بدوام الهناء والصحة والرفاهية. كان عرسا شعبيا حقيقيا كسّر جميع القيود الاقتصادية والسياسية والجهوية: كنا في مملكة نساء بلادنا وكنا جميعا سلطانات. كنت سعيدة وفخورة لأنّ الأوروبيين لم يتمكنوا من فعل شيء ضد هذه المملكة التي تتملّص كلية من سلطتهم ورغم 126 سنة من الدمار والتخريب ومحاولة تفكيك أواصر المجتمع وثقافته. وقضينا يومي الخميس والجمعة للتجارب الأخيرة وقياس الألبسة الفاخرة التي سترتديها سامية في عرس خطوبتها، ويوم السبت صباحا عند أفضل صالون حلّاقة في العاصمة، صالون « روكس » للحلّاقة، المخصّص لأعيان المجتمع الكولونيالي وبعض العائلات البورجوازية المسلمة، مثل أخت سامية الكبرى التي أوصلتنا إليه. وفي الظهر، بدأت أولى تباشير العرس مع كامل بذخ الأرستقراطية القسنطينية حيث تخضع أدنى الأشياء إلى ناموس صارم وضوابط موزونة سلفا: طريقة اللباس والمشى والكلام والغناء والرقص والأكل وحتى طريقة الصمت، مثلما فعل مالك عندما دخل صالون النساء ليأخذ أخته سامية نحو قاعة الرجال لقراءة « الفتحة » وإتمام مراسيم الخطوبة. وبعد انتهاء تلك الطقوس، تلقّت صديقتي الهدايا والأموال من عند الرجال الحاضرين. لم أرَ في حياتي هذا الكمّ الهائل من الأموال ولا هذه

مُذْكَراتُ مُجَاهِدَةٍ مِنْ جَيْشِ التَّحْرِيرِ الْوَطْنِيِّ مِنْطَقَةُ الْجَزَائِرِ الْمُسْتَقْلَةِ

الحلبيّ والمجوهرات الثرية الرائعة الجمال كتلك التي تلقتّها صديقتي في ذلك اليوم. دام العرس طوال الليل، وفي الغد افترق الجميع. كانت صديقتي في ذروة السعادة لأنها ستتزوَّج أمام الله ذلك الشاب الذي أحبته دوماً، ولكن في الوقت نفسه، أحزنها أنه لا يمكنها اقتسام سرّها معه. طمأننتها بما استطعت أن أشرحه لها بأنّ الله يوافق بأنّ تحافظ على أسرار نشاطاتها داخل « المنظّمة »، لأن هذه « النشاطات » هي في خدمة قضية مقدّسة في ديننا : الكفاح ضد محتلين لبلدنا. وأضفت لها : « أنا متأكّدة بأنّ أنيس، لو كان معنا هنا، كان سيكون معنا ويساندنا في كفاحنا، ولكن يجب احترام الانضباط ». كان هذا الكلام في أفريل 1956.

في بداية أكتوبر 1956، بعد حوالي شهرين ونصف قبل عرس زواج سامية، كنّا ممدّتين ونحن نجهش بالبكاء داخل إقامتنا الجديدة، حينما دخل علينا « ملكنا الجميل » ليعلن أنّ الغداء جاهز. تبعناها نحو الغرفة المقابلة لغرفتنا حيث وجدنا الأكل موضوعاً على صينية فوق مائدة، تحوي سلاطات تحيط طبق « السفيرية » (يتشكّل من لحم الخروف وكريات خبز وجبن وبيض مذهب وسط بطاطا مقلية). أكلنا بلذّة لا نظير لها. وبعد ذلك جاءت لالة ودعتنا إلى أخذ حمّام. فهمستُ لسامية مبتهجة : « ها ها ! انتهت فترة الإعفاء ! لالة ساهرة بالمرصاد ! ». تجرّأت سامية قائلة : « أفضل انتظار نهار الغد، إن لم يكن في ذلك إزعاج ما، لأنني لا أملك ملابس التبديل ». فأجابت لالة التي احتاطت لجميع الطوارئ الممكنة : « لا تشغلي بالك بهذه الأشياء. كل شيء جاهز داخل الحمّام، توجد ملابس التبديل الداخلية لكما وكامل ضروريات الغُسل. دعوت جميلة للبقاء معكما ومرافقتكما ولكنها مشغولة بمهمة خارج البيت ». تبعنا لالة التي أخذتنا إلى الطابق الأرضي، قبل أن تسلك سلالم لم نرها عند مجيئنا تؤدي إلى طابق تحت -أرضي حيث يوجد الحمّام. عتّبنا

داخل القصة، في قلب المقاومة

بابا منخفضا نوعا ما بمصراعين ينفتحان على غرفة مستطيلة الشكل، بها فراشيتان مبطنتان ومغلقتان بقماش بخطوط برتقالية وسوداء كقماش الفوط القبائلية. وعليهما جميع مستلزمات التَّحْمِيمة : فُوط الدخول إلى بيت الماء والقباقيب ومناشف الحمام العريضة والسميكة و« البنيقات » لشدّ الشعر بعد غسله. يفصلنا باب ثانٍ عن بيت الماء الذي كانت جدرانها مغلقة بقطع السيراميك عليها رسوم أزهار الخزامي الأصفر والأزرق والأخضر، وهو النوع الذي نجده في أغلب الديار الدزيرية، أما الأرضية فكانت من الرخام الأبيض. أحواض رخامية تتراصف، لاصقة بالجدار، وتتلقى الماء الساخن والبارد من حنفيات نحاسية. كنا، سامية وأنا، منبهرتين من كل تلك الأناقة والأبهة. كان كل شيء في تلك الدار منسجما وموظفا بعناية قصوى. والمفاجأة السارة أننا داخل حمام لنا الاثنتين فقط ! تمددت على ظهري فوق الرخام الساخن وتركت الحرارة تتسرب إلى كامل جسدي، محاولة إفراغ ذهني من أيّ تفكير يعكر تلك اللحظات السعيدة التي ملأت جسدي خفة ورخاوة. تمنيت أن لا أخرج من الحمام أبدا، ولكن صوت لالة أرجعني إلى الواقع. كان علينا أن نغسل جسدينا ونصوبنهما دون تأخير لأنّ مضيفتنا تنتظرنا لأداء صلاة العصر معا. ذلك لأنّ صلاة الجماعة من أفضل الصلوات عن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلّم. ومع ذلك، تباطأت قليلا كي أديم سكينه تلك اللحظات المريحة، والتي ملأتني - يا للغرابة - حزنا. التزمت سامية الصمت، وكنت أرمي طاسات الماء الساخن على وجهي كي أغسل دموعي أو أملا حفنة يديّ بالماء البارد لأشرب جزءا منها وأصبّ الباقي على وجهي.

بعد ذلك بشهور عديدة، حينما وجدت نفسي برفقة علي وحسيبة وعمر الصغير داخل مخبأ، لا يزيد علوه عن قامة أصغرنا، تذكّرت حمام لالة، وحينما كان العرق يبلل وجهي بسبب نقص التهوية، كنت أغلق عينيّ وأتنفس ببطء وبكميات قليلة من الأوكسجين وأجهد خيالي لأحوّل عرقي إلى

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

تلك المياه الرطبة المنعشة التي كنت أدفّقها على وجهي في حَمّام بلحقاف . كانت القطيعة مع حياتنا السابقة ثقيلة على كاهلنا برغم العناية القصوى التي كنا نحظى بها ، سامية وأنا . وكانت جميلة وسيلة اتصالنا الوحيدة مع العالم الخارجي ، مع حياتنا السابقة ، مع الحياة ، هي الغائبة دوما طوال النهار ولا تعود إلا مع نهايته ومعها بعض الحلويات . ذات يوم ، جلبت لنا تَوْرَتَيْن وصدارين ، جميلين وأنيقين . سألناها : « ماذا سنفعل بها ؟ هل نخرج ؟ » . لا ، ما هي إلا نزوة خاصة من جانبها إرضاءً لنا . غرقنا في ضحك هستيري ملأ ذلك البيت الرائع بالصمت المخيم عليه في جميع الأوقات ، والذي لا تسكنه إلا تلك الفتاة الفاتنة الجمال التي تعتني بشؤون أكلنا ، ولآلة ، مضيفتنا المستبدة ، ولكنها حنونة ومحبة . فلم تتأخّر هذه الأخيرة من الظهور لتلومنا على ذلك الضحك « المَبْهَدَل » ، موضّحة بأنّ رسولنا الكريم أوصى النساء بعدم رفع أصواتهن ، والدليل أنّ صلاة المرأة دائما صامتة !!! مازحناها بالقول أنّ رسولنا الكريم يحب النساء والموسيقى وانطلقنا في ضحك جنوني وعنيف ومدوّ ، مقدّمين لها صورة « كارثية » عن ثلاث مجاهدات . ولكنّ لآلة العارفة بشؤون دينها ، وافقت بأن رسولنا الكريم كان يحب زوجته عائشة ويجهر بحبه ، شارحة لنا كيف أنه ساند ابنته فاطمة الزهراء ضد صهره سيّدنا علي - رضي الله عنه - حينما أراد أن يأخذ زوجة ثانية . ولكنها ختمت بأنّ فتيات أصيلات وبتربية حسنة ، ومجاهدات فوق كل هذا ، لا ينبغي لهن أن يطلقن العنان لإسماع ضحكاتهن وكشف عواطفهن . فختمت لآلة قولها بحكمة : « يجلب مثل هذا السلوك الآذان الطيبة والسيئة على حدّ سواء » . وعندما بقينا وحيدات ، أجابت جميلة عن الأسئلة التي لم نعبر عنها بعد : « كونا صبورتين ! أظن بأننا سنغادر هذا البيت عن قريب إلى مخبأ آخر » . هل يعني هذا أنّ « الخاوة » تلقوا معلومات مطمئنة ؟ لم تكن تعرف .

داخل القصة، في قلب المقاومة

• حسيبة بن بوعلي تلتحق بنا في مخبأ بلحفاف

واصلنا العيش مع احترام التعليمات بعدم مغادرة « المنزه »، إلا إذا دُعينا إلى ذلك. وكان « الملك الفاتن » يقوم بخدمتنا ولا يحرك شفتيه إلا للإجابة وباقتضاب عن أسئلتنا، أو التلطف بعبارات الترحيب والاحترام والاعتراف بمكانتنا كمجاهدات. بعد أيام قليلة، اكتشفنا أن نساء أخريات، وكذا بعض الرجال، يعيشون داخل الدار الكبيرة والجميلة، وعلى سطحها يقع مخبؤنا المسمّى بـ « المنزه ». ولكن يبدو أن الكل لا يتكلم إلا بالهمس ولا يمشي إلا الهوينا، لأن لا صوت ولا ضجيج يكسر الصمت الرهباني المخيم. مرة واحدة، سمعنا شخصا يصفق بيديه. وعند المرة الثانية، أسرعنا للنظر إلى الأسفل، نحو « وسط الدار » واكتشفنا أن التصفيق طريقة تستخدمها لالة لتنادي نساء البيت اللائي يتراوح عددهن من ثلاثة إلى أربعة، ولم نتمكن من معرفة العدد بدقّة. ولتزجية الوقت، وبعد تهوية الغرفة وتنظيفها وتنظيم أفرشتها وقراءة الجرائد، اخترعنا، سامية وأنا، لعبة تتمثل في محاولة تخيل الحيوانات السابقة للأشخاص الذين تعرفنا عليهم مؤخرا، بما في ذلك وبالأخص قادتنا. ذات ظهيرة، وفيما كنّا نتسلّى بتخيل الحياة السابقة لـ « الخو » وعليّ وكنا ننفجر ضاحكتين من افتراضاتنا، دخلت جميلة الغرفة فجأة، وخلفها وقف شبح ملحف بحايك أبيض. علّقت جميلة : « يبدو أنكما تتسليان بطريقة جيّدة »، ثم أضافت : « أقدم لكما أختا ». التفتت نحو الشبح وقالت : « تقدّمي وانزعي الحايك. أنتِ هنا في أمان، وستقضيين أياما هنا برفقة الأختين ها هنا ». وبعد ذلك، قدّمتنا جميلة بأسمائنا المستعارة. عبّبت أختنا الجديدة باب الغرفة وهي تتخلّص من حايكها وتنزل « عجارها » من على وجهها. كانت طويلة القامة، بهيئة شامخة، وشعر أشقر جمعته في ثثة ورفعته إلى وراء على شكل ذنب الخيل، والبصر أزرق، مستقيم. فتعرّفنا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

عليها، سامية وأنا، مباشرة. إنها تلك الفتاة الجميلة التي صادفناها ذات يوم من شهر أوت وهي تخرج من بقالة « لاكونصولاسيون ». إنها هي فعلا. كانت نظرتها هي التي لفتت انتباهي في ذلك اليوم، ودفعتني إلى التأكيد بأنها جزائرية وليست أوروبية مثلما توحى هياؤها وطريقتها في اللباس. إن جسدنا النحيل وعينيها الزرقاوين الشفافين ووجهها المدور الشكل الذي يزيّنه الشعر الطويل، كل هذا يوحي بأنها لم تفارق المراهقة إلا منذ سنين قليلة جدا. ومع ذلك، كان كل شيء فيها يتنفس الإصرار العصي الانكسار والقناعات الصلبة. إنها حسيبة بن بوعلي، أختنا الصغرى الرائعة. بعد ذلك بشهور قليلة، أثناء الفترة العصيبة التي سمّاها الجيش الفرنسي بـ « معركة الجزائر »، ستحكي لنا حسيبة كيف تمكنت من الفرار من رجال مصالح الأمن الذين جاءوا لاعتقالها في بيتها، في ساحة 01 ماي، وهي تحتفل برفقة أمها وأختها بزواج قريب لها في مدينة البليدة. في حوالي الساعة الثالثة صباحا، وفيما كان الضيوف المتأخرون ينصرفون، جاء شخص وأخبرها بزيارة الشرطة إلى بيتها والأمر بالقبض الصادر ضدها. فغادرت فوراً العرس أو ما تبقى منه، وهي لا تزال ترتدي فستان السهرة الجميل، بالدانتيل البيضاء، وأكملت ليلتها في بيت مجهول لم تتمكن من تحديد موقعه.

في أكتوبر 1956، كانت حسيبة تشتغل مع فرقة عزّوز، ابن سي لخضر، أعشابيّ مشهور جدا في بلكور، وكذا مع الإخوة تمّسيت، مناضلين سابقين في الحزب الشيوعي الجزائري واللذين التحقا بجبهة التحرير الوطني بعد اتفاق جويلية 1956 بين منظمنا والشيوعيين. كانت مكلفة بنقل الرسائل والطرود من « لاكونصولاسيون » إلى المنزل الذي يملكه سي لخضر في بئر خادم، ويسكنه ابنه عزّوز. فعلا، فقبل التحاق حسيبة بمخبئتنا في « المنزه » بأيام قليلة، تحدّث الصحاف عن اكتشاف مخبر لصناعة القنابل في بئر خادم،

حيث كان « يشتغل » الإخوة تَمْسِيَت وحيث تَمَّ توقيفهما. وحكت لنا حسيبة بأنها تمكنت بأعجوبة من الفرار من الاعتقال في ذلك اليوم بفضل أخينا الرائع مراد الصغير. طَوَّت بعناية حايكها ثم عَجَّارها ووضعتهما فوق الطاولة. جاءت لآلة ترَحَّب بقدوم أختنا الصغيرة والجديدة. حدَّقتهما بعينين حادتين كما لو أنهما تلمسان الشخص خاصة أن حسيبة لم تكن أكبر من « الملك الفاتن » المكَلَّف بتقديم الأكل لنا في الصباح ومنتصف النهار وعلى الرابعة زوالا وفي المساء. نَجَحَت حسيبة في امتحان لآلة الأول. برغم تحفظها، كانت تجيب عن كلمات الترحيب بنبرة وصيغ الفتيات المحترمات لسنٍّ ومرتبة مضيفتنا التي أعجَبَت بالقادمة الجديدة ولم تُخفي إعجابها. يبدو أن حسيبة قد جَسَّدت، وفي وقت وجيز، الصورة التي في ذهن ومخيلة لآلة عن المجاهدات. في حقيقة الأمر، وبرغم مظهرها الخارجي الهش بجسدها النحيل، كانت حسيبة يقظة جدا وحساسة وتعتني بالآخرين. تخفي إرادة فولاذية وتصميما يتحدَّى جميع الامتحانات، يمكن أن يصل إلى حدِّ العناد، كما سأكتشفه بعد ذلك. على كل حال، تحدَّثت مع لآلة وأبهرتها وأبهرتنا معها. بعد صلاة العصر، قدَّم لنا ملكنا الفاتن قهوة لذيدة مرفقة بأنواع عديدة من « خبز الدار »، والحلويات ومربى البرتقال الذي يُصنَع في البيوت بأبراجه المُعَسَّلة اللذيذة الأكل. أحطنا بتلك المائدة الباذخة وفيما كنَّا نحتسي القهوة ونقضم الخبز والحلويات ونتبادل أطراف الحديث للتعرف أكثر على بعضنا البعض، دخل علينا « الخُو » وعليَّ جاءا للتعرف على « المُقْنِيلة » الجديدة. وطبعا ارتفعت الأصوات والضحكات والنداءات وخلقت جواً من البهجة والفرح. خشيتُ أن تطردنا لآلة إلى خارج البيت، ولكنِّي طمأنت نفسي بأنها لن تجرؤ على الصعود ما دام الإخوة معنا هنا. وكعاداته، لم يكتفِ عليَّ فرحته وضحكه وهو يقول : « شوف يا خو، انظر إلى هذا الملك الصغير الذي يبحث

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

عنه الجيش الفرنسي باعتباره أخطر شخص في البلد ! ». كان فصيح اللسان ولا يتوقف عن التعبير عن اندهاسه وهو يكتشف أن المكافحة التي قدّمها الصحافة الفرنسية على أنها « أخطر إرهابي » كانت في حقيقتها فتاة شابة، هشة، جميلة وأنيقة المظهر. لم يصدّق عينيه، وعبر مرارا وتكرارا عن اندهاسه وافتخاره وهو يخاطب « الخو » الذي لم يكن يقلّ ابتهاجا عنه : « اللّي عنّدو خواتات كيما هاذو ولا بطلّ ». كان عليّ معجبا حقا بأخواته، فأراد أن يأخذ لنا صورة جماعية نحن الأربعة، هنا في المنزّه، بدار بلحّاف . رفضنا الاقتراح، سامية وأنا، احتراما لتعليمات الأمن الصادرة عن المنظّمة، وجميع قواعد الحياة السرية التي نعيشها . ولكن عليّ ألحّ، مؤكّدا أنّه أسعد أخ على وجه الأرض وأفخر رجل لأنّ الله بعث له أربع أخوات رائعات ويجب تخليد هذه اللحظة التاريخية . انتهى بنا الأمر إلى الاستسلام . فتناول عليّ الأسلحة وأعطاهما لكل واحدة منا وطلب منها أن تصوّب فوهته اتجاّاه . أخذ الصورة، فرحاً كطفل . مقابل آلة التصوير، صوّبت سامية سلاحها ولكنها أخفت وجهها، وراحت في الأيام الموالية تجتر ندمها واستخفافنا بالأمر وبالأخص استخفاف قادتنا .

للأسف الشديد، كان خوف سامية في محلّه، لأنّ هذه الصورة ستقع مستقبلا بين أيدي مصالح الأمن وهي التي ساعدتها على تحديد هويتنا . فقبل أن نخوننا تلك الصورة، وبرغم توقيف إخوة اشتغلنا معهم، لم يتمكن أحد من معرفة هويتنا الحقيقية . أصررت على رواية حادثة التصوير لأنها تعبّر بحق أنّ عليّ لابوانت كان إنسانيا وأخويا وعطوفا . وكانت حسيبة تسحره كطفل، بل كرضيع . ذات يوم، أفصحتُ له عن هذه الملاحظة، فردّ منفعلا : « شوفي يا اختو، من المفروض أن تكوني أنت وسامية في الجامعة وهذا الملك (حسيبة) في الثانوية، ولكن فرنسا قرّرت عكس ذلك . وعوض أن تذهب إلى المدرسة، أصبحت تذهب إلى مخبر القنابل عند عزّوز . كان يمكن لها أن

داخل القصة، في قلب المقاومة

تنفجر مع القنبلة مثل رشيد . ليست إلا طفلة . فرنسا هي التي أرادت هذا، يا اخْتُو ! ». كان صادقا إلى أقصى درجات الصدق، وأراد الله أن يموت مع حسيبة وعمر الصغير، ملكيه . كان ستتنا يحيطون بمائدة قهوة العصر، فشرح لنا « الخو » أن الشرطة تعرّفت على هوية حسيبة وهي الآن محل بحث من مصالح الأمن . أضاف أن صورتها قد وُزعت على جميع الأعوان، بمن فيهم المخبرين . النتيجة أنه يمنع منعاً باتاً على حسيبة أن تغادر البيت دون أمر منهم، ومهما كان السبب . قلت ضاحكة : « في الواقع، نحن الثلاثة ممنوعات من الخروج »، أملا أن يسمح لنا « الخو » بالعودة إلى سانت أوجين، ذلك أننا بدأنا نستثقل هذه الإقامة الجبرية بدون أن نفعل شيئا سوى الاستهزاء بأفكارنا الحمقاء أو القلق من ردّ فعل والدينا .

• مسخ حسيبة

وبدون أن يجيبني، واصل « الخو » : « أبدت حسيبة رغبة الالتحاق بالمجاهدين في الجبال، لذلك تلزمها أوراق هوية مزوّرة كي تتمكن من السفر . سيأتي مصوّر ليأخذ صورة لها . ولكن قبل ذلك، ينبغي تغيير وجهها وشعرها » . أطالت جميلة النظر بصمت في حسيبة، فكّرت ثم قالت : « أظن أن أول شيء يُستحسن لحسيبة أن تفعله هو تغيير لون شعرها . إذا دهنته بالحناء مرات عديدة، وصبغت شعر الأجفان والحاجبين، سيكون لها وجه مختلف تماما . ما يلفت الانتباه عندها، لون شعرها الأشقر وحاجبيها . ثم سنرى إن كان من الضروري أن تحمل نظارات، نظارات طبية مزوّرة طبعاً » . وفورا، كعادته دائما، بدأ علي يمزح مع حسيبة التي تعرّف عليها منذ قليل فقط : « هكذا يا أختنا الصغرى، ستشبهين مارينا فلادي بشعرها اللاهب . ونضمن بأن لا عسكري سيقاوم الشقراء اللاهبة بالعينين الزرقاوين التي

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

ستصبحين ». ثم أحاطها بذراعيه الرياضيتين، وأضاف : « على كل حال، إذا كان لا بد لي من مرافقتك للصعود إلى الجبل، سأفعل بكل سرور، أليس كذلك يا « الخو » ؟ فليتجراً واحد من هؤلاء المظليين القذرين على الاقتراب منك يا أختي الصغيرة. ولا واحد منهم سينجو من رصاصاتي ! » لازمت حسيبة الصمت، فابتسم لها ابتسامة عريضة وقال : « أنا لا أخاف منهم، فما أدراك وأنتِ معي، سأواجههم بوجه مكشوف، ولا يخيفني منهم أحد ». كانت حسيبة شابة وهشّة، بنظرة ملائكية وخجولة بحيث أنزلت جملته غير المنتظرة صمتاً مثقلاً بانفعال قوي. تفادينا تبادل النظرات وأجهدت نفسي كثيراً كي لا أجهدش بالبكاء ؛ لأننا أحسنا بأنفسنا أقرباء جداً لبعضنا البعض كالإخوة تماماً. وكنا نعرف سلفاً أنّ عليّ هو الأخ الذي سنعتمد عليه في جميع الحالات، هو الصخرة التي سنحتمي خلفها عند الشدّة، هو الحصن الحصين الذي ستتفتّت عند أسفله جميع قوى الشرّ ومهما كانت مرعبة. وقف « الخو »، أخذ بندقيته الرشاشة التي وضعها إلى جانبه على السرير، في متناول يده، وخاطبنا قائلاً : « أثق فيكن لتغيير وجه حسيبة »، ثم أضاف : « هيا، يا عليّ، حان وقت الذهاب »، ثم إلى حسيبة : « هيا يا اختو، لقد تغلبت عليهم، وستبقى الغلبة لنا دائماً إن شاء الله ! ». كنت أعرف من هي حسيبة، لأنّ عائلتي تتعارفان، ولكنني لم أقل لها شيئاً. ولم تذكر ولا واحدة منّا نحن الأربعة، لا في ذلك اليوم، ولا في أي يوم آخر (باستثناء مرة واحدة، في اليوم الذي سبق اعتقاله)، ولا حتى في السجن، حيواتنا الماضية، ولا النشاطات التي قمنا بها ولا المجموعات التي انتمينا إليها. تلك كانت قواعد السرية والاكتفاء بأقل قدر من المعلومات تحسباً ليوم الاعتقال والتعذيب الرهيب. كنّا عبارة عن أسماء مستعارة، اختي وخويا، وإلى غاية الاستقلال. لم أتعرف على اسم مَلّاك مخبئي الرائع، عائلة بلحفاف، إلّا قبل أسابيع

داخل القصة، في قلب المقاومة

قليلة من اعتقالي، برغم أنّ ابنها عبد الرزاق كان مسؤولاً كبيراً في منظمتنا، ولكّني أثناء الثورة لم أعرف إلا اسمه الحربي : هود. ليكرّمهم الله بإدخالهم إلى جنته الخالدة، هو وأخته الكبرى، لالة، وكل أفراد عائلته. بعد خروج الأخوين، اقترحت علينا لالة، وهي الحارسة دوماً على راحتنا، أن نلتحق بالحمام السحري الصغير. ولكننا اعتذرنا واقترحنا تأجيل « التّحميمَة » إلى نهار الغد، لأننا سننشغل حيناً بتغيير شعر حسيبة ووجهها. تكفلت جميلة بشراء الحناء، فطينا بها شعر حسيبة إلى الجذر وإلى الأطراف، دون نسيان الحاجبين. كانت جميلة حاذقة حقاً، فحوّلت غبرة الحناء إلى عجينة سائلة كي تصبغ بها جفون حسيبة الصابرة التي لم تنبس ببنت شفة حينما عكست لها المرأة الصغيرة صورة رأسها المغطى بعمامة لإحكام عجينة الحناء وانتظار جفافها قبل غسلها. وحينما أحست بثقل جفونها بالحناء، وجدت صعوبة في إبقاء عينيها منفتحتين ولكنها تأملت بصمت. كانت رائعة خلال كامل عملية المسخ، وتحملت دون أي كلمة، علماً بأنّ عليها تحمّل تلك الحناء على شعرها وحاجبيها وجفونها طوال بقية اليوم والليل وإلى صباح الغد.

لا أنسى أبداً صورة حسيبة، الواثقة، المنضبطة. أعطتنا رأسها بعينين مغمضتين واستقامة وثبات. كان هلعها مُدركاً ولكنها لم تقل شيئاً. هيمنت على أعصابها، صبورة، صامته. ولكي نخفّف الجو، حاولنا مباشرة العملية بصيغة لعبة وبإشراكها، ولكن رعونتنا كانت واضحة للعيان، ذلك أنّ جمودها يخفي قلقها الذي يعود إلى شعور كنتُ أحسّ به ؛ شعور عصيّ التعبير عنه، ناهيك عن اقتسامه مع شخص آخر ؛ ذلك الشعور الذي يتولّد لحظة إدراكك أنّك تغوصين في المجهول، حينما تُخبرين ولو بألف احتياط وحذر، ولو بلطف وحنان لا نظير لهما، أنه وابتداءً من تلك اللحظة لا تملكين « بيتاً لك »، وأنه عليك أن تنتقلي إلى أماكن مجهولة، لا تعرفين عن شكلها

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

شيئا، ولا المدّة التي ستقضيها بداخلها. إحساس رهيب بالعزلة، كما لو أنك تنهارين في فراغ لا قاع له، خاصة في وضع حسية، حيث انكشفت هويتها ووزّعت صورتها على جميع أعوان الشرطة والجيش وأعوانهم ومخبريهم. خاصة مع شابة مثل حسية، تخرج توا من المراهقة، حيث لا تزال بحاجة إلى دفء الحزن العائلي المطمئن. ولكن حسية كانت رائعة، هادئة على طريقة البوذيين، لم تُظهر شيئا من جميع تلك الأحاسيس الخافقة بداخلها. وكان سلوكها يزيد من كبرها في عيوننا، ويعظّم إحساسنا بالذنب لأننا لم نترك لها الوقت الكافي لتمتع بمزايا المنزه، وتتعرف علينا أكثر، وعلى طقوس لالة، تأخذها معها كمعالم ترشدها في طريقها. كنا نحسّ بغيظ يقضم أحشاءنا، فنسرع كي نُجرّ حسية إلى مسخها الكلي كما لو كنا في لعبة، فتظهر رعونتنا أكثر فأكثر، تلك الرعونة التي انتبهت لها أختنا الجديدة برغم عيونها المغمضة، فانفجرت بالضحك، واحتضنتنا بذراعيها النحيلتين وهي تقول : « لا شيء. جرت الأمور بسرعة، ازدحم كل شيء في حياتي وفي رأسي، لينتهي بي المسار إلى مسخ رهيب في شعري. أليس هذا كافيا ليقعني في حيص بيص، أليس كذلك ؟ ». ثم أطلقت ضحكة أخرى معدية. في تلك الليلة، نامت جميلة معنا، واحتمينا نحن الأربعة بأجسادنا فوق السرير الكبير لعائلة بلحفاف.

في الغد، بعد صلاتي الفجر والصبح اللتين لم تتملّص منهما ولا واحدة منا، وبعد تناول فطور الصباح، طلبنا من لالة الذهاب إلى الحمام. وخضعت حسية، التي درّبناها على جميع القواعد التي تُسيّر قصر لالة، لجميع التعليمات بوداعة وصمت. نزلنا الطابقين بخطى وثيدة، وكان كلّ شيء ساكنا مما جعل حسية تخنق ضحكها قائلة : « إنّه قصر جميلة الغابة النائمة ! ». لقد ذهلت مثلنا تماما بحمام لالة، وأحجامه المتناسقة، وفسقيّاته

الرخامية الرائعة، وفُوطه... قالت بعفوية: « يذكّرني هذا الحمام بحمام مزرعة جدّي، إلا أنّ هذا أجمل بكثير، حيث كل شيء فيه أنيق ومتناسق. سأبدأ بتخليص شعري من كل هذه الحناء، وأتمنى أن لا يكون بلون الجزر! ». طمأنّتها جميلة شارحة بأنها اتخذت احتياطات تفادي هذه الفرضية بإضافة قليل من « العفصة » كي تدكّن اللون قليلاً. بعد تجفيفه اتخذ شعر حسية لون شُقرة الأكاجو، أما شعر الجفون والحاجبين فأضحى أكثر سُمره مما كان عليه في لونه الطبيعي، الشيء الذي يزيد من تباينه مع زُرقة العينين. هل ينبغي دهن الشعر مرّة ثانية بالحناء؟ لم نتفق حول رأي واحد، فكان تدخل المعنية هو الذي أنقذ الموقف لأنّها اقترحت ما لم تتجرأ إحدانا على اقتراحه عليها: « يجب أن أقصّ شعري ليصبح قصيراً جداً. عندئذ، فأنا متأكّدة من أنّ رأسي سيتغيّر كلية، خاصة إذا تمكّنتم من إيجاد نظارات بصرية، بزجاج مدخّن قليلاً، فسأُمسحُ إلى امرأة أخرى ». اعتمدنا كلية على جميلة كي تعثر لنا عن الشخص القادر على القيام بالعملية دون أضرار كثيرة. ولكنها طلبت منا أن نصبر بعض الوقت، موضّحة: « أظنّ أننا لن نبقي في هذا المخبأ مدة طويلة. فلا تستعجلن الأمر إذا، سنقوم بقص الشعر في الوقت المناسب ». بعد يومين أو ثلاثة، جاءتنا جميلة في الصباح الباكر لتخبرنا بقرار قادتنا بنقلنا إلى مخبأ آخر وفي نفس اليوم جلبت معها حاكيين وعجارين لي ولسامية، وكانت حسية تملك لحافها الخاص. جمعنا بخفة أغراضنا القليلة، مهيّجتين ومسرورتين معاً. صعدت لآلة إلى المنزلة لتودّعنا وتتمنى لنا حظاً سعيداً. شكرناها بحرارة وبصدق على حسن ضيافتها ولطفها الذي لن ننساه أبداً. في لحظة الوداع، سقط قناع نفوذها السلطوي وأخذتنا في حضنها وقبلتنا بحرارة وهي تقول بأنها لن تكف أبداً عن دعائها لنا في صلواتها بالصحة والهناء والنجاح في جهادنا ضد العدو الكافر. انتظرتنا زينب الجميلة

مُذَكِّرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

والصغيرة عند الطابق الأرضي بصممتها المعهود. هي أيضا، ضمتنا إلى صدرها النحيل، الواحدة بعد الأخرى، دون أن تتلفظ بكلمة كي لا تنهمر دموعها. كنت آخر من ودّعتها، ذكّرتني رأسها الصغير والجميل بأختي الصغيرة ليلي، فدسسته في تجويف كتفي وهمست لها : « شكرا. شكرا جزيلا على كل ما فعلته لنا. أنت أيضا مُجاهدة، ساعدتنا وحميتنا كثيرا. فلن ننساكِ أبدا ». فتحرّرت دموعنا فجأة.

● عند عائلة بوحيرد، في 5 درب غرناطة

تلحّفتنا نحن الأربعة على الطريقة الدزيرية وسلكنا زقاق غرناطة الذي يلج داخل القصبة. تبعنا جميلة التي عطفت بسرعة نحو اليمين، نحو ما بدا لنا شبه زقاق لا مخرج له : درب غرناطة. بخطى خفيفة، أخذتنا أختنا نحو رقم 5 الذي يغلق الدرب. لم يكن الباب الخشبي الضخم والثقيل، المسمر، مغلقا بالقفل كما في دار بلخفاف. دفعت جميلة الباب بثقة وسلطة المالك ودلفنا خلفها إلى السقيفة، ثم إلى الفناء. كانت الدار جميلة وأنيقة ومتناسقة الأشكال، كتلك التي جئنا منها، مع فرق أنّ هذه الجديدة تعجّ بالأصوات والقهقهات ورنات الأدوات والأواني المنزلية المحرّكة، وباختصار إنه الضجيج الطبيعي لمنزل مأهول. ولم يمنعنا هذا من التأخر في الفناء كي نمتلئ بكل ذلك الجمال والتناسق والحياة. استغلّت سامية الفرصة وهمست لي بأننا في دار عائلة أختنا جميلة، عائلة بوحيرد، الدار التي تعرّفت فيها لأول مرة على الإخوة الكبار. لم أجرؤ على طرح أي سؤال على أي شخص عن معنى تنقلنا المبالغت. هل يعني هذا أننا، سامية وأنا، سنستعيد حريتنا ونلتحق بسانت أوجين ؟ خاصة أنّه ليس في يد صديقتي إلا يومان أو ثلاثة قبل أن يبدأ أبوها في إبداء قلقه عن طول غيابها. كان يُفترض أنها مقيمة الآن عند

داخل القصة، في قلب المقاومة

أختها الكبرى بوادي الفضة لأسبوعين كاملين، وقد اقتربت هذه المدة من نهايتها. تبعْتُ آثار موكبنا الذي تقوده جميلة عبر السلاالم نحو الطابق الأول لهذه الدار الجميلة وأنا أجتُر تساؤلاتي. دخلنا غرفة واسعة مستطيلة الشكل، ومصممة كغرفة بلحفاف، ولكنها مؤثثة بطريقة حديثة : على يسار الباب، يوجد سرير كبير ذو مكانين، وعلى اليمين تقابله خزانة كبيرة بثلاثة أبواب، يحمل الباب الأوسط مرآة ؛ ومقابل الباب، أثاث جديد ومنضدة الزينة الخاصة بالنساء ؛ وعند أسفل الخزانة، فراشية مبطنّة ومغلّفة بقماش فاخر وبوسائد، الكل فوق زربية مزركشة بموتيفات خلابة. وعلى منضدة الزينة، رُتبت جميع ضروريات التجميل والمشط والحلاقة، وقارورات العطر موضوعة على أسمطة صغيرة جميلة من صنع أيدي نساء المنزل، تحيط إطار صورة شاب بعينين حالمتين، وابتسامة غازية وشعر مدهون، فكّرت أنه لا يكون إلا « ذلك الشاب الذي قدّمته إحدى سيّدات الدار لسامية في أوت 1956 باعتباره خطيب جميلة »، ثم أضفت هامسة لسامية : « أتمنى من كل قلبي أن لا تتزوّجه أختنا جميلة أبدا، لا أظن أنه يناسبها ». طوينا حُياكنا وعِجاراتنا واتخذنا أماكننا، البعض فوق السرير، والبعض الثاني على الفراشية المبطنّة. وجدنا بعض الجرائد بها أخبار عن عمليات عسكرية حدثت عبر كامل تراب البلد، وصفها أصحابها بـ « الاعتداءات الإجرامية » وبـ « الكمائن الجبّانة »، إلخ.

كان الانغلاق وعدم الحركة والبعد عن الحياة العادية يغرقني في كآبة مضجرة، خشيت أن يقرّر قادتنا الكبار إيقافنا عن كل نشاط في « الدزاير » وإلحاقنا بمُهمّات أقل خطورة، كمبرّضات مثلا. وكنت أعرف أنني غير قادرة على علاج الآخرين لأنّ ألم الآخر يشلني. ماذا أقول عن العلاج الذي يقدّم إلى الجرحى ؟ كنت غارقة في همّي الجديد حينما دخلت جميلة ومعها فتاتان، يحملن المائدة والأواني والأطباق الساخنة. فأخرجني من ذهولي.

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

وقفت سامية لتقبّل المرأتين اللتين سبق لها أن تعرفت عليهما. ثمّ باشرت جميلة بتقدّمنا، حسيبة وأنا. تعرّفت بسرعة على « أُخَيَّتِي » وفتومة التي تحتل عائلتها الطابق الذي نحن فيه، لأنّ سامية كانت قد وصفت لي الدار بدقة متناهية. كانت « أُخَيَّتِي » طويلة القامة وبشوشة المظهر، وكان شعرها الأسود الفحمي يوطّر وجهها بقسمات رقيقة وجميلة وعينين داكنتين، تتألّآن ذكاءً. كانت حركاتها خفيفة، دقيقة، مضيافة ودافئة. من الصعوبة أن نتصوّر بأن هذه المرأة الشابة بقامتها الطويلة، والتي لا تكبرنا إلا بسنوات قليلة، هي أمّ لخمسة أطفال. وكانت قامة فتومة مربّعة بسمنة طفيفة، وما لفت انتباهي عندها، العينان الكبيرتان المحاطتان بجفون طويلة سوداء وفوقهما حاجبان داكنان مرسومان جيّدًا على شكل قوس : بها شبه كبير مع صورة الشاب الذي كان يتصدّر منضدة التزيين. تغدّينا معا جميعا وشرفنا تلك الأطباق اللذيذة والتي تكون بلا شك قد أُعدّت لنا خصيصا. من الصعوبة أن يبقى المرء بلا إحساس أمام تلك الضيافة اللطيفة والعناية المركّزة والأخوة الصادقة. في تلك اللحظة، أدركت أنه، ومهما كان مستقبلي، سأكون دوما مَدِينَة لجميع تلك العائلات التي فتحت لنا أبواب منازلها وقلوبها بسعة صدر وحفاوة لا نظير لهما. أحسّستُ بنفسي كفرد من أفراد تلك العائلات، وتمنّيت أن أكون عند حُسن ظنّها. من الآن فصاعدا، سيربطني رابط عصيّ التعريف بالقصبة التي تُخفي بغيرة كبيرة كل كنوزها وجمالها ولا تمنحها إلا لأبنائها وإلى الذين يستحقونها، أي إلى أولئك الذين يُحسنون النظر إليها واكتشافها واحترامها وحبها دون أن يطالبوها بشيء، ولا تسوية خلافاتهم على ظهرها. إذن تناول خمستنا الغداء معا، حول المائدة، وأكلنا من تلك الأطباق المتعدّدة والمتنوعة من اللحم والسمك. وقد استحسنّت تلك الأطباق، سواء بطعمها اللذيذ أو لأنها جديدة عليّ. اكتشفت سمك الحبار، والذي تسميه نساء القصبة

داخل القصة، في قلب المقاومة

بـ « القَمَرُون »، ولا يمكن لمضيفاتي أن ينسين بسرعة دهشتي وإعجابي، فقد ضحكنا كثيرا حينما أخبرتهن أنّ معرفتي بعالم السمك لا يتعدى السردين وسمك الغُبر (MERLAN) و « الروجي » (سلطان ابراهيم)، ضحكنا بملء أشداقهن، وشرحن لي ثراء وأناقة ثمار البحر، ووعدن بتحضير طبق « الجَمْبَرِي » خصيصا لي، وكذلك أنواع أخرى من أسماك البحر وثماره العجيبة.

• تعود سامية إلى سانت أوجين، وأبقى مع حسيبة عند عائلة بو حيرد

في تلك اللحظة، أخبرتنا جميلة أنّ « الخُو » قد سمح لنا بالعودة إلى سانت أوجين لأنّه اطمأن إلى أنّ لا أحد يعرف وجودنا. وأضافت : « يمكنكما العودة إلى الحياة العادية والاستعداد لاستئناف نشاطاتكما لاحقا ». سألتُ سامية، بحسّها التوقعي : « مَنْ سيكون مُتّصلنا مستقبلا ؟ ». ردّت جميلة : « ستشتغلان مباشرة مع « الخُو »، وسأكون الوسيطة بينكم ». فصرخنا معا : « شكرا، شكرا ! ». وجدنا صعوبة لإخفاء سعادتنا لأننا كنا ننتظر تلك اللحظة منذ أسبوعين كاملين. ولكن حسيبة، التي بقيت صامتة، نظرت إليّ بحدّة، فقرأت في عينيها، اللتين لمعتا فجأة أكثر من العادة، قلقا كبيرا من بقائها وحيدة، أي بلا وجودنا معها في تلك الظروف العصيبة. مزّقت قلبي، فقلت لجميلة : « هل تظنين أنه بإمكانني البقاء هنا مع حسيبة ؟ يجب على سامية أن تعود حتما إلى بيتها قبل أن يُرسل أبوها أمرا بالبحث عنها، أما أنا، فتكفيني دورة صغيرة إلى الإقامة الجامعية، أظهر وجودي لبضعة ساعات ». وافقتُ جميلة بابتسامة حنونة، أما سامية فلم تنبس ببنت شفة، فيما تالأّ وجه حسيبة بابتسامة عريضة. قبل افتراقنا، ذكرّتُ سامية بأن لا تنسى عرض مشروعنا على ماما زهور، ذلك الذي خططنا له خلال

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

إقامتنا في قصر لالة. فعلا، فأثناء أيام العزلة والانغلاق الطويلة، فكّرنا مليا في أهداف جديدة ممكنة في حالة ما إذا فكّر « الخاوة » بتكليفنا بمهمات أخرى. لقد أدّى بنا تفكيرنا إلى اختيار مقر الولاية، رمز جوهر الإدارة والسلطة الكولونيالية، وذهب تخطيطنا بعيدا إلى حدّ إيجاد طريقة للدخول : نتقّع بلباس الأخوات الراهبات المسيحيات، بتلك القمصان الطويلة والعريضة. كانت الكنيسة المسيحية حاضرة في الجزائر المستعمرة بكامل تنظيماتها، وقد اخترنا ذلك الذي تلبس راهباته قمصانا عريضة جدا وطويلة وثقيلة، ويحملن على رؤوسهن قبعات عريضة تغطي نصف الجبهة والخدين والذقن. زيادة إلى أنّ تلك القبعات تحمل طرفا صلبا على شكل جرس عريض فوق الرأس. وجدنا هذا اللباس مناسبا جدا لإخفاء قنابلنا المحتملة لتفجيرها داخل مقر الولاية. زيادة أيضا إلى أننا متيقنات بأن لا عون أمن يجرؤ على تفتيش أختين راهبتين. كان على سامية أن تعرض المشروع على ماما زهور وتطلب منها أن تخطط لنا مثل هذه البذل، وكانت أمّ سامية خياطة ماهرة إلى جانب مهاراتها الأخرى كربة بيت وطباخة وزوجة وأمّ حنون ومخلصة. ولا يبقى لنا حينئذ إلا عرض خطتنا على « الخو » كي يعطينا موافقته. بعد ذلك، فارقنا سامية وهي مكلفة بمهمة جديدة. وقد أعفتها جميلة من ارتداء الحايك الذي تشدّه بصعوبة كبيرة في محاولتها لتقليد نساء القصبّة. ضحكت مضيفتنا بملء شديها من عدم مهارة سامية وقالت : « في القصبّة، لا تغالطين أحدا، ولا حتى الأطفال. من الأحسن أن تخرجي بغير لحاف، ليكون مرورك سهلا ولا يشير حولك شكوكا نحن في غنى عنها ». جعلتني هذه الملاحظة أفكّر في الإشارات المتنوعة والمتعدّدة والمفاتيح السريّة التي تحتويها المدينة العتيقة والتي لا يعرفها ويتقن استخدامها إلا أبناءها، وعشت بانبنهار فاتن بينهم وأنا أعتزف لهم دوما بهذا الجميل لأنهم ضيفوني أروع ضيافة وعدّوني واحدة

داخل القصة، في قلب المقاومة

منهم. ولم أفارقهم إلا بعد أزيد من سنة، مقيّدة اليدين، محاطة بالمظليين المدجّجين بالأسلحة، وأنا جالسة إلى جانب « الخو » داخل « جيب » الجيش الفرنسي، أعطي ظهري لحجرة السائق، والدموع تبلّل وجهي، وبصري معلّق إلى قصّتي العصيّة التدمير. ولن أعود إليها إلا بعد اتفاقيات إفيان وإطلاق سراحي في جوان 1962.

وفي انتظار ذلك، كنا في أكتوبر 1956، مختبئات وتحت حماية عائلة بوحيرد، في 5 درب غرناطة. بعد ذهاب سامية، بقينا، حسيبة وأنا، وحيدتين طيلة بقية الظهيرة. فجلست « معزوزتنا » تلك الجلسة التي اتخذتها طيلة الفترة التي قضيناها معا، وهي سنة بالتمام والكمال (لأنها ستستشهد بعد ذلك إلى جانب علي لابوانت ومحمود وعمر الصغير تحت أنقاض المنزل الذي فجره الجيش الفرنسي في أكتوبر 1957)، فكانت تجلس على الفراشية المبطّنة، وركبتها بقرب صدرها، مع الحرص على تغطية قدميها بأذيال السروال النسائي الرافلة. وكانت تضمّ ساقيهما المطويتين بذراعيها وتحطّ رأسها على ركبتيها. في تلك الوضعية، كانت حسيبة تشبه قطعة صغيرة تحتاج إلى مداعبات وحماية، كانت تبدو شابة وهشّة بعينيها الحزینتين. فاقتربتُ منها لأروي ضمّاً رغبتها الممكنة في الحديث، وكى أشجعها على الكلام، بدأت أحكي لها كيف وصلنا، سامية وأنا، إلى القصة في عجلة من أمرنا، مع الجهل التام لوالدينا لما كنا نقوم به من نضال داخل المنظمة، ولا بالمكان الذي نختفي داخله. حينئذ قالت لي حسيبة: « أفكر في أبي المسكين. إنه أكبر من أمي ولا يعرف شيئا ولا يشك في شيء فيما يخص نشاطاتي، ولكنه هو الذي واجه الشرطة حينما داهمت منزلنا لاعتقالي، في تلك الأمسية التي ذهبنا فيها، أمي وأنا، إلى عرس قريبنا في البليدة. يملأني الإحساس بالندم لأنني كنت دوما قريبة منه. يكون المسكين قد ذاق الأمرين مع الشرطة. لم يكن يعرف حتى مكان

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وجودي، يكون قد أهلكه القلق عن مصري « . طمأننتها بالقول أنه يكون الآن قد ارتاح تماما وهو يعرف أنك في مكان آمن، كما يكون قد شكر الله كثيرا لكون الشرطة لم تعثر عليك بالبيت . وافقت شرحي ومع ذلك أضافت بأنها تشعر بالذنب تجاهه لأنّ أباه، وهو الموظف السامي في مصلحة الريّ، يشغل وسط الفرنسيين ومنهم المتطرفون جدا الذين سيذيقونه العلقم بسبب انتماء ابنته إلى « الفلاقة » مثلما يقولون . وقالت والحزن يصبغ وجهها : « ربّما اضطر إلى التخلي عن عمله ؟ على كل حال، سيكون الوضع أرحم بكثير له ولنا جميعا » . وكي أواسيها قلت لها بأنّ والدينا ليسوا مغفلين، وكي أقنعها حكيت لها بالتفصيل حادثة « قرار جبهة التحرير الوطني بتعليق الإضراب والامتناعات بالنسبة للبنات ! » وصراعي مع أمّي في جويلية 1956، حكيت لها كيف ساندني أبي في حين أنه لم يصدّق حكايتي ولو لحظة واحدة . فواصلت حسيبة حكايتها بثقة أكبر : حينما جاء من يُخبرها بأنّ الشرطة تبحث عنها وهي في عرس قريبها، لم تطرح أمها أيّ سؤال كما لو كانت تعرف تجنيد ابنتها، فكّرت في شيء واحد : أن تهرب ابنتها في أسرع وقت ممكن، ولم تمنح لها حتى الوقت الضروري لتبديل ملابسها، بحيث وصلت حسيبة بفستان العرس عند الذين تكفلوا بإيوائها . جاءت فطومة تقضي معنا نهاية الظهيرة وجزءا من الأمسية . كانت تثرثر كثيرا، مما سمح بإراحتنا ونحن نظرب لحكاياتها . جلبت مهرها المتبقي من الأجواخ وبقية القطع المطرزة باليد بكيفية عجيبة . أخبرتنا بأنّ جميلة خبيرة في فن الطرز وقد استفادت من تكوين في الميدان . قالت فخورة : « جميلة ماهرة جدا . وقد تمّ اختيار طروزها لعرض عمومي » . وكرّرت لنا بأنها خطيبة خالها . أصبت بخيبة أمل لأنني تمنيت لها أحسن . لم نغادر، حسيبة وأنا، الغرفة منذ وصولنا إليها في الصبيحة . شرحوا لنا أنّ الدار تسكنها عائلات أخرى

داخل القصة، في قلب المقاومة

غير عائلة بوحيرد، ومن الأفضل أن لا يرانا أحد. أشارت لنا فطومة الأوقات المناسبة لاستخدام المرحاض تفاديا للقاءات أهل الدار : في الصباح الباكر على الساعة الثالثة، وفي المساء بعد التاسعة ليلا. إنها الأوقات التي قد لا تصادف فيها أهل الدار إلا نادرا. بعد العشاء، في حوالي السابعة والنصف، أعطت لنا جميلة فستانين جميلين للنوم، مكويين بشكل جيد، وخُفَّين جميلين منسوجين باليد. وحينما رأت فطومة بأننا تأثرنا كثيرا برعاية جميلة الحاذقة، انطلقت في مدح عجب لخصال وصنائع ومهارات مضيِّفتنا، وقد عبَّرت لنا عن الفكرة الرعناء التي مفادها أن خالها سيكون من أسعد الرجال لأن خطيبته لؤلؤة نادرة، جمعت بين الجمال الجسدي ومهارات الحياة الأخرى الكثيرة. فألقت جميلة عليّ نظرة شزاء ودفعت بفطومة إلى الخروج، قبل أن تتمنى لنا ليلة سعيدة وتغلق الباب. فهمت أن فطومة تحسب أحلامها واقعا، فيما يخص خالها وأختنا جميلة. قضينا، حسيبة وأنا، أيامنا في الغرفة ولا نغادرها إلا في الصباح الباكر والمساء المتأخر لقضاء حاجاتنا الطبيعية، ونحن عاكفتان على قراءة الجرائد التي تخبرنا، رغما عنها، عن استمرار حرب التحرير واشتعالها في كامل ربوع الوطن. نستمع إلى الإذاعة، وحينما نتعب من دعاياتها القذرة، نستعين بذاكرتنا لنحكي طفولتينا أو نحاول تخيل حياتنا المستقبلية في جزائر حرة ومستقلة. ولم تشك حسيبة لحظة وإلى غاية وفاتها في أن بلدنا سينال حريته واستقلاله.

ذات ظهيرة ماطرة ولكنها دافئة من خريف 1956، فاجأتنا جميلة وسامية بزيارة غير متوقعة. وجدتا معنوياتنا في الحضيض الأسفل، بسبب عزلتنا الممتدة. جلبت لي سامية ملابس التبديل، الداخلية منها والخارجية، ما جعلني أحلم بنهاية قريبة لانغلاقي. ولم تنسَ ماما زهور، كعادتها دائما، أن تبعث مع سامية حلويات خصيصا لنا : حلويات « المقروط » المعسل و « طُمينة

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

اللوز « القسنطينية التي تذوب في الفم كالزبدة. فكان من شأن هذه الهدايا الرائعة أن تخفف من شعورنا بالحزن والعزلة الذي يسكننا. اكتشفت وأنا أرتّب أمتعتي فوق رفّ من خزانة المرأة، طاقما من الألبسة النسوية الخارجة تَوّا من التراث الثقافي الغني لسيدات الدزاير : « قَوَيْط » (مجموعة ألبسة نسوية تتشكل من سروال تقليدي وسترة فاخرة) من الحرير العنابي الداكن المطرّز بخيوط مذهبة، وسراويل من الساتان بأشكال متعدّدة، و « كراكو » وصدارات أخرى من الحرير الصافي، والكل مزّين باللؤلؤ والأقفال اللامعة والمطرّزة بأناقة لا متناهية ؛ ومع هذا الكنز الثمين وشائع وخمارات متعدّدة من نوع « مَحْرمة الفتول » (وهو خمار من الساتان بأذيال طويلة). دُهِلَتْ وبقيت بلا صوت أمام ذلك الكنز الحقيقي الذي توارثته نساء اليوم عن أسلافهن، وكانت فطومة المشرفة الرئيسية عنه وعن استمرار تواجده باعتبارها البنت البكر. فكّرنا بارتداء جميع تلك الألبسة الرائعة لنرى آثارها على أجسادنا. وفي أقل من ساعة، كنا دزيريات حقيقيات نرفل في تلك الأثواب العجيبة، بعد أن تجمّلنا جيّدا. فاتّضح أنّ حسيبة « مُجَمّلة » ماهرة، وبالأخص وضع الكحل على العيون، أما جميلة فأظهرت مهارتها في المشط، بينما كانت فطومة تحسن اختيار الألبسة وتنسيقها. وأمام ذلك الحسن والجمال، لم يبق لنا إلا الغناء والرقص، فانطلقت اثنتان منا بأصواتهما الساحرة في ترديد أغنية « أنا تويري » لفضيلة الدزيرية، والأخريات يحركن أجسادهن للرقص، تحت الحراسة المشدّدة لفطومة التي كانت تتدخل لإصلاح ما أفسدته الخطوات المتردّدة أو غير الماهرة. كانت لحظات قوية من البهجة والحبور، حيث اختلطت سعادة اللقاء مع سعادة اللعب واللامبالاة كما في زمن المراهقة. أعادتنا دقّة على الباب إلى الواقع، فأسرعت فطومة إلى فتحها، ثم قالت لجميلة : « إنهم يبحثون عنك ».

• لقائي الأول مع بن مهدي

خرجت أختنا لبضع دقائق وعادت لتُخبرنا بنزع تلك الألبسة والتخلص من الماكياج وإعادة ترتيب الغرفة في أسرع وقت. طلبت من فطومة مغادرة الغرفة وأعلنت، بصوت لا يكاد يُسمع، عن مجيء « الخو » وعليّ رفقة أخ لا نعرفه. أضافت بهمس كما لو أنها تبوح بسرّ بأن الشخص مسؤول كبير ولكن « الخو » طلب منا أن نعامله كمناضل بسيط، وبالعفوية العادية. لا يمكن أن نسمح لأنفسنا بخداع رتبة المسؤولين الذين نلتقي بهم بسلوكنا، وذلك لأسباب أمنية أكيدة. نحن منضبطات ونحترم التعليمات. في لمح البصر، تخلّصنا من الماكياج وارتدينا ألبسة بنات القصة، ورتبنا ونظفنا الغرفة من أي أثر لجنون تلك الظهيرة. وكنا نتحدّث كما تفعل فتيات العائلات المحترّفات حينما سمعنا دقات على الباب. وقفنا كما لو أنّ ثولا من النحل لسعنا. دخل « الخو » أولا بابتسامته الفاتنة، متبوعا برجل بقامة متوسطّة وشعر قسطلبي شفاف، بأمواج خفيفة، ممشوط إلى الخلف، والوجه حليق بطريقة جيّدة. لقد لفت انتباهي هذا التفصيل الأخير لأنه يتناقض مع « الخو » الذي يترك دوما فوق خديه وذقنه حية طفيفة. كان « عليّ » آخر من دخل، وقد اضطرّ إلى الانحناء قليلا ليمر عبر الباب الصغير، فملاّ فورا الغرفة بضحكته الطفولية الصاخبة. قبلنا دون أن يتوقف من القهقهات وإلقاء التعليقات بغرض مضايقتنا. بعد تبادل التحيات، قدّمنا « الخو » إلى الأخ الجديد، سي محمّد، الذي حيّانا بوجه هادئ لم تحرّك ابتسامته العابرة من قسماته شيئا. من الناحية الفيزيائية، كان سي محمّد نموذجا للجزائري العادي، يمكن أن يمرّ دون أن يلتفت إليه أحد، لولا نظرته التي تحمل « شيئا عصيّ الإمساك به » والتي تمنح له هيبة دون أن يكون بحاجة إلى الكلام. كان سي محمّد يملك نظرة حادة، عميقة، مركّزة وحنونة. تعبّر نظرته في آن

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

واحد عن السلطة التي تمنحها له تجربة حياة النضال والكفاح، والثقة الهائلة التي تولد الإيمان بمصير عظيم قائم على قناعات راسخة، والرُفعة التي يمنحها الحس الحاد بالمسؤوليات والكرامة، وكذا عن سخاء عظيم أخوي يؤدي إلى التضحية بالنفس من أجل شعبه وحب عميق له أيضا. تلك هي نظرة بن مهدي، لأنني سأعرف لاحقا أنّ سي محمد ليس إلا العربي بن مهدي العظيم. كنا واقفات، جميلة، حسية، سامية وأنا، وساكنات وخجولات من ذلك المسؤول الكبير. حيّانا بحرارة كبيرة، وعبر عن سعادته بلقاء « فتيات جزائريات يشرفن هذا البلد ». لاحظنا عند سي محمد امتنانا نزيتها، بل أقول إعجابا وفخرا بنا نحن الأربعة. اعتراني انفعال أرّجف بدني. ألقى نظرة خاطفة على سامية. إنها منضبطة، فاتخذت هيئة حذرة، استعلائية ومرتخية نوعا ما. بالتأكيد، كانت تتبع تعليمات « الخو ». الشيء الذي كنت عاجزة على تقليده، لأنّ الانفعال كاد يهدّني هذا، زائد الامتنان للحياة لأنها لاقتني مع أحد النوفمبريين، أحد مفجّري الثورة التحريرية. دعانا « الخو »، بصفته القائد، إلى الجلوس. وضع « علي » رشاشه إلى جانبه واتخذ مكانا فوق السرير. أما سي محمد الذي كان يرتدي بذلة الأزرق الصيني فجلس على الفراشية المبطنّة عند أسفل الخزانة إلى جانب حسية وسامية و « الخو ». أما جميلة وأنا، فجلسنا على فراشية ثانية موضوعة إزاء الأولى، بشكل متعامد. كنت جالسة في مواجهة سي محمد ويمكن لي مراقبته على هواي. لم يتوقف عليّ من مضايقاته لنا، وكانت جميلة تجيبه بنفس النبرة. توجه « الخو » بكلامه إلى حسية وأخبرها بأنّ كل شيء جاهز لنقلها إلى الجبال. وطلب من جميلة أن تهّي كل شيء كي يأتي المصوّر يأخذ صورة لحسية، ونصح هذه الأخيرة كي تفكر في الهوية التي تريد حملها. أوضح أنّ عليها أن تختار لقباً واسماً، بحيث يمكنها التصرف بعفوية في حالة التعرّض للمراقبة. طلبت

جميلة من الخو وعليّ إنّ وجدا أن حسيبة قد غيّرت قليلا من صورتها وهي « صهباء لامعة ». احمرّ وجه « معزوزتنا » حينما توجّهت جميع أنظارنا إليها، وكان عليّ هو أول من علّق قائلا : « ولكنني تصوّرت أنّ هذا اللون هو لونها الطبيعي، فكيف كانت من قبل ؟ ». ضحك الجميع واستأنفت جميلة الكلام كي تشرح بأننا نحتاج إلى أسبوع إضافي كي نقوم بقصّ شعرها. وبعد ذلك وجه « الخو » كلامه إلى نبيلة (سامية) وإلى فريدة (أنا) ليؤكد ما سبق أن قالته لنا جميلة : كنّا، سامية وأنا، غير معروفتين عند مصالح الشرطة الفرنسية. فيمكننا إذا الخروج والدخول بكل حرية، وبأمن كامل. عند سماعنا الخبر، عبّرنا عن فرحتنا، وكان سي محمد، المناضل المحنّك، يستمع باحترام إلى أحاديثنا. شخصيا كنت منبهرة بهذا المسؤول الكبير، الجالس مقابلا لي، برزانه وبساطة مهيبتين، وممتّنة للخو لأنه أكّد لي أنني غير مسجّلة ولا حتى معروفة عند قوات القمع الكولونيالية. أحسست بنفسي فجأة خفيفة كالريشة، وقد تخلّصت من القلق والرعب اللذين كانا يسحقان أحشائي. حدّقت النظر في حسيبة وقرأت في عينيها كل الأحاسيس التي خلّصني منها « الخو ». على خلافنا تماما، كانت حسيبة مسجّلة ومعروفة عند جميع مصالح الأمن الفرنسية التي عكفت في البحث عنها. تعرّفت على إحساس اللاأمن الدائم، المعنوي والجسدي معا، يغمرك حتى وإن كنت محصّنة في قلعة منيعة. فهمت أيضا أنّ خلف المواقف التي تبدو أحيانا استعلائية، تحاول حسيبة أن تسيطر على هذا الإحساس المُشلّ، والمُدْمِر أحيانا. ابتسمت لها ووعدتها مع نفسي بأمنيتين : أن أفاتها في هذا الإحساس الذي يعادي كل إرادة للحركة، وأن أبقى معها إلى غاية ذهابها إلى الجبال. سيكون الحمل أثقل بكثير علينا نحن الاثنين. خرجت جميلة لبضعة دقائق وعادت بمائدة وضعتها أمامنا، ثم انشغلت بتنصيبها رافضة المساعدة التي اقترحناها عليها

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

وقالت ضاحكة : « لم يقل لنا « الخو » إن كانت لكما الحرية في الذهاب والإياب داخل هذه الدار ». كنت أراقب سي محمد، ولم ألاحظ أنه تخلى ولو للحظة عن بساطته وسكوته البليغ، وابتسامته التي لا تكاد تبين ولا عن نظراته العميقة والمليئة بالإنسانية. نُصِبَت المائدة ودعا « الخو » سي محمد إلى الأكل، وطفق الجميع ينهل من صحن « شربة بيضا » اللذيذة وهي حساء أبيض بلحم الدجاج وفتائل العجين الرقيقة، فيما كنت شبه مشلولة لفكرة أنني سأتناول الغداء مع الإخوة الثلاثة الكبار. إنها المرّة الأولى التي أتناول الأكل حول طاولة واحدة مع رجال غير رجال عائلتي، مع التأكيد أنني عند سامية، كنت أشعر فعلا أنني في بيتي .

• جميلة تلعب لعبة « يداس » مع سي محمد

بعد احتساء الشربة، جاء دور « الشُّطِيطَحَة جاج »، طبق بالدجاج والثوم والمرق الأحمر، موضوع في صحن كبير وعميق يحوي العدد الكافي من قطع اللحم وكانت الرائحة المنبعثة منه تسيل لعاب الجميع. منعني خجلي من الانغماس الكلي في الأكل كما يفعل الآخرون بعفوية وطيبة خاطر لأنّ الطبق كان لذيذا حقا. وبعد ذلك اقترحت جميلة على سي محمد أن يلعبا معا لعبة « يداس ». ردّ عليها هذه الأخير مبتسما : « لا أعرف هذه اللعبة. فيما تتمثل ؟ ». شرحت مضيفتنا : « إنها لعبة سارية في القصبة وهي في غاية البساطة. أترى عظم الدجاج هذا الذي على شكل Y، سنكسره ويحافظ كل واحد منا على جزء منه في يده. ابتداء من هذه اللحظة، كلّما مدّ واحد من اللاعبين شيئا ما لصاحبه، يجب على هذا الأخير عندما يتسلّم الشيء الممدود له أن يقول : « على بالي » (إنني أعلم). وإن لم يقله، يصرخ اللاعب الذي أعطى الشيء بكلمة : « يداس ! » ويربح ». مباشرة مدّت العظم إلى

سي محمد، فكسراه بين يديهما واحتفظ كل واحد منهما بنصف العظم. كنت منذهلة من اندفاع أختنا جميلة التي تجرأت بعفوية ولا مبالاة واقترحت لعبة على أحد أكبر قادة ثورتنا، بحيث بقيت جامدة، أمسك بيدي قطعة خبر بين السبابة والإبهام، دون أن أقوى على إبداء حركة. فجأة، صرخت جميلة منتصرة: « يداس ! ». بالفعل، فبمجرد تكسير العظم، مدت الجزء المكسّر الباقي في يدها إلى سي محمد الذي أمسك به دون أن يقول « على بالي » : فقد ربحت جميلة وشرحت فحوى انتصارها لقائدنا الكبير الذي كان يستمع إليها بهدوء وسكينة. ضحك عليّ بملء شذقية، فيما ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه « الخو ». كانت جميلة مندفعة بانتصارها، فيما بقينا، حسيبة وسامية وأنا، مذهولات، تشلّنا المفاجأة غير المتوقعة بتاتا. اعترف سي محمد بهزيمته بكل روح رياضية. رغبت في الاختفاء بضربة عصا ساحر، فأيقظني عليّ الذي لا تغيب عنه لا شاردة ولا واردة: « أين أنت ؟ ألا تأكلين شيئاً ؟ ». همست: « الحمد لله، أكلت بما فيه الكفاية »، دون أن أتوقع ما سيستتبع ذلك. أخذ عليّ قطعة خبز، بللها بالمرق وحطّ عليها قطعة من لحم الدجاج، ومدّها لي. وعند رفضي الخجول، صرخ قائلاً: « كُلي » اختو، كُلي في صحة كبيرنا عبّان رمضان. أتريد أن يصيب هذا المسؤول الكبير مكروه، هيا كُلي إذا ! ». اضطررت إلى ابتلاع ما قدّمه لي من أكل دون أن أتجرأ على رفع بصري إليه. ثم واصل بذكر أسماء مسؤولينا الكبار، مروراً ببن بولعيد وبن مهدي وبيطاط وبوضياف وكريم بلقاسم، الذين اضطررنا، حسيبة، جميلة، سامية وأنا، إلى ابتلاع كميات ضخمة من الخبز المبلل بالمرق والمرفق بقطع من لحم الدجاج، على صحتهم، تحت قهقهات عليّ وابتسامة سي محمد الذي انسجم مع مبالغات عليّ. انزعجت من سلوك عليّ. ولم أجرؤ على النظر إلى سي محمد، مقتنعة بأنه ليس مغفلاً. كان يعرف بأننا نعرف.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أخيرا، أعطى « الخو » إشارة الذهاب، واضعا حدا لعذابنا. حيّانا عليّ وخرج أولا، مندفعاً، متحمساً، عطوفاً، رشاشه تحت كتفه، لاصقا على جسده. تمّنّى لنا سي محمد ليلة سعيدة وحظاً موفّقاً، ثمّ خرج خلف خطوات عليّ. أما « الخو »، فتأخّر بعض اللحظات ليخبرنا بأننا سنستأنف نشاطنا عن قريب. بمجرد انغلاق الباب، انفجرتُ: « لماذا كل هذه الكوميديا ؟ تتصرفين كما لو أن هذا المسؤول الكبير هو مجرد مناضل بسيط ! أتظنين بأنه مغفّل ؟ لماذا كل هذا ؟ ». أضافت سامية: « كان بإمكاننا أن نستغل الفرصة للمناقشة مع هذا الأخ الكبير وتبادل الأفكار حول ما نقوم به، عوض هذه الكوميديا السافلة ! ». أغرقتها حسيبة حينما أضافت: « هذا ما يسمّى بالفرص الضائعة ! ». كنا مثيرات للسخرية حقاً وعلى شفا حفرة من ذرف الدموع. تمكّنت جميلة من تهدئتنا شارحة: « لم أجد الوقت الكافي لإعطائكن بعض المعلومات الإضافية لأنّ الأمور تسارعت علينا. بعد اعتداء شارع طيبة بالقصبة، أعطى المسؤولون الكبار موافقتهم على أن ترد « المنظمة » بالمثل. ولكنهم لا يعرفون هوية « متطوعي الموت ». فبعد تفجيرِي الملك بار والكافيتريا، وقبل أن يخبرهم قادتنا المباشرون، لم تكن لديهم إلا تأويلات الصحافة الفرنسية التي اتهمت المناضلات الشيوعيات الأوروبيات. وحينما أخبروا بأن الذين نفذوا التفجيرات هنّ فتيات جزائريات، من ديارنا، ومناضلات في جبهة التحرير الوطني، واللائي نقلنا الحرب إلى الأحياء الأوروبية، تفاجأوا. كانت المفاجأة سارة ولكنها مفاجأة على كل حال. لذلك طلب سي محمد من « الخو » أن يقدّم له هؤلاء الفتيات دون أن يكشف عن هويته ولا عن رتبته داخل المنظمة ». قبلنا شرح جميلة ولكننا احتفظنا بغضبنا مع لوم طفيف لـ « الخو ». فعلا كنّا نشعر بمرارة لأننا كنّا منضبطات إلى حدّ أعطينا لسي محمد صورة أربع فتيات رُغن، عاجزات عن أداء دورنا كما ينبغي لمناضلات حقيقيات.

داخل القصة، في قلب المقاومة

زدنا غضبا، مقتنعات بأنّ مسؤولنا الكبير لم يكن مغفلاً. كانت نظرتة المباشرة والمركّزة نظرة شخص بطابع مجرّب وحازم، حتى وإن كانت ابتسامته الخافتة تعبّر عن تسامحه، الذي اكتسبه بلا شك من تجربة طويلة ومعرفة حقيقية للآخرين. تمنيت أن يكون لديّ حظ رؤيته ثانية وربما العمل تحت إمرته. كنت أودّ أن أقدم صورة أخرى عنّي لذلك النوفمبري وأؤكد له أنه يمكن للثورة أن تعتمد علينا.

• « الخو » يكلفنا بمهمات أخرى

في الغد على العاشرة صباحا، أخبرتنا جميلة، سامية وأنا، أنّ « الخو » يستدعينا لأمر هام. التحقنا به عند دار بلحقاف حيث يقيم في غرفتنا السابقة في المنزلة على سطح العمارة. وجدناه متربعا على السرير الكبير ورشاشه موضوع على يمينه، وهو بسرّوال قطيفة مضلّعة وقميص أسود، وعلى منضدة السرير الصغيرة مسدّس. استقبلنا بابتسامته المنشّرة التي تغضّن تقاسيم وجهه ولا تظهر من عينيه إلا المحجرين اللامعين. بدأ، وهو يدعونا إلى الجلوس، يشرح لنا أنه من واجبنا جميعا مواصلة الضغط على السلطة الكولونيالية واستغلال الهلع الذي يوجد فيه السكان الأوروبيون ومصالح أمنهم. سألنا: « هل أنتن مستعدات لضرب الأحياء الأوروبية من جديد؟ ». أجبتا ثلاثتنا بالموافقة، ودون أدنى تردّد. تخلّصت من خجلي ورحت أشرح له فحوى المشروع الذي فكّرنا فيه، سامية وأنا، منذ بضعة أيام. وشرحت له لماذا اخترنا مقر الولاية كههدف مناسب لضربتنا المقبلة، وفي حالة نجاح العملية، سيكون أثرها عظيما على السكان الأوروبيين الذين زلزلت قناعاتهم، ولكن أيضا على السلطة الكولونيالية وعجفرتها. ذلك أنّ الولاية جزء أساسي من السلطة الاستعمارية، دون أن ننسى أثرها على شعبنا الذي سيعترف بقدرات « الأفلان » في الأخذ بحقه.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

كان « الخو » يستمع إليّ ويضعُط إبهام يده اليمنى . لقد سبق لي أن لاحظت أنه، عندما يكون قلقا، ينشغل بتعذيب ظفر إبهامه وقد قلّصه إلى النصف بحيث أعطى له شكل منقار طائر مفلطح غريب . سألت جميلة : « الولاية ؟ كيف ستدخلانها ؟ وكيف ستخرجان منها ؟ إنَّها قلعة حصينة من الداخل والخارج ! » . أجابت سامية : « سنتقنَّ بلباس الأخوات الراهبات، أولئك اللاتي يرتدين القمصان الطويلة والعريضة وقبعات تغطي جزءا كبيرا من الوجه . ستخيط لنا أممي مثل تلك القمصان . ثم إن الجنود الفرنسيين الذين يصيحون عند أول خطر بـ « يا مريم اليسوع » سيساعدون بلا أدنى شك ممثلات « اليسوع الحنون » على الدخول والخروج » . ألحّت جميلة : « وأين ستجدان السُّبح الطويلة التي تتدلى إلى غاية الخصر ؟ » . أوضحت سامية : « لقد فكّرنا في أدنى تفصيل . عندنا جارة لها بنات يدرسن فن الخياطة عند الأخوات الراهبات في القصبة... » . أجابت جميلة والحيرة لم تغادر وجهها : « أعرف هذا المركز . وهل تتصوران أنهن سيَسرقن لكما سبحتين ! » . ولكن سامية، كعادتها لا تنهزم بسهولة ولها إجابات جاهزة عن كل صغيرة وكبيرة، قالت : « مسألة السباحتين لن تشكل عائقا أبدا . أكيد أنها تباع في السوق . لا تخشي شيئا، لقد فكّرنا في جميع هذه المسائل » . مكث « الخو » صامتا خلال كامل مدّة الحوار بيننا، وحدها يده اليمنى تعصر إبهامه الأيسر، وتخون توتر أفكاره . سألته : « ما رأيك، « الخو » ؟ » . أخذ وقتا للتفكير قبل أن يجيبنا : « واصلوا التفكير في الموضوع وادرسوه من جميع جوانبه، وأنا بدوري، سأفكّر في الأمر وأدرسه » . قلت مع نفسي : « أكيد أنه سيرض الأمر على سي محمّد » . الآن وأنا أشتغل مع القادة الكبار، أفهم أنّ قواعد اللعبة صارمة، لذلك لم أفهم جواب « الخو » على أنه رفض مبطن . ثمّ حان دور جميلة لعرض مشروعها، فأكدت أن الترامواي

داخل القصة، في قلب المقاومة

الذي ينزل من طريق يوسف إلى ساحة الحكومة يمرّ عبر شارعٍ ميشلي وإزلي، اللذين يعجان بالأوروبيين الأثرياء والمتطرفين، بينما يعيش « فقراؤهم » في حي باب الواد. وقد سجّلت ساعات الاكتظاظ : الصباح من التاسعة والنصف إلى الحادية عشر والنصف، والظهيرة بين الثالثة والخامسة. اقترحت برمجة القنبلة كي تنفجر في البريد المركزي، موضحة أننا بهذه الطريقة، لن نصيب إلا أثرياءهم الذين سيدركون أنّ الجزائر في حرب وأنه لا يمكن لهم مواصلة العيش في أمن ورخاء وهم ينظرون إلينا ونحن نموت. أجابها « الخو » بنفس الجواب. وبعد ذلك، سألنا، سامية وأنا، أين قرّرنا الإقامة بما أنّ لا أحد يعرفنا. فلم يكن لدى سامية من اختيار إلا العودة إلى سانت أوجين، وأبوها يجهل كل شيء عن نشاطاتها. أما فيما يخصّني، فأخذت على عاتقي أن لا أترك حسيبة بمفردها، فقررت أن ألتزم بعهدي. فطلبت من الأخ الإذن بتقسيم وقتي بين القصة والخارج. وكم كان فرحي كبيرا حينما أعطانا موافقته. وبعد ذلك افترقنا.

في ذلك اليوم، عدت مع سامية إلى سانت أوجين، تجولنا قليلا في محيط الولاية، وراقبنا نظام الحماية حول العمارة، وسجلنا نقاط الدخول والخروج، وباختصار، زدنا في تدقيق خطة العمل القبلي لمعرفة المكان وضواحيه معرفة أكثر. وقد قرّرنا تخصيص اليومين المواليين لدراسة توقيت تبديل أعوان الحراسة من الشرطة والعسكريين. وقد تأكّدنا أكثر من أهمية هدفنا لما يمثّله من مكان استراتيجي لدى السلطة الكولونيالية. لا أظن أنّ أحدا من قادتنا، بمن فيهم سي محمد، سيقول العكس. سُدّت كثيرا بالعودة ثانية إلى حريتي في المشي والذهاب إلى أي مكان أرغب فيه. وفي الوقت نفسه، كنت حزينة لوضع حسيبة المجبرة على العيش بين أربع جدران لأنّ الشرطة تطاردها في كل مكان، وأنا أمشي بحرية. اكتشفت بعمق كم كانت مأساة حسيبة ثقيلة جدا

مُذْكَراتُ مُجَاهِدَةٍ من جيش التَّحْرِيرِ الوَطَنِيِّ منطقة الجزائر المستقلَّة

على كاهلها وهي تشعر بأنها محل مطاردة من قبل ناس مجهولين، يمكن أن يبنثقوا من أي مكان، خارج أولئك المكلفين بحمايتها وإخفائها .

كيف لا يمكن في هذه الحالة أن لا نسجِّل ونقيس اختلاف حجم القوات وعدم توازنها : فرنسا التليدة بجيشها وشرطتها تطارد فتاة نحيلة جرمها الوحيد أنها أرادت أن تحرر بلدها من نير الاستعمار . حاولت أن أنفذ في جلد أختنا الصغيرة، الشيء الذي لم يكن صعبا عليّ، فأدركت حجم سخرية الموقف : فرنسا وريثة الإمبراطورية، تجنّد كامل قوتها ضد شخصي الصغير، أنا التي لا أساوي شيئا، ولا أعرف شيئا، سوى أنني في بلدي ومن حقي أن أعيش حرة مستقلة، وأتخلّص من النظام الاستعماري . جاهرت بأفكاري لسامية، فاقسمتها معي، وقرّرنا معا أن نستغل حريتنا بأقصى ما نستطيع، ونتخلّص من قيد تربيتنا وقواعد الصلابة التي تنتصب بيننا وبين الحياة، بيننا وبين حرية الوجود، وحرية القول، وحرية الفعل وحرية الذهاب والإياب . فاتفقنا على الذهاب إلى الإقامة الجامعية، وعلى فتح الباب -النافذة على مصراعيه، والذي تنفتح شرفته على أرضية معشوشبة خضراء وأن نقوم بتنظيف غرفتنا وأن نتجوّل في الممرات وأن لا نتفادي أحدا . وكنا نأمل أن نلتقي بعضا من الطلبة الفرنسيين الذين درسوا معنا والذين أقمنا معهم علاقة زمالة خلال السنتين الدراسيتين الماضيتين، والذين كان بإمكان بعضهم أن يصبحوا أصدقاء لنا . كنا في منتصف أكتوبر، وقد انطلقت الدراسة بالجامعة . كان زملاؤنا الأوروبيون، ذكورا وإناثا، كلهم هناك، يباشرون سنتهم الثالثة والأخيرة للحصول على الليسانس في الحقوق . أثناء صعودنا عبر الممر المركزي الذي تحيطه أشجار مورقة والذي يؤدي إلى الأجنحة، التقينا بطلابين زميلين، ريمون لافارج، وجان مارك بيرير . تبادلنا التحية ومشينا معا لبضعة لحظات، نتبادل أطراف الحديث . لم يشيروا، لا من قريب ولا من بعيد، إلى مواقفنا

داخل القصة، في قلب المقاومة

السياسية التي التزمنا بها حول الإضراب، ولا حدّثونا حول « الأحداث » مثلما يسمون حربنا من أجل التحرير. افترقنا عندما وصلنا إلى مفترق الطرق الصغير في آخر الممر، والذي يفصل بين إقامات الذكور عن تلك التي تأوي الإناث. تساءلنا إن كان في قدرة هذين الزميلين أن يتخيلا فحوى قناعاتنا الحقيقية، أو إن كانا يشكّان بأننا ننتمي إلى الجماعات المسلحة، وانتهينا إلى نتيجة مؤداها أنهما بعيدان كل البعد عن مثل تلك الشكوك. أوّلا لأنهما يعتقدان أنه من حقهما أن يعيشا رغد الحياة كما يحق لأبناء الأسياد أن يعيشوا، ويمكن لمثل هؤلاء الليبراليين أن يتنازلوا قليلا وأن يسمحوا لـ « بضعة أفراد » من ذويها، ومن بين « المتمدنين » أن يقتسموا معهم « رغد الحياة » ذاك، ليس أكثر. فقد أصبحت الجزائر، التي احتلّها أجدادهم، ملكا لهم. وبعد ذلك، حينما يحدث أن يفكروا فينا، لا أظنهم يفعلون من زاوية تساوي الحقوق والواجبات بينا وبينهم، ربّما يعتقدون أننا نفتقد إلى ذلك الشعور بالواجب تجاه بلدنا وشعبنا.

كان جناح البنات نشطا ؛ عادت الطالبات من العطلة وانشغلن بترتيب غرفهن. حيّينا أولئك اللائي نعرفهن والتحقنا بغرفتنا، وجدتها مثلما تركتها يوم رافقني أبي في عودتي إلى الدزاير وساعدني على ترتيب أمتعتي وغادرني بعد أن أفهمني بأنه لا يجهل السبب الحقيقي لعودتي إلى الجزائر العاصمة وهو يحضني على التفكير في استتبعات تجنيدي. انقبض قلبي وفكرت في أمي المسكينة التي تكون قلقة جدا بسبب غيابي المجهول. جلستُ على الطاولة وكتبت رسالة مطولة إلى والدَيّ، وكذبت (إن الله غفور رحيم !) عليهما بالقول أنني سجلت في السنة الثالثة حقوق. لم أكن أريد أن يقلقا على وضعي الحالي ولم يكن ممكنا أن أخبرهما بحقيقة ما أفعل. بعد الإقامة الجامعية، انتقلنا إلى حي الولاية، على الرصيف المقابل، اتكأنا على درابزين

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

جدار واجهة البحر. كنا مقابل المدخل الرئيسي لتلك العمارة الجميلة، المهيبة بحجمها وهندستها العمرانية وتناسقها. عبرنا قارعة الطريق وذهبنا لمراقبة واجهة العمارة عن قرب. كانت فرقة من العسكريين تجوب الرصيف، فيما وقف رجال الشرطة داخل المخفرين المتقابلين للمدخل. تبادلنا بضعة كلمات مع العسكريين، ساخرين من رتبة نهارهم، واعدن إياهم بالعودة، ولم لا، تناول كؤوس مثلجات معاً، عندما يُسرَّحون من الحراسة. غادرناهم ثم قمنا بدورة حول مقر الولاية، ونحن نحرص على تسجيل موقع المداخل وعدد المخافر ومواقعها وحركة فرق الحراسة. وصلنا إلى المدخل الخلفي المنفتح على شارع ألفرد لوليش (عَسْلة حسين حالياً)، كان باب هذا المدخل محروساً جيّداً، تماماً مثل المدخل الرئيسي، برجال الشرطة على جهتي الباب وفرقة من العسكريين يجوبون المكان. من الواضح أنه ليس من السهل الدخول إلى الولاية ولا الخروج منها، ولكننا كنا متأكّدين بأن أختين راهبتين لا تثيران شكوك أحد؛ ومع ذلك، كنّا نراوح مكاننا لأننا ولحد تلك الساعة لم نجد السبب الذي من أجله تدخل أختان راهبتان إلى الولاية. قرّرنا تسليط الحديث حول الولاية وعلاقتها بالمواطنين أثناء تناول الأكل كي نستفيد من إشارات والد سامية. في الغد، وفي بداية الظهيرة، دقّت جميلة على رقم 9 من شارع صالفاندي. استقبلناها بفرح وسرور واحتضنتها ماما زهور بين ذراعيها بحرارة، وهي تشكر الله أنه حماها أثناء القيام بمهمتها المقدّسة. عبّرت لها أختنا عن أسفها وحزنها لأنّ القنبلة لم تنفجر. ردّت أم سامية بآية قرآنية: « عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم »، وأنّهت قولها بأن كل ما يفعله المرء مكتوب على جبينه، ثمّ ألحّت بأن نتناول معاً « قهوة العصر ». قبلت جميلة بعد أن طلبت الإذن بأن نقضي، سامية وأنا، الليلة معها بالقصبة.

كانت مائدة ماما زهور باذخة دوماً، بصحونها المتعددة، المليئة بحلويات متنوعة قامت بتحضيرها بنفسها، تسرّ النظر وتُسيل اللعاب قبل أكلها. كان

« البقراج » التنظيف اللامع يملأ « بيت القعدة » برائحة مسكرة من القهوة التي حضّرتها على نار هادئة ورحتها بنفسها. في تلك الظهيرة، روت لنا بعض الذكريات من طفولة أمّها، ماما حنانة، في قسنطينة والتي كانت لا تزال على قيد الحياة. تتعلق تلك الذكريات بالمعارك الأخيرة لجدّها الأوّل، الأمير عبد القادر وخيانة ملك المغرب بسجن مبعوثه الخاص، بومهدي، ومنع مرور المؤونة باتجاه مقاتليه وعوائلهم ؛ فحكّت لنا النفي القسريّ للأمير عبد القادر واغتيال بومهدي في السجن المغربي. وفي الأخير، أكّدت أنه على قادة ثورتنا أن لا يعتمدوا في تحرير بلدهم إلا على شعبهم الباسل والشجاع. تأثرت كثيرا بكلامها وزدت اعترافا واحتراما لهذه السيّدة التي ما فتئت تذكرنا دوما بعظمة شعبنا برغم البؤس الذي يزرع تحته في الظرف الحالي بسبب الاستعمار الفرنسي. فارقتها ونحن ممتلئات حماسا واندفاعا للذود عن بلدنا مهما كلفنا من تضحيات. أخذنا الحافلة إلى غاية ساحة الحكومة، ثمّ أتممنا بقية المسافة وإلى غاية دار بلحفاف مشيا على الأقدام، بخطى يقظة، واثقات في شبابنا وفي طاقة أجسادنا، وفي أحقيّة مطلبنا، وبالأخص من أننا نسير بخطوة ثابتة نحو استقلالنا الأسطوري. وصلنا إلى « المنزه » حيث وجدنا « الخو » متربعا فوق السرير، جالسا في نفس الوضعية التي تركناه عليها بالأمس. أدركنا حدود سلطتنا حينما أخبرنا بأن فكرة قنبلة الولاية جيّدة، ولكن الأهمية الرمزية لهذه المؤسسة الكولونيالية تشترط نجاح العملية نجاحا مطلقا. ولكنه أضاف بأنّ عددا من الموانع والشكوك تحول دون تحقيق ذلك النجاح، لذلك يتطلب المشروع وقتا أطول للتفكير والتحضير، علما بأنّ « المنظمة » لن تقصّر في إمدادنا بالوسائل المطلوبة لتنفيذ مهمتنا. شرح لنا « الخو » : « في انتظار ذلك، يشترط الوضع أن نواصل ضغطنا على الأوروبيين. لذلك، فاحتفظنا بمشروع جميلة، وتقع مسؤولية إعداده وتحضير خطته عليكما

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أنتما الاثنين - جميلة وفريدة - . يجب تحديد مواقيت الحشود الكبرى وجزء المسار الذي يكون فيه أغلبية المسافرين من أثريائهم. ولا تنسوا أن الفرنسيين قد اتخذوا إجراءات جديدة بعد تفجيرِي الملك بار والكافيتريا ويحرصون على تطبيقها. كل أوربي مسؤول عن أمنه وأمن غيره، وكل عربي مشكوك فيه. يكون من الصعوبة بمكان ترك حقيبة داخل الترامواي، مهما كانت صغيرة، دون لفت الانتباه. تفهمون جيّداً، أنّ المشكلة الكبرى تكمن في وضع القنبلة في الوقت الذي يجب إشغال انتباه المسافرين الحاضرين. وأخيراً، وهذا تقدّرون خطورته جيّداً، إنّ توقيف واحدة منكمما يكون ضربة قاسية للمنظمة ». استمعنا إليه كتلميذات نجيبات، ثمّ سألت جميلة : « متى نبدأ التحريات لمعرفة الميدان ؟ ». قال « الخو » : « ابتداءً من الغد، وسيكون التنفيذ بعد أسبوع من الآن » .

• شجاعة جميلة بو حيرد الخارقة للعادة

عندما غادرنا « الخو »، اعترتني كآبة لأنني فكّرت كثيراً في احتمال اعتقالني، ورغم كل شيء. كيف سأقاوم التعذيب ؟ كيف سأمسح من ذهني جميع الأسماء وجميع الأماكن المعروفة ؟ فكّرت أنه من الأفضل الذهاب إلى المكتبة الوطنية، ربّما عثرت هناك على كتاب يسرد تجربة من هذا النوع تمكّن صاحبها من تجاوز مثل هذه المعضلة. إن الطريقة المثلى تكمن في قرص « الأرسينيك ». يا لها من شجاعة ! عندئذ، فكّرت في مراد الصغير، ما مصيره ؟ لم أسأل عنه، احتراماً للتعليمات والانضباط الثوري.

في الغد، خرجنا، جميلة وأنا، على الساعة الثامنة والنصف، في وقت كان الشارع يزرح تحت الظلام، فكان شريط السماء الذي تمكّننا من رؤيته بلون أبيض داكن. التقينا ببعض النساء المسنات، حسب أشباحهن وإيقاع

داخل القصة، في قلب المقاومة

خطواتهن، يحملن قفة في اليد ويتوجهن إلى السوق، ينتعلن حذاءً من نوع « الباليرينا » السوداء بأسفل بلون قشرة بيض . سأرتديها لاحقاً عندما نصبح مضطرات ومستعدات للقفز من سطح إلى سطح، وتسلك الجدران والالتحاق بفتحات ضيقة والتسلل عبرها . عندما وصلنا إلى شارع « راندون »، دلفنا وسط الحشد المتزاحم، ولم نتردد في دفع أولئك الذين يسدون تقدّمنا . لقد مشيت كثيراً في حي القصة منذ « إنزالي » الأول، إذ بدأت أشعر بأنني في حيي ومدينتي، محاولة تقمص طريقة أهلي في العيش والسلوك . عرجنا عبر شارع « هنري مارتين »، ووصلنا إلى شارع « إزلي »، فأسرعنا الخطى لركوب الترامواي إلى غاية المحطة النهائية في شارع « يوسف » مروراً بشارع ميشلي . ضبطنا ساعتينا على ساعة الترامواي وبدأنا مراقبتنا للأشخاص الذين يستقلونه، العمر، الجنس، الهيئة، العدد . عددنا الوقت الفاصل بين محطتين ووقت التوقف، وذلك إلى غاية العودة إلى البريد المركزي حيث برمجنا أن ننزل . ولكي نسجل ملاحظتنا، أخذت كل واحدة كتاباً، مع ورقة بيضاء داخله . في تلك الفترة، كان الترامواي يحوي ثلاثة أبواب : في المقدمة بقرب السائق، في الوسط، وفي المؤخرة . ركبت كل واحدة منا من باب مختلف . ابتداءً من التحريات الأولى، قرّرنا أن يوم تنفيذ العملية، سنقطع مسافة العودة إلى القصة باتجاه دار بلحفاف، على انفراد، وعبر طرق مختلفة . وكان علينا أن نقوم بهذه التحريات يومياً كي نحدّد يوم وساعة الاكتظاظ . وكى لا يتعرف علينا السواق وقابضو التذاكر، كنا يومياً نغيّر الملابس وتسريحة الشعر وهيئتنا عموماً، كنا نرتدي الحايك على طريقة بورجوازيات الدزاير، كما نرتدي حايك الفقيرات المسكينات . كنا نذهب يوماً ملحفات بحايك « المرمة » الرائع الباذخ، ونأتي في اليوم الثاني بالباليرينا السوداء وحايك بالٍ وعجّار قديم والرأس ملفوف بوشاح أبيض به نقاط سوداء كما ترتديه نساء

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

القصبة الفقيرات . ذات صباح ، وخلال تحضير خطتنا ، حينما ركبنا الترامواي في أعالي شارع إزلي ، رأينا ديدي عمر ، والد جميلة ، يجلس غير بعيد عن السائق . تبادلنا النظرات الهلعة وقد شلّنتني فكرة : ماذا كنا سنفعل لو كان اليوم هو يوم تنفيذ العملية ؟ كنا ملحفّتين ، ومتباعدتين نوعا ما ، وديدي عمر غارق في قراءة جريدة « ليكو دالجي » . نزلنا في حين واصل سفره . عبّرت لجميلة وأنا لا أزال تحت تأثير تلك الفكرة بأنّ حظنا كبير لأننا لسنا في يوم تنفيذ العملية ، ورجوتها أن تتكرّم على أبيها وتفهمه بأن يكفّ عن ركوب الترامواي والذهاب إلى الأحياء الأوروبية . ردّت جميلة بهدوء ورزانة ، شارحة بأننا في هذه الحالة ، يجب إخبار جميع ذوبنا ، وهي عملية مستحيلة . وذكّرنتني بأنّ أهلنا ليسوا بحاجة إلى استقالة الترامواي كي يموتوا . إنهم يموتون يوميا وعبر كامل أقاليم البلد ، بسبب المدهامات والاعتقالات والقمع الوحشي الاستعماري . أضافت بأنّ أباهما ، كباقي سكان القصبة التي يعيش فيها ، يقضي ليلاليه في الخوف والرعب من الشرطة والجيش الفرنسيين . القصبة محاصرة ، وتخضع لحظر التجوّل منذ أوت 1956 وقد تحوّلت إلى محتشد بسماء مفتوحة . فيما يعيش الأوروبيون في راحة واطمئنان في أحيائهم المحروسة ليل نهار . قالت جميلة : « تهدف أعمالنا إلى نقل الحرب إلى هذه الأحياء الأوروبية كي نعلن للعالم بأسره أنّ حربا تحريرية قائمة في هذا البلد المحتل . من هنا فصاعدا ، فإن السؤال المطروح يتعلق بالمسؤولية التي يجب أن يتحملها كل واحد منا إزاء هذه الحرب التحريرية وهم على دراية تامة باللاتوازن المفرط في قوة كل طرف . لهذا السبب ، أنفذ مهماتي دون أن أتوقف عند هذه العوارض الصغيرة التي قد تكثرت وتعدّدت . ولكن لا خيار لنا ، إنه وضع فرضته علينا فرنسا الكولونيالية » . فتركتني جميلة في ذهول وإعجاب لالتزامها الصادق والشامل في خدمة قضيتنا . وقد اكتشفت خلال

هذه المهمة الشَّجاعة العظيمة، بل أقول الخارقة للعادة، التي تتصف بها أختي في الكفاح. كما اكتشفت أيضا أنه يمكن للتضحية القصوى أن تتجسّد في فتاة تحمل اسم جميلة. بالفعل، في اليوم الموعود، التقينا في دار بلحفاف، حيث كان ينتظرنا كل من « الخو » وعلي لابوانت وطالب عبد الرحمن الذي ألتقيته لأوّل مرة، فأعطوا لنا القفة التي تحوي القنبلة. أردتُ حمل القفة لأنه بدا لي أنه من الأضمن أن أترك جميلة تفتح لي الطريق وهي التي تعرف القصة كجيبها وأتبعها ببضعة أمتار تفاديا لدورية عسكرية محتملة. ولكن أختنا لم تنزل عند رغبتني. أمسكت القفة بيد واثقة لتضع حدا لأيّ نقاش حول الموضوع. وقبل أن نخرج من الغرفة، حيّت الإخوة بحركة يد وقالت : « إلى اللقاء، إن شاء الله ! ». خرجنا بهدوء باتجاه الفناء، ثم السقيفة حيث توقفنا لثوانٍ لاستجماع قوانا كاملة واستعادة رباطة جأشنا قبل أن نواجه الشارع. عندما خرجنا من القصة، قرّنا المشي جنباً إلى جنب، نتبادل أطراف الحديث، ونتوقف بين الفينة والأخرى أمام واجهات المحلات مثلما يفعل بقية المارة. تفحصنا ساعتينا كي نستقل الترامواي عند أعلى شارع ميشلي على العاشرة والنصف تحديداً. كما قرّنا أن تدخل كل واحدة منا من باب مغاير للآخرى، والبقاء بعيدتين عن بعضنا البعض لمراقبة المسافرين وإمكانية إيجاد أجوبة للمفاجآت التي يمكن أن تواجهنا وتشوّش ما قضينا أسبوعاً كاملاً لضبطه كرقاصي الساعة. صعدت جميلة من الباب الأمامي، بينما دخلت من باب الوسط. كان قلبي يخفق خفقاناً راجفاً وأنا أحاول النظر إلى المسافرين نظرة طبيعية، كانت أغلبيتهم من الأوروبيين متوسطي العمر، باستثناء بعض النساء العربيات الملحفات بالحايك الأبيض. كان قلبي منقبضاً، ولكننا، ومثلما قالت أختي، فنحن في حرب وللحرب نواويسها الخاصة. في الموقف الموالي، نزل عدد قليل من المسافرين، فيما تراحم عدد كبير للركوب.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أضحى من الصعوبة عليّ أن أرى جميلة وأتابع حركاتها. اتفقنا أن نزل في موقف الجامعة، وقد بُرمجت القنبلة لتتفجّر بعد عشر دقائق على مستوى البريد المركزي. بحثت بنظرة فاحصة عن جميلة المتواجدة في الطرف الآخر من العربة. أفهمتنني بحركة مختلصة من الرأس والعينين أنّ كل شيء يسير على أحسن ما يُرام وأنه حان الوقت للتقدم استعدادا للنزول. شققت طريقي وسط كتلة الحشد المتزاحم، فوصلت إلى الباب المركزي، حيث اتكأت على أحد الأعمدة أنظر في اتجاه جميلة، غير بعيدة عن الباب الأمامي. أشارت لي بأنّ كل شيء على التمام وقد حان وقت النزول، وهو الشيء الذي فعلته بمجرد توقف العربة. وضعت قدمي على الرصيف ومشيت مبتعدة قليلا عن موجة المسافرين الكثّر في تلك الساعة من النهار. انغلقت الأبواب وانطلق الترامواي مستأنفا مساره باتجاه البريد المركزي. بحثت عن الحايك الأبيض الذي ارتدته جميلة وسط المسافرين الذين نزلوا توا من الترامواي والذين ابتعدوا شيئا ما عن المحطة. لا حايك في الأفق. انتظرت بصبر أن تفرغ المحطة وأنا متأكّدة من أنها ستظهر بعد ثوانٍ فقط. ولكن لا شيء في الأفق، لا أثر لجميلة. مرت ثوانٍ أخرى قبل أن أدرك بأنها بقيت داخل الترامواي وأنها ستكون أوّل من تفجّرها القنبلة. فبدأت أجري كالمجنونة لألتحق بالترامواي. لم أكن أرى شيئا ولا أسمع صوتا، ولا ألوي بمن أَدفعهم بجسدي أثناء ركضي المجنون نحو البريد المركزي حيث ستنفجر القنبلة. كنت أجري باتجاه الدوّيّ المرعب الذي أعرف، ومنذ انفجار الملك بار، أنه سينفجر بداخلي. كنت أركّض وأنا أرّدد مع نفسي : « لماذا ؟ لماذا لم تنزل ؟ لماذا بقيت داخل المركبة ؟ ليس من حقها أن تفعل ! ». عندما وصلت إلى البريد المركزي، لم أجد هناك الترامواي. واصلت ركضي الجنوني، متأكّدة أنّ الترامواي يكون قد زاد من سرعته وأنّ القنبلة ستنفجر قبل محطة ساحة الحكومة الأخيرة. واصلت الجري، لم أكن

داخل القصة، في قلب المقاومة

أجري داخل مدينة، وإنما داخل كابوس يرعبني، وقلبي على ضفاف شفتي، ووجهي وعجاري تبللهما دموع اليأس المنهمرة. وحينما وصلت إلى ساحة الحكومة، لم أعثر على أي أثر للانفجار. ألقيت نظرة هلعة حولي. كانت هناك نساء كثيرات، أغلبهن ملحفات وبقفه في اليد، ورجال ببذل صينية زرقاء، الرأس عارٍ أو معتمر شاشية، بعض الأوروبيين باللبسة متواضعة. اعتراني قلق فضيع، لأنني تصوّرت نفسي وقد أصابني جنون مبالغ، فبدأت أقرص فخذي لأتأكد من أنني فعلا هنا في ساحة الحكومة حيث أتواجد. فكّرت بأنني ركضت بسرعة وتجاوزت المكان الذي تكون القنبلة قد انفجرت فيه. استأنفت سبّاق في الاتجاه المعاكس، وعندما وصلت إلى محطة الجامعة، تأكدت أن القنبلة لم تنفجر. ولكن ماذا حدث لجميلة؟ هل أوقفها أعوان الشرطة المدنيون بداخل العربة؟ ندمت ندما قاتلا لأنني نزلت من العربة دون أن أتأكد من نزولها. كان عليّ أن أنتظر نزول الجميع لأكون بقربها. اعتراني إحساس رهيب بالذنب، لا أعرف ماذا سأقول للإخوة عند عودتي. فغرقت في تشوّش ذهنيّ صاخب. ماذا سأقول لخالتي باية؟ لأختي؟ لعائلة بوحيرد؟ استأنفت طريقي باتجاه ساحة الحكومة وأنا أبكي. هزّنتني امرأة من ذوينا قائلة: « لا تبكي بنيتي، أتمنى أن لا تكوني في ورطة كبيرة. هل يمكنني مساعدتك؟ انتظري، سأطلب قليلا من الماء لك. شدي في ربّي، سيفتح لك جميع الأبواب... ». شكرتها واتجهت نحو القصة، مستعدة لمواجهة الحقيقة المرعبة. أنا التي لم أمش أبدا داخل القصة دون مرشد، لم أعرف أبدا كيف وجدت نفسي أمام دار بلحفاف حيث دققت الباب مرتين كما كانت تفعل جميلة. انفتح الباب بسرعة كما لو أنهم كانوا ينتظرونني. ودون أن أنظر حولي، صعدت إلى غاية السطح مستعدة لتلقي توبيخات الإخوة، وأنا مقتنعة أنهم على حق إن فعلوا.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

عندما وصلت إلى « المنزه »، احتضنتني جميلة بذراعيها وأنا أكاد أفقد وعيي. لفّني ضجيج وأصوات وضحكات، في حين كان شخص يُجلسني على السرير وأيادٍ كثيرة تسحب الحايك والعجار من جسدي المنهك. كنت أنظر إلى جميع تلك الوجوه تقترب مني وتبتعد وتكلم دون أن أفهم شيئاً مما تقول. كنت مصدومة فهزّنتني الأيدي المحيطة بي وقدمت لي كأس ماء. أجهشت بالبكاء وأخذتني جميلة بين ذراعيها مرة أخرى وقالت: « أين كنت؟ كدت أموت من القلق بسبب غيابك الطويل. هل تُهت في القصة؟ ». حدّقت في وجهها غير مصدّقة، ثم سمعت صوتي يقول: « والقنبلة؟ هل انفجرت؟ أين انفجرت؟ ». ردّت جميلة بصوت مخنوق من الغضب والشهقات: « لو انفجرت لما كنت هنا أمامك ». ثم أضافت بعد صمت طفيف: « أنا مكحوسة، لا حظ لي. القنبلة لم تنفجر! ». أخيراً تعرّفت على صوت عليّ الذي كان يواسيها وهو يشكر الله على أنّ الأمور سارت بهذه الكيفية، وقد نجت من موت محقق، فلو انفجرت القنبلة لمزّقتها إربا إربا. شيئاً فشيئاً، بدأ الحديث الذي كانت كلماته تصلني متقطّعة، يكتسي دلالات واضحة. فبدأت أتابع تبادل الكلام بين عليّ وجميلة وشخص ثالث يسمّى عليلو والذي سأحدّثكم عنه لاحقاً. حكّت جميلة أنها أخفت القفة التي تحوي القنبلة تحت مقعد، بحيث لا يلاحظها أحد، مثلما اعتقدت، واستعدّت للالتحاق بالباب للنزول وهي تسوّي لحافها، حينما نادى عليها امرأة أوروبية بصوت فظّ: « إيبه، أنت، أيتها السيّدة! لقد نسيت قفّتك! ». لم تكن جميلة قد خطت إلا خطوتين، فالتفتت نحو الصوت وردّت بفرنسية تتخللها كلمات عربية: « لم أنس. أنتِ تزيّن أنني أسوّي لحافي! ». فانحنت جميلة وأخذت القنبلة من القفة ودفعت هذه الأخيرة بضربة قدم تحت المقعد، ثم وبطريقة واضحة، ألصقت الطرد الصغير الذي يحوي القنبلة ضد صدرها

بيدها اليسرى، فيما كانت تسوّي لحافها باليد اليمنى. فواجهت السيّدة التي انتهرتها وتفرّست في عينيها. هزّت هذه الأخيرة كتفيها وأدارت لها ظهرها. حينئذ، قرّرت جميلة أن لا تنزل في محطة الجامعة لأنّ كثيرا من المسافرين المحيطين لاحظوا وجودها، وأن تواصل سفرها حتى وإن اقتضى الأمر أن تنفجر القنبلة بين ذراعيها. إنّ الاحتياط الوحيد الذي اتخذته هو الاقتراب من المكان الذي كان يحوي عددا كبيرا من الأوروبيين، فابتعدت عن مكانها الذي به مجموعة من النساء العربيات الملحفات وهي تتمنى أن لا تصيبهن شظايا القنبلة إصابات قاتلة. فنطقت بالشهادتين وشدّت طرد القنبلة بقوة ضد صدرها وبدأت تنتظر لحظة التفجير. وسافرت هكذا، جالسة وهي تحتضن الطرد، إلى غاية المحطة النهائية. ولم تنفجر القنبلة. سكّت صوتها. لا أحد يتكلّم. خيم الصمت ثقيلًا كثيبًا. فجأة، ردّدت بصوت خفيض: « أنا مكحوسة، ما عنديش الزهر! ». سكّت مرة أخرى. كان وجهها جامدا، وعيناها منفتحتان، والدموع تنهمر منها في سيلان عارم. فلم أرَ في حياتي شخصا يبكي بهذه الطريقة. تنظر أمامها بعينين غائرتين، منفتحتين، وطوفان من الدموع يبلل خديها وذقنها، وكامل وجهها الجامد، بلا أدنى تكشيرة. كانت تبدو غائبة، وقد هدّها حزن كثيب لا تستطيع الكلمات أن تخفف من وطأته ولا أن تقلل من بؤسه. لا أحد تجرأ على التحرك ولا على إبداء أي كلام. تأثّرت بصدق من ذلك الجو الحزين وفكّرت: « ليست جميلة هي التي تبكي. إن هذه الدموع آتية من عمق السنوات الجائرة، وتعبر عن كل الشقاء الذي نزل علينا منذ احتلال الفرنسيين لبلادنا ». وبعد ذلك مرّرت، وبصمت، يديها على كامل وجهها، أخذت منديلا ومسحت عينيها وتنفّست بعمق وردّدت مرات عديدة: « أستغفر الله ». كنا جميعا حولها كما لو أصبنا بتنويم مغناطيسي. لم أتمكن من إزاحة بصري عن وجهها

مُذْكَراتٌ مُجَاهِدَةٌ من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

المنتفخ والمبلبل بالدموع المدرارة التي نزلت إلى حدّ رقبتهـا. قطعت صمتها بالتوجّه إلَيّـي : « ولكن أين كنتِ طوال هذا الوقت ؟ اعترانا خوف رهيب عن مصيرك ! ». كيف أشرح لها الهلع والضيق اللذين انتاباني حينما لم أرها تنزل من الترامواي ؟ كيف أشرح لها ركضي الجنوني بين الجامعة والمحطة النهائية في ساحة الحكومة، ولمرتين متتاليتين، وأنا أرتعد خوفا عليها، ولا أتصورها إلا وقد مزقتها القنبلة، أو في أحسن الأحوال بين مخالب الشرطة ؟ كيف أشرح لها تيهي وفوضائيّ الذهنية ؟ اكتفيت بالقول : « لماذا تركتيني أنزل ؟ كان عليك أن تُبقيني معك ! ». ضمنتني إلى صدرها بشدّة وحنان أكثر. فأحاطها عليّ بذراعه وتمكن من نزع ابتسامة من وجهها الحزين حينما قال : « يا اختو، لا يساوي آلاف الفرنسيين شعرة واحدة من شعرك. شكّون بينا لو كان مُتَيّ ؟ ».

في ذلك اليوم، اكتشفتُ معنى كلمة شجاعة، وإلى أي حدّ يمكن لالتزامنا في سبيل قضيتنا أن يصل. عرفت في ذلك اليوم أنّ جميلة ليست فقط مستعدة للتضحية بحياتها من أجل استقلال بلادنا، وإنما قد وهبته كامل كيائها ووجودها. ولم يعبر عليّ، الرجل العادل بامتياز، حينما قال « شكّون بينا لو كان مُتَيّ ؟ » إلا عن تجنيد جميلة، وكل عائلة بوحيّرَد في سبيل الثورة. لقد حوّل والداها، ديدى عمر وخالتي باية، منزلهما إلى مأوى مضياف لقادتنا ومناضلاتنا ومناضلينا، ويحتوي سطحهما على مخبر حقيقي لصناعة القنابل المتفجرة. كما كان عمّها، عمي مصطفى، وزوجته، أختي، (المولودة فتيحة حطالي) معجدين جسدا وروحا، في الكفاح التحرري. كما كانت جدّتها من أبيها، يَمّا، تتربّع على العرش كجزائرية أصيلة في بلدها، ولا تتعب أبدا من حصّ الجميع على الشجاعة والبسالة والإيمان بثورتنا التحررية وهدفها المقدّس : استقلال بلادنا. وكان لي الحظ السعيد لمعرفة عائلة أخرى لا تقل

داخل القصة، في قلب المقاومة

تجنيدا عنها، ألا وهي عائلة بلحَقاف. ماذا يمكن لفرنسا العظمى، بجيشها وشرطتها وأسلحتها ومُخبريها وتعذيبها وقمعها الوحشي، أن تفعله ضد جميع ليمّات والحالات والبايات والأُخَيّات ولآلات بلحفاف وزينب وأخريات كثيرات ؟ لا شيء. كنت أعلم ذلك، ولديّ الدليل الذي لا يقبل النقض. إن النظام الكولونيالي العنصري، المتعجرف والمحتقر، لا يعرف إلا القليل عن شعبنا وثقافته وقيمته الراسخة المقدّسة، أما عالم المرأة، فلا يعرف عنه شيئا. فبعد 126 سنة من الاحتلال، بقيت المرأة الجزائرية القلعة المنيعه، وحينما تسمى « جميلة »، فإنها « تساوي وزنها بارودا »، مثلما يقول كاتب ياسين بعد ذلك لاحقا. تعرّفتُ على جميلة بجرعات قليلة. في المرة الأولى، انعكست صورتها على الواجهة الزجاجية لصيدلية بوكردونة في جويلية 1956 حينما أعطت موعدا لسامية. لفّت انتباهي هيأتها، أناقتها وحجم كتلة شعرها المتدفق على كتفيها. وفي 30 سبتمبر 1956، حينما استقبلتنا، سامية وأنا، في 5 شارع « بوغيلي لاصابي »، انجذبت برقة واتساق قسمات وجهها، ونبرة صوتها المتميّز، وضحكتها الصريحة والمدوية، وكذا بميلها إلى المزاح والسخرية. وجدتها صريحة، أصيلة وواثقة من نفسها. تلك الصفات هي التي حبّبتها إلى نفسي. وبعد ذلك عند عائلة بلحفاف، اكتشفت فتاة مكتملة كما تحلم بها جميع الأمهات في تلك الفترة. فزيادة إلى جمالها وأناقتها الطبيعية، اكتشفت أيضا تمدّنها اللطيف والاهتمام المفرط بالآخر وحساسية حادة بالآلام الآخرين. فكانت تجهش بالبكاء بمجرد ذكر الجرائم الكولونيالية ضد شعبنا والبؤس الكبير المستشري في وسط سكان أريافنا هناك في الجبال والمحتشدات، وهي تكاد تصرخ غيظا : « الملاعين ! الملاعين ! يا إلهي لماذا كل هذا الظلم وهذه الحُفْرة ؟ ».

وقد سمح لي مشروع تفجير الترامواي باكتشاف وجوه أخرى من طبعها. إن جميلة الحنونة، الحضرية، الراعية لغيرها، قد تتحوّل إلى شخص بسلطة

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

صلبة قوية، ترفض ولو على مستوى التصوّر إمكانية التراجع أو الانسحاب من أجل هجوم أفضل. تملك تلك الشجاعة الخارقة للعادة التي أصفها بالفوق-إنسانية، لأنها ستؤدي بها مباشرة إلى الموت وعيناها منفتحتان، وهي تعرف وتقبل. تماما مثلما فعلت حينما وجدت نفسها وجها لوجه مع القنبلة التي لم يبق على انفجارها إلا بضعة دقائق، فاحتضنتها وانتظرت الموت بصبر وشجاعة لا نظير لهما، لا يوجدان إلا عند أبطال الملاحم. ولم تكن تتصنّع أو توهم الآخرين، أبدا. إنّ احتضان مادة موتها والنطق بالشهادتين يشهدان على شجاعتها القوية ونزاهتها الكلية. أصبحت أختي وصديقتي. ابتداءً من ذلك اليوم، أقمنا عند عائلة بوحيرد في الخامس من درب غرناطة. كانت سامية تقيم في سانت أوجين وتلتحق بنا حينما يطلبها « الخو » لإنجاز مهمة ما. وكانت سامية تمرّ بمرحلة عصبية وشاقة في حياتها الشخصية، ممزقة بين تجنيدها في الثورة وبين زواجها المبرمج في 24 ديسمبر، وقد سبق للعائلتين أن حدّدتا التاريخ منذ فترة، ولا تريد ماما زهور، حليفتها الوحيدة، أن تسمع كلاما حول التأجيل. كانت صديقتي خجولة عندما يتعلق الحديث بحياتها الحميمة، فكانت تتألم بصمت. وكانت مقتنعة بأن لا أحد من الأخوات والإخوة سيتفهّم ما تسميه « التحرّر من الالتزام الثوري ». وكنت في كل مرّة أحاول التخفيف عن حزنها بالقول أنّ أخواتنا، باعتبارهن نساء من مجتمعنا، يعرفن الحدود التي تفرضها تقاليد مجتمعنا، لأنهن يعشن داخل ومع هذه الحدود.

أما الإخوة، فالترزمت بالنسبة لشخصين على الأقل : سي محمد وعليّ. بُحث لها بقناعاتي العميقة بأن سي محمد، بسخائه وانفتاحه على الآخرين ورزاقته وحنكته في الحياة واعتباره واحترامه لنا، سيتفهّم الوضع جيّدا. وأضفت بأنّ عليّ الأصيل والعاقل سيتفهّم وضعها أيضا بل وسينتفض في

داخل القصة، في قلب المقاومة

وجه كل معترض لمشروعك. هكذا، تمكنت من رفع معنوياتها وإقناعها بإخبار « الخو » بزواجها المقبل. وعدتني بالاتصال به في منتصف نوفمبر، لأنها تريد مواصلة العمل معنا إلى غاية ذلك التاريخ. أما صغيرتنا حسيبة، فكانت تقيم هي أيضا عند عائلة بوحيرد. وعلى خلافنا، وبما أنها كانت محل بحث من طرف الشرطة، تلقت أمرا صارما بعدم وضع قدميها خارج البيت، ولا حتى في طوابقه السفلية. قصت شعرها. فأصبح بلون أشقر داكن، مثل حاجبيها، بفضل وصفة الحناء الممزوجة بـ « العفصة ». هكذا، بدت نظرتها بزرقة داكنة. وكانت تبدو ناضجة أكثر من تلك المراهقة التي جاءت إلى دار بلحفاف تختفي من أنظار الشرطة، مع أنّ هياتها الصارمة تتناقض مع حداثة سنّها وجسدها النحيل. كانت تعيش في سرية تامة، مع أنها بدت لي أكثر هدوءا وأقل قلقا وتحفظا من الأيام الأولى. التحقت حسيبة بفريق صناعة المتفجرات وتعيش وتشتغل في المخبر الواقع في سطح دار الخامس من درب غرناطة. يبدو أنّ مسألة ترحيلها إلى الجبال لم تعد واردة، فبعد وفاة الأخ رشيد كواش في انفجار مخبر فيلا الورود بطاغارين، إثر سوء استعمال القنبلة، اتُخذ قرار إعادة تأسيس مخبر المتفجرات في القصة وبالضبط في منزل عائلة بوحيرد. وقد أقام الناجون من ذلك الحادث المؤسف، عبد الغني مرسالي، دبيح شريف، وطالب عبد الرحمن، في سطح البناية الواقعة في درب غرناطة، أي دار بوحيرد. التحقت بهم حسيبة. وكنا فخورات بخبيرتنا الأولى في صناعة القنابل، حسيبة الجميلة والشابة النحيلة.

شيئا فشيئا، بدأت أقلل من ذهابي من القصة إلى سانت أوجين. كانت « الدزاير » مُشبّكة بآلاف العسكريين الفرنسيين الذين يفتشون ويراقبون هوية المارين، يتفقدون ما بداخل الحقائق والقفف، وحتى داخل ملابس الأشخاص. في المدينة الأوروبية أيضا كان الخوف باديا للعيان أينما ذهبنا،

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وبالأخص في العيون القلقة والفضولية لمسافري وسائل النقل العمومية الذين كانوا يراقبون كل شيء، بل ويفتشون ما يوجد تحت المقاعد. أخيرا، لقد نزلت الحرب القذرة وصديقها المقيت، الخوف، على الأحياء الأوروبية بعد أن كانت – وإلى غاية سبتمبر 1956 – لا تخص إلا الأحياء الشعبية العربية. وكلما تعاظم الخوف، كلما كثرت فرق التفتيش والمراقبة داخل المدينة، فيتضح للعيان أنّ الجزائر ليست مجموعة من الولايات الفرنسية، وإنما هي بلد أجنبي عنهم ويحتلونه بقوة الحديد والنار. وبالطبع، كان هدفنا السياسي باعتبارنا مناضلي جبهة وجيش التحرير الوطني هو نقل الحرب ومعها الخوف إلى الأحياء الأوروبية؛ وبالتالي، كان علينا أن نضعف من الحذر. ولم تعد سامية تأتي إلى القصبة إلا حينما تُكلف بأداء مهمة ما. في تلك المناسبات، تجد حسية والإخوة، أما جميلة وأنا، فكنا في غالب الأحيان غائبات بسبب الخدمة.

• تحويل الطائرة التي تقل خمسة من قادتنا

في صبيحة 23 أكتوبر، في الوقت الذي كنّا نتناول فيه فطور الصباح، دخل علينا عُمَر الصغير وهو يُشهر نسخا عديدة من جرائد « ليكو دالجي » و « لاديبش كوتيديان » و « ألجي ريبوبليكان »، على صفحاتها الأولى وبالخط الداكن والبنط العريض أعلنت الخبر الرهيب : لقد قام الطيران الحربي الفرنسي بتحويل الطائرة التي تقل خمسة مسؤولين من جبهة التحرير الوطني – محمد خيذر، محمد بوضياف، أحمد بن بلة، حسين أيت أحمد، ومصطفى الأشرف – وأجبروا قائدها على النزول في مطار الدار البيضاء بالجزائر العاصمة. وعلى جميع الجرائد، صورة قادة « الأفلان » المختطفين وهم واقفون وأيديهم مقيدة. التحقنا بـ « الخو » وسي محمد، اللذين كان لنا معهما

موعد. بعد تبادل التحية، انصبّ الحديث مباشرة على موضوع اختطاف الطائرة. قال سي محمد : « لقد سافر قادتنا الخمسة من الوفد الخارجي من الرباط بالمغرب متجهين نحو تونس. كان من المفروض أن يشاركوا في مؤتمر الشمال الإفريقي من أجل السلم والتحدث مع الرئيس الحبيب بورقيبة والملك محمد الخامس عن ظروف مفاوضات محتملة مع فرنسا. أريد رأيكم حول ما حدث ؟ ». تشجعتُ فقلت أن الجرائد تتكلم عن ضربة موجعة لمنظمتنا، ولكنني أتساءل إن لم تكن الضربة موجّهة أكثر نحو المغرب الذي تزعزعت سيادته لأنّ الطائرة كانت تسافر تحت رايته. ومن جهة أخرى، شرحت أنّ فرنسا التي اخترقت القوانين الدولية في تنظيم الطيران المدني، تعترف واقعياً بمنظمتنا. وأضفت أنني فخورة بالانتماء إلى منظمة، تمكّنت، بعد 17 شهراً فقط من اندلاع حرب التحرير، من تشكيل قيادة سياسية وقيادة عسكرية ووفد خارجي مكلف بنقل كفاحنا إلى الخارج، وأنّ كل هذا يشكل جنين دولتنا. واختتمت قولتي بأن لجوء فرنسا وبكل وقاحة إلى الاختطاف الجوّي يؤكّد أنها لا تريد المفاوضات وإنما الحرب. تدخّلت جميلة وأضافت أنّ لا شيء يدهشها في أفعال فرنسا ضدنا لأنها برهنت على عداوتها باحتلال بلدنا لأزيد من قرن : « لقد تصرّفت فرنسا كدولة سافلة، وكان يمكن أن تُسقط الطائرة. أنا لا أنتظر منها أي خير، ولكن ما لا أفهمه، هو طريقة عمل وفدنا الخارجي. لماذا أخذ قادتنا الخمسة طائرة واحدة وعلى مرأى ومسمع من جميع الناس ؟ طائرة يقودها فرنسي، قالت عنه بعض الجرائد بأنه ضابط احتياطي ؟ أرى أن قادتنا تصرّفوا باستخفاف لا يُغتفّر. نحن في حرب ولسنا في عطلة سياحة ! ». كنت أرغب في سماع رأي سي محمد، فأخذت الكلمة ثانية لأقول : « جميلة على صواب. زيادة إلى أنّ موقف وفدنا الخارجي يطرح مسألة مدى الثقة التي نضعها في النظامين المغربي والتونسي ». تدخّل

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

« الخو » بابتسامة عريضة على وجهه، موجهها كلامه إلى سي محمد :
« راك تشوف، يحاجو ويفكّو وحدهم ! » (يطرحن الأسئلة ويُجبن عنها بمفردهن). ردّ سي محمد بهدوء ورزانة : « صحيح أنه بإمكاننا النظر إلى المسألة مثلما فعلت الأختان. ولكن الذي يهّمنا في اللحظة الحاضرة، هو معرفة موقف الشعب من هذه الحادثة التي لا يمكننا تجاهل خطورتها. إنّ موقف الشعب من منظمّتنا مهم جدا بالنسبة لنا ». تلقّى « الخو » الفكرة فورا وأمرنا في الحين بأنّ نتحرى قليلا حول هذه المسألة بالاستماع إلى الناس وتحضير تقرير. تساءلت : « تقرير كتابي ؟ ». ردّ « الخو » : « طبعا ! وفي الأمر أهمية كبرى ». غادر سي محمد الغرفة ليلتحق بمخبئه، وبمجرد أن أغلق خلفه الباب، حاصرنا « الخو » بأسئلة حول حالة التفكير الحقيقية لمسؤولنا الكبير. أردنا معرفة رأيه حول وفدنا الخارجي وسلوكه غير المفكر فيه بالقدر الكافي. وكذا إنّ فكرت المنظمة في عمليات انتقامية ردّا على هذا الاختطاف الجائر ؟ وإن كنا سنشارك فيها ؟ أكدّ « الخو » ما كنا نعرفه، أي أنّ اختطاف قادتنا الخمسة المتوجهين في مهمة رسمية تحت حماية ملك المغرب والرئيس التونسي فعل خطير للغاية، فعلى كل واحد منهما أن يتحمّل مسؤولياته. أمّا مسؤوليتنا نحن فتمثل في معرفة موقف شعبنا ولكن ليس من فرنسا وجيشها، وإنما من منظمّتنا وقادتها. ردّت جميلة : « 5 على 5. هل تريد أن تقول بأنّ سي محمد غير راضٍ عن أولئك الذين نظموا هذه المغامرة التعيسة ؟ ». صرخ « الخو » : « لم أقل هذا أبدا ! الآن يكفي. اذهبوا واستمعوا إلى ما يقوله الناس وأعدّوا تقريركم في أسرع وقت ! ». فقرّرنا فورا أن تذهب جميلة للاستخبار في القصة وبلكور، وأنا في أحياء سانت أوجين و « كليما دو فرانس » حيث ستساعدني سامية. فباشرنا العمل فورا. وكانت نتيجة سبرنا للآراء كالتالي :

داخل القصة، في قلب المقاومة

1- لم يستغرب الجزائريون الذين يعرفون جيّدا الطبيعة الحقيقية لفرنسا الاستعمارية وقوع هذا الاختطاف الجوّي وفي المجال الدولي . فبالنسبة إليهم، لا تختلف فرنسا عن ألمانيا النازية .

2- إن شعبنا يُدين وبلا أدنى تردّد السهولة التي سلكها قادتنا الخمسة حينما قراروا السفر جماعيا وفي طائرة واحدة . يرى الجميع أنّ عدم اتخاذ قادتنا الخمسة للاحتياطات اللازمة هو الذي منح لفرنسا العدوّة فرصة إحداث خسارة قوية في صفوف « الجبهة » .

3- طرح كثير من المستجوبين سؤالاً عن مدى الثقة التي نضعها في النظام المغربي . وقد ذهب مناضلو حزب الشعب وحركة الحريات الديمقراطية واتحاد البيان ... إلخ . إلى التذكير بخيانة ملك المغرب للأمير عبد القادر في القرن 19، وفي وقت حاسم من مقاومته ضد الاحتلال الفرنسي .

وقد ذكرنا قدماء حركة الحريات الديمقراطية بأن اتفاقا قد تمّ عقده في سنوات الخمسين بين الأحزاب المغاربية الثلاثة المطالبة بالاستقلال، حزب الاستقلال المغربي والدستور التونسي وحركة الحريات الديمقراطية الجزائرية، واتفقوا على أن يعلنوا في وقت واحد قيام حرب التحرير في البلدان الثلاثة . ولكن إخوتنا المغاربة فضلوا الانفراد بالعمل والتفاوض مع فرنسا دون إشراك جاريهما .

4- وفي الوقت نفسه، كان جميع المستجوبين فخوريين بمنظمتهم التي أجبرت فرنسا على أن تتصرّف كدولة سافلة، وجيشها كقطاع طريق خارج عن القانون الدولي . وأكّدوا أنّ هذه الطرق المشينة التي استعملتها فرنسا لاعتقال قادتنا الخمسة تبينّ بجلاء الخوف والتهديد الذي يثيره « الأفلان » في صفوف السلطة الفرنسية وجيشها . وكان هذا في عيونهم أفضل اعتراف لتمثيل « الجبهة » للشعب الجزائري .

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

5- إن شعبنا يثق ثقة كبيرة في منظمة « الأفلان ». كان فخورا بقدرتها على القيام بالكفاح على كل الجبهات، العسكرية، السياسية، الدبلوماسية، والقدرة على جمع هذا العدد من المسؤولين من أجل التفاوض. ومن جهة أخرى، يشترط شعبنا صرامة أكثر في قوانين حماية المسؤولين من أجل حماية وتدعيم « المنظمة ».

6- وأخيرا، إذا كان شعبنا واعيا بفظاظة السلطة الفرنسية القسوى، فإنه من جهة أخرى لا يتأثر بخطابها الدعائي. أكثر من هذا : كلما تضاعف تهجّم وسائل الإعلام الفرنسية على وفدنا الخارجي وعلى جبهة التحرير الوطني، كلما تضاعف إيمان شعبنا بمنظمتهم وقادتهم، تطبيقا للحكمة الشعبية القائلة : « لا يتهجّم العدو إلا على تهديد فعلي » .
كتبنا تقريرنا وذهبنا نسلّمه لـ « الخو » .

• نقل القنابل والأسلحة والبريد، مرافقة وإيواء المناضلات

وكانت الصحافة الكولونيالية، خلال كامل أسبوع أكتوبر الأخير، تبتهج معلنة نهاية « الأفلان » بعد اعتقال القادة الخمسة. فحرصنا على إثبات العكس، كلما استبسلت السلطة الكولونيالية بتحويل القصة والأحياء الشعبية العربية إلى محتشدات على الهواء الطلق، كلما حرصت منظمنا على نقل الحرب إلى إقليم العدو، أي إلى الأحياء الأوروبية. كان هدف فرنسا هو تحويلنا إلى الوضع المشين لحفنة من « الخارجين عن القانون » الذين يهدّدون الأمن العام داخل إقليمها، من دأنكرّك إلى تامنّراسنت. قضينا شهر نوفمبر ونحن نشتغل لنبيّن بأنّ « الجبهة » لا تزال مثلما كانت، بل وأقوى من السابق. لا يمرّ يوم دون أن يتم اعتقال أو قتل جزائريين، سواء كانوا من المناضلين أو من المدنيين. كما لم يكن يمرّ يوم دون أن يقوم مناضلونا بتنفيذ

داخل القصة، في قلب المقاومة

عمليات عسكرية. هكذا، حينما بدأ مَخبر صناعة المتفجرات في الخامس من درب غرناطة يشتغل، امتلأنا حبورا وابتهاجا. فأخرجنا القنابل المصنوعة من القصة إلى المدينة الأوروبية. وكانت العملية تصعب يوما بعد يوم، خاصة وأنَّ القصة كانت محاصرة ومراقبة بشدَّة. ولم يكن ذلك يثبط من عزيمتنا أبدا، فقد تأقلمنا مع المعطيات الجديدة، وانتهت الطريقة البسيطة التي كنا ننقل بها القنابل سابقا. بدأ العدو يطيل التفتيش ويراقب الحقائق والقُفُف وكل الأشياء التي تحملها النساء ذات الهيئات الأوروبية واللائي يلتحقن بالمدينة الأوروبية عبر مخارج القصة المحروسة كلها بحواجز مصنوعة من الأسلاك الشائكة وفرق من الجيش. وكنا نتحدَّى كل هذه العوائق لنعبُر نقاط المراقبة والتفتيش، متبوعات باستمرار بأحد الإخوة أو اثنين مسلحين، مع الاستعداد التام لإطلاق الرصاص في حالة ما إذا تمَّ تفتيشنا. وتلقينا تعليمات بالانبطاح أرضا والزحف للابتعاد عن حقل رمي الرصاص. وكنا نحضّر بعناية فائقة هذه التنقلات من النوع الخاص، ندرس كل حركة من حركاتنا، ونؤقلم كل عملية مع جزئياتها الخاصة أيضا. لم نكن نترك شيئا للصدفة أبدا، نغربل كل صغيرة وكبيرة : عدد وأوقات تبديل فرق الحراسة وكذا الطريقة التي تتم بها.

أعترف اليوم أن البركة التي كنا نشعر بأنها ترافقنا لم نخذلنا أبدا، كما ينبغي أن أعترف بأن ما كان يدعّم هذه البركة معرفة جميلة العجيبة للقصة ومختلف دروبها ومنعرجاتها ومخارجها ومداخلها، بما في ذلك تلك التي لا يعرفها إلا القليل من قاطنيها. فزيادة على القنابل، كنا نحمل طرودا متنوعة وظروفا بريدية خارج المدينة العتيقة، باتجاه عناوين منتشرة في كامل أرجاء « الدزاير » وضواحيها والتي لا تخفي أي سرٍّ عن أختنا أيضا. فإلى جانب ما كنا نقوم به معا، ومع مهمة إيوائنا الكبرى في بيت أهلها وإيواء مخبر صناعة المتفجرات، كانت جميلة مكلفة بمرافقة المناضلات اللائي كنَّ محلّ

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

بحث من طرف الشرطة كي يحتمين بالقصبة في انتظار نقلهن إلى الجبال، عند المجاهدين.

في شهر نوفمبر 1957، خرجت أختنا بمفردها في مهمة وعادت في نهاية الظهيرة برفقة مراهقة ذات سِمات أوروبية واضحة. كانت لا تزال فتاة، وفكَّرتُ عند رؤيتها : « لا يزال حليب أمها في فمها ». كان كل شيء فيها يوحي بطفولتها : ابتسامتها، نظرتها، ولون بشرتها، وشعرها الرقيق الذي جمعته خلف أذنيها في ضفيرة طويلة وسميكة. إنها جميلة عمران، واسمها الحقيقي « دانيال مين »، ابنة « جاكليين فروج »، مناضلة كبيرة سأتعرف عليها في السجن لاحقا. لقد تمَّ تفكيك شبكة دانيال مين، مثلما أعلنت الصحافة الكولونيالية، وكانت هذه الشبكة تحت إشراف جيلالي فروج (زوج جاكليين التي كانت لها ابنة، « دانيال »، من زواج سابق)، وتجمع مجموعة من مناضلين شيوعيين قدامى والذين التحقوا بصفوف جبهة التحرير الوطني، بعد اتفاق جويلية 1956. ومكثت معنا دانيال في 5 درب غرناطة، عند عائلة بو حيرد إلى أن توفرت جميع الظروف لنقلها إلى الجبال. كانت تتميز بعفوية بسيطة ومرحة، فأصبحت بسرعة مُفضَّلة المجموعة ومسليتها. فكنا نعطف عليها، وهي تملأ الغرفة بهجة بضحكاتها الطفولية الرنانة، والجهود التي تبذلها لتتكلم بالعربية برغم نبرة « فرنسيّتها القديمة »، والتزامها الكلي والصادق إلى جانب قضيتنا. وكانت خالتي باية هي التي تعطف عليها أكثر من الجميع، ربّما لأنها أمّ وتحسّ بالأُمومة أكثر منا جميعا، فتهمس لنا بالعربية كي لا تفهمها دانيال، وعلى شفيتها ابتسامة حزن : « للأسف الشديد أنها ليست مسلمة، لأن لها جميع الصفات لتصبح مجاهدة ». وكانت خالتي باية تعتقد أنّ جميع الأوروبيين هم بالضرورة مسيحيون. ثم تضيف بصوت جاد : « ولكن اسمعوني جيّدا يا بنات، يجب أن تحموا هذه الطفلة بعيونكم، بل وبحياتكم إن اقتضى الأمر ».

داخل القصة، في قلب المقاومة

لاحقاً، سألتقي بدانيال وأمّها، جاكليْن، في السجن. ولكننا كنا تحت تأثير صرامة قوانين النشاط السريّ والتحفّظ الكلّي، بحيث لم نذكر تلك الأيام التي عشناها معاً في 5 درب غرناطة، ولا لحظات حياتنا النضالية الأخرى. كنت سأعرف حينها بأنّ « ريموند بيشار »، التي اتهمتها الصحافة الكولونيلية وأسيادها بارتكاب تفجير « الملك بار »، قد التحقت، ابتداءً من أكتوبر 1956، بالمجاهدين في الجبال حيث عملت بتفانٍ لا نظير له، على معالجة الجرحى ومساعدة العائلات المطرودة من ديارها، باعتبارها مناضلة في « الأفلان »، إلى جانب « دانيال مين »، ونفيسة حمود والدكتور لاليام وعدد آخر من الأخوات والإخوة.

أريد هنا أن أعبّر عن امتناني الكبير واعترافي الأبدي لريموند ودانيال وجميع أولئك الأوروبيين الذين شاركوا وناضلوا من أجل قضيتنا وتحرير بلدنا. كانت دانيال مين وريموند بيشار وكامل أعضاء مجموعتهما في جبال الشرق القسنطيني. في نوفمبر 1957، سقطت ريموند بيشار شهيدة حقيقية لثورتنا المجيدة، فيما تمّ توقيف دانيال ونفيسة حمود في وقت واحد. ينبغي أن أوّكد هنا أنّ دانيال، وأمّها جاكليْن، هما في أعيننا جزائريتان كاملتان، بل وأكثر من هذا، لأنهما، ومثلما فعل العشرات من المناضلين والمناضلات، قد اختارتا الجزائر وقضيتها. وقد خدم هؤلاء من أجل تحريرها، كما سيخدمون من أجل نهوضها ونموها بتفانٍ ووفاء لا نظير لهما في عهد الاستقلال.

• أخي عبد القادر يزورني في القصة

في انتظار ذلك، كنا نقيم في القصة وناضل كأعضاء في المجموعات المسلحة لمنطقة « الدزاير » المستقلة. ذات ظهيرة في يوم مكفّه، كانت حسيبة منشغلة مع عبد الغني وسي مراد (دبيح شريف) ودحمان

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

(عبد الرحمن طالب) في مخبرهم فوق السطح، وكنا، جميلة وأنا، قد عدنا للتو من تنفيذ مهمة بالمدينة، حينما دخل علينا عمر الصغير دون سابق إخبار كعادته دائما، بوجهه الطفولي المدور وعينيه السوداوين بشكل لوزتين والمتألفتين ذكاءً وحيلة. فصعدنا مباشرة إلى الطابق الأخير عند عائلة بوحيرد، واقترب عمر الصغير من جميلة ليخبرها بزيارة خاصة إلينا، وحدد بأن الشخص ينتظرنا بمفرده منذ بضعة ساعات في الطابق الأول، بغرفة فُطومة مزيان. ثم اختفى دون أن يعطي لنا معلومات إضافية. نزلنا عبر السلالم للقاء زائرنا ؛ وعند عتبة غرفة فطومة، دفعت جميلة الباب، فتعرّفت على أخي عبد القادر الجالس على المقعد كطفل وديع. تملكتني الدهشة وعدم التصديق، ولكنني امتلأت سعادة وحبورا، فقفزت نحوه، أخذته بين ذراعيّ وأنا أسأله عن الكيفية التي اهتدى بها ليصل إليّ، في ذلك المخبأ، وعن حال والديّ وهل مازالت أمي غاضبة عليّ، إلخ. في ذلك الحين، لفتت انتباهي القوقاة الضاجة لديك رومي أطلّ برأسه المتحرّر من فوهة القفة التي نسجتها أمي. تعرّفت مباشرة على عادات أمي، ابنة عائلة كبيرة بالهضاب العليا، التي بعثت بذلك الطير من دواجنها الخاصة وزربية صوفية سميكة نسجتها بيديها لتشكر مضيفي ابنتها. وبقيت حكاية الديك الرومي الثرثار مسجلة في حياة مجموعتنا، ذلك أنّ عليّ لا بوانت لا يمل من ترديد تفاصيل تلك الحادثة كلما أراد تخفيف الجو الذي عادة ما يكون كئيبا ثقيلنا علينا في أيام كفاحنا تلك. هكذا، عندما كنّا متزاحمين، في شهريّ جويلية وأوت الساخنين، داخل مخبأ صغير، نكاد نختنق من الحرارة وأجسادنا مبللة بالعرق، فيعمل عليّ على التخفيف من يأسنا ويدفعنا إلى تجاوز محنتنا والظروف القاسية التي كنا نمر بها، فيذكّرنا بذلك المشهد المثير للسخرية والضحك، قائلا بأنّ ذلك « الديك الرومي » جاء من فيالار ليتجنّد في صفوف مجاهدي القصة، وكان

داخل القصة، في قلب المقاومة

يقلّد قوّة الديك الرومي بصوت هامس، يجبرنا على التركيز الكبير للتحكم في أنفسنا كي لا ننفجر بالضحك، فينجح عليّ في التخفيف من وطأة ظروف معيشتنا الرهيبة. ولكننا كنا لا نزال في الطابق الأول لمنزل عائلة بوحيرد وأخي عبد القادر واقف أمامي، شابا صغيرا خجولا. ألححت عليه بالأسئلة، فروى لي كيف سافر الأخ نافع بلحّاف إلى فيالار، بعثته « المنظمة » ليلتقي بأبي، وقد استقبله واستضافه « زميتي » صاحب مطعم ومنازل قديم في حزب الشعب الجزائري.

بعد 57 سنة من تلك الزيارة المفاجئة التي أعادت الوثاق بيني وبين عائلتي، أقدم القصة التي سردها اليوم أخي عبد القادر ظريف :

« التقى نافع بلحّاف بأبي داخل المحكمة ؛ فأخبره عن الوضعية الجديدة لابنته زهرة، الشيء الذي لم يُفرحه قط. وكانت أمي برفقتي في زيارة عائلية إلى تيارت، فتكفل ميهوب الطاكسيور بإرجاعنا إلى فيالار في أسرع وقت. وقد ظهر على وجه أمي شحوب لن أنساه أبدا حينما وصلها الخبر. إنها صعقة نزلت علينا، فاتخذت العائلة قرار إرسالني إلى « الدزاير » كي أستفسر عن ظروف حياة أختي الجديدة، وبالأخص الاستفسار عن أحوال العائلة المستضيفة. وحينما تمّ إخبار سي نافع بلحفاف، اقترح أن تكون الزيارة بعد أسبوعين. وبعد تحضيرات حثيثة، أخذتُ الحافلة إلى غاية أفروفييل (خميس مليانة)، وبعد ذلك القطار إلى غاية العاصمة. وكان برفقتي الديك الرومي والزربية، وهي الهدايا التي كُلفت بتقديمها إلى العائلة المستضيفة لأختي. وعندما وصلتُ إلى الدزاير، تمّ الاتصال بسي نافع الذي جاء إليّ إلى غاية الفندق الذي كنت أقيم فيه. تبعته، مع ترك مسافة بيني وبينه، عبر مسلك أجهله تماما. وحدها قوّة صديقي المهيب التي كانت تدير رأس مرشدي المندهش وتذكّرني بمهمتي الجليلة. أخذني سي بلحفاف إلى منزل جميل

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

بعمران أندلسي في درب غرناطة. استقبلتني صاحبة الدار، فتيحة حطالي، زوجة الشهيد الشهم مصطفى بوخيرد، بحفاوة تتلج الصدر، مع فضول طفيف بسبب ما أحمله معي من هدايا : الديك الرومي والزربية الأنيقة. وصلت أختي بعد ساعات قليلة ووجدتني جالسا على مقعد داخل صالون شرقي أنيق، وأنا أتصبّب عرقا برغم جلوسي صبوراً وديعاً. ربّما كنت أشبه تمثالا بوزيا. كانت برفقة فتاتين رائعتين، تشبهان الحوريات. فبدأت أفكر في الإشاعة التي تنتشر حول المجاهدين المكافحين من أجل الحرية وقدراتهم الخارقة للعادة. كانت زهرة مع رفيقاتها كما لو أنهن داخل جنة تسمى بـ « قصبة الدزاير ».

ولا أنهي هذه القصة المتعلقة بإعلان دخول زهرة في حياة الكفاح السريّة وسفري الذي كان سيلهم بلا شك « ألفونس دودي » ليكتب الجزء الثاني من مغامرات « تارتاران دي تراسكون »، دون أن أضيف حادثة أخرى. في يوم زيارتي إلى جنة تلك الحوريات، تصادف وجود الضيفة الجديدة. أمطرتني زهرة بالأسئلة، وهي تلحّ إن كان كل شيء على ما يرام. طمأنّتها بقدر ما استطعت. وبمنظرة مختلسة، تعرّفت على الحورية ذات الشعر القصير والأشقر، حسيبة بن بوعلي، المخطوبة لابن عمّها مهدي بن تكو، صديقي الدائم وزميلي في الثانوية. كان عبد القادر بن بوعلي والد حسيبة ووالد مهدي أخوين، فاتفقا أن يمنحا لابنيهما مصيرا مشتركا بتزويجهما في المستقبل. وكانت هذه الطريقة من العادات الراسخة لدى كثير من العائلات المسلمة الكبيرة. فكنت على علم بالمشروع بحكم صداقتي مع الزوج المستقبلي لحسية. وتعرّفت على حسيبة برغم هيأتها الجديدة، وقد أضحت أكثر جمالا عند قصّ شعرها، ولكن لو طرحت عليّ الحورية الأخرى (جميلة بوخيرد) سؤالا عنها، كنت سأجيب بالنفي لأظهر أنني أحسن

داخل القصة، في قلب المقاومة

الاحتفاظ بالسرّ، هذه الخصلة الكبيرة لحياة المكافحين والذين يعيشون في السرية. بقيت وحدي مع زهرة فأسرعتُ إلى طمأنتها فيما يتعلق بموقف أمّي وردّ فعلها عن ظروفها المعيشية الجديدة. وبعد أن تعشينا معا عشاءً فاخراً، أبقتني أختي وزميلاتها لقضاء الليل عندهن. ولكنني قضيت ليلة مضطربة، لم يغمض لي جفن. صحيح أنني كنت وسط المجاهدين الذين تُنسب إليهم الإشاعة الشعبية قدرات خارقة، ولكنني كنت بالقصة المُعرّضة دوامداهمات الجيش الفرنسي مثلما وصلتني من أخبار. فكنت أرتبك عند سماع أيّ ضجيج، طقطقة خشب أو رنة حديد، فأجتهد لتحديد طبيعة الصوت والجهة التي ينبعث منها. عند الفجر، فتحت الباب خلصة لعلّي أرى أختي تأتي لتفقد حالي، نادما على أنني لم أطلب منها البقاء معي مُعتذرا بأي سبب كان. أخيراً، استيقظ أهل الدار، سمعت اصطفاق الأبواب وبكاء الأطفال، ثم دغدغت أنفي رائحة القهوة بالحليب، فأسالت لعابي. لم أجرؤ على التحرك، ولم يأت أحد لإنقاذي، ليسمح لي على الأقل بغسل وجهي. جلست على المقعد دون أن أحرك ساقي، تعذّبي رغبة قضاء حاجتي.

في حوالي العاشرة، انفتح الباب بهدوء، وسمعت زهرة تهمس: « قادر، قادر، هل لا تزال نائماً؟ ». فقفزت نحو الباب خوفاً من أن تعود أدراجها بسرعة، فأنقذتني. وبعد الغسل، ضحكنا كثيراً برفقة جميلة وحسبية اللتين أحاطتاني بألف عناية ولطف. وعندما غادرتهن، بدا لي كما لو أنني تركت عندهن شيئاً من ذاتي. طلبت مني خالتي باية نقل دعوتها إلى أمّي لزيارتها بالقصة لثرى ابنتها زهرة، ثم رافقني سي نافع إلى الحطة ولم يتركني إلا بعد أن تحرّك القطار. فرجعت إلى فيالار، وأنا فخور بأداء مهمتي، لأطمئن أبي، وخاصة أمي، بأن ابنتهما تقيم لدى عائلة ثورية، وأنها تحظى بعناية فائقة. وهي الحقيقة كاملة، دون أي تحوير.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

ولم ألتقِ ثانية بأخي عبد القادر إلا في الاستقلال، بعد إمضاء اتفاقيات إيفيان، حيث جاء، برفقة أبي وأخوي محمد وبومدين، ينتظرونني في محلات « السيماد »، حيث تتوقف الحافلات التي تجلب الجزائريات السجينات إلى مركز مدينة « رينس ». وقبل ذلك التاريخ، التحق بالمجاهدين في الجبال بمنطقة الوُنْشَرِيس، حيث تمّ توقيفه بعد اشتباك مع المظليين الفرنسيين. وقد سُجِنَ في مكان سري، الأمر الذي يتناقض مع جميع القوانين العالمية المطبقة في حالة حرب، ولم ينجُ إلا بفضل عناد واستبسال أمي. فحينما علّمت باعتقال ابنها، اتصلت بجميع مكاتب الجيش الفرنسي في « الدزاير »، ذاهبة إلى حدّ تقديم هدايا فاخرة للسيدة « ماسو » التي حاولت في تلك الفترة « الاقتراب » من نساء الأهالي. وفي سباقها ضد الزمن، كان لأمي - دون أن تعلم - الحظ بأن يستقبلها الجنرال « لابلورديير »، مقاوم سابق وكاثوليكي ملتزم والذي ناهض الطرق النازية التي استخدمها الجيش الفرنسي كالتعذيب والتصفية الجسدية دون محاكمات. وسأحكي في الوقت المناسب كيف تمكّن قادر وأحمد، أحد أصدقائه من النجاة من الموت، قبل لحظات من تنفيذ حكم الإعدام عليهما، وكل ذلك بفضل استبسال أمي الرائع في إنقاذ حياة ابنها.

الفصل السادس

تدويل المسألة الجزائرية

• الاعتداء المُلغى ضد الباشا آغا آيت علي

ذات يوم من بداية شهر ديسمبر 1956، جاء عمر الصغير ليخبرنا، جميلة وأنا، بأنّ « الخو » يستدعينا لأمر مهم. كنا نلتقي به عادة في دار بلحفاف حيث تعود جميع أفراد العائلة على رؤيتنا. في ذلك المنزل الرائع الكبير، يعيش أفراد العائلة من الإخوة والأخوات وأولاد وبنات الأعمام، بعضهم متزوج، ويلتفون جميعا حول « لالة » بشخصيتها المهيبة القوية، وكنا نلتقي بهم حينما نصعد إلى « المنزه » بالسطح حيث يعيش « الخو »، وعليّ، وأحيانا، العربي بن مهيدي. وحدث لنا مرارا أن صادفنا في طريقنا الإخوة بلحفاف، عبد الرزاق المدعو « هود »، وعبد الله وأمقران ونافع، وكلهم مُجندون جسدا وروحا في الثورة، وهم ينزلون في السلاّم أو يتحدّثون مع « الخو » وعليّ. وكان واضحا أن كل واحد منهم يؤدي مهمات ذات أهمية كبرى نجهل محتواها ولا نبحث عن معرفتها. تماما مثل عائلة بوحيرد، وضعت عائلة بلحفاف كل ما تملكه في سبيل تحرير الوطن : المنزل وما يحتويه والأموال والأبناء والنساء. وكانت النساء تتصرّف بخفة وحيوية ولا تكاد تسمع أصواتهن، تحت التسيير المحكم لسيّدة الدار « لالة »، وكثيرا ما قاومت

مُدَّكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

بكرامة وبطولة يقل نظيرهما غضب المظليين وتفتيشهم المخزَّب . ولم يتمكن العساكر الفرنسيون أبدا من أخذ ولو معلومة صغيرة من واحدة أو واحد من أفراد هذه العائلة البطلة . مع أنَّ منزلها كان يخبئ العربي بن مهيدي ، ياسف سعدي ، علي لابوانت ، حسيبة بن بوعلي ، جميلة بوحيرد ، زهرة ظريف وآخرين كثر .

إذاً ، في بداية شهر ديسمبر ، وجدنا « الخو » كعادته متربعا على سرير ، وبنديقة في تناول اليد . دخل فورا في صلب الموضوع المتعلق بتحضير تفجير ضد النادي الفرنكو-إسلامي بغرض القضاء على الخائن الباشا آغا آيت علي . شرح لنا بأنَّ هذا النادي الذي كُنَّا نجهل وجوده أصلا ، يرتاده في الغالب نواب من الجمعية الجزائرية يذهبون إليه بين جلستين ، سواء لتناول الغداء ، أو القهوة والشاي ومشروبات أخرى . هكذا ، فيحتوي النادي على شريحة مختلطة من الفرنسيين والجزائريين الذين يعتبرهم شعبنا كالخونة وأشهرهم سوءا هو الباشا آغا آيت علي . وكان هذا الشخص المشؤوم نائبا ورئيس المجلس العام لمدينة الجزائر . وقد اشتهر بالتنديد العلني بثورتنا التحريرية ومشاركته في سياسة القمع الوحشي التي تنتهجها فرنسا ضد شعبنا . وجاء تقرير إخوتنا من الولاية الثالثة في منطقة القبائل يدينه لكثرة الاعتقالات والإعدامات التي تسبَّب فيها هذا الخائن منذ زمن طويل ، وأعطى التقرير مثالا بحالة المناضل محمد سعيد معزوزي الذي يرزح في السجن منذ 1945 بسبب مباشر للباشا آغا آيت علي . ولقد حكم عليه قادة الولاية الثالثة بالموت ، ولكنه لجأ إلى الجزائر العاصمة ، مما أدَّى بهم إلى الاتصال بقيادة منطقة الجزائر المستقلة لينفِّذوا حكم الإعدام فيه . سنضرب عصفورين بحجر واحد بوضعنا قبلة داخل النادي الفرانكو-إسلامي : التخلُّص من خائن كبير وإعطاء ضربة قوية ضد مكان يرمز إلى العمالة مع فرنسا . فأعطى لنا « الخو » التعليمات لبدء تحضير مهمتنا

انطلاقاً من نهار الغد، فباشرنا عملنا فوراً. شكرنا الأخ على الثقة التي وضعها في شخصينا، وخرجنا للتوّ لتحديد مكان تواجد النادي. لم يكن بعيداً عن قصر « كارنو »، مقر الجمعية الجزائرية والسكوار « بريسون ». فكان علينا دراسة المكان ومحيطه واختيار الطاولة الأكثر ملاءمة لوضع القنبلة. كما كان علينا أن نحدّد المسلك الذي تقل فيه الدوريات ونقاط التفتيش من القصبه مكان خروجنا بالطرد الحاوي للقنبلة وإلى غاية النادي. فكان لزاماً علينا أن ندخل النادي ونتناول فيه المشروبات والأكل مرات عديدة كي نتعرف جيّداً على تشكيل هندسته الداخلية والتآلف مع العمال، دون أن يتمكن هؤلاء من إعطاء أوصاف صحيحة عنا في حالة حدوث مشكل.

إنّه فصل الشتاء، الجوّ بارد والسماء مُغشّاة بالغيوم السوداء. بدأنا بتغيير تسريحة الشعر. لفتّ جميلة شعرها الكثيف في كُعيكة وألصقته مع رقبتها، ثمّ وضعت على عينيها نظارتين بزجاجين داكنين وهيكل معدني، ما يمنح لها هيئة معلّمة من « فرنسا القديمة ». وقد دَعَمَتها بتنورة صوفية مستقيمة بزرقة بحرية، وصدار صوفي أيضاً بخضرة لوزية وأحذية ذات خيوط وكعاب مربّعة. أنا أيضاً أدخلت تعديلاً على تسريحة شعري، ولكن جميلة قدّرت بأنه غير كافٍ. فقرّرنا الذهاب إلى محلات « الأروقة الفرنسية » لاقتناء قُبْعَة أو بيريه يشدّ شعري كلبية، مما يبعد كل تشابه مع ريموند بيشار التي نشرت الجرائد صورتها في شهر أكتوبر. دهنت حاجبيّ بلون كستنائي واستخدمت مادة الكُحل لتسويد جفوني وتكبير عينيّ. ارتديت تنورة مُغَضّنة رمادية وصداراً أحمر بطوق دائري وأحذية بكعاب حمراء لأكمل تقنّعي. قالت جميلة: أتمنى أنه لا توجد أخت شيوعية أخرى تشبهك وأنت في هذا القناع. وإلا سيكرهن « الأفلان »! المحفظة في يد، والحقيبة تتدلى على الكتف، قصدنا النادي الفرانكو-إسلامي بخطى ثابتة. وبمُجَرّد أن عَتَبْنَا الباب، جاء خادم

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

ليخلصنا من معاطفنا. كان المكان مربوعا ويطغى عليه اللون الأحمر : البساط الأرضي، المقاعد المغطاة بالقטיפ، والأرائك ذات المكان الواحد وإلى غاية جوانب الستائر التي تحيط النوافذ المغطاة هي الأخرى بستائر بيضاء تحمي الزبائن من نظرات المارة الفضولية. كانت الطاولات الخشبية المزخرفة المنخفضة والتي تتألف فوقها صواني نحاسية مستعدة لاستقبال الزبائن. بعفوية أردناها طبيعية، سألنا النادل إن كان بإمكاننا أن نحتل طاولة في زاوية مقابل النافذة، لأن « الخو » قال لنا بأنّ الباشا آغا يملك طاولة مخصصة له غير بعيدة عن النافذة، في زاوية ما بين مقعدين. اتخذنا مكانا بقرب الطاولة التي تقابل تلك التي يجلس إليها الباشا آغا عادة. تفصلنا بينها طاولة واحدة. ونظرا لضيق القاعة، كان المكان الذي اخترناه مناسباً جداً : قريب من طاولة الخائن، ولكنه ليس قريباً جداً بحيث يتعرّف في شخصنا على « عربيتين ». لا أحد بدا أنه مهتم بوجودنا. كان النادل خدوماً بدون إزعاج، فكنا نتحدث بصوت خفيض ونلقي النظرات المختلصة، غير المثيرة للانتباه، كي نستكشف المكان ونراقب الداخل والخارج ونتفحص هيئة الزبائن الآخرين، ونقيس بأرجلنا المساحة الفارغة تحت المقعد كي نحدّد عمقها. لم يكن المكان حاشداً بالزبائن برغم أننا كنا في منتصف النهار تقريباً، كان هناك ثلاثة زبائن فقط، ينفرد كل واحد منهم بطاولة، ويتناولون غداءهم في صمت. بدا أنّ خدام النادي يعرفونهم. بعد الأكل، طلبنا الحساب، وعبرنا عن رضانا لنوعية الخدمة والأكل وتركنا بقشيشاً معتبراً. عند خروجنا، لاحظت رفّ بائع أزهار بقرب الجدار، غير بعيد عن باب الدخول، لم يكن موجوداً عند وصولنا. يبدو أنّه نُصّب خلال تواجدنا بالداخل. كانت امرأة شقراء بلون أوروبي ثخينة نوعاً ما، ذراعها مشبكتان على صدرها، واليدان مخفيتان تحت إبطيها، وهي واقفة تنتظر الزبائن المحتملين. مررنا بقربها كي نذهب إلى السكوار بريسون،

وقد بدا لي حضورها مربيا فانزعجت. حينئذ، فُكرت في طريق آخر كي أتجنب المرور أمام شارع « ديمون درفيل » والصعود مع شارع « روفيغو » كي نتوجه إلى شارع راندون، ووعدت نفسي بمناقشة الفكرة مع جميلة.

لقد أوصى « الخو » حسيبة بأنه ينتظرنا في مخبئه العادي. وعندما التحقنا به، أخبرنا بأن الباشا آغا لم يعد يرتاد النادي الفرانكو-إسلامي منذ حل الجمعية الجزائرية، ولكنه لا يزال يرتاد المكان كل خميس في منتصف النهار كي يتناول غداءه. بدورنا، قدّمنا للأخ تقريرنا المفصل عن كل ملاحظتنا وطمأنّاه بأن العملية لن تلقى صعوبات كبيرة. أضفنا بأن المكان ضيق، فإذا كانت القنبلة قوية نوعا ما، فلا يمكن للخائن أن ينجو بجلده. ثم أوضحنا أنه وبعد التحريات التي حدثت بعد انفجارَي الملك بار والكافيرتريا، فعلينا تحسین تقنعا. وكي نطمئنه، أخبرناه بالمجهودات التي قمنا بها كي نغيّر هيأتنا وصورة وجهينا ورأسينا، كما حدّثناه عن التغييرات الأخرى التي نود إدخالها، بفضل مساعدة حسيبة التي تحسن وسائل التقنّع.

ابتداءً من الخميس الموالي، وبمساعدة أختنا الصغيرة، غيّرنا هيئة وجوهنا ورؤوسنا بحيث أصبح من الصعب التعرّف علينا. وعند الساعة الثانية عشر والنصف، دفعنا باب النادي ورأيناه. كان يرتدي لباسا محليا أبيض اللون: جلابية بيضاء مطرّزة من الأمام وعلى كامل طولها، تنفتح في مستوى الصدر على صدرية صوفية بأقفال صغيرة عديدة من القطن المتألّئ، والسروال التقليدي العريض والطويل المغضّن والذي يصل إلى غاية العرقوبين. وكان يعتمر « الطباني »، الرأسية التقليدية لرؤساء القبائل. كان يبدو مزهوا بهيأته، الشيخ الباشا آغا آيت علي ! ألقيت نظرة نحوه وأنا أتساءل حائرة عن الغيظ الذي يحركه كي يضرّ بذويه إلى هذا الحدّ. هو أيضا نظر إلينا ونحن نتقدّم نحو الطاولة الموضوعة في الزاوية المقابلة لتلك التي يحتلها قبل

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أن نجلس ونشكر النادل الذي يخدمنا بابتسامة عريضة. فقالت جميلة للنادل بعفوية مريكة وهي تبتسم واثقة من نفسها : « في المرة السابقة قضينا وقتنا ممتعا، والأكل كان لذيذا، والاستقبال لطيفا والخدمة متقنة ! أخيرا عثرنا على المطعم اللائق بنا لغدائنا : أكل جيّد وخدمة سريعة ! ». كان النادل في السماء السابعة. جلسنا وبدأنا نتأمل بطاقة الأطباق، وكنت بين الفينة والأخرى ألقى نظرة إلى الباشا آغا وأنا حريصة على أن لا تلتقي أبصارنا. بعد قليل، قرّرت أن لا أنظر من جهته، ولا أسمع صوته، بل أركز اهتمامي على محيطي وترقب حركة الزبائن وعمال النادي، دون أن أنسى عدّ الوقت الذي يقضيه الخائن لتناول غدائه، خاصة وأنه لم يباشر أكله بعد عند وصولنا. كان علينا أن نبقي بالنادي إلى غاية خروجه، لذلك تلزّم علينا أن نطلب غداءً كاملا، من الطبق الأول إلى القهوة. لفت انتباهي رجلان يجلسان إلى طاولة غير بعيدة عن باب الدخول، إنهما أوروبيان بدون أي شك، ولكنهما ليسا من نواب الجمعية الجزائرية، يلبسان البذلة وربطة العنق، ولكن شيئا ما في سلوكهما، عندما يفتح الباب، وعندما يشيران إلى النادل، يدل على أنهما متوتران. ضبطت مرارا نظرة أحدهما وهي تجول باتجاهنا. كان الرجلان في زاوية نظري، وقد التقت نظرانا مرارا. رجال شرطة بالزي المدني ! أعترف أنني ارتجفت لفكرة أنهما وجدا فيّ شبها بريموند بيشار. نَبّهت جميلة بضربة قدم خفيفة ففهمت فورا قصدي، ووجدت نفسي أخفي جزءا من وجهي براحة يدي المفتوحة وأنا أميل باتجاه جميلة والتصنع بالثرثرة والضحك. كان الباشا آغا يحتسي قهوته حينما وقف الرجلان. اتّجه أحدهما نحو الباب، فيما بقي الثاني يتبادل الحديث مع النادل الذي خدمهما. أَلقيت نظرة نحو الباشا آغا ؛ كان يقف بهدوء، فيما أسرع النادل إليه ليزيح الطاولة قليلا كي يفسح له مجال التحرك بحرية أكثر. خرج الرجل الأول، واتّجه الباشا آغا نحو

تدويل المسألة الجزائرية

الباب، مرفوقا بنادلين يتحدثان معه ويتسلمان. خرج، فتبعه الرجل الثاني. إنهما حارساه الشخصيان. لقد سبق للـخو أن نَبَّها إلى أنّ الخائن يحظى بحراسة مقربة من قبل السلطة الكولونيلية، وهو أمر طبيعي نظرا للخدمة التي يقدمها لها. بمجرد عودتنا إلى 5 درب غرناطة، نزعنا تقنعا وطفقنا نجمع كامل عناصر ونتائج ملاحظاتنا، بتنظيم ومنهجية، مع الحرص أن لا ننسى شيئا، أن لا نترك شيئا للحظ والصدفة. وصلنا إلى نتيجة أنه من الضروري أن نقوم بزيارة أخرى إلى النادي كي نعلن بأننا مستعدات حقا للقيام بالعملية.

بعد يومين أو ثلاثة من ذلك الغداء في النادي الفرانكو-إسلامي، في حين كنا نبحث عن الطرق المثلى لإكمال تقنعا، دخل عمر الصغير إلى غرفتنا وأخبرنا بأنّ « الخو » ينتظرنا في دار بلحفاف. كنا متعودات على تلقي الاستدعاء في أية لحظة. وأثناء الطريق، تذاكرنا، جميلة وأنا، حول كامل النقاط التي ينبغي عرضها للأخ، وبالأخص مسار الذهاب والإياب، والذي سلكناه مرارا وتكرارا وعددنا وقته بالدقيقة، وبرمجنا أن تنفجر القنبلة بعد عشر دقائق من خروجنا من المطعم. كنا نمشي نحو مخبئ « الخو » ونحن متيقنات بأنه سيعلم لنا تاريخ تنفيذ المهمة. سيكون تاريخها في الخميس المقبل، هكذا افترضنا. لا تزال أماننا بضعة أيام لتندارس معا جميع المعطيات الخاصة بمهمتنا والبحث عن نقاط الضعف قبل أن يحين الموعد المحتوم.

• بن مهدي يشرح لنا أولوية السياسي على العسكري والداخل على الخارج

دق عمر الصغير الباب، أدخل رأسه وأعلن: « يا خو، إنهما هنا ». وكم كانت دهشتنا حينما أدركنا بأن الذي استدعانا ليس « الخو » وإنما سي محمد. كان دوما في هيأته الطبيعية المعتادة، مبتسما، ظريفا، بتلك القوة الصلبة والهادئة، بمهيبته التي يفرضها علينا دون حتى أن يتكلم.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

بحضوره البسيط فقط . كان الاستقبال في الغرفة المجاورة للغرفة التي كانت مأواي ذات يوم . ديكور مشابه ، سرير مماثل مغطى بلحف ريش مزين بأقفال قطنية مذهب ، وطاولة صغيرة لاصقة مع الجدار ، فوقها مذياع ، وكروسي يجلس عليه قائدنا الأعظم . كان صوت المذياع خفيضا لا يكاد يُسمع . دعانا سي محمد للجلوس ، وبعد تبادل التحيات العادية ، فاجأنا بالدخول مباشرة في الموضوع : « أخبرني « الخو » أنكما تحضّران لمهمة حساسة ؟ » . لم يكن سؤالا ، كان تثبيتا يريد منا أن نؤكد على صحته . نظرتُ إلى جميلة وأدركتُ تساؤلي : هل كان يختبرنا ؟ كان من المفروض أننا لا نعرف رتبة مسؤوليته في التنظيم ، فعلينا إذاً أن نعامله كمناضل بسيط . هل كان يبحث عن اختبار صرامتنا وجدّيتنا ودرجة احترام وتطبيق قواعد الانضباط والسرية ؟ خفضت عيني كي أتهرّب من نظراته ولا أتركه يربكني ، وبعد صمت ثقيل نوعا ما ، سألت إحدانا : « أية عملية تقصد ؟ » . فردّ علينا بصريح العبارة : « لسنا في لعبة القط والفار . أتحدّث عن مشروع التفجير في النادي الفرانكو-إسلامي » . ثم طلب منا أن نضع حدّا للعلاقة الطفولية التي نواصل التعامل بها معه ، كما لو أننا لا نعرف حقيقة هويته ، ولكنه لم يفصح عن اسمه . ها قد تحرّرتنا من إجبارية الكوميديا التي فرضها علينا « الخو » ، فانطلقنا في الوصف الدقيق لمهمتنا ودقائق تحضيرها ، ونحن فخورات بالعمل مع أسطورة نوفمبرية ، وممتنات لكون مسعول كبير يهتم بمشروعنا ومبتهجات بالثقة التي يضعها هذا القائد الكبير في شخصنا . الواحدة بعد الأخرى ، وأحيانا بتدخل واحدة لقطع كلمة الثانية ، في البداية ، قبل أن نستعيد رباطة جأشنا ونهدأ لنعرض مشروعنا بكامل تفاصيله ، ونحن نداول الحديث بملاحظات تكاملية . استمع إلينا دون حراك ، ودون أن يقاطعنا ، هادئ الأعصاب ، بوجهه الذي تنيره ابتسامته المعهودة والتي لا تكاد تبين . بدا لنا أنه يوافق الدقة والجدية

اللتين حَضَرنا بهما خطة مهمتنا. أخيراً، أخبرناه بأننا برمجنا لنهار الغد زيارتنا الأخيرة للنادي قبل اليوم الموعود. فلم نكن ننتظر ردّ فعله والجواب الذي صعدنا به، خاصة وأننا رضينا بطريقة تقديمنا لتقريرنا المطول : « هذه المهمة ملغاة ». رفضنا تصديق ما تلفظ به سي محمد وتبادلنا النظرات بنوع من الذهول ونحن نردّد : « مُلغاة ؟ مُلغاة ؟ ولكن لماذا ؟ ». ثمّ رحنا ندافع عن مشروعنا، الواحدة وراء الأخرى، مُلَحِّتَيْن على أنّ التحضير قد تمّ وأنه لم يبق لنا إلا التنفيذ ؛ وأنّ العملية لا تشكّل أي خطر بالنسبة إلينا، وأنّ الخطر الوحيد هو أن لا تنفجر القنبلة مثلما حدث مرارا في المدة الأخيرة. اعتقدت أنني أمسكت بالسبب الذي من أجله تمّ إلغاء العملية، فقلت له : « لو تصادفنا في الطريق بهيأتنا الجديدة، فلن تتعرّف علينا ». تركّنا سي محمد نطرح جميع حججنا، تركّنا نتكلّم إلى أن تعبنا من مرافعتنا. وحينما سكتنا، قال بهدوئه المعهود : « ينبغي أن تفهموا أنه لو نفخت نسمة ريح واحدة على صفائح مخبرنا، ستكون النتائج وخيمة على مسيرة ثورتنا وستؤخر نهاية الحرب وحدوث الاستقلال ». في لا وعي تام، انفجرنا، جميلة وأنا، بالضحك، قائلات بأننا لن نرى الاستقلال أبداً إن كان معتمداً فقط على مخبرنا الصغير، لا لنا ولا لأبنائنا إن كان سيرزقنا الله بهم يوماً. واندفعنا في مقارنة بساطة وسائلنا بضخامة هدف الاستقلال، ثمّ مررنا مباشرة إلى أضرار الباشا آغا آيت علي التي ألحقها بإخواننا. فكان يجب القضاء عليه لوضع حدّ لأفعاله الشريرة وخيائنه لأُمته وشعبه. وكان سي محمد صبوراً، وتركّنا نتكلّم على هوانا دون أن يفقد هدوءه ولا يخفي ابتسامته التي لا تكاد تبين. وأخيراً قال : « إنّ العملية ملغاة فيما يخصكما. توجد وسائل أخرى للقضاء على هذا الخائن وبأخطار قد نتحكّم فيها أحسن ». وعوّض الانصياع إلى قرار القائد الكبير، تشبثنا بعبارة « أخطار قد نتحكّم فيها أحسن »،

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وحللناها أمامه لنخلص إلى أنّ مشروعنا وحده يصلح خارج أي اقتراح آخر ! شرحنا بأنّ إرسال فدائي يقتل الباشا آغا داخل النادي سيكون مآله الفشل مسبقا، زيادة على أننا بهذه الكيفية سنرسل أخا لنا إلى الموت مباشرة، لمعرفتنا الجيدة بجغرافية محيط النادي الذي يعجّ برجال الشرطة والجيش . كنا عنيدتين وواجهنا سي محمد بالقول : « إذا حدث أن مات أخ لنا في تنفيذ هذه المهمة بأخطار » تتحكمون فيها « ، ستكون أنت و « الخو » المسؤولين الوحيدين . ولا تقولوا أنكما لا تعرفان بما أننا أخبرناكما بجميع الحثيات » . لم نكن نعي خطورة تصريحنا، وحده مشروعنا سيطر على عقولنا . كان ينبغي لقائدنا أن يغيّر رأيه . فجأة، هزّنا صوت غريب عنا، صوت جاف قطع به سي محمد كل حديث : « كفى، أتعرفان أنكما في حالة عصيان وأنكما تستحقان الإحالة على المحكمة العسكرية ؟ العملية ملغاة . إنه أمر . قرار نهائي ولا رجعة فيه ! » . ذهلنا، جميلة وأنا، غُلبنا على أمرنا، وكنا على شفا حفرة من العار واليأس، فقاومنا بكامل قوانا كي لا نجھش بالبكاء ونزيد من خطورة موقفنا . يكون المسؤول الكبير قد أدرك حالتنا العصبية المنهارة، فعاد إلى هدوئه المعهود بعد صمت لحظات وقال لنا ما يلي تقريبا : « اسمعا جيّدا، يا جميلة، ويا زهرة، ينبغي أن تعرفا بأنّ شجاعتكما وإصراركما وتجنيدكما لا نظير لهما، بل وعجيب حقا . ليس فقط في عيوني أنا والإخوة المكافحين، وإنما في عيون الشعب بأكمله . ومع ذلك، يجب أن تعرفا أيضا بأنكما، بأننا جميعا، لسنا جنودا بسطاء في جيش كلاسيكي التنظيم . أنتما، نحن، جميعا، مناضلون في قضية سياسية بالدرجة الأولى : استقلال بلادنا وتحرير شعبنا . هل تظنان أننا في مواجهة حربية تقابل دولتين بقوات شبه متساوية ؟ هل تظنان أننا في حرب تواجه جيشين كلاسيكيين يتصرفان باسم دولتهما ؟ لا يجب أن يغيب عن عيونكما ما نحن عليه : مناضلون سياسيون أجبرتهم

تدويل المسألة الجزائرية

الغطوسة الاستعمارية على أن يتحوّلوا إلى مكافحين لحرب تحريرية وطنية. في أي تشكيل نوجد ؟ من جهة، القوة الاستعمارية بدولتها العتيقة، فرنسا وجيشها، إحدى أعظم القوات في العالم، تملك الوسائل الحربية الثقيلة الأكثر تطورا. ومن جهة أخرى، مكافحون ينحدرون من شعب استُعبد واستُعمر، لا يملكون من خيار إلا الوسائل والأسلحة التي فرضها عليها جلا دونها. إن واجبنا الأول للانتصار عليهم هو أن لا تغيب هذه المعطيات الجائرة، غير المتناسقة إطلاقا، عن أذهاننا. سنفهم جيّدا، إذا بقينا على وعي تام بهذا المعطى، هدف فرنسا : الانتصار العسكري علينا، بسحقنا كلية، بالقضاء علينا جسديا باستخدام جميع الوسائل المتاحة لديها : الاختطاف، التوقيف، التعذيب، الإعدام، القمع الوحشي. في الوقت نفسه، حينما نعي جيّدا بهذا المعطى، سنفرض على فرنسا ميدانا آخر للمواجهة : الميدان السياسي، حيث لا يمكن أن تتغلب علينا أبدا. لهذا السبب، يجب على عملياتنا الحربية المتواضعة، من كمائن واعتداءات وتفجيرات... إلخ، أن تساعدنا على الانتصار سياسيا على فرنسا والتضييق عليها أخلاقيا ورمزيا. لسنا قتلة، إننا مكافحون من أجل قضية عادلة : تحرير أرضنا وشعبنا. إن القوة الاستعمارية هي التي تقتل وتعذب وتضطهد وتقمع كي تُديم نظامها الاستعماري لأرضنا وضد شعبنا، بإيهامنا أنّ الجزائر فرنسية. لهذا، يجب على كل واحد من اعتداءاتنا، وكمائننا، على كل روح من أرواحنا المضحية، أن تساعدنا على فضح فرنسا في وجه العالم، وعلى إظهار أن شعبنا في حرب ضد قوة أجنبية تحتله بالقوة. ولهذا، كان لزاما على شعبنا أن تكون له منظمة سياسية، جبهة التحرير الوطني، ومنظمة حربية، جيش التحرير الوطني. هذا هو المعنى الذي نعطيه لأولوية السياسي على العسكري الذي يشكل لدينا المبدأ الأساسي لثورتنا. وفي هذا الصدد، أدعو كما إلى دراسة وتحليل أرضية مؤتمر الصومام

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

التي تشرح أهداف وفلسفة ثورتنا. وقبل أن أحرركما، أطلب منكما الاستعداد لأداء عمل مهم وأساسي في تحسيس وتجنيد شعبنا، لأنّ المسألة الجزائرية ستطرح قريباً وتناقش في جلسات الأمم المتحدة. يكمن الرهان في إثبات أنّ جبهة التحرير الوطني هي الممثل الشرعي لشعبنا. أترون، بفضل نضالنا جميعاً، وكفاح جيشنا في الجبال وفي المدن، وأيضا بفضل القنابل التي انفجرت في المدينة الأوروبية، وصلت قضينا إلى العالم وها هي منظمة الأمم المتحدة تسجل المسألة الجزائرية في جدول أعمال جمعيتها العامة. إنه أول انتصار كبير لجبهة التحرير الوطني، وبالتالي انتصار شعبنا. وهذا هو المعنى الذي نمحّه أيضاً للمبدأ الثاني لثورتنا : أولوية الداخل على الخارج. هيا، أعتمد عليكما، حظ سعيد وإلى اللقاء .»

تكلّم سي محمد طوال الوقت بهدوء وسكينة، كعادته دائماً. كنا، جميلة وأنا، منجذبتين مذهولتين، وخائفتين بأننا لم نستوعب كل أقواله. من جهتي، وعدت نفسي بتدبر وثيقة أرضية الصومام في أقرب وقت ودراستها بالعناية المطلوبة.

• اختراق القواعد بالذهاب إلى السينما

عندما وصلنا إلى مخبئنا الواقع في 5 درب غرناطة، أجهشنا بالبكاء لأننا أحسنا بأنفسنا قد أفرغنا فجأة من طاقتنا واندفاعنا بعد أسبوعين من التحضير الحثيث الذي ملأ علينا أيامنا وليالينا. هرعت إلينا حسيبة قلقلة تسأل إن حدث لنا شيء خطير. طمأنّاها بقولنا أننا تلقينا صفعة لكوننا نساء : « فمهما فعلنا، ينظرون إلينا دائماً ككائنات ضعيفة يشعرون بواجب حمايتها ! ». ولم تبحث حسيبة أكثر لمعرفة أسباب تمرّدنا. قضينا اليوم الموالي في أشغال منزلية مع خالتي باية وأختي، ونحن نجهد أنفسنا لنسيان

خيبة أملنا. وفي الظهيرة، انعزلنا في غرفة أُخيتي نقرأ الجرائد حينما صاحت حسيبة وهي ترفع رأسها من صفحة جريدة يومية : « هناك فيلم رائع في السينما، ليس بعيدا عن منعطف روفيغو ! إنه فيلم « معركة المياه التخينة ». تدور أحداث القصة أثناء المقاومة في فرنسا أيام الاحتلال الألماني . لو لم أكن محل بحث من قبل الشرطة، لذهبت لمشاهدته ». تبادلنا النظرات، جميلة وأنا، دون أن ننبس بنيت شفة ؛ لقد انبثقت نفس الفكرة في رؤوسنا وكان قرارنا فوريا . كانت أيامنا شاغرة، وليس أمامنا أي عمل . كانت السماء ملبّدة بغيوم رمادية منخفضة في متناول اليد، تحجب كل الآفاق إلى حد الاختناق . سألت جميلة أختنا حسيبة عما ستفعل بظهيرتها . أجابت صغيرتنا بأنها لن تتأخر عن الالتحاق بمجموعتها بالمخبر لأنّ لهم شغلا ينتظر، وشرحت لنا أنّهم استقدموا مواد جديدة، سهلة الاستعمال، وأقوى وأنجع من المواد السابقة . قلت وأنا معجبة حقا : « هنيئا لك أختي، ها قد وجدت مهنتك التي تشغلينها بعد الحرب . كيف تسمّى، خبيرة في مواد التفجير، أليس كذلك ؟ ». انفجرنا بالضحك، فكشفت حسيبة أسنانها البيضاء الجميلة . قالت جميلة : « لا ! ستكون أول امرأة مهندسة في الجزائر المستقلة . لقد تصفّحت الكتب التي أعارها دحمان لحسية . صدّقوني، لم أفهم شيئا، يجب أن تكون « مُخّا » كي تفك طلاسمها ! ». قرّرنا شراء حلوى روسية للاحتفال مع الإخوة، في ذلك المساء، بميلاد أول امرأة مهندسة من عندنا . هكذا، تأكّدنا أننا لن نترك حسيبة بمفردها في البيت، فذهبنا إلى السينما . تقع قاعة سينما « ستار » في زنقة متعامدة مع شارع إزلي، غير بعيد عن منعطف روفيغو وشارع « ديمون دورفيل ». وصلنا في الوقت المناسب لشراء التذاكر والالتحاق بآماكننا، مع بداية بث الأحداث المصوّرة، شريط الدعاية الفرنسية بامتياز . وبعد ذلك، غرقنا لمُدّة ساعة وأربعين دقيقة في عالم حرب

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الظل، نتابع بنهم جميع المشاهد. كنا نرى أنفسنا في أشخاص المقاومين، تاركين دور النازيين للمحتلين الفرنسيين. كنا نتابع أحداث الفيلم بعناية لنستوحي منها أفكارا لمهماتنا اللاحقة. انتهى الفيلم بانهزام الألمان، الشيء الذي اعتبرناه فألا سعيدا لقضيتنا. وحينما أضيئت القاعة الظلماء، تنهدت جميلة قائلة : « إن شاء الله، هذا فالنا ! » .

حينما خرجنا من قاعة السينما، وجدنا أن ليل ديسمبر قد خيم على المدينة، فنزلنا الزنقة بخطى سريعة، ينتابنا هلع لفكرة أن يكون الإخوة قد بحثوا عنا. دخلنا شارع إزلي المضيء، بواجهاته الزجاجية المنيرة وحشد مزدحم وسعيد باقتناء مشتريات عيد نهاية السنة وتحضير حفلة « نوال »، يسود بها جوّ عرس كبير يؤكّد أنّ « الدزاير الأوروبية » لا تختلف في شيء عن باريس، ولا علاقة لها بغيطوهات الأهالي. انقضضنا برأس منخفض نحو منعطف روفيغو الذي كان هادئا نوعا ما. يتسارع بعض المارة للالتحاق بمنزلهم. وبمجرد أن تجاوزنا قليلا سوق « لا لير »، استقبلنا الظلام والسكوت. وكلّما توغلنا في شارع راندون، ثم شارع « باب جديد »، ثم شارع غرناطة، كلّما تعاظمت الظلمة والصمت، وأضحيا يثيران القلق، بل والخوف. أسرعنا الخطى. لم تكن الساعة إلا السابعة مساء، ومع ذلك لا أحد في الشارع، ولا نور كي يرشد القادم الجديد. كان سكان القصبة في ترقب دائم، يثير مخاوفهم أدنى تنقل، ويحاولون التعرف على أدنى ضجيج، مهما كان خافتا. بدا كما لو أننا نسمع تنفسهم. عند وصولنا إلى منزل بوحيرد، صعدنا مباشرة عند أخيتي حيث وجدنا حسيبة. رمت جميلة حقيبتها اليدوية على مقعد وانهارت تبكي وتشهق إلى حدّ الاختناق. أسرع صغيرتنا نحوها واحتضنتها بذراعيها وهي تسألني بعينيها عن سبب كل هذه الدموع. عبّرت لها بعيني عن جهلي. انتاب حسيبة قلق مضاعف، فبدأت تهزّ جميلة الباكية وهي تسأل : « ماذا

تدويل المسألة الجزائرية

حدث ؟ هل تمّ توقيف أحد الإخوة ؟ هل قُتِلَ أحد ؟ ». ولكن جميلة كانت تذرف دموعاً آتية من عمق السنوات، كما حدث لها يوم قبلة الترامواي. عندما هدأت، مسحت وجهها وقالت : « السفلة ! الحرب ليست إلّا لنا ! نحن الجرذان ! على السابعة، نُجَبِّرُ على دفن أنفسنا في منازلنا، بينما هم يعيشون ويتمتعون بالحياة، نعم بالحياة، لأنّ الحرب لا تعنيهم، لا تمسهم ». حينئذٍ، شرحتُ لحسيبة من أين جئنا، من شارع إزلي المتلائي بالأنوار، والذي يعجّ بالنساء والرجال والأطفال، كلهم أوروبيون، منشغلون وسعداء بشراء هدايا نهاية السنة وتحضير حفلات نوالهم، في طمأنينة وسلم وأريحية. وعلى بعد عشر دقائق مشياً من القصبة التي حوّلها جيشهم وشرطتهم ومُخبروهم وسلطتهم إلى غيطو، خاضعة لخطر التجوّل، محاصرة ومغلقة خلف حواجز أمنية من الأسلاك الشائكة والدوريات العسكرية المتعددة. قالت حسيبة : « من أجل هذا، يجب نقل الحرب إلى أحيائهم ». احتفظنا بهذا المشهد لأنفسنا. لقد نسينا شراء الحلوى الروسية كي نحتفل بمهندستنا الناشئة التي، ودون أن تكون مغفلة، لم تذكّرنا بما نسينا. وقد تلاًّ وجهها نوراً، حينما قبّلتها جميلة قائلة لها : « في صباح الغد، سأعدّ لك » الطمينة ».

• كم كنا نحبّ الحياة !

في نهاية ديسمبر 1956، كنا، حسيبة وأنا، نقيم مع الرعاية الكاملة، عند عائلة بوحيرد التي أدمجتنا، لنصبح مثل أفرادها الآخرين. فتعودنا على اقتسام فطور الصباح وكذا غداء منتصف النهار مع أُخْتَيْ وعَمِّي مصطفى وجميلة، فيما كنا نتعشى برفقة إخوان المخبر. أحياناً، يلتحق بنا عليّ و « الخو » حينما يحدث لهما أن يُغيّرا مخبأهما، ليقضيا الليلة في 5 درب غرناطة. وحينما لا نكون منشغلات بمهمة ما، نساعد، جميلة وأنا، أُخْتَيْ وباية في

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

الأشغال المنزلية. ولا تتوقف هذه الأخيرة بتكرار اللوم على ابنتها وسلَفَتها لعدم احترامهما لقواعد الضيافة بقبول مساعدتنا. شخصيا، كنت أحبّ تلك اللحظات خاصة أنها تنسيني في الأسباب التي رَمَت بي إلى القصة، فأساعد بابتهاج لا نظير له في غسل الأرضية بسكب المياه وتجفيفها بتمرير « النشّاف ». وكانت خالتي باية تطبق قواعد الضيافة تلك، فلا تكف عن لوم ابنتها بالنظرات المستنكرة، المعبرة عن « الحشومة » في إشراك الضيف في الأعمال المنزلية، وهذه الأخيرة تتجاهلها بتواطؤ مسبق معنا. فكنا نقوم بتلك الأشغال بخفة روح ومرح كي نغسل ونزيح الغبار ونرتّب ونعيد كل أثاث وماعون إلى مكانه نظيفا لامعا سواء في غرفتنا أو في غرفة أُخَيَّتِي. أما غرفة والدّة جميلة، فكانت تمنعنا صاحبته من الدخول إليها. وكانت سعادتنا الكبرى حينما نَبْطِيط داخل الماء ونحن نساعد أُخَيَّتِي على غسل الملابس في نهاية الصبيحة، بعد أن تكون قد أعدّت أكل الغداء والعشاء. ويحدث لنا أن ننزل إلى شقّة عائلة مزيان كي نقدّم يد العون إلى فطومة، بعد أن نكون قد أنهينا شغلنا في الطابق الأخير عند عائلة بوحيرد. كنت أحبّ تلك اللحظات الثمينة التي تتشكّل من شراكة نسائية صادقة، حيث نعمل بجهد وتبادل أطراف الحديث والنصائح عبر فقهقات سعيدة. وقد انبهرتُ بطريقة عمل نساء القصة وكيفية كلامهن، ومناقشاتهن وحكاياتهن وحواراتهن، المليئة بالأمثال الشعبية وصيغ الحكمة والمثل العليا والإيحاءات المزهرة، التي لا يكون معناها واضحا دوما. أحيانا، يكون المعنى غريبا عني تماما، فتتسلّى صديقاتي ويتضوّنن بالضحك أمام سحنتي الحائرة، فتذكّرني هذه اللحظات القوية من التضامن والتقاسم تلك التي عشتها في الهضاب العليا، لحظات التضامن الضرورية، العفوية، التي تخلو من أية غاية تجارية أو نفعية. وكانت تلك الأيام تنتهي دائما بقهوة العصر تُقدّم على المائدة بصوانها النحاسي المليء

تدويل المسألة الجزائرية

بأنواع شتى من الحلويات المصنوعة في الدار . وبعدما تتقاسم النساء طاقاتهم وجهودهن، يجتمعن للحظات الرخاء بتقاسم الخيرات التي قُمن بتحضيرها، دون أن يتوقفن عن النشاط . بالفعل، كنّ يجلسن حول المائدة، ولكن أيديهن تنشغلن بنسج الصوف وطرز الأقمشة أو قتل عجينة « المقطّفة » . كما أنّ الألسنة تنشط في مثل تلك الجلسات لتسقط الكلمات كشلال مياه عذبة، تتخللها ضحكات رنانة . لم تستثقل امرأة واحدة حضوري بينهن ولم يطرحن عليّ أسئلة فضولية وكنّ جميعا يُظهرن لي استعدادهن الأخوي والتضامني لتقديم يد العون أو كلمة طيبة أو ابتسامة سخية . وكنت أعني جيّدا ذلك الامتياز بكوني أعيش لحظات ساحرة .

وعند سقوط الليل، كنا نلتحق بإخواننا كي نتعشى معا في الغرفة المربعة . وكان كبيرنا، سي مراد، نصف مُمدّد على المقعد، الغليون في فمه، ويتابع مناقشاتنا ويتسم للهِرَجَة المفاجئة التي لم يتوانَ عليّ بإحداثها لواحد من الإخوة، مشيرا غضبه أحيانا . كنا نتعشى معا، ونحدّث في موضوعات شتى، نعلّق على الأحداث، وأحيانا نحلم بصوت مرتفع عن مستقبلنا في جزائر حرّة ومستقلة . وكان « الخو »، حين حضوره، يحكي لنا عن الرحلات البحرية الرائعة التي سينظمها لنا عبر حوض المتوسط . وكان كل واحد منا يبدأ في اختيار وتخيل محطات توقفاته، وحينما نسأله عن الوسيلة التي سيعتمد عليها لتنظيم رحلاته، يجيبنا بنبرة ملغزة : « اليَحْت موجود وينتظرنا » . ولإشراك سي مراد في أحلام يقظتنا، يسأله أحدها : « وأنت يا سي مراد، هل ستأتي معنا ؟ » . وكان أحدها في كل مرّة يجيب في مكانه، مازحا، مشيرا لقهقهات جماعية : « سي مراد، تنتظره تاكسانا ! » . لم أسمع أبدا بهذا الاسم، تاكسانا . تصوّرت أنه يشير إلى منطقة متخيّلة، أو أنه كان اسما مشفرا يستخدمه الإخوة للإشارة إلى حادثة أو شخص ما . وحينما أسألهم عن

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

معنى الكلمة، يضحكون ويسخرون من جهلي بلطف، دون أن يفكوا دلالة هذا اللغز. ومع ذلك، لم نتمكن من جرّسي مراد إلى المشاركة في تخيلاتنا، لأنه، كعادته دائما، يبتسم بعينيه المغوليتين وهو يواصل تدخين غليون بهدوء مثل أخ كبير يتفهّم لعب إخوته الصغار. إنّ « غاني » جميلة يتفهمان جيّدا وبمنظرة واحدة، لأنهما ابنا القصبة، وقد وُلدا وتربيا في منزلين متجاورين بدرب غرناطة. أما دحمان، بنظاراته السميكتين وجسده النحيل، فكان يبدو دوما مهموما بصيغة كيميائية ما. فهو يشكّل مع حسيبة ثنائيا علميا. وبما أنّ تخصّصي أدبيّ، فكنت أكتفي بالنظر إليهما بعطف وإعجاب. أحيانا، نلعب لعب الورق والدومينو، وكذا لعبة « يداس »، والهدية تتمثل دوما في قطعة حلوى. وبمناسبة ذكر الحلوى، كنا نصرّ دوما ألا ننسى الاحتفال بعيد ميلاد أحدنا، آمليْن أن لا يكون الأخير. في حقيقة الأمر، كان كل واحد منا يعلم في قرارة نفسه أنّ تلك اللحظات خارقة للعادة، وأنّ كل لحظة هي فريدة من نوعها، وأنّ كلّ يوم نعيشه انتصاراً على توقيف ممكن أو موت محتمل. هذا ما كان يقوّي علاقتنا ويجعل كل واحد منا يقدّم للآخر أفضل ما عنده، ويجعلنا نعتني ببعضنا البعض، ونتضامن في أخوة حنونة. وطبعا كانت هناك أمسيات حزينة، أمسيات حداد، عندما يأتي خبر موت أخ لنا أو توقيف آخر. وكانت التعليمات غير منطوقة، غير مكتوبة، ولكنّ الجميع يعمل على تطبيقها قدر ما استطاع في مثل تلك الحالات، وهي أن نقاوم الكآبة والانهيار وشبح الموت. وكنا نستقي من هذه الجلسات الجماعية قوة بقائنا واقفين. وبداخل المجموعة، كان عليّ لآبوانت أسخانا جميعا، بإنسانيته المتفتحة على الآخرين، بأخوته اللامحدودة، المرحّة، ومنه كنا نهل نفّس آمالنا وطاقة إرادتنا وقوتنا كي ننهض باعتزاز ونواصل كفاحنا في نفسية متحمسة لا يغيب عنها مقصدنا الأساس : جزائر حرّة ومستقلة.

• توقيف لوني أرزقي وإعدامه

لَنْ أنسى أبدا تلك الأمسية من 24 ديسمبر 1956، وقد قضيناها نحاول جميعا أن نجعلها أقل حزنا، وأقل وطأة على نفسياتنا وحركاتنا. في نهاية ظهيرة ذلك اليوم، عاشت القصة أصعب لحظاتها وهي تدعو على لسان أهلها جميعا أن لا يسقط أخ، لوني أرزقي الذي لا أعرفه، في قبضة الجيش الفرنسي. وكان لوني أرزقي، أحد المكافحين الأكثر تجنيدا وتخويفا في منظمنا، في اشتباك مسلح ضد عشرات العسكريين الفرنسيين الذين أغلقوا جميع منافذ مجموعة سكنية بين شارع « ديبوش »، غير بعيد من منعطف « روفيغو » وسوق « لالير ». كان « الخو » وعليّ لابوانت معنا في 5 درب غرناطة، برفقة غاني وسي مراد ودحمان. وكان « عليلو » عون اتصال « الخو »، الذي يعرف القصة ودروبها كما لا يعرفها أحد غيره، يدخل ويخرج ويأتينا في كل مرة بآخر المستجدات.

لقد قرّر الأخ لوني أرزقي الهجوم على حراس الناحية العسكرية العاشرة، مقر قيادة الأركان في « الدزاير »، الواقع في قلب المدينة الأوروبية. وكان الخوف من الاعتداءات عند المستعمرين في نهاية 1956 كبيرا جدا بحيث استقدموا آلاف العسكريين إلى المدينة لحماية أنفسهم. وقد انتشرت دوريات الشرطة والجيش وحواجزهما الأمنية في كل مكان، يفتشون جميع المارين العرب، خاصة أن احتفالات « نوال » ونهاية السنة جعلت الشوارع والمخلات عامرة بالمتسوقين من الأوروبيين. لقد عرّض لوني أرزقي خطّة اعتدائه « للخو » الذي حاول إقناعه بالعدول عن القيام بها. ولكن لوني الذي أعدّ خطته جيّدا تمكّن من إقناع « الخو ». للأسف الشديد، ظهرت موانع غير متوقعة أثناء قيامه بالعملية، فجرحت ساق الأخ لوني وحاول الانسحاب باتجاه القصة. ولكن رهطا من العسكريين الفرنسيين طاردوه وأجبروه على اللجوء إلى عمارة قريبة.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

فكانت القصبة في تلك الظهيرة تشدّ نفسها وتدعو الله لنجاته، فاسودّت شرفاتها بالناس الذين يتابعون مطاردة عشرات العسكريين لمكافح جريح. كان « الخو » وعليّ لابوانت يجتران عجزهما ؛ إذ كان يستحيل عليهما تقديم المساعدة للأخ لوني، ذلك أنّ جميع المنافذ كانت مغلقة. حضرنا لمناقشة عليّ والخو لدراسة إمكانية التدخل للتضليل والتمويه. ولكن أخبار عليلو كانت قطعية : يستحيل الوصول إلى العمارة التي يختبئ بها لوني وكذا جميع المباني المجاورة لها، بسبب العدد الضخم من العسكريين ورجال الشرطة الذين كانوا يشكلون حاجزا بشريا مسلحا يمنع كل اقتراب من المكان. وكنت، برفقة الإخوة والأخوات، أعيش على المباشر عدم توازن القوى وتباين الوسائل العسكرية التي حدّثنا عنها سي محمد، جميلة وأنا : نشر عدد هائل من العسكريين والشرطة ضد مكافح عربي واحد جريح، أخونا لوني أرزقي. ونَحَرَ الظلم العصيّ الاحتمال لهذه المواجهة والعجز الذي كنا فيه أعصابنا وقصم أحشاءنا وآلم قلبنا وروحنا. فكان الضغط يشل عضلاتنا ويقبض بصدورنا ويجعل الدم يغلي في عروقنا. لم تكن أمام لوني أرزقي أية إمكانية للنجاة من قبضة العسكريين. فتمّ توقيفه في الحين وأُخضع للتعذيب و « تقنياته » المستحدثة. أرقّده على مسامير غُرست على كامل مساحة لوحة خشبية وجروّه من القدمين ومزّقوا ظهره. وبعد ذلك، حكموا عليه بالإعدام.

وعرّفت عشية الاحتفال بـ « النوال » عدّة اعتداءات بالمتفجرات برغم الانتشار المذهل لقوات القمع الاستعمارية لحماية أهلها من الأوروبيين. وعرف الخامس من درب غرناطة في ذلك اليوم نشاطا كثيفا غير معتاد، تمثل في الذهاب والإياب المتواصلين مما أجبر السكان، عند صعود أو نزول أحد الإخوة، على تحرير الفناء والأروقة والسلام، والالتحاق بغرفهم وإسدال الستائر، وهم في قلق وخوف عميقين. فرأيت لأوّل مرّة مجيء رجل طويل

تدويل المسألة الجزائرية

القامة، بسحنة ألمانية، إلى مخبئنا. أسرع المناضل إلى محادثة « الخو ». إنه حبيب رضا. في أمسية 24 ديسمبر، يوم زواج سامية، انفجرت مجموعة قنابل في باب الواد وشارع « بروفانس » وفي حسين داي ومقهى « بيرغوله » قرب كنيسة القديس أوغستين. كتب « الخو » لسامية : « نيران الفرحة هذه هديتنا لزواجك ». وكان حبيب رضا هو من قام بتخطيط وتنظيم وتنسيق جميع هذه الاعتداءات.

في المساء وقبل النوم، شرحت لي حسية أنّ المخبر تلقى مادة أكثر فعالية وقوة لصناعة القنابل. « إنّ دحمان في ذروة الفرحة. لقد توعد الجيش الفرنسي والمعمرين المتعجرفين بنيران عرس لاهبة ». يجب الاعتراف بأننا عشنا خيبات أمل كثيرة مع تلك القنابل التي لا تنفجر. حينما تعلن الصحافة بأنّ خبراءهم في التفجيرات قد فككوا مفعول قنبلة، كنا نعرف أنها اكتشفت سالمة بنظام تفجير معطل. بعد توقيف « فرنان إفتون » والذي اكتشفت قنبلته بسبب وشاية، غضب دحمان غضبا شديدا وانعزل كلية إلى حدّ أن « غاني » القريب منه اعتراه قلق جاد. ختمت حسية سردها بالقول أنها تتفهّم حالة دحمان، لأنّ ثلاث قنابل فقط من ثمانية تفجّرت مع المواد القديمة. وشرحت لي أنه زيادة إلى عمل المخبر الشاق، يجب احتساب ساعات التعب لإخفاء القنابل في طرود قبل تسليمها إلى فدائيين شباب يضعونها في أماكن مختارة سلفا. في ليلة 24 ديسمبر، لم يتمكن أحد من النوم، وبالأخص عليّ الذي كانت تربطه أواصر صداقة متينة مع لوني أرزقي ومنذ زمن طويل. كما تمّ توقيف إخوة آخرين، وكنا على علم بما ينتظر هؤلاء الإخوة عند فرنسا « بلد حقوق الإنسان والمواطن » : التعذيب، ثمّ الإعدام. ولكننا كنا على دراية أيضا بأنّ وراء كل إعدام شخص واحد من مكافحيننا، يقوم العشرات من رجالنا ونسائنا بالالتحاق بصفوف الثورة مستعدين للتضحية بالنفس والنفيس.

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

قضيّنا، جميلة وحسيبة وأنا، الليلة يقظات، تارة نبكي على إخواننا وتارة نغنّي بصوت خفيض : « من جبالنا طلع صوت الأحرار، ينادينا للاستقلال، لاستقلال وطننا. توضّحيتنا للوطن خير من الحياة ».

• ربما سأتعرّف على مذاق الموت

في صبيحة 26 ديسمبر، أعلنت جميع صحف النظام الكولونيالي أنّ « خارجا عن القانون » قد أطلق النار على الباشا آغا وتسبّبت الرصاصة في جرحه جروحا بليغة، في الوقت الذي كان يتناول غداءه كعادته في النادي الفرانكو-إسلامي. وقالت الصحف أن العملية قام بها شاب عربي، فبعد أن أطلق النار على الخائن الباشا آغا آيت عليّ، غادر المطعم وتوجّه نحو السكوار بريسون، ولكن بائعة الأزهار الدائمة بذلك المكان قد تعرّفت على هويته وبدأت تصرخ وتشير إليه إلى المارة. فطارده الدورية القريبة من المكان وتمكّنت من القضاء عليه تحت أقواس باب عزون، غير بعيد عن القصبة. إنه « مجرم وخارج عن القانون » في نظر الأوروبيين. أما في نظرنا، فإنه فدائي وشهيد. لقد هدّنا مقتل هذا الأخ المجهول وفهمنا أن شهيدنا شابٌ غير مجرّب، وإلا لما تصرّف بهذه الكيفية.

اعترانا، جميلة وأنا، غضب شديد لأنّ مهمة القضاء على الخائن الباشا آغا آيت عليّ قد أسنّدت إلى أخ مبتدئ، عوض أن تُسند إلينا. كنا غاضبتين حقا على مسؤولينا الذين ألغوا مشروعنا لقتل الخائن بواسطة القنبلة. وما زاد من غضبنا أننا حاولنا شرح أن وسيلة العمل الوحيدة في ذلك النادي المحمي حماية شديدة، ويعجّ محيطه بدوريات الجيش والشرطة، هي تفجير المطعم الذي حضّرنا له تحضيراً محكماً. إن معرفتنا بالمكان ومحيطه جعلنا نؤكّد بأنّه لا توجد أدنى فرصة لينجو فدائي بحياته. ولكن يبدو أنّ لا أحد من

تدويل المسألة الجزائرية

قادتنا استمع إلينا. فقرّرنا أن نتحدّث مع « الخو » برغم القواعد الصارمة التي تنظّم الاتصال بيننا والتي تمنع هذا النوع من المبادرات. كانت الساعة التاسعة حينما دخلنا على عائلة بلحفاف، عيوننا مغمّشة بدموع الغضب. وجدنا « الخو » جالسا في مخبأ « المنزه »، ويمسك ورقة في يده. الشيء الغريب أنه لم يندهش من زيارتنا غير المبرمجة. وبدون أن ينطق بكلمة، مدّ لنا الورقة، من أوراق الكراريس المدرسية. كانت عيناه تلمعان بلمعان غير عادٍ ولم يتوقف عن سحق إبهامه بظفره الذي على شكل منقار مفلطح. وقعت عينيّ على كتابة معوجة وطفولية، تعبّر عن صعوبة وعناية ذلك الذي خطّها. كانت الكلمات التي احترمت تركيب اللغة الفرنسي تميل إلى التعبير عن فكرة قدّت بالعربية. كانت الرسالة قصيرة وموجّهة إلى « الخو »، بعثها إليه الفدائي، ويعبّر فيها عن اعتزازه لأنه اختير كي يضع حدا للممارسات خائن وطنه، الباشا آغا آيت عليّ. كان واعيا بالخطر الذي يحدّق به، ولكنه تقبّل التضحية بالنفس كي يعيش إخوانه في الكرامة والحرية. قال : « اليوم، ربّما سأتعرف على مذاق الموت، ولكنني أقبله من أجل كرامتنا ». وأنهاى رسالته بشكر « الخو » الذي منح له هذا الامتياز. لقد غلبتنا الدموع. نهض « الخو » وخرج... ربما ليبكي هو أيضا. لم نتبادل ولا كلمة واحدة.

إنّ موت ذلك الفدائي الشاب في نهاية سنة 1956 دفعنا، جميلة وأنا، إلى تنفيذ مشروع كنا قد تحدّثنا عنه منذ أن أحسّسنا بأننا همّشنا عن النشاط الحركي. فقد فكّرنا جدّيا بالتحضير للصعود إلى الجبل، مقتنعات بأن هناك، يحتاج المجاهدون إلى أعوان في القطاع الطبي وشبه الطبي. تكفّلت جميلة بالمسألة، ونظّمت لنا موعدا في مستشفى مصطفى باشا لبداية تكوين في التمريض. في أواخر أيام ديسمبر، تقدّمنا في نهاية ظهيرة إلى إحدى مصالح المستشفى، والتي بدت لنا في البداية فارغة. أدخلنا شاب، بمزعر أبيض

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وعينين زرقاوين وشعر كستنائي مُشَطّ باتجاه الخلف وحركات لطيفة، إلى مكتب وقور. دخل مباشرة في الموضوع، وسألنا إن كنا حقا نريد الصعود إلى الجبل. بمجرد أن أعطينا موافقتنا حتى بدأ في امتحان معارفنا الطبية التي كانت منعدمة تماما. ثم أعطانا بطاقات كرتونية عديدة عليها كتابة منظمة وواضحة، تعالج مسائل عديدة بالعناوين والفقرات. إنها دروس مخطوطة باليد، غرقنا نوعا ما في قراءتها فورا، ولكن الشاب طلب منا أن نخفيها في حقائبنا وأن نحفظها عن ظهر قلب في البيت. ثم أخذنا إلى قاعة مجاورة تحوي طاولة بسطح خزفي عليه مجموعة من الأواني والأدوات المخبرية، وهنا، أجرى لنا بعض الأعمال اليدوية : كيف نستخدم الضمادة وتوقيف دم جريح واستعمال الحقن، إلخ. بعد ساعة من العمل المتواصل، حرّرنا بعد أن حدّد لنا موعدا مقبلا. كنا، جميلة وأنا، تلميذتين مجتهدتين فحفظنا عن ظهر قلب بطاقتنا استعدادا للدرس المقبل.

عند الموعد المقبل، وصلنا إلى المصلحة في نفس وقت وصول سيارة إسعاف. أخرج ممرضون شخصا مغلفا تماما بما اعتقدناه ورق ألنيوم. خرج أستاذنا بخفة، ووجه الممرضين وطلب منا أن نتبعه. حطّ الممرضون النقالة وخرجوا، عندما بقينا وحدنا مع الأستاذ، أزاح الأوراق التي كانت تغطي جسد المريض، فقال لنا بأنه احترق حروقا شديدة العمق. ما إن وقع بصري على الشكل الممدّد حتى أدرت وجهي كاملا. شلّ جسدي وبدأت أرتجف، رافضة مشاهدة الكتلة المحروقة. فمدّ لي الطبيب الشاب محقنة وطلب منّي أن أجرب ما علّمنا في الحصة الأولى، أي وضع حقنة للمريض. وعوض أخذ المحقنة، غطيت وجهي كي لا أسقط أرضا لأنّ كل شيء أضحى يدور حولي. ففهمت أنه يستحيل عليّ أبدا أداء تلك الإبرة، برغم تشجيع أستاذنا، الذي حصّني على أدائها كي أخفف آلام المريض. كانت جميلة أشجع مني، فطبقت درس

تدويل المسألة الجزائرية

الأستاذ وأدت الحقنة للمريض دون أن ترتعد يدها. وأمام سحنتي المنهارة، حاول الطبيب أن يطمئنني بأنّ حالتي عادية جدا، وقد لاحظها عند كثير من طلبة الطب المبتدئين. أضاف أنني سأتعوّد مع تكرار التجربة. ولكن حالتي كان ميئوساً منها، وفهمت أنني لن أصبح ممرضة أبدا.

سأعرف لاحقا أن ذلك الطبيب الشاب هو بيار شولي، أخ لنا في الكفاح، ولم أره إلا بعد تحرير بلدنا. في نهاية ديسمبر 1956، تسارعت وتيرة الأحداث : أخفينا، جميلة وأنا، تلك البطاقات الكرتونية في الأثاث الحامل للأواني المنزلية لأنّ لا أحد يدري بمبادرتنا للتكوين في التمريض، وكاد هذا الخرق الخطير لقوانين الانضباط، مثلما سنراه لاحقا، أن تكون عواقبه وخيمة علينا في ليلة 2 إلى 3 فيفري 1957.

• تسجيل المسألة الجزائرية لدى منظمة الأمم المتحدة

هكذا انتهت سنة 1956 في عاصمة يخنقها الخوف وهُوّاس الحرب. كان السكان العرب يعيشون على إيقاع مدامات الدوريات المختلطة للجيش والشرطة، والإيقافات اليومية للمئات منهم (كل عربي هو مُذنب بالضرورة)، والتعذيب الذي تأسس كنظام، والإعدامات الفورية والأحكام بالإعدام عن طريق المقصلة، دون حساب موت إخواننا في الكفاح في العمليات العسكرية. أما السكان الأوروبيون، فكانوا يعيشون تحت الحماية المشدّدة لجميع قوات الأمن، بمختلف دوريات الجيش، ومختلف أنواع المخبّرين والوشاة، ومختلف أنواع الجلادين : الرسميون وغير الرسميين. وكما لو أنّ كل هذه الحماية لم تكفِ لأمن وسكينة السكان المدنيين الأبرياء، الأوروبيين منهم طبعاً، عيّنت فرنسا على رأس جيشها في الجزائر الجنرال « راوول صالان »، الذي قدّمته الصحافة كـ « خبير في مكافحة حرب العصابات »، و « رجل حرب مدرّب

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

نال رتبه في حرب الهند الصينية»، و «الذي سيعرف كيف يضع حداً لأعمال تخريب الخارجين عن القانون والفلاحة».

في الحقيقة، وبعد أن تلقت فرنسا وجيشها هزيمة مُدلة في الهند الصينية، هاهي تفقد حرباً أخرى: حرب قناة السويس التي خاضها التحالف الفرنسي - البريطاني - الإسرائيلي ضد مصر. في عمى كلي، اعتقدت فرنسا أن جمال عبد الناصر هو من فجر ثورة 01 نوفمبر 1954 في الجزائر، فيكفي القضاء عليه لإخماد ثورتنا. ولكن ضغوط روسيا وأمريكا وضعت حداً لذلك الغزو الذي خلف جيشاً وسلطة هزتها الهزيمة ومستعجلة لإعادة الاعتبار لنفسها وجيشها. هكذا، ألقت كل قوتها المدمرة وحقدتها القاتل على بلدنا وشعبنا، جاء يحملهما صالان، ماسو، ترانكيي وجنودهم الذين يجرون خلفهم هزيمتين متواليتين في ظرف قصير جداً (1954 و1956)، تحت أوامر سلطة سياسية فرنسية كان هدفها الأساس الحفاظ على أرض الجزائر داخل حوض فرنسا بجميع الوسائل: الاعتقالات الواسعة الانتشار، التعذيب النظامي المكثف، الاغتيالات والإعدامات في المدن والقرى، القصف بقنابل النابالم، إقامة المحتشدات للسكان المرحّلين بالقوة بعد تخريب منازلهم وحرق محصولهم الزراعي، المجازر والإبادة الجماعية في الأرياف والجبال. ولكن، وبرغم كل هذا الظلم الجائر، وبفضل كفاحنا وإصرارنا، تم تسجيل المسألة الجزائرية في جدول أعمال منظمة الأمم المتحدة ابتداءً من 1955، وبرمجت للمناقشة في جلسة شهر جانفي 1957، لتُموّع المسألة الجزائرية في قلب انشغالات المؤسسة العالمية المشهورة.

في نهاية الشهر الأخير من سنة 1956، كان بن مهدي (سي محمد بالنسبة إلينا) يعيش معنا في القصبة، ويشرف على عملياتنا السياسية والعسكرية المبرمجة في «الذواير» كقائد يحترمه ويبجله الجميع. كان يتأثر بهيبته

تدويل المسألة الجزائرية

ورجاحة وصفاء ذهنه جميع المجموعات المسلحة التي يقودها ياسف سعدي (الحو). كما أنه يترأس أيضا القيادة العليا لفروعنا السياسية وتنظيماتنا المهنية، وكذا التنسيق مع لجنة التنسيق والتنفيذ، اللجنة العليا لقيادة الثورة التي تأسست مباشرة بعد مؤتمر الصومام، والتي تجمع، زيادة على بن مهدي، كل من عبان رمضان وبن خدة وكريم بلقاسم وسعد دحلب، كلهم مكافحون يعيشون وسط شعبنا، وداخل البلد. فبالنسبة إلينا، وإذا كنا لا نعرف إلا سي محمد، فإن لجنة التنسيق والتنفيذ تمثل أكثر من قيادة لثورتنا. فكانت في الآن نفسه حلما لحكومة وطنية وتجسيدا لها. كنا فخورات أن نمر، بعد 26 شهرا من 01 نوفمبر 1954، من حركة تمردية مسلحة إلى حرب حقيقية لتحرير الوطني، تسيّره شبه دولة بمؤسستها السياسية، جبهة التحرير الوطني، تمثل الشعب الجزائري المكافح، ومؤسستها العسكرية، جيش التحرير الوطني، وكذا تمثيلية خارجية.

في ديسمبر 1956، كانت قرارات مؤتمر الصومام مطبقة على أرض الواقع : لقد تمّ تنظيم البلد إلى 6 ولايات ومدينة الجزائر إلى منطقة مستقلة، تحت المراقبة المباشرة للجنة التنسيق والتنفيذ، دون حساب الوفد الخارجي - خمسة أعضاء منهم تمّ توقيفهم في 20 أكتوبر 1956 بعد اختطاف الطيران الحربي الفرنسي للطائرة التي كانت تقلهم من المغرب إلى تونس - وكذا فيدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا وتونس والمغرب. ومهما يكن من أمر، فإنّ منطقة « الدزاير » المستقلة ومجموعاتها المسلحة وفروعها السياسية والاستخباراتية كانت تحت قيادة العظيم بن مهدي الذي كان لنا شرف معرفته والعيش معه ؛ لأنه، وإلى غاية فيفري 1957، كان مقيما معنا في القصبة، وسط شعبه. كنا، جميلة وأنا، واعيتين بالخط الذي منحتة لنا حياتنا النضالية بالسماح لنا بالاقتراب من سي محمد والحديث معه أحيانا. هو الذي شرح لنا أيديولوجية ثورتنا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وأهدافها العميقة. دفعنا إلى « قراءة وتأمل » وثيقة أرضية الصومام، وأنارنا حول فلسفتها، وشرح لنا بصبر الأهداف السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وكذا المبادئ المؤسسة لثورتنا واستراتيجيتها. كان يكرّر بأنّ على عملنا أن يكون متعدّدا : عسكريا وسياسيا، بالداخل والخارج، مع احترام أولوية الداخل على الخارج والسياسي على العسكري. تعلّمنا مع سي محمد أن كل عملية عسكرية يجب أن تخضع وتخدم هدفنا السياسي الأساس ألا وهو الاستقلال الشامل، مع إجبار فرنسا على قبول المفاوضات، ومنعها من حلّ المشكل الذي يواجهها مع الشعب الجزائري، عسكريا، بالقمع الوحشي، مثلما تحلم به. ولهذا كان يؤكّد على ضرورة عمل التوعية والتحسيس والتأطير السياسي لشعبنا كي نفرض، بالتجنيد والحجج الدامغة، جبهة التحرير الوطني كممثل الشرعي والوحيد، وناطقه الرسمي. وكان بن مهدي يسهر شخصيا، أثناء تحضير إضراب الثمانية أيام لجانفي 1957، على أن نشرح أهداف وأهمية هذا الإضراب للسكان، وإن اقتضى الأمر أن نمر بابا بباب على كامل سكنات القصبة، وأن يتولى الأفلان تمويل العائلات المحتاجة كي تتمكن من تحمّل حصار التوقف عن العمل لمدة 8 أيام.

خلافًا لما قد يعتقد البعض، إن قناعتي هي أنّ إضراب الثمانية أيام كان حاسما في مسار ثورتنا : لقد سمح بتدويل « المسألة الجزائرية »، وكذا الاعتراف بجبهة التحرير الوطني على المستوى العالمي باعتباره الممثل الشرعي الوحيد لشعبنا وناطقه الرسمي. كما سمح الإضراب أيضا بتعرية ونزع القناع عالميا عن الطبيعة الحقيقية للحضور الفرنسي في الجزائر، وإظهار الارتباط العميق لشعبنا بالحرية والكرامة والاستقلال. بالفعل، لقد دفع العمى السياسي، مرفوقا بالعجرفة والازدراء والعنصرية، السلطة الفرنسية إلى الردّ على إضرابنا بقمع وحشي، شرس، وحرب شاملة، مستخدما جميع الوسائل، وبلا حدود،

ضد شعبنا، خاصة مصانع التعذيب واختطافات المدنيين واختفاءهم بالآلاف . ومن ثمة، قد أعطت فرنسا الدليل للعالم ولرأيها العام داخل فرنسا بأنّ الجزائر ليست فرنسا، وبأنّ جيشها يتصرف كجيش استعماري يحتل إقليما أجنبيا، وأنّ الحلّ يكمن في استقلالنا .

• إلينا « إضراب الثمانية أيام » ، وإلى ماسو « معركة الجزائر »

كان هدف الإضراب إظهار دعم الشعب الكامل لوفدنا إلى منظمة الأمم المتحدة حيث ستناقش المسألة الجزائرية وفرض جبهة التحرير الوطني (بطريقة سلمية) كممثل شرعي ووحيد لشعبنا . انتشر الحديث في الشوارع عن الإضراب المحتمل، منذ نهاية ديسمبر 1956، ولكن لا أحد يعرف التاريخ ولا المدة . يخضع هذان العنصران إلى التاريخ الذي ستحدده منظمة الأمم المتحدة للنقاش . بكل تأكيد، كان المعسكران اللذان يتحاربان منذ 01 نوفمبر 1954 يستعدان للحوار والنقاش في الجلسات العلنية، وقد توصل مسؤولونا إلى جعل الجزائر الموضوع الرئيسي للدورة الأهمية . ولقد اختار معسكرنا، شعبا ومناضلين موحدتين حول جبهة التحرير الوطني، وقرار من رؤسائنا من لجنة التنسيق والتنفيذ، تنظيم حركة مدنية وسلمية واسعة الانتشار : إضراب لمدة ثمانية أيام . أما معسكر العدو، أي حكومة « غي مولي » ، والوزير المقيم بالجزائر « روبير لاكوست » ، والجيش والكيلون ومتطرفو الجزائر الفرنسية، فقد استعدوا هم أيضا للنقاش الأممي . ولقد قام مناصرو التيار الصلب للجزائر الفرنسية الذين يتم تجنيدهم في الجزائر بل وفي فرنسا نفسها أيضا، من بين المدنيين والعسكريين، بتجنيد جلاوزتهم في جمعيات متطرفة بالجزائر لارتكاب الجرائم . فبدأوا، يوم 28 ديسمبر 1956، بتنظيم اغتيال « أميدي فروجير » ، رئيس جمعية رؤساء بلديات الجزائر . ثم نظموا في اليوم الموالي،

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

29 ديسمبر، اعتداءات ضد الكنائس والمعابد، بل وحتى تفجير دهليز مقبرة مسيحية، ونسبوا جميع تلك الجرائم إلى جبهة التحرير الوطني. طبعاً من الواضح أنّ هدف هذه الاعتداءات وإصاقها بمناضلين، هو منع كل مفاوضة مع « الأفلان »، وبالأخص إجبار الحكومة الفرنسية على منح السلطات المطلقة للجيش في الجزائر. كان « أميدي فروجير » شخصية ذات وزن في وسط السكان الأوروبيين بالجزائر وأحد أكبر المعمرين بالمتيجة، مناهضاً لكل إصلاح، ويقال بأنه لعب دوراً مُشيناً ضد شعبنا في مجازر الثامن ماي 1945. لقد تلقى شعبنا بغبطة وسرور مقتل ذلك المعمر السفّاح، ولكنه أثار لدى مسؤولينا شكوكاً وفهموا بسرعة الهدف من اغتياله وإصاق التهمة بمناضلي الأفلان. وقد سارعوا إلى التأكيد بأن الاغتيال ليس من فعل فدائييهم. بعث « الخو » فوراً عليلو وعمر الصغير، ابتداءً من نهاية النهار، لينشروا في القصبة والأحياء العربية الأخرى خبراً بتفادي الذهاب إلى المدينة الأوروبية في يوم الغد، المتزامن مع دفن « أميدي فروجير ». فهم الإخوة بسرعة أن اغتيال المعمر الكبير من عمل المنظمات المتطرفة وقد توقعوا بعد ذلك كل أنواع التحريض. كان يوم الدفن من أضجر الأيام التي عشتها. بقي سكان القصبة يقظين ومحترسين طوال النهار، وقد قام فدائيونا بحراسة جميع منافذ المدينة العتيقة. ومن الشرفة حيث كنا، وصل إلى مسامعنا ضجيج متواصل، وأحياناً دوي طلقات الرصاص، والصراخ ومنبهات السيارات. بعث « الخو » مناضلين لمتابعة تفاصيل الجنازة وتقديم تقرير حولها. فعادوا يعبرون جميعهم عن العنف الشرس الذي عبّرت عنه مجموعات الأوروبيين، شباباً وشيوخاً، ضد كل عربي يصادفونه في طريقهم. وتأسفنا لموت العشرات من ذويننا، راحوا ضحايا الحقد الذي رافق جنازة « أميدي فروجير ». بهذه الطريقة إذا، قام المعمرّون ومنظماتهم المتطرفة، بتواطؤ الجيش والشرطة، وكذا رجال السياسة من داخل فرنسا، بتحضير النقاش حول المسألة الجزائرية

تدويل المسألة الجزائرية

في الأمم المتحدة. فقد خلقوا الظروف المناسبة لنقل جميع السلطات إلى الجيش بهدف إجهاد ثورتنا وأهدافها، بـ « تطهير » البلد، وبالأخص مدينة الجزائر من مناضليها. وقد أكد مخاوفنا ودعّم تحليلاتنا تدخّل « غي مولي »، الذي نقلته الصحافة خلال العشرة أيام الأولى من شهر جانفي 1957. بالفعل، لقد قرّرت الحكومة الفرنسية، في إطار تحضيرها للمناقشات الأممية، أن لا تعترف بجبهة التحرير الوطني، وأن تحاربها إلى حدّ الموت، ومنح كامل السلطات في كامل مدينة الجزائر الكبرى إلى الجيش، بهدف مزدوج : تكسير الإضراب ووضع حدّ لنشاطات جبهة وجيش التحرير في منطقة الجزائر المستقلة. وكى تبرّر موقفها، اعتمدت الحكومة الفرنسية على الاعتداءات التي قام بها المتطرفون الأوروبيون يومي 28 و 29 ديسمبر، والتي أسندت ظلما وعدوانا إلى منظمّتنا، وعلى جوّ الخوف والرعب والحدّ العنصري الذي ساد في وسط سكان المدينة الأوروبية بعد ذلك.

هكذا وفي 7 جانفي 1957، تُمنَح جميع السلطات المدنية والعسكرية في مدينة الجزائر الكبرى للجنرال « ماسو » الذي عاد حديثا من مصر حيث تلقى هزيمة نكراء في قضية غزو السويس. وقد قام باستعراض عسكري مع آلاف المظليين في شوارع « الدزاير »، تحت تشجيعات وتصفيقات حشد كبير من السكان المدنيين الأوروبيين الأبرياء، مبتهجين لفكرة أنّ هذه الأرض ستطهّر أخيرا من جميع الأهالي ومن « الخارجين عن القانون » من « إرهابيين وفلافة ». ولكي يبرّر الحرب الشاملة التي كان يسعى لشنّها ضد الأهالي باستخدام جميع الوسائل، الأكثر إهانة، والمضادة لجميع القيم والقوانين الإنسانية، قرّر « ماسو » أنّ إضراب الثمانية أيام كان حركة « تمردية ». ها هو مجرم الحرب « ماسو »، المنهزم في الهند الصينية والمهان في قناة السويس، يخلق « معركته » ضد سكان الأهالي المدنيين، العزل، بأيديهم الفارغة. لقد

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

اخترع مجرم الحرب ماسو « معركة » بالجزائر العاصمة، كي يُنسي بواسطتها جميع المعارك الخاسرة لفرنسا وجيشها ضد دول أخرى وجيوش أخرى. يا له من جبن، ويا له من تخاذل أن يسمّي « معركة » عملية قمع جيش وشرطة لسكان مدنيين خارج كل قانون وكل حقّ. لم يقم إلا بحرب إبادة عرقية طويلة في قلب العاصمة. سيعمل ماسو على محاصرة الأحياء الشعبية العربية بدورياته العسكرية والحواجز الأمنية المُقامة بالأسلاك الشائكة والدبابات والمدركات، وإقامة المدهامات والتفتيش والاعتقالات، وسنّ نظام تعذيب مُشين، لم ينجّ منه أحد، لا الأطفال ولا النساء ولا الشيوخ. ولم يكتفِ رجال ماسو بتعذيب الموقوفين في الشكنات والمنازل المخصّصة لذلك، بل راح يمارس أشنع أنواع التعذيب في سكنات الموقوفين أنفسهم، وبالأخص في القصبة. ودون حساب الآلاف من المختفين إلى الأبد. بهذه الطريقة، وفي هذه الظروف، كان من السهل على فرنسا ومجرمي حربها أن ينتصروا في « معركة » ضد شعب أعزل. ربّما لهذا، لم تتمكن فرنسا، بعد 56 سنة، من تحمّل مسؤولية ما ارتكبته من جرائم شنعاء ضد شعبنا. أما فيما يخصنا، لم تعمل عجرفة وحقد وعمى عدونا إلا على تدعيم وتمتين إصرارنا وعزيمتنا على مواصلة كفاحنا، مع مضاعفة يقظتنا. كان علينا أن نواصل كفاحنا كي نكذب فرنسا ومجرميها الذين صاحوا قبل الأوان : « قضينا على الأفلان ». فكان علينا أن نتحلى باليقظة التامة وأن نتأقلم مع ظروف القمع الجديدة وتلك الحرب الشاملة القدرة. هكذا، وبرغم ضغط العدو، واصلنا، جميلة وأنا، حمل ونقل القنابل وطرود أخرى إلى خارج القصبة. وكان علينا بذل جهود جبارة في التفكير والحيلة والتضليل لاختراق الحواجز التي نصّبت في كل مكان. ولكن أطفال القصبة كانوا يعرفون جيّدا مدينتهم، فيتصدّون ويكتشفون جميع نقاط الضعف في إجراءات وأجهزة العدو ويستغلونها لصالحنا.

خلال إحدى تلك التنقلات، التقيت بأخ بجسد رياضي مثل عليّ، ولكن أكثر رزانة وتحفظاً. كان مكلفاً بحراستنا. يخفي تحت سترته بندقية رشاش من صنع إنجليزي، أخذت من مخازن الحرب العالمية الثانية المهملة. اسمه الفدائي « رامل ». علمت باسمه الحقيقي فيما بعد، حاجي عثمان، حينما قُتل في معركة غير متساوية ولكنها بطولية، إذ واجهته، برفقة سي مراد، مجموعة من قوات المظليين قادها المجرم بيجار وعقيده جان بيار. كان الأخ « رامل » ومعه أحياناً أخ ثانٍ، يسير وراءنا إلى غاية الحاجز الأمني وينتظر مرورنا، مستعداً للتدخل عند أدنى مشكل.

• جانفي 1957، أول مداهمة للمظليين إلى منزل بوحيّر

لقد أظهرت سنة 1957 منذ شهرها الأول تباشير تنبئ بأنها ستكون سنة المواجهة بامتياز. كانت مدينة الجزائر محاصرة بالحواجز العسكرية من جميع الجهات، زيادة على كثرة الدوريات المتنقلة عبر جميع شوارعها، وتشكل تلك الدوريات من سبعة إلى عشرة عسكريين، يجوبون الشوارع في رتل متتابع، يتأبطون بنادقهم المعمرة، مع استعداد تام لإطلاق النار. لذلك، فكنا نعتمد في تنقلاتنا على شخصين. لم أكن أعرف جميع دروب القصبة، وكنت أجد صعوبة في تحديد العناوين التي يجب أن أوصول لها الطرود التي كلّفت بحملها وتسليمها لأصحابها. لذلك، كانت جميلة و عمر الصغير يتناوبان على إرشادي، كان أحدهما يفتح الطريق وأنا أتبع خطاه، على بعد أمتار قليلة فقط، وأكون في العادة حاملة لقفة مليئة بالمواد الغذائية. فإذا أشار لي المرشد بالحركة المتفق عليها، كان عليّ وجوباً الاختفاء في منزل قريب والصعود إلى غاية السطح باحتياط أمني كبير. في نهاية المطاف، تعلّمت التوجّه والسير الصحيح داخل القصبة بهذه الطريقة : عبر السطوح. زيادة إلى

مُذْكَرات مُجَاهِدَة من جيش التّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

الحضور المكثف للجيش داخل كل المدينة، قرّر روبير لاکوست هجوما عاما وشاملا على المستويين العسكري والسياسي بالقول أنّ « هذه هي الطريقة الوحيدة الكفيلة بالقضاء على الأرضية السياسية والعسكرية للخارجين عن القانون ». هكذا، دقّق « ماسو » آلاف المظليين ورجال الشرطة والمخبرين والجلادين على الأحياء العربية الشعبية وبدأوا التمشيط والاعتقال داخل القصبة.

هكذا، ذات فجر، في حوالي الثالثة صباحا، وكنا ننام في 5 درب غرناطة، منعت دورية عسكرية تسدّ جميع المنافذ أحد أفراد عائلة فطومة مزيان، موظف في شركة للنقل العمومي، من الالتحاق بعمله، فأمرته بالعودة إلى منزله.

أظهر الرجل بطاقته المهنية كسائق حافلة وحاول أنّ يشرح لهم إلزامية الالتحاق بمقر عمله، ولكن أحد المظليين ردّه بفظاظة وقال : « اليوم، لا يمكن لأحد سكان القصبة أن يلتحق بعمله. إنه أمر القيادة ». فعاد الرجل إلى بيته، وبمجرّد أن أغلق الباب خلفه، أيقظ زوجته التي صعدت تخبرنا، جميلة وحسيبة وأنا. وحدنا جميلة وأنا لم نكن محل بحث من طرف الشرطة ولا نملك مخبأ في دار بو حيرد. وكان الإخوة سي مراد ودحمان وغانى والحو وعليّ ينامون في غرفة مجاورة، فذهبت جميلة لإيقاظهم. كان الليل لم ينقض بعد في تلك الليلة الشتوية من جانفي 1957، وعلى الثالثة صباحا، تقرّر فوراً أن ينتقل جميع الإخوة، ومعهم حسيبة، سالكين طريق السطوح، الواحد وراء الثاني، إلى غاية دار بلحفاف حيث يوجد المخبأ وقد سبق استعماله قبل ذلك اليوم. وبعد أن تمّ التأكّد من أنّ العساكر لم يتموقعوا بعد على السطوح والسقوف، منتظرين ربما أن تكون جميع الأزقة والمنافذ محروسة ومغلقة كي لا يكسروا فعل المفاجأة، انتقل جميع الإخوة ومعهم حسيبة إلى دار بلحفاف

حيث كان يتواجد سي محمد . غادرنا الإخوة بقلوب منقبضة . فإذا كانت النجاة بجلودهم مضمونة ، فليس الحال كذلك بالنسبة لمخبر صناعة القنابل . أكيد أن العسكر سيكتشفونه إذا ما صعدوا إلى الشرفة وفتشوا المكان . حينئذ ، ستكون حياة جميع سكان عمارة الخامس من درب غرناطة في خطر محدق ، بما في ذلك الذين يجهلون كل شيء عن نشاطاتنا . فهمنا ، جميلة وأنا ، بسرعة أن الرهان الكبير الواقع على رقابنا هو منع العساكر من الصعود إلى الشرفة حيث يستعمل الإخوة الجانب المغطى لوضع أجهزة صناعتهم ، أما مواد التفجير ، فكانت مخبأة داخل المرحاض الذي بناه كل من عليّ وماثورين ، فكانوا يصلون إليها بإزاحة المرآة الموضوعة فوق حوض الغسل . كان بناء هذا الجزء من المرحاض محكما ولكن الأشغال لم تنتهِ بعد . وهناك تكمن خطورة اكتشاف العساكر لهذا المخبأ . ما العمل كي لا يصعد العساكر إلى السطح ؟ كان ذلك هو مشكلنا الكبير في ذلك الفجر الشتوي . أيقظنا أُخيتي وزوجها ، عمي مصطفى ، وقرّرنا فوراً القيام بعملية غسل الأرضية بالماء . فبدأنا بالغرفة المربعة حيث كان ينام الإخوة . كانت منافض السجائر مليئة ، ورائحة التبغ تلتصق بالأفرشة والأغطية . فمحونا وأخفينا كل أثر لاحتلال الغرفة وأعدنا ترتيبها . وقبل الرابعة صباحا ، كانت جميع الأفرشة والمناديل والمناشف منشورة على حواف جدران الأروقة . وغسلنا بالماء أرضية الغرفة ، وجميع الزوايا ، ومسحنا الأبواب والنوافذ والجدران التي حككناها بالمناشف المبللة بالماء وماء الزهر . ووضعنا مكان الأفرشة مقعدين طويلين مغطيين بقماش مزهر ووسائد من نفس اللون . وعلى الرفوف ، رصفنا كتباً أخذناها من مكتبة عمي مصطفى : فيكتور هيجو ، لامارتين ، وكتّاب آخرون معروفون . حضّرت أُخيتي إناءً يتسع لـلترات عديدة من الماء كي تحضّر قهوة تركية تعم رائحتها كامل الطابق في اللحظة التي ستعطي لها فيها جميلة الإشارة . وتمّ تحضير

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

صواني بفناجين وكؤوس وسكريات ومغارف، والكل على مدى اليد داخل البيفي. كنا في شهر جانفي والجو بارد، وكنا ننتظر طلوع الشمس بفارغ الصبر. صعدنا إلى السطح نترقب الضواحي ونسترق السمع إلى الأصوات والضجيج. كان الصمت مطبقا، ولكننا كنا نعرف أن العدو على بعد أمتار قليلة عنا، في باب جديد، في شارع راندون، أو في شارع غرناطة.

أخيرا أشرقت الشمس في السماء الزرقاء، وأغرقت بنورها غرفة الإخوة وكامل الأروقة. كان الصمت يخيم على البيت برغم أن جميع أهلها يقظون، مما ضاعف من ضجري. وكان الجميع ينتظرهم بترقب ويقظة، ويدعو الله أن « يعميهم » مثلما تقول خالتي باية التي كانت تهمس بدعاء يصل إلى أسماعنا: « الشدّة في الله ! الله يعمي أبصارهم ! ». لقد أعدنا ترتيب كل ما بداخل الغرف، بما في ذلك الغرفة الزرقاء، غرفتنا. كانت مضيافة بألوانها الباهية والمتناسقة. فجأة، سمعنا أصواتا متبوعة برنات أحذية خشنة على البلاط. لقد احتلوا الفناء، توقع عسكريان في الطابق الأول، وفوهات بنادقهما مصوّبة نحو الطابق الأرضي. كنا في الطابق الثاني وكل آذاننا صاغية. لا شيء، سوى صرير أحذيتهم على الرخام. لا يزالون في الطابق الأول. شغلنا، جميلة وأنا، المذياع بصوت مرتفع في موجة تبث الأغاني الكلاسيكية، تركنا الباب منفتحاً قليلاً عمدا لتصل موسيقى الفالس النمساوية، سمفونية الدانوب الأزرق، إلى أسمع العساكر. في المطبخ، كان الماء يغلي، وأختي تنتظر إشارة جميلة بالمغرفة في اليد، كي تفرغ القهوة المطحونة وتحضر المشروب المعطر المخصّص لزوارنا غير المرغوب فيهم، مع أمل إشغالهم مدّة طويلة في الطابق الثاني وإخماد رغبتهم في الصعود إلى السطح. فجأة احتلوا طابقنا، حوالي خمسة عشر مظلئاً مدجّجين بالسلاح، العدد نفسه في كل طابق. كنا ننتظرهم، مستعدّات لاستقبالهم بالقهوة الساخنة وحلويات « المقرّوط »

ونحن نتوّد إليهم لأنه يجب رغما عن كل شيء منعهم من الصعود إلى الأعلى. كانوا شبانا وبنيرة فرنسا الأوروبية، إنهم جنود الخدمة العسكرية ولا شك. كنا نعرف جيّدا نبيرة الأقدام السود؛ فلم نسمعها في وسط ذلك الرهط. صاح أحدهم: « الجوّ رائع هنا! أتسمع! أليس « الدانوب الأزرق »؟ لم أتوقع أبدا أن أسمع هذه الموسيقى في القسبة! ». « ولماذا؟ » سألته وأنا أبتسم بملء شديّ وأنا أقوده إلى غرفة الإخوة حيث تبغني برفقة خمسة أو ستة عساكر آخرين، فيما كان فوج آخر ينظر إلى أمكنة أخرى. سأل صاحب الصوت الأول: « آه! إنها الراديو! وما اسم هذه القناة؟ ». قلت: « راديو اللوكسمبورغ ». دخلوا وبدأوا يطوفون داخل الغرفة، ينظر بعضهم عبر النافذة، ويتصفح الآخرون الكتب التي على الرفوف. وملأت الغرفة رائحة قهوة ساخنة. قال أحد المظليين بصوت فيه اندهاش: « نشم رائحة قهوة لذيذة عندكم! ». ردّت إحداها بتوّد أكثر: « نعم، ولكن حُرمنّا اليوم من الحليب و « الكرواسان » بسببكم! ». ردّ مظليّ آخر: « وماذا نقول نحن حينئذ؟ لم يغمض لنا جفن طوال الليل، والنهار لم يبدأ بعد... ». قلت مجتهدة أن تكون ابتسامي مضيافة وودودة: « طيّب! فلنتقاسم معكم ما عندنا. قهوة سوداء ساخنة، ستساعدكم على الاستيقاظ وتحمل تعب النهار الآتي! ». كانت جميلة في المطبخ، إلى جانب أُخيتي تملأ « البقارج » بالقهوة الساخنة. بدا المظلي الشاب أنه وقع في فخنا، فقال بحماس: « مونكابيتان! مونكابيتان! تقترح علينا هذه الفتيات أن نشرب معهن قهوة ساخنة. إننا مدعوون جميعا! ». انفصل الضابط عن المجموعة وحدّق تجاهنا في نظرة ريب. ولكن العسكري الشاب بنبرته الفرنسية الأصلية أضاف قائلا: « مونكابيتان، لقد فتشنا الغرفة كلها، تعالى انظر، لقد استقبلنا بموسيقى « جوهان شتراوس » في القسبة! لا علاقة لهذا المنزل

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

بالديار الأخرى التي مررنا عليها ! ». تحلّق المظليون الآخرون حول الضابط، فأعطى لهم الضوء الأخضر، ربما أتعبه شغله القذر في تفتيش البيوت وقمع الأهالي، فدعوت الجميع، حوالي 15 نفرا، وهم يتصاحكون ويتصايحون، إلى غرفة أختي. فأجابت جميلة لمزحة انبثقت من مجموعة في الوسط، وتبادلت الضحكة مع مظلي شاب عبّر عن انبهاره لكثرة الكنوز المخفية داخل القصة. فرتبت الفناجين على الطاولة العريضة، بمساعدة أختي التي مدّت لهم صحن حلويات « المقرّوط » في يد، وفي الثانية صحن قطع الحلوى الروسية التي اشتريناها بالأمس للاحتفال بعيد ميلاد « الخو »، وعلى شفتيها ابتسامة بيضاء أنارت عينيها السوداوين. ابتهج المظليون وانطلقوا في التعبير العفوي لاندهاشهم. فقال أحدهم : « ولكننا لم نكن نتصوّر القصة على هذه الصورة الجميلة ! ». سألت جميلة : « كيف تروننا إذا ؟ نساء مترهلات مسجونات في حريمهن ؟ ». ملأت أختي الفناجين، وهي تمرّر صحن « المقرّوط »، تلك الحلويات المعسّلة الرائعة مثلما علّق عليها أحدهم، من مظلي إلى آخر. كان الجميع يضحك ويتكلم. وقف الضابط خلف الطاولة، مقابل الباب، ولم يتردّد في أخذ قسطه من القهوة والحلويات. وكانت جميلة تقابله في الطرف الآخر من الطاولة، داخل غرفة مليئة بالعساكر، حيث كانت الأحاديث تملأ المكان. فجأة، حدّق الضابط في عيون جميلة وقال لها : « أريد أن أعرف من يختفي خلف هذه العيون ؟ ». يقظّة كالبرق، تودّدت جميلة بمكر، وأدارت رأسها، فانزلق شعرها الكثيف والطويل على كتفيها، ومرّرت يدها المفتوحة على شعرها، ابتسمت ابتسامة عريضة مُغرية وقالت : « إنه شعري، مثلما يمكن أن تلاحظه سيّدي الكابيتان ». انفجرت ضحكات وقهقهات ملأت الغرفة، متبوعة بتعليقات مادحة تجاه أختي. في تلك اللحظة، نظرنا، جميلة وأنا، إلى الصوان حيث نجت بعض قطع حلوى عيد ميلاد عشية الأمس من

تدويل المسألة الجزائرية

شراهة العسكريين، ومن بينها قطعة كان الأخ ياسف سعدي قضم منها جزءاً ولم يكملها. تبادلنا النظرات، وفكرنا سوياً في أمر واحد، وبما أنني كنت قريبة من الضابط، الذي كانت أختي تشرع في ملء فنجانه الفارغ الذي حطه توا، فأسرعت إلى تقديم صوان الحلويات له من الجهة التي تحوي ما تبقى من « الخو »، قائلة له : « يجب إنهاء ما تبقى من الحلوى. لك كل الشرف سيدي الكابيتان، إليك هذه القطعة من الحلوى الروسية ». مدّ يده، أخذ القطعة التي أشرتُ إليها إليه، وابتلعها. فامتأنا سروراً ومكراً لأننا أقنعناه بأكل ما تبقى من قائد مجموعتنا المسلحة. حينئذ صاح الضابط : « هيا يا فتيان ! انتهت الراحة ! إلى العمل ! ». خاطبته أختي قائلة : « أنتم في غرفة نومي التي أستخدمها أيضاً كقاعة للأكل »، ثم اتجهت نحو الخزانة التي تحتل جزءاً كبيراً من الحائط وفتحتها. سألت بنوع من السذاجة المتصنعة : « هل يزعجكم حضورنا في أداء خدمتكم ؟ ». عبرنا عن استعدادنا لمساعدتهم في إنهاء عملهم التفتيشي، وواصلنا تغذية الحديث مع العساكر حول القصة وفن العيش بها. لم يعرفوا كيف يتصرفون، لقد شوّشنا برنامجهم بضيفتنا التي لم يكونوا أبداً يتوقعون مثلها في القصة، ميدان عدوهم اللدود. وضع الضابط حداً للفوضى، فأمر بعضهم بالخروج لتفتيش الغرف الأخرى في نفس الطابق. خفقت قلوبنا، لأننا لم نكن نعرف كيف نمنعهم من الصعود إلى السطح حيث يوجد مخبرنا، فقد اكتفينا فقط بتأخيرهم.

كان رواق الطابق الثاني الذي تسكنه عائلة بوحيرد على شكل مربع وينفتح على غرف متعددة. تقع غرفة والدَي جميلة، خالتي باية وديدي عمر، في الجهة الموازية لتلك التي تنفتح على غرفة عمّها، عمّي مصطفى وزوجته أختي. حينما غادرنا غرفة هذه الأخيرة، نرافق المظليين في تفتيشهم، وقعتُ وجهاً لوجه مع ديدي عمر ينظر إليّ بصمت، وهو يقف قرب باب غرفته،

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وذراعاه مشبكتان على صدره. بدا من نظرتة أنه يقول لي : « من سيدفع الثمن اليوم ؟ ». حاصرني القلق وأبعدت بصري وأسرعت إلى الالتحاق بالعسكريين الذين يتواجدون قرب الغرفة الزرقاء. يجب تأخيرهم أقدر وقت ممكن. ألصقت ظهري بباب الغرفة وقلت لهم مبتسمة متودّدة : « إنها غرفة الفتيات، هي مقدّسة وممنوعة على الذكور... ». ضحكوا، ودخل بعضهم في اللعبة، وقال أحدهم وهو يقهقه عاليا : « بعد القهوة الرائعة، أين يمكن للمحارب أن يستريح إلا في غرفة العذارى ؟ ». تدخلت جميلة قائلة : « يجب أداء واجبكم ! »، فأسرعت إلى فتح مصراعي الباب الكبير وألصقتهما مع الجدار ودعت العسكريين إلى الدخول. تقدّم الأولون بخجل ثم توقفوا لتأمل أثاث الغرفة. كانت جميلة تتصرّف كسيّدة الدار. ففتحت الخزانة على مصراعيها حيث كانت ملابسنا مطوية على الرفوف، وانسحبت جانبا، ودعت أولئك الذين توقفوا عند عتبة الباب للتقدّم. ارتفعت بعض التعليقات الماكرة من بعض العساكر الرائحين والغادين بين أركان الغرفة، ولكن دون تفتيش جدّي. بعد ذلك، خرجوا يجزّون أحذيتهم الثقيلة، واتجهوا نحو غرفة خالتي باية حيث كان ابناها عزيزوز ونذير يغطان في النوم. فتحت والددة جميلة الخزانة على مصراعيها وطلبت منهم أن يفتشوا، في حين وقف زوجها في الرواق قرب الدرابزين. ولم نفارقهم خلال طول فترة التفتيش، ونحن نضحك ونتكلم في شتى الموضوعات مع هؤلاء وأولئك. بعد قليل، وقفنا قرب السلالم الصاعدة باتجاه السطح. سأل العساكر إلى أين تؤدي تلك السلالم. ردّت جميلة ببرودة دم : « إلى السطح. هيا نصعد ؟ »، وهي تبتسم وتدعوهم إلى التشمس تحت الشمس الناشئة. سأل الضابط : « ماذا يوجد في السطح ؟ »، وفي الوقت نفسه، ارتفع صوت من الفناء في الأسفل يبدو قلقلًا ومنزعجا من تأخير المجموعة : « هي، أنتم في الأعلى ! ماذا تفعلون ؟

ما يزال أماننا شغل كبير ! ». فردّ الضابط مباشرة : « إننا آتون حضرات ! سننزل بسرعة ! ». قلنا ونحن نظهر خيبة أملنا : « ألا تصعدون إلى السطح ؟ للأسف الشديد ! لدينا منظر رائع على خليج « الدزاير » وجزء من القصبة. ثم إنّ الجوّ جميل ورائع نهار اليوم... ». أمر الضابط رجاله بالنزول فوراً، قائلاً : « هيا أسرعوا ! ». « نحن آسفات »، هكذا كنا نردّد على كل واحد من العساكر الذين كانوا يشكروننا على حفاوة الاستقبال. أسرّ لنا أحدهم : « لم نحظّ باستقبال جيّد في المنازل الأخرى التي زرناها. كان الناس ينظرون إلينا نظرات شزراء، ورفضوا حتى أن نكلّمهم ». حينما غادر البيت آخر مظلّي، انهرنا مفرّغات من كامل طاقتنا. وبعد ضحكات عصبية مجنونة، وعناق الانتصار، أجهشنا، أختي، جميلة وأنا، بالبكاء تحت العين الصامدة الخالتي باية التي كانت، وبصوتها الخفيض، تتمنى للعسكريين كل أشرار الكون. كان ديدي عمر يتابع المشهد المتواصل منذ وصول المظليين. تجنبت نظرتي السامة التي حطّها على ابنته. إلهي، كم كان مهيباً مخيفاً ! مع أنه كان يعرف لماذا تصرّفنا بتلك الطريقة. كانت في رأسي تطن جملة : « تنظر العين إلى قابيل وهي داخل المقبرة ! ». بدت جميلة متجاهلة لأبيها ونظرتي الرهيبة. اختفيت في غرفة الإخوة، وبعد لحظات، التحقت بي أخواتي، بصينية في اليد، تحمل ثلاثة أكواب كبيرة من القهوة بالحليب وصحن من « المقرّوط ».

أصررنا على الاحتفال بهذا الانتصار العظيم على عساكر ماسو. ذلك أننا تمكنا من إنقاذ مَخبَرنا، ومعه كل سكان العمارة، من الطابق الأرضي إلى الطابق الأول، لأنّ الجيش الفرنسي كان سيطبّق، بلا رحمة ولا شفقة، قاعدة المسؤولية الجماعية. كنت متأكّدة بأنني يجب أن أفك شفرة النظرة الثقيلة لديدي عمر ضمن هذه الإشكالية. وبعد أن احتسينا قهوتنا بلذّة مضاعفة، صعدنا إلى السطح لنرى أين وصل التمشيط. ولم نكن نعرف مصير إخوتنا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

في دار بلحفاف . طمأننا أنفسنا بالقول أنه في حالة اكتشاف المخبئ، نكون قد سمعنا طلقات الرصاص، لأنّ الخو وعلي وغانى وسي مُراد كلّهم مسلّحون ولن يستسلموا بسهولة. كانت الضواحي القريبة لدار بوحيرد تغرق في صمت غير معهود. لم نسمع صيحات الأطفال، ولا أصوات البائعين، ولا أصوات عمال النظافة يجوبون المكان بأحمرتهم الحاملة للزباله، وهم يشجعونها بتلك الأصوات المتواصلة : « أَرَزْ ! أَرَزْ ! ». لا شيء، صمت مطبق، من حين لآخر، كانت تصلنا خشخشات راديوهاث فرق الحراسة العسكرية المثبتة عند كل منعطف طريق. كانت القصبة تمسك أنفاسها، منتظرة نهاية التمشيط.

في بداية الظهيرة، انتشر خبر في المدينة العتيقة جعل الصمت أكثر كآبة. كان أحد فدائيينا البواسل وهو ابن القصبة، يتابع تقدّم العساكر الفرنسيين من فوق سطح مخبئه، وعندما اقتحم هؤلاء المنزل الذي كان متواجدا فيه، حاول القفز من مكانه إلى سطح منزل مقابل، فأخطأ تقدير قفزته، وسقط على الأرض. لقد ضجّ الزقاق الضيق بارتطام جسده الذي تمزّق كليّة. وأخرجت وفاته جميع السكان المصدومين من محاصرة حيّهم والانتظار القلق من بداية التمشيط في الساعات الأولى من الفجر. إنه الأخ « عرباجي » المحبوب من الجميع. لم أكن أعرفه. مباشرة، أصدرت جبهة التحرير تعليمات، انتقلت مشافهة من دار إلى دار، ومن سطح إلى سطح، تدعو إلى الهدوء والتعقل والوقفة الخاشعة على روح المتوفى لتجنب حمام دم لسكان القصبة.

عند سقوط الليل، عاد سي مراد وغانى ودحمان وحسيبة إلى مخبئهم في 5 درب غرناطة. فحسب قولهم، باءت عملية تمشيط القصبة بنتيجة سلبية للعدوّ. كانوا جميعا مصدومين بالفقدان المأساوي للأخ عرباجي وتحذّثوا عنه كواحد من المناضلين ذوي قناعات قوية وقدرات كفاحية هائلة، مع شجاعة خارقة للعادة. وخلال كامل اليوم، كان « الخو » يتلقى الأخبار التي تسمح

له بمتابعة تقدّم الجيش الفرنسي داخل القصة. لم أكن أعرف القنوات المستخدمة. هو الوحيد الذي يعرفها.

في وقت متأخر من الليل، التحق بنا ياسف وعليّ وعليلو عند عائلة بوحيرد. وأمام هياتنا الحزينة وصمتنا، بدأ عليّ يهزنا قائلاً: « الله يرحمه ! كان عرباجي صديقي وأخي. لقد اقتسمنا لحظات صعبة حتى قبل بداية الثورة. إننا نخونه إذا بكينا عليه، اعلموا أنه سعيد لأنه حظي بالوفاة التي كان يتمناها. شهيد من أجل الوطن ! إنه لم يمت، إنه يعيش في داخل كل واحد منا. حرّكوا أنفسكم ! يجب على الثورة أن تستمر ! ». وبعد خطابه الجنائزي، التفت نحونا جميلة وأنا، اتخذ هيئة جادة وقبيحة وصاح باتجاهنا: « وأنتنّ يا أخواتي، يبدو أنكن تواطأتن مع العدو ». انذهلنا غير مصدّقات ما نسمعه. وفي الوقت نفسه، فكّرنا أنها مزحة من مزح عليّ التي عودنا عليها، غير أننا وجدناها في غير محلها نظراً للظروف التي نحن فيها. نظر إلينا « الخو » مباشرة في العينين، وبدون ابتسامة، أكّد التهمة التي قذفها عليّ في وجهينا، ولم يرتفع صوت واحد من الإخوة يحتج على هذا الاتهام الخطير. أخذ عليّ الكلمة ثانية وأوضح أنه وبينما كانوا مهندسين في المخبأ الضيق لدار بلحفاف، كنا نقضي أمتع اللحظات برفقة عساكر العدو. وزاد في اتهامنا أن المظليين لن يتردّدوا في سرد الاستقبال الجيد الذي حظوا به في القصة ومن قبل فتيات جميلات، وهم ساخطون ضد قائدهم الذي دفعهم إلى مغادرة المكان دون أن يترك لهم فرصة تحديد موعد معهن. وأنهى كلامه بأن الناس في كامل القصة استقبلوهم بعداوة واضحة، ولم يتبادلوا معهم ولو كلمة واحدة. كدت أنفجر غضباً، فأزحت جانباً خجلي وتحفظي واحترامي للإخوة، لأنفجر في وجوههم وأعبر عن مكنون نفسي. فعبرت عن تمرّدي ضد هذه الشتيمة المهينة لكرامتي وكرامة أختي جميلة، وهذا الظلم العصي

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطنيّ منطقة الجزائر المستقلّة

الاحتمال في حقنا والآتي من إخوان لنا. فشرحت صارخة أنه من واجبهم أن يشكرونا ويعترفوا بما قمنا به لإنقاذ مخبرنا وعمارتنا والعمارات المجاورة. وفي لحظة خطابي الغاضب، انفجر عليّ بالضحك، متبوعا بالآخرين. فأضحى من الواضح حينئذٍ أنّ عليّ، ذلك المناضل العادل، أراد بتلك المزحة الرديئة أن يثير أعصابنا لا غير. ولكنني أعترف أنني لم أستسغ تلك المزحة ولا لحظتها، فقلت لهم ذلك بفضاظة. بالطبع، لقد دُعِمت تلك الحادثة أُخوتنا أكثر وامتّنت أواصرها.

الفصل السابع

إضراب الثمانية أيام

• تحضير إضراب الثمانية أيام

شيئاً فشيئاً، تحدّدت معالم الإضراب العام الذي كانت الإشاعة تجتّره منذ ديسمبر 1956. هكذا، وبعد أيام قليلة من ذلك التمشيط الفظ للثامن جانفي 1957، سمح لنا اجتماع بين « الخو » والإخوة بالتعرف على التعليمات التي بعثها المسؤولون الكبار للجنة التنسيق والتنفيذ. فشرحت لنا السياق الذي سيقام فيه الإضراب، والأهداف السياسية لهذه الحركة السلمية المقرّرة والتي سيتولى تنظيمها مناضلو جبهة وجيش التحرير. سيُظهر هذا الإضراب العام للعالم الإرادة الجماعية لتوق الشعب الجزائري إلى الحرية والاستقلال، وانضباطه التام خلف ممثله الشرعي والوحيد، جبهة التحرير الوطني. وسيسمَح نجاحه بنسف مقولة السلطة الفرنسية الزاعمة بأنّ الجزائر « قطعة من الإقليم الفرنسي »، وأنّ الانتفاضة المسلّحة منذ 01 نوفمبر 1954 ما هي إلا « مشكل داخلي للنظام العام »، وأنّ مكافحي جبهة وجيش التحرير ليسوا إلا « حفنة من الخارجين عن القانون منقطعين عن الجزائريين ». وأخيراً، تشرح التعليمات الصيغ العملية لتنظيم أعمالنا، وضرورة إقامة مداومات تتكفل بها لجان الإضراب على كافة المستويات. وقد نصحت العائلات بتوفير المؤن

مُذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

اللازمة لأسبوع الإضراب وأنّ جبهة التحرير قد تتولى تموين العائلات المعوزة. يتطلب تطبيق جميع هذه التعليمات معرفة جيّدة بجغرافية المدينة والأحياء ومستوى عالٍ من قدرة التنظيم تكون في مستوى الأهداف المسطرة. وقد بادّر « الخو » بفكرة جيّدة تمثلت في الاستعانة بالنساء الفنانات للقيام بعملية التحسيس والتوعية وإحصاء العائلات المعوزة وتنظيمها. كان اقتراحا رائعا لأن النساء الفنانات كنّ يحظّين بشعبية محبوبة، وبعضهن باحترام وتبجيل كبيرين، وقد تنفعنا شهرتهن كثيرا. ومن جهة أخرى، وباعتبارهن نساء، يمكنهن الدخول إلى البيوت التي تسيّرهن النساء الماكثات في البيت في أغلب الحالات، ولا يمكن للرجال القيام بمثل هذا العمل نظرا للتقاليد الصارمة التي تنظم حياة الجزائريين عموما.

وينبغي التأكيد على أنّ هذه الفكرة النيرة لم تكن ممكنة لولا عمل الفنان والمناضل « حبيب رضا » الذي دأب منذ إعلان ثورة التحرير على تنظيم الفنانين وتأطيرهم السياسي. هكذا، أشرف الخو، برفقة عليّ وجميلة وأنا، على تنظيم اجتماع مع حوالي خمس عشرة فنانة، داخل المنزل الفخم لـ « الباشا آغا بوطالب »، الواقع في درب « كليبر ». وقد لاحظت العناية الخاصة التي كانت جميلة، والإخوة وحتى الفنانات الأخريات اللائي كانت أغلبهن ملحفات، توليها لبعض تلك الفنانات الحاضرات. وقد حضر إلى ذلك الاجتماع أكبر أسماء الفن المسرحي والغنائي : كلثوم، فريدة، فضيلة الدزيرية، أختها فوسم، عويشات، وهيبة... إلخ.

افتتح « الخو » الاجتماع بكلمة شرح فيها أهداف إضراب الثمانية أيام. ثمّ كلّف النساء الحاضرات بمهمة شرح أهداف حركتنا السلمية للنساء اللائي سيذهبن للقاء بهن في منازلهن. وتطرق بعد ذلك إلى العائلات المعوزة التي ليس لها إماكنيات تخزين المواد الغذائية الضرورية لمدة أسبوع كامل، وضرورة

إضراب الثمانية أيام

إحصائهن لتتكفل جبهة التحرير بمساعدتهن . وأخيرا، اقترح تقسيم القصة إلى أحياء صغيرة وتشكيل لجان وفرق لتغطية جميع الأزقة، وجميع المنازل، وجميع العائلات . وقد عيّن في الحين مسؤولات الفرق التي ستتّشكل، موضحا للفنانات أنه بإمكانهن الاستعانة بنساء أخريات يكنّ محل ثقة لديهن . وقد ألحّ « الخو » على ضرورة عمل التوعية والشرح الذي ستقوم به اللجان المكلفة بزيارة جميع دور المدينة العتيقة، وفي الوقت نفسه، نصح بعدم الضغط على العائلات المتردّدة أو القيام بتهديدها، بل العمل على محاولة فهم سلوكهن الرافض أو المشكّك، وتسجيل ذلك بدقة ونزاهة ونقله إلى مسؤولي الفرق . وسيعمل هؤلاء عند انتهاء المهمة على نقلها إلى مسؤولي اللجان في تقرير شامل للنشاط والمرفق بقائمة وعنوان العائلات المعوزة وعدد أفرادها وطبيعة شغل ربّ الأسرة . وأنهى كلامه بالقول أنّ كل واحدة من المسؤولات المعيّنات ستُخبّر في الوقت المناسب بتاريخ ومكان الاجتماع الذي ستُقدّم فيه التقارير، وألحّ على ضرورة احترام الآجال المحدّدة . كان اجتماعا مهما وفعّالا وبفائدة كبيرة . وكذلك كان عمل التوعية والشرح والإحصاء والتأطير الذي أنجزته الفرق التي طافت بجميع أزقة القصة، وكذا الفرق الأخرى في مختلف الأحياء الشعبية لمدينة الجزائر وضواحيها . وقد انشغلنا مع الإخوة بتأطير العمل التحضيري للإضراب والتنسيق مع المنظمات النقابية والمهنية . وقد وزّعت المناشير التي أعدتها لجنة التنسيق والتنفيذ على أوسع نطاق ممكن، والتي تدعو إلى إضراب عام يدوم ثمانية أيام ابتداءً من الاثنين 28 جانفي 1957 على الساعة الصفر .

كان المنشور الذي وقّعته جبهة التحرير الوطني واضحا، تعليميا، مختصرا، وموجها إلى الشعب الجزائري، وينتهي بـ :

« من أجل وَضْع حدٍّ للنظام الكولونيالي ؛

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

- من أجل تحرير الوطن الجزائري ؛
- من أجل إقامة جمهورية جزائرية ديمقراطية واجتماعية ؛
- إلى الأمام من أجل إضراب عام لثمانية أيام ابتداءً من 28 جانفي 1957 على الساعة الصفر ! تحيا الجزائر حرة ومستقلة ! » .

• ماسو يحضّر الإضراب على طريقته

وفيما كان مناضلو جبهة وجيش التحرير يحضّرون، بعزم وانسجام تام مع شعبنا، حركتنا السلمية ذات البعد الكبير ؛ عكف السفاح « ماسو » برفقة آلاف المظليين ورجال الشرطة وجلاّديه وخبرائه في الحرب البسيكولوجية على التحضير الحثيث لإقامة جهاز مرعب للقمع، وكذا عملية دعاية مشينة بغرض تكسير إضرابنا العام والقضاء على منظمّتنا . فمنذ 7 جانفي 1957، أصبح ماسو يملك بين يديه كل الصلاحيات لاستخدام جميع الوسائل كي يكسّر ويُخضع ويرهب ويعذّب ويقتل ويطهرّ . لهذا قرّر بأنّ الإضراب حركة تمرّدية، كي يبرّر جميع الأفعال الجائرة التي سيقوم بها لاحقا . وكانت صفة « حركة تمرّدية » التي اختارها ماسو حيلته الإجرامية لتبرير الحقد والعنف اللذين سيواجه بهما هذا الإضراب . لقد تخلّص كلية من القوانين والضوابط الإنسانية ليحوّل أحياء الجزائريين إلى مناطق اللأعدل والألّاحق، مناطق تباح فيها جميع الاختراقات والاعتصابات الممكنة والمتخيلة . فقد حاصر جميع أحياء الجزائريين بأسنجة من الأسلاك الشائكة والحواجز العسكرية لغلق جميع المنافذ، وبالأخص حول القصبة والأحياء الشعبية الأخرى إلى حدّ الاختناق وشل كل حركة تجارية أو مهنية . كان المظليون يقومون بالتمشيط والتفتيش والمداهمات في الليل وفي الفجر وفي وسط النهار، وهم يصرخون ويشتمون ويهينون ويُسقطون أرضا النساء والأطفال والرجال، يهدّون الأبواب بضربات الأقدام وأخمص البنادق،

إضراب الثمانية أيام

والأثاث والأواني المنزلية، ويسرقون الحلي والنقود. وقد اعتقلوا آلاف الأبرياء الذين تجهل عائلاتهم مقصدهم وكان ذنبهم الوحيد أنهم من الأهالي.

ابتداءً من 07 جانفي 1957، أضحي كل فرد من الأهالي مذنباً في عيون ماسو وأرمادته من رجال الجيش والشرطة، وبالتالي يحق لهم أن يخضعوهم إلى « السؤال ». وبهذه الطريقة، فإن جنرال الإجرام والرعب عمم وسن التعذيب، السلاح الحربي المرعب الذي لم ينج منه أي جزائري تم توقيفه، وخاصة بإقليم منطقة « الدزاير » المستقلة. لقد حول ماسو عاصمتنا المسكينة إلى عاصمة عالمية للتعذيب والمعاملات اللاإنسانية. وقد دفعت « الدزاير » عربونا رهيباً يتشكل من آلاف المفقودين ومئات المقتولين خارج أية محاكمة، ودون حساب آلاف المسجونين والعشرات الذين تمّ فيهم تنفيذ الحكم بالإعدام عن طريق المقصلة. وخلال شهر جانفي وطوال سنة 1957 وما تلاها، كان ماسو وجلاّدوه من المظليين ورجال الشرطة يعذبون داخل محافظات الشرطة ومراكز الاعتقال ومكاتب الولايات والدور المهيأة لهذه العملية القذرة، ومزارع الكولون، إلخ. ولكن مصانع التعذيب اتخذت أشكالاً « صناعية »، بحيث وصل التعذيب إلى حدّ منازل الجزائريين، مثلما حدث في ليلة الثاني إلى الثالث من فيفري 1957 في 5 درب غرناطة بالقصبة. وكما لو أنّ هذا النظام القمعي لم يكن كافياً، فأعدّ ماسو مناشير دفعها بالآلاف على مدينة الجزائر، وقامت وسائل الإعلام الكولونيالية من صحف وإذاعات بتوجيه نداء مع التهديد إلى الجزائريين بعدم القيام بالإضراب. وقد أسندت المهمة البوليسية المنحطة إلى أفراد الجيش كما لم يبق بها أي جيش في العالم. ومع ذلك، لم يمنع كل هذا الجهاز القمعي، والحضور المكثف للدوريات في كل مكان، مكافحينا ومكافحاتنا من تنظيم عمليات عسكرية، سواء تلك الموجهة ضد الدوريات العسكرية، يومي 23 و 26 جانفي، أو ضد المدينة الأوربية، يوم 24 جانفي. بالفعل، لقد قامت

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الأخوات جميلة بوعزة وفضيلة عطية وجميلة عمران (دانيال مين) بوضع قنابل فجّرت كلّاً من « لوكوك أردي » و « لوتوماتيك » و « الكافيرتريا »، في قلب المدينة الأوروبية. وكانت هذه العمليات أجوبة على القمع الشرس الذي سلّطه ماسو ورجاله على أحيائنا. إذا لم يتمكن هذا الجنرال السفاح من منع ارتكاب اعتداءاتنا، فهو في المقابل لم يقيم بأي جهد للحيلولة دون وقوع الاعتداء بالبازوكا ضد مكاتب الجنرال صالان في مقر الناحية العسكرية العاشرة والتي قام بها المتطرفون الأوروبيون. وقد حاول هؤلاء المتشبهون بالجزائر الفرنسية وبنظامها العنصري، وفي سلوك خسيس جبان، أن ينسبوا هذا الهجوم إلى جبهة التحرير الوطني، مستغلّين جوّ الضغط الأقصى الذي كان يسود مدينة « الدزاير » لإسقاط حكومة غي مولي. هكذا، تكفّلت منظمات أوروبية متطرفة في الجزائر بحل معضلة الحكم في باريس، لأنّ أعضاءها كانوا يحظون بسياسة اللاعقاب الكلي لجرائمهم، ذلك أنها تنسب في الغالب إلى أفراد أبرياء من الأهالي الذين يسجنون ويعذبون ويقتلون ظلماً وعدواناً. هكذا إذا، كانت مدينة الجزائر في 27 جانفي 1957، عشية الإضراب العام، على شفا حفرة من الانفجار، خاضعة لإرادتين غير قابلتين للتصالح : إرادتنا المتمثلة في تحويلها إلى مدينة ميتة خالية من أية حركة، بما في ذلك التسوّق العادي ك شراء الخبر والحليب اليوميين، وإرادة ماسو المتمثلة في كسر إضرابنا بكل الوسائل المتاحة لديه. وأخيراً وصل يوم 28 جانفي 1957 .

• وبيدأ الإضراب : « الدزاير » مدينة ميتة

كلّفنا « الخو »، جميلة وأنا، بمتابعة جريان الإضراب وعلاقته بسكان القصبة، وبالأخص لدى النساء والأطفال. ابتداءً من اليوم الأول، سنشهد من أعالي السطوح على حادثة بائسة لم يقيم بها أي جيش في العالم : لقد

إضراب الثمانية أيام

تحوّل آلاف المظليين إلى مُكسّرين تافهين وعنيفين للإضراب . بالفعل، فابتداءً من الصباح، اتّخذت مجموعة من الشاحنات أماكنها عبر شوارع مارينغو ورائدون وباب جديد في أعالي القصبة، قبل أن ينزل منها آلاف المظليين ويتوزعون عبر أزقة المدينة العتيقة . اقتحم العساكر بالبنادق الرشاشة في اليد المدينة القديمة . احتلوا جميع الأزقة وقفزوا من سطح إلى آخر وهم يطلقون الرصاص . وفيما كانت طائرات الهيليكوبتر الحاملة للعساكر تحلق فوق العمارات على بعد أمتار قليلة فقط محدثة دويا مربعا بمراوحها، طفق العسكريون في الأرض يخبطون على الأبواب بعنف ويصرخون، وهم يشهرون فوهات بنادقهم . وبمجرّد انفتاح الأبواب، يقتحمون المنازل بلا أدنى اعتبار لأهلها، وهم يصرخون ويشتمون ويأمرون الرجال بالخروج أيديهم فوق رؤوسهم والوقوف في صفوف مترابطة قرب الباب الخارجي . وقد خصّوا الأطفال نفس المعاملة، وحينما تعارضهم امرأة باكية، يسقطونها أرضا بلا شفقة، ويشتمونها ويرفسونها بأقدامهم . فتمّ اقتياد الرجال، وبعدهم الأطفال، كقطعان غنم، أيديهم فوق رؤوسهم، تحت تهديد بنادق الرشاش والطائرات المروحية المحلقة في هدير صام، باتجاه مكان توقف الشاحنات . وهناك يدفعون بهم إلى داخلها، فيقودون الرجال إلى الورشات المتوقفة أو إلى وجهات مجهولة والأطفال إلى المدارس . ومع ذلك، فبمجرّد أن تختفي الشاحنات وينسحب المظليون يتخذ الرجال والأطفال طريق العودة عبر مسالك ملتوية . وطبعاً، لن يعود المفقودون . وكنا ككل الأهالي الذين استجابوا للنداء إلى الإضراب، بمنّ فيهم التجار، نتابع من فوق السطوح حدوث مشهد آخر مخجل لدولة « الحقوق والحريات » . فكان المظليون يقومون بتكسير الستائر الحديدية للمحلات التجارية بأدوات ميكانيكية، ما أحدث دويا رهيباً، وذلك تحت الأنظار الراحية للأوروبيين وتصفيقات هؤلاء « المدنيين الأبرياء »، الذين جاءوا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

يشاهدون العمل الدنيء والمشين الذي يقوم به العساكر المدججون بالأسلحة ضد سكان عزّل، غير مسلحين وتجارهم. لم يتوقف المظليون عند هذا الحدّ، وإنما نظموا نهب وسرقة محتوى المحلات المغتصبة. ما أقبح وأشرس وأوحش وألعن هؤلاء الأوروبيين الذين جاءوا عندنا... تمديننا !!! كنا، جميلة وأنا، نتابع تلك المشاهد المهينة، المخجلة، ينتابنا إحساس بالتمرد والهلع والتقرّز من هذه البهيمية المتحركة. من حسن حظنا أن أطفال القصبية، الوطنيين مثلنا، ولكنهم أكثر اختراعا ومكرا، أوجدوا طريقة ليقاوموا بها جيش ماسو ويسخرون منهم، ابتداءً من اليوم الثاني. فألفوا أغاني وأناشيد في مجد جبهة وجيش التحرير وأبطالهما، مثل عليّ لابوانت وبوكارو (أوعمران). كما أنهم استقدموا كلابا لا نعلم من أين وأطلقوا عليها أسماء « غي مولي وروبير لاکوست وصالان وماسو »، إلخ. حينما يأتي المظليون صباحا لمرافقتهم عنوة إلى المدارس، يسبقونهم، ماسكين تلك الحيوانات، وهم ينادونهم بأسمائهم الجديدة، ويرددون الأغاني والأناشيد الوطنية بملء أصواتهم والتي لم يفهم العساكر منها شيئا. وبرغم الجهاز القمعي الشرس والمهيب الذي أعده ماسو، كان الإضراب ناجحا بكل المقاييس، واعترفت الجرائد بأن مدينة الجزائر كانت خالية على عروشها، وسماها بعضهم بـ « المدينة الشبح » والبعض الآخر بـ « المدينة الميتة ». فكانت الأسواق الفرعية فارغة والسوق المركزي أيضا كان فارغا هو الآخر لأنّ معظم تجار الجملة القائمين بداخله، وأغلبهم من « الجواجلة » (نسبة إلى مدينة جيغل)، قد استجابوا لنداء الإضراب. وعرفنا فيما بعد، من خلال التقارير التي تلقاها « الخو »، أن « ماسو » ذهب إلى حدّ إرسال المظليين إلى المناطق الريفية المجاورة لقطف الخضر وتووين الأسواق للأوروبيين. كانت الورشات متوقفة وكذا وسائل النقل العمومية، وحتى المقاهي التي يملكها جزائريون، وبرغم إعادة فتحها بالقوة، إلا أنها بقيت فارغة

إضراب الثمانية أيام

لا يرتادها أحد. ولم تغرّ المناشير التي دفقتها طائرات ماسو المروحية فوق العاصمة شيئا. ولا حتى سيارات « الجيب » التي جابت الأحياء وعليها خبراء في الحرب النفسية والذين كانوا ينادون الأهالي، عبر مكبرات الصوت، بعدم الانسياق وراء الإضراب، وتهديددهم بالردع. كانت « الدزاير » مدينة مَيّنة، صامة آذانها لنداءات ماسو وترسانته المتوحشة.

ومع ذلك، في اليوم الرابع من الإضراب، ومن فوق السطوح حيث كنا في ترقب مستمر، وفي حوالي الحادية عشر صباحا، لاحظنا رجلين أو ثلاثة يتسللون خلسة عبر الأزقة وفي اليد « قزديرة » (إناء الحليب). فهمنا بسرعة أنّهم من أرباب الأسر الذين يحاولون أن يتدبروا، في خجل وسرية، قليلا من الحليب لأولادهم. أمر معقول وشرعي، ولكنه خطير لمستقبل الإضراب. تبادلنا النظرات، وقررنا التصرف في الحين بالتوجه إلى النساء. فإذا كان الآباء يخرجون للبحث عن حليب للأطفال، فيكون ذلك بالضرورة تحت ضغط الأمهات.

• تجمعات من سطح إلى سطح

في حوالي منتصف النهار، قرّرنا تخطّي الحائط الصغير الذي يفصلنا عن السطح المجاور. فوجدنا أنفسنا فوق منزل آخر، فعكفت جميلة تنادي على أهلها بصوتها الخشن: « يا موالين الدار، صباح الخير عليكم ! ». وفي نفس الوقت، كنا نطل على الفناء الأسفل كي ترانا النساء من تحت. فسبق الأطفال إلى اكتساح السطح متبوعين بالنساء من كل الأعمار، فارتجلنا تجمعا مباشرة: « ماذا يمكن أن يمثّل أسبوع من الحرمان في حياة البشر، مهما كانت الآلام الناتجة عنه، مقابل التضحيات الجسام التي قدّمتها الأجيال التي سبقتنا كي تحافظ على استمرار حياة أمتنا، وإحياء ثقافتنا، وازدهار ديننا ؟ ماذا يمكن

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أن يمثله أسبوع من الحرمان مقابل التضحيات بالنفس والنفيس قدّمها الملايين من الجزائريين منذ احتلال فرنسا لبلدنا، مقابل التضحيات الجسام التي قدّمها شعبنا الخاضع للقمع الوحشي منذ اندلاع ثورة التحرير في 01 نوفمبر 1954 ؟ ماذا يمكن أن يمثله أسبوع من الحرمان مقابل الموت اليومي لآلاف من أبنائنا وإخوتنا وآبائنا ؟ . « وذكرنا الحاضرين من النساء والأطفال بما اقترفه الاستعمار الفرنسي وجيشه الجائر في حق إخواننا وأخواتنا، في أهلنا، في مناطق جرجرة وجبال البليدة والأوراس والونشريس... ، في كل مكان عبر البلد دون أن ينجح في إخضاعنا. وكنا ننهي كل ذكر لنا لمساوئ وجرائم الجيش الفرنسي بأسئلة : « ماذا يمثل أسبوع من المقاومة السلمية بالقبول أن نُحرّم من الحليب أو من أية مادة غذائية أخرى ؟ » .

انبهرت وأنا أتابع بعناية قصوى خطاب جميلة. اكتشفتُ في ذلك اليوم أنها تملك قدرة خطابية خارقة للعادة، وتستعين كثيرا بأمثلة حيّة من كفاح رسولنا الكريم، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ضد الكفار. أحبت خاصة الصورة التي استحضرتها جميلة حينما اضطر الرسول الكريم إلى الهجرة باتجاه المدينة لجأ إلى غار ثور هروبا من مطاردة المشركين له، فنسج العنكبوت شبكة جديدة عند مدخل الغار واختارته حمامة مكانا لها لتلد بيضها، فبدا للكفار أن الغار غير مأهول، فانصرفوا عنه، وبقي الرسول محمد يتضور جوعا، ما أدى به إلى وضع حجر على بطنه ليساعده على تحمل وطأته. وكانت جميلة تشرى أقوالها بالأمثال الشعبية التي تبين أهمية الصبر والمقاومة عند شعبنا، وخذلان وجبن أولئك الذين ينساقون خلف رغباتهم وأهوائهم، مثل : « على كَرَشو يَخلي عَرَشو ! » . وكانت النساء يوافقن على كلامها بإطلاق زغاريد مدوية، أما كبيرات السن فكنّ يبالغن في الدعاء لنا ولثورتنا وللمجاهدين بالنصر والفلاح، ويلعنون العدو ويطلبون من الله أن ينزل عليه جميع أشرار الكون ويدخل الكفار نار جهنم. ولكن تجمعنا لفت انتباه أفراد دوريات من المظليين

إضراب الثمانية أيام

كانوا على سطح غير بعيد وبدأوا يقفزون للوصول إلينا. وفي ردّ فعل فوري، بدأت النساء، يسبقهن الأطفال، يتوجهن نحو السطوح الشاغرة الأكثر بعدا وهن يواصلن تجمعهن. فاكْتَسَحْنَ جميع السطوح الفارغة من حضور العدو وهنّ يطلقن الزغاريد العالية التي تسرّبت إلى جميع بيوت القسبة. وكنا، جميلة وأنا، نقفز من سطح إلى سطح، بمساعدة وتوجيه كثير من الأطفال اليقظين، لنشرح مرة ومرتين أهمية إضرابنا وفائدته للقضية الجزائرية وضرورة الالتفاف والتضامن مع جبهة التحرير الوطني، وفاءً لشعبنا وأرضنا ووطننا ورسولنا. ولنشرح أن اتحادنا وتضامننا يشكّلان ضرورة مقدّسة. ولنشرح أنّه يجب علينا أن نظهر للعالم أننا لسنا فرنسيين، وبأننا نريد حريتنا واستقلال بلادنا عن الاحتلال الفرنسي.

وفيما كنا نعدّد تجمعاتنا المرتجلة، تكوّنت تلقائيا مجموعات لمراقبة تحرك المظليين وخلق حالة من الفوضى كي تتم حمايتنا. فكلّما اقترب العساكر من مكان تواجدنا إلا وأُخبرنا فورا ووُجِّهنا نحو سطح آخر. فاستشاط المظليون غَضبا وهم يُحاطون بسطوح غاصة بالأطفال والنساء اللائي يطلقن الزغاريد، دون فهم ما يحدث ولا ما يُقال. فعشنا، جميلة وأنا، ظهيرة مبتهجة، بأحاسيس فريدة من نوعها، تحمينا أخواتنا وأمهاتنا، بأيادي عارية ولكن القلب قوي بتضامن فعال، فكنّ يستمعن إلينا ويشجّعن مبادرتنا وأقوالنا ويرشدن خطواتنا، فكانت أجسادهنّ تشكّل جدارا وحاجزا مانعا بيننا وبين العساكر الذين يطاردوننا. بفضلهنّ، لم يكن مطاردونا يعرفون في أي سطح نتواجد ولا يعرفون كم من فرق تمّ تجنيدها كي نواجه الدعاية المغرضة التي تقوم بها مصالح حربهم السيכולوجية.

ومن بين الذكريات اللامعة التي أحتفظ بها من حياتي بالقسبة، تبقى هذه الظهيرة الرائعة بين أخواتي وأمهاتي من أجمل اللحظات وأسعدها ومنقوشة

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

بحروف لاهبة في قلبي. إلى اليوم، يحدث لي أن أتذكر ذلك التضامن الدافئ وذلك التعايش التام بين النساء وعيونهن المحمومة اللامعة التي تعبّر في الآن نفسه عن الاندهاش والأخوة والتواطؤ والإيمان بقضيتنا وبـ « الجبهة » الأسطورية التي تعرف كل شيء، وترى كل شيء، وتوجد في كل مكان، وتستعين بهنّ كي يفسلن خطة العدو. إلى اليوم، حينما يحدث لي أن أتذكر تلك اللحظات الوحشية، أشعر باسترجاع قوّتي. إنها ظهيرة 31 جانفي 1957. بعد يومين، أي في 2 فيفري 1957، في اليوم السادس من الإضراب، ستعيش دارنا ومخبؤنا في 5 درب غرناطة يوما مضطربا، يتخلله الذهاب والإياب المتواصلان لعليلو وعمر الصغير وكذا لرجال مجهولين.

شيئا فشيئا، وبمرور ساعات النهار، خلق في نفسي ذلك الجوّ المحموم شعورا مبهما بالضجر، يضاف إلى تعب تلك المداومات التي أنشأها « الخو » منذ التفتيش الملعون للثامن جانفي : فكنا كل ليلة، ابتداءً من الحادية عشر، نقيم الحراسة في السطح، يؤديها شخصان طوال ثلاث ساعات. هكذا، نستطيع تحديد تحرّك المظليين عبر الشوارع وأزقة القصبة، بفضل احتكاك قماش بذلهم الخشنة، ووقع أحذيتهم العسكرية على البلاط. فبرغم احتياطاتهم لمفاجأة الناس النائمين، فكانت تلك الأصوات تتضاعف في صمت الليل المطبق الذي يسود الحي بحكم حظر التجوّل المفروض علينا. وكان « الخو » وعليّ يعرفان بالتدقيق المكان الذي تصل إليه أقدام المظليين ويتعرفون على المنزل الذي سيتعرّض لخطرستهم.

في ذلك اليوم من الثاني فيفري، وخلافا لعاداتهما، وصل « الخو » وعليّ في بداية الظهر إلى 5 درب غرناطة. بالتأكيد، كانت الوضعية مثيرة للقلق. طلبت جميلة من سكان الطابق الأول الدخول إلى منازلهم وعدم الخروج منها إلا بإشارتها. وخصّصت الظهيرة لتفريغ مخبر صناعة القنابل. فتمّ وضع

إضراب الثمانية أيام

الأجهزة والمواد المتفجرة في ورق مزيت ومشدود في أوراق بلاستيكية. قام عليلو وغاني وسي مراد بإنزال العلب والطرود وتم إخفاؤها داخل « الجُب » وهو مخزن لمياه المطر. ولاحظتُ، أثناء العشاء الذي تناولناه معاً، أن كل واحد من الإخوة كان ساكتاً، تستحوذ عليه همومه الخاصة. وكان الدليل القاطع على خطورة الوضع، التزام عليّ لابوات السكوت، هو الذي عودنا على المزاح حتى في الأوقات الكئيبة. وتجرات بسؤال خجول : « هل سي محمد على أحسن حال ؟ ». فردّ « الخو » بجواب مختصر ووجه مغلق : « الحمد لله »، هو المتعود على استهلال أجوبته بالابتسامة وإطالة جملة بهدف طمأنة محدّثه. مرّت الأمسية حزينة. في حدود الحادية عشر، صعد المعينان للحراسة إلى السطح والتحق كل واحد منا بسريره.

• من 2 إلى 3 فيفري 1957، ليلة رهيبة في دار بو حيرد

في حوالي الساعة الثانية صباحاً، اهتزّ باب غرفتنا، إنه صوت أحد الإخوة الخائق وهو ينادي : « يا بنات، يا بنات، استيقظن ! ». قفزت إحدانا من السرير وفتحت الباب. أضحى الصوت يستعجلنا، فوصلني وأنا لا أزال ممدّدة في سريري : « يجب على حسبية أن تلتحق فوراً بالغرفة المجاورة. عن طريق السقف. المنزل محاصر. بسرعة، بسرعة. حذار، لا تشعلوا النور ! ».

أسرعنا برفقة حسبية إلى الغرفة التي تنام فيها عادة فطومة مزيان وأمّها. كان « الخو » وعليّ وغاني وطالب واقفين، الأسلحة في اليد، ينتظرون أن ينتهي سي مراد من تحرير فتحة المخبأ المتوارية خلف صينية نحاسية دائرية كبيرة تحت السرير الضخم ذي القبة المصنوعة من الحديد المطروق. وكانت فطومة وأمّها خالتي مألحة جالستين، كل واحدة على فراشية مبطنّة، تنظران إلى الإخوة. انحنى سي مراد، أضاء بمصباح كهربائي المخبأ الغارق في كتلة

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

سوداء، وانزلق بداخله. فدخل وراءه، تباعا، حسيبة، غاني، عليّ، وأخيرا « الخو ». كانت حسيبة والإخوة كلهم محل بحث لدى الشرطة. فتزاحموا بعضهم فوق بعض في تلك الغرفة الضيّقة المظلمة والتي أعدّت في الطابق الأول داخل غرفة فطّومة وخالتي مالحة. وهناك، سيمكثون لساعات طويلة، ربما أطول ليلة في حياتهم، بل وأقساها. تلك الليلة التي كوّنّا بالجمرة الحارقة والتي ستدمغ أوجاع ذاكرتنا إلى الأبد.

وبمجرّد اختباء حسيبة والإخوة في ذلك الغار، دحرجنا الصينية الدائرية النحاسية الكبيرة وألصقناها مقابل فتحتة الضيقة. ثم دفعنا السرير الكبير ذا القبة الحديدية المطرّقة ضد الصينية، وكل واحد منا يردّد في قرارة نفسه : « الله يستر ! الشدّة في الله ! ». وكنا بعيدين جدا عن تصوّر الليلة المرعبة التي تنتظرنا جميعا : الأطفال والنساء والرجال. التحقنا، جميلة وأنا، بغرفتنا، وتركنا فطّومة وخالتي مالحة، كل واحدة منكمشة على فراشيتها. بقينا نترقّب في صمت مطبق، فتواصل إلى سمعنا وقع خطوات المظليين الذين خفّفوا من وطأتها على البلاط عمدا كي يفاجئونا ويضاعفوا إحساسنا بالخوف. فاحتلوا السطح، ولكننا تمينا أن لا يفتَحُوا الأروقة بفضاظتهم المعهودة.

لم يَدْم الانتظار طويلا، لتتعالى الضربات والخطبات الفظة بأخمص الرشاشات الحديدية على باب الدخول الثقيل. ولم يسقط الباب برغم قوة الضربات. بادر أحد ساكني الطابق الأرضي إلى فتح الباب. فتمّ دفعه بفضاظة وسقط على الأرض. في بضعة ثوانٍ، احتل المظليون جميع الطوابق. فكسّروا جميع الأبواب بالركلات وضربات البنادق، وأحدثوا هلعا عصي الوصف. كانوا يشتمون ويصرخون عبر مكبرات الصوت « الجميع خارج الغرف ! انزلوا جميعا إلى الفناء ! فيسّع ! بسرعة ! ». قالت جميلة بهدوء : « جاء دورنا ! ». كنا نعرف أنّه ابتداءً من الأسبوع الثاني من جانفي، كانت أحياء

إضراب الثمانية أيام

القصبة وبلكور وكلو صالومبي وبوزريعة والحراش، وكامل الأحياء العربية الأخرى مُحاصرةً ومُغلقةً بالأسلاك الشائكة والحواجز العسكرية للمراقبة المستمرة، وتخضع ليلاً ونهاراً للتمشيط والمداهمات المفاجئة والتفتيش المهين. كنا نعرف أنّ الجيش الاستعماري يدهم المنازل بغتة ويتمّ اعتقال الرجال وقيادتهم إلى الثكنات والمحتشدات والسجون. كما كنا نعرف أنّ آلاف العائلات تحاصر يومياً مقرات الولاية ومحافظات الشرطة والبنائات العسكرية والمحاكم، بحثاً عن ابن، أو أخ، أو أب، أو عن زوج مفقود. كنا نعرف أنّ مثل هذه الأخبار يتهامس بها الناس في كل مكان، وبأنّ مظليي ماسو قد تجاوزوا في القساوة والتعذيب جميع أنواع القمع الوحشي التي تمارسها المصالح الأمنية الأخرى. ولكن، أبداً، لم نكن نتوقّع تفاصيل ما سنعيشه خلال تلك الليلة من الرعب المطلق.

عندما وصلت إلى الفناء، ارتجفت. كان ديدي عمر والد جميلة، عمّي مصطفى عمّها، وجميع الجيران من الرجال، بعضهم يرتدي القندورة والبعض الآخر المنامة، أيديهم مقيّدة خلف ظهورهم، وهم يجلسون على الأرض، والمظليون يوجّهون إليهم فوهات بنادقهم. اجتمع هناك جميع الرجال الذين أُخرجوا فوراً من أسرّتهم. كانوا ساكتين وأجسادهم ترتعد بالبرد. كنا في الثالث من فيفري، اليوم السابع من الإضراب، في حوالي الثانية والنصف صباحاً، ويسود المكان برد شديد ورطوبة عالية تنخر العظام. فيما تمّ جمع النساء في غرفة من الغرف المحيطة بالفناء، وأُغلق الباب عليهن. التحقّت بهن، ثمّ وصلت خالتي باية وأختي بعدي، تسندان « يّما » جدّة جميلة، مقوّسة الظهر، تتكئ على عكاز. تساءلنا فيما بيننا بصمت، ذلك أنّ هذه الطرق الجديدة التي استخدمها المظليون لاقتحام المنازل تنذر بمعاملات أسوأ وأقبح.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

لم يكن المظليون يتصرفون بهذه الكيفية الفظة في المداهمات السابقة . لماذا أفرغوا جميع الطوابق من سكانها الراشدين ؟ لماذا قيّدوا الرجال ؟ لماذا تركوهم عُرضة للبرد القارس في الفناء تحت عيون زوجاتهم وأولادهم وأفراد أهاليهم ؟ كانت تلك التصرفات تنذر بشرّ رهيب . ومن جهة أخرى، كان لزاما علينا أن نُخبر الإخوة المختبئين في الطابق الأول بالمستجدات كي يبقوا يقظين ؛ ولكن كيف العمل للصعود ثانية إلى فوق ؟ لقد منع علينا المظليون أيّ تحرك . فكّرنا، جميلة وأنا، في المسألة، فتذكّرنا أنّ مخبأ الطابق الأول يكون شكلا متوازي السطوح، حجم قاعدته وسقفه مربع بـ 60 سم لكل ضلع، وأنّ أحد الجوانب الفرعية، يحتوي في أعلاه على كوة صغيرة من 30 سم² للتهوئة، وهي تنفتح على السلالم في الجهة التي تؤدي من الطابق الأول إلى الثاني . فاستنتجنا أن الكوة الصغيرة في السلالم هي طريقة الاتصال الوحيدة الممكنة لإيصال الرسائل . ولكن المشكلة بقيت كما هي : ما العمل للاقترب منها ؟ ما العمل للصعود إلى الطوابق العليا ؟ فجاءتنا فكرة فحواها أن تطلب نساء الطوابق العليا من المظليين السماح لهن بالصعود إلى الغرف للإتيان بأطفالهن الصغار النائمين في أسرّتهم . وقد شرحنا للنساء خطورة بقاء الأطفال هناك بمفردهم في الغرف بسبب قسوة المظليين ونواياهم الشريرة . وما أنّ أكملنا شرح فكرتنا، حتى أسرعَت النساء إلى حثّنا على مخاطبة المظليين لنطلب منهم أن يسمحوا لهن بجلب أطفالهن . فأجبنا بأنّ الطريقة الوحيدة هي الصراخ . مباشرة، بدأت جميع النساء بالصراخ بأعلى أصواتهن : « نريد أطفالنا ! نريد أطفالنا ! » . وحَدّنا صراخنا وبدأنا نخبّط على الباب وعلى النافذة المنفتحة على الفناء بقوة راحات الأيدي، فأحدثنا ضجيجا صاما، أربكنا به المظليين الذين جاءوا متسائلين ومهدّدين . ولم نتوقف عن الصراخ عند رؤيتهم، بل كرّرنا مطلبنا بملء أصواتنا : « نريد أطفالنا ! » . وتساءل بعضهم بغضبٍ، وبصوت مرتفع لإسماعنا : « لماذا ؟ لماذا ؟ » .

إضراب الثمانية أيام

أجبناهم صائحات بأننا نريد إحضار أطفالنا معنا، ونحن نذرف الدموع ونصرخ إلى أن تنازل العساكر لمطلبنا. وعندما عبرنا الفناء، كانت كل النساء يلتفتن إلى رجالهن، سواء بالسؤال أم بالتشجيع والطمأنة. كان الرجال يجلسون على البلاط الرخامي البارد وأجسادهم ترتعد من الصقيع الصباحي. أخذنا جميلة وأنا السلالم. وعندما وصلنا إلى مستوى المخبأ، رفعنا أصواتنا، مستعملات لغتنا الخاصة التي بها الشيفرات التي اتفقنا عليها لنقدم للإخوة أكبر قدر من المعلومات. ومن جهة أخرى، أردنا استرجاع البطاقات الكرتونية التي تركها لدينا الطبيب الشاب الذي بدأ تكويننا في فن التمرير. احتفظنا بها لأننا لم نتخلَّ نهائياً عن فكرة الالتحاق بالمجاهدين في الجبال. وبعد إخفاء البطاقات داخل ملابسنا، قمنا بمساعدة الأمهات في إنزال الأطفال الرضع الذين لا يزالون نائمين.

عادت خالتي بابة مهمومة بل وقلقة جداً لأنّ المظليين رفضوا ترك ولديها، إلياس والهادي، عمر الأول 14 سنة والثاني 8 سنوات، يهبطان معها، وذلك برغم احتجاجها الشديد اللهجة. ماذا يريد المظليون منهما؟ ماذا يحضّران لهما؟ الأكيد أنهم لا يقصدون تفتيش الغرف. كانوا يحتلون السطح، والطوابق العليا والطابق الأرضي، ووضعوا حارساً أمام كل باب حول السقيفة وأمام السلالم. وفيما أنهت النساء مضغ وابتلاع بطاقتنا الكرتونية التي قمنا بتمزيقها إلى قطع صغيرة جداً، كانت أختي واقفة إزاء النافذة التي أنزلت مصراعيها الخشبيين. وكانت تحاول مراقبة ما يحدث في الفناء حيث أُجبر الرجال هذه المرة على التمدد بكامل أجسادهم على الرخام البارد. وعند رؤوسهم وقف العساكر يهدّدونهم بالأسلحة. وكانت أختي تشرّب بعنقها، وترتفع على أصابع قدميها وتمدد وتعصر جسدها، مائلة برأسها يمينا وشمالا، إلى الأعلى ونحو الأسفل، مادة رقبتها إلى أقصاها كي تختلس النظر إلى

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

كامل الفناء لتلتقط أكبر قدر من الصور مما يحدث في الفناء وفي رواق الطابق الأول الذي يقابلها. صاحت فجأة : « جميلة، زهرة، تعاليا تريان ! إنهم يأخذون مصطفى نحو الطابق العلوي. أكيد أنهم يريدون تعذيبه ! ». يعرف الجميع الحب الذي يجمع أختي بزوجها. لهذا، ظننا صادقات أنها تهوّل الأمر. زيادة إلى أننا، جميلة وأنا، كنا نعتقد بأن فرنسا لن تتجرأ على تفتيش منزل دون حضور صاحبه، أما تعذيب الشخص في بيته، فكنا نستبعده تماما. وفيما اقتربتُ من أختي لطمأنتها، ارتفع صراخ رهيب شلّ أجسادنا. توقف لحظات ثم ارتفع ثانية بأكثر حدّة، ليحتل كامل أجواء الغرفة ويهزّ كياننا ويرعد أحشاءنا. بدأت أختي تصرخ بأعلى صوتها : « مصطفى ! مصطفى ! الشدّة في الله ! الشدّة في الله ! ». أسرعت باتجاه الباب، فوجدت نفسها في مواجهة عسكريين مرعبين سدّا لها الطريق. وبرغم ذلك الصراخ الذي بدا صادرا من أعماق الأرض، صعب عليّ تصديق أنّ الجيش الفرنسي يعذب الناس في بيوتهم وعلى مرأى ومسمع من ذويهم.

إن التعذيب الذي يقام في مراكز الحجز والأماكن المهيأة لهذا الغرض، أمر يكاد يصبح عاديا ويتحوّل إلى نظام وتقليد عند الجيش الفرنسي منذ شهور عديدة. وكنا نعرفه ونسمع عنه الكثير. وكنت أعرف أنّ التعذيب أصبح صناعة عند الجيش الفرنسي، وهو ضدنا لصدنا عن المطالبة باستقلال بلدنا وحریتنا. وكانت الضحايا تُعد بالآلاف، برغم إنكار الجهات الرسمية الفرنسية لهذا الأمر البربري المشين. لأنّ لا أحد يتبجح بممارسة هذا النشاط القاسي والبهيمي والمهين للكرامة البشرية.

القتل بشتى الوسائل، القتل برمي الناس في البحر، القتل بدفن الناس أحياء، القتل بالاختناق بالدخان، هذه التقنية المرعبة – سلف غرف الغاز النازية –، القتل بسُخرة الحطب، القتل بالمفرد أو بالجماعة، القتل بردم الناس

إضراب الثمانية أيام

في الحفر ورمي الجير المغلى على أجسادهم، قتل الكائنات والأشياء، ونباتات وحيوانات آلاف القرى والمداشر بقصفها بقنابل النابالم، القتل برمي الرصاص على الأهالي الفقراء العزل، القتل بالخنق بالأيدي، القتل بقطع الرؤوس بالمقصلة، القتل بقنبلة مجمّع سكاني. القتل بالإفراد. القتل بالجملة. القتل في السرية. القتل جهارا نهارا. نعم، كل هذا نعرفه.

يعرف الجميع، ابتداءً من 1830، ما تناقلته الأجيال، من الأمهات إلى البنات، ما فعلته وتفعله فرنسا من منكرات وجرائم. ولكن تعذيب الناس في بيوتهم وأمام الملاء؟ لا. هذا لا نعرفه، ولم نتمكن حتى من تصوّره. ولكننا في تلك الليلة الليلاء، الليلة المشؤومة، في 5 درب غرناطة، كنت، وكنا شاهدات على أبشع وأذل جريمة ترتكبها فرنسا ضمن اختراعاتها المتطورة في إطار الجرائم ضد الإنسانية.

• تعذيب الناس في بيوتهم

تُسقط فرنسا أقنعتها لتترك العنان لتحقيق أنذل رغباتها الإجرامية في القصة، هي التي ما فتئت تشهر شعارات « فرنسا أرض حقوق الإنسان والمواطن » عبر كتاباتها وأفلامها وإعلاناتها وبياناتها السياسية ! في أقل من 12 سنة بعد انهزام النازية، ها هي فرنسا تعلي قيمها وتنتصر لها من جديد في القصة ! هل قاوم ماسو والآلاف من رجاله النازية فعلا ؟ يجيبني رأسي الذي يوشك على الانفجار : لا ! لا ! لأنّ النازية لم تمت مع وفاة هتلر. الدليل ؟ هذه الليلة، كان الجيش الفرنسي نازيا في القصة. ذرّف دموع الوجع وسال دمي في عروقي منتفضا وأنا أسمع إلى ذلك الصراخ العصيّ الاحتمال، صراخ حيوان جريح، صراخ معذّب لا ينمحي أبدا من ذاكرتي .

كان المظليون يعذبون في الطابق الأول، داخل غرفة فطومة وأمها. تشبّثت بيديّ في أعمدة النافذة، أدخلت رأسي، وبدأت أصرخ بأعلى صوتي وأنا

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

في حالة هيجان وغضب لا حدّ لهما، بسبب الرعب والتقرّز اللذين أثارتهما المعاملات الإجرامية التي يقوم بها الجيش الفرنسي تجاه الرجال المجمعين في الفناء. فانطلقت في خطاب طويل مندّد بوطن حقوق الإنسان المزعوم. تذكّرت بعض الأبيات الشعرية المنوّهة والممجّدة بفرنسا وإنسانيتهما، فأطلقت قهقهة ساخرة. وصفت المظليين بالقتلة، بالمجرمين، بالنازيين. نعم بالنازيين وهم يتدثرون بمبادئ نبيلة يدوسونها تحت أقدامهم. لم يكن بوسعي أن أسكت، لم أكن أريد أن أسكت. أن أسكت، يعني أنني أقبل أن أموت في صمت. لن أسكت ما بقي لي قليل من النفس. كلما جاء مظليّ كي يأخذ رجلاً من الرجال القابعين على الرخام البارد وأيديهم مقيدة ليقوده إلى الطابق الأول، إلى غرفة التعذيب، يتضاعف هيجاني وصراخي، باحثاً في أعماقي عن كل الغضب المتراكم، عن كل التمرّد، عن كل الجرائم التي ارتكبتها فرنسا لألفظها ساخنة في وجه العسكريين المجرمين.

فكنت أبصق ازدرائي العميق على الطرق التي بنوا بواسطتها مبادئهم المشهورة حول المساواة والحرية والأخوة على جثث ملايين المستعمرين. لم أكن أريد أن أحتفظ بداخلي بأي إحساس أثاره في نفسي هؤلاء الوحوش، فصرخت مقتي وازدرائي بأعلى ما استطعت. كنت أصرخ كي لا أسمع صراخ المعتّبين. لم أكن أريد سماع الصراخ البشري للرجال المعتّبين، المعروضين كالبهائم أمام عيون أفراد عائلاتهم من زوجات وأولاد. كان الجميع مغمضي العيون، كما لو أنهم أرادوا محو الذل الذي يتعرّضون إليه ويمكن لنظرة الآخر أن تحمله إليهم. وكانت جميلة وأخّيتي تصرخان: « أيها القتلة ! لستم إلا مجموعة قتلة ! من السهل أن تتعرّضوا إلى المدنيين غير المسلّحين ! اذهبوا وواجهوا المجاهدين هناك في الجبال ! قتلة ! جبناء ! أنذال ! ». وينزل الصمت الثقيل بين معتّبين. نترقب السلالمة التي ينزل عبرها الجلادون الذين

إضراب الثمانية أيام

يأتون لأخذ ضحية أخرى إلى غرفة التعذيب . وفي الوقت الذي كان المظليون يواصلون عملهم القذر في الطابق الأول، ونحن نتنفس على إيقاع صراخ وأنين إختوتنا، باشرت مجموعة من المظليين تفتيش غرف الطابق الثاني الذي تسكنه عائلة بو حيرد . بغتة، أمر أحد مغتصبي البيوت : « لتصعد امرأة تسكن في الطابق الثاني فوراً ! » . أرادت أخيتي أن تستجيب للأمر وهي التي لا تزال تحت وقع صدمة تعذيب زوجها . اعترضنا حفاظاً عليها، فصعدت جميلة إلى الطابق الثاني، بعد أن نصحتها أمها، خالتي باية، بأن تحافظ على هدوءها، موضحة أنّ الطريقة الوحيدة لمقاومة هؤلاء « الكلاب » هي مواجهتهم برزانة مزدرية . وبمجرد أن غادرَتنا جميلة، بدأنا نسترق السمع وندعو الله أن لا يصيبها مكروه .

لم يصلنا من أصوات في الطوابق العليا إلا أنين المعذبين ووقع أحذية المظليين وما كانوا يتبادلونه من نداءات وأوامر . فبدأ انتظارٌ كثيب، يسكنه الخوف الشديد من أن يتهجم هؤلاء الوحوش على جميلة . تضاعف قلقنا بجِدّ وبدأنا نتشاور حول ردّ الفعل المناسب إذا حدث شيء من هذا . لم تكن لدينا أية ثقة في جيش المعتوهين ذاك . فقرّرنا أن ننتظر دقائق أخرى، وإذا لم تظهر جميلة، سنخرج جميعاً وننطلق عبر السلالم ونحن نصرخ ونزغرد . كنا نعرف بأنّ زغاريدنا ترهبهم . فليحدث ما يحدث . وقفت ثلاث نساء قرب النافذة المنفتحة على الفناء للمراقبة . وفي الوقت الذي كنا بصدد تنفيذ خطتنا، ظهرت جميلة، تتقدّم بهدوء . عبرت الفناء، توقفت لحظات أمام أولئك الذين تعرّضوا إلى إهانة التعذيب . انحنّت على عمها وأبيها، الممدّدين بكامل طولهما على الرخام البارد، ودون الاكتراث بنباح مظليّ يأمرها بالالتحاق بالنساء، حطّت قبلّة على جبهة كل منهما كما لو كان دواءً لعلاج الأجساد والأرواح . لم يتوقف المظلي عن الصراخ، عن النباح . تجاهلته

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

جميلة ببرودة أعصاب مثيرة للإعجاب . كان في سلوكها تحدٍ واضح، فحفنا عليها من ردّ فعل المظلي . كنا نراقبها من النافذة في قلق يقضم أحشاءنا، مستعدات لاستعجالها على مغادرة المكان . ولكن صوت أختي الهلع سبقنا جميعا يحثها على الدخول إلى الغرفة . أخيرا دخلت، فأسرعنا إلى استقبالها . همهمت وهي في رزانة رخامية : « اطمئنوا . أنا حية أرزق، ولم يفعل لي هؤلاء الكلاب شيئا ! » . ثم التفتت إليّ وقالت : « ربّي ما يحبّش الخسارة ! لقد وجدوا وثيقة الاعتراف بالدين التي أمضاها سي محمد لكل واحدة منا نحن الثلاثة وكنت قد وضعتها داخل كتاب . أرايت ؟ بسبب استخفاف طفيف، كدنا نَقع في ورطة حقيقية ! » . اعترافات بالدين، كتبها سي محمد بيديه، موقّعة ومؤرّخة !!! لقد تسارعت الأحداث بوتيرة مذهلة، وبدالي أنها تعود إلى قرن من الزمن . إنها وقعت فعلا منذ زمن طويل ! في تلك اللحظات السعيدة التي كنا نلتقي، حسيبة، جميلة وأنا، حول المائدة مع الإخوة سي محمد، الخو، عليّ وإخوة المخبر . فكنا سعداء بلقائنا في نهاية يوم قضاء كل واحد منا في أداء مهمته، فنبداً باستعراض الأخبار الجديدة التي نشرتها الصحف الكولونيالية، وتبادل آراءنا حول هذه المقالة أو تلك، المنشورة حول « أحداث الجزائر » مثلما تسميها الصحافة الفرنسية . وكان سي محمد يتابع النقاش بسلطة بيداغوجية أخوية وعيناه الثاقبتان تلمعان، فكنا نتعامل معه مثل الإخوة الآخرين، نشركه في ألعاب الورق والدومينو التي نتسلى بها، كما نشركه في لعبة « يداس » ، عند نهاية عشاء يكون في مكوّناته لحم الدجاج . ومثلما ذكرت سابقا، فإن جميلة تجرّأت واقترحت عليه لعبة « يداس » ، في أول لقائنا به . فقد هزمته، كما هزمناه بعد ذلك حسيبة وأنا .

ذات مساء، حيث كنا مجتمعين، اقترحت إحدانا على سي محمّد، القائد الأكبر، لا أتذكّر من هي، ربما لأنّ صمتا ثقيلا خيم على جلستنا أو أنّ شيطاننا

أخرس همس إلى آذاننا ليمكر بنا : « سي محمد، كلما لعبت معنا لعبة « يداس » إلا وخسرت، ومع ذلك لم تسدد ديونك ؟ ». لم يخفِ مسؤولنا الكبير اندهاشه : « ديون ؟ أية ديون ؟ ». ومعا، كالثرثارات العنيدات، ذكرناه بقوانين اللعبة، فشرحن له أنّ كل خسارة تجعله مدينا لواحدة منا. في حين أخذنا المسألة باستخفاف، وكان غرضها التسلي، كان ردّ سي محمد جادا، واعترف بأنّه فعلا مدين لكل واحدة منا، ولكنه للأسف لا يملك شيئا يسدّد به دينه. أضاف بأن كل ما يملكه هو ملك لجبهة التحرير الوطني، وبالتالي إلى الشعب، بما في ذلك القميص الذي يرتديه. انتابنا الذهول والحجل، فحاولنا تلطيف الجوّ بالقول أنها مجرد لعبة وأنّ ثمن الخسارة لم يكن يتعدى قطعة حلوى أو مثلجة صغيرة. وأضفنا أنّ المهم هو اللعب في حدّ ذاته، الغرض منه الاسترخاء والتسلي، لا غير، وليس ما يقدمه الخاسر، وهو آخر اهتماماتنا. ولكن سي محمد لم يكن ليتخلى عن فكرته بسهولة. فقال بنبرة جادة : « كي أكون نزيها وصادقا معكن، أعترف بأنني أملك ثلاثة أشياء : قلم، ومُقلّم أظافر وساعة يدوية ». أظهرها لنا قبل أن يواصل : « ولكن هذه الأشياء ثمينة جدا في عينيّ لأنّ ثلاثة إخوة أعزاء على قلبي هم الذين منحوها لي كهدايا. واثنان منهما قد سقطا شهدين يرحمهما الله وهما ديدوش مراد وزیغوت يوسف، أما الثالث فإنه في السجن، رابح ببطاط ». فنظرت بانددهاش وانبهار إلى الأشياء التي أظهرها أمام عيوننا، كما لو تعلق الأمر بتحف فنية عتيقة، خرجت تَوّا من متحف مشهور. رغبت بمدّ يدي كي ألمسها بأصابعي كما نفعل مع التمايم المملوءة بالبركات ؛ ولكن سي محمد قال لنا بهدوءٍ طبيعي : « ومع ذلك فأنا أسدّد ديوني دوما. لذلك سأعدّ لكل واحدة منكن اعترافا بالدين. وعند الاستقلال، إنْ أطال الله في أعمارنا، سأسدد لَكُنْ ديوني. وإذا حدث أن توفيت، يمكن لَكُنْ تقديم هذه الورقة

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

لأَيِّ فرد من عائلتي ليسدّد الدين في مكاني . فوراً، تناول قلماً، ذلك الذي أهداه له أخ يُكِنُّ له كل المحبة والاحترام، وكتب في الحين ثلاث اعترافات بالدين، وقّعها وأرّخها، ثمّ قدّمها لنا. نظرنا إليه وهو يكتب بجِدٍّ لا نظير له، ثمّ يوقّع ويكتب تاريخ ذلك اليوم. كدت أموت بالحشمة، بسبب استخفايي الرهيب أمام مثل تلك النزاهة وتلك الاستقامة. فدعوت الله خفية أن يفتح الأرض تحت قدمي لتبتلعني. أخذت الورقة التي مدّها إياي وقرأت لأكتشف كتابة سي محمد، كتابة جميلة، واضحة، بلا زخرفة، والأحرف منتظمة ومرتبطة فيما بينها. فتضاعف إعجابي به ليصبح بلا حدّ. نظرت إلى الورقة وفكرت بأنه ليس فقط قائدنا الكبير، وإنما هو أخونا البكر. إلهي كم كنت فخورة به ! جمعت جميلة الاعترافات الثلاثة ودسّتها بين صفحات موسوعة كانت على رفّ من مكتبة عمّي مصطفى، في غرفة أخيتي. أثناء التفتيش وفي غياب أصحاب الدار، اكتشف مظلي الاعترافات الثلاثة، فقدّمها لجميلة الذي سعدت لتجيب على نباحه، وشرحت له معانيها. كانت جميلة تعي جيّداً بأنّ إجابتها وسلوكها يحدّدان مصير كامل سكان منزل الخامس من درب غرناطة و « المنظمة »، فأجابت بهدوء وثقة في النفس : « آه ! نعم ! طبعاً ! إنها اعترافات بالديون التي أعدّها أخي لي أنا، جميلة، وبنّيتي عمي، زهرة وحسيبة. لقد لعبنا لعبة « البلوت » وغلبناه عدّة مرات. وبما أنه كان مُفلساً، أعدّ هذه الاعترافات بالدين. أتعرفون، إنه طالب جامعي يدرس في فرنسا، يمكن لكم التأكّد من ذلك ». حكّت لي بأنّ المظلي لم يبعد بصره عنها، بحثاً عما يمكن أن تخفيه وراء حكايتها، ولكن جميلة نظرت إليه ومباشرة في عينيه، وبلا تردّد قالت له : « أتريد أن أحضر لك الدفتر العائلي ؟ ». كان المظلي يقرأ ويعيد قراءة تلك الاعترافات، يقلّبها بين يديه في جميع الجهات ؛ بدا متردّداً. أكيد أنه كان متردّداً، ذلك أنه يصعب عليه تصوّر

إضراب الثمانية أيام

« عرب بلا إيمان ولا قانون »، عاجزين عن التعبير بوضوح وصرامة بالفرنسية، يملكون خصالا مثل النزاهة واحترام الاستقامة. لم يتمكن من الاستقرار على رأي، فسرح جميلة بحركة يد. فنزلت إلى الفناء، ووقفت لحظات مع الرجال المهانين، الممددين على الأرضية الباردة، قبل أن تلتحق بنا في الغرفة حيث كان يصلنا صراخ ذلك الذي لا يزال تحت مخالب تعذيب رجال « ماسو » له.

فجأة، وفي الوقت الذي ظننا أن الجيش الفرنسي بلغ ذروة الخزي والعار في القساوة والرعب بتعذيب الناس في ديارهم وعلى مرأى ومسمع ذويهم، فيبرهن أن ما فعله لم يكن إلا تمهيدا لشيء أفظع. كنا لا نزال ساذجات، ومخطئات في تقدير مدى ممارسته للشر المطلق وإعداده للجريمة النكراء. حرق صراخ الهواء والسماء والأرض وكامل أحشاء النساء المحشورات في غرفة الطابق الأرضي، وبالأخص خالتي باية، لأنها تعرّفت على صاحب الصراخ. كانت منذ البداية تجلس صامته وتدعو الله في خشوع كبير ليمنح الله للرجال الموقوفين القوة والشجاعة لمواجهة امتحان أبشع وأوحش ما يمكن للإنسان أن يتعرض له، وفجأة قامت وصرخت بصوت هلع : « إنه صراخ ابني إلياس . إنها صرخته، أعرفها ». ثم صمتت ولم تنطق بكلمة أخرى، ربما كانت تدعو له بالسلامة والصبر ؟ ربما كانت تحاول الاتصال الذهني به، لتمنح له قسطا من قوتها ؟ ليس له إلا 14 سنة ! كانت خالتي باية مهيبة، راسخة في صمتها وهدوئها. وخيم صمت مرعب على الفناء، يقطعه بين الفينة والأخرى صراخ إلياس، بصوته الطفولي التي يقول للمظليين : « توقفوا ! توقفوا ! عندي حق الكلام ! توقفوا ! ». ثم ساد الصمت. كنا جميعا نسترق السمع إلى ما يحدث في الطابق الأول، نحو الغرفة التي كان المظليون يمارسون فيها التعذيب، الغرفة التي يوجد بها المخبأ الذي يضمّ حسيبة والإخوة، خلف الصينية النحاسية الكبيرة، تحت السرير الكبير. انتابتنا فكرة واحدة، أختي،

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

جميلة، فطومة، خالتي مالحة، وأنا. فبدأنا ندعو الله أن يلهم الله الصبر الجميل للإلياس كي يتحمل ويقاوم التعذيب دون أن يتكلم برغم حداثة سنّه. في الحالة المعاكسة، ستكون مجزرة في كامل البيت، والبيوت المجاورة وربما في كامل القصبة، تطبيقاً لمبدأ المسؤولية الجماعية، سيفجّر المظليون كل البيوت ويسجنون ويعذبون كامل أهلها. من جديد، ارتفع صوت إلياس المعذب والغاص بالشهيق: « توقفوا! توقفوا! نعم رأيت عليّ لابوانت! ولكن توقفوا، سأقول لكم أين يوجد! ». كنا نسمعه جلياً لأنه كان يصرخ بملء صوته. فبدأت أتنفس على إيقاع صوته، غير دارية بما سأفعله، انتابني شعور بالذنب، لأنّه يُعذّب بسببنا، ولم نطلب رأيه قبل أن نحول منزل والديه إلى مخبأ. وبعد ذلك، أحلل الوضع وفق منطق مقلوب: هل طلب الفرنسيون رأيه ورأينا جميعاً قبل استعمارنا، ليحولوه، ومعه جميع الشعب الجزائري إلى أهالٍ يعذبونهم في ديارهم وعلى مرأى ومسمع ذويهم، فقط لأنهم يقومون بإضرار عن العمل؟ الدم يغلي في صدغيّ. من جديد، ساد الصمت الرهيب، تبادلنا النظرات ويكاد الرعب يشلّنا. هل سيقول كل شيء؟ هل يكون لدى الإخوة متسع من الوقت للخروج من ذلك الغار؟ هل سيكون لديهم الوقت الكافي للمقاومة والقضاء على جلاّد واحد على الأقل قبل أن يُقتلوا ونحن معهم؟ تواصل الكابوس المرعب، ولا يريد أن ينجلي. فجأة، ارتفع صوت مظلي: « توقفوا! ألا ترون أنه يهذي، أنه يقول أي كلام؟ ». صمت ثقيل، تخين، مثل أمسية جنائزية. لم نسمع صراخ إلياس من جديد، بل وقع خطى عديدة لمظليين ينزلون السلالم. اشرأبت أعناقنا في النافذة، انذهلنا من فرط اتساع الرعب. وقد كنا نعتقد أننا وصلنا لدرجته العليا، ولكن يظهر أننا لم نصل ذروة الخزي والعار بعد. كان نفر من المظليين يحيطون بطفلين صغيرين، يدفعون بهما للنزول إلى الفناء: الهادي، أخ جميلة الصغير وعمره

إضراب الثمانية أيام

8 سنوات، ومحمد عمّور ابن خالتي زهرة، جارة من الطابق الأرضي، وعمره 10 سنوات !! إلهي، ماذا سيفعلون لهما ؟ ليسا إلا طفلين صغيرين. تبادل المظليون الكلمات، خاطبوا قائدهم، ذهبوا وجاءوا بين الطوابق. وبعد ذلك، نزلوا مستعينين بالخيال وبدأوا يبحثون عن منشب كهربائي في ضواحي الجبّ داخل الفناء.

أخيرا، فهمنا أسباب كل هذا الهرج والمرج. سيُنزلون الطفلين داخل الجبّ بقصد تفتيشه وإخراج الأدوات التي سيجدونها في عمقه. تبادلنا النظرات، جميلة وأنا، ومَرّت نفس الفكرة في ذهني: من المستحيل ترك الطفلين ينزلان إلى عمق الجب دون تحذيرهما. لذلك وفورا، شرحنا لخالتي باية أنه من واجبها أن تتكلم مع « الهادي » وتطلب منه أن لا يُخرج شيئا من الجب لأنّ ذلك يشكّل خطرا على جميع سكان الدار، خاصة وأن لا أحد من المعذّبين « تكلم » برغم قساوة التعذيب، فأعطت خالتي باية موافقتها لخطتنا. بدأ المظليون تمرير الحبل حول صدر وإبطي الهادي لإنزاله داخل الجبّ، وهم ينبرون المدخل بمصابيح كهربائية قوية. فبدأنا نخطب جميعا بعنف على الباب ونصرخ بملء أصواتنا. خلقنا ضجيجا كبيرا أجبرهم على فتح الباب، مهذّدين وآمرين إيانا بالسكوت. وفيما واصلت النساء البكاء والصراخ، واجهناهم، جميلة وأنا، وقلنا بغضب ساطع: « لن نسكت ! تريد النساء تقبيل أبنائهن قبل أن تغرقوهم ! اقتلونا إذا شئتم ولكننا لن نسكت قبل أن نقبّل أطفالنا ». واستأنفنا جميعا صراخنا المدوي، فتنازل المظليون عند طلبنا، بغرض التخلص من ضجيج النساء غير المحتمل. في ثوانٍ قليلة، وجد الهادي نفسه في حضن أمّه، هو الذي جهّزه المظليون ليلقى داخل الجبّ، وبقي واقفا ينظر حوله بعينين هلعتين. أحاطت خالتي باية ابنها بذراعيها، ضمته إلى صدرها وهمست له في أذنه وبلغتها: « كُن رجلا يا ابني ! تصرّف مثل المجاهدين. إذا لمست

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

شيئا، أبعده بقدمك ولا تُخرج شيئا من الجب. لا شيء ! أفهمت ؟ ». لم نعرف إذا كان الهادي المذهول قد فهم شيئا، أو سمع ما قالت له أمه، لأننا واصلنا إحداث الضجيج كي نمنع العدو من فكّ سرّنا. أخذته جميلة، أخته الكبرى، أيضا بين ذراعيها وهي تكرر : « كن رجلا ! لا يوجد شيء في الجب ! لا تخرج شيئا ! ولا تقل شيئا ! ». وبعد ذلك، أخذ المظليون – المنزعجون من سلوك « النساء العربيات المتأخرات » – الطفل وأنزلوه داخل الخزان بمياهه الباردة، مربوطا كطرد. وعندما وصل إلى العمق، وهو داخل الماء البارد إلى الإبطين، بدأ يصرخ : « إنه هنا ! إنه هنا أمامي ! ». فركض الجميع باتجاه الجب، وهم يشهرون بنادقهم نحو الداخل حيث يوجد الهادي الذي يواصل الصراخ من فرط الرعب. أدرك أحد المظليين سبب صراخ الطفل الصغير، فقال يخاطب الآخرين : « توقفوا ! لا تطلقوا النار ! إنّ ما يرعبه هو ظله المنعكس أمامه. لا تطلقوا النار ! توقفوا ! ».

كان الرجال المقيّدون الممدّدون على البلاط البارد ينظرون جامدين إلى ذلك القطيع الذي انقضّ على فوهة خزان مياه المطر. خيم صمت كثيب. كانت عيوننا مثبتة على خالتي باية التي كانت جامدة، ساكنة، وتصلّي. تُغطي يداها الجميلتان الرقيقتان خديها وفمها، وتظهران عينيها اللامعتين. كان الباب مفتوحا. أخيرا، أخرجوا الهادي من الخزان وحرّروه من حباله. كان مبلّلا إلى غاية الإبطين، ووجهه أزرق من البرد وأسنانه تصطك. كان الفجر على الأبواب، ولا تزال الدار غارقة في الظلام. كنا ننتظر قدوم الهادي إلى غرفتنا، حينما سمعنا حوارا فوق رؤوسنا، في الطابق الأول، أرعد أحشاءنا. اقترح مظلي لزميل له، ربما كان رئيسه، إخضاع بعض النساء لـ « السؤال ». « ربما سـ » يتكلّمن «، ما دام الرجال لم ينطقوا بالمعلومات التي جئنا من أجلها ». مباشرة، أغلقنا الباب، وأخبرنا أخواتنا بالحنة بصوت خفيض،

إضراب الثمانية أيام

بأنّ الرجال صمدوا لأبشع العذاب، بمن فيهم إلياس الصغير. شرحنا لهنّ بأنّه من واجبنا نحن أيضا أن نحافظ على كبريائنا وأن لا نخون. أضفنا أنّ جميلة وأنا سنتصرّف مع المظليين بحيث سنُجبرهم على اختيار واحدة منا، أو الاثنتين معًا. فنصحناهن بالهدوء والتضامن والكبرياء والمقاومة بالصبر والعناد : لا يجب أن نتكلّم. وأخيرا، تحدّثنا عن التعذيب المشين المخصّص للمرأة، ألا وهو الاغتصاب، وألحنا بأن لا تعتقد واحدة أنّها ستنجو منه إذا « تكلمت ». سيحدث العكس تماما، إذن، فعلى كل واحدة خضعت للتعذيب أن تصمد وأن تسلك سلوكا واحدا : أن لا تنطق بأية كلمة وتكرّر مع نفسها : « الشدّة في الله ».

عاد الصمت يخيم من جديد، ثقيلًا، مضجرا. كنا جميعا جالسات، ساكيات، متوترات، نسترق السمع، نترقب أدنى صوت وقع أحذية معلنا عن قدوم العذاب الذي وعد به المظلي، وقد سمعناه بمحض الصدفة. التحق الهادي بالغرفة وهو يرتجف من البرد والبلل، شفتاه مزرقّتان، أسنانه تصطك. أحطناه، وخلصناه من ملابسه المبللة. بادرت كل واحدة إلى نزع لباس دافئ من على جسدها، ليُمنَح للهادي، فغطيناه من الرأس إلى القدمين ونحن فخورات به لأنه لم يُخرج شيئا من قاع الحزان. استغلينا الفرصة لحث النساء على الصبر والمقاومة مثلما فعل طفل في الثامنة من عمره، فعدنا إلى التحضير النفسي انتظارا للتعذيب المفترض، ونحن ندعو الله أن يمنح لنا القوّة والطاقة للمقاومة. فلففت انتباهنا حادثة مفاجئة أغرقتنا في الضحك رغما عنا : خالتي مالحة، في الستينيات من عمرها، قصيرة القامة، الرأس ملفوف في وشاح بحيث يظهر عينيها الجاحظتين نوعا ما، والتي كانت منذ البداية جالسة وصامتة، نهضت واتجهت نحو النافذة. وهناك بدأت تدعو الله أن يَضَع حدّا لحياتها كي يجنّبها امتحان الاغتصاب، غير آبهة بالنساء الحاضرات، وهي تردّد بصوت

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

مرتفع : « ربّي احفظني من العار ! لا يمكنني أن أتحمل الحياة بعد ذلك ! » .
وبعد ذلك، تقدّمت نحوها خالتي باية الحنونة، وخاطبتها بسخرية قائلة :
« بوه ! مالحة ! وماذا ستقول هذه النساء الصغيرات ؟ هل غِبْن عن نظرك ؟ » .
وعوّض أن تسكت خالتي مالحة، فقدت رباطة جأشها وبدأت تكرّر بصوت
شاك : « لا أستطيع، لا أستطيع » . في تلك اللحظة، وصلنا صوت مظليّ
يدعو إلى التجمّع . لقد طلع النهار، إنها السابعة، وقد دامت محنتنا منذ
الساعة الثانية صباحا . جاء مظليون ونزعوا القيد عن الرجال الممددين . فحاول
كل واحد منهم أن ينهض بخفة دون إظهار الصعوبة التي وجدها في تحريك
الساقين والذراعين، والتي كانت مقيدة منذ ساعات طويلة . وكانت حركات
الأيدي التي يفتحونها ويغلقونها، وكذا الخطوات الثقيلة، تخون عذابهم
الشديد وصعوبتهم لإخفائه . أسرع أخيتي نحو زوجها وأسندته وساعدته
للتصعود إلى الطابق الثاني، كما التحقت كل عائلة ببيتها، وقد زُحِرح
الأثاث من أمكنته، والأواني مكسّرة ومرمية على الأرض، والملابس مبعثرة
في الأروقة، والدقيق مختلط بالسكر والقهوة، والزيت مسكوب في كامل
أرضية المطابخ . لم يكن لإعصار أن يُحدِث مثل هذا الخراب . في حين كان
المظليون يجمعون حبالهم وأجهزتهم التي استخدموها في عملية التعذيب،
ارتفع صوت أخيتي : « لا أجد نقودي التي كانت بداخل الخزانة ... من هو
القائد ؟ أريد أن تعيدوا لي نقودي ! » . التحقنا بأختي في الطابق الثاني،
وكان الخراب في كل مكان . توجهت خالتي باية، دائما هادئة، إلى غرفتها
حيث كان ديدي عمر ينتظرها . من الطابق الأول وصلنا صراخ الأخت فطومة
وهي تشتكي : « لقد سرقوني ! سرقوا مجوهراتي ! » .
استعدّ المظليون للرحيل، حقائبهم على ظهورهم . تصنّع قائدهم طرح
السؤال عليهم، دون اقتناع ولا إلحاح .

قالت خالتي باية لسلفتها هامسة : « اسكتي ! خليهم يروحوا . اللعنة عليهم ! قتلة ولصوص ! واش جرى لك ؟ خليهم يروحوا ! » ، ثم وجّهت كلامها إلى أخت فطومة بالقبائلية ، وهي تميل فوق الدرابزين . التحق كل واحد بغرفته المخزّبة ، ولم نسمع شيئا بعد ذلك . فليذهبوا إلى الجحيم ! .

وبعد أن تأكّدنا من ابتعاد المظليين عن الدار والسطح وكامل الحي ، حرّنا حسيبة والإخوة الذين كادوا يختنقون في المخبأ الضيق ، وهم مصدومون برعب التعذيب الذي عاشوه على المباشر وعلى بعد أمتار من المعذّبين . إنّ هؤلاء « الخارجين عن القانون » ، هؤلاء « الإرهابيين » ، وهؤلاء « الفلاقة » قد ذهلوا من صادية وقساوة هؤلاء الأجنب الذين يدّعون أنهم ينتمون إلى أمّة « تحترم الكائن البشري وجميع حقوقه » . كان عليّ أول المتدخلين ، بقوله « باش أنّحي الدهشة » ، ثمّ راح يقلّد المعذّبين وأقوالهم غير المعقولة التي يمكن أن يتلفّظ بها كل شخص يتعرّض لمثل هذا التعذيب . ودون وعي منا ، وتحت الصدمة ، رحنا جميعا نقلّد عليّ ونسخر من أنفسنا ومن ذوبنا وهم في مواجهة الرعب والآلام والإهانة . قلّد عليّ مشهد مواجهة إلياس لجلاديه : « توقفوا ! توقفوا ! سأقول لكم أين يوجد عليّ لابوانت ! » . حينئذ يقطع المظليّ الجلاد التيار الكهربائي أو يرفع اليد التي كانت تُدخل رأس الفتى في حوض كبير مليء بالماء . وحينما يستعيد الفتى أنفاسه ، متلعثما ، باكيا ، وهو يُحَوّزق باحثا عما سيحكيه ، فيقول : « صادفت عليّ لابوانت في زنقة الباب الجديد ، كان يحمل في يده قفة صغيرة بها خضروات وتحتها بندقية رشاش » . حينئذ ، يتلقى إلياس الصفعات التي وصل صداها إلى غاية المخبأ . يواصل إلياس : « أقسم لكم ، أقسم لكم بأنها الحقيقة » .

وكان عليّ ينفجر بالضحك وهو يواصل حكايته . ثمّ أخبرنا بأنّ إلياس خضع لحصّة تعذيب كهربائية أخرى ، أكثر قوة وأكثر قساوة لأنّ صراخه

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

ارتفع ليبلغ ذروته، ليفقد إنسانيته ويتحوّل إلى صراخ بهيمي، ذلك أن الوجود أضحي عَصِيّ الاحتمال، فوق الطاقة البشرية : « إنهم تحت السرير ! إنهم تحت السرير ! ». ما أدّى بالجلادين إلى إضافة حصة أخرى لتعذيبه أكثر، مما أدخله في هذيان جنوني . طفل في 14 من عمره ! فبدأ عليّ يشهق وهو يقول : « حدث كل هذا، ونحن على بعد خطوتين، عاجزين عن فعل أي شيء ! أردت الخروج لأقتل بعضهم ؛ أقتل وأموت . الله يسامحنا ! إن شاء الله يسامحوننا، كل الذين تعذبوا لحمايتنا ! سأتأثر لإذلالهم . أقسم بالله أنني سأنتقم لهم شرّ انتقام ! ». بكينا معه وأقسمنا القسم نفسه . جاءتنا أخيتي، دائما في الوقت المناسب، بقهوة عطّرت أجواء الغرفة وتوسّلت إلينا بأخذ قسط من الراحة .

بعد ذلك، دعانا « الخو » ليعطي لنا أمر مغادرة منزل عائلة بو حيرد لأنه « محروق ». اتضح للعيان، حسب، أنّ المظليين يملكون معلومات ولن يتأخروا عن العودة لمزيد من التفتيش والتعذيب . أعطى تعليمات للإخوة كي يرحلوا كل المخبر، الأجهزة والمواد المخفية داخل الحبّ نحو عنوان آخر سيدلّهم عليه فيما بعد . أخيرا، أمرنا بالانقسام إلى مجموعتين كي لا نضع « كل البيض في سلّة واحدة »، كما حثّنا على أخذ الراحة في انتظار التعليمات المقبلة .

• مخبأ 5 درب غرناطة « محروق »

كنا في اليوم السابع من الإضراب، في 3 فيفري 1957، في نهاية الصبيحة، غادرنا « الخو » وعليّ إلى وجهة أخرى . كنا تحت وقع شلال حقد وصادية المظليين، فحاولنا طوال الليل وإلى غاية طلوع الشمس، أن نستعيد حقنا في الحياة والأمل . كان الأمر صعبا، ذلك أنّ رؤية المعتّدين والحديث معهم كان شاقا للغاية . فضّلت بعض العائلات، عند اقتراب المساء، غلق شققها والذهاب

إضراب الثمانية أيام

إلى أمكنة أرحم لقضاء بضعة أيام. قرّرنا، جميلة وحسيبة وأنا، أن نتجاوز صدمتنا بالالتحاق بخالتي باية وأختي لإعادة الغرف المخربة إلى حالتها الطبيعية. تطلّب منا شغل يوم كامل لإعادة المطبخ إلى وضعه العادي.

تبين آثار همجية المظليين على الأشخاص والأماكن أنهم لم يأتوا فقط للبحث عن المعلومات، وإنما ذهبت صاديتهم أبعد من ذلك بكثير، القصد منها إذلال وإخضاع وإهانة السكان وطبع ليلتهم بالحديد والنار كي تبقى راسخة في الأجساد والأذهان، ليقتلوا كل رغبة في التمرد، كل أمل في الكفاح من أجل الحرية. كانوا يهدفون إلى قتل كياننا ومثلنا العليا، قبل القضاء على أجسادنا. لهذا السبب، أجهدنا أنفسنا وضاعفنا طاقتنا لتنظيف المكان، بالغسيل والمسح وإعادة وضع كل شيء في مكانه المعتاد، لنبين أننا نواصل حياتنا اليومية كما لو أن «إعصار المظليين» لم يكن، وأنّ أملنا في جزائر حرة ومستقلة بقي نقيًا طاهرًا، وأنّ إرادتنا في الكفاح لتحقيق هذا الأمل لم تتزعزع قيد أنملة، وأنّ حبنا للحرية والكرامة أقوى بكثير من الموت والدمار والرعب الذي زرعه قوات ماسو.

من جهتهم، قام الإخوة بجمع وتغليف أجهزة المخبر، وعند نهاية الظهيرة، خيم على المنزل صمت غير عادي. كانت الغرفة المربعة التي رنّت خلال الأربعة أشهر الأخيرة بضحكات وأصوات ومناقشات الإخوة غارقة في صمت جنائزي. كانت الغرفة تستقبل جلسات عشاءنا اليومي الذي يمرّ في جوّ أخوي رائع، والذي تنبثق منه، في الليل كما في النهار، رائحة متميّزة، مزيج من التبغ الأبيض والداكن والتبغ الخاص بالغليون، لتصبح شاغرة، غارقة في الصمت والظلام. لقد غادرنا المقيمون فيها لأشهر. وفي لحظة الفراق، أصرّوا على التأكيد على اعترافهم الممنون لجميع سكان البناية. بوقار، ودون تفخيم الكلام. كانت قلوبنا، حسيبة وجميلة وأنا، منقبضة، والعيون تطفح بالدموع.

مُذْكَراتُ مُجَاهِدَةٍ من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

في نهاية النهار، دعاني عمّي مصطفى . وجدته جالسا مقابل الباب الكبير المفتوح . وكان وجهه المنتفخ يشهد على عذاب الأمس . قال لي بصوت ثقيل ودون مقدمات : « ابتداءً من الغد ، سألتحق بالإخوة في الجبال » . بقيتُ خرساء من الدهشة . أضاف عمّي مصطفى ، ربما خشي تأويلا سيئا لقراره ذاك : « لا ! لا تظنّي أنّ قراري ناتج عما خضعت إليه من تعذيب عشية أمس ! بل بسبب ما يتعرّض له الجزائريون منذ فترة طويلة . اتخذت قرار الالتحاق بالجبال قبل هذه الليلة الملعونة ، ويمكن للخو وفتيحة أن يؤكّدا لك ذلك » . سألت دموعي ، فردّدت مع نفسي ، دون أن أتمكن من التلفظ بكلمة واحدة : « وكيف ستفعل أختي لإعالة أطفالها الصغار الخمسة ؟ لا يحق له أن يقوم بذلك » . ردّ عمي مصطفى وقد أدرك هلعي وتساؤلاتي : « لقد تفهّمت فتيحة قراري هذا وتقاسمته معي . إنّ اختياري يستجيب لمتطلّب أسمى من الحب الذي أكنه لعائلتي . هكذا هو الوضع . اليوم بالذات ، فتيحة هي التي تحثني على الذهاب في أقرب وقت ممكن » .

أربكني الخبر . عجزت عن الجواب . اكتفيت بالنظر إليه وذرف الدموع . بقينا ساكتين لحظة طويلة : هو يُفكر ويحدّق في نقطة ما غير مرئية ، وأنا عاجزة عن منع شلال الدموع المتدفق من عمق روحنا الجماعية المعبّدة دون هواده منذ 1830 . ثمّ مدّ لي منديله ورفع بصره المليء بسلطة متفهمة كما لو أنه يشير لي إلى استعادة توازني ، وقال : « أردت إخبارك بقراري لأنّك اليوم فرد من العائلة وأخت في الكفاح . أذهب وأنا مرتاح البال لأنني أعرف أنّ فتيحة شجاعة ، لها كثير من القوة والطاقة الداخلية ، فيمكنها الاعتناء بتربية الأطفال . وأعرف أيضا أنّك وجميلة ستقفان إلى جانبها ويمكنها الاعتماد الكلي عليكما . في حقيقة الأمر ، أردت الحديث معك لأوصيك على جميلة » . أدهشتني وأذهلتني أقوال عمّي مصطفى ، حاولت إيقافه

لأطمئنه على قوة وطاقه وشجاعة أختي. ولكنه أصرّ كي أسكت وأتركه يكمل كلامه : « لقد سمعتني جيّدا. نعم، أطلب منك السهر على جميلة. نعم، أطلب منك البقاء إلى جانبها تقومين بما كنت أقوم به أنا : الحفاظ على توازنها. إنّ الذي لا يعرفكما، قد تظهر له جميلة هي الأكثر عزيمة، الأكثر قوة، وهي التي تتمتع بتجربة صلبة ومعرفة جيّدة للأخرى. ولكن لا تنخدعي، لقد ربيتها وأعرف شجاعته الخارقة، ولكنني أعرف حقيقتها العميقة، أعرف بأنها هشة بإفراطها. لذلك أعتد عليك كي ترجعيها إلى الواقع حينما ترين أنها أفرطت في موقف ما. قلّلي من اندفاعها وحماسها، إنها بحاجة ماسة إلى التوازن ». كنتُ على دراية بالعلاقات القوية التي تربط جميلة بعمّها، كانت بمثابة ابنته البكر. فأدرجتُ وصية عمّي مصطفى في خانة القلق، العاطفة الطبيعية لأب يفارق ابنته، وهو ذاهب إلى مكان ومهمة، ليس الرجوع منهما مضمونا دائما. عجزت عن ردّ الشهيق الذي خنقني من جديد، فأومأت بحركة من رأسي أنه يمكن الاعتماد عليّ. شدّني عمّي مصطفى بين ذراعيه. تمكنت من الهمس : « ربي يحفظك »، وفررت لأختفي وأبكي كل دموعي في الغرفة التي غادرها إخوتي.

خيّم الليل على المنزل المُفرغ من جزءٍ من قاطنيه. كما أقلم الأطفال ألعابهم مع الجوّ الثقيل والكئيب الذي غرق فيه الحي وكامل القصبة. كنا نعيش، أو بالأحرى نحافظ على حياتنا، تحت مراقبة البنادق الرشاشة المنتصبة فوق السطوح، المشيّدة بأرمادة مذهلة من الوسائل الحربية وقوات القمع الكولونيالية. بمجرد سقوط الليل، يخيّم صمت مليء بالخوف والضجر على كامل المدينة العتيقة، ويسهر أهلها يترقبون إنذار الصفارات المعلنة عن انقضاء المظليين القساة على القصبة عبر أزقتها وسقوفها وسطوحها. أخبرتنا المعلومات التي استقينها، ابتداءً من الأيام الأولى التالية لـ 4 فيفري 1957، بأنّ ماسو ورجاله

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

– بمباركة روبير لاکوست وصالان والحكومة الفرنسية – قد استخدموا جميع الوسائل المتاحة لديهم خلال إضراب الثمانية أيام كي يكسروا إرادة الكفاح وانضمام شعبنا إلى شعار جبهة التحرير الوطني، المعبر عنه بوضوح وبطريقة سلمية.

• حوصلة إضراب الثمانية أيام : نجاح شامل

لقد ضاعف ماسو وآلاف رجاله تفتيش ومداهمات البيوت، كما أوقفوا آلاف الجزائريين المدنيين، وأطلقوا كلابهم البشرية على سكان الأحياء العربية كي يطاردهم ويقودوهم إلى أمكنة التجمع، ليحوّلهم إلى أماكن مجهولة، داخل الشاحنات. الكثير منهم لم يعد أبدا، وتجهل عائلاتهم مصائرهم. ولكن الآلة التي سحقت الجزائريين هي التعذيب الذي أصبح صناعة وقانونا تباركه السلطة الفرنسية، وجزء من الكنيسة الكاثوليكية، بالأخص القس المرشد « دولارو » الذي أصدر « فتوى » مسيحية لصالح الجلادين كي يجعل جرائمهم مباحة ولا تتناقض مع التعاليم المسيحية.

هكذا، وقد تحرّر ماسو وجلادوه من القوانين والاحترازات الدينية، فأخضعوا إلى آلة التعذيب كل الموقوفين وكل الذين يخرجونهم من الديار المداهمة، مثلما فعلوا في منزل رقم 5 درب غرناطة. فخلال تلك الاعتقالات الحاشدة، خضع مناضلون مهيكلون داخل الجبهة إلى التعذيب بالكهرباء وحوض الماء الملوّث، وأساليب أخرى وحشية. ولقد تمكنوا من إنطاق المعتذبين والإحراز على معلومات سمحت للجيش الفرنسي أن يضرب ضربة موجعة معاقل الجبهة. ومع ذلك، وبرغم تدفق الحقد والقمع الوحشي، وبرغم مقالات الصحافة الكولونيالية الدعائية والممجدة، وبيانات المختصين في العمل النفسي لصالح ماسو وسلطته، كان إضرابنا ناجحا نجاحا شاملا. اعترفت بهذا النجاح

إضراب الثمانية أيام

وتحدّثت عنه بإسهاب كل الصحافة الجادة والموضوعية، سواء منها الفرنسية كجريدتي « لوموند » و « الأيسرفاتور » الفرنسيتين، أو الأجنبية كالوكالة البريطانية « رويتر ». كتبت جريدة لوموند لـ 4/3 فيفري، أي عند نهاية الإضراب : « إن نجاح الإضراب لا يشكّ فيه أحد، برغم التأكيدات الرسمية. هناك فعل ثابت جديد في وجه العالم، تأكيد الدعم المستمر للأفلاق، سواء بين صفوف العمال المهاجرين أو لدى سكان المدن الجزائرية ». اكتشفت الصحافة الفرنسية والعالمية أنّ « أحداث الجزائر » لا تُختزل في « اضطرابات داخلية للنظام العام »، مثلما زعم « غي مولي » في منبر الأمم المتحدة. اكتشف العالم أنّ « الأفلاق » ليس مثلما تقول السلطة الفرنسية، أي مجموعة من « الخارجين عن القانون ». بالعكس، استطعنا أن نظهر للعالم أجمع أنّ الصراع الذي يواجهنا ضد فرنسا كان صراعاً بين شعب مستعمر والقوة الأجنبية التي تحاول إبقائه تحت هيمنتها، ومن جهة أخرى بأن « الأفلاق هو الممثل الحقيقي والشرعي والوحيد للشعب الجزائري في كفاحه من أجل استقلاله، وذلك بفضل التجنيد الكبير للجزائريين وانضمامهم للامشروط إلى شعار الإضراب العام الذي رفعه الأفلاق .

لقد أعطى إضراب الثمانية أيام لحرب التحرير الوطني الصدى العالمي الذي كان ينقصها، كما فرضت منظماتها « الأفلاق » باعتبارها المتحدث الوحيد الذي لا يمكن الاستغناء عنه، سواء بالنسبة للعدوّ أو بالنسبة للأمم الأخرى والهيئات الدولية كمنظمة الأمم المتحدة. ابتداءً من الآن فصاعداً، لا يمكن لأية دولة، أو منظمة نقابية أو وسائل الإعلام، أن تتحدث أو تتصرف حول « المسألة الجزائرية » دون المرور عبر « الأفلاق ». ومن جهة أخرى، سمح إضراب الثمانية أيام بفضح وتعرية فرنسا وجيشها حول مسألة حقوق الإنسان والحريات العامة. وذلك في وجه العالم بأسره، وبفضل تغطية وسائل الإعلام

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

للإضراب وبسبب العمى السياسي للسلطة الفرنسية التي واجهت حركتنا السلمية بقمع وحشي لا يناظره إلا قمع النازية. لقد نسيت السلطة الفرنسية وجيشها، وهي تخطّ وتنفذ سياستها القمعية، بأنه يستحيل التأثير بتلك الطريقة على شعب سلبت منه جميع ممتلكاته بقوة الحديد والنار : أرضه التي حوّلت بالقوة إلى أرض فرنسية تنقسم إلى ثلاث ولايات، واسمه لأنها لم تعد تسمينا بالجزائريين وإنما بالأهالي، تاريخه الذي شوّهته وحاولت محوه وتحريفه، هويته وثقافته، كرامته وإلى غاية إنسانيته. صحيح أنّ الأعمال القمعية التي مارسها ماسو وجلادوه على نطاق واسع والمتعددة الأساليب، أحدثت آلاما لا تمحى لدى الجزائريين، بحيث قتلت منهم بأعداد لا تحصى، بل حولت بعضهم إلى « خونة » لأنها تمكّنت من إنطاقهم فاعترفوا بمعلومات أضرت بالجبهة وكفاحها. ولكنها لم تغَيّر شيئا من مسار الثورة التحريرية، بل بالعكس تماما، لقد حثّ هذا الرفض وهذا الازدراء وتلك المعاملات الوحشية آلاف الجزائريين على الانضمام فورا إلى صفوف جبهة وجيش التحرير الوطنيين، فزادت من احترامهم وتجنيدهم وارتباطهم بالأفلاق. إنّ ارتباط شعبنا بجبهة التحرير الوطني خلال تلك الأيام الثمانية التي دام فيها الإضراب قد أثار حفيظة فرنسا بسلطتها الكولونيالية المتعجرفة والعمياء. فمنذ 1830، يعرف الجزائريون في أجسادهم وأجساد أجدادهم ما يمكن لفرنسا أن تفعله من سلب وقتل واغتصاب ونفي وتعذيب وقمع وحشي واستخدام جميع الوسائل ليستمر نظام الاستعمار الاستيطاني. ولكن الأمم الأخرى، وبالأخص تلك التي يقال عنها « متحضّرة »، لم تكن تعرف، أو كانت تعرف وتغض البصر، كي لا ترى الطبيعة الجائرة والظالمة والعنصرية والقمعية للسلطة الكولونيالية وجيشها.

كما سمح إضراب الثمانية أيام للعالم بأن يكتشف وضع الجزائر الحقيقي، يكتشف ويفتح عينيه على وجه فرنسا القبيح. فمهما كان الثمن الذي

إضراب الثمانية أيام

دفعناه والذي سندفعه لاحقا، للأسف الشديد، وكان ثقيلًا وموجعا، إلا أنّ إضراب الثمانية أيام شكّل منعطفًا حاسما في مسار حربنا التحريرية. إنّ الإضراب هو الذي منح البعد العالمي لكفاحنا برغم انزعاج فرنسا، وهو الذي منح لجبهة وجيش التحرير قانون الخصم بالحقوق والشخصية المعترف بها في الهيئات الدولية، وبفضله أيضا انفتحت المنابر عبر العالم، وأعطت فرصة التعبير لصوت الجزائر الذي كان مقموعا في السابق.

ولجميع هذه الأسباب، إني مقتنعة بأنّ إضراب الثمانية أيام سيبقى الحركة السياسية الوطنية ذات الأهمية القصوى التي كسّرت وإلى الأبد مشروع إبقاء الجزائر في حوض فرنسا كمستعمرتها الاستيطانية. وبسبب هذا الإضراب، تدخل فرنسا وجيشها في دوامة جنونية وعمياء، تقودهما بعد خمس سنوات فقط ومباشرة نحو الهزيمة التي لم تُهْضَم إلى يومنا هذا، في مواجهة شعب عازم على عدم الرضوخ مهما كان الثمن الذي سيدفعه. لقد صمّم وخطّط وشرح ونظم إضراب الثمانية أيام اثنان من أفضل مكافحينا وقيادينا، عبقران مستشران للمستقبل، وقد استشهدا مبكرا للأسف الشديد، وهما العربي بن مهيدي وعبان رمضان. وكانت الليلة الأخيرة للإضراب بالنسبة لنا، جميلة وحسبية وأنا، آخر ليلة نقضيها في منزل بوحيرد بـ 5 درب غرناطة. ابتداءً من 5 فيفري، ستبدأ رحلة الترحال عبر منازل كثيرة وسباق جهنمي مع جميع أجهزة جيش ماسو في مطاردتنا، والذي لم يتردّد في استعمال أية وسيلة لاعتقالنا أو للقضاء علينا.

ابتداءً من 8 فيفري، أعطى الخو أمرا لل فدائيين الذين نجوا من مخالب جيش ماسو بالتهجم على العسكريين ونقل الصراع المسلح الذي يواجهنا بالسلطة الكولونيالية إلى السكان الأوروبيين « الأبرياء » الذين يواصلون حياتهم في سلم كما لو أنّ الحرب لا تعنيهم. بل أسوأ من هذا، كما لو أنّ القمع الوحشي

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الذي يسقط يوميا على أحيائنا، في الليل كما في النهار، هو الشرط الضروري لاستمرار سعادتهم وسكينتهم في جزائر فرنسية إلى الأبد. أما فيما يخصنا، فكان علينا أن نبرهن أنّ مثلنا التحرري وقضية استقلالنا أقوى بكثير من القوة التدميرية لفرنسا الكولونيالية وجيشها. سيكتب الجنرال ماسو فيما بعد في كتابه : « معركة الجزائر الحقيقية » : « قرّرت إجراء أكبر عدد ممكن من الاعتقالات ». لم تكن لديه النزاهة الكافية ليضيف : « اعتقالات مرفقة حتما بالتعذيب ». ولكنه يعترف بأنها لم تغيّر شيئا، لا في مسار الإضراب الذي سيكون ناجحا، ولا في صلابة كفاح مناضلينا. مع أنّه لا تكاد توجد عائلة ليس لها فرد تمّ توقيفه وتعذيبه، بل واختفى إلى الأبد، ولا عائلة نجت من قساوة المظليين وإهاناتهم المتكررة. لقد قيل كل شيء بيننا وبين فرنسا. على الكفاح أن يتواصل، أكثر من أي وقت مضى، يدعمه شعارنا « الانتصار أو الموت ! ». ولكن التقارير التي لا تزال تصل إلى الخو تؤكد على حدوث كارثة في صفوفنا، وبالأخص في أوساط مناضلينا في القاعدة، حيث لم يُطبّق نظام السرية بصرامة. فصدرت تعليمات إضافية فيما يخص تنقلاتنا. أصبحنا، جميلة وأنا، لا نخرج إلا ملحفات بالحايك، وإذا كنا نحمل طرودا أو رسائل، فينبغي أن يسبقنا مرشد، وهو في العادة عمر الصغير، أو أحد فتيان العائلة التي تؤوينا، ويجب حتما تجنب أعوان الاتصال من العائلات المستضيفة. ومن جهة أخرى، علمنا أن المظليين عادوا بعد يومين من تلك الليلة المشؤومة إلى مdahمة منزل 5 درب غرناطة فوجدوه قد أفرغ من سكانه. وأكدت لنا تلك الأخبار أنّهم قاموا بتفتيش دقيق إضافي، ما جعلنا نستنتج أنّ المظليين لديهم معلومات ناقصة. والسؤال الذي كان يؤرقنا هو من « تكلم » عن 5 درب غرناطة ؟ فقرّر الخو إرسال إخوة لنا لنزع ونقل القنابل التي لم نتمكن من حملها لحظة مغادرتنا ذلك المخبأ المبارك، وهي لا تزال

إضراب الثمانية أيام

مخفية في السطح داخل المخبر الذي يظهر على شكل قاعة حمام. وفي زيارتهم الثالثة، اكتشف المظليون المخبر، دون القنابل، ولكن بكل الأجهزة. وفي نفس الفترة، أعلنت الصحافة أنّ رجال ماسو استولوا على قنابل عديدة في منزل الباشا آغا بوطالب.

فبعد هاتين الضربتين القاصمتين ضد منظمتنا، فكّر الإخوة في التأكد إنّ لم يكن البناء الذي شيّد المخبأ والمخبر، بمهارة وعبقريّة في مسائل التضليل والتمويه، قد تمّ توقيفه وأخضع للتعذيب. وهو ما حدث فعلا، لقد تمّ توقيف البناء، المسمّى « ماثورين - بوباي »، بالصدفة مع عشرات من الأهالي. أخضعوه للتعذيب الشنيع، فاعترف. من يمكنه محاسبة معذّب ؟ لم نفعل. من تلك الأيام والليالي، أحتفظ في ذاكرتي بمشاهد وأحداث ترعبني إلى اليوم، لتلك المداهمات المتكررة وبالأخص في الليل، والأبواب المكسّرة بالركلات وأخمص البنادق، والرجال الذين يُخرجون من أسرّتهم ويُرْمون أرضا، ترفسهم الأقدام، يعدّون في بيوتهم أمام زوجاتهم وأطفالهم، وأحيانا يعدّ الجميع، نساءً وأطفالا. بعد ستّ وخمسين سنة، يحدث لأبنائي أن يوقظوني في هزيع الليل ليُخرجوني من مخالب الكوابيس التي يسكنها صراخ المعذّبين وأنينهم.

في فيفري 1957، وبعد أن فقد الجيش الفرنسي معاركه الحقيقية في الهند الصينية ومصر، ها هو قائدهم ماسو ورجاله يخوضون « معركةهم الجزائرية »، كجيش أجنبي محتل لأرض غيره، ضد سكان الأهالي الدزيريين، الذين لا يملكون شيئا. في فيفري 1957، يخوض ماسو ورجاله « معركة الجزائر »، تطبقا لاستراتيجية رهيبة : « إذا كان الأفلان يعيش بين الأهالي كالسمكة داخل الماء، فيجب تخفيف الماء لقتل السمكة ! ». استراتيجية مرعبة بأهداف إبادة شعب بأكمله. في فيفري 1957، لم يترك لنا ماسو من خيار إلا الانتصار

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحْرِير الوطَنِيّ منطقة الجزائر المستقلّة

أو الموت. هكذا، تأقلمنا في حياتنا وفي طرق عملياتنا مع استراتيجيته التدميرية. فاتخذنا، تحت الضغط ومجبرين، حياة ترحال، ننقل من مخبأ إل آخر، ونحن نواصل كفاحنا، وإعادة ترتيب منظمّتنا كلما ضُربَتْ في حياة مناضليها أو في وسائل كفاحها المسلّح.

اليوم، وبعد ستّ وخمسين سنة، لا تزال ترنّ في ذهني أسماء الشوارع والأزقة: شارع عبدramس، زقاق سيدي رمضان، شارع دولاغرو، شارع الأسد، شارع الفينق، درب كليبر، درب لافوازيي، شارع النيل، شارع كاتون، إلخ. مخابئ مررنا عليها، وقد اضطررنا إلى مغادرتها بعد ساعات فقط، أو لحظات، من وصولنا إليها. ذلك أنّ « الخو »، ودون أن يشرح لنا، ينهض ويعطي أمرا بجمع الأسلحة القليلة التي بحوزتنا - مسدسات، قنابل، بلاستيك - ومغادرة المخبأ، الذي سيدهمه المظليون بعد لحظات قليلة من خروجنا منه. أحتفظ خاصة بذكرى تلك الظهيرة الرمادية من فيفري، حيث توقفنا، بعد عبور مضطرب لجزء من القصبة الغاصة بالمظليين، في منزل جميل بفناء واسع تنتصب فيه فوارة، تسقط مياهها في شلال جميل على حوض من الرخام الأبيض. كنا، جميلة وحسبية وأنا، نحمل تحت حياكنا قنابل، ربطناها جيّدا ضد بطوننا، والتي نُجِت من تفتيش المظليين. كان عمر الصغير يفتح الطريق، تتبعه جميلة، ثمّ الخو، ثمّ حسبية وأخيرا أنا. وكان عليّ يغلق السير خلفنا. وبما أن الجوّ بارد، كان الأخوان يعتمران على رأسيهما قلنسوات صوفية وأوشحة لتغطية الرقبة وجزء من الوجه، كانا نصف مُقَنَّعين. عند وصولنا إلى المنزل الجميل، وبمجرّد غلق باب الصالون الواسع الجميل، نزعنا الحياك والأعجرة والقلنسوات والأوشحة وتركنا أجسادنا ترتاح على الأفرشة، السيقان ممدّدة على الزرْبِيّة الخشنة. لا أحد رغب في الكلام. كنت أذوق تلك اللحظة السعيدة من الراحة والسكينة. كانت رغبتي الوحيدة أن لا

إضراب الثمانية أيام

أمشي، أن لا أقفز من سطح إلى سطح، أن لا أجري، أن أنام ملء جفوني .
التصقت بحسيبة، وضعت رأسي على كتفها وهمست في أذنها : « أحلم
أن أتمدّد بكامل طولي فوق سرير. تعبت من الجلوس والمشي ». ابتسمت
حسيبة وشجعتني على التمدّد. كان الأخوان جالسَيْن، ساكتَيْن. فجأة،
انتصب الخُو وقال لنا : « بسرعة ! يجب أن نغادر المكان، بسرعة ! لا تتركوا
شيئا وراءكم ! » .

نظرتُ إلى جميلة وحسيبة نظرة يأس ووهن، ولكنهما وقفتا بخفة وبدأتا
تُرجعان القنابل إلى مَوضعها، لاصقة مع البطن، ومشدودة بوشاح عريض
وطويل. ثم قامتا بمساعدتي على تثبيت القنابل التي سأحملها في مكانها
المعتاد، أي لاصقة ببطني أنا أيضا. فذهبنا مثلما وصلنا، في رتل متتابع.
وبمجرّد مغادرتنا الدرب، وبداية صعودنا عبر زقاق متعامد باتجاه اليسار، حتى
رأى الأخيران من رتلنا وصول المظليين في الطرف الآخر من الزقاق. وقبل
أن نصل إلى مخبئنا، في شارع النيل، عرفنا عن طريق بعض المارة أن دار
الباشا آغا بوطالب قد حاصرها وداهمها قطع من المظليين. إنها الدار التي
رغبت أن أتمدّد فيها بكامل طولي لأنام ملء جفوني ! من تلك الأيام والليالي،
بقيت محفورة في كياني ذكرى مطاردة الوجه العربي، والحصار المفروض
على القصبة، والاعتقالات المرفوقة بالركلات والشتائم الصارخة لجميع المارة
المدنبن لأنّهم من جنس الأهالي، وبالأخص في شارع راندون وشارع مارينغو
وجامع اليهود.

الفصل الثامن

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

• اعتقال العربي بن مهيدي

في وقت كنا نفرز بشكل أوضح المعطيات الجديدة ونؤقلم أفعالنا للظروف القاسية التي كنا نعيشها، سقط علينا خبر كالصاعقة وتركنا بلا نفس : لقد تم اعتقال العربي بن مهيدي !!! أعلنت جميع الصحف خبر اعتقاله يوم 23 فيفري وبالصورة كدليل لا يقبل النقض. نظرت إلى الجرائد بذهول، غير مُصدّقة لهذا الشقاء الذي أصابنا فجأة. ولكن الصور التي تتصدّر صفحات جميع الجرائد لا تترك أدنى فسحة للشك، إنه هو فعلا ! كان ينظر أمامه، وابتسامته الخافتة تنير وجهه. كانت نظرتة شبه ساخرة، صريحة ومليئة بالتحدي. يقف مستقيما، بلا تشنج، بل ومرتخي القسمات. كان كل شيء في هيأته يعبر عن السكينة وثقة الرجل الهادئة، القائد المقتنع بأن القضية التي يكافح من أجلها ستنتصر لا محالة. أطلت النظر في تلك الصورة أهدق في تلك النظرة التي أعرفها جيّدا، نظرة تعبر عن السخاء والهدوء، وعن التحدي أيضا، فبكيت. نعم بكيت وأنا أقول مع نفسي : « أكيد أنه يفكر

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

في « بن علا الحاج » ويعدّ نفسه لمعرفة، أخيراً، الجواب عن السؤال الحساس الذي ما فتئ يقضّ مضجعه .

وعادت إلى ذاكرتي صورة بن مهيدي التي لا تُمحي وهو يستمع إلى صوت نائبه بن علا الحاج، الصادر من المذياع. ذات يوم، ذهبت إلى منزل بلُحْفاف لألتقي بسي محمد استجابة لطلب منه. عندما وصلت إلى السطح، وجدت باب الغرفة مفتوحاً والمذياع مشتعلًا وسي محمد يجلس قربه ويمسك بين إبهامه وسبابته جلد ساعده ويخاطب نفسه بصوت مرتفع : « كيف يمكن لهذا اللحم أن يخون الإرادة الأكثر صلابة ؟ ». أكيد أنه لم ينتبه لحضوري. ومن المذياع وصلني صوت رجل، اتّضح لي من نبرته أنه جزائري.

كان الصوت يحرّض شعبنا على التنديد بجبهة التحرير الوطني وفضح أفعالها باعتبار المنتمين إليها مجموعة « أفراد غرباء وأشرار » والعودة إلى فرنسا وجيشها الذي يوفرّ له الحماية والأمان. وكانت تلك « الكاسيت » تذيعها، على مدار اليوم، جميع وسائل الحركة السيكلوجية في خدمة الاستعمار : المذياع، الصحف المكتوبة وإلى غاية سيارات « الجيب » التي تطوف شوارع الأحياء الشعبية بمكبرات الصوت. ولكن الجزائريين لم يكونوا يعيرون أدنى اهتمام لتلك الخطب الدعائية الكاذبة، لأنهم يعرفون جيّدًا الوسائل القاسية التي تستخدمها مصالح فرنسا الأمنية للضغط على صاحب الصوت كي ينطق بتلك التصريحات المريبة. وحسب تلك الأخبار، إن صاحب الصوت الذي كان سي محمد يستمع إليه بذهول والذي يحثّ الأهالي إلى الابتعاد عن « الأفلان » والاقتراب من الجيش الفرنسي ليس إلّا صوت « بن علا الحاج »، المسؤول بالنيابة عن الولاية الخامسة التي يترأسها العربي بن مهيدي.

وقفت عند عتبة الباب، ولم أجرؤ على الحركة أو إحداث أي صوت مزعج، فاستمعتُ جيّدًا إلى تصريح « بن علا »، واستمعتُ أيضًا إلى قول سي محمد

وهو يقرص جلد ساعده . كان منشغلا بالاستماع إلى الصوت الذي ينبثق من المذياع . وبدا من هيئة جسده أنه كان منهارا وحزينا وهو يستمع إلى ذلك الصوت الذي يعرفه حق المعرفة . تراجعُ بخطوات إلى الوراء وسعلت وقلت بصوت مازح نوعا ما : « يا موالين الدار، صباح الخير ! » وأنا أدخل غرفة سي محمد . كان الصوتُ الأغن العارض لذنبه والمعلن عن توبته يملاً الغرفة . وكي أخفف من وقع المصيبة، صرختُ قائلة : « ألا يزال هذا الصوت يرغي ! يتجولون به عبر كامل شوارع الدزاير، ويذيعونه على الناس . ولكن الناس يعرفون فحوى هذا الصوت، إنه تركيب كاذب » . رفع سي محمد عينيه نحوي، وكعادته أجبني بهدوء وهو يحدّق في عينيّ : « أنتِ مخطئة ! إنه صوت بن علاّ الحاج، من أقدم مناضلي الحزب . رجل محنّك ومجرّب، وقد أعطى حياته كلها لقضيتنا . أعرفه جيّدا . إنه نائب على رأس الولاية الخامسة » . لم أنتظر أن يعرّي نفسه بهذه الطريقة . وبعد صمت طفيف، استغلّته للسيطرة على صوتي، حاولت الرّد على هذا الخبر المحزن مثلما يفعله شخص يجهل هوية محدّثه . بدأت أتلعثم، ولكن سي محمّد أوقفني بمجرد نطقي للكلمات الأولى : « لنضع حدّا لهذه اللعبة ! أنتِ تعرفين، وكلّكنّ تعرفن، وكذلك الإخوة الآخرون، من أكون بالضبط : العربي بن مهدي . لدينا مشاكل عويصة، لهذا السبب دعوتكِ » . كان غاضبا، وقدّرت أنه من واجبي أن أظهر هيئة المتفاجئة والمتسائلة التي تجهل من يكون العربي بن مهدي، فواصلتُ تمثيلي الذي كاد يتماهى مع البلادة . الشيء الذي أغضب بن مهدي فعلا، لأنّه أسكتني بحركة جلية من يديه الاثنتين . لم أعرف أنني أزيد الطين بلة، فاتخذتُ الهيئة الأكثر مناسبة التي تسلكها مناضلة في مواجهة مسؤول كبير، قائد كبير - وأيّ قائد ! - نوفمبري كان في عينيّ بطلا مغوارا ؛ فواصلت جهلي . الشيء الذي أزعجه حقا، فانتفض قائلا : « ولكن ماذا حدث من تغيّر بيننا ؟ لم أكن مغفلا معكّن أبدا، وأنتنّ، الثلاثة،

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

ممثلات سيئات للغاية ! ». حينئذ لم أعرف كيف أخرج من تلك الورطة، فنظرت إليه بذهول، وأنا أفكر أنه إن اعتقدنا حقا أنّ سي محمد كان مغفلاً ولم ينتبه لتمثيلنا، سنكون من أكبر المدّعيات. كانت نظرتة وحدها تنفذ إلى عمق أعماقنا. كنت في تلك الفترة أجهل أنّ العربي بن مهيدي مشغوف بالمرسح وقد سبق له أنّ اقتبس بل وأخرج بعض المسرحيات، وقد أشفق على اضطرابي وراح يشرح لي كم كان سعيدا وهو يعيش مع شعبه في القصبّة، شعبه الذي يحميه، وكم كان فخورا بالعمل معنا. وبعد ذلك، أملى عليّ بريدا كتبته بكامل العناية التي كنت قادرة عليها. وعندما انتهيت، أعاد قراءة النص، بدا راضيا وقال لي : « يجب أن ألتحق بمنطقة وهران. نعرف أنّ أباك يشغل قاضيا بفيالار، وأنّ أصولكم من ولاية وهران حيث لأبيك عائلة كبيرة وأصدقاء. اسمعي لي جيّدا يا زهرة، سأطرح عليك سؤالاً وأجيبيني بكل صراحة، ودون أن تثقلي كاهلك بأي اعتبار غير الحقيقة. هل تعتقدين أنّ أباك، القاضي الشريف، يقبل بأنّ يقودني إلى وهران ؟ نعرف أنه يملك سيارة وينتقل باستمرار إلى تيارت وإلى وهران ». أجبتُ بلا تردّد : « طبعا، سيقودك إلى وهران. هذا أقل شيء يمكن أن يفعله ». تسارعت إلى الجواب لأنني لم أركّز إلا على الشيء المهم في نظري : أنّ يلتحق سي محمد بوهران في أقرب وقت ممكن، لأنّ الولاية الخامسة قد تمّ تفكيك هيأتها منذ اعتقال بن علاّ الحاج. أكيد أن قناعة المناضلين تكون قد تشوّشت وربما قد تزعزع تجنّدهم. ردّ عليّ بن مهيدي بهدوءه الخرافي : « استمعي إليّ جيّدا، لا يتعلق الأمر بما تفكرين فيه أنت، أو بما تريدينه أنت. يتعلق الأمر بأبيك، هو وحده الذي سيتخذ القرار. نعرف أنّه مسؤول عن عائلة كبيرة. وقد يشكّل نقلي إلى وهران خطرا كبيرا. ثمّ إنه موظّف ».

فهمتُ أنّه أراد أن يعرف إن كانت لديّ وسيلة ما، مضمونة، أتصل بواسطتها مع أبي لأطرح عليه السؤال. ولكنني قلت بالحاج : « أعرف جيّدا أبي، وأنه،

كرجل يعرف معنى الواجب، سيقرّر، بحرية ضميره وسيقبل بنقلك إلى وهران. أنت تتحدّث عن الخطر، أيّ خطر؟ إنه متعوّد على السفر إلى وهران برفقة أمي وإخوتي وأخواتي. بشكل عام، فهو لا يخضع للتفتيش في نقاط المراقبة بمنطقتنا. ربّما سيخضع للتفتيش عند مجيئه إلى الدزاير وذلك ابتداءً من البليدة». استمع إليّ وبدأ أنه يتابع تحليلي بعناية. وشرحت له لماذا أنا مقتنعة بأنه سيوافق على نقله إلى وهران، ورويت له باختصار كيف وقف معي في جويلية 1956 خلال إضراب الطلبة، وساعدني على الالتحاق بالعاصمة، وضد موقف أمي الرافض. وقد شجعتني عناية استماعه لي، وكذلك الثقة والشرف اللذين وضعهما في شخصي وشخص أبي، فرّحت أفكر معه بصوت مرتفع في جميع الجوانب التطبيقية للمهمة، متفحّصة لمختلف العراقيل والأخطار، معلنة بدءاً الحلول الموضوعية، الممكنة منها والمحتملة. فذكرت احتمال مراقبة هوية ركاب السيارة، فقلت واثقة ومندفعة: « الأمر بسيط. ستلبس فستانا وهرانيا فوق سروالك وقميصك، وستتلحّف بحايك، على طريقة أهل فيالار، « حايك بوغوينة»، حيث لن تظهر من وجهك إلا عين واحدة، وسيغطى كامل وجهك، بما في ذلك الحاجبان. في هذه الحالة، من هو الحاذق الذي سيتصوّر أنّ القائد الكبير بن مهدي يختفي داخل صورة ربّة عائلة، تجلس إلى جانب زوجها، القاضي الشريف، وهو يحمل أصغر بناته على ركبتيه». كنت أتصوّر وأعيش المشهد أمام سي محمد وأنا أنتشي مسبقا بالسعادة التي ستنتابني وأنا أضلّل مرة أخرى السلطة الكولونيالية وقواها القمعية.

ولكن بن مهدي الذي استمع إليّ بهدوء قاطعني فجأة بصوت صارم: « أبدا، لن يحدث هذا أبدا! ». انهار حماسي وأجبت بهذول: « أبدا؟ أبدا ماذا؟ أن تتقنّ لباس امرأة؟ ». نظر إليّ مباشرة في عينيّ وقال: « هذا هو بالضبط! ». أُصِبت بدوخة كما لو أنّ أحدا سدّد لي لكمة قوية. جُرحت في

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أعمامي وقلت له بالعربية كردّ على ضربته : « علاش ياسي محمد ؟ خايف اطيح من سرجك ؟ » ثم أضفت : « وماذا بعد ؟ ما هو الضرر ؟ أين هو العار حينما تتقنّ بلباس امرأة وأنت تقصد تضليل العدو في صالح كفاحنا ؟ تخشى أن يتم اعتقالك وأنت في لباس امرأة، أليس كذلك ؟ هل تعتقد أنّ وضع المرأة لاصق بالعار دائما ؟ ». امتلأت عينيّ بالدموع واختنق صوتي فتوقفت عن هجومي . وقفت للخروج كي لا تفضح دموعي ضعف المرأة وتزيد من إهانتها . أوقفني بن مهدي وشدّني من يدي وردّد مستعجلا : « لا ! لا ! فهمتني خطأ . ليس هذا ما أردت قوله ! وليس هذا ما تعتقدن ! اتركيني أشرح لك ! وإذا أردت سنناقش في الموضوع، بهدوء ورزانة، ولكن اجلسي أولا . تصوّري ردّ فعل شعبنا إذا عرف أنّ أحد قادته قد تمّ اعتقاله وهو في لباس امرأة . ليست المسألة في معرفة موقف بن مهدي من المرأة عموما، وبالأخص من المجاهدات أمثالكِ . اطمئني، أكنّ لجميع الأخوات المكافحات، احتراما كبيرا وإعجابا بلا حدّ . المسألة متعلّقة بطابوهات مجتمعا، ولهذه الطابوهات مكانة متجذرة في أوساط شعبنا، ذلك أنّ الاستعمار قد حرّمه من وسائل تطور سليم بإبقائه في جهل وأمية شبه مطلقة . إنها معطيات ليس من حقنا عدم أخذها بعين الاعتبار . يجب إذا أن ننظّم كفاحنا وفق الواقع الاجتماعي والثقافي والعمل على تطوير هذا الواقع، وذلك بإشراككن، أنتن النساء، في جميع مستويات المسؤولية . إنه عمل شاق وطويل المدى، ولا يمكن التخصّص له إلا بعد نيل استقلالنا . أما اليوم، فمهمّتنا الأساسية والوحيدة هي الكفاح من أجل استقلال بلدنا . هذا هو موقعي . ما رأيك ؟ » .

بصوت متردّد، أعطيتُ له رأيي : « ياسي محمد، أريدك أن تعرف بأنه منذ أول نوفمبر 1954، لم نتوقف، سامية وأنا، عن البحث عن وسيط يوصلنا إلى مفجري ثورة نوفمبر الذين ننتمي إليهم . كنت أنت والآخرون أبطالا

أشأوس في أعيننا. إنَّ الاحترام والإخلاص اللذين نكنَّهما لكم لا نظير لهما. ولكن اسمَح لي، فأنا لا أوافقك في هذه المسألة. أنت تعرف بأنَّ الأخوات المجندات في الكفاح، وأنا منهنَّ، قد واجهنَّ جميع عراقل مجتمعا، هذه التي تسميها أنت بـ « الواقع الاجتماعي والثقافي ». اضطررنا إلى اختراق وزحزحة جميع الممنوعات، أي الطابوهات مثلما تقول، التي صقلتنا منذ الصغر، وقد كسَّرنَا المانع الأساسي والأول المتمثل في العيش بعيدا عن الأسرة وفي اختلاط تام مع إخوتنا في الكفاح. وكنا واعيات تمام الوعي بأننا سنعرِّض أنفسنا إلى التهميش والمحكمة بالانحراف الأخلاقي من قبل مجتمعا، وكنا نعرف بأنَّ الفرنسيين، في مثل هذه الحالة، سيستغلون الموقف ضدنا وضد ثورتنا. ولكن كراهيتنا للاستعمار وتجنيدنا من أجل تحرير بلدنا كانا أقوى وقد تغلَّبا على جميع الاعتبارات الأخرى. وهل تعرف ماذا اكتشفنا؟ العجيب أنَّ شعبنا لم يحكم علينا بالانحراف ولا بالمساس بالتقاليد أو تدنيس شرف القبيلة، بل الذي حدث هو العكس تماما. شعبنا يحترمنا ويفتخر بنا ويساعدنا ويحمينا. أتريد دليلا؟ في هذه اللحظة بالذات، نتواجد، أنت الرجل وأنا المرأة، في غرفة واحدة، يستقبلنا أهل الدار ويحسوننا ويحترموننا، بل ويجلِّنا، أهل عائلة بلحفاف، المحافظة كغيرها من بقية العائلات الجزائرية، ولكنها قرَّرت وضع الثورة فوق جميع الطابوهات ». سكَّتُ لأنني لم أتحجَّ أن أقول له أنَّ الطابوهات لا تزال تعشَّش أولا في رؤوس قادتنا أكثر مما هي عند شعبنا، كما أنني لم أجرؤ على القول بأنني جُرحت أكثر لأنَّ الخضوع للطابوهات جاءني منه، هو بن مهيدي الكبير الذي تكاد ترتقي مكانته عندي إلى مصف الأنبياء. خفضت عينيَّ، وقد فلتت من لساني حكمة روني شار شاعري المفضل : « إن الجلاء هو الجرح الأقرب إلى الشمس ».

قهقهه سي محمد وسألني : « لمن هذه المقولة الرائعة ؟ أمازلتِ تقرئين كسابق عهدك ؟ أين تجدين الوقت للقراءة ؟ ». قلت : « إنها حكمة لروني

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

شار، شاعر مقاوم. إنك تعرف بأنّ الكفاح ضد الطابوهات يخلق الوسواس والأرق. لذلك، فأنا أكثر من القراءة كطريقة للعلاج، كي أقاوم. هناك من يقاوم الوسواس والأرق بتغذية نفسه من الفم، أما أنا فأغذي نفسي من العينين والخلايا العصبية ». يقهقه ثانية ويقول لي : « يجب أن نختم نقاشنا. أرى بأنك على صواب، ولكن فقط في المطلق، كي يكون رأيك صائبا تماما، يجب أن يكثر عدد الفتيات أمثالك وأن يعملن على تغييرنا جميعا، بمن فيهم الإخوة. في انتظار ذلك، تأكّدي بأنكن تمكّنن من فرض الاحترام والإعجاب بفضل تجنيد كنّ الكلي وشجاعتكن الرائعة. وهذا لا تدينّ فيه لأحد سواكن، وهو في حدّ ذاته ثورة في رأس الكثير منّا. أعرف من اليوم بأنّ لا أبّا سيحرم ابنته من الدخول إلى المدرسة أيام الاستقلال بفضلكن أنتن المجاهدات، هذا هو الشيء المهم. ولا تنسيّ الهدف الأساس من كفاحنا : الاستقلال. أما فيما يخص موضوع سفري إلى وهران، سنتحدّث فيه لاحقا. تصوّري أنّي أنا أيضا يعتريني الأرق، وبصدق أقول لك بأنّ أسبابه مختلفة تماما عن أسباب أرقك ووساوسك أنت، ولكنني سأجرب طريقة علاجك. هل يمكن أن تأتيني بكتاب حينما تزودين نفسك بكمية منها ؟ » أجبت : « طبعاً ! ». وقفت، تبادلنا تحية التصالح وخرجت.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة صباحا، فقررت الذهاب إلى المكتبة الوطنية، ذلك أنني لم أكن محل بحث من طرف الشرطة. كنت أمشي وأبتسم وأنا أفكر في حسّ المزاح عند سي محمد واحترامه للمناضلين البسطاء مثلي، ولا يمنع نفسه من تخصيص وقت للمناقشة والاستماع إليهم. وفكرت بأنه ربما كان على صواب في مسألة الطابوهات. وبما أنني متعوّدة على منهجي في التفكير الذي يخضع دائما للفكرة والفكرة المضادة والاستنتاج، أعطيت الوعد لنفسي للنظر في المسألة بجدية وعناية أكثر، بمجرد أن أجد الوقت الشاغر.

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

ولم أجدّه قبل الاستقلال لأنّ الأحداث تسارعت بوتيرة مربكة . عندما وصلت إلى المكتبة الوطنية، كنت لا أزال غائصة في أفكاري، وأدركت وأنا أتصفح البطاقات أنني لم أطلب من سي محمد أي نوع من الكتب يريد قراءتها . في الاقتصاد ؟ العلوم السياسية ؟ الأدب العام ؟ الرواية ؟ المصنفات الفكرية ؟ الشعر ؟ باختصار، بقيت حائرة في نوع الكتاب الذي سأختاره له .

تعبت من الدوران في حلقة مغلقة، فقرّرت اختيار كتاب في القانون الدستوري ومؤسسات الدولة والأنظمة الانتخابية وذلك نظرا لرتبته في المنظمة، مُقدّرة بأنه يجب أن يحضّر نفسه من الآن لقيادة دولتنا الفتية المستقلة . بعد ساعات قليلة، حينما أعطيت الكتاب – نسيت اسم مؤلفه وعنوانه تماما – لسي محمد، أخذه وقرأ نص الغلاف الخلفي وهو يحرك حاجبيه، ثم رفع عينيه إليّ وانفجر ضحكا وهو يسألني إن لم أجد كتابا أكثر جدية من ذلك الذي اخترته له . شرحتُ له الحيرة التي انتابتني وأنا أتصفح بطاقات الكتب في المكتبة الوطنية والأسباب التي حثّنتني على هذا الاختيار، ملحة على ضرورة أن يحضّر نفسه من الآن لقيادة البلد الذي سيستقل حتما . أسّر لي بأنه سيعمل على تضليل الأرق مع ذلك الكتاب الضخم، إلا أنه كان يفضّل رواية أو مسرحية، هو الذي لا يستطيع الخروج ومغادرة مخبئه مثلما كنت أفعل .

ثم اتخذ هيئة جادة بدت لي حزينة وقال :

« إن هدفنا الوحيد اليوم هو استقلال بلدنا . من واجبنا أن نتّحد، وأن نضمّ أكبر عدد ممكن من الناس إلى قضيتنا . لا ينبغي أن يغيب هذا الهدف عن أعيننا . عندما سننال استقلالنا، ستطرح مشاكل أخرى على الذين سيقون على قيد الحياة . هل سأكون منهم ؟ هل سأموت ؟ لا أحد قادر على الجواب عن مثل هذه الأسئلة . وقبل ذلك، لدينا أشياء كثيرة يجب علينا القيام بها

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

كي نحرّر بلدنا. العدوّ شرس، والتضحيات عظيمة. إنّ السؤال الوحيد الذي يهمني هو معرفة إن كنت مستعدا للتضحية بنفسي. إليك، أقولها بكل بساطة : نعم فأنا مستعد. لذلك، سأرجع إليك هذا الكتاب الضخم، وأخذ بدله الكتاب الذي اخترته أنتِ لنفسك. أظن أنها رواية لدستويفسكي. جيّد، يناسبني تماما ».

رجعت بكتابي الضخم، أجزّ خيبة أُملي، ولكنّي كنت في المقابل أكثر إعجابا وانبهارا وامتنانا لبن مهيدي. أما فيما يخص سفره إلى وهران فلم نتحدّث عنه ثانية.

تمّ اعتقال بن مهيدي يوم 23 فيفري مثلما ذكرت الصحافة. كانت الجريدة على ركبتيّ والصورة على الصفحة الأولى تواجهني وقلبي يتقطّع ألما. انهمرت دموعي مدرارة على وجهه والعينين اللتين تنظران إليّ. فهمت أنّه أراد أن يرسل إلينا وإلى كامل شعبنا رسالة خاصة في اللحظة التي اشتعلت آلات التصوير لأخذ صورة له. استعمل صورة العدو ليخاطبنا ويوجّهنا للمرة الأخيرة وهو يُظهر ثقة هادئة زادها إشراقا لمعان العينين والابتسامة الخفيفة التي أنارت وجهه. كانت رسالته واضحة ومُفحّمة : لا يمكن أن تنتصر القوة الفظة على القوة المعنوية. تقول لنا عيناه أنه لا يمكن لأية قوة في العالم أن تكسّر إرادة شعب بأكمله. أما هو، فقد قرّر واستعدّ للتضحية العظمى، التضحية بالنفس. كان يعبر عن كل ذلك بقوة وسكينة.

• اغتيال بن مهيدي

صُدِمْتُ باعتقال بن مهيدي. أغرقني الخبر لساعات طويلة في يأسٍ مُشلٍّ. ثمّ، شيئا فشيئا، استرجعتُ رباطة جأشي وبدأ يراودني الأمل. وبفضل تمارين الإقناع النفسي، فكّرت بأن السلطة الفرنسية لو أرادت فعلاً تعذيبه إلى حدّ

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

الموت أو « القضاء عليه »، لما قدّمته للمصوّرين لحظة اعتقاله. تُظهر الصورة التي نشرتها جميع الصحف رجلاً مقيّد اليدين ولكنه رجل في صحة جيّدة، بنظرة ساخرة وهيأة حازمة. بل وفكّرْتُ بأنّ بن مهدي، باعتباره عضواً في حركة التنسيق والتنفيذ، سيحظى بنفس معاملة الإخوة الخمسة الذين اعتُقلوا بتحويل الطائرة التي كانت تقلّهم من المغرب إلى تونس في أكتوبر 1956. من جديد، شنت الدعاية الفرنسية حملة حول اعتقال قائد مُهم لثورتنا من أجل إضعاف « الأفلان » والخطّ من قيمته في عيون شعبنا والإيحاء بأنّ فرنسا هي الأقوى بجيشها الكولونيالي الجبار. ولكن ما أثار انتباهي، بل وحيرني، في تلك الحملة، عنصر جديد لم نعتوّد على سماعه : أوردت بعض اليوميات أنّ ماسو وبيجار قد أُسرّا للصحفيين عن احترامهما وإعجابهما بشخصية بن مهدي. لقد نوّه مجرماً الحرب بذكاء قائدنا، وحسّه السياسي وشجاعته ورقّته وقدراته الفكرية وكذا الطابع التوقعي لتحليلاته. لقد سرد الرجلان ما لم يخشَ بن مهدي من قوله : « إنّ « الأفلان » سينقل الحرب من دانكرك إلى تامنراست »، مؤكّداً على انهزامهما اللاحق. كنا فيما سبق متعوّدين على الأكاذيب المدمّرة والاغتيابات الأكثر قساوة والخطّ من قادتنا ومناضلينا الموقوفين، ولكن هذه المرة لم يجد ماسو وبيجار الكلمات لمدح بن مهدي. بدا لي ذلك مربياً : في الوقت الذي ملأتني تلك المدائح فخراً واعتزازاً، إلا أنني وجدت أنّ تلك التصريحات تخفي شيئاً مدبراً خطيراً، فحاولت فك سرها بقراءات متكررة ودقيقة للمقالات الصحفية المتعلقة ببْن مهدي. وبعد تلك الحملة الإعلامية الوهاجة حول قائدنا، تلاها صمت مطبق كما لو أنه لم يوجد أبداً. لا شيء ولا أدنى مقالة، ولا حتى عمود.

فمنذ اعتقاله، تجنّد ياسف سعدي وكامل أعضاء المنظمة لمعرفة مكان اعتقال بن مهدي، بلا جدوى. وخلال تلك الأيام الرهيبة من القلق والانتظار

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

ونحن بلا أدنى خبر، حدث لي أن قلت لجميلة وحسبية « ربّما نقلوه إلى فرنسا ويوجد الآن مع الإخوة الآخرين الكبار ؟ ». لم نكن نعرف شيئا، لا عن مكان سجنه، ولا عن حالته الصحية برغم كل محاولات البحث التي قام بها ياسف والإخوة، بحكم الواجب، ولكن أيضا بحكم الاحترام والإخلاص والإعجاب والتعاطف. أما بالنسبة لي، فزيادة على الواجب والاحترام والإخلاص والإعجاب والتعاطف، أضيف الورع. نعم الورع، لأنني وإلى هذا اليوم، أنا مقتنعة أشد الاقتناع بأنّ الله هو الذي بعث العربي بن مهيدي ليقودنا إلى الهدف، وتسطير الطريق وتعليمنا كيف ننفض واقفين نحو نور التحرير.

في صبيحة 06 مارس، نشرت الجرائد الخبر الحزين : لقد مات بن مهيدي. وكتبت إحدى الجرائد ما يلي : « انتحر بن مهيدي بشنق نفسه بحبل صنعه من قميصه الذي مزّقه ». عشنا وفاة سي محمّد كزلزال مدمر. كانت الضربة موجعة وقاسية جدا، ولكن لا أحد منا اقتنع برواية الانتحار. أخرسنا الألم، لأننا كنا نعرف أنّ قائدنا قضت عليه القوات الفرنسية باغتياله داخل زنزانته. وقد تضاعف الحقد الذي نكنه لهذه السلطة الاستعمارية الظالمة. بالنسبة لي، وإلى اليوم، أعتبر أنّ وفاة بن مهيدي كان فقداننا عظيما، بل أكثر من هذا، أنا متأكّدة بأنّ الثورة والجزائر المستقلة قد نقصتهما تحاليل سي محمد وخبرته السياسية المحنّكة. كان رجل كلمة وقناعات راسخة، وكان يؤمن بشعبه وبثورته إيمانا شبه ديني. كان يملك النبل وتحفظه، كما كان يملك التواضع اللائق بالكبار وحدهم مما يجعله قريبا من الناس البسطاء. كما كان في الوقت نفسه قائدا حقيقيا يحظى بالإجماع ومكافحا قريبا ومحترما للمناضلين، ومخطّطا رؤيويا ورجلا سياسيا مخيفا : وهذا ما كان يحتاج إليه بلد استقل حديثا. كان لي حظ الانتماء إلى المجموعة التي عاشت معه في القصبة، بين أكتوبر 1956 وفيفري 1957، فيمكن لي تقديم شهادتي أنه، وإلى

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

جانب خصاله كقائد مسير، فإنّ لبن مهدي خصالا إنسانية خارقة للعادة. إلى النهاية، حتى في غيابه، سيبقى قائدي ومرشدي وملهمي. كم مرة تساءلت، حينما يواجه بلدي أزمة أو وضعا صعبا، كيف يمكن لبن مهدي أن يتصرّف أو يفكر، لكي أبنني وأقوي موقفني؟ ولكن في الوقت نفسه، إلهي كم يصعب أن نستلهم آراءنا من سي محمد، من صرامته المعنوية ومن حسّه المرهف كشفرة الحلاقة! إنّه ينتمي إلى تلك الحفنة من الرجال والنساء الذين لا يظهرون إلّا مرة واحدة في كل قرن.

انطلاقا من هذه الاعتبارات، فكيف يمكن لرجل بهذا القدر العجيب أن ينتحر وهو معتقل؟ في حقيقة الأمر، لا أحد اقتنع برواية الانتحار، سواء في معسكرنا أو في معسكر العدو. إنّ قناعتي العميقة، والتي تشكّلت بعد سنوات من وفاته، أنّ الحكومة الفرنسية هي التي أمرت بتصفيته الجسدية، ممثلة في وزيرها للعدل آنذاك، فرنسوا متيان. وحسب كتابات السفّاح المجرم بيجار، خلال محادثاته مع بن مهدي، اقترح عليه أن يحرّره من قيود يديه ومن السلاسل التي تربط قدميه، فرفض قائدنا الكبير موضحا أنه إذا تحرّر من قيوده، فلن يفكر إلا في أمر واحد: الفرار، بالقفز من النافذة إن أمكن له ذلك، لأنّ الفرار واجب كل قائد معتقل أثناء الحرب. هكذا، وفي مواجهة العدو، يتحمل سي محمد مسؤوليته باعتباره قائد منظمنا من أجل استقلال الجزائر. لم تكن لديه هيئة ونفسية المُقدم على الانتحار. في حقيقة الأمر، إنّ ماكس لوجون، كاتب الدولة للقوات البرية في الجيش الفرنسي والذي أرسل إلى الجزائر خلال اعتقال بن مهدي، قد عبّر للسفّاح ماسو عن رغبة باريس في اختفاء السجين الخطير. في باريس، كان فرنسوا متيان، وزير العدل، حافظ الأختام، يقوم بمهام رئيس المجلس بالنيابة، في وقت كان « غي مولّي » في رحلة إلى مجموعة من الدول الأوروبية بعد أن ألقى خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة حول « المسألة الجزائرية ».

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

بعد مرور سنوات من تلك الحادثة المشؤومة، كتب بيار بليسي، أحد المؤلفين الكثر الذين تناولوا « معركة الجزائر »، وهو المعروف بإخلاصه الكلي للسلطة الفرنسية : « ... ربما يكون ضابط قد كُلف بنقل الأمر، بلا حقد، ولا حماس، ربما بندم، لأنّ الخصم كان كبيرا ؛ ويكون عسكري آخر قد نفذ الحكم السياسي ... يكون رجل، تحت الأمر، قد شدّ رقبة بن مهدي إلى أن لفظ أنفاسه ». إذا، بالفعل، إن السلطة السياسية الفرنسية هي التي أعطت الأمر ونفذت الإعدام التعسفي على بن مهدي، بلا محاكمة، في وقت كان فيه معتقلا في سجنها وتحت حمايتها. إنّ السؤال الذي بقي مطروحا إلى يومنا هذا : « لماذا ؟ ». أتمنى للمؤرخين الشباب والباحثين أن يجيبوا على هذا السؤال حينما يُسمح بالاطلاع على جميع أرشيف تلك الفترة الحرجة من تاريخنا.

في ذلك اليوم من 06 مارس 1957، اجتمعنا حول « الخو » فأعلنت جرائد الصباح موت بن مهدي. صُدمنا وأصابنا انهيار وحزن. اختفيت في غرفة وأعدت قراءة جرائد 23 فيفري تحمل تلك الصورة المعبرة لسي محمد آملة أن تسعفني تلك الصورة على استلهاهم طاقة مواصلة الكفاح. أجهشت بالبكاء وأنا أتأمل الصورة، فأصابتنني رسالته الأخيرة كوابل من الرصاص : إنّ قوة فرنسا الفظة لن تنتصر أبدا على عدالة وشرعية قضيتنا. قفوا ! انتفضوا ! ستعيش الجزائر حرة مستقلة ! كانت الدموع تنهمر كالوديان وأنا أكرّر بأنه علينا أن نكون جديرين بتلك الرسالة التي نقلها إلينا بن مهدي وهو بين مخالب ماسو وبيجار، معتزا ومفتخرا بشعبه وبقضيته. بكيت وأنا أقسم أن أوصل الكفاح لحمل رسالته الأخيرة وتحقيق ما ضحّى بحياته من أجله : الانتصار أو الموت.

إلى يومنا هذا، يوجد الكثير منا من لم يتمكن بعد من تقبّل وفاته وتجاوز لحظة الحداد مثلما نفعل مع موتانا الآخرين. خسارة كبيرة للجزائر والجزائريين.

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

اقتنعت بذلك منذ لحظة إعلان وفاته. عادة ما أجد نفسي أحاول تصور كيف كان سيكون مسار بلادي وواقعه إن لم يسقط في ميدان الشرف كل من بن مهيدي وعبان رمضان وديدوش مراد وبن بولعيد وسي مراد وحسيبة...

لنعد إلى مارس 1957... سيتضاعف « عمل التنظيف »، العبارة العزيزة عند ماسو السفّاح، وعملية « الصيد بالشبكة » ستدخل آلاف الأشخاص إلى المعتقلات وتخضعهم للتعذيب الحتمي. يكتب ماسو بعد سنوات: « التعذيب فعّال. ينهار أغلب الناس ويتكلمون. وبعد ذلك، وفي غالب الأحيان، نقضي عليهم ». ولم يستثنِ الرعب المناضلين من جذور أوروبية، خاصة إذا كانوا من أصول شعبية أو شيوعيين. لقد تمّ تفكيك وتكسير كل الشبكة الشيوعية. وإلى غاية اعتقاله، كنت أشهد كل يوم اعتقال الأخوات والإخوة الذين ماتوا تحت التعذيب أو قُتلوا برميهم من نوافذ الطوابق العليا، زيادة إلى أنّ الآلاف من النساء والرجال اختفوا إلى يومنا هذا، ولا أحد يعرف قبورهم. لقد تمّ رمي جثامينهم في البحر، أو في الآبار المهجورة أو في الدهاليز أو في أعماق الحدائق، ليرحمهم الله ويُسكنهم فسيح جنانه. إن هذه الأرض وسهولها وجبالها وبحرها، أرض الجزائر بأسرها مسقية بدماء أبنائها التي منحوها هبة لها كي تعيش عزيزة مكرّمة.

● اعتقال جميلة بوحيرد

منذ منتصف فيفري 1957، أقمنا في شارع النيل، لدى عائلة تتكوّن من عانستين تقومان بتربية ابن أختهما، محفوظ وأخته نصيرة، وهما يتيما الأبوين. كان محفوظ في حوالي 18 من عمره، يتصرّف مع خالتيه وأخته الصغيرة كربّ عائلة حقيقي. كان مناضلا نشيطا، يؤدي مهامه بصرامة كبيرة وسرية تامة. ما سمح له بتفادي الوقوع في مخالب ماسو ومظلييه التي بسطت سيطرتها على كامل القصبة.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وكغيره من سكان القصبة، كان على دراية كبيرة بجميع المdahمات وحملات التمشيط والتفتيش والتعذيب والابتزازات التي يقوم بها المظليون ليلا ونهارا. لقد كان شاهد عيان على قتل المظليين لجزائريين ببرودة دم في شوارع راندون وماريغو وغيرها أمام حشود المارة، حيث كانت الصحافة تنشر الخبر نهار الغد تحت عنوان : « القضاء على رجل حاول الفرار عند اقتراب دورية المراقبة ». كان المظليون يظنون أنهم، وبهذه الطرق البهيمية، يخوفون ويرهبون السكان. كان هؤلاء الذين قُتلوا ظلما وعدوانا إخوة لنا، وإن كان قتلهم بهذه الطريقة الوحشية مؤلما، غير أنها تزيد الجزائريين إيمانا بأن الذين سقطوا تحت رصاص العدو هم شهداء القضية العادلة والمقدسة ألا وهي تحرير البلد من جور فرنسا الاستعمارية التي يجب محاربتها بكل الوسائل الممكنة. وخلافا لما كان يظنه ماسو ولاكوست، فإن سكان القصبة، مثل سكان الأحياء الشعبية الأخرى، لم يرفضوا مساندتنا بل واصلوا حمايتنا دوما برغم قساوة حظر التجول وانتقام المظليين الشرس. وسيكون لنا الدليل القاطع خلال الأيام الموالية إلى غاية اعتقال أو قتل جميع أعضاء مجموعتنا.

كان مخبأ شارع النيل يعرفه أعضاء جماعتنا فقط، عليلو، سي مراد، الخو، جميلة، حسيبة وأنا، ويشكل ظروف أمن قصوى، ما يسمح لقائدنا بالقيام بحوصلة دائمة للقمع الشرس الذي تعرّض له شعبنا خلال أيام الإضراب الثمانية، والبدء في إعادة تشكيل الشبكة ونشرها، كان علي لابوانت ورامل يقيمان في منزل ثري آخر يقع بدرب « لافوازيي »، المنفتح على شارع راندون. كان المنزل ملكا لزوج خالة جميلة بوحيرد، خالتي زُغلة، وهي أرملة وتقيم مع أولادها. وتطبيقا للمعلومات الجديدة، ليس من حق أي مناضل غريب عن المأوى أن يعرف عنوانه ولا اسم العائلة التي تؤويه. وكلفنا، جميلة وأنا، بالتنسيق والتواصل بين شارع النيل ودرب « لافوازيي ». وحدث أن

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

أُصِيبَتْ جميلة بآلام في المعدة أجبرتها على التزام السرير خلال أسبوع كامل . وقد رافقتها أثناء مرضها إلى درب « لافوازيي » عند خالتها، لأنَّ حالتها تتطلب رعاية طبية . وكان طبيب العائلة يعرف عادات شعبنا، ولن يندهش بوجود جميلة مريضة عند خالتها وسيقدِّم لها العلاج اللازم، بدون أي خطر عليها وعلى المنظمة .

بدأ شهر رمضان لعام 1957 يوم 1 أو 2 أفريل . وكانت أغلبية العائلات تباشر الصوم في ظروف جدَّ صعبة، لأنَّ كل واحدة منها قد فقدت فردا، سواء بالسجن أو القتل . ومع ذلك، لم يستسلم سكان القصبة . فاستقبلوا شهر الصوم بحفاوة وخشوع . هكذا، فإنَّ ليالي رمضان، إن لم يكن لها بهاء السنوات السابقة، إلا أنها لم تخلُ من الحيوية والنشاط . في الثامن من أفريل 1957، استدعانا « الخو » إلى شارع النيل، وكانت جميلة لا تزال مريضة . تلحَّفنا بالحايك وصعدنا شارع راندون تحت سماء ربيعية باتجاه مكان موعدنا . وقد تركتني جميلة أشقَّ الطريق قبلها لتتأكَّد إن كنت، بعد ستة أشهر من الإقامة بالقصبة، أستطيع التوجَّه في تلك المتاهات المعقَّدة بلا مرشد . فبعد شهرين من الاختفاء والسرية، كنا مسرورين بنجاحي في السير الصحيح، وبذلك الإحساس بالحرية، وإن كنا ملحفتين، عبر أزقة المدينة العتيقة . في 14 من شارع النيل، خيم جوٌّ ثقيل يلفُّه صمت مريب يسدُّ الشهية ويقبض النفس . كان سي مراد والحو وعليلو وحسيبة ساكتين لا ينطقون ببنت شفة ومنكمشين على أنفسهم . صُعِقْنَا بِذَلِكَ الصمت المنذر بمصيبة جديدة . وكي أخفف من وطأة تلك الكآبة، قلت مندفعة : « بعد اغتيال سي محمَّد، لا شيء يمكنه أن يؤلّمني أكثر . أضحى الموت رفيقنا، وربما مصيرنا جميعا » . وبعد ذلك أخبرنا الخو أنه في تلك الصبيحة تمَّ شق ثلاثة من إخواننا : لوني أرزقي، المدعو زينزر، بادوش سعيد ومعمري أعمر . لم يكن موتهم هو الذي

مُذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أنزل علينا تلك الكآبة . لقد قبلنا الموت وأدرجناه ضمن حياتنا، في قناعة أنه عربون لجزائر حرة ومستقلة . لا، ليس الموت في حدّ ذاته هو الذي أحزننا، وإنما قساوة ذلك الموت، بقطع الرأس بالمقصلة، هذا الآلة الفرنسية بامتياز . وكنا نعرف أنّ الجلاّد يقيّد يدي مكافحنا في الظهر، ويُنيمه على البطن ويدخل الرقبة العارية من فتحة صغيرة لتكون عرضة لضربة شفرة المقصلة الحادة، كي يقطع الرأس ويفصله عن الجسد . فيسقط رأس المناضل في سلّة، لئلاّ يستقبل كغنيمة حرب بربرية، دموية ومفضوحة، تشهرها قوّة من الحلف الأطلسي في عملياتها المتواصلة لإبادة شعب فقير أعزل، وتبقي الناجين من سكانه تحت هيمنتها واستعبادها . وكنا نعرف جميعا أنّ هذه الطريقة الوحشية في قطع الرؤوس، تقصد بها السلطة الفرنسية رفض إعطاء موت يشرف المكافحين، حيث يقف هؤلاء يواجهون الموت، وأعينهم في أعين الجلاّد . وكانت هذه الطريقة في قتل مكافحينا تؤلّنا وتخرس ألسنتنا . ولن يُنسى هذا الألم ولن ينطفئ أبدا، ينطبع بداخلنا إلى الأبد، كالموت . لقد سمعت عن بطولات الكثير من الإخوة ولكنني لا أعرفهم . كما أنني لا أعرف « زينزر » الذي تابعت مطاردة ومحاصرة المظليين له . لقد تمّ إخضاعه إلى تعذيب شنيع، مثلما رويته لكم . وقد تمّ قطع رأس زينزر بالمقصلة في ذلك الصباح في سجن بربروس / سركا جي . وفي يوم إعدامه، استيقظ باكرا، نهض من فراشه، أخفى آلة معدنية سننها لتكون حادة كشفرة الحلاقة، وأثناء مشيه نحو الموت، تصرّف كفدائي حقيقي، رفع يده وضرب بالشفرة الحراس الذين أحاطوه، جارحا إياهم جروحا بليغة، وهو يصيح : « تَحْيَا الجزائر » و « الله أكبر »، ثمّ توجه بخطى ثابتة نحو المقصلة . هكذا توفي أخونا لوني أرزقي شهيدا، بعد أن تمّ توقيفه يوم 24 ديسمبر 1956 .

في مساء الثامن أفريل 1957، بعد الإفطار، وفي فترة تناول القهوة، سمعنا أصواتا ضاحجة آتية من داخل المنزل . كان محفوظ في حوار ساخن ومُتوتر

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

مع خالتيه المرعوبتين من الإعدامات بالمقصلة. كانتا تصرخان خوفا على ابن أختهما لأنهما عرفتا أنه، هو رجل الدار الوحيد، يشتغل مع المجاهدين ضد المظليين الفرنسيين. كانتا مرهوبتين لفكرة أن تقتحم زمرة ماسو المتوحشة المنزل وتعتقله وتعدمه. فكانتا تتوسلان إليه أن يحافظ على حياته وحياة أخته وخالتيه العجوزتين. قالتا أن ذلك واجب تجاه أبويه المتوفيين. تبادلنا النظرات وفهمنا أنه من الضروري علينا مغادرة المنزل. كانت قاعدتنا الأساسية أن لا نفرض على أية عائلة أن تؤوينا ضد رغبتها، ولم يخترق الأخ ياسف هذه القاعدة أبدا. في نهاية السهرة، أخبرنا الخو برحيلنا المبرمج لفجر نهار الغد. وهو الوقت المناسب للتنقل، لأن الشوارع كانت فارغة.

في الرابعة والنصف صباحا، كنا مستعدّين بعد أن تأكدنا من أننا لم نترك أثرا لإقامتنا في تلك الغرفة. وصل علينا، وغادرنا مخبأنا حسب الترتيب الذي أعدّه « الخو ». تقدّم محفوظ المسير، وتمثّل مهمته في مواصلة السير في طريق مستقيم عند وصولنا إلى مفترق زقايّ نفيسة وسيدي بن عليّ. تتبعه حسيبة، ثم الخو، وبعد ذلك أنا، ويتبعني عليو، وتأتي جميلة في آخر الرتل، وهي تحمل محفظة سميكة بها وثائق مهمة ومسدس أو اثنين ومشط أو اثنين أيضا. لقد أوصاها الخو أن تعود القَهْقَرى عند وقوع أيّ حادث. وأخيرا يبقى سي مراد في 14 من شارع النيل. كان زقاق « نفيسة » غارقا في نصف ظلمة وبه سلالم طويلة صاعدة. عند وصولنا إلى زاوية زقاق سيدي بن علي، واصل محفوظ طريقه، في الوقت الذي باشرت حسيبة الزقاق متبوعة بالخو، عاد محفوظ على خطاه وهو يصيح ويشير بيديه : « دورية ! دورية ! تفرّقوا ! ». قفز « الخو » وألصق جسده على جدار الزاوية اليسرى من زقايّ سيدي بن عليّ ونفيسة. سمعت طلقات الرصاص وأنا أركض خلف حسيبة، وعينيّ ملتصقتان بجسدها لأنني كنت أجهل العنوان الذي نقصده. فجأة

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

سقطت أرضاً. كانت الصدمة قوية بحيث بقيت مدوّخة، أحسّ بجسدي يتفكك. وجد عليلو الذي كان يتبعني صعوبة في إرجاعي إلى الواقع. هزّني، وحثني على النهوض لمواصلة الفرار، ولكنني لم أتحرك كما لو أنّ جسدي لا يمكن أو لا يريد الاستجابة لرغبتني في الركض نحو مخبئي الجديد، كما لو أنه يُهملني هنا. فبقيت أنتظر وصول العدو ليقضي عليّ. ولكن عليلو أصرّ على نهوضي لمواصلة الجري. هزّني بقوة مرات عديدة. صرخت له أنّ يهرب وينجو بنفسه ولا يفكر في مصيري. ولكنه جلس بجانبني وأقسم أنّ لا يغادر المكان إذا رفضتُ الوقوف. في لمح البصر، مرّت صورة عليلو - عوّن اتّصال الخو - وهو رهن الاعتقال وأحدثت في مخي شحنة كهربائية دفعتني إلى الوقوف، وأنا أتكى على أخي عليلو وأستأنف الركض. ولم أكن قد استرجعت كل حواسي بعد. حينما عدت إلى رشدي كلية، وجدت نفسي أجلس مربّعة الساقين، الحايك ملفوف حول ذراعي الأيمن، والعجار يتدلى على رقبتني وأنا داخل غرفة بسقف واطئ، جدرانها مدهونة بالجير مثل قاعة صلاة صغيرة. كان السقف والنصف الأعلى للجدران بلون أبيض والباقي مصبوغ بالأخضر الفاتح مثل أضرحة الأولياء الصالحين. كنت كمن استيقظتوا من إغماء، فألقيت نظرة ذهول حولي. لم أكن وحدي، كان يحوطني ستة أو سبعة رجال بجلابيب بيضاء وفي أيديهم سُبُح وشفاهم تتحرّك وهم غارقون في أدعية خاشعة. كنت داخل مُصلّى. وقفت فجأة، دون أن أتلفظ بكلمة، سرّحت الحايك، ارتدّيته وخرجت بهدوء. لم أجرؤ على مخاطبة أولئك الرجال، الملائكة، الذين قاموا بلا شك بحمايتي مدة ساعات، بأجسادهم، بأدعيتهم، بصمتهم. لم يطلبوا مني شيئاً. واصلوا تلاوة أدعيتهم في صمت. وبدوري لم أقل لهم شيئاً. وحده بصري نقل لهم امتناني وعرفاني الأبديين. في الخارج، كان النهار قد طلع منذ فترة طويلة.

كنت في شارع « السارازين »، غير بعيد عن زقاق سيدي بن عليّ، إذًا، كنت متواجدة في مسجد « بوركيسة » الصغير، لا أعرف متى وكيف وصلت إليه، كانت الصورة الأخيرة اللاصقة بذهني تعود إلى الفجر، فاستحضرت رصاص الرشاش وسقوطي المدوّي، وعليلو يهزّني كي أستأنف هربي. تمكنت من إيجاد طريقي إلى غاية 14 من شارع النيل؛ إنه القانون: في حالة حدوث أي عَقْبة تحول دون الوصول إلى المخبئ الجديد، يجب فوراً العودة إلى عنوان المخبئ القديم. وصلت قرب باب منزل محفوظ، انفتح الباب كما لو أنهم كانوا يترقبون مجيئي، فأمسكني سي مراد من الذراع، وأدخلني وأغلق الباب: « أين كنت؟ لقد خرج محفوظ وعليلو للبحث عنك ». كنت عاجزة عن التلطف بأدنى كلمة، عاجزة عن صياغة السؤال الوحيد العالق بذهني والذي يحرق شفتي: ما مصير « الخو »؟ فجأة، سمعتُ صوت سي مراد يطرني بخبر رهيب، الوحيد الذي لم يخطر على بالي قط: « لقد جُرّحت جميلة وتمّ اعتقالها ». كنت أسمع ولكنني لا أفهم ماذا يردّد سي مراد على مسمعي.

كنت لا أزال تحت أثر الدّوخة، فقلت له: « تتحدّث عن ياسف، هو الذي كان يتبادل طلقات الرصاص مع المظليين، إنه مجروح فقط ». جميلة معتقلة؟ أمر عبثي، غير معقول. كانت في الخلف تغلق السير، بعيدة عن تبادل الرصاص، وكان عليها أن تعود القَهْقَرَى في حالة حدوث أيّ مشكل. جرّني سي مراد إلى داخل البيت، ووجد صعوبة في تهدّثي. أراد أن يُشربني الماء فرفضت، إنه شهر رمضان، الشهر المقدّس، وفكّرت في المصلّى الذي أوّاني وحماني. وقد ضاعف سي مراد اضطرابي حينما سألني إن كنت أعرف أين يوجد « الخو » وحسيبة، وهو يطمئنني بأنهما لم يُعتقلا. نظرت إليه بذهول، وأنا ألومه على إخباري هو الذي مكث داخل الدار ولا يعرف شيئاً عمّا حدث، لم يكن معنا، لم أفهم وتشبّثت بالفوضى التي تشوّش ذهني

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

كما لو أنّ هذه الفوضى تسمح لي بمقاومة الحقيقة المرة التي سمعتها ألا وهي وقوع جميلة في مخالب المظليين، كما لو أنّ كل ذلك لم يكن إلا كابوسا مزعجا سينقش ضبابه بعد حين. كنت آمل أن أستيقظ لأجد بقربي جميع أخواتي وإخوتي، عندئذ تساءلت : « كيف لسي مراد أن يعرف ؟ إنه لم يكن معنا ! ». ولكنه كان يعرف، وشرح لي وهو يهزّني لماذا يعرف ؛ لقد اختفى محفوظ في الأعلى، عند زاوية زقاقي نفيسة وسيدي بن علي وتابع كل المشهد : تبادل إطلاق النار بين « الخو » والمظليين وتوقيف أختنا جميلة. وبعد ذلك، عاد إلى شارع النيل وحكى له كل شيء. روى له كيف سقطت جميلة وهي مجروحة برصاص المظليين. لقد فقدت كثيرا من دمها، فلحققتها دورية ثانية جاءت تقدّم الدعم لزميلتها عند سماعها إطلاق الرصاص.

كان « الخو » في أعلى الزقاق وتمكّن من الاختفاء في اللحظة التي تراجعت فيها الدورية الأولى إلى الورااء كي تتفادى إصابته بالرصاص. لم أكن أعرف أين يوجد « الخو » وحسبية، ولكنني قدّرت أنه من الواجب إخبار عائلة جميلة وعليّ لابوانت الذي كان سي مراد يجهل مخبأه. لبست الحايك وغادرت شارع النيل أتحرج عبر الأزقة النازلة نحو درب « لافوازيي ». عندما وصلت إلى العنوان، بدأت أدقّ على مطرقة الباب كالمجنونة. انتظرت دهرًا قبل أن يفتح الباب، وحين رأته خالتي زَغلة صاحت : « لماذا تدقّين الباب بهذه الطريقة ؟ هل يطارذك المظليون ؟ ». أشرت برأسي أن لا، وأسرعت نحو الغرفة التي تأوي الإخوة عادة : « أعرف أنّ عليّ هنا، يجب أن أكلمه. هناك أمر خطير ومستعجل ». أدركت خالتي زَغلة خطورة الوضع، فرفعت زاوية من زربية تغطي كامل أرضية الغرفة، انحنت وبدأت تدقّ بقوة وهي تقول : « ارفعوا الغطاء، ارفعوا الغطاء ! ». ارتفع الغطاء الذي لم يكن ظاهرا للعيان، فخرج رامل، ثم عليّ. لقد حسبوا دقاتي القوية على الباب الخارجي

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

مداهمة للمظليين ! فأخبرتهم مباشرة باعتقال جميلة بعد أن جُرحت، وقد تمّت قيادتها إلى محافظة الشرطة للدائرة الثانية، مردّدة قول شهادة محفوظ. ثمّ رويت كل ما عشته وسمعته منذ الفجر، وأضفت أنّ سي مراد كان على علم، ولكنه لم يتمكن من الاتصال بعد بالخو. أخذ عليّ رشاشه مستعدا للخروج ولكن عمر الصغير وصل متبوعا بحسبية. فأكدّا لنا اعتقال جميلة، كانت مجروحة، فنقلّت إلى مستشفى مصطفى باشا. أما الخو، فقد التحق بمخبئه، وهو الآن يقوم بالمستحيل كي يحدّد مكانها بالضبط. وأضافا بأنّهما أخبرا عائلة بوحيرد بالمصيبة التي حلّت بابنتها. وقبل الإفطار، أخبرنا بأنّ جميلة نُقلت إلى مستشفى مايو، وكان ديدي العربي، أبو أختي يشتغل هناك ممرّضا. وقد تمنينا تلقي أخبار جديدة خلال السهرة.

اليوم، وبعد 56 سنة لم أذكر خلالها هذه الأحداث الرهيبة، ليس لأنني لم أُرِد مواجعتها، ولكنني رفضت أنّ أُصبح « المكافحة القديمة، سجينة الماضي »، فبعد 56 سنة إذا، أستحضر هذا الشعور باللاواقع الذي غمرني في تلك اللحظة، يوم اعتقال جميلة. لا شيء كان يُنذر باعتقالها. غمرني إحساس باللاواقع، المولود عن رفض، وليس خوفا من مواجهة الظلم والشقاء اللذين نزلا علينا، نعم عن رفض قبول ذلك الواقع والانصياع لاعتقال أختي وصديقتي وزميلتي. ومع ذلك، عندما أحتكم إلى عقلي، أدرك جيّدا أنّ الموت والاعتقال كانا نتيجتين ممكنتين، كي لا نقول حتميتين، في خضم اختيارنا والتزامنا. إذا كان استقلال بلادنا نتيجة لا مفر منها، بل وحتمية، فإنّ حظ البقاء على قيد الحياة لتذوّق سعادة إنجازه كانت شبه منعدمة لنا جميعا، نحن المكافحين.

بل الأسوأ من ذلك، في 1957، حينما كنت أفكّر، وأنا واعيّة بالحرب الشاملة التي تخوضها فرنسا وجيشها ضدنا، كنت أعرف أنّ مستقبلنا هو

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

السجن أو الموت . عندئذ لماذا هذا الشعور باللاواقع الذي يلامس الإنكار ؟
لأسباب عدَّة، ولكنَّ أولها وأرعبها، أسوأ من الموت، هو الخوف من التعذيب .
نعم التعذيب ! اعتراني قلق مؤلم ومُضجر منذ إعلان اعتقال جميلة، وسيقتضم
أحشائي ويقض مضجعي ويمنعني من غمض جفوني طوال النهار وبقية الأيام
والليالي . كنت أعرف أنَّها لن تنجو من التعذيب حتَّى وهي جريحة .

• محاولة تهريب جميلة من مستشفى مايو

كنت مسكونة بشبح التعذيب، فحاولت بذهول أن أستعيد أحداث ذلك
الفجر المشؤوم من 09 أفريل . حينما انطلق تبادل الرصاص، كنت أمشي خلف
حسبية في زقاق سيدي بن عليّ، وخلفي كان يتبعني عليلو ثمَّ جميلة . كانا
لا يزالان يتواجدان في زقاق نفيسة، وكان بإمكانهما الرجوع فورا إلى الورا
حينما بدأ تبادل الرصاص . ماذا وقع إذًا ؟ لقد أغرقنا اعتقال وجرح جميلة
في نوع من الإحباط المذهل، وقد زادته صعوبة الصوم . لم يتصوّر واحد منّا،
لا أنا ولا حسبية ولا عليلو، ولو للحظة وجيزة، لا خلال ولا بعد الاشتباك
الذي وقع بين الخو وبين المظليين، أن تقع جميلة في الأسر . ذلك أن لا أحد منا
توقَّع، مثلما سنعلمه فيما بعد، أن رصاصة أطلقها المظليّون من أعالي زقاق
سيدي بن عليّ ستصيب كتف جميلة وتحدث لها جروحا بليغة لأن الرصاصة
استقرت على بعد مليمترات من القلب، فتسقطها أرضا وتُفرغ من دمها .
في تلك الحالة، استحال عليها النهوض والعودة القهقري إلى المخبئ الذي
خرجنا منه . لقد وجدتها الدورية التي أوقفها مطروحة على القارعة وسط
دمائها وحايكها يغطي الحفظة التي تحوي وثائق لجنة التنسيق والتنفيذ والمال
والمسدّسين مع مُشطيها .

في البداية، وفي اللحظات الأولى، ظنَّ المظليون أنها امرأة عابرة أصيبت
برصاصة طائشة . حينما أرادوا حملها إلى المستشفى، رفضت شارحة بصعوبة

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

أنها تفضل العودة بمفردها إلى بيتها. ولكن العساكر أصروا على نقلها إلى المستشفى. وفي اللحظة التي بدأوا عملية نقلها بالقوة، حاولت جميلة، برغم حالتها المتدهورة، إخفاء المحفظة الثمينة التي لم يلاحظ العسكريون وجودها، فدفعتها في غار بين أدراج السلالم. ولكن أحد العساكر تنبّه إلى حركتها، فاخطف المحفظة، فتحها واكتشف محتوياتها، ليدرك العساكر أنهم قبضوا على « عنصر خطير وثمانين ». فاعتقلوها في الحين وبلا أدنى انتظار. ابتداءً من تلك اللحظة، اعتراني هوس رهيب مما قد تعرّض له جميلة من معاملات قاسية، خاصة وأنّ المظليين سيعرفون حتما بأنها قريبة من ياسف ومن عليّ لابوانت، ليكتشفوا أيضا أنّها إحدى النساء « الشريرات »، مثلما يكتب صحفي فيما بعد، اللائي كنّ في 5 درب غرناطة، في ليلة 3/2 فيفري. كنّا في 09 أفريل بعد الإفطار. ولم يحاول أحدنا، مثلما كنا نفعل عادة عند اعتقال أو اغتيال أخ أو أخت، أن نهزّ الآخرين ونواسيهم للخروج من الإحباط الذي كان يعترينا. كنا منهكين، نعيش قساوة الوضع الجديد، إلى حدّ، كما بدا لي، أننا تغافلنا احترام الاحتياطات الأمنية الضرورية العادية.

ثمّ التحقت بنا أختي بعد الإفطار، وقد أعطى لنا حضورها دعما معنويا واسترجعنا بواسطتها رباطة جأشنا. أخرجتنا من الإحباط الذي لفنا بإيمانها الصلب وطاقتها العجيبة، فهزّتنا ودفعتنا إلى النهوض والانشغال قليلا. كما ذكرتنا بحزم مدهش بالتضحيات الجسام التي قدّمها شعبنا وتلك التي تنتظر. فألحّت على حتمية استقلال بلدنا، وأنّ جميلة، بإيمانها القوي، ستسلم أمرها للإرادة الربانية الأقوى من جميع جيوش العالم. وقد نقلت إلينا بركة ودعم « يما »، جدّة جميلة، وكذا أمها، خالتي باية. وأضافت أنّ هذه الأخيرة قد سلّمت أمرنا وأمرابنتها لله عزّ وجلّ. ثمّ اختلّت أختي بالخوف في حديث جانبي. لم نسمع ماذا كانا يقولان، ولكن النقاش بدا ساخنا. وبعد ذلك التحقنا بنا

مُذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

لتقاسم القهوة وزلابية سهرات رمضان . فعرفنا أنّ جميلة نُقلت أولاً إلى المستشفى المدني مصطفى باشا حيث قضت ساعة كاملة في جناح للجراحة، قبل أن تُنقل إلى المستشفى العسكري « مايو »، تحت حراسة المظليين - أصحاب البيريهات الحُمر - المشددة . وضعوها في غرفة مفردة يحرسُها العساكر، ولا يحق لأحد زيارتها باستثناء الطبيب والمرض، يرافقهما ضابط من المظليين . كانت جروح جميلة بليغة وفترة مكوثها في المستشفى غير محدّدة .

وكانت تلك الأخبار التي نقلها إلينا ديدى العربي، أبو أختي، مؤكّدة بحكم أنه يشغل مُمرضاً في مستشفى « مايو » . بعد ذهاب أُختي، حينما التحقنا بغرفتنا، حسيبة وأنا، ذكّرتنا بالحوار الذي دار بيننا وبين جميلة عشية اعتقالها . كانت لا تزال واهنة القوى بعد أسبوع من المرض، يائسة لأنها لا تستطيع أن تكافح مثلما تريد، بحكم القمع الشرس وسياسة المطاردة التي انتهجها ماسو وقواته العسكرية الكبيرة، حيث قالت لنا : « لقد عاوَدت الاتصال بشخص يستطيع إيصالنا إلى الجبال عند المجاهدين . إذا كنتما ترغبان في ذلك، يجب فقط تحضير أوراق مزوّرة والإجراءات اللازمة للخروج من هنا . أظنّ أننا سنكون أفيد في الجبال، لأننا هنا لم نعد نقوم بأي عمل، بل أصبحنا عالة ثقيلة على « الخو » . أما في الجبال، فإنّ المجاهدين بحاجة ماسة إلى الممرضات والكاتبات . ما رأيكما ؟ » . طبعاً، كنا موافقتين، نستعجل الرحيل، خاصة حسيبة التي كانت محل بحث من قبل الشرطة منذ شهور عديدة، وتخضع لحياة سرية تامة منذ وصولها إلى القصبة في أكتوبر 1956 . وكان الأخوان اللذان يشرفان على مخبر القنابل، وهما دحمان (عبد الرحمن طالب) وغانني (عبد الغني مرسالي)، قد تمّ اعتقالهما، كما تمّ تفكيك المخبر، ولم يبقَ إلا سي مراد المكلف بإعادة التنظيم السياسي لمنطقة « الدزاير » المستقلة .

ولهذا، فإذا كنا جميعا نعاني قساوة الكفاح، وظروف التنقل المستمر بسبب المطاردة التي يمارسها ضدنا المظليون، فإنَّ حسية تعاني أكثر منا باعتبارها عضوا نشطا في المخبر لأنها وجدت نفسها شبه يتيمة حقا. فكنا مستعدّين للرحيل، بل مُمتنّين لجميلة لأنّها فتحت لنا أفقا جديدا كي نواصل كفاحنا التحرري. كنا بعيدتين عن تصوّر المصيبة التي ستحل بنا عند فجر يوم الغد فقط. فقضينا، حسية وأنا، ليلة بيضاء، آرق، لم يغمض لنا فيها جفن من القلق، يعترينا غضب وغيظ دفينان ضد ماسو، لأننا كنا نعرف بأنَّ إقامة جميلة في المستشفى العسكري ليس إلا تأجيلا طفيفا قبل إخضاع أختنا « للسؤال »، أي للتعذيب، حسب أقصى الطرق. وذلك دون أن يغيب عن بالنا احتمال تصفيتها الجسدية مثلما حدث مع قائدنا العربي بن مهيدي. فقضينا يوم 10 أفريل، واهتّي القوى، نتناقش حول فكرة اقتراحها علينا عليّ لابوانت في صبيحة 09 أفريل، حينما أخبرته بأنَّ جميلة قد اعتقلها المظليون وأخذوها إلى محافظة الدائرة الثانية في باب جديد. مباشرة، اقترح « عليّ »، الذي كان برفقة رامل، الهجوم على محافظة الشرطة ومحاولة تهريب جميلة في عملية شبه انتحارية. وفي الوقت الذي وافق رامل على المبدأ، بشرط إخبار الخو، دخل علينا عمر الصغير وحسية ليخبرانا بأنَّ جميلة نُقلت إلى مستشفى مصطفى باشا. هنا أيضا، اقترح عليّ الاتصال بجميع مساندينا الذين يشتغلون داخل المستشفى لمعرفة في أيّ جناح وُضعت كي نعدّ تهريبها. كانت المسألة في غاية الجدّ، وعلينا الاتّصال بالخو. خرج عليّ ليلتحق به وربما ليناقشه في المسألة. في نهاية الصبيحة، تأكدنا أنّ جميلة نُقلت فعلا إلى مستشفى مصطفى باشا، ولم تبق إلا ساعة واحدة، لنتنقل إلى وجهة مجهولة، دائما تحت الحراسة المشدّدة لأصحاب « البيريهات الحمر ». وقد تمّ تجنيد جميع معارفنا ومخبرينا لمعرفة وجهة أختنا، وقبل الإفطار عرفنا أنها نُقلت إلى مستشفى مايو العسكري.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أكدت لنا أختي الخبر وأعطت لنا تفاصيل أخرى ثمينة، كما أخبرنا ياسف في يوم الغد بعد الإفطار أنه بصدد تحضير خطة مع إخوة آخرين لتهريب جميلة من المستشفى العسكري. استعدنا أملنا ولكن العملية ليست سهلة على الإطلاق، وبها خطورة فعلية على أختنا وعلى الفرقة المكلفة بتهريبها. أدرك الخو بأن اعتقال جميلة هزنا وشوش تفكيرنا، حسيبة وأنا، فراح يناقش أمامنا، ربما للرفع من معنوياتنا، بكل حرية تحضيرات التهريب وحالة تقدم الاستعدادات. كان ديدي العربي يبعث له باستمرار أخبارا جديدة. شرح لنا الخو بضرورة إخبار جميلة وأخذ موافقتها، وقد كلف ديدي العربي بالاتصال بها وتسليمها ورقة مكتوبة بيد ياسف، على ورقة رقيقة من تلك التي يلف التبغ داخلها. كانت جميلة تعرف كتابة « الخو »، وقد استخدم هذا الأخير في الرسالة كلمات السرّ والعبارات التي تعودت مجموعتنا على استعمالها كي تتأكد جميلة من مصدر الرسالة الحقيقي. ثم كلف « الخو » حبيب رضا، الخبير في مثل هذه الشؤون، أن يدرس المكان ويقترح قائمة الإخوة القادرين على تنفيذ مثل هذه المهمة الخطيرة. وكانت المشاكل المطروحة متعدّدة. بدءاً، يجب حلّ مسألة كيفية الدخول إلى المستشفى العسكري، حيث يخضع الدخول إليه من الباب الرئيسي إلى تنظيم محكم، وأنّ المنافذ الأخرى يحرسها عسكريون مسلحون. ولا يدخل المستشفى إلا الأشخاص المرخصون بشكل رسمي، والأطباء والمرضون الذين عادة ما يكونون من العسكريين، والمدنيون منهم مثل ديدي العربي والذين يملكون بطاقة دخول خاصة تحمل صورتهم وكامل المعلومات الخاصة بهويتهم وعنوان سكنهم.

وبعد ذلك، يجب معرفة الخريطة الداخلية للمستشفى، والزنزانة التي سُجّنت بداخلها جميلة، وهي تحت الحراسة المشدّدة 24 ساعة على 24، دون أن ننسى خريطة المداخل والمنافذ وكذا أماكن جميع نقاط المراقبة. وأخيراً، يجب

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

تحضير خطة دقيقة لإخراج ابنتنا مع العلم أنها جريحة وجدّ واهنة. أكّدوا لنا أنّ بإمكانها التنقل وإنّ بصعوبة جمّة. وبعد حلّ جميع هذه المسائل، يجب تحديد التوقيت الدقيق لانطلاق العملية، والوصول إلى زنانتها، وإخراجها منها ومن المستشفى، ثم التوجّه بها نحو مخبأ آمن ومستعدّ لاستقبالها. دامت التحضيرات حوالي أسبوع كامل، وقد تمّ إقرار خطة التهريب خلال سهرة بين 20 سا و30 د، و20 سا و45 دق. وقد لاحظ حبيب رضا والإخوة أنّ تبديل أعوان الحراسة يتمّ في ربع ساعة. في تلك اللحظات، لا عسكري ولا طبيب ولا ممرض يطوف حول الزنانة التي سُجّنت بداخلها جميلة. عند اليوم الموعود، وكنا قد انتظرناه على أحرّ من الجمر منذ أسبوع، جلسنا، الخو وحسبية وأنا، نترقّب أخبار التهريب، حول مائدة بعد الإفطار. كان يلفّنا صمْتُ رهيب. كنت أدعو من كل قلبي كي تنجح عملية التهريب وأنّ لا يعيقها عائق.

بعد التاسعة ليلا، بدأت أترقّب خلسة عقربيّ ساعتني. وكنت أحسب ذهنيّا الوقت الضروري لتنفيذ خطة التهريب، ذلك الذي يتطلبه قطع المسافة بين المستشفى والمخبأ المعدّ لاستقبال أختنا الجريحة. وبما أنني أعرف أنّ جرحها قد يتسبب في بطء الحركة، فكنت أضيف الوقت اللازم لذلك. ولكن العقريّين يدوران بقساوة قاتلة ولم نتلق أيّ خبر. ففكرت أنّ غياب الأخبار إشارة مُرضية، لأنّ الأخبار السيئة تنتشر بسرعة البرق. وبعد ذلك، بدأت أدعو كي يستمر الصمت، خوفا من سماع شؤم الأخبار السيئة. هكذا كنت منغلقة داخل أفكاري وحساباتي المضللة، ولم أتفطن إلى أنّ « الخو » قد خرج من الغرفة التي كنا نجتمع بها مع عليّ وحسبية وسي مراد الذي التحق بنا خلال السهرة. فأعادني صوت « الخو » الخشن إلى الواقع. وكانت كلماته تعبّر عما كنا نخشاه: « لم تنجح العملية ». ابتلعتني هاوية بلا قاع. كان

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

يأسي بمقدار الأمل الذي نمتّه في نفسي جميع تلك الاستعدادات التي دامت أسبوعاً كاملاً. لم تكن تهمني معرفة أسباب فشل خطة التهريب، يكفيني معرفة أنها قد فشلت. رفضت سماع ما كان سيُقطّع روحي ويمزّق قلبي، فامتلاً صمتي بدموع اليأس، وبقيت فترة طويلة أستعيد هدوئي، وأقتنع بداخلي بأنّ أختي في الكفاح قد تمّ اعتقالها فعلاً وليست لدينا أية إمكانية لإخراجها من ورطتها المأساوية.

رويدا رويدا، عدتُ إلى عالمهم بمساعدة حسيبة وعليّ. لم يتوقّف « الخو » عن شدّ ظفر إبهامه الذي على شكل منقار الطير، وهي إشارة يأس شديد، وعن تكرار أنّ الخطّة كانت مُحكمة وأنّ كل شيء جرى كما كان متوقّعا له. لقد نجح الإخوة المكلفون بإخراج جميلة من زنزانتها في الدخول إلى المستشفى دون عناء، وكانوا متواجدين في غرفة غير بعيدة عن زنزانة أختنا، ينتظرون وسط ركام من الكراتين أنّ يأتي إليهم ممرض، وهو أحد رجالنا، ليأخذهم إلى الزنزانة في لحظات تبديل أعوان الحراسة. لقد تمّ إدخالهم قبل نصف ساعة من موعد تنفيذ الخطّة، أي في حوالي الساعة الثامنة مساءً. وكانت سيارتان تنتظران خارج جدران المستشفى في الجهة المؤدية إلى كنيسة السيّدة الإفريقية، لإيصال المهربيّة إلى مكان مأواها الجديد.

فجأة، حدث انقلاب غير متوقّع، ولا نعرف إنّ كان حدوثه محض صدفة أو بسبب تسريب معلومات حول عملية التهريب. في لحظة انطلاق عملية تهريب أختنا، قامت قوات ضخمة من المظليين بمحاصرة المستشفى العسكري. وقد كان إخواننا شهود عيان من مكان اختبائهم – عاجزين عن القيام بأية حركة – لعملية اختطاف حقيقية لأختنا وإركابها في مركبة عسكرية مغلقة انطلقت فوراً لمغادرة المستشفى نحو وجهة مجهولة. إذا كانت جميلة قد نجت من الاستنطاق والتعذيب المرافق له بسبب جروحها الخطيرة، كنا نعرف

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

بأنها، وابتداءً من تلك اللحظة، ستعيش ما سبق أن عاشه الآلاف من إخواننا وأخواتنا في أجسادهم وأرواحهم من عذاب وآلام لا تطاق.

• ضرورة وسرعة البحث عن محامٍ للدفاع عن جميلة

ولأنني كنت أعرف الضغينة التي يكنّها « السكان الأوروبيون المديون الأبرياء »، ويعبرون عنها جهرا، ضد « واضعات القنابل »، فقد كنت متأكدة بأنّ أختنا ستذوق حتما، وابتداءً من ذلك المساء، الطرق « المتمدّنة جدا » التي يستخدمها الجيش الفرنسي ضد المعتقلين الجزائريين. ابتداءً من تلك اللحظة إذا، راودتني فكرة واحدة ومنعت عني النوم : الذهاب ابتداءً من صباح يوم الغد والبحث عن كيفية تأسيس هيئة للدفاع عن أختنا، الاتصال بمحامٍ من أولئك الذين يأتون من فرنسا للدفاع عن مناضلينا. بالفعل، فإنني كنت أقرأ في الصحف تقارير محاكمات الإخوة والأخوات أمام المحاكم الدائمة للقوات المسلّحة. وكان بعض المحامين يتردّدون دوماً على الجزائر في مهمة الدفاع عن المساجين الجزائريين. وكان بعضهم، كالحامي بيار ستيب وزوجته روني، قد دافعوا عن مناضلي القضية الوطنية ابتداءً من 1945. إذا لم أكن أعرف أيّاً منهم، فإنني أعرف على الأقلّ أين أجدهم، لأنهم يقيمون في فندق « أليتي »، شارع أورنانو، غير بعيد عن المحكمة. كنت بحق خائفة بل ومرعوبة من إمكانية تعذيب جميلة إلى حدّ الموت، وكذا تصفيتها الجسدية، يقوم بها رجال ماسو. كانت تلك الليلة طويلة جداً، كما لو أنها دهر بأكملها. أخيراً، طلع النهار ووصلت الجرائد في حين كان المنزل غارقاً في الصمت مثلما هي أصبح رمضان. فاندفعت لقراءة الجرائد، أبحث عن صفحة « المحاكم »، لمعرفة إن كان أحد أولئك المحامين يوجدون في الجزائر.

فقرأت جميع تقارير الجلسات الجارية واكتشفت أنّ المحامي « زَفارو » يتردّد باستمرار على الجزائر، زيادة إلى أنّ هذا المحامي كان محلّ انتقاد كبير

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

من قبل الصحفيين المنتمين إلى « الجزائر الفرنسية ». كان ذلك الخبر كافيًا لديّ لأخرج فوراً وأحاول الاتصال به وإقناعه بالتأسيس للدفاع عن جميلة. وبما أنني لم أخبر « الخو » بقراري، ولا طلبت إذنه، كلّفت حسيبة، التي أخبرتها بمشروعِي، أن تختلق أيّ عذر لحماية غيابي لدى الإخوة. وعدتها بالعودة قبل منتصف النهار، وإذا لم أعد قبل منتصف النهار ونصف، يمكن لها إخبار الإخوة. لبست ثيابي، ارتديت حايكي وعجاري وقلت لحسية : « سأمرّ أولاً على ديدى العربي، شارع عبدramس، لأطلب من أختي مرافقتي مصحوبة بالدفتري العائلي. ثمّ نمرّ على خالتي باية لأخذ دفتري عائلتها أيضاً. هكذا استدعي أختي بأنها أمّ جميلة، وأنا أقوم مقام أختي. سيكون الأمر مقنعاً ونحن بالحايك والعجار. هكذا ستكون لدينا وثيقة هوية في حالة ما إذا خضعنا للتفتيش، فرجال الشرطة متعودون على أن نساء العرب لا يُظهرن وجوههن. أترين أنني فكّرت في كل شيء، فلا تقلقي، لن يحدث لنا شيء. إنني أعتمد عليك بتمويه سبب غيابي لدى الإخوة إن سألوا عني ». وعدت حسيبة بالقيام بتلك المهمة وحثّنتني على التزام الحذر.

خرجت ومشيت بسرعة، وبصري لا يفارق أفكاري، بحيث لم أر شيئاً مما يحيطني. بعد وقت وجيز، كنت في مواجهة أختي، المنشغلة بتنظيف أولادها. تفاجأت برؤيتي في تلك الساعة المبكرة، وأربكتها حينما طلبت منها أن ترتدي حايكها وتضع عجارها وتُحضّر معها دفتري العائلي. وعدتها بأنني سأشرح لها الموضوع بالتفصيل أثناء الطريق، مكتفية بالقول أن الموضوع يخصّ جميلة التي يجب أن نبحث لها عن محام يدافع عنها لننقذها من موت محقق. عند هذه الكلمات، تركت أولادها عند أمها وسلفتها وخرجنا مسرعتين وهي تسوّي عجارها على وجهها. اتجهنا بخطى دبية نحو 5 درب غرناطة، حيث لم أضع بها قدمي منذ بداية شهر فيفري. عندما وصلنا إلى

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

منزل بوحيرد، تسلقنا السلالم بخطى سريعة أيضا، لنقتحم شقة بوحيرد في الطابق الثاني دون سابق إخطار. بدا المنزل فارغا ومهملا، بل ومتهربا، وقد فقد بذخه الذي تركناه عليه منذ حوالي شهرين. وكانت قوات ماسو المدمرة قد مرّت من هنا وخربت كل شيء : مربعات السيراميك مقتلعة، الجدران محفورة، والأعمدة الحديدية المرصعة معوجة... كارثة حقيقية.

كانت خالتي باية في غرفتها. خرجت لاستقبال أختي، سلفتها، التي أعلنت عن اسمها. وحينما رأته، انتابها الهلع وبادرت بحركة خوف وهي تصيح : « ماذا تفعلين هنا ؟ ألا تظنين بأنّ اعتقال فتاة واحدة يكفي ؟ ». ثم التفتت إلى سلفتها، ولامتها عبر هذه الكلمات : « هل أنت في كامل قواك العقلية ؟ تأتين عندي وبرفقتها ؟ عمّا تبحثين ؟ أن يأتوا لاعتقالها أيضا ؟ ». تدخلت وشرحت لها بأنّ سبب حضوري هنا هو مسؤوليتي أنا دون غيري، وأنني أجبرت أختي على الخروج معي لمرافقتي. أضفت أنني جئت أبحث عن دفترها العائلي لأنّ الإخوة كلّفوني بتأسيس محامٍ جميلة في أقرب وقت ممكن قبل أن يتم القضاء عليها مثلما حدث لسي محمد رحمه الله. فقالت : « جميلة راهي في عناية ربّي ! ولكن لا ينبغي لك أن تستمعني إلى ما يقوله الإخوة. تعرّضين نفسك للاعتقال، وحينئذ، سنفقد فتاتين عوض واحدة فقط ». قلت وأنا ألق أكاذيب أخرى : « من فضلك خالتي باية، أعطني دفتر العائلة بسرعة، لأنني أخذت موعدا مع محامٍ ولا أريد تضييع الموعد. أما الباقي، فإنّ أختي معي ترافقني، والموعد في مكان آمن ». أعطت لنا دفترها العائلي الثمين وغادرتها بلا أدنى تأخير. بسرعة، وصلنا إلى شارع إزلي الذي لم تطأه قدمي منذ شهر جانفي.

بدت لي المدينة الأوروبية غريبة وعدوانية. كان شعري يشده وشاح يغطي جزءا كبيرا من جبهتي، وأمسك بمتانة حاكي تحت الذقن مباشرة، وبصري

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

يحدِّق في كل شيء أمامي، يراقب المارة، بحثا عن رجال الشرطة والمظليين. وصلنا إلى فندق « أليتي » بلا أدنى عائق، دفعت الباب المتحرك بقلب منقبض، فتذكَّرت بأنه سبق لي أن جئت إلى هذا الفندق بصحبة أبي. لو كان يعرف بأنني سأصبح بعد شهور قليلة تطاردي كل شرطة فرنسا، أكيد أنه لم يكن ليتركني في الدزاير بتلك السهولة. ولكن ليس الوقت وقت الذكريات والعودة إلى الماضي.

• محام شاب يسمَّى « فرجاس »

وصلنا أمام ردهة استقبال الفندق. سألنا الخادم المستقبِّل عما نريد، فقلت بهدوء: « من فضلك أخبر الأستاذ « زفارو » بأننا ننتظره ». ردَّ عليّ: « ولكن الأستاذ زفارو ذهب وقد غادر الفندق نهار أمس ». شوَّشت إجابته سمعي وبرغم الحايك والوشاح الذي يشدُّ رأسي ويغطي نصف جبيني، إلا أنَّ هلعي ويأسي لم يغيبا عن نظرة العامل المستقبِّل، وهو جزائري بالتأكيد. لقد وضعت جميع حظوظي في الأستاذ زفارو الذي لا أعرفه ولم يسبق أن رأيته في حياتي قط. الآن وقد ذهب، لم أعد أعرف ماذا سأفعل ولا بمن سأتَّصل. كنت تائهة، واكتفيت بالنظر إلى أُخَيَّتِي التي كانت تنتظر في صمت. لم يتأخَّر العامل في إعادتي إلى الحياة قائلا: « ذهب الأستاذ زفارو، ولكن يوجد محام آخر هنا، الأستاذ فرجاس، القادم من باريس هو أيضا. هل تريد أن أناديّه ؟ ». قبلت اقتراحه بكل امتنان.

نظرت حولي، فرأيت مقابل مصرف الاستقبال صالونا صغيرا يتشكَّل من مقاعد وأرائك جلدية وطاولة صغيرة واطئة. اتَّجهنا نحو تلك الزاوية. جلست أخيتي على مقعد، فقلَّدها. كانت القاعة الكبيرة مملوءة بمثل تلك الصالونات الصغيرة، وهناك رجال كثرون يدخلون ويخرجون وبأيديهم محافظ وحافظات الملفات، كما كان النادلون يذهبون ويجيئون، بالمناديل البيض

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

المطوية والموضوعة على السواعد، وباليدين الصينية تحمل الكؤوس والفناجين. بعد لحظات، تقدّم نحونا رجل، في ريعان الشباب، بسحنة أسيوية، وهو يبتسم. حيناً ثم جلس في مقابلنا وقدّم نفسه : « الأستاذ فرجاس. أخبرني عامل الاستقبال بأنكما تبحثان عني ». نظرت إليه مذهولة. إنّ اسم « فرجاس » غوليّ النبرة، وكنت أنتظر أن أرى فرنسيا « نقيا ». وعوض ذلك، يقابلني رجل من الهند الصينية. كان الأستاذ فرجاس بقامة متوسطة، بشرته بياض عاجي، الجبهة عالية والعينان مغوليتان تلمعان ذكاءً خلف نظارتين بزجاج سميك، شقّت ابتسامة عريضة وجهه. وبما أنّني كنت في تلك الفترة، اعتبر أنّ كل ما هو أسيوي يتماهى مع الهند الصينية، فكّرت : « آه ! إنه من الهند الصينية ! ديان بيان فو ! ». أكيد أنّه سيتعاطف بعمق مع قضيتنا، وسيهتم بجميلة جيّداً ».

حاولت أن أتذكّر إنّ سبق لي أنّ التقيت باسمه على صفحات الجرائد وتقارير المحاكمات، فلم أتذكر أنني قرأت الاسم في مكان ما. خاطبني أختي بالعربية وطلبت منّي أن أكلم السيّد لأنه كان ينتظر طلبنا، فقرّرت أن أضع ثقتي فيه وانطلقت في شرح قضيتنا. تقمصت هوية أختي، وقدمت هذه الأخيرة كما لو أنها والدة جميلة، خالتي باية. شرحت له بأننا جئنا لنؤسّس الأستاذ زفارو لأنّ قريبتي توجد بين مخالب المظليين، أصحاب البيريهات الحمر، منذ 09 أفريل. كان يبتسم دائما، ويحدّق في عيني، وشرح لنا بأنّ محامين من باريس يتداولون للدفاع عن المساجين الجزائريين الذين تحاكمهم المحاكم العسكرية. أضاف أنّ الأستاذ زفارو غادر الجزائر بعد أن رافق بعض المساجين، وأنّه جاء ليخلفه. تكلم بهدوء ووضوح، وكانت لصوته نبرة جادة، عذبة. التفتّ نحو أختي لأطلب رأيها ف قالت : « ياطفلة، هذا شئوي، تحسبي صحّ يقدر على هاذوك الوحوش ؟ ». تفرّسني وهو يبتسم دائما، وينتظر الجواب. على كل حال، لم يكن لدينا اختيار آخر، لذلك

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

قرّرت أن أثق فيه وأعتمدّه محاميا ليدافع عن أختي جميلة، فرويت له اعتقال جميلة وجرحها ونقلها إلى مستشفى مصطفى المدني ثم مستشفى مايو العسكري، وأخيرا اختطافها ليلا من قبل مجموعة من المظليين، أصحاب البيريهات الحمر. وعبرت له عن قلقنا لأننا نجهل مكان سجنها، وعن خوفنا أن تقع ضحية عذاب المظليين، لأنّ التعذيب أصبح ممارسة حتمية، تطبّق على جميع المساجين المتهمين، وحتى أولئك المختطفين من الشوارع والمقاهي والأماكن العامة، بل ويمارس التعذيب حتى داخل المنازل أثناء الاعتقال. تركني الأستاذ فرجاس أتكلّم، وعيناه دائما مثبتتان على عينيّ، والنادلون يجوبون المكان ذهابا وإيابا. حينما توقفت عن الكلام، بقي ساكنا للحظات. طلب قهوة ودعانا إلى تناول ما نريده وهو يمدّ لنا بطاقة الطلبات. قلت له بأننا في شهر رمضان، ولا يزال منه حوالي أسبوع. أخرج كناشا وسجل اسم جميلة ولقبها وتاريخ ومكان ازديادها وعنوان عائلتها. شرح لنا بأنه سيذهب في تلك الصبيحة عند وكيل الجمهورية ليحدّثه عن حالة جميلة، ولكن يجب لأبيها أو أمها أن يمضيا له رسالة التأسيس التي تعتبر توكيلا رسميا للدفاع عن ابنتهما.

اقترحْتُ أن نكتب الرسالة في الحين وأمّ جميلة حاضرة لتوقّعها، ما قمنا بإنجازه فورا. وتحت إملاء الأستاذ فرجاس، كتبت رسالة التأسيس، وأمضيتها أخيتي باعتبارها أمّ جميلة. طلبتُ منه أن يحدّد لنا ثمن أتعابه، ويمكن أن نقدّم له قسطا منها في الحين. طرح أسئلة تتعلّق بعمل المظليّين في القسبة والمعاملات التي يمارسونها تجاه السكان المحليين. يا لها من فرصة ذهبية ! فرنسي من الهند الصينية، محامٍ من نقابة باريس، فلا يجب تضييع الفرصة ! فرويتُ له ما حدث لنا في ليلة الرعب تلك التي عشناها من 2 إلى 3 فيفري 1957، مثال واحد من بين الآلاف. رويت له المداهمات والتفتيشات الفظة الذي

تَمَارَسَ في أي وقت من أوقات الليل والنهار . ألحنا على التعذيب الحتمي ، حتى في منازل الموقوفين ، والاختفاءات القسرية ، والإعدامات بدون محاكمة ، وأكّدتنا أنّ التفتيش في المنازل يكون دوما متبوعا بالتخريب والنهب وسرقة الأشياء الثمينة مثل النقود والمجوهرات ، يقوم بها المظليون . حينما انتهينا من سرد جميع هذه التجاوزات ، سقط صمت ثقيل علينا .

ثم أخذ الأستاذ فرجاس رسالة التأسيس ، قرأها وقال وهو ينظر إليّ بثبات : « جميلة بالعربية يعني الجمال ؟ » . تفاجأت ، فهزّزت رأسي أنّ نعم ، غير مدركة ماذا يقصد بقوله ذاك . كان فرجاس يجلس في أريكته دون حراك ، فنظر إليّ ثانية بنوع من الإلحاح وقال : « جميلة اسم شائع في الجزائر » .

انزعجت ، وباشرت النهوض وأنا أطلب من أختي أنّ تفعل مثلي ، وأنا أهتمهم بالعربية : « أظن أننا وقعنا في منحرف مثل الفرنسيين تماما الذين لا يرون في المرأة العربية إلا أنوثتها الشهوانية » . ولكن الأستاذ فرجاس لم يتحرّك . كان لا يزال يحدّق في عينيّ . أدركت فجأة أنه يريد تمرير رسالة مهمة ، وقبل أن أعبر عن هذا الإدراك بوضوح تام ، كانت نظرتي اللاصقة بي قد قالت هي الأخرى بأنه فهم أنني فهمت . جلستُ ثانية ، ونظرتي لا تفارق نظرتي ، وهو يكرّر : « جميلة اسم شائع في الجزائر » . فأحدثت الرسالة شحنة كهربائية في مخي وأدركت جيّدا أنّه أراد إخباري . أُخْتُ أخرى ، جميلة أخرى ، تمّ اعتقالها هي أيضا .

التفتت إلى أختي ، ولم أتلّفظ إلا بكلمة « أختي ... » حتى قاطعني الأستاذ فرجاس وهو يرفع صوته قائلا : « إذا ، سأرفع في هذه الصبيحة إلى وكيل الجمهورية دعوى الدفاع عن حالة ابنتكم جميلة » . ثمّ نظر خلصة إلى الطاولة وإلى ما حولنا . سكّتُ . أراد أنّ يخبرنا أنّنا كنا في مكان يعجّ بالمخبرين من جميع الأنواع : الرجال كما الأشياء . عندما افترقنا ، شكرته وأوضحت له

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أنَّ أم جميلة، وهي في الحقيقة أختي، هي التي ستتصل به لاحقا. يوجد عنوانها في رسالة التأسيس. رافقنا ونزل معنا الأدرج القليلة المؤدية إلى حديقة المدخل الصغيرة، وفي عتبة الباب الخارجي، قال : « سأذهب حالا لأرفع هذه الشكوى ضد اختفاء ابنتكم. فهمت أنَّ أشخاصا كثيرين اختفوا ولا تُعرف أمكنة اختفائهم، وأنَّ التعذيب أصبح ممارسة عادية وحتمية. يجب التنديد بكل هذا، وأمام الملاء » .

سألت : « وهل ستفعل ؟ » . أجاب فرجاس : « نعم . ولكنني بحاجة إلى ملفات موثقة مع أكبر كم من المعلومات والأدلة إنَّ أمكن . يجب جمعها في أقرب وقت ممكن » . أجبته فورا : « موافقة، سنقوم بجمعها . مع السلامة . معك عنوان أم جميلة، اتصل بنا » . افترقنا، عبرنا شارع أورنانو، منحدر ييجو، قبل أن نبدأ في صعود السلالم المؤدية إلى شارع طُنجة . حينذٍ، أدركت رعونتي وأخطائي الانضباطية، فطلبت من أختي أن تلقي نظرة لتتأكد إن لم يقتفي أثرنا أحد . قالت لي بالعربية الدزيرية : « كيفاش نعرف ؟ راجل، امرأه، فاوري، عربي، شكون ؟ » .

في لحظة وصولنا إلى شارع إزلي، غير بعيد من محل ملابس الموضة النسائية « ماري فرانس »، أحاط بنا رجلان غليظان، عريضا الأكتاف، يرتديان بذلتين أنيقتين، ودفعانا إلى الجدار، وهما ينطقان بالصيغة المعهودة : « شرطة ! أوراقكما ! » . سجّلت أنَّ نبرتهما من جنوب فرنسا، ليسا إذا من الأقدام السود . وكانت الصيغة تطن في أذني، وأجاب مخي بصيغة أخرى سحرية : « لا يجب أن أتركهم يعتقلونني ! يجب الاهتمام بحالة جميلة » . أسندت ظهري إلى الجدار، بدأت أنزع حذائي، أستعد لدفعهما والهروب عند الضرورة . سمعت هدير الترامواي . أعرف أيَّ الطرق أسلك، وفي جزء من ثانية، دار بخلدي السيناريو : أقطع شارع إزلي، آخذ الشارع المتعامد

باتجاه اليسار من جهة أروقة فرنسا، ثم سلاّلم شارع موغادور، وربما الاختفاء في واحدة من تلك العمارات.

في حين كنت مستعدة لمحاولة المستحيل إذا اقتضت الضرورة، أعطيت دفتر عائلة أختي لأحد الشرطيين، وفعلت مرافقتي مثلي. تصفح الرجلان الدفترين، مرارا، تبادلًا النظرات، ثم قال لنا أحدهما : « ولكن لا توجد بهما صور ؟ ». أثارني نبرتهما الجنوب فرنسية مما جعلني أتأكد أكثر أن هروبي سيكون سهلا لأنهما لا يستطيعان متابعتي في دروب القصة المتعينة، لأنهما ليسا من الأقدام السود. أجابت أختي بفرنسية مشحونة بألفاظ عربية، أنّ النساء المسلمات لا يستعرضن صورهن. وكرّرت ما سبق أن قلناه في ردهة استقبال فندق أليتي، أي أننا أمّ وعمّة جميلة بو حيرد، وجئنا نؤسس محامياً للدفاع عن ابنتنا. يبدو ظاهرياً أنّ الشرطيين لا يعرفان ماذا سيفعلان بالضبط. لقد شكّت أختي أنني بصدد نزع حذائي استعدادا للفرار، فتسرّرت أمامهما، بحيث غطّيتني بجسدها لتمنعني من الانطلاق في تنفيذ خطتي المجنونة. أعاد إلينا الشرطي الدفترين، وشرح لنا أنهما من شرطة الأخلاق، وأنّ مراقبة هوية النساء من مهام عملهما. صُدمتُ أنّ توقفي وتراقبني شرطة الأخلاق، فقلت لهما بحدّة أنهما يخترقان حق التجول بحرية لامرأتين شريفتين : « أترون جيّدا بأننا اثنتان، وأننا لسنا بمفردنا مثلما تتصوّرون. ننتمي إلى عائلات كبيرة وشريفة، فمن أعطى لكم الحق في إيقافنا بهذه الطريقة المشينة ؟ كيف تتجرّؤون على النساء الشريفات ؟ ... ». تلعثم الشرطيان، وأختي تغلي بداخلها ضد رعونتي، تهمس بالعربية : « واش بيك يا طفلة ! اهْبَلْتِي ! حَبْسِي ! هَيَّا نَمْشِيْو ! خَفِّي ! ». ولكنني كنت حقا مصدومة من الحجة التي قدّمها الشرطيان لمراقبة هويتنا، ما يدل على ازدراء الفرنسيين للنساء العربيات. أما أختي، فخطفّت الدفترين بغضب من يد

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الشرطي، ودفعتنني بقوة وهي تغطّيني بجسدها وتحثني على الابتعاد عنهما. وبعد خطوات قليلة، اعتراني فشل في الساقين وارتعاش في البدن، فأدركت مدى تهوؤري، واختراقي لقواعد الانضباط. ماذا كان سيحدث لو اعتقلوني بسبب عدم احترام هيئة نظامية في أداء خدمتها؟ سكنت ولم أفأتح أختي في الموضوع.

أثناء طريق العودة، بدأنا نعدّ الرواية التي نقدّمها إلى « الخو ». افترقنا عند شارع « عبدramس » حيث لجأت أختي عند أبيها مع أولادها، وواصلت طريقي نحو درب لافوازيي. وفيت بوعددي حيث عدت إلى مخبئنا قبل الحادية عشر والنصف، فوجدت حسبية على أحر من الجمر قلقلة عليّ. من حسن حظّي أنّ الإخوة لم يستيقظوا بعد بسبب الحراسة الليلية التي دامت إلى غاية الفجر. فلم تضطر حسبية إلى اختلاق كذبة لتغطية غيابي. رويت لحسبية تفاصيل رحلتي، مؤكّدة خاصة على لقائي بالأستاذ فرجاس، وتأسيسه للدفاع عن جميلة، وعن اعتقال أخت أخرى باسم جميلة واقتراحه بتنظيم حملة التنديد العمومية لوسائل القمع التي تنتهجها السلطة الفرنسية ضد السكان الجزائريين العرب، وبالأخص التعذيب الذي أضحى منتشرًا بكثرة والاختفاءات المريبة. وأنه يجب أن نحضّر له ملفًا بكامل المعلومات الموثقة. ختمت قولي بالثقة المطلقة التي أضعها في هذا المحامي الشاب : « لقد أصرّ بأنّ يخبرني باعتقال أخت أخرى باسم جميلة دون أن يكون مضطرا لذلك، ثمّ أفهمني بحركات الوجه والعينين بأنّ أحذر من هذه الأماكن التي تعجّ بالمخبرين. أخيرا، اقترح تنظيم حملة التنديد بالتعذيب والمعاملات السيئة التي تقترفها السلطة الفرنسية في حق الجزائريين ». كما أخبرتها أنني اتفقت مع أختي كي نلتقي عند أبيها في شارع عبدramس لتناول الإفطار معا وتحضير الرواية التي سنعدّها للخو. عندما استيقظ هذا الأخير، طلبنا منه

الإذن للذهاب عند أختي وتناول الإفطار معها، بالتأكيد أنّ خالتي باية، أم جميلة، ستكون حاضرة وهي بأمس الحاجة إلى المواساة والدعم المعنوي. وافق بسرور، موصيا إيانا بالحذر وبعدم التأخر بعد الإفطار. وصلنا عند ديدي العربي، ملحفات بالحايك والعجار، لحظات قبل ضربات المدفع المعلن عن انتهاء الصوم. أخبرتنا أختي أنّ فرجاس اتصل بها في نهاية الظهيرة ليرسل إليها عنوان شقة حيث يمكن الاتصال به وإمداده بالوثائق اللازمة. ومن جهة أخرى، ولحاجة الدفاع عن جميلة، عبّر عن رغبته في تلقي الملفات الأولى، ابتداءً من بعد غدٍ صباحاً، وبالأخص شهادات حول التعذيب في المنزل، أي ما جرى بالضبط في تلك الليلة المشؤومة في 5 درب غرناطة. التزمتُ لدى أخواتي أنني سأقضي نهار الغد كاملاً في العمل لتحضير الملف، وألححت على أختي كي تخبر الأخ ياسف في أقرب وقت ممكن كي تأخذ موافقته.

بعد الإفطار، وبمجرد أن التحقنا بالإخوة، جاءت أختي لتقضي السهرة معنا في درب لافوازيي، وقدّمت تقريراً لياسف. ألحّت بقوة على المحامي فرجاس والأثر الطيّب الذي تركه لدى عائلة بوحيرد، أشارت إلى أنه شيوعي ومستعد لتأسيس جماعة محاميي الأفلان، كما أنّه مستعد لشن حملة إعلامية في فرنسا وفي العالم يندّد فيها بالوسائل القمعية الفرنسية تجاه الجزائريين، خاصة التعذيب، وينتظر الضوء الأخضر من قادة جبهة التحرير الوطني، مع ملفات موثقة بأدلة دامغة. وأنّته تقريرها شارحة بأنّ المحامي ينتظر أوّل ملف بعد غد، يُرسل إليه إلى العنوان الذي أعطته للخو. وافق الخو على جميع اقتراحات المحامي، وكلفنا، سي مراد وأنا، بعمل تحضير ملفات الإخوة والأخوات المعتقلين، المعدّين، المقتولين بالإعدام خارج المحاكمات؛ للتبديد بنظام الرعب والترهيب الذي تمارسه السلطة الفرنسية في الجزائر. هنا أيضاً، رددت التزامي بقضاء يوم الغد في العمل لتحضير الملف الأوّل. أعطى موافقته، ولكنني لاحظت خلف

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

ابتسامته إشارة قلق أو تشنج حزن . بالفعل ، أعلن الخو في صباح الغد بأنه يتحتم علينا أن نغادر مخبأنا في درب لافوازيي ، وأضاف قائلاً : « كان علينا أن نغادره بمجرد اختطاف المظليين الجميلة من مستشفى مايو » .

• ظهيرة تيه في القصبة

قبل مغادرة المخبأ ، عملنا بعناية على محو كل أثر لإقامتنا هناك وإعادة الغرفة إلى شكلها الأول قبل أن يصنع عليّ ذلك الملجأ تحت الزريبة . وعندما أنهينا شغل التنظيف ، انتظرنا إشارة مغادرة المكان ، وفهمنا حينها لمعان الحزن في ابتسامة الأخ ياسف عشية أمس ؛ فعند الساعة الثالثة زوالاً ، مازلنا لم نبرح مكاننا . منذ الصباح الباكر ، بعث الخو ابن أخيه وعون اتصاله ، عمر الصغير ، يبحث وسط معارفه من يقبل إيواناً ولكنه لم يتلقَ أيّ جواب بعد . كنا نواجه تجفيف إمكانيات الإيواء بسبب سياسة الرعب التي يمارسها ماسو ورجاله على أهل القصبة . بعد مشاورات حثيثة بين ياسف وابن أخيه وعليّ ، تقرّر الذهاب أخيراً ، ولكننا كنا في شهر رمضان ، وفي تلك الساعة من النهار ، كانت أزقة القصبة غاصة بالناس والدوريات ، وكان لزاماً علينا أن نقطع جزءاً من شارع راندون قبل مباشرة زقاق يؤدي إلى قلب المدينة العتيقة .

في تلك الظروف ، تقرّر أن يرتدي ياسف وعليّ حايك النساء كي يخفيا هويتهما ، على الأقل في عيون القصباجيين . وبرغم التعب الذي ينخر أجسادنا ، والحزن والإحباط اللذين يرعدان أوصالنا لفكرة أن جميلة الجريحة تكون قد خضعت للتعذيب ، وربما قد تمت تصفيتا الجسدية ، إلا أن محاولتي برفقة حسيبة لتثبيت الحايك على جسد عليّ الرياضي أضحكنا رغماً عنا ، كانت تشنجاته ومزحه تسلينا . رنّ المنزل بضحكاتنا ومشاجراتنا مع عليّ الذي أصرّ

أَنْ يترك يديه وذراعيه حرّة كي يتمكن من استعمال سلاحه في حالة مصادفة الدوريات العسكرية.

استنجدنا بخالتي زُغلة كي نجد حلاً لمشكل عليّ، فأجلسته على السرير وشدّت رأسه في منديل أبيض بنقاط سوداء، وشدّت منديلاً ثانياً حول حزامه وعقدته بقوة. ثم وبفضل بعض مسّاقات الرضع، ثبتّت الحايك على مستوى الجبهة، تحت الذقن، وفي نقاط عديدة من الحزام، ووضعت له العجار. بهذه الطريقة، لا يمكن للحايك أَنْ ينزلق، ويترك لعليّ إمكانية حمل رشاشه كعادته. وخلال فترة التمرين، لم تتمكن خالتي زُغلة من الامتناع عن الضحك، هي المتحفظة عادة، فكانت تقهقه بملء شديها معنا بسبب تعليقات عليّ الغريبة وغير المتوقعة أصلاً. يبدو أنها لم تقترب بهذه المسافة في حياتها من رجل أجنبي عن العائلة برغم سنّها، ولا ضحكت جهرًا بهذه الكيفية، فكانت تخفي حرجها بتكرار: « يا وليدي، ربّي يسترُك ! ». وكانت هذه الفسحة تقوي عزمنا، كم كُنّا بحاجة إليها كي نواجه الأزقة التي أضحت عدوانية. أما بالنسبة لحسيبة وأنا، فقد ساعدتنا خالتي زُغلة على وضع قنبلة لاصقة بالبطن، وأخرى لاصقة بتجويف الظهر، بفضل شَملة وهي وشاح طويل بقماش رقيق، يتعمّم به الرجال، وقد أدارته على خصرنا مرات عديدة وهي تشدّه بقوة، وعلى كل واحدة منا أَنْ تتأبط محفظة، والكل مخفيّ تحت الحايك الذي أصبحتُ أرتديه بحنكة كبيرة. ومع ذلك، وبرغم حذق خالتي زُغلة، فإنّ المرأة التي يريد عليّ أَنْ يتشبّه بها في نظر المارة كانت غريبة ومدهشة. أما ياسف، بقامة أصغر وجسد نحيل، فاستطاع أن يضلّلنا فعلاً. ولكن للحرب قواعدها ! فكان لا بد لنا أَنْ نخرج. لم يتمكن ياسف من تدبير مخبأ جديد لنا، ولكننا، حسيبة وأنا، كُنّا نجهل الأمر. غادرنا درب لافوازيي، يسبقنا عمر الصغير، مشيتُ خلفه، متبوعة بياسف، ثم حسيبة، وأخيراً عليّ

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

يغلق الرتل . قبل أن نخرج في حوالي الرابعة زوالا، أعطى لنا الخو تعليمات صارمة : إذا لاحظ عمر الصغير وجود دورية، يجب عليه مواصلة السير بعد أن يحرك منديلا واسعا يخفيه في جيبه . في تلك الفترة، عليّ أن أدخل إلى أقرب منزل حيث سيتبعونني، أو الدوران مع أول وأقرب زقاق نصادفه في طريقنا . وفي تلك الظهيرة من أواخر أيام رمضان، في شارع راندون، كانت الحشود كبيرة بحيث يحدث لنا أن نصطدم بالمارين الذين يأتون مسرعين باتجاهنا، يزرحون تحت ثقل ما يحملون . كان البعض يتوقف ليتابع بنظرة فضولية هذه المرأة الطويلة القائمة بهيأة فرس، ثم يديرون أعينهم بسرعة، يخفضون أبصارهم ويسرعون الخطى . أما بعض الأطفال الذين صادفناهم في الأزقة، فإنهم يتبادلون الصيحات ويقهقهون ويشيرون إلى أحذية أحد الإخوة . وتتوقف الصيحات والمناداة فجأة بعد أن ينهرهم عليّ بصوته الرجالي، ويطلب منهم الدخول إلى منازلهم . يصمت الأطفال، وهم ينظرون بذهول، مدركين بأنّ مجاهدا يختفي تحت حايك امرأة يمرّ بقربهم . بين الفينة والأخرى، يسرع ياسف خطاه ويصل إلى مستواي ويأمرني بإبطاء السير . فعل ذلك مرارا، وكلّما غاب عمر الصغير عن عينيّ، أشعر بالهلع وأسرع خطاي، وفي تلك الحالات، أبطئ سيري، وأتقدّم بخطى وثيدة، كالأعمى تماما لأنني لا أعرف أين نتجه بالضبط . وبعد ذلك، يمرق عمر الصغير كالعفريت، كما لو أنه يلعب معنا لعبة « الغُمِيْضَة »، فيتّجه نحو عمّه ويهمس في أذنه شيئا، قبل أن يستأنف مشيه على رأس القافلة، ثم يختفي مرّة أخرى من جديد، فيجبرنا على المشي بخطى محسوبة .

فهمت اللعبة أخيرا ! كان عمر الصغير يختفي ليتصل بمعرفة من معارف عمّه، يسكن في ذلك المسار الذي نسلكه، إذا كان بإمكانه إيوانا . كان مناضلونا قد خضعوا لآلة ماسو القمعية السحيقة، فاكْتُشِفَت منازلهم

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

ووضعت تحت الحراسة المشددة للمخبرين المدنيين، لذلك فالسكان يعيشون تحت هلع دائم ورعب كل اللحظات، وقد انتابني في تيهان تلك الظهيرة قلق وحزن وغضب دفين. عشت عن قرب نهاية عهد بأكمله : العهد الذي كان السكان يعتبرون أنّ إيواء مناضل علامة ثقة كبيرة تضعها الجبهة في المضيف، أما إيواء القادة أمثال عليّ لاهوانت أو ياسف، فكان ذلك شرفا عظيما يحظون به. ولكن للأسف الشديد، لقد مرّ ماسو ورجاله من هنا، وكنت شاهدة على قدرتهم على القتل، وعلى وحشيتهم في التعذيب والاختطاف والتصفية الجسدية، وهي أكبر من الحقد الذي يکنه شعبنا للجيش الفرنسي. كنت شاهدة على أنّ الرعب والخوف من التدمير كانا أقوى من الارتباط الحقيقي والصادق بحلم الاستقلال، وللمنظمة التي تحمله وتعمل على تحقيقه على أرض الواقع. فكنت أتابع كالأعمى عمر الصغير الذي طاف بنا مرارا أزقة القصبة، منقبضة القلب، محبطة. وقد مررت لأول مرة على بعض الأماكن في ذلك التيه، ولكن بفضل حيوية مرشدنا، ومعرفته الدقيقة للأماكن وللناس، وبالأخص لأقرانه من الأطفال الذين لم يتأخروا عن تزويده بالأماكن الواجب تفاديها، نجحنا في تجنب دوريات عسكرية كثيرة. وقتُ الإفطار يقترب، ونحن مازلنا نمشي، والأزقة تفرغ على مرأى العين، ليصبح وضعنا أكثر هشاشة. نادى ياسف على ابن أخيه وكلّمه بإيجاز. استأنف عمر الصغير السير، انعطف نحو زقاق، ثمّ واصل التقدّم نحو العمق، وبدأ لي أنه يتّجه نحو أعالي القصبة.

وصلنا إلى ساحة صغيرة، كما يوجد منها الكثير في المدينة العتيقة، حيث تنطلق منها أزقة عديدة، وتنفّث عليها بعض المنازل. قصّد عمر الصغير أحد تلك الديار، دفع الباب، فتبعناه. في اللحظة نفسها، سمعنا ضربات المدفع تعلن عن الإفطار. بقينا واقفين في وسط السقيفة، فيما دخل ياسف إلى

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

الحَوْش. مباشرة بعد أن اجتزنا عتبة الباب حتى نزع عليّ حايكه والأوشحة التي كانت تزعج حركته كي يمسح العرق الذي كان يتصبَّب على جبينه وكامل وجهه : كان يعوم داخل العرق. عاد مرشدنا الصغير وطلب منا أن نتبعه، وعندما وصلنا إلى الحَوْش، سمعنا صراخ نساء يَمْزِق صمت الدار. كان الصراخ ينبثق من الطابق الأول، ففهمنا مباشرة السبب. سمعنا بوضوح النساء يطلبن من ربِّ العائلة أن يرمينا إلى الخارج ويغلق وراءنا الباب بالأقفال.

في ذلك الهدوء والصمت اللذين يخيمان على كامل الحي في ساعة الإفطار، كان صراخ النساء يتعالى ومن الممكن أن يلفت الانتباه إلى ما يحدث في المنزل. شحب وجه عليّ وقفز وسط الحَوْش، مصوِّبا رشاشه باتجاه الطابق الأول. ثمّ، وبصوت خشن وفظ، أمر النساء بالسكوت، مشيرا إلى أنه من جهتنا لا نخسر شيئا لأننا نذرنا حياتنا للكفاح، وبالتالي للموت الوشيك. وأضاف : « أَحذَرُكَنَّ. لو يجلب صراخكن المظليين، أو يمنح الفرصة للبِيعاين (المخبرين)، فستكونن أولى الضحايا. أقسم لكنّ بدم الشهداء ! ». كان تدخله فعّالا، فتوقّف الصراخ فورا. كنّا مجتمعين عند عتبة الغرفة، حيث لم تكن لأحدنا الرغبة في الدخول. في الداخل، كان ياسف يتحدث مع صديقه عُمر. وجد عليّ صعوبة جمّة لكتم غيظه وهلعه، أسند جبهته على ساعده الموضوع على عمود، وكنت أنظر إليه وأبكي. كنت أحسّ بداخلي بشعوره وأفكاره تسري في كامل روحي. في تلك اللحظات الحرجة، اقتسمت معه الهلع والحزن والغضب كقطعة خبز مسمومة بصفاء متآكل، صفاء ذلك اليوم الساطع، المتمثل في كون الخوف والرعب اللذين أثارهما الجيش الفرنسي أقوى بكثير من الحقد الذي يكنّه له شعبنا. تقدّم الخو، متبوعا بصديقه عمر، نحو عليّ وأحاط كتفيه بذراعيه وحضّنه على الدخول إلى الغرفة. قدّم له صديقه، ربّ الدار. رحّب هذا الأخير بعليّ وطلب منه أن لا يأخذ بعين

الاعتبار رد فعل النساء عند وصولنا، حيث قال : « إنَّهن متأثرات بما يقع هذه الأيام في القصبة، ولكن في الحقيقة، إنهن يحترمن المجاهدين. ولكن، مثلما تعرف، الخوف من المظليين وخطرستهم أفقدن عقولهن... ». لم يعلّق عليّ، ودخلنا الغرفة التي كان ضوؤها خافتا، ينيرها مصباح مُعلّق في وسط السقف، وبقيت الزوايا في شبه ظلمة. كنّا، حسيبة وأنا، نحسّ بالآلام في البطن والظهر. لقد ألهبت الطرود المعدنية المشدودة ضد أجسادنا منذ ساعات طويلة بشرتنا وأوجعت عمودنا الفقري. قصدنا، زاوية وبدأنا نحزّر أجسادنا من الحمل الثقيل ببطء. أخيرا، تمكّنا من الجلوس ومدّ الساقين، تدلّك كل واحدة ظهر الأخرى.

عاد عمر يحمل مائدة، شكره الخو وطلب منه قهوة معصورة كي يستعيد صفاء ذهنه لأنه يشعر بالتعب. أسندتْ ظهري للجدار، مددتْ ساقِيّ وغرقت في النوم. أيقظني صوت يأسف إذ كان يخاطب صديقه بفظاظة : « لا تغيّر شيئا من عاداتك. اخرج إلى المقهى، والعب لعبة الدومينو كعادتك. ولكنني أحذرك، إذا حاصر المظليون الحيّ، أو اقتربوا من الدار، فستكون أنت المسؤول عما سيحدث ! ». بعد وقت ليس بالطويل، دخل علينا عمر الصغير بسلة من الأطباق. همست لي حسيبة : « يكون الخو قد بعثه ليحضر لنا إفطارنا ». كان الجوع يعصر أحشاءنا، فأكلنا بنهم من تلك الأطباق التي بعثتها عائلة يأسف، باستثناء عليّ الذي لم يأكل إلا القليل، ولكنه أكثر من شرب القهوة وإحراق سيجارة وراء أختها.

بعد الأكل، أخذ الخو فنجان قهوته وراح قرب النافذة المطلة على الشارع وغرق في تأمل سيقان وأقدام المارة لأنّ النافذة تقع على علوّ عشرين سنتيمترا فوق قارعة الطريق. أما بالنسبة لي، فكان لي موعد مع الأستاذ فرجاس لأسلمه أول ملف، وفي صباح الغد على الثامنة صباحا، في أعلى منعطف روفيغو،

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

مقابل سوسطارة. بمجرد انتهائي من الأكل، عكفت على العمل، وكتبت طوال الليل : كتبت ثلاث وثائق، ذكرت في الوثيقة الأولى ظروف اعتقال جميلة، جرحها، مكوثها لمدة ساعة في مستشفى مصطفى المدني، نقلها إلى مستشفى مايو العسكري، وأخيرا كيف اختطفها ليلا أصحاب البيرهات الحمر وقادوها إلى وجهة مجهولة.

وتحكي الوثيقة الثانية بالتفصيل ما عشناه تلك الليلة المشؤومة، من 3/2 فيفري، حيث قام المظليون بتعذيب جميع سكان منزل بوحيرد في 5 درب غرناطة، بمن فيهم الأطفال، اثنان منهما إخوة جميلة. وفي الوثيقة الثالثة، أخبرته بالموافقة السارة لمنظمتنا فيما يخص تأسيسه للدفاع عن جميلة وتأسيس جمعية محاميي جبهة التحرير الوطني. وختمت الرسالة بشكره على تجنيده إلى جانبنا مؤكدة له استعدادنا لتزويده بالملفات الموثقة الضرورية والتي ستساعده في حملته التنديدية بالقمع الاستعماري وبالتعذيب المطبق في الجزائر على المساجين.

نام كل من حولي، باستثناء عليّ الذي تمّدّد على فراشية مبطنّة، وواصل التدخين بعنفوان كبير. حينما أنهيت عملي، طلبت منه أن يستريح كي يستعيد قوّته. لم يكن الفجر بعيدا عنا، ومعه وقت الإمساك لبداية الصوم. فأجابني : « لا تهتمي بي. الأيام طويلة، ولي بها مَتَّسَع من الوقت للنوم والراحة ». كان عليّ حزينا من سوء استقبال أهل الدار، ولا يريد البقاء هنا. ولكنّي متأكّدة من أنّ الذي كان يقلقه ويؤرّقه هو أن يعيش تجربة رعب الجزائريين الفعلي من بطش قوات ماسو ومظليليه المتوحشين. نمت لساعات قليلة، وأيقظني المنبّه على الساعة صباحا. يجب عليّ الخروج ومجابهة الأزقة والشوارع الفارغة والصامتة لأصباح رمضان. كانت القصبة بلا حشودها المتعدّدة، الصاخبة والمبتهجة، تتحوّل إلى فضاء سريالي من زمان آخر، من عالم آخر.

نهضت وغسلت أطرافني، شددت رأسي في منديل، وضعت الظرفين اللذين يحويان الملفين المعدّين ليلة أمس بين بطني المسطح وملابسي الداخلية، وأحطت خصري بالشّملة (العمامة) لمزيد من الاحتياط الأمني. ارتديت الحايك وغطيت وجهي بالعجار، وألقيت نظرة على عليّ اليقظ دوماً. قال لي: « ختو، ردّي بالك! الله يسترك! ». قلتُ له وأنا أخرج: « الشدة في ربّي! ». اتجهت نحو سوسطارة. في اللحظة التي باشرت دخول زقاق مبلّط وبه سلالم قصيرة، سمعت دوي أصوات وضحكات: إنها دورية المظليين تهبط عبر الزقاق في ابتهاج ظاهر، أعضاؤها مدججون بالأسلحة ويحملون على أكتافهم لفائف من الحبال. ذكروني بأولئك الذين عذبوا سكان منزل عائلة بوحيرد، في ليلة 3/2 فيفري. هل أنهم نفس المهمة القذرة في مكان ما من دور القصبة؟ انحرفت مباشرة نحو أقرب دار ودفعت الباب، ومن حسن حظي أنه كان مفتوحاً.

صعدت بخفة السلالم باتجاه السطح، لأقفز منه إلى سطح مجاور ينفتح على زقاق آخر. ومن بين « المنازه » العديدة، كان باب أحدها مفتوحاً، وستاره مرتفعاً قليلاً. قرّرت الدخول والاختفاء لمدة من الوقت، تجاوزت عتبة الباب، وأدخلت رأسي تحت الستار، فواجهتني امرأة، رأسها ملفوف داخل وشاح أبيض كبير، والجبهة يشدها شريط قماش ضيق أبيض اللون هو أيضاً وعليه نقاط سوداء، تجلس مربعة القدمين بجانب شكل ممدّد مغطى بإزار أبيض، وعند رأس ذلك الشكل، تحترق شمعتان. يتعلّق الأمر بشخص ميت دون شك. جلست بقرب تلك المرأة الملفوفة في حدادها الصامت، محتفظة بحياتي مثلما رأيت النساء يفعلن في السهرات الجنائزية. لم تتحرّك المرأة، لم تكلمني، بصرها مشدود إلى الجثة الممدودة أمامها. كانت تشيّع شخصاً عزيزاً عليها في عزلة لا نظير لها. بعد لحظات من الجمود، قمت بإخراج الظرفين

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

من تحت ملابسي وأخفيتهما تحت الزربية التي يتمدد فوقها الميت، تفاديا لأية مdahمة قد يقوم بها المظليون... بقينا على تلك الحالة، نحن الثلاثة، المرأة الوحيدة في حدادها، الجثة المغطاة بإزار أبيض وأنا، صامتين، جامدين، ثابتين في وضعياتنا. لقد طرد عني ذلك الصمت المطبق من الخشوع القلق والخوف اللذين كانا يعتريانني قبل دخولي، وعوضه بسكينة مريحة بعثها في نفسي ذلك المكان الذي جمع الحياة والموت في ألفة أخوية وطبيعية. تركت نفسي تنساق خلف ذلك الجو، ولم أتمكن من إنقاذ نفسي من ذلك الجو وإخراج الظرفين من تحت الزربية بحذر وعناية قصوى.

كان الشكل الجامد أمامي يحميني. بذلت مجهودا كبيرا كي أكون خفيفة وساكته وغير مرئية مثل شبح الموت، كي أتمكن من التسرّب خارج الغرفة، دون أن أزعج أو أكسر السكينة المخيّمّة. بالعودة إلى الضوء، انقبض قلبي، ومعه الشّملة التي أدّرت بها حصري لشدّ الظرفين ضد بطني. نزلت السلالم خلصة كما يفعل لصّ، بخطى وثيدة، واتجهت نحو باب خروج هذه الدار المجهولة، الغارقة في سباتها. في الشارع، كان كل شيء هادئا، ولا أثر لدورية في الأفق. فأسرعت المشي باتجاه مكان مواعدي حيث وصلت متأخرة بنصف ساعة. ذهب السيّد فرجاس ولكنه ترك في المكان امرأة جزائرية تنتظرني. حسبتني خالتي باية، فشرحت لي أنّ محامي ابنتي لم يتمكن من انتظاري لأنّه مرتبط بجلسة في المحكمة، فأوصاها بتسليم الملفات. أعطيت لها الظرفين، شكرتها وعدت مسرعة إلى مخبئنا، بقرب حسيبة والإخوة.

عثرتُ دون عناء على المخبئ القبيح الذي قضينا فيه ليلة آرقه. وجدت الإخوة ينتظرونني على أحر من الجمر، يقضم القلق أوصالهم. قدّمتُ لهم تقريرا مفصلا عن مغامرتي الصباحية، وسبب تأخري عن الموعد. لقد اتّخذوا قرار مغادرة هذا المخبئ اللعين. كانوا ينتظرون بشغف عودة عمر الصغير الذي

بعثه « الخو »، للاتّصال بأشخاص أكثر ثقة. على كل حال، كان من غير المقبول لنا أن نطيل داخل هذه الدار التي حظينا فيها باستقبال سيّء. وفي حالة عدم إيجاد مخبأ آخر، سنلتحق بسي مراد الذي أخبرناه بحالتنا، فبعث إلينا رسالة مفادها أنّ العائلة التي تؤويه موافقة على إيوائنا أيضا. كان ذلك هو القرار النهائي للإخوة. اجتمعنا كالأيتام داخل الغرفة الكئيبة في الطابق الأرضي للدار اللعينة، وانتظرنا عودة عمر الصغير، ينخر القلق أحشاءنا. إنّ أتعّب شيء في الحياة السرية انتظار خبر مجهول، ويمكن لهذا الانتظار أن يدوم ساعات طويلة، بل وأحيانا أياما بأكملها، دون أن تكون لدينا العناصر المحددة للحفاظ على حياتنا. إنّ مثل هذا الانتظار غير المؤكّد ينخر الأمل ويُسرّب إلى النفوس القلقة كللا أقرب إلى اليأس، نظرا للعدد اللامحدود من العوائق التي يخضع لها مستقبلنا. تلك كانت ظروفنا في ذلك اليوم حيث انتظرنا مجتمعين، جالسين في الغرفة الكئيبة من الطابق الأرضي حينما دخل علينا عمّر صاحب الدار ليعلن لنا بصوت لا يكاد يُسمع أنّ المظليين حاصروا الحيّ كله. تبادلنا النظرات، تعترينا فكرة واحدة : هل « باعنا » للعدوّ، هو أم فرد من عائلته ؟ نظر إليه ياسف بهدوء وأمره بالصعود إلى الطابق الأول، والانغلاق مع جميع النساء داخل غرفة وعدم الخروج منها. ثمّ طلب من عليّ الصعود إلى السطح وتقييم حظوظ استخدام هذا المسلك للإفلات من حقل الحصار. عاد عليّ بعد قليل، وقد فتّش السطح وجميع غرف الطابق الأول، وحتى تلك التي انغلق بداخلها عمّر وأفراد عائلته. فأصدر حكمه : « لا توجد أيّة إمكانية للهروب عبر السطوح. إنّنا محاصرون من جميع الجهات، ولا يمكن تفادي المواجهة المسلّحة. لقد أحكمتُ قفل الباب المؤدي إلى السطح كي لا يفاجئنا المظليون من الأعلى ». لقد غادرت حسبيّة، منذ لحظات، الغرفة التي كنا نتواجد بها. ظننتها في المرحاض أو أنها تذرّع مسافة الرواق ذهابا وإيابا،

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

كي تتخلّص من جوّ الغرفة الخانق. فجأةً ظهرت وطلبت مني أن أتبعها، وقادتني إلى أحد جدران الحَوْش، حيث توجد بأسفله حفرة مستطيلة الشكل بتمر على 50 سم. وكانت الفتحة تُؤدي إلى فضاء تُرمى به المهملات وبه ركام كبير من الأشياء المتعددة الأشكال، خرّدة حديدية وخشبية وبلاستيكية تصل إلى سقفها الذي كان على شكل قبة. قالت حسّية : « يمكن لنا أن نختفي خلف هذا الركام من المهملات المغطاة بشباك عناكب سمّية. ماذا تقولين ؟ ». بدت لي، ولياسف وعليّ اللذين أخبرناهما فوراً، الفكرة ذكية وفعّالة. نادى الإخوة مباشرة على عمّر صاحب الدار ليساعدهم على تحريك أكبر حجم من تلك المهملات بحيث لا تُمزّق شباك العناكب. وبعد ذلك، تسلّلنا، الواحد وراء الثاني، داخل غرفة المهملات، وراء تلك الكتل من الخرّدة المرمية هناك منذ الأزل. وقفنا، ياسف وأنا، ملتصقين بالجدار، فيما ألقى عليّ وحسّية خلف جبل المهملات التي تعجّ بالحشرات العنكبوتية.

يبدو أنّ ذلك اليوم كان يوم اكتشافات حسّية، لأنها همست لنا بعد لحظات : « انظروا، هناك فتحة في أسفل الجدار. ربّما يكون دهليزٌ يُخرجنا من هذه الورطة ». تبادلنا النظرات ؛ وبالفعل، كانت هناك فتحة مربعة الشكل، لا يتجاوز ضلعها 50 سم. وحدها حسّية النحيلة جدا يمكنها أن تتسلل بداخلها لتتأكّد إن كان بإمكاننا الاختفاء بداخل الممر الأرضي. تمدّدت على بطنها، أسندت قدمها ضد جدار الخرّدة التي انهارت بعض عناصرها على رؤوسنا، وبدأت تزحف بصعوبة، تضيء المكان بمصباح كهربائي، ذلك المصباح الثمين الذي لا يفارقنا أبداً. تقدّمت قليلاً، وفجأةً أطلقت صرخة. فكّرت أنّها صادفت جرّداً أرعبها.

بسرعة، رأينا قدميها تظهر خارج الغار. وجدنا صعوبة في إخراجها بسبب ضيق المكان والخرّدة المحيطة بنا. عادت تلفها طبقة سمّية من الغبار، والشعر

مليء بعُكاش العنكبوت. أخذت الوقت الكافي لاسترجاع نفسها، ثم شرحت لنا الوضع : « صادفت هيكل عظم أفزعي. الدهليز ضيق جدا، ولا يمكن لأحدكم أن يمرّ عبره ». فتراجعنا عن فكرة الهروب عبر خندق الهيكل العظمي، وبقينا ننتظر بفارغ الصبر مصيرنا، في وضعيات جدّ مؤلمة بسبب ضيق المكان وكثرة الخردة المحيطة بأجسادنا. أخيرا وصل المظليون. سمعناهم يتدفقون بفضفاضة على السقيفة والحُوش والأروقة والغرف ويتصايحون. تعلّقنا بصيحاتهم وبدويّ أحذيتهم العسكرية الخشنة. فجأة، نَبَح صوت قريب جدا مِنّا : « ما هذا ؟ ». وردّ عليه صوت آخر مرتجف : « فضاءٌ مُهمّلات مثلما تَرَوْنَ. يوجد هنا منذ زمن طويل وكل عائلة تضع فيه أشياءها القديمة ». أوقفنا تنفّسنا، جامدين، مستعدين للعب آخر ورقة لنا. ولكن من حسن حظّنا، ابتعدت الأصوات، وغادر المظليون المكان على الساعة الثالثة زوالا. بعد ذلك، جاء عمر الصغير يحمل نبأ سارا : أخيرا سنغادر هذه الدار الملعونة.

بعد سنوات من نيل استقلالنا، في حين كنت أشتغل في مكتبي للمحاماة، أدخلت كاتبتي امرأةً ملحفة بالحايك، والوجه مخفيّ وراء العجار، ولا تُظهر إلا العينين خلف نظارات بزجاج سميك ؛ كان يرافقها شاب داكن البشرة، في الثلاثين من العمر، وقد دهن عينيّه بالكحل. ظننت أنّها متقاضية جديدة، فسألتها عن مشكلتها، وردّت عليّ بفضفاضة ظاهرة في نبرة الصوت : « ألم تتعرّفي عليّ ؟ ». نظرت إليها تحت وقع المفاجأة، وقلت : « كيف تريدين لي أن أتعرف عليك ؟ أنت ملحفة وعلى وجهك عجار ! ». جذبت عجارها بفضفاضة لتكشف عن وجه لم أتعرف عليه ولم يثر في مخي أية ذكرى. فقالت لي بحقد وغيظ أرعدا أوصالي : « طبعاً، لا تعرفيني اليوم وأنت المحامية الكبيرة، في حين كنتِ مسرورة لتختبئي عند ناس مثلنا يوم كان المظليون يطاردونك ! ». نظرت إليها بعناية وتركيز أكثر، باحثة في ذكرياتي

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

الحربية بصدق كي أضعها في مكانها وتاريخها، فلم أتمكن، وطلبت منها أن تساعدني بتذكيري لظروف لقائنا. كان الشاب يستمع إلينا، ينقل بصره من واحدة إلى الأخرى، وفجأة قال : « هكذا إذا، نسيبت دار عمّر ! ». نظرت إليه بذهول أكثر. كانت المرأة إحدى النساء اللائتي صرّخن عند وصولنا إلى دارها في ساعة الإفطار من يوم رمضان، بعد ظهيرة كاملة من التيه في أزقة القصبة، تطاردنا قوات ماسو الغاشمة.

لحظتها استحضرت صورة عليّ لابوانت الحزين والممتنع عن الكلام والنوم طوال الليل، فقلت لها : « لا، لم أنس شيئا من تلك الليلة المشؤومة »، وحاولت التحكم في صوتي الذي كادت تخنقه شهقات الدموع الصاعدة، فأضفت : « ماذا تريد مني ؟ ». أرادت المرأة التي صرخت في وجهنا، ورفضت استقبالنا مساء يوم من أيام رمضان، أن أكون شاهدة بأنها كانت مكافحة في منطقة الجزائر المستقلة ! ذهلتُ إلى حدّ الصدمة. ولكن المرأة كانت جادة ومصرّة على شهادتي ؛ حدّقت في عينيّ، فتحت حقيبتها اليدوية، أخرجت الوثيقة ذات الثلاث صفحات التي يجب أن يوقعها ثلاثة مجاهدين معترف لهم بالمشاركة القوية أثناء الثورة كي يشهدوا بأنها كانت فعلا مجاهدة. وطلبت مني أن أكون أحد الشهود الثلاثة !!!

صرختُ في وجهها وأنا على شفا حفرة من السكتة القلبية من وقاحة هذه المخلوقة : « لا، وألف لا، يا مخلوقة ! لم أنس شيئا ! لم أنس صراخك المدوّي عندما دخلنا إلى دارك ساعة الإفطار ! لم أنس عليّ لابوانت الواقف في الحوش، وهو يُصوّب رشاشه باتجاه الطابق الأول، ويأمركن بالسكوت والكف عن الصراخ ! لا، لم أنس تلك الليلة السوداء التي قضيناها نترقب ما يحدث في الشارع كما نترقب حركاتكن ! لن أنسى أبدا صراخك وأنت تشترطين على زوجك أن يرفض إيواءنا بل ويرميننا خارج الدار ! ». وعوض أن تسكت

وتخرج، أشهرت الوثيقة تحت عينيّ وصرخت : « لقد وقّع الآخرون ! فأنا مُجاهدة ! ». فقلت لها : « أنا موافقة، سأقدم لك شهادتي، ولكن ما عشته فعلا، ما رأيْتُ وما سمعت. أعطيني الوثيقة ». مباشرة، أردتُ أخذ الوثيقة من يدها، ولكنها تشبثت بها وتمكنت من إرجاعها إلى حقيبتها. وعندما وقفت، قهقهت في وجهي وهي تردّد : « لقد وقّع الآخرون ! ». ملت نفسي لأنني فقدت برودة أعصابي، لأنني كنت، بطريقة أخرى، سأستلم الوثيقة لأكتشف من خان عليّ وحسيبة. إن إصراري على رواية هذا الفصل الحزين من كفاحنا، حيث وُجد فعلا أشخاصٌ أظهروا لنا رفضهم وشكّهم في كفاحنا، فقط لكي أوكد على أنّ هذه الحالة استثنائية. لقد أخذت وعدا على نفسي بأن لا أحكي إلا الأشياء التي رأيتهَا وسمعتها، فمن واجبي هنا أيضا أن أوكد أنّ هذه الحالة من الرفض والريب من طرف النساء هي الوحيدة التي صادفتها في كفاحي في القصة. باستثناء هذه الحالة المؤسفة، الاستثنائية والتي بقيت راسخة في ذاكرتي بسبب فرادتها، لقد كانت نساء القصة جيشنا الحقيقي، يساندننا ويحميننا في جميع الأوقات وجميع الظروف.

هل يجب عليّ أن أذكر بأنّ المدينة العتيقة، التي حوّلها حظر التجوّل إلى مدينة محاصرة تخضع يوميا لمداهمات المظليين وغطرستهم، كانت تتشكّل من منازل تسود فيها النساء بمجرد خروج الرجال منذ الصباح الباكر للبحث عن قوت العيال ؟ إذا، فبدون تضامن ومساندة النساء، لم يكن ممكنا لنا أن نبقى أسبوعا واحدا في القصة.

• تكسير عليلو، تعذيب دحمان، وعليّ يواجه المظليين

فبرغم الضربات القوية التي كنا نتلقاها دوما من طرف الفرقة العاشرة لمظليي ماسو، لم نفكر في الانسحاب إلى الجبال. كانت الأمور واضحة في أذهاننا :

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

يجب أن نرفع التحدي، نرفع التحدي برغم كل العوائق، وإن كانت قوات ماسو الرهيبة. يتعلق الأمر بالنسبة إلينا بجمع كل الناجين من الآلة الزاحفة للمظليين في عمليات المdahمات والتعذيب والتصفيات الجسدية اليومية لرجال يقيّدون بالحبل وتخفي وجوههم داخل كاغولات سوداء ولا يظهر منها إلا العينان عبر ثقبين صغيرين. فبعد التعذيب، يقاد هؤلاء المساجين، وهم مقيدون من أيديهم بحبل يشده المظليون كما يفعلون مع الكلاب، وسط الحشود في شارع راندون ومارينغو.

وليس أمام هؤلاء المساجين إلا خياران : التعاون مع القوات الفرنسية والحفاظ على حياتهم رغم معرفتهم بأنهم سيموتون موتاً أقذر في عيون الجميع، بفقدان كرامتهم إلى الأبد، حتى بعد موتهم الحقيقي. أو رفض التعاون وفقد الحياة، بالتصفية الجسدية تحت أنظار الجميع، في وفاة تحافظ على كرامتهم وشرفهم إلى الأبد. إنهم يملكون الخيار بين نوعين من الموت : الموت بالكرامة أو الموت بالعار. وأمام هذه الاستراتيجية التدميرية الشاملة التي انتهجها ماسو، كان من واجبنا أن نطمئن السكان، ونعيد « تشغيل » منظمنا. كنا نكتب المناشير ونوزعها على الأحياء الشعبية، بالأخص القصبة، كي نثبت وجود قوتنا وصلابة جبهة التحرير الوطني. أعاد سي مراد ورامل تشكيل المجموعات المسلحة وشبكة القنابل، أما ياسف سعدي، الخو، فأصبح يترأس الشبكة العسكرية والسياسية معاً، وأصبحت قواعد السرية وتقتير المعلومات بين الأفراد والمجموعات أكثر صرامة. لم يعد أي مسؤول يتعامل مباشرة مع عون الاتصال الأجنبي عن المخبأ الذي يعيش فيه. هكذا، أصبحنا، حسية وأنا، وسيلة الاتصال الوحيدة بين ياسف وعليّ لابوانت من جهة، وبين سي مراد ورامل من جهة أخرى. ويقيم الثنائي الأول في مخبأ مغاير عن الثاني. وكانت حورية، زوجة رامل، هي أيضاً عون اتصال بين زوجها والآخرين.

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

فبعد اعتقال جميلة، غادر الجميع مخبأ درب لافوازيي. وجدنا، عليّ وحسيبة وأنا، مخبأً في منزل بقلب القصبة، إنه منزل فريد من نوعه، ذو مستوى واحد، طليت جدرانه وأعمدته بالجير فقط، وكانت الأقواس تشدّها إلى بعضها البعض روافد معدنية خشنة. تنتصب في وسط الحَوْش شجرة تين بجذعها العريض المعقود، تغطّي أغصانها المورقة جزءاً من مساحة الحَوْش، وتحمل الدار اسمها الفعلي : « دار السُّجُور » أي منزل الأشجار. الدار ملك لرجل يدعى دحمان، مناضل يكنّ إعجاباً لا حدّ له لياسف ولعليّ، يصل إلى حدّ العبادة. كان الرجلان يمثّلان في عينيه قمة ومجد البطولة، ويتّصفان بصفات خارقة غير بشرية.

حينما تجمّعنا معه جلسة الإفطار، عادة ما يتوقّف عن الأكل، وملعقة الشُرْبَة على مقربة سنتيمترات من فمه، وبصره مثبت على الإخوة. وكان عليّ المازح دوماً يمسك الملعقة في منتصف طريقها ويولجها بداخل فم دحمان وهو يضحك بملء شذقيه : « راني وگيت المُرْبِيَة تاعك يا خويا دحمان ». وبعد الانتهاء من الأكل، يخرج دحمان ليلتحق بأصدقائه في أماكن لقاءاته المعهودة. لا يجب تغيير العادات كي لا يلفت الانتباه أو يثير التساؤلات، بالأخص لدى « المخبرين » العرب، البياعين، « الزُرُوقَة » مثلما يسمّون بسبب البذلة الزرقاء الرسمية التي يرتدونها عندما يرافقون المظليين.

● التعذيب مدْمَرٌ، أثناء، بعد، ودائماً

إنّ « الزُرُوقَة » من قدماء المناضلين، أبناء القصبة، الذين خضعوا للتعذيب الوحشي، فكسّرت إرادتهم، وحوّلوا إلى مخبرين نذلين. يحاول العدو بهذه البذل الزرقاء التي تظهر للعيان من بعيد، وبإرغامهم على مرافقة دوريات المظليين وسط أزقة القصبة، الحط من قيمة جبهة التحرير الوطني في عيون

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

السكان بتحطيم مناضليها وإذلالهم . ولكن شعبنا في أغلبه لم يكن مغفلا ولا جاهلا لأهداف العدو غير المعلنة التي يقصدها وراء تلك العمليات التضليلية واستراتيجياته التدميرية الفردية والجماعية . لهذا، بقدر ما كان شعبنا يمقت خدمة هؤلاء « المُنقلبين » إلى جانب العدو، كان متفهما ومدركا أنّهم ضحايا التعذيب البشع الذي تعرّضوا له في سجون ماسو .

في واقع الحال، لا أحد كان ينخدع بهذه المعاملات، يعرف الجميع من هو العدو الحقيقي، ومن هم مسؤولو الوضعية المأساوية التي كنا نتخبط في وحلها . يعرف الجميع أيضا أنّ وضعية « الزُّروقة » هي أسوأ وأرذل طريقة اكتشفها ماسو لمواصلة ممارسة التعذيب وتدمير الأشخاص والأرواح والإرادات والكرامة الإنسانية . وحتى بعد موت « لُزْرَق » . وفي رأيي أنّ الحالة الأكثر مأساوية وقساوة في مواصلة التعذيب المدّمّر للكائن البشري وكرامته، أبعد من موته الحقيقي وإلى يومنا هذا، هي حالة أخينا المسكين عليلو . فقد كان من بين المناضلين الأكثر التزاما بنضاله، الأكثر شجاعة وفعالية ووفاء قبل ذلك التعذيب المرعب الذي تعرّض له، إثر اعتقاله، يوم 24 جويلية 1957 . إلى غاية فجر 09 أفريل واعتقال جميلة مع المحفظة التي تحوي وثائق « المنظمة »، كان عليلو أحسن أعوان ياسف للاتصال وأكثرهم وفاءً وصدقا . ابتداءً من ذلك اليوم، فرض « الخو »، مثلما سبق أنّ شرحت، قوانين جديدة تخص سرية الاتصال والتعامل بين المناضلين، وكلّف كل واحد من الناجين من رعب ماسو بمهمة جديدة وأحيانا توجهها جديدا . هكذا، أمر الخو، بكل موضوعية، عليلو بالاختفاء لبعض الوقت، وقطع كل علاقاته بالمناضلين الآخرين والاستعداد للالتحاق بالجبال . أتذكّر أنّ عليلو تقبّل هذا القرار بشكل سيّء جدا .

حينما كنا لا نزال في درب لافوازيي خلال شهر رمضان، جاء عندي عليلو وحاول أنّ يفهم أسباب قرار ياسف . شرح لي أنّه ومنذ بداية الثورة،

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

كان يشتغل تحت أوامر قائدنا، بالتزام ووفاء وصدق بلا حدود، وختم قوله أنه يمكن للخنو أن يتخلى عن الجميع إلا عنه. اتفقت معه بأنه كان حقا مناضلا فعّالا في جميع ميادين حركتنا، ولكنني قلت له أنه يجب أن يفهم الظروف الرهيبة التي فرضها علينا ماسو ورجاله، ويجب أن نتأقلم معها. ولكن عليلو لم يرد أن يتقبل وضعه الجديد، فبدأ يبكي، وأدركت أنه فهم قرار ياسف على أنه تهميش له ونزع للثقة التي كان يحظى بها سابقا، ولكنه يمر أيضا بأزمة نفسية خطيرة.

وفهمت أيضا أن عليلو انتمى إلى المنظمة مثلما نلتحق بدين جديد. كانت عائلته وحياته الوحيدة تُختصر في ياسف ومجموعتنا والثورة. غادرني جريحا واهنا، ألمه كثيرا وضعه الجديد. خفت عليه من الانتحار، وكنت بعيدة عن تصوّر أنه سيعيش تجربة أسوأ وأبشع. بالفعل، تم اعتقاله يوم 24 جويلية 1957 بعد شهر من البحث الحثيث عنه. فتم إخضاعه إلى التعذيب الرهيب : الكهرباء، حوض المياه الملوثة، القنينة، شعلة نار « الشاليمو »، قلع الأظافر وقطع من الجلد وعقب القدم بالكلاب. فتم تحطيم أخينا عليلو، وحول إلى رجل من « الزروقة »، ببذلته الزرقاء، يرافق المظليين في دوراتهم التفتيشية عبر أزقة ومنازل القصبة، وهو يعرج قليلا ويقفز بسبب آلام العقب المقطع بآلة حديدية. كنا جميعا في المنظمة نعرف ما كان يجهله كل من ماسو وفودار وجميع الجلادين : لقد أعاد « الخو » تنظيم كل هياكل المنظمة منذ أفريل 1957، وكان عليلو يجهل تماما الإجراءات الجديدة في مسائل صناديق البريد والمخابئ وأعوان الاتصال والخطة الإجمالية لمنطقة الجزائر المستقلة.

لم تتمكن وسائل التعذيب الرهيبة التي خضع لها عليلو من الحصول على معلومة واحدة صالحة، ولكنهم حطّموا أخانا إلى الأبد، وحتى بعد موته، بعد الاستقلال بسنوات كثيرة. إلى يومنا هذا، لا تزال ذاكرة عليلو ملطّخة بما تعرّض له من آلام وتعذيب في سجون النظام الاستعماري الفرنسي. بهذا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

المعنى، يبقى عليلو ضحية مطلقة، ولم أعتبره يوما خائنا ولن أفعل أبدا. أولا لأنه لم يتسبب في اعتقال ولا وفاة واحد من إخوتنا ولا أخواتنا. ثانيا، أكاد أجزم أنّ عليلو يعرفنا جيّدا، حسيبة وأنا، ويمكن له أن يتعرّف علينا حتى ونحن بالحايك والعجار، كما كان يعرف جيّدا أين تسكن أخيتي ولكنه لم يعرضنا يوما لانتقام المظليين. أخيرا، فإذا اعتبرنا عليلو خائنا، فإننا نبرئ التعذيب وكل ما قام به النظام الاستعماري من بشائع وجرائم، والتي اعتبرها أبشع خيانة لبلدي وشهدائه.

فبعد أن عشت تلك الليلة المشؤومة من 3/2 فيفري 1957، في 5 درب غرناطة، تلك الليلة المرعبة حيث حوّلت الآلة الاستعمارية كائنات بشرية من جلادين ومعذّبين إلى حالة بهيمية، اقتنعت ليلتها أنّ لا أحد يمكنه أن يتوقع سلفا مدى قدرته على مقاومة التعذيب. كما اقتنعت أيضا أنّه يستحيل على أحد أن يتوقع ردّ فعل أي شخص يُخضع للتعذيب.

كما اقتنعت أيضا أنّ إدانة المعذب هو الأساس تبرئة المعذب والجلادين، ما يعني التواطؤ مع المجرمين وتمديد الجريمة، أبعد من موت الضحية نفسها. لهذا، يبقى عليلو في نظري ضحية من بين آلاف ضحايا مصنع التعذيب الرهيب والرعب المنظم والمطبق على نطاق واسع من طرف السلطة الفرنسية. سوى أنّ أخانا عليلو قد دفع ثمنا غاليا أكثر من أي معذب آخر، ذلك أنه غرق نهائيا في الحزن والاضطراب، لأنه كان قبل شقائه واحدا من أكبر المناضلين التزاما ووفاء وإيمانا بثورة تحرير بلدنا.

● عذاب دحمان

ولكننا لا نزال في أفريل 1957 وفي أواخر شهر رمضان في « دار السجّور »، وكان على دحمان مضيفنا، كعادته بعد الإفطار، أن يلتحق بأصدقائه من

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

أجل مباراة في الدومينو كما جرت العادة، وأيضا لاقتناء بعض المعلومات المتعلقة باعتقال أو قتل أو موت واحد من مناضليننا. وكان يحدث أن يكلفه الخو بالمرور عند مخبأ رامل لإيصال أو جلب بريد أو طرد.

ذات مساء، بعد خروج دحمان، سعدنا، الخو وعليّ وحسيبة وأنا، إلى السطح لنقضي سهرتنا هناك. كنا بحاجة إلى الهواء الطلق لتغيير الجو، ورؤية الدزائر وأضوائها، وتصوّر شارع راندون وحشوده، جامع ليهود، ساحة الحكومة، المقاهي المتلائة، بائع حلويات الزلابية وقلب اللوز والقطايف. كنا بحاجة إلى الالتحام من جديد مع الحياة « الطبيعية »، مع مشاغلها اليومية ورتابتها، خصلتان نبحت عنهما بشوق عندما نفقداهما. كنا نريد الهروب من واقعنا الخانق باستحضار ذكرياتنا الماضية، ذكرياتنا من حياة أخرى. وكان عليّ وياسف يرويان مغامرات شبابهما، كما لو كنا في سنّ الشيخوخة. كنا نحلم بمستقبلنا. وبالطبع، لا نتصوّر حياتنا اللاحقة إلا في ظل الاستقلال والحرية. وكان ياسف يجوب البحر الأبيض المتوسط على سفينته « اليخت »، محدثا سخرية وضحكات عليّ الذي كان يتوقع له الغرق في عمق البحر، هو ويخته. كنا نتبادل أطراف الحديث، وننظر إلى السطوح والأزقة المجاورة لترقب تحركات المظليين وفرق « الزواف » الأعوان العرب المساعدين للنظام الفرنسي، وفرق « الصيادين الألبنيين ». كانوا يتجولون عبر مجموعات من 10 إلى 12 فردا، الرشاش باليد، والخرطيش معلقة على الصدر والكتفين. في حوالي منتصف الليل، نزلنا، حسيبة وأنا، إلى غرفتنا للنوم، وتركنا الأخوان يواصلان سهرتهما، ومعها الحراسة إلى غاية الفجر. كان النهار قد طلع منذ مدة عندما أيقظتني دقات قوية على الباب. لم نكد ننهض ونرتدي ملابسنا حتى دخل الخو غرفتنا وطلب منا الذهاب فورا إلى درب لافوازيي حيث يوجد دحمان في حالة سيئة.

مُذْكَراتٌ مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

لقد تمّ اعتقاله ليلة أمس في مdahمة للشرطة، فخضع لتعذيب رهيب، ولكنه تمكن من الفرار. كان بحاجة إلى علاج، ويمكن لحسيبة التي سبق لها أن تمرّنت على تربص في التمريض أن تقدّم له الإسعافات الأولية في انتظار إيجاد وسيلة أفضل لعلاجّه. أما بالنسبة لي، فكان عليّ أن أكون مرشدتها أثناء الطريق تفاديا للوقوع في دورية مظليين. لقد استقبلتنا خالتي زغلة وأرتنا الغرفة التي يتواجد بها دحمان. كان عاري الجسد وممدّدا بكامل طوله على السرير العالي والعريض، المسمى بـ «بُنك القبة». يبدو أنه أصيب بحروق بليغة. تردّدنا قليلا في التقدّم نحوه. بدأ دحمان يئن من الوجع، قائلا: «أخواتي! آه، أخواتي! حرقوا كامل جسدي. شوفوا! ازواحوا. خففوا عني الوجع».

أعترف اليوم، والخجل ينتابني، أنّ ذلك الجسد الكبير، الممدّد، بالذراعين والساقين المتفرقين، والرأس المنغرس بين وسادتين، وهو على ذلك السرير الكبير بغطاءه الحريري الوردى الشاحب، يشكّل لوحة ساخرة أثارت فينا ضحكة عصبية جنونية، عنيفة، عصيّة الكتمان. كان دحمان لا يزال يئن وينادينا: «أخواتي، ازواحوا، ساعدوني! غلاش تضحكوا؟». انتقلنا من الضحك العصبيّ إلى الدموع العصيّة الكتمان لمواجهة هذه القساوة البشعة التي يتعرّض لها كائن بشري. قلت لحسيبة: «أنتِ الممرضة، فعليك بعلاجه». تقدّمت نحو السرير وهي تحاول التحكّم في دموعها وفي ضبط حركاتها، وحاولت أن تغطي جسد دحمان العاري بإزار. ولكن هذا الأخير صاح: «لا! من فضلك، ما تغطّينيش. كل شيء يحرقني! كل شيء يحرقني!». حاولت حسيبة تهدئته وطمأنته بالقول أنّ الحُوّ يقوم بكل المساعي الممكنة كي يحظى بعلاج جيّد في أقرب وقت ممكن. كان كامل جسده مغطّى ببقع ولطخات واسعة بلون وردي مشع كما لو أنّ الجلد اقتلّع قلعا فظا. كانت

شفتاه متورمتين وأذناه منتفختين. لقد جلبت حسيبة معها مرهما تقليديا « البرهم » ودهنت به جسدَ دَحْمَانٍ كاملا. ثم وضعت ضمادات مبللة بماء الزهر على جفونه وشفتيه. كان دحمان يئن من الوجع، ولكنه وجد القوة ليحككي لنا ما وقع له ليلة أمس بعد الإفطار : « بعد أن خرجتُ من الدار بعد الإفطار مباشرة، ذهبت إلى شارع « لالير ». وما أن وضعتُ قدميَّ على قارعة ذلك الشارع حتى أوقفتني دورية من المظليين وطلبت مني أن أبتسم وأن أفتح فمي. ابتسمت وفتحت فمي. حينها ودون أي تفسير، قيدوني ودفعوني داخل مركبة وجدت بها أربعة أو خمسة أشخاص. عصّبوا عيوننا وانطلقت المركبة. قطعنا مسافة قصيرة، ثم أنزلونا بالركلات وضربات أخمص البندقية واستولوا على بطاقات هويتنا. وضعوني داخل غرفة وتركوني أنتظر طويلا، وقت حسبته دهرا. كنت خائفا، وأسناني بدأت تصطك. لم أتوقف عن التفكير بأنه عليّ أن أكون شجاعا، مثل عليّ لابوانت. وفكرت بأن لا أحد منهم، لا الخو ولا عليّ ولا رامل، يعرف بأني بين مخالف المظليين. يجب عليّ المقاومة وعدم خيانة الثقة التي وضعوها في شخصي وذلك مهما حدث. في تلك اللحظة، سمعت صوتا يصرخ بقوة : هيا أيها النذل، تعالى ! ». أمسكوني بفضاظة، صعدوني عبر السلالم، ثم مشينا، ومشينا، ومشينا. وبعد ذلك، سمعت بابا يغلق بقوة، فأدركت أنني داخل غرفة. كانت عينايتي لا تزالان معصبتين. أمروني بنزع ملابسني، والبقاء عاريا تماما، ثم أقعدوني على كرسيّ ونزعوا عصابة العينين. بدأوا مباشرة يلطمونني بقوة ويظهرون لي صورة رجل. تعرّفت على صاحب الصورة فورا : إنه تاجر، جزار، يبيع اللحم، وهو عون اتصال أتعامل معه. كان متجره نقطة وضع وتلقّي البريد. لقد وضعت عنده رسالة قبل ساعة الإفطار بقليل. وبما أنني أنكرت معرفة صاحب الصورة، طفقوا يضربونني كالمعتوهين. وكلما زادوا في الضرب،

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

كلما كرّرت مع نفسي : « يا دحمان، لا يمكنك أن تخون عليّ لابوانت . لقد وضع ثقته في شخصك . كن شجاعا مثله . إنّه لا يعرف بأنك اعتقلت . يثق فيك ثقة كبيرة » . وهم يصرخون ويضربون كالمعتوهين، ويكرّرون بأنّ الجزائر قد تعرّف عليّ بشكل صريح وعيّني بالرجل الذي يحمل أسنانا ذهبية . وخلال استنطاقه، أعلن الجزائر أنّ الرجل الذي يسلمه البريد فكّه الأعلى مغطى بأسنان من الذهب . ولكنّي أنكرت . نعم أنكرت وأنكرت » .

خضع دحمان لتعذيب الكهرباء الرهيب خلال ساعات طويلة، وضعوا التيار الكهربائي على كامل أعضاء جسده، من الرأس إلى أخمص القدمين وعلى حلقات الصدر وأعضائه التناسلية ووجهه وأذنيه وشفتيه، وعلى كل نقطة حساسة من جسده .

« كنت أصرخ للربّ الذي خلّقني، أصرخ بأعلى صوتي وهم يمارسون التعذيب على جسدي كما لو أنه كان آلة جامدة . حينما يضعون خرقة في فمي ويبقى صراخي محبوسا في صدري وحلقي وأشعر بالاختناق، بعدم القدرة على التنفس، بروحي التي ستخرج من جسدي، كانت تلك أصعب اللحظات وأشرسها، ولا أعرف كيف تحمّلتها . لم أعد أسمع شيئا، لم أعد أعرف من أنا . وبين الفينة والأخرى يتوقفون ويصرخون في أذنيّ كالوحوش : « أين عليّ لابوانت ؟ أين ياسف ؟ أين رامل ؟ ستموت على النار الهادئة أيها النذل ! سنخرج كلّ ما في أحشائك ! » . على كل حال، حتى ولو أردت أن أتكلّم، ما كان باستطاعتي أن أفعل لأنني لم أكن أشعر بلساني ولا بشفتيّ ولا بحلقي المختنق . كانت جملة واحدة تدور وتدور في رأسي : « إنه لا يعرف، إنهم لا يعرفون، لا يمكنني أن أخون ... » . ويستأنفون التعذيب، أقوى وأطول، وعلى جميع أطراف جسدي، ولم أكن في نهاية المطاف إلا ألما وصراخا . لم أعد أعرف من أنا وأين كنت . وبعد ذلك توقّفوا، تعبوا

من التعذيب . قَيّدوا يديَّ إلى ظهر الكرسي وتركوني عارياً كما ولدتني أمي وخرجوا وهم يتوعدونني بتعذيب أبشع، أكثر فعالية : سنشرّح لحملك إربا إربا ونحكّ الجروح بالملح، وسنرى حينئذٍ كيف ستتوسّل إلينا بأن نستمع إليك، أيها القدر ! وسنرى من ممّا المنتصر ! » . وخرجوا . لم يكن جسدي ورأسي إلا كتلة من الأوجاع العصيّة الاحتمال . بعد لحظات، استرجعت رباطة جأشي، وأدركت حساسية وضعي . كنت في غرفة صغيرة، مربوطا إلى كرسيّ، جسدي يلهب، يتألّم، وحلقي يعذّبه عطش حارق . تحرّكت قليلا كي أضع نفسي مقابل الباب الذي كان يتسرّب منه شعاع ضوء . بدأت أئنّ : « المّا ! نَشْرَب المّا ! راني عطشان ! » . ظهر رأس عسكري شاب من فتحة الباب ونظر إليّ . توسّلت إليه بعينيّ وقلت : « المّا ! نشرب المّا ! » . اختفى الرأس . بعد قليل، عاد العسكري الشاب، يشدّ بندقيته في يد وبالأخرى مدّ لي قدحا معدنيا مليئا بالماء . نظرت إليه نظرة توسّل . حطّ القدح على الأرض، أرخى الحبل الذي يشدّ معصميّ وقدميّ . خرج وترك الباب مفتوحا . آه ! أخواتي ! يا لها من راحة ! حتى وإنّ كان جسدي لا يزال يشتعل آلاما . شربت القدح إلى آخر قطرة، وبدأ أطول وأضجر انتظار في حياتي . لقد وعدني الأوباش بالرجوع كيّ يشلّحوا جسدي بشفرة موسى حادة وحكّ الجروح بالملح . حينئذٍ، ما العمل لأجل المقاومة وعدم التكلّم، عدم خيانة إخوتي . وبدأت أطلب من الله من كل أعماقي كي يمنحني قوة المقاومة وعدم الاستسلام للتعذيب .

وقفتُ وبدأتُ أدور داخل الغرفة . لم يكن يُخيم عليها إلا الصمت والكُرب . تأخر الوحوش عن المجيء . أعانني الله، أشفق عليّ، نفث في روحي قوة جديدة، أعطاني الشجاعة، فاقتربت من الباب، وفتحتها ببطء، وأخرجت رأسي ونظرتُ : هناك ضوء في الأفق، بعيدا، بعيدا . حدّقت جيّدا في الظلمة الشفافة، فعرفت أنّ محل التعذيب ينفّث على قاعة كبيرة، بطول معتبر

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

ينتهي عند باب منفتح قليلا، يتسرّب منه النور. كان كل شيء غارقا في صمت دفين. تشجّعت، فتحت الباب على مصراعيه وتقدّمت بخطوة إلى الأمام. تأقلمت عيناّي مع الظلمة الشفافة، وكم كانت دهشتي عندما رأيت صفّين من الأسرّة الفردية يفصل بينهما رواق واسع. كنت في مرقد عسكري حيث ينام الجنود الفرنسيون، كل واحد في سرير، والبندقية الرشاش مسندة إلى الجدار، قرب رأس السرير. أحسست بقوة ربانية تسري في جسدي، فتقدّمت بخطى وثيدة نحو النور الذي يتسرّب من الباب النصف مفتوح. هناك، تأكّدت أنّ الله قد استجاب لدعائي، لأنني أدركت أنني كنت داخل « جامع كتشاوة » الذي أعرفه منذ زمن طويل.

وكنّ أعرف أيضا أنّ ماسو قد صادر بناية الجامع ليحوّلها إلى ثكنة. فكنتُ أمرّ يوميا قربهِ وأرى الحراس عند جانبي بابه المهيب. وكنّ قرب ذلك الباب، من الجهة الداخلية. باشرت الاستعداد لفتحه والركض بكل قواي كي أهرب من الحراس، حينما لفتت نظري بندقية رشاش مسندة إلى الجدار، عند رأس آخر سرير حيث ينام جندي. اقتربت ببطء، أمسكت السلاح، واتجهت بسرعة خافتة نحو باب الخروج. ولا أعرف كيف انطلق وابل من الرصاص، أنا الذي لم يحدث لي أن استعملت سلاحا في حياتي قط. وبعد ذلك جرّيتُ، جرّيتُ وجرّيتُ كالمجنون، عارٍ تماما، ويديّ بندقية الرشاش. عبرت سوق جامع ليهود، وركضت وأنا أسمع صراخ ووقع خطى المظليين خلفي. وكي أتملّص من مطاردتهم، رميت بنفسي وسط رفوف سلع الخضّر والفواكه، واختفيت داخل سلّة من السوخر، وغطيت جسدي بأكياس من الخيش، كانت مهملة تحت رفّ. وبقيت هناك، أتعذب للربّ الذي خلقني، بحكم وضعيتي غير المريحة وسمان السلّة الحادة التي كانت توخز جسدي الجريح. قطع المظليون السوق بركض سريع وهم يصرخون بأوامرهم وشتائمهم، ثمّ واصلوا طريقهم باتجاه أعالي القصبة .»

كان دحمان يتكلم ويبكي. لا يزال تحت وقع الصدمة، مذهولا مما حدث له، وهو يكتشف قساوة الجلادين اللامحدودة ضده، ضد رجل مثلهم. عبّر دحمان عن اندهاشه الكلي، اندهاش فكري، ولكنه بالأخص اندهاش جسدي. ذلك أنه كان يحكي ويبكي ويكرّر كلامه : « لا أفهم كيف يمكن لهم أن يعاملوا إنسانا بهذه القساوة الوحشية. لا يمكن للكفار أنفسهم أن يعاملوا بشرا مثلما عاملني هؤلاء الجلادون. المظليون ليسوا بشرا، إنهم وحوش، بهائم ». قلت له بهدوء والدموع تنهمر من عيني أن التعذيب من ابتكار الكائن البشري، وأن ماسو ومظلييه قد حوّلوه إلى نظام للإنتاج الصناعي بهدف تدميرنا أفرادا وجماعات، بهدف استعبادنا. وأضفت أن ماسو فشل معه هو، دحمان، لأنه قاوم ببسالة وصبر الأنبياء والشهداء. إنه بطل حقيقي. ولكن دحمان يتألم جسديا ومعنويا وهو بحاجة إلى أن يتكلم. وكان يحكي بصوته المبحوح، وهو يشهق ويضمّد عينيه بمنشفة كي يمنع انهمار دموعه على وجهه المحروق. ساعدته حسية على شرب الماء، وهدّأته بدورها قائلة له كم كنا جميعا فخورين به. ولكنه لم يكن يستمع إلينا، لأنه استأنف حكايته في النقطة التي توقف عندها :

« كنت مختفيا داخل السلّة التي زادت سننها من آلامي، مغطى بأكياس الخيش. ومُجرّد أن أحسست أن المظليين قد ابتعدوا، خرجت من مخبئي واستأنفت ركضي المجنون. فوجدت نفسي في زقاق، أمام باب مغلق، وبدأت أخبط بكل قواي وأنا أتوسّل أن يأتوا إلى إنقاذي من الهلاك. فجأة، انفتح الباب، فرأيت رجلا ورميت بجسدي بين حضنه وتشبّثت به بكامل قواي التي مازلت أحتفظ بها، وهو يحاول إبعادي، غير عارف ما يحدث له. ولكنني زدت تشبّثا به، متوسلا إياه، شارحا له بأنّ فرقة كاملة من المظليين يبحثون عني. كنت عاري الجسد، مرعوبا من الخوف والألم. حينئذ سمعت

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

صوت امرأة يَحُثُّ الرجل على إدخاله إلى غرفة بقرب الحَوْش، وهناك، أعطوني كأس ماء وفندورة وجاءتني المرأة بعلبة من مرهم « البَرْهَم » ودَهَن الرجل كامل جسدي المحروق . فنمت ، والبندقية الرشاش بين ذراعيّ ، وتمّ إيقاظي عند أولى أنوار الصباح . غَطَّاني مُضَيِّفِي بُرْنُس أبيض ، وعمّموا رأسي بشاش من نفس اللون وتمنوا لي حظًا سعيدًا . لا أعرفهم كما أنني لا أعرف كيف أشكرهم . لقد أنقذوا حياتي . أطلب من الله أن يحفظهم من كل سوء ، وخاصة من الوقوع في مخالب ماسو والمظليين الأوباش . عند خروجي ، أدركت أنني كنت على خطوات من مخبأ رامل وحورية زوجته ، في 7 شارع باب جديد ، فاتجهت نحوه . وعندما وصلت إلى الباب ، وجدته مغلقا . أنصت قليلا ، ثم بدأت أخبط على الباب بلا توقف . وخوفا من ظهور دورية ، بدأت أخبط بأخمص البندقية وأصيح : « شرطة ! افتحوا ! » . فتحت حورية الباب . رميت بجسدي بين ذراعيها وتشبثت بها ، ولكنّها دفعتني بقوة وهي تصرخ دون أن تستمع إليّ : « شكّون أنت ؟ ما تحشمش ؟ » . ولم تعرّف عليّ إلا عندما نزعت قلنسوة البُرْنُس والشاش الذي غطيت به رأسي . ومع ذلك ، استحلفتني متصورة أنني أقوم بتمثيلية مريبة معها . ولكنّها اكتشفت حروقي بسرعة وكل الخراب الذي خلفه عبث المظليين بجسدي . فهمت أيضا لماذا كنت أتشبّث بجسدها وأبكي . أغلقت الباب ، أسندتني بذراعيها وقادتني إلى غرفة جانبية .

وكان رامل موجودا بالبيت ، ولكنه اختفى بالمخبأ بسرعة فيما راحت زوجته تمحي كل أثر لوجوده في الغرفة لأنه كان محل بحث من طرف قوات الأمن الفرنسية ، لأنهما اعتقدا صدقا أنّ الخبط على الباب من فعل المظليين الذين ينزلون عليهما في مdahمة مفاجئة . ساعدتني حورية على التمدد فوق سرير ، وذهبت تحضّر زوجها . وصل رامل بخفة وبدأ يهدئ من روعي ويواسيني .

فرويت له باختصار ما حدث لي، وأكّدت له أنّ لا أحد اقتفى أثري، وطلبت منه أن يخبر ياسف وعليّ لابوانت. كنت أتألم كثيرا، وكان جسدي يلتهب كشعلة نار، فتوسّلت له بأن يفعل شيئا للتخفيف من آلامي. هدّأني بكلمات لطيفة وهنّأني وشكرني لأنني أنقذت « المنظمة » بأكملها بفضل تضحياتي وشجاعتي الباسلة، مؤكّدا أنّ لا أحد منهم، لا ياسف، ولا عليّ، ولا هو، شكّوا لحظة في اعتقالي ليلة أمس. وكرّر رامل بأن ما حدث يعدّ معجزة ربّانية فعلا. حدثت المعجزة بفضل شجاعتي وإيماني بـ « الجبهة ». تركني أستريح، وذهب يخبر « الخو » ليجد لي مخبأ آخر يوفر لي علاجاً أفضل. هكذا، وقعت هنا، بعد ساعات قليلة أخرى .

استمعنا إليه، حسيبة وأنا، ونحن نذرف الدموع دون أية محاولة لردّها. وبعد ذلك، دهنت حسيبة مرة ثانية جسد دحمان بمرهم « البرهم »، كما حطّت الضمادات المبللة بماء الزهر على جفونه وشفتيه. وأكّدا له مرة أخرى أننا فخورين جميعا بشجاعته وإيمانه القوي بالثورة. أعلنت له إعجابي المطلق بقولي : « أتعرف يا دحمان أنّ الرجال أمثالك عملة نادرة. ونحن أسعد أختين في العالم لأنّ لنا أخا مثلك ! ». لا أعرف إن كان مرهم « البرهم » هو الذي فعل فعله، أم كلماتنا الصادقة اللطيفة هي التي حققت المعجزة، النتيجة أنّ دحمان ابتسم لنا وغرق في نوم مريح. وقد تمكّن مرهمنا التقليدي من التغلّب على آلام دحمان. ولكن أخانا لم يصل بعد إلى نهاية مآسيه، لأنّ المظليين يبحثون دائما عن الرجل، صاحب الأسنان الذهبية. فكان لزاما علينا أن نقلع له جميع الأسنان المغلفة بالذهب، وتحضير أوراق هوية مزيفة وإرساله إلى الجبال عند المجاهدين. وبما أنه لم يكن لدينا ولا لدى مساندينا طبيب أسنان، فتطلب منا قلعها بالطريقة التقليدية، ما سبّب له آلاما أخرى تحملها بصبر خارق للعادة، فمات شهيدا. لن أنسى أبدا أخي دحمان، ولطفه

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

وصدقه وسخاءه وشجاعته الباسلة. في كل مرّة أكون في أوروبا وأزور متحفاً وأجد نفسي مقابل لوحة للمسيح المصلوب، تعود إليّ صورة أخي دحمان وهو ممّدد، عاري الجسد، محروق من الرأس إلى القدمين، الذراعان مفتوحان كالمصلوب تماماً، وهو يرتعد من الألم. وحتماً، تعتريني الدموع من جديد ومعها ذكريات تلك الأيام العصبية.

• شجاعة عليّ لابهانت الخارقة وتضامن النساء الفعّال

لم يمر شهر رمضان من سنة 1957 في هدوء وسكينة. كانت القصبة محاصرةً والمظليون يندسون أزقتها ويغتصبون حرمة ديارها، ولا يتردّدون عن استخدام أدنى وسيلة للقبض علينا، خاصة بتلك المداهمات اليومية الفظة، وتفتيش الغرف والسطوح والاعتقالات والتعذيب الحتمي. وقد تمكّنا مرات عديدة من الهرب من حصارهم عبر السطوح، وأحياناً بعد اشتباك عنيف وتبادل إطلاق النار. وذلك بفضل حماية ومساعدة ناس القصبة. بعد عودتنا، حسية وأنا، إلى دار « السّجور »، بعد زيارتنا لدحمان، وجدنا الخو وعليّ يجمعان أغراضنا وينظفان غرفتنا لحو كل أثر لإقامتنا بها. فجأة، دخل طفل صغير يجري ليخبرنا بأنّ فرقة من المظليين تتقدّم باتجاه حيّنا. كانت دار « السّجور » من طابق واحد، وتنفتح جميع الغرف على الحوّش. لم تمر دقائق معدودة، حتى اهتزّت الدار تحت ضربات قوية بأخامص البنادق على باب الدخول. لقد حوصرنا كالجرذان. كنا جميعاً مجتمعين داخل غرفة، بأحد جدرانها كوة لا يتجاوز ضلعها 60 سم، وتقع تحت السقف مباشرة، ولكنها تنفتح على السطح المجاور. أمرنا عليّ بإبعاد الفراش، ودفع الطاولة التي تُستَخدم كمكتب ضد الجدار ووضع الكرسي فوقها : كان لزاماً علينا أن نهرب عبر تلك الكوة الصغيرة لأنّ جميع المنافذ يراقبها المظليون. قفز

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

عليّ فوق الطاولة، وهو يواصل مراقبة المظليين الذين استولوا على الحَوْش، ساعد ياسف ليركب على أكتافه ويتسلق إلى غاية الكوة العليا، يتشبث بها، يجتازها ليجد نفسه في السطح المجاور. في تلك اللحظة، كنت خلف الستار الذي يحمي مدخل الغرفة أترقب حركة المظليين. كانوا جميعهم مُجتمعين في الحَوْش، ينتظرون إشارة ما. انحنى عليّ، وهو دائما فوق الطاولة، وأمر حسيبة بأن تتسلق هي أيضا على كتفيه. وقف، ومن الأعلى انحنى ياسف نحو أسفل الغرفة، أمسك بحسيبة، رفعها، وأخرجها عبر الكوة نحو السطح. كنت أراقب دوما المظليين، فحدّرت عليّ بتقدّمهم نحو غرفتنا. قفز من على الطاولة، أخذ رشاشه بهدوء وجاء خلف الستار المنسدل، ثم أمرني بالصعود فوق الطاولة، ثم فوق الكرسي والاستعداد للمرور إلى السطح عبر الكوة. كان يراقب المظليين الذين لا يزالون في الرواق ويتقدّمون جماعيا نحو غرفتنا. لم يتحرّك عليّ. نظرت إليه. كان واقفا وجامدا. صوّب رشاشه باتجاه الرواق، مستعدا لإطلاق النار. كان وجهه هادئا، ويتنفس كامل جسده السكينة والثقة بالنفس. أما ياسف، الذي لم يكن يرى المشهد، فما فتى يحثني على التشبث بذراعيه الممدودتين. ولكنني لم أتحرك. لم أتمكن من نزع عيوني من عليّ. كنت أنتظر مثله، في جمود تام. فجأة، أزاح الستار بفوهة بندقيته، تقدّم خطوة، وملاً مدخل الغرفة بكامل جسده الرياضي، وبدون حراك، أطلق الرصاص على من كانوا يواجهونه.

أطلقوا صيحات رعب، وسمعت : « أُمّاه ! أُمّاه ! ». ولكن لا أحد منهم ردّ على هجوم عليّ، ولم تُطلق رصاصة واحدة. تقدّم عليّ بهدوء، مستقيم الظهر، ورشاشه يمطر وابلا من الرصاص، لم أكن أسمع من جواب المظليين إلا الصراخ وصيحات الهلع. عاد عليّ وقفز فوق الطاولة، أمسكني ككيس ملابس. ولا أعرف كيف وجدت نفسي خارج الغرفة، فوق السطح المجاور،

مُذْكَراتُ مُجَاهِدَةٍ من جيش التَّحْرِيرِ الوَطَنِيِّ منطقة الجزائر المستقلَّة

في الوقت الذي كان رأس عليّ والجزء الأعلى من جسده الرياضي يخرج من الكوة. استقبلنا ياسف وهو يصيح : « ردّوا بالكم ! لا تقفوا ! يوجد مظلّيون في السطوح ! » .

علينا أن نغادر ذلك السطح في أسرع وقت . أطلق عليّ رصاصات عديدة من الكوة التي خرجنا منها باتجاه الغرفة التي حاول المظلّيون اقتحامها، كما باشر مظلّيون آخرون بمهاجمتنا انطلاقاً من السطوح المجاورة. فوجب علينا التصرف وبسرعة فائقة. كنا، حسيبة وأنا، مثقلتين بمحفظتين ضخمتين مليئتين بالوثائق. وفي اللحظة التي جرّينا فيها فوق السطح، انطلق وابل من الرصاص. بأمر من عليّ، انبطحنا أرضاً. وبعد ذلك نهض عليّ وبدأ يطلق النار باتجاه السطوح المجاورة، وهو يصرخ لنا كي نقفز. اختفى ياسف مع حسيبة التي احترق الرصاص سروالها، ومن حسن حظها أنّه لم يُصبها. قفزنا، عليّ وأنا، فوجدنا أنفسنا وسط حشد من النساء. كان عددهنّ كبيراً ويملأن جميع السطوح، يطلقن الزغاريد ويرشدوننا بصيحاتهن : « من هنا ! حذار، إنَّهم أمامكم ! ». أو : « إنَّهم على اليسار، اذهبوا إلى اليمين ! ». قمن بحمايتنا بتشكيل جدار بأجسادهن. المظلّيون يبحثون عنّا، ولكنهم لا يرون إلا النساء، نساءً تجمهرن فوق السطوح، يزغردن، يتصايحن، يتحرّكن. آه على تلك الزغاريد ! زغاريدٌ تُعيد إلينا الروح، تنفث في كياننا طاقة خارقة، وتُربع المظلّيين وتربك حركاتهم، بالأخص أولئك الشبان الذين جُنّدوا في إطار الخدمة العسكرية الإجبارية. فبعد أن قطعُ عدة سطوح، وجدتُ نفسي وحيدة مع عليّ، فدفعني نحو باب ينفتح على سلالم تنزل نحو الطوابق السفلى والحوش الأرضي. توقفنا لحظات لاسترجاع أنفاسنا. كانت أجسادنا تتصبّب عرقاً. مدّت إلينا أيادي مجهولة أقداح ماء، يحضّنا أصحابها على الشرب رغم أننا في شهر الصوم المقدّس. تلحّ الأصوات : « أنتم مجاهدون، يجوز لكم الأكل

والشرب . الله غفور رحيم » . البعض يمسح العرق المتدفق على جبهة عليّ .
والبعض الآخر ينزل ويصعد ، ويخبرنا بأماكن تواجد المظليين . كنا في حيّ
آخر ، غير حيّ « دار السجور » . قرّر عليّ بأن علينا الخروج والالتحاق بمخبئنا .
صاحت امرأة : « ولكنهم يسدّون كامل الزقاق » . قالت لنا أخرى : « أغلقنا
الباب كي نمنعهم من الصعود إلى السطح » . شكرهنّ عليّ ، ونظر إليّ وقال :
« هيا ، اختو ، نتكلو على ربّي ! » . لم أكن خائفة ، كنت أحسّ بأننا لا نُقهر .
تبع عليّ بهدوء ، بعد أن شكرت النساء اللاتي كنّ يلفظن وراءنا : « ربّي
يستركم ! ربّي معاكم ! » . طلب عليّ من امرأة مُسنّة أن تتبعنا لتغلق الباب
المؤدي إلى الشارع بعد أن نخرج .

عندما وصلنا إلى الحوش ، مقابل باب الخروج ، انحنى عليّ ، شمّر عن
سرواله وطواه بعناية ، انتصب واقفا بشموخ ، وطّد رشاشه إلى جنبه الأيمن ،
نظر إليّ ، ابتسم وقال : « هيا بنا اختو ! » . جذبتُ القفل وفتحتُ الباب
على اتساعه . أخرج عليّ رشاشه وبدأ يطلق النار . تواصلت إليّ صيحات
العساكر الشبان : « أمّاه ! أمّاه ! » . انحنى العساكر وهم يشدّون رؤوسهم
بأيديهم ، بحيث شكّلوا صفّا شرفيا غريبا . نزلنا عبر الزقاق ، بلا جري ، يشهر
عليّ رشاشه ، مستعدا لإمطارهم بوابل من الرصاص ، وأنا ، أضّمّ محفظتي
السميكة إلى صدري ، أشدّها جيّدا بذراعيّ . وكان عليّ يطلب من المارة
الذين صادفناهم في طريقنا بأن يديروا وجوههم إلى الحائط تفاديا للتعرف
علينا ، فكانوا يستجيبون للأمر بخفة . وعندما وصلت إلى درب لافوازيي ،
انتبهت إلى هندامي : قطعت نصف أزقة القصبة وأنا أرتدي السروال النسوي
وصدارية « الكازاكا » و . . . بلا حايك . لقد بقي حايكي في مخبئنا السابق
بدار السجور . إنّ الصحافة الكولونيالية لم تذكر في صفحاتها هذه الأحداث
التي وقعت قبل تلك الظهيرة التي قضيناها تائهين ، نبحث عن مخبئ ، ووصلنا
إلى دار عمر الملعونة .

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

• مخبأ جديان، 3 و4 شارع « كاطون »

بعد أن رفع المظليون حصارهم على الحيّ الذي تقع فيه تلك الدار الملعونة التي قضينا بها ليلة واحدة فقط بسبب اعتراض النساء المرعوبات السافر ضد إيوائنا، انتقلنا للاختباء في القصبة السفلى. كان النهار قد بدأ ينشر نوره الشفاف، وكنا، كعادتنا، نتقدّم في رتل متتابع، يفتح عمر الصغير السير. اضطر الخو وعليّ إلى ارتداء الحايك، لأننا قطعنا جزءاً كبيراً من القصبة. بقي على نهاية رمضان بضعة أيام فقط. وبرغم المآسي التي كانت تنزل تباعاً على العائلات القصبجية، فإنّ التحضير للاحتفال بعيد الفطر كان على قدم وساق. إنها مناسبة دينية مقدّسة، لا تفرط فيها أية عائلة. بالشوارع والأزقة نشاط وحيوية لا مثيل لهما. كان الرجال والنساء يعودون إلى ديارهم مثقلين بالمشتريات اللازمة للاحتفال، ويتزوّجون لتفادي الاصطدام مع الأطفال الحاملين على رؤوسهم صينيّات الحلوى إلى « الكوشة » (الفرن) العمومية لطهيها. يتقدّم الخو وعليّ وهما يمسحان بعيونهما كل زاوية، يتجاهلان الرجال الذين يديرون أبصارهم عن شبيحهما الغريين. أما الأطفال، فكانوا يتسلون بالمشهد جهراً، ولكن لا أحد يطيل النظر عليهما، ولو خلسة. أخيراً، توقّف عمر الصغير أمام آخر دار في زقاق ينفتح على منبسط، يقابل معبد « جامع ليهود »، قرب السوق الأكثر شعبية والأكثر ازدحاماً في القصبة. إنها أصغر من دار بلحفاف، ولكنها جميلة وأنيقة. وفي نهاية الظهيرة من آخر أيام شهر أفريل، كانت تلك الخزفيات بألوانها المتعدّدة، ورخامها الأبيض وقطعها الأردوازية تتألّأ تحت أشعة الشمس التي تلفّها بحنان دافئ. تقع الدار في 4 شارع كاطون. وكنت أجهل في ذلك اليوم أنّ مساري، ورحلاتي داخل القصبة، سينتهي هنا في هذا الحيّ الأكثر نشاطاً في مدينتنا العتيقة. كنت أجهل أنّني في صبيحة يوم 25 سبتمبر 1957، أجد نفسي أنظر إلى تلك الدار

وأنا أجلس في سيارة « الجيب » الفرنسية، ويدي مقيّدتان، تحت حراسة قطيع مسعور من المظليين المدجّجين بالأسلحة، وأنا أهمس لياسف بالعربية : « عليّ وحسيبة طلّعوا للجبل » .

اعتُقلت برفقة ياسف في الدار المقابلة، الواقعة في 3 شارع كاطون، وقد تركناهما في الدار الأخرى من نفس الشارع، في رقم 4، حيث اقتسمنا كل شيء، الصدمات والمآسي، خلال خمسة أشهر. في سيارة « الجيب »، جلست إلى جانب الخو، تحيطنا مجموعة من المظليين الشرسين، وكنت أعرف أنّ حسيبة وعليّ سيلتحقان مباشرة بعد احتلال الجيش الفرنسي للقصبية بالمخيل الحصين، العصيّ الاكتشاف، وأنهما يجهلان خبر اعتقالنا. كانا يجهلان أنّ فاندريش، المدعو صافي، مسؤول ياسف السياسي، هو الذي باعنا جميعا. بصمت، كنت أدعو لهما حظا أسعد من حظنا. فلنعد إلى آخر أيام رمضان 1957 : وصلنا جميعا، عمر الصغير والخو وحسيبة وعليّ وأنا، إلى 4 شارع كاطون. استقبلنا رجلٌ في الثلاثين من العمر، بدا أنّه يعرف الخو. تبعناه إلى الطابق الأول، وهناك، فتح بابا، ثمّ وجّه كلامه إلينا، حسيبة وأنا، وقال ببساطة : « هذه غرفتكما ». ثمّ وجّه ياسف وعليّ نحو غرفة أخرى. لم نتمكن، حسيبة وأنا، من كتمان صيحة إعجاب. كنّا في حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة. فبعد الأماكن الضيقة، التي تعجّ بكل أنواع العناكب والحشرات اللاسعة التي تزحف حول أعناقنا وتتحرك تحت أقدامنا، ها نحن نُنقل إلى غرفة كلها ألوان وردية وبنفسجية، حيث يحلق عطر الياسمين، ويتوسّط الغرفة سرير عظيم، بغطاء مكويّ بأناقة لا نظير لها. قالت حسيبة وهي تضحك ملء شديقتها : « غرفة جميلة الغابة النائمة ». التحقت بنا امرأة شابة، رحبت بنا أيّما ترحيب، واقتُرحت علينا أخذ حمّام. فتحت الخزانة وأخرجت كل لوازم الحمّام، وبذلتين نسائيتين، بالسروال وصدرية « الكازاكا ». شكرناها وطلبنا اسمها بعد أن قدّمنا أنفسنا. اسمها خوخة،

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

وعمرها لا يتعدى 18 سنة، لها وجه جميل، وعينان سوداوان تحوطهما أجفان طويلة، أنف وفم صغيران، وشفتان رقيقتان. كانت تتنفس اللطف والسخاء. بعد الحَمّام، انزلقنا متعبتين تحت الإزار المعطر ونمنا مباشرة نوم العادلين. وعند إعلان الإفطار، بدا جميع أهل الدار يبحثون عنّا.

جاءت خوخة تدعونا إلى فطور رمضان، وأعلنت خبر اختفائنا : لقد فقدنا كثيرا من وزننا، بحيث أصبحنا لا نشكّل كتلة ظاهرة بين الوسائد والأغطية الوثيرة فوق رؤوسنا، فلم تنتبه إلى حضورنا. كانت مساحة غطاء السرير مسطّحة، كما لو أنّ لا جسد تحتها. استنجدت خوخة بأُم زوجها التي اكتشفت جسدنا النحيلين في عمق السرير الوثير. ابتداءً من صباح الغد، عكف عليّ لابوانت، بمساعدة محمود، قريب ربّ العائلة، وكان عمره 19 سنة، وباشر تهئية مخبأٍ يستحيل على المظليين اكتشافه في حالة مدامتهم للمنزل. أصبح محمود بعد فترة عون اتصال ياسف. لقد جند عليّ كل معارفه كبَناء سابق، وكل تجربته النضالية كي يصمّم ويبنّي مخبأً عصيّ الاكتشاف. بالفعل، كان المخبأ ينفتح على الحَوْش عبر كوة نزلق عبرها للدخول والخروج.

قبل أن ندخل إليه، ينبغي دراسة أي جزء من الجسد يجب إدخاله أولاً. إنّ الذي وجد صعوبة للدخول هو عليّ بحكم قامته وقوته العضلية. بالداخل، يجب أن نبقى جالسين، السيقان مضمومة وملتصقة بالبطن. ونظرا لتشكيل المخبأ الصعب، وصعوبة الدخول إليه، وكي لا نعرّض مضيّفينا إلى القلق، قرّرنا أن نلتحق بالمخبأ بمجرد نهاية العشاء، باستثناء ذلك المكلف بالحراسة في السطح.

كان عليّ وحسيبة يختفيان في هذا المخبأ بـ4 شارع كاطون عندما تمّ اعتقالنا، ياسف وأنا، في 25 سبتمبر 1957. نحن كنّا في منزل أخيتي، في

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

الجهة المقابلة، 3 من الشارع نفسه. لا يزال المخبأ موجودا إلى يومنا هذا. إنَّه المخبأ النادر، وربما الوحيد، الذي لم « يكتشفه » المظليون. السبب : لم يتحدّث عنه أيُّ من الذين يعرفونه. « اكتشف » المظليون المخبأ التي اقتُلِعَت عناوينها من المعذِّبين. ومن المهم جدا أن نذكّر بهذا.

كنا، إذا، نعيش أواخر أيام شهر أفريل 1957، مختبئين في منزل سي مصطفى، الواقع بـ 4 شارع كاطون. وكان مضيِّفنا، سي مصطفى، يستغل تجارة دواجن وملحقاتها، ويحتل متجره جانبا من الدار، تحت نافذة على شكل مَشْرِيبِيَّة يجلس خلفها يأسف كل ظهيرة، يحتسي قهوته الدائمة، ويدخّن سيجارة وراء أخرى، ويراقب ذهاب ومجيء المارة الذين يتزاحمون أمام سوق الخضّر والفواكه. وقد التزم « الخو » بهذه الحراسة خلال كامل مدّة إقامتنا في 4 شارع كاطون. وكان حَمَام عمومي يُجاور الزاوية اليمنى لمنزل سي مصطفى، وعند الظهيرة، تتوافد عليه النساء، رفقة ذريّتهن الكثيرة، وفي المساء يتحوّل الحَمَام إلى مرقد للمسافرين الذين لا يملكون وسائل قضاء ليلهم في الفندق، وكذا للذين لا مأوى لهم أصلا. فبعد قرابة الثلاثة أشهر من حياة مضطربة، تطاردنا خلالها قوات ماسو من مخبأٍ إلى آخر، وبعد الضربات العصيبة التي تلقتها منظّمتنا، بعد قتل واعتقال مسؤولينا ومناضلينا، ها قد عثرنا أخيرا على شبه استقرار وأمن نسبيين بداخل هذه الدار. فباشر « الخو » بإعادة تنظيم عملنا وإعادة إحياء شبكتنا. وكان علينا أن نردّ على الحملة الدعائية التي يخوضها العدوّ ضدّنا، والقيام بإحصاء جميع طرق التعذيب التي يستخدمها الجيش الفرنسي باستمرار ودون هوادة. تعبنا ولكننا لا نستسلم ولن نخفي. يجب إعادة انطلاق عمل التجنيد وإعادة البناء وسط سكان محاصرين، يخضّعون يوميا لممارسات الترعب والترهيب، تقوم بها جميع قوات الأمن الفرنسية.

مُذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

فإذا كان لي أن أعترف بأن الجميع « لم يكونوا أبطالاً » - ذلك أنّ رعب ماسو ووحشية مظليّيه اليوميّين يقتل الأخوة الإنسانية الكامنة في أعماق البعض، ويشلّ إرادتهم ليحوّلهم إلى خرق بشرية، وفي أسوأ الحالات متعاونين أذلاء - فيجب عليّ أنّ أشهد، وإلى آخر نفس من حياتي، أنّ المقاومة، حتى وإن كانت سلبية، كانت رائعة، والتضامن معنا كان بطوليا، والأخوة في الشقاء كانت ملتهبة. لقد فشل ماسو وجلاّدوه و « معركته » في قتل إنسانيتهم وشلّ إرادتهم في التوق إلى الحرية.

• النساء والحبّ

هكذا كانت حالة أغلبية نساء القصة. بقينا على قيد الحياة في النصف الثاني من شهر أفريل بفضل هؤلاء النساء اللائي احتلن السطوح في حشود حاشدة بإطلاق زغاريدهن لإرباك المظليين وإرشادنا على كيفية الفرار وتفادي الوقوع في قبضتهم. في ذلك اليوم، كنا داخل مخبأ حينما احتلّ المظليون كامل الحيّ. فانقسمت مجموعتنا إلى قسمين للهروب عبر السطوح : اتّجه عليّ وسي مراد وحسيبة نحو جهة، فيما سلكنا يأسف وأنا توجّها مغيرا. في لحظة ما من هروبنا، اتّضح لنا أنّه من المستحيل مواصلة تقدّمنا لأنّ العساكر الفرنسيين احتلوا جميع السطوح المجاورة. قفزنا باتجاه سطح قريب منا به نساء كثيرات طلبن منا أن ننحني تفاديا للرصاص المُصفّر حولنا، وأرشدننا باتجاه باب يؤدّي إلى داخل المنزل.

عندما عبّنا الباب، استقبلتنا امرأة عجوز. فشرحت لنا بسرعة أنّ حظنا الوحيد للتملّص من المظليين يتمثّل في الاختفاء داخل الحبّ، وقادتنا نحوه وهي تحثّنا على الإسراع. وجدنا امرأتين عند فوهة البئر تمسكان سلّما طويلا ينزل إلى العمق، وتجتهدان للحفاظ على توازنه، وساعدتاني على النزول. عند

وصولي إلى آخر درجة السلم، بحثت بقدمي إن كان عمق البئر لا يزال بعيدا. وصل ياسف خلفي، وكان عليّ أن أحرّر السلم. فتركت نفسي أسقط في القاع. مسّت قدّماي أرضية صلبة، ولكنّي غرقت في الماء إلى حدّ الكتفين.

حذّرتُ « الخو » من القفز برشاشه والذخيرة والمسدس تجنبنا من وقوعها داخل الماء، فأعطاني إياها. وبعد ذلك، سحبت المرأتان السلم وأرجعتا صفيحة الجبّ الرخامية التي انغلقت فوقنا، تاركة إيانا في ظلمة مطلقة. بقينا داخل الماء، وأذرعنا مرفوعة إلى الأعلى، تشدّ السلاح والذخيرة، خلال فترة بدت لي دهرا بأكمله. تبادلنا الدور في رفع الرشاش خارج الماء، وكان عليّ من أحسّ بالتعب أن يهمس للثاني كي يستخلفه. كنتُ أترك ذراعي المتشنجة تسقط مباشرة داخل الماء البارد وأبدأ بتحريك ساقيّ في عملية ركض في المكان لتفادي التبريد المجمّد. فبدا لي الانتظار طويلا وطويلا جدا، وكنت أقاوم بكل ما أملك من طاقة كي لا أنهار داخل الماء. أخيرا، تمّ سحب الصفيحة الرخامية، وأنزلت المرأتان السلم لتحريرنا. عندما خرجت من الجبّ، ووطأت قدماي أرضية الحَوْش، بمساعدة المرأتين، أدركتُ أنني كنت على وشك الانهيار الحقيقي. في ذلك اليوم، أنقذت حياتي امرأتان مجهولتان، رائعتان بتضامنهما الأخوي الشجاع، دون أن تطلبنا شكورا ولا أجرا مقابل فعلهما البطولي الخارق.

وفي خضمّ هذه الظروف الرهيبة، وجوّ المطاردة الدائمة، اشتغلنا، بالتعاون مع سي مراد ومسؤولي القطاع الآخرين، على نزع هيبة الجيش الفرنسي من عيون شعبنا وعيون الرأي العام الفرنسي والعالمي. لقد عمل رامّل، الذي رأيتّه آخر مرّة في درب لافوازيي قبل مغادرته، على إعادة تشكيل شبكة الفدائيين الذين باشروا هجوماتهم على المظليين مباشرة بعد انتهاء شهر رمضان. ومن جهة أخرى، كلّف ياسف الأخوين سي مراد ورامّل بإعادة تشكيل مَخبر

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

لصناعة القنابل . وكان المشكل الذي يورِّق قائدنا يتمثّل في إعادة تشكيل شبكة من المنازل تحوي على مخابئ آمنة . ولحسن الصُّدف، وُضِع للبيع منزلٌ مقابل 4 شارع كاطون، وبالضبط في رقم 3 من نفس الشارع .

وكانت أختيتي التي أبقينا اتصالنا معها ترغب في مغادرة منزل والدها، ولا تريد العودة إلى منزل عائلة بو حيرد، 5 درب غرناطة . عاشت في ذلك المنزل مآسي لا تُنسى – تعذيب زوجها وسلفها وابني أخيها، ثم قتل زوجها مقابل الدار في شهر مارس – كما أنّ دوريات المظليين لم تتوقف عن مدهامة المكان، بعذر زيارة « دار مخبر القنابل » . وكانت ترغب بالأخص في إبعاد أولادها المصدومين عن الرعب الذي ينتابهم بمجرد مدهامة المظليين للمكان الذي يتواجدون به . وأخيرا، وهذا من حقها، كانت أختيتي تطمح إلى السكن بمكان آمن لتعيش فيه حداد زوجها، عمّي مصطفى، في سكينه .

فزارت أختيتي المنزل الواقع برقم 3 شارع كاطون، وأعجبها . كنا جميعا مسرورين يوم استقرت به، لأنّ « دَويرة » أختيتي كانت تقابل نافذة إحدى غرف الطابق الأول لإقامتنا الجديدة . ثم إنّ عليّ سيبني، بموافقتها طبعاً، مخبأً آخر في بيتها، وبمساعدتنا جميعاً . لا ينبغي لأي شخص أجنبي عن دار 3 شارع كاطون، وعن مجموعتنا الضيّقة، أن يعرف وجوده . وقد تقرّر أن يحوي « مخبأ النجدة » الجديد هذا الوثائق الوجوب الاحتفاظ بها، وأي مادة أخرى ذات أهمية قصوى . وقد بنينا مخبأنا الجديد بسرعة، كان واسعا ولكنه بدون إضاءة وبدخول صعب . للولوج إليه، كان علينا استخدام سلّم طويل، نضعه بين جدار المخبأ وإحدى أدراج السلالم، ولا يمكن الخروج من الداخل إلا إذا قام شخص خارجي برمي السلّم إلى الأسفل الداخلي للمخبأ . وبداخل هذا المخبأ الصعب الخروج منه، ستحاصرنا، يأسف وأنا، قوات المظليين بمساعدة الخائن فاندريش، ويتمّ اعتقالنا في 25 سبتمبر 1957 .

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

وفي انتظار ذلك اليوم الملعون، كنا نملك مخبأين، الواحد مقابل الثاني، في رقمي 3 و4 من شارع كاطون. وحينما تتحتم علينا ضرورة إقامة اجتماع مع المناضلين والفدائيين، ينتقل الخو وعليّ، سواء في الصباح الباكر مباشرة بعد رفع حظر التجوّل، أو خلال الليل، أثناء الحظر. لم نكن نخشى دوريات المظليين التي نتمكن دوما من تجنب لقاءها، ولا تجوال « الزروقة »، المساكين التائهين الذين كسّرتهم عمليات التعذيب – التي لا تقلّ عن تلك التي مورست في عهد محاكم التفتيش المسيحية الإسبانية – والذين يظهرون من بعيد، بقدر ما كنا نخشى « البيّعين »، غير المرئيين، لأنهم مخفيون وسط « الناس العاديين » ولا نعرف دوما هويتهم.

ذات ليلة، كنّا عند أختي، في 3 شارع كاطون، في حوالي الساعة الثانية صباحا، عندما بدأت قوات المظليين تحتل الأزقة والسطوح والمنازل. لم نجد إلا الوقت الكافي للتسلل إلى المخبأ. أخفت أختي السلم، وذهبت لتفتح الباب الذي اهتزّ تحت ضربات أخامص بنادقهم. انتظرنا نهاية التفتيش، متأكّدين أنّ المخبأ لا يمكن اكتشافه. كانت الأصوات تصلنا بعيدة وصامتة. حينما خيم الصمت من جديد على المنزل، بدأنا الاستعداد للعودة إلى النور والهواء الطلق. بالفعل، كان المخبأ مظلما إلى حدّ أننا لا نفرز شيئا. يسود الصمت المطبق والظلمة الداكنة بداخل المخبأ، فيتضاعف إحساسنا بالاختناق. حصر عميق يعصر أحشائي، ويكاد يقبض روحي. بدأت أتلمس الفضاء بأصابعي، ونجحت في الإمساك بيد حسيبة التي شدّتي بقوة. بدا الزمان متوقفا. أبطأت أختي في تحريرنا. فجأة، وصلنا صوت متقطع وخافت نوعا ما، قبل أن يقوى وتتضح نبراته، كان يخاطبنا بوضوح، دون أن يعرف أين نوجد تدقيقا: « يا جماعة ! اخرجوا ! وين راكم ! فتيحة رّفدوها ليبارا (أي المظليون) ! ».

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

كان صوت ديدي العربي، والد أختي، ممرض مستشفى مايو. حرك عليّ الصفيحة الإسمنتية التي تغطي مدخل المخبأ كلية. كان ديدي العربي عند أسفل السلالم. وبعد أن أحطناه، حثنا على مغادرة المكان فوراً، بعد أن قدّم لنا تقريراً مختصراً حول ما حدث : لقد اعتقل المظليون أختي المسكينة بعد أن فتشوا البيت بدقة متناهية. حتماً، لقد أصبح جميع أفراد عائلة بوحيرد محل شك كبير، منذ تلك الليلة المشؤومة لـ 3/2 فيفري، ومحل اضطهاد فعلي من طرف المظليين : اعتقال واغتيال مصطفى بوحيرد مقابل المنزل العائلي، جرح جميلة البالغ واعتقالها، مدامات يومية مباغته إلى المنزل العائلي بحجة زيارة « دار مخبر القنابل »، بعد أن خرّبوها ونهبوها نهبا يليق بقطاع طرق. عندما اشترت أختي هذه « الدويرة »، كانت تأمل في قليل من الراحة والسكينة، لها ولأولادها، بعيداً عن غطرسة ووحشية جلاوزة ماسو وجلاذيه. ربّما وجدوا انتقالها من دار 5 درب غرناطة، إلى منزل آخر، مريباً ويحمل قصداً ثورياً، ففاجئوها بمداهمة فظة على الثانية ليلاً. كرّر ديدي العربي حثّه لنغادر المكان : « أكيد أنّهم سيعذبونها، ومثلما تعرفون، فإنّ المعذب بين يدي الله... كم من وقت ستقاوم ؟ لا أحد يعرف. اخرجوا بسرعة ! ». وكي نخفّف من هلعهم، قرّرنا مغادرة المكان، ولكن لالتحاق بالمنزل المقابل، في 4 شارع كاطون، الذي تعرفه أختي. على كل حال، لم يكن لدينا اختيار ثانٍ، وكنا مستعدّين للمواجهة العنيفة، وجعلهم يدفعون الثمن غالباً قبل القضاء علينا. قضينا بقية الليل نترقّب من أعلى السطح، نسترق السمع إلى أدنى صوت أو ضجيج، وتحديد مصدره. طلع النهار دون أن تظهر أختي ولا المظليون.

لم نكن نجهل المصير الذي ستعرض له أختي في قبضة وحوش ماسو، وبدأنا نتوقّع حظوظ نجاتها. انقبض قلبي واعتصرت أحشائي وجفّ حلقي

واختنق صَوْتِي . الغريب أنَّ لا أحد فكَّر في مغادرة المكان والبحث عن مخبأ آخر لا تعرفه أختي . شخصيا، كنت أحسَّ بالذنب لأنني لم أحاول إقناع الإخوة بعدم بناء مخبأ في دارها الجديدة . وكانت حسيبة، كعادتها في مثل هذه الظروف الشاقة، تنكمش على نفسها، تعقد ذراعيها حول ركبتيها المضمومتين إلى بطنها، كما لو أنها تبحث عن تجنيد كامل طاقتها لتحمي نفسها من القلق المدمر . لم يتوقَّف يأسف من عصر ظفره الذي على شكل منقار طير . أما عليَّ لابوانات فبقِي واقفا، في يقظة قصوى . كنت مقتنعة بأنَّ أختي ستقاوم بشاعة التعذيب، وأنا أتساءل عما يركز هذا الاعتقاد . لقد كانت أختي شاهدة على مآسي كثيرة : حضرت تعذيب زوجها وجميع رجال وأطفال دار بو حيرد، كما كانت شاهدة على قتل زوجها بالرصاص أمام عينيها ومقابل منزلها، ورأت ابنة أخيها تُجرَح جروحا بليغة قبل أن تُختطف ليلا وتُقاد عنوة إلى غياهب السجن . وبرغم جميع هذه المآسي فقد واصلت نضالها دون كلل أو تذمر من أجل استقلال الوطن . إنَّ امرأة من هذه الطينة لن تتكلَّم أبدا . أنا مقتنعة بذلك اقتناعا كليا .

وفي خضمَّ هذا القلق، تساءلتُ إنَّ كان ديدي العربي قد غادر منزل ابنته، وأخذ معه أحفاده الخمسة، الأيتام الأب، والمحرومين من أمهم الغائبة . تقدَّم النهار وغصَّ السوق القريب بحشد متنوع ؛ وكنا، حسيبة وأنا، نلاحظ بأنَّ الحياة تسترجع مجراها الطبيعي، ونحن جالستان خلف نافذة المشربية، مقابل نافذة « دويرة » أختي، تلك التي نتواصل منها مع أختنا في سائر الأيام . عند حوالي الحادية عشر، رأينا شبعا يتقدَّم خلف النافذة المقابلة لنا، فأعادنا صوت أختنا إلى الحياة . إنَّها هي فعلا . طلبت منا أن نلتحق بها فيما بعد، حينما ستشير إلينا بذلك، ولكن صبرنا نفذ . استعجلنا رؤيتها والطمأنينة على حالتها، فاتجهنا نحو « دويرتها » .

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

كانت جالسة على « الكناويه »، ويدها موضوعتان على ركبتهما، خافضة الرأس، منهكة داخل هموم قاصمة. رفعت رأسها لصوت انفتاح الباب. كانت في حالة يُرثى لها. تحيط عينيها دائرتان سوداوان وبنفسجيتان، ورماد متسخ يحجب وجهها وشعرها الذي يتمتع عادة بسواد فحمي لامع، يتدلى من رأسها كما لو كان مدهونا بصابون ولم يُغسل. صرخنا معا : « لقد عذّبك هؤلاء الكلاب ! » أحطنا بها بأذرعنا، وقبلناها، وداعبناها بحركات يائسة كي نخفف من آلامها، من ذكرى أوجاعها وإهانتها. استحضرتُ جملة عمي مصطفى، زوجها المغتال، بعد خروجه من ليلة تعذيب في عقر داره : « ابتداءً من عتبة معينة، يصبح التعذيب سهل الترويض. يعود الجسد المعذب كما لو أنه مشلول. في المقابل، ما يصعب تحمّله، هو الشعور بالإهانة والإذلال العميق أمام العري المفضوح للجسد الممدّد أمام عيون رجال آخرين، ساخرين، مستهزئين ».

لم تتكلّم أختي ولم تبك. بقيت في مكانها، يداها ممدودتان على ركبتيها، العينان خافضتان، كما لو أنها بحاجة إلى راحة، إلى وقت لها خصيصا، « باش تلم روحها »، وتعيد استرجاع ذاتها، لنفسها وللآخرين. أحطناها بعناية ومسكتها كل واحدة منّا من يد كي نسرب شيئا من الدفء الأخوي والتضامني إلى جسدها وكيانها المغتصين المعذبين. دخلت علينا ابنتها الصغيرة ليلي، ذات الثلاث سنوات، وهي تبكي وتطلب أمّها. جاءت والتصقّت بسروال أختي التي حطّت يدها على رأسها، مستعيدة دور الأم الحاضنة الشجاعة. هزّت أختي جسدها قليلا وقالت : « قولوا « للحو » أنّ القبطان شابان اقترح عليّ التعاون معهم. طلب منّي أن أقدم له المعلومات، وبالأخص حولكم، أنتنّ البنات. قولوا له أنني قبلتُ كي يُطلق سراحي ». بقينا لحظات أخرى معها، ثمّ ذهبنا لنُخبر ياسف. كلّفنا بالعودة إلى أختي

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

وطمأننتها وإخبارها بزيارته لها نهار الغد بعد حظر التجوّل، رفقة عليّ. أضاف : « أخبروها وعودوا في الحين. اتركوها تستريح مع أولادها وعائلتها. إنها بحاجة إلى إحاطة أفراد عائلتها لها وتدعيمهم لها »، ما أثار خيبتنا، لأننا كنا نريد البقاء معها لبعض الوقت. في الغد، فتحت لنا أختي باب « دويرتها » على الساعة الواحدة ليلا، ودخلنا مسرعين، ياسف، عليّ، حسيبة وأنا. كان أولادها الخمسة ينامون مع جدّتهم من أبيهم، يّمّا، وقد سبق لي أن تحدّثت عنها، وهي عجوز مريضة، بظهر منحني، ولا تتحرّك إلا بصعوبة ومستعينة بعكاز. كانت يّمّا، جدّة جميلة من أبيها، ترتدي سروالا نسائيا عريضا، مغصّنا، وتشدّه من الخصر بحبل صغير. بشرتها بيضاء شفافة وأنفها معقوف (وقد ورث ابنها، عمّي مصطفى، منها أنفه المعقوف هو أيضا)، وعيناها بلون البندق، رمادي أحمر، وترتدي بشموخ « محرّمة الفتول » التي تشدّ بها شعرها الأبيض.

على ما يبدو، كانت لا تزال تهيمن على عائلة بوخيرد بشخصيتها المهيبة القوة، وقد لاحظت ذلك خلال جنازة ابنها مصطفى، الذي قتله الجيش الفرنسي مقابل منزل العائلة في شهر مارس، قبل اعتقال جميلة.

أنجبت يّمّا، مثلما يدعوها الجميع، ثلاثة عشر طفلا، لم يعيش منهم إلا ولدان : ديدي عمر، أبو جميلة، وعمّي مصطفى، عمّها. فعاشت معنا جميع ممارسات المظليين الوحشية، بوقار دائم، وجلسة مربعة على فراشية فوق الأرض، ساكتة، وجامدة كجلمود صخر، تحرّك حبيبات سبحتها بلا توقف. كانت جميلة قريبة جدا من جدّتها، والتي ورثت من عندها طبعها العنيد، الحازم، والمستبد نوعا ما. حينما قُتل عمّي مصطفى بطلقات رصاص، على الساعة الثانية ليلا، مقابل المنزل العائلي في 5 درب غرناطة، بقيت دماؤه تلتطّخ وإلى الأبد جدران الزقاق وتلك المجاورة له. عند انتهاء ساعات حظر التجوّل،

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلَّة

سارعت زوجته، يرافقتها ديدى العربي، تضغط على السلطات الفرنسية كي تستلم الجثة لدفنها في جنازة دينية حسب التقاليد والأعراف.

ولكن الاستعمار الفرنسي رفض تسليم جثة زوجها لها، ومنع على المتوفى الغُسل حسب الشعائر الدينية، وإقامة حفل جنازتي وسهرة حداد له وقراءة القرآن على روحه الطاهرة. ولم تُسلم لها الجثة إلا في المقبرة كي يوارى التراب مباشرة. حدَّث ذلك في بداية شهر مارس. وقد التحقنا، جميلة وأنا، مُحَيَّكَيْن، بالعائلة والجيران والأقارب والأصدقاء في مقبرة القطار، مقابل خليج الجزائر، يحاصرنا قطيع من عساكر العدو، مدججين بالأسلحة الفتاكة. وكان جثمان عمي مصطفى مغطى بإزار بسيط وممدداً بقرب سكنه الأخير المستعد لاستقباله إلى الأبد. كشفت يَمَّا عن الجزء العلوي من جثمان ابنها. كان يرتدي السترة العسكرية لجيش التحرير الوطني، وقد خضع شعره لتسريحة حديثة العهد وكانت عيناه مفتوحتين. كانت تلك أول مرة أرى فيها وجه مَيِّت. إلهي كم كان يبدو شاباً يافعا بتسريحة الشعر تلك ! كانت النساء يبكين في صمت تحت حياكهن. وكانت الدموع المندرة تبلل الأعجرة إلى حد التصاقها بالوجوه الحزينة.

وكانت أختي تغنّ حزناً، وهي جالسة قرب رأس زوجها. تنحني فوقه، ثم ترفع رأسها في وتيرة منتظمة وهي تبكي وتشهق في لحن يمزق القلب. وكان رأس عمي مصطفى يتوسط أختي، زوجته، ويَمَّا، أمه، الجالسة هي أيضاً، مستقيمة، عيناها جافتان، وشفتاها ترتل آيات قرآنية بصمت، وأصابعها تحرك حَبِيبات سبحتها. كان حضورها، بهيأتها المهيبة المثقلة بالإيمان وكرامة النفس، تحدّياً صارخاً في وجه المظليين المغتصبين للحظات الحداد. هم غرباء عنه، كانوا ينظرون إليها بومضات خوف في العيون. بدت كما لو أنها تصرخ في وجوههم : « إنني الجزائر التي يستحيل عليكم إخضاعها ! قتلتم ابني،

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

ولكنكم ستبقون دوما الجيش الأجنبي المحتل لبلدنا. سأدفن العدد الكافي من أبنائي وأبناء شعبي حتى نخرجكم من هنا ! وستخرجون، بإذن الله تعالى وإرادة شعبنا، وكفاح أبنائه ! ». كانت تريد أن تقول لهم كل هذا بهدوء، ببساطة، بثقة وإيمان هادئين، مريكين. لم يتمكن شيء، لا أنين كئنتها، ولا الدموع الصامتة، ولكنها مداراة ومتواصلة، للنساء المحيطات بها، ولا التلصص المخزي، الوقح، للمظليين المجرمين داخل المقبرة، من زحزحة خشوعها وقوتها المعنوية، وحزمها ونبلها واعتزازها بنفسها وقومها وبلدها. الجو أيضا كان حليفا، ومتواطئا معها، كان النهار مشمسا وصافيا من أيام الربيع ؛ والبحر المقابل لنا، هو أيضا، بدا متخلّصا من اضطرابات الشتاء، وكان يرسل نسима لطيفا وخفيفا ومنعشا بحيث يدعم هو الآخر يما في هدوئها وسكينتها.

وإلى غاية اللحظة الأخيرة من إقامته على هذه الأرض التي أحبها إلى حد الجنون، سيأخذ عمي مصطفى داخل عينيه الكبيرتين المفتوحتين قسطا من جمال هذا البلد الذي يلفّه، ودفع الشمس وطراوة النسيم البحري اللذين يلامسان وجهه بلطف وحنان. في اللحظة التي باشر الرجال إلى إنزاله داخل قبره، مرّقت زغرودة مدوّية، طويلة، عميقة، رنانة، الجو الصافي والشفاف. إنها يما تودّع ابنها الصغير، الذي مات شهيدا كي تحيا الجزائر حرة مستقلة. قلّدتها النساء، جميع النساء، في حفل رهيب من الزغاريد القوية المتواصلة، اللاهبة، تقشعر منها أبدان الرجال، وتدخل خوفا على العساكر الأجانب، خوفا سيرافقهم مدى الحياة، يلفظهم وإلى الأبد خارج الحدود المحروسة لثقافتنا، تلك الحدود التي تحرسها النساء حراسة أمينة.

هل يجب التذكير بأنه وخلال 132 سنة من الاحتلال، كان الفرنسيون منغلقيين في غطرستهم وجهلهم ولم يفهموا أبدا معنى وهدف زغاريدنا. وكي نرعبهم، يكفي للنساء إطلاق بعض من هذه الزغاريد الطويلة، العميقة، الصادرة من الإيمان القوي والصدق المتين. بعد بضعة شهور من

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

دفن زوجها، قرّرت أخيتي أن ترحل برفقة أطفالها إلى دويرة 3 شارع كاطون . وكانت الساعة الواحدة ليلا حينما زرناها، الخو، عليّ، حسيبة وأنا، بعد اعتقالها وتعذيبها من طرف المظليين . بدّت لنا أنّها تجاوزت محنتها بعد أخذ حمام وقضاء ليلة هانئة وسط أبنائها . انتصبت أخيتي كعود قصب بعد مرور الزوبعة .

لم تُردّ العودّة ثانية إلى التعذيب الذي عانت منه الوليات، برغم آثاره الواضحة على وجهها وذراعها ؛ لمحت فقط إلى تلك الساعات العصيبة، ثم أعلنت أنّها ستقيم وعدة في منتصف نهار الغد لتشكر الله على إبقائها على قيد الحياة كي تواصل الاعتناء بأولادها، وهم أيتام الأب . استغلت الفرصة لتدعونا إلى تقاسم غداء الوعدة مع أفراد عائلتها . فالتحقنا، حسيبة وأنا، بأخيتي في مطبخها الصغير لمساعدتها على تقشير الخضر وإعداد الكسكسي، مسرورتين بالعودة ثانية إلى هذه الحركات البسيطة التي كدنا ننساها بعد شهور قضيناها في الفرار من مكان إلى مكان، للإفلات من قبضة المظليين، وعدّ رفقاءنا المسجونين أو المقتولين . ثم أخذ إخوة أخيتي « جفنة طعام » (أي الكسكسي) بالحمص واللحم، ومرق من الخضر، إلى جامع سيدي عبد الرحمن . عاد الإخوة راضين، قائلين لنا بأنّ الناس أكلوا بلذة كبيرة ودعوا لنا كثيرا، لكامل أفراد العائلة، كبيرا وصغيرا . في ذلك اليوم، تناولنا غداءنا في جوّ من المرح والخبور . كنا نتناول القهوة، حينما خاطب الخو أخيتي قائلا لها : « حسنّا فعلت بقبولك اقتراح القبطان شابان . هكذا، يكون لدينا مخبأ تحت حماية الجيش الفرنسي، يجب عليك أن تطلبي منه تسريحا خاصا كي تحمي نفسك من مدهامات بقية القوات الأمنية » . علّق عليّ بمزاحه العادي : « لماذا لا تطلبين التسريح فورا ؟ إنهم يحبون طبخنا . خذي معك قسطا من الطعام، حقّه من « الوعدة اللّي تكسرلو ركايبو ! » .

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

بعد القول، تلاه الفعل مباشرة. أعددنا صحنا كبيرا من الكسكسي، المغطى باللحم والخضر. فذهبت أختي برفقة أخيها الصغير جمال، وعمره 11 سنة، إلى غاية مركز القبطان شابان، تحمل له القفة. استقبلت أختي بأذرع مفتوحة، وتلقى طبقها نجاحا باهرا. فعادت تحمل معها وثيقة تجعل المنزل وسكانه في منأى عن المداهمات الفظة، لتجعل مخبأنا حصينا منيعا. ما أمكننا من مواصلة عملنا خلال حوالي أربعة أشهر، تحمينا وثيقة القبطان شابان، من وراء ظهره ودون معرفته، إلى أن باعنا الخائن فاندريش، المدعو صافي، جميعا، وسلّمنا، إلى العدو، مقيدي الأيدي والأقدام.

• مجزرة زقاق فوبان، ردّ فعل ونقص ملحوظ في مخزوننا من البلاستيك

تمرّ الأيام والسلطة الفرنسية تواصل سياستها الحربية الشاملة بالقمع والتعذيب والاعتقالات والتصفيات الجسدية. لا يمرّ يوم دون أن يتم تنفيذ حكم الإعدام، بمباركة « السكان المدنيين الأبرياء »، وكانت المقصلة تنتقل من قسنطينة إلى وهران، مرورا بالجزائر العاصمة. عند كل توقّف، يُعدّم فيه مجموعة من الإخوة : 5 في اليوم الأوّل و4 في اليوم الثاني، وقد يحدث العكس. كل شهر، تقطع السلطة الفرنسية رأس ما معدّله 27 أcha. وكما لو أنّ هذه الجرائم النكراء لا تكفي، تضاعف السلطة الكولونيالية من دعايتها اليومية في التهجم على جبهة التحرير الوطني، مُعلنة نهايته القريبة ودعوة السكان إلى العودة إلى أحضان جلاّديه ومطارديه. قرّر « الخو » التصرف بردّ فعل قويّ. فحرّرنا منشورا نعد فيه السكان بالثأر لإخواننا المقتولين ظلما وعدوانا بوضع القنابل مستهدفين السكان الأوروبيين، فأغرقنا مدينة الجزائر. زيادة على الحرب الشاملة التي يخوضها ضدنا ماسو، كان ردّ فعلنا القوي يمليه علينا أيضا تضاعف الإعدامات بوتيرة سريعة ومخزية. فباستثناء

مُذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

توقف طفيف في شهر مارس، استأنف تنفيذ أحكام الإعدام بكامل العجرفة والازدراء اللذين تقدر عليهما السلطة الفرنسية. ولم يكن ممكناً أن نبقى مكتوفي الأيدي أمام هذه الموجه المتوحشة من القتل في حق إخواننا، أغلبهم شباب، جريمتهم الوحيدة هو الكفاح لتحرير بلدهم من نير الاستعمار. هكذا، ابتداءً من 1 ماي الذي صادف « العيد الصغير » أي عيد الفطر، قمنا بحركة عسكرية كللت بالنجاح ضد محافظة الشرطة للدائرة الخامسة الواقعة في شارع « بزو ». كما عرفت الأيام التالية هجومات استهدفت المظليين وقوات أمنية فرنسية أخرى، وقد كللت هي أيضاً بالنجاح. وقد تلقى السكان رسالتنا جيداً. وخلافاً لما تدّعيه السلطة الكولونيالية بخطاباتها المتواصلة، فإن جبهة وجيش التحرير لم ينتهيا، بل يواصلان حمل كفاحنا التحرري بأكثر عزم وشراسة. وكل ذلك برغم الوسائل الضخمة للقتل والتدمير التي استخدمها ماسو وسلطاته الخاصة.

استرجع السكان ثقتهم وأملهم في الكفاح التحرري. أما الصحافة الكولونيالية و « السكان المدنيون الأبرياء »، فبعد أن رفعوا ماسو ومظلييه إلى مصفّ الأبطال الذين يتصرفون كما ينبغي ضد الأهالي الذين يجروون على طلب الاستقلال، بدأ القلق والشك يغزوها أمام حركاتنا العسكرية الناجحة، بل أفضل من هذا، فقد سرّبت هذه الصحافة معلومات عن القلق الذي استولى على قادة سياسيين وعسكريين فرنسيين، أولئك الذين وعدوا بقلب الصراع لصالحهم وإبعاد الأهالي عن جبهة وجيش التحرير، بعد تلك العمليات العسكرية المكّلة بالنجاح والتي نفّذها فدائيونا. وبما أن سياسة ماسو لم تكن سياسة رؤية فردية ولا جماعة صغيرة من الأفراد، وإنما سياسة النظام الاستيطاني الكولونيالي الذي أراد البقاء في الجزائر، فكان من الطبيعي أن تضاعف قوات القمع الفرنسية من فظاظتها ووحشيتها تجاه السكان الأهالي. وكانت مجزرة زقاق فوبان واحدة من تلك الممارسات القمعية القاسية.

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

فبعد الهجوم الذي قام به فدائيونا في 17 ماي على الساعة الثامنة مساءً ضد ثكنة في زقاق فوبان حيث يقيم الفيلق الأول من المظليين، وتمكنوا من القضاء على حارسين، فيما جرح الثالث وتمكن من الهرب وإنذار زملائه داخل الثكنة. وكرّد فعل ضد ذلك الهجوم، قامت فرقة أخرى من هذا الفيلق، يقودها رائد من الوحدات الإقليمية، أي وحدة تتشكّل فقط من الأقدام السود المدنيين، فهجمت على حَمَام عمومي مجاور، كان يحوي مجموعة من المسافرين المساكين الذين جاءوا إلى العاصمة من مختلف المدن الجزائرية البعيدة، وكذا بعض الفقراء الذين لا مأوى لهم أصلاً.

تحت قيادة هذا الرائد من الأقدام السود، أخرج المظليون جميع مقيمي الحَمَام إلى الشارع، وصَفّوهم إزاء الجدار وأطلقوا عليهم الرصاص بلا رحمة ولا شفقة. كانت المجزرة تطبيقاً لعقاب المسؤولية الجماعية؛ فسقط عشرات الرجال، كلهم مدنيون، الواحد فوق الآخر. بعد قليل جاءت الشاحنات: فاختنفى الأموات إلى الأبد، وحمل بعض الجرحى الناجين إلى المستشفى. وقد تركت هذه المجزرة في نفوس السكان شعوراً من النقمة، أشبه بذلك الذي حدث بعد اعتداء شارع طيبة في القصبة في 1956. لم يفهم السكان لماذا ينتقم الجيش الفرنسي لقتل عسكريه بقتل المدنيّين العزل، وطالبوا بالانتقام من « السكان المدنيين الأبرياء » الأوروبيين وإغراقهم في رعب الموت، خاصة وأنّ السلطة الفرنسية لم تتخذ أي إجراء قضائي لمعاقبة مسؤولي مجزرة زقاق فوبان.

هكذا إذًا، وكما حدّث بعد مجزرة شارع طيبة، ردّ الإخوة بوضع ثلاث قنابل يوم 3 جوان 1957 داخل مصابيح عمومية انفجرت غير بعيد عن البريد المركزي، وفي ساحة آغا وفي ضواحي ساحة موريتانيا؛ أحدثت خسائر مادية كبيرة. وبعد ستة أيام، وبالضبط في 9 جوان، عند نهاية الظهيرة، انفجرت

مُذْكَرات مُجاهِدة من جيش التّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

قنبلة في كازينو الكورنيش، أحد أكبر الكباريهات غير بعيد من « لابوانت بِسْكَاد »، وخلّفت ضحايا عديدة.

وجميع هذه العمليات العسكرية التي قام بها فدائيونا كردّ فعل ضد مجزرة زقاق فوبان، قد قادها ونظّمها الإخوة ياسف وعليّ لابوانت وسي مراد ورامل وحبيب رضا. وفورا جاء ردّ « السكان المدنيين الأبرياء » الأوروبيين، فعرفت مدينة الجزائر يوم 11 جوان وما تلاها من الأيام اعتداءات وحشية بمناسبة وإثر جنازة ضحايا كازينو الكورنيش. فتّم الاعتداء على عشرات الجزائريين بالضرب والرجم والقتل، وقد علّقت جثث بعض الجوّارين على المحّاجن التي تعلّق عليها لحوم الحيوانات في واجهات محلاتهم بباب الواد. وقد أنزل ماسو على مدينة الجزائر مزيدا من آلاف المظليين، تساندتهم جمعيات المتطرفين الأوروبيين وحراس الوحدات الإقليميّة، ليعزّز القيد المدّمّر الذي بدأ تنفيذه في شهرّي جانفي وفيفري.

أما فيما يخصّنا، فإذا كنا راضين عن قدرة مناضلينا على استرجاع قدراتهم القتالية وشجاعتهم وإرادتهم في مواصلة الكفاح مهما كلفهم من ثمن، فكنا قلقين على الانخفاض المحسوس لمخزوننا من البلاستيك، وتفكيك خليتنا التموينية ومصادرها في مواد التفجير. بالفعل، لقد تمكّنت عمليات التفتيش الخشنة والدقيقة التي يقوم بها المظليون في القصبة من اكتشاف مئات القنابل وكامل الأجهزة المستخدمة لصناعتها. زيادة على أنّ ماسو تمكن من إعادة تشكيل خليتنا المكلفة بالتموين، ليفكّكها ويجف مصادرها. إذّا، كان مشكلنا الأساسي في شهر جوان 1957 هو إعادة تموين مخزوننا من البلاستيك لأنّه لم يبق لنا إلا عدد محدود من القنابل، بينما كنا قد أخذنا عهدا أمام مواطنينا على الردّ السريع والقوي على كل إعدام لمناضل من مناضلينا بزرع القنابل المدمرة داخل المدينة الأوروبيّة. وقد وزّعنا منشورات في هذا الغرض

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

في كامل أحياء المدينة كي لا يجهل أحد ما سنقوم به، وبالأخص السلطات المدنية والعسكرية الفرنسية.

في منتصف جوان، غادر « الخو » وعليّ مخبأنا في 4 شارع كاطون لعقد اجتماع مع إخوة آخرين في مكان ما من القصبة، تاركين إيانا، حسيبة وأنا، حُرَّتَيْن نفعل ما نريد من ظهيرتنا. وعوض الذهاب عند أختي في المنزل المقابل، فضّلنا قضاء تلك الساعات في صمت وهدوء، نقرأ ونستذكر حياتنا الماضية، والتي بدت لنا بعيدة جدا. فحكيت لها عطلتي وسفري مع أبي إلى « لوشون » في منطقة « البيريني »، وبالأخص ذلك اليوم الذي كنت أقرأ كتابا في حديقة الفندق، وتعرّفت على الحبيب بورقيبة الذي عبر ممرا غير بعيد عنّي برفقة حارسيه الشخصيين.

كما حكيت لي حسيبة سفرها إلى إسبانيا في إطار رحلة خاصة بتلاميذ الثانوية بين 15 و17 سنة. وبقيت أقوال شوّافة بوهيمية راسخة في ذاكرتها، فقد تنبأت لجميع زميلاتها مستقبلا زاهرا كما يمكن لكل فتاة مقبلة على الحياة أن تحلم به، من لقاءات وحفلات وزواج... ولكنها استقبلت راحة يد حسيبة بصرخة وأقوال مرعبة، قائلة لها : « اسحبي يدك ! لا أريد قراءتها ! أرى بأنك ستموتين موتا عنيفا ! أرى دما، بل كثيرا من الدماء ! ». انفجرت الزميلات بالضحك وفسّرن الموت العنيف بجريمة عاطفية.

حكّت حسيبة تلك الحادثة، نصف مسلية ونصف جادة. انقبض قلبي، وفهمت لماذا لا تشارك أبدا في مهاتراتنا بشكل فعلي، فحينما نذكر مع إخواننا أحلامنا المستقبلية، ونحثها على كشف مخططاتها، تكتفي بجواب مقتضب : « إن شاء الله »، ولا تضيف أية كلمة أخرى، ويعينها الجميلتين الشفافتين وميض حزن جليّ. في تلك الظهيرة، أخذتها بين ذراعيّ وهزرتها قائلة : « أظن أنك لا تؤمنين بخزعبلات تلك الشوّافة البوهيمية ! على كل

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

حال، عندما تجنّدنا في الكفاح المسلّح لتحرير بلدنا، كنا نعرف ماذا ينتظرنا من ويلات . سنموت في مواجهة من مواجهتنا المسلحة مع العدو، أو سيتمّ اعتقالنا، سنُعذّب ونُقْتَل مثل علي بومنجل وكثير من الإخوان والأخوات، أو تُرمى في السجن، وفي هذه الحالة يكون مصيرنا مقيّدا : الحكم بالإعدام، وتنفيذ الحكم بالمقصلة مثلا. إنّ حظوظنا في البقاء على قيد الحياة إلى غاية الاستقلال – لأنّ استقلال بلدنا ضرورة حتمية – ضئيلة جدا، والسبب لا علاقة له ببوهيميتك، بل له علاقة بالتضحيات التي سيدفعها شعبنا لفرنسا الكولونيالية لتحرير بلده. وقد قبلنا الرهان والدخول إلى اللعبة . تذكّري سي محمد، عمّي مصطفى اللذين قُتلا، والآخرين الموجودين في السجن، جميلة، دحمان، غاني وغيرهم كثيرون ... » .

انكسر صوتي وأجهشنا معا بالبكاء . ثمّ هزّنتي حسيبة، ابنة التاسعة عشرة فقط، وقالت : « أقول لك الحقيقة، أفضل أن أموت في الكفاح، إنه أروع موت بالنسبة لي . ولكن اعلمي، إن كنت مثلكم جميعا أعايش الموت يوميا، فهو لا يسكّنني مثلك . نعم أعيش معه، ولكنني مُستعدة لأخوض جميع المعارك لتحرير بلدي. إنّ موت سي محمد وعمي مصطفى وجميع الإخوان والأخوات، هو أيضا موتنا، وهو الذي يمنح معنى لكفاحنا، لحياتنا المؤجلة . في انتظار ذلك، من الأفضل الالتحاق بخوذة وبالحياة التي تحملها في بطنها ؛ لقد قرّب موعد وضعها لرضيعها، وقد وعدتها بمساعدتها على تحضير ملابس الطفل الآتي . وقد تعلّمت نسج وتصميم قمصان الرُّضّع » . فذهبت وهي تقهقه بملء شديقتها، تاركة إياي تحت تأثير الإعجاب الكبير بهذا الوعي وهذا الرشد في مثل سنّها ! وقد منعني حديثي مع حسيبة حول الموت – رفيقنا وهمّنا الدائم، في كل مرّة يخرج الإخوان في مهمة ما – من التركيز لإتمام قراءتي لكتاب أندري مالرو « جوزات ألتمبرغ » .

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

أخيرا عاد الخو وعليّ سالمين غانمين، مما سمح باسترجاع المنزل لجوّه المريح. وقد حضرت خالتي فطومة، عمّة محمود، قريب مضيّفنا وعون اتّصال الخو، العشاء بكل ما تملكه من فيض أمومة. بعد الأكل واختفائنا في مخبئنا لقضاء الليل، أخبرنا « الخو » بأنّ مقاومة سابقة، قريبة من الجنرال ديغول توجد بالجزائر العاصمة وتريد لقاءنا. إنها ترافق أعضاء لجنة دولية حول أنظمة السجون، جاءت تحقّق في ظروف إقامة مناضلي جيش وجبهة التحرير بالسجون الفرنسية. وأعطى لنا اسم السيّدة : جرمان تيّون.

• اللقاء مع جرمان تيّون

رنّ اسمها في رأسي وأعادني إلى صديقتي سامية وميمي خلال سنوات دراستنا الجامعية، في حياة ماضية أخرى. كانت ميمي تعرف كل شيء عن الأحداث التي تمسّ الجزائر، وقد حدّثتنا عن جرمان تيّون، مقاومة سابقة لاحتلال قوات ألمانيا النازية لفرنسا. أخبرتنا بأنّها باحثة في الإثنولوجيا، أي في أصول السلالة البشرية، ومن أجل بحوثها قضت سنوات عديدة في منطقة الأوراس لدراسة التنظيم الاجتماعي وعادات وتقاليد سكان الشاوية. أتذكّر بأنني، في تلك الفترة من حياتي الجامعية، كنت معجبة ومفتونة بإمكانية إقامة تحقيقات ميدانية كي نؤكّد فرضيات النظريات، ولكن ما كنا نحبه عند السيّدة جرمان تيّون شجاعته في المقاومة ضد احتلال بلادها من قبل النازيين. روت لنا ميمي كيف تعرّضت هذه السيّدة النبيلة، من جرّاء تجنيدها في المقاومة، إلى السجن وكيف نُقلت إلى محتشدات « رافنسبروك » ولم يطلق سراحها بأعجوبة إلا في 1945.

وكانت نقطة خلافا مع ميمي تتعلّق بالمراكز الاجتماعية وبـ « النداء من أجل هدنة مدنية » الذي أطلقه ألبير كامو وساندته جرمان تيّون التي جاءت

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

إلى الجزائر العاصمة في مارس 1956 لتشارك في الندوة العمومية المنظّمة لشرح أبعاد ومعاني ذلك النداء، الندوة التي استقبلها المتطرفون الأوروبيون أصحاب الجزائر الفرنسية، برفض قاطع وتجمهر عمومي. لقد سبق لي أن رويت خلافا كبيرا مع ميمي فيما يخص مبادرة ألبير كامو. خلال هذه المناسبة، وفي محاولة منها لإقناعنا بصلاحة تلك المبادرة، حدّثتنا صديقتنا عن « المراكز الاجتماعية » لجرمان تيون، وهي تنوّه بأهدافها ومزاياها للسكان الأهالي، وكذا صدق الموقعين لـ « نداء من أجل هدنة مدنية » الذي بادر به كامو.

إنّ معرفة هذه الباحثة في الإثنولوجيا لبلدنا وصادقتها مع شعبنا، دفعها إلى اقتراح إنشاء مراكز تهتم بشعبنا في الأرياف والقرى البعيدة للتخفيف من بؤسه وفقره وجهله، فاتصلت بالمحافظ العام، جاك سوستيل، الذي وافق وأيد مشروعها. تمنح هذه المراكز للسكان الفقراء العلاج الطبي ودروس محو الأمية والتكوين المهني، وكذا المساعدة الإدارية. لم نكن، سامية وأنا، ضد قيام مثل تلك المراكز، ولكننا أوضحنا ضحالتها مقابل بحور البؤس الذي يتخبط فيه أهلنا في الأرياف والقرى، وقد سلبهم النظام الكولونيالي أراضيهم وحقوقهم الابتدائية؛ بل سألنا ميمي في سخرية واستهزاء إن كان في مقدور المحافظ العام إنشاء مليون مركز لتجفيف بحور البؤس. كان هدفنا بالطبع أن نفهمها أنّ لا مشروع يدخل ضمن الإطار الكولونيالي يمكن أن يكون حلاً مناسباً لتحرير شعبنا. في الحقيقة، لم نبحث أبداً عن معرفة ما ستقوم به حقاً هذه المراكز الاجتماعية، مقتنعتين بأنّ البؤس العميق الذي يعيش فيه شعبنا مرتبط أساساً بطبيعة النظام الكولونيالي. وقد ردّت علينا ميمي بأنّ هذا ليس سبباً لرفض مساعدات بعض الشخصيات الفرنسية من ذوي النوايا الحسنة، في انتظار « تحرير مفترض » لبلدنا. وقد واجهنا صديقتنا بكل الحماس والعنفوان الذي كان ينتابنا آنذاك: « حينما التحقت جرمان تيون بالمقاومة ضد المحتل

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

الألماني في 1940، كان تحرير فرنسا مفترضا أيضا، لأنّ النازيين قد قرّروا البقاء فيها لمدة ألف سنة ! من حسن حظ الفرنسيين أنّ الأمريكيين وتشرشل لم يتخلوا عن فرنسا ! ». وقد سبق أن تحدّث عن العنف والتشنج الذي انتهى إليه نقاشنا مع صديقتنا ميمي. وكان ذلك خلال الثلاثي الأوّل من 1956، بمناسبة « النداء من أجل هدنة مدنية »، الذي بادر به ألبير كامو وسانده مثقفون وشخصيات عمومية أمثال جرمان تيّون. وطبعا لم يؤدي ذلك النداء إلى أية نتيجة، لأنّ أول من عارضه ووقف ضد أصحابه، هم جماعة الأوروبيين المتطرفين، أصحاب « الجزائر الفرنسية ». لهذه الأسباب جميعها، رنّ اسم هذه الباحثة المشهورة، المقاومة والمنفية في المحتشدات النازية، في رأسي وأنا في مخبأ 4 شارع كاطون. وفيما كان « الخو » يعرض علينا الفكرة، فكرت جديا في ميمي وأردت أن أقول لها بأنها كانت على حق حينما أصرت على استقبال جيّد للمساعدات التي يقدمها الأشخاص ذوي النوايا الحسنة.

لأننا وفي نهاية شهر جوان 1957، كنا فعلا بحاجة ماسة إلى مساعدات « الأشخاص ذوي النوايا الحسنة »، كي نصل - ولم لا ؟ - إلى هدنة تسمح لنا بإعادة تنظيم خليتنا في تموين المواد المتفجرة. وكنت أفكر أيضا أنّ جرمان تيّون، وهي مكافحة سابقة من أجل الحرية، مقاومة للاحتلال النازي لبلدها ومنفية في محتشد « رافنسبروك »، لا يمكنها إلا أن تتفهّم كفاحنا من أجل الحرية أيضا، وضد احتلال أجنبي لبلدنا. كنت أفكر في كل هذا، في حين كان « الخو » يؤكّد على شهرة هذه الإثنولوجية لدى الأوساط الجامعية والأدبية والسياسية، والاحترام الكبير الذي تحظى به عند الجنرال ديغول والعلاقة الوطيدة التي تربطها بعائلة رجل 18 جوان. وسألت حسبية الخو عن كيفية ربط الاتصال معها، فأجاب بأنّ أصدقاء مشتركين لجرمان تيّون وأحد مناظلينا الذي لم يكن محل بحث عند الشرطة، هم الذين فكروا في مثل هذا اللقاء. وقد شرح له مناظلون في « الأفلان » ثقل الباحثة في الإثنولوجيا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

في فرنسا، وأهمية حضورها في اللجنة الدولية الموجودة في الجزائر، وطلبوا منه أن يقدم لها شهادته، هو ابن القصبة، الذي عاش ورأى وعرف كل ممارسات القمع والتعذيب الممارس منذ جانفي 1957، وبالأخص خلال إضراب الأيام الثمانية والشهور التي تلت.

وسأتعرف لاحقا على هذا الأخ المدعو عليّ بوزوران، إنه على قيد الحياة ولكنه مريض شيئا ما. لقد قمت بزيارته كي يروي لي هذه المرحلة من حياته، الشيء الذي فعله ببساطة وسخاء. تمكن عليّ بوزوران من مغادرة القصبة بعد نهاية إضراب الثمانية أيام ليهرب من قبضة الجيش الفرنسي الذي احتل المدينة العتيقة وبادر بسياسة « الصيد بالشبكة »، العزيزة لماسو، ما يعني الاعتقالات اليومية الحاشدة، في الليل كما في النهار، في جميع الأماكن، الأزقة، المقاهي، وداخل المنازل. لقد اختفى خارج العاصمة عند عائلته. وعاد إلى القصبة في بداية شهر ماي، وأعاد الاتصال مع مناضلي الأفلان وأصدقائه، ومنهم حاج سماعيل (« باش عادل » محكمة الجزائر العاصمة) وفاطمة حمديكان، قريبة هذا الأخير. كان الاثنان شخصيتين فوق كل الشكوك. كان حاج سماعيل « باش عادل »، أي أنه يشتغل قاضيا على مستوى أعلى هيئة في النظام القضائي، المكلف بالنزاعات التي تحدث بين الأهالي أثناء تطبيق قوانين الأحوال الشخصية. كان موظفا ساميا مكلفا بقضايا الزواج والطلاق وقوانين الميراث وكل المسائل المتعلقة بالتراث، والتي تقع بين الأهالي.

أما فاطمة حمديكان، قريبة الباش العادل، فهي صاحبة شهادات جامعية عليا ومعاونة قريبة من جرمان تيبون. فكلف حاج سماعيل وقريبته بإقناع عليّ بوزوران بالذهاب لتقديم شهادته لدى تلك اللجنة الدولية، والتي كانت جرمان تيبون ترافقها بحكم معرفتها لواقع الأهالي. فقد أوصوه بأن يقدم معلومات دقيقة، تضمّ الأسماء الكاملة للمسجونين والمعتّبين وكذا تواريخ وأمكنة ميلادهم، كي يتمكن أعضاء اللجنة من التأكد من تلك المعلومات.

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

وقد دامت شهادة عليّ بوزوران عدة أيام، ذلك أنّ « الصيد بالشبكة » والاعتقالات الحاشدة والتعذيب الممارس حتى داخل الديار، والأشخاص المفقودين والإعدامات والتصفيات الجسدية خارج أيّ محاكمة، كانت تمارس على نطاق واسع.

وقد أسّر لي بعد 56 سنة : « أخبرْتُ الأخ ياسف سعدي بلقاءاتي مع أعضاء لجنة التحقيق الدولية في حياة المساجين المناضلين، وعرضت عليه فكرة استقبال جرمان تيبون، صديقة مناضليّنا. فكّرت أنه هو أيضا يمكن أن يقدّم عرضا مفصلا عن الحالة التي عشناها في القصبّة، وأن يذكر لها أحداثا لا أعرفها. استمع إليّ الخو ووعدني بالتفكير في المسألة. وقد وافقني حاج سماعيل وفاطمة لفكرة ذلك اللقاء، وتجنّدا لإقناع صديقتهما جرمان. التقيت بالأخ ياسف مرات عديدة، وحديثه عن الأخ حاج سماعيل، واسمه النضالي هو كمال، والأخت فاطمة حمديكان.

وشرحت له أنّ مناضليّنا يضمّنان النزاهة الفكرية والاستقامة الأخلاقية لجرمان تيبون، وكذا خصالها الإنسانية الكبرى. وحديثه عن ماضيها كمقاومة ضد احتلال النازية لبلدها، واستعدادها للقاء به. وأظن أن ياسف قد قام بتحرياته من جهته ؛ وذات يوم اتّصل بي ليمنّح لي موافقته. وكانت لي كل الصلاحيات لتنظيم ذلك اللقاء. ولم يعط لي عنوان اللقاء، إلا عشية الموعد، وهو 5 شارع كاطون، حيث رافقتُ جرمان تيبون والتقيت بك لأول مرّة ».

ولكننا كنا لا نزال في جوان 1957، في مخبأ 4 شارع كاطون، وياسف يعرض علينا الأسباب التي تناضل لصالح لقاء مع جرمان تيبون، وبالأخص، تلك الأساسية المتعلّقة بالتأكيد معها على العار الذي يلحق بفرنسا بسبب تنفيذ الإعدام في مكافحين من أجل الحرية ؛ دون حسابان السبب المتعلق بمحاولة التفاوض حول هدنة، نظرا لأننا كنا في عجز ماديّ تام، على الأقل

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

لمرحلة محدّدة، كي نفي بوعدنا الذي أخذناه تجاه شعبنا بالردّ القوي عند كل تنفيذ حكم بالإعدام، بوضع القنابل في الأماكن العمومية التي يرتادها الأوروبيون. وفيما كان « الخو » يحلّل خطّته، سافرتُ قليلا مع ذهني لأتصور كيف كان سي محمد سيتصرّف لو كان على قيد الحياة ؟

كان بن مهدي يحثّنا دوما على تفضيل الحوار، وعدم رفض مواجهة الأفكار، وعدم تفويت أية مبادرة يمكن أن تدفع بثورتنا إلى الأمام. كان سيقبل دون شك لقاء مقاومة سابقة، منفية في المحتشدات النازية، وهي ترغب في التعرّف على مكافحين آخرين من أجل الحرية. خاصة إذا كان من حظ اللقاء أن يجنّب لإخواننا الموت بالمقصلة، وهي من أبشع وأذل موت للمحارب. في الوقت نفسه، كنتُ على علم بأنّ جاك سوستيل، المحافظ العام، كان هو أيضا من المقاومين الأوائل دون أن يمنعه ماضيه المشرف من أمر وتزكية أسوأ العقاب ضد شعبنا. ولكن، ياسف أكّد على الخصال الإنسانية والاستقامة الأخلاقية لجرمان تيبون. بمجرد إعطاء « الخو » الضوء الأخضر لعلّي بوزوران، أخبر حاج سماعيل وفاطمة حمديكان السيّد تيبون وطلبا منها مغادرة فندق سان جورج حيث كانت تقيم مع بقية أعضاء اللجنة الدولية حول أنظمة السجون.

تواعد بوزوران والسيّد جرمان تيبون والتقيا في موقف الحافلات مقابل الفندق، وقادها إلى غاية شقّة حاج سماعيل في عمارة لا يقطنها إلا الأوروبيون، غير بعيدة عن القصبة العليا، في شارع « بوتي ثوارس ». فأقامت عنده، في انتظار تحديد موعد مع مسؤول لمنطقة « الدزاير » المستقلة. وقد تكفّلت بها أمّ شهيد خلال إقامتها في شقّة حاج سماعيل. وقد ثمنت الأمّ بساطة الباحثة، وقالت لعلّي بوزوران أنها كانت تقضي يومها في الكتابة، ولا تتوقف إلا لأخذ حمام بالماء البارد، في الأواخر من أيام جوان الساخنة. تمّ تحديد موعد اللقاء يوم 3 جويلية. عند الفجر، غادرنا مخبأنا في 4 شارع كاطون، وتسلّلنا عند

أختي، في رقم 3 من الشارع نفسه . على الرابعة زوالا، وصلت جرمان تيون برفقة عليّ بوزوران الذي يكون قد اتخذ الاجراءات اللازمة كي لا يقتفي أثره أحد . أتذكر جيّدا هيئة امرأة من عمر راشد، بقامة متوسطة، وشعر أسود، بلباس مُحترَم ونظارات الرؤية . عندما حيّتنا، بقيت قسمات وجهها دون أيّ تعبير، وكان بصرها ينتقل من واحد إلى آخر . كان عليّ لابوانت واقفا، بسحنة جادة، أقرب إلى العبوس ، بينما استقبلها ياسف بابتسامة شقت وجهه وغضّنت عينيه، فبدا منطلقا وواثقا من نفسه . أما حسيبة، كعادتها، فبدت متحفظة وبعيدة نوعا ما، وتنظر إلى جرمان تيون في عينها مباشرة . أما أنا، فكنت فضولية ومسرورة بلقائي الأول بمقاومة بلحمها وشحمها ؛ فيألي غاية ذلك اليوم، صادفت بعضهم في الأدب والسينما فقط .

اتخذت جرمان تيون مكانها مقابل ياسف سعدي وعليّ اللذين وضعا سلاحهما على المقعد خلف ظهرهما . وجلسنا حسيبة وأنا إلى جانبيها، نحيطها من جهتي اليمين واليسار . لم تترك أختي وقتا للصمت كي يخيم على الغرفة، هي اليقظة دوما، فرحبت بالضيقة بعفوية ملحوظة، وسألتها إن لم يتعبها السير عبر أزقة القصبة، بسبب الحرارة المرتفعة . كانت أختي تتكلم فرنسية تقريبية، أيّ أنها تدخل دوما لفظة عربية حينما تعوزها اللفظة الفرنسية . شكرتها السيّدة جرمان تيون بابتسامة، في الوقت الذي وجدنا، حسيبة وأنا، صعوبة في الحفاظ على حديثنا، خاصة وأنّ عليّ كان يشير بعينه وقسمات وجهه إلى فرنسية أختي المعربة . غادرت هذه الأخيرة الغرفة لتحضر مشروبات باردة والشاي والحلويات التي أعدتها خلال الصبيحة . في البداية تبادلنا أطراف الحديث عن أشياء عمومية . وبعد صمت قصير، نظرت جرمان تيون نحو ياسف وعليّ وقالت : « لقد عبّرتكم عن رغبتكم في لقائي، أليس كذلك ؟ » .

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

ابتسم الخو، شدّ إبهامه بقوة، نظر إليها وقال بنبرة شبه ضاحكة : « آه ! طيّب ! ظننت أنك أنتِ، باعتبارك عضواً في اللجنة الدولية ضد أنظمة المعتقلات، التي قدّمتِ رغبتك في لقائنا لمزيد من المعلومات حول الموضوع ». نظرت إليه مضيفتنا بدقة أكثر، كبداية للتعرف على محاوريتها. قالت بعد فترة وجيزة من الصمت : « لنقل أنّ كلا الطرفين كانا بحاجة إلى رؤية أكثر وضوحاً، إلى النظر سوياً إلى الواقع ».

وبما أنّ ياسف أوصانا بالمشاركة في النقاش، لم أمتنع نفسي من سؤالها : « عن أيّ واقع تتحدّثين ؟ الحرب ضد المحتل ؟ تعريفينها جيّداً لأنّه سبق لك أنّ عشتِها ». قدّم الخو كل ما تعرّض له سكان القصبة والأحياء العربية الأخرى منذ شهور من معاملات قاسية تخترق أدنى الحقوق البسيطة للإنسان. شجّعنا الخو، فأعطينا لها أكبر قدر من المعلومات التفصيلية حول قمع وتعذيب الشرطة والجيش للسكان داخل أحيائهم، وكذا انتقام المنظمات المتطرفة من المدنيين الأوروبيين. وقد أكّدتنا على تدهور الوضع منذ وصول الجنرال ماسو ومظليّيه بهدف تكسير إضراب الثمانية أيام الذي شنّه الأفلان تحضيراً لحوار جلسة الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة حول « المسألة الجزائرية ».

أكّدتنا على الطابع السلمي لإضراب الثمانية أيام، مؤكّدين على نجاحه وهدفه : إظهار أنّ الكفاح الذي يخوضه الأفلان هو كفاح شعب كامل من أجل تحرير البلد من احتلال شعب آخر وجيشه، وليست « أحداثاً ضد النظام العام »، يقوم بها « قطاع طرق » و « الخارجون عن القانون »، مثلما تقدّمها فرنسا. وفي خطاب تعودنا عليه، أكّدتنا بأنّ السلطة الفرنسية، ولمواجهة حركة سلمية قام بها الأفلان، أطلقت جيشها على شعبنا في وحشية لا نظير لها إلا عند النازيين. فتداولنا على الكلمة لوصف القصبة المحاصرة، واستراتيجية « الصيد بالشبكة » العريضة على ماسو، وكانت أولى نتائجها أنّ واحداً من

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

اثنين على الأقل من الأهالي قد تمّ اعتقاله وتعذيبه، لأنّ التعذيب أصبح صناعة حتمية تمارس على كل معتقل، زيادة إلى الاختفاءات القسريّة والتصفيات الجسدية خارج أية محاكمة والإعدامات بالمقصلة، وكذا آلاف من المعتقلين داخل محتشدات بظروف لا إنسانية لا تشرف فرنسا بلد « حقوق الإنسان ». كنا شبابا، وربما مغفلين نوعا ما، فخاطبنا المقاومة ضد احتلال بلدها، ثمّ الشخص الذي اعتبرناه عادلا، جاء يحقق في ظروف سجن واعتقال الجزائريين في المعسكرات.

لم تتحمّل ضيفتنا أنّ نقارن بين الجزائر التي تحتلها فرنسا، وبين فرنسا التي احتلها الألمان. ألأنّها فرنسية؟ هل لأنها كانت مقاومة، فلم تتحمّل أنّ نشبه وسائل قمع الجيش الفرنسي في الجزائر لتكسير المقاومين بتلك التي استخدمها الجيش الألماني في فرنسا؟ ذلك أنها أوقفنا بنبرة حادة وقويّة وهي تقول: « أنتم أيضا قتلة ! ». خيم الصمت فجأة، يضاعف في مخي صدى الكلمات التي لفظتها في وجهنا، لتضاعف في الوقت نفسه، الظلم الرهيب والتناظر المهيّن والعصبيّ الاحتمال بين المستعمر ومستعمره، بين مكافحي التحرير الوطني وجيش الاحتلال، بين الحق في الحرية والكرامة وبين إنكار نفس هذه الحقوق. إنّ تلك الكلمات « أنتم أيضا قتلة ! » حولتها في نظري إلى شخص منحاز، قرّر الدفاع عن فرنسا وسلطتها الاستعمارية، ولو في مواجهة مقاومين آخرين مثلما كانت عليه ذات يوم. عندئذٍ أجبتّها دون ابتسامة: « قُتلة؟ نعم، مثلما كنتم أنتم أيضا قتلة خلال احتلال الألمان لبلدكم ! ». انتابني حقد دفين ضدها لأنّها دمّرت آخر أوهامي حول إنسانية بعض الأوروبيين. حقدت عليها لأنّها أكّدت لي بجملة واحدة بسيطة، واضحة، بلا غموض، ما كنت أعرفه مسبقا ولكنّي كبّته لأنني كنت بحاجة إلى الإيمان بالإنسان. لأنني كنت أعرف، في الثانية والعشرين من العمر، أنه يمكن لشخص، مثل

مُذَكِّراتُ مُجَاهِدَةٍ مِنْ جَيْشِ التَّحْرِيرِ الْوَطَنِيِّ مِنْطَقَةُ الْجَزَائِرِ الْمُسْتَقَلَّةِ

جاءك سوستيل، أن يكون مقاوماً للاحتلال في فرنسا، ثم يقوم ويشرف على المجازر لمواصلة احتلال الجزائر.

حققتُ عليها خاصة لأنها عبّرت بوضوح عن الحقيقة الوحيدة الممكنة : مهما كانت الأسباب التاريخية وغيرها، فلن نكون في نظر الفرنسيين بشرا بأنّ معنى الكلمة. لا يمكن لهم أن ينظروا إلينا كذلك. لذلك، لفظت في وجهها كل ما بدر في ذهني من أفكار في هذا الموضوع، باندفاع وحماس وعدوانية. أوقفني الخو بفظاظة، أمرا إياي بالسكوت، في حين، قالت السيّدة جرمان تيون وهي تربت على ذراعي : « اسكتي ! لست إلا طفلة صغيرة ! ». وبرغم نظرة « الخو » المهدّدة، أجبتها : « وأبوية فوق كل هذا ».

في ذلك اليوم، أدركتُ بشكل نهائي، أنّ مقاوماً ضد الاحتلال الألماني ليس بالضرورة مضادا للاستعمار. لحسن حظ اجتماعنا، واصل ياسف، الهادئ أكثر منا، شرحه لجرمان تيون أننا شعب تعرضنا للاحتلال في أرضنا، من شعب آخر وجيشه، فمن حقنا الطبيعي ومن واجبنا الكفاح من أجل تحرير أرضنا وتخليص شعبنا من عبودية الاستعمار. ثم شرح أيضا لماذا قرّر الأفلان وُضِعَ القنابل في المدينة الأوروبية، فذكر باعتداء شارع طيبة في القصبة، حيث وضعت منظمات متطرفة من الأوروبيين المدنيين، تحميهم وتساعدهم الشرطة الفرنسية، قنبلة وفجّرت ديارا كثيرة وخلفت 73 قتيلا من المدنيين العزّل وهم في منازلهم نائمون، دون حساب الـ 300 جريحاً، البعض منهم يبقى معاقا مدى الحياة. وعبر أمثلة كثيرة، أظهر لها بأنّ عنفنا كان جوابا قسريا لعنف سابق، ولا يزال متواصلا، قامت به الشرطة والمنظمات المتطرفة من المدنيين الأوروبيين ضد كامل سكان الأهالي « دون أن يفرّقوا بين المدنيين الأبرياء وبين القتل مثلما تقولين ».

سألت جرمان تيبون : « ما العمل لتوقيف هذا الدوران من العنف الجهنمي ؟ ». استقبل صمْتُ ثقيل سؤالها . نظرتُ إلى ياسف ، كان مبتهجا ، وألقى لي بعينه إشارة لا تكاد تُدرَك بعدم التدخل . ترك الصمت يزيد الجوَّ احتقاناً وثقلاً ، ثمَّ استأنف كلامه ببطء كما لو أنه كان يفكر بصوت مرتفع : « أتعرفين ، مهما كان تفكيركم ، فإنَّ مناضلينا وشعبنا عازمون على المضي قدماً إلى النهاية برغم الآلام التي عانوا منها وتلك التي تنتظرهم . لقد امتحن الجيش الفرنسي شجاعة وصلابة رجالنا ، ومع ذلك يواصل إذلالهم . لا أعرف إن تابعت ما حدث في مدينة الجزائر منذ بداية حرب التحرير : فقد صعد مناضلو جبهة وجيش التحرير كفاحهم ابتداءً من الوقت الذي قرّرت فيه فرنسا تنفيذ أحكام الإعدام ضد المسجونين .

إنَّ أكبر تحدٍّ هو رفض الموت الكريم لمناضلينا . نريد مواجهة الموت . نريد أن نموت ونحن واقفون ، وليس مُزّقين إلى شَطَرين !!! » . كانت جرمان تيبون تستمع إليه بتركيز ملحوظ ، ربما لم تر أبداً الإعدام بالمقصلة من هذه الزاوية التي وصفها لها ياسف : إهانة الإنسان العظمى . ثم قالت : « هل أنتم مستعدّون لتوقيف استخدام القنابل ضد السكان المدنيين إذا تمَّ توقيف تنفيذ إعدام المحكوم عليهم بالموت ؟ » . شاورنا ياسف بالنظر ، ثمَّ بدا غارقاً في تفكير عميق . كان عليّ يعصر قفل قميصه ذي الأكمام القصيرة . وتنظر حسيبة تارة إلى ياسف وتارة أخرى إلى السيّد تيبون ، ويدها موضوعتان على ركبتيها بلطف . أما فيما يخصني ، وتحت انبهار بقدرات التفاوض الجديدة للأخ ياسف ، كنت أدعو كي تنجح مثل هذه المفاوضات ؛ لأننا كنا تقريباً بلا مواد بلاستيكية لصناعة القنابل كي نفي بوعدنا تجاه ذويها . أخيراً ، سألت ياسف : « ما هي الضمانات التي تجعل الحكومة الفرنسية تلتزم بمثل هذا التعهّد ؟ » وكجواب على سؤاله ، ردّت جرمان تيبون بأنَّ زيارتها إلى

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

القصة كانت مبادرة شخصية، وذكرت بأنها جاءت إلى الجزائر كمبعوث من الحكومة الفرنسية، ترافق الأعضاء الأجانب المشكّلين للجنة الدولية ضد أنظمة المعتقلات. « بالضبط »، قال ياسف وهو يرسل لي النظرات كي أستخلفه في الحوار « إنّ قُربك من بعض أعضاء الحكومة يسمّح لك بتقديم شهادتك حول طبيعة الكفاح الجزائري التحرري، لتشرّحي أننا لسنا متعطشين للدماء، بل إننا مكافحون وُضعوا في حالة لا يجدون أمامهم اختيارات أخرى لإسماع صوتهم ». كانت جرمان تيون تسمع، دون حراك، ولكن بعناية ملحوظة. وكانت نظرتها تنتقل من واحد إلى الآخر؛ ربّما كانت تريد سماع ما يفكر كل واحد منا في هذه المسألة؟ صمت آخر.

بعد ذلك تجرأتُ: « أتعرفين يا سيّدي، لم يكن ممكنا أن نتواجد معا في هذه الوضعية الحساسة لولا النظام الكولونيالي وعنفه وظلمه اللذين لا نظير لهما في عالم اليوم. أعرف أنّه من الصعب « أنسنّة » الحرب، ولكنني أفكر أنّه إذا توقفت الحكومة الفرنسية فعلا عن إخضاع مناضلينا إلى القتل المهيّن عبر المقصلة، فإنّ كامل شعبنا سيرحب بالمبادرة التي تقترحين: التوقّف عن وضع القنابل في المدينة الأوروبية مقابل توقيف الإعدام بالمقصلة. ومع ذلك، اسمحي لي بأن أذكرك: لقد أُجبرنا على اللجوء إلى هذه الطريقة، ولم يُجبرنا إياها إلا ذووكم، نظامهم القمعي وطرقه التعذيبية اللاإنسانية ». تكلمت ببطء وأنا أجتهد للسيطرة على ارتعاش صوتي والشهيق الذي يخنق حلقي. لم أكن أريد البكاء، ولكن الدموع بدأت تنهمر رغما عني. التقى بصري ببصر ياسف. مثلي تماما، كان يدعو الله أن تتكلّل هذه المبادرة بالنجاح، لأنّه كمسؤول، يدرك أفضل منّي حالة العجز التي تلاحقنا في القريب العاجل بسبب النقص شبه الكلي لوسائل صناعة القنابل. فبعد صمت طويل، قالت السيّدة جرمان تيون: « أعدكم بأنني سأقدّم تقريرا أميناً عما

رأيت وسمعت . نعم، إذا استطعنا، مثلما تقولين، « أنسنّة » هذه المواجهة، سنشارك، من الجهتين، على تخفيف الحقد الذي ينخر شعبينا » .

وسمحت لي صيغة « شعبينا » التي استخدمتها السيّد جرماني تبيّن بأنّها قولِي بأنّها كانت بالأساس نزيهة ومخلصة لأنّها اعترفت فعلا بأنّها شعبان في مواجهة أقلّ ما يقال عنها أنّها مسلّحة. ومع ذلك، لم يمنعها إخلاصها ونزاهتها من الاعتبار بأنّ على الجزائر أن تبقى في حضانة فرنسا. وبما أنّها لم تحرم نفسها من التعبير الصريح بأنّها لا تقاسم أفكارنا ولا نضالنا، ومن ثمّة وسائل كفاحنا، فكنا إذاً متساويين في الإخلاص والنزاهة، لأننا، نحن أيضاً، لم نحرم أنفسنا من أن نشرح لها بوضوح لا يقبل النقض أفكارنا وهدفنا الأسمى : استقلال الجزائر مهما كان الثمن. وبعد ذلك مررنا إلى المسائل الإجرائية : ما هي الطريقة التي سنحافظ بها على اتصالنا الذي يجب أن يبقى سرياً تماماً ؟ فتقرّر أن يبعث لها الأخ عليّ بوزوران رسالة مغلقة ومختومة، يجهل مضمونها وكذا اسم وعنوان المكان الذي ستبعث لنا إليه بريدّها. في الحين، اتفقنا على الشفرة والأسماء المستعارة التي ستستخدمها لتعيين بعض الأشخاص، بمن فيهم أولئك الذين ستقدّم لهم محضر جلسة دقيق لتبادلنا. كان عليّ بوزوران ينتظر السيّد جرماني في السقيفة. وكان طريق العودة إلى شقة شارع « بوتي ثوارس » معلوماً ومحروساً. وعند آخر الأخبار، لا توجد به أية دورية عسكرية. وجاءت لحظة الفراق، فتركت نظرتها تسرح على كل واحد منا ؛ كما لو أنّها تريد نقش وجوهنا في ذهنها. هل لأنها كانت تدرك أنّه محكوم علينا إما بالاعتقال أم بالموت ؟

لا أتذكّر أنّها تمّنّت لنا حظاً سعيداً. رافقتها أخيتي إلى غاية السقيفة. عندما عادَت إلى الغرفة التي بقينا فيها جالسين وساكتين، كل في المكان الذي كان يجلس فيه بحضور السيّد جرماني تبيّن، فحكّت لنا بأنّ هذه الأخيرة

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

سألتهما لماذا تواصل مساندتهما للأفان بعد كل المآسي التي تعرّضت لها وهي أمّ تَعِيل خمسة أيتام صغار ؟ فردّت عليها أختي ببساطة : « أكافح وأواصل الكفاح لتحرير بلدي من الاحتلال الأجنبي ». هكذا، سيكون عند السيّدة جرمان تيّون رسائل واضحة ومعلومة تقدّمها لأصحاب السلطة في فرنسا. كان يأسف مبتهاجا : « سندخل في تفاوض قريب مع الحكومة الفرنسية. سيكون اعترافا فعليا بجهة التحرير الوطني بفضل كفاحنا ! ».

بعد أيام قليلة، وُقّت السيّدة جرمان تيّون بوعدها. أخبرتنا عن طريق البريد المشفّر أنّ اقترحنا قد استُقبل بإيجاب. وبعد ذلك، أخبرتنا أنها قدّمت تقريراً مفصّلاً وأميناً عن لقائنا للجنرال ديغول. وعند كل بريد، كنا نردّ مجدّدين وبشكل رسمي تكرار ألفاظ التزامنا وضرورة إخبار « والدّينا بتونس ». وبعد ذلك، أعلنت جرمان تيّون عن زيارتها المقبلة إلى الجزائر. كان الخبر حمّاماً بارداً ! جاءت لتعلن لنا رفض الحكومة الفرنسية أمر توقيف تنفيذ حكم الإعدام في حقّ إخواننا المحكوم عليهم بالموت، ولكن أيضاً لتقول لنا بأنّ المقصلة ستستأنف عملها المَقْبَرِي ابتداءً من شهر أوت. وكانت لا تزال تقيم بالجزائر حينما تمّ تنفيذ القتل بالمقصلة في حقّ ثلاثة من إخواننا في سجن بربروس يوم 25 جويلية 1957.

وكي نبقى أوفياء إزاء تعهدنا لشعبنا، تمّ وضع قنابل عديدة في أماكن متفرّقة من العاصمة. انفجر بعضها دون إحداث ضحايا، وتمّ تفكيك البعض الثاني من طرف العدو. كان ذلك فشلاً ذريعاً مزدوجاً بالنسبة لنا : أخطأنا إصابة أهدافنا وأنهيينا ما تبقى لنا من مواد تفجيرية. في الحقيقة، لقد تهاوننا في عملنا بمجرد أن أخبرتنا السيّدة جرمان تيّون باحتمال قبول الحكومة الفرنسية لاقتراحنا. وعندما جاءنا الرفض غير المنتظر، نُظّمت ونُفذت تلك العمليات في نوع من العجلة وعدم الدقة والتريث في تحضيرها.

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

تمّ اللقاء الثاني مع جرمان تيبون في جوّ حزين. فاجأتني عندما شكرت الأخ بوفائه لوعده برغم موقف الحكومة الفرنسية. أكيد أنها تجهل اعتداءاتنا الفاشلة. وما أقدر الخو على التفاوض والتأقلم مع المعطيات الجديدة ! فلم يخبرها بواقع حالنا ؛ لم يؤكّد ولم ينّف بمراوغة عجيبة. أُعجبتُ بقدره ياسف على خلط الأوراق بعفوية شبابية ظاهرة. في ذلك اليوم، تقرّر بأنّ تساعد جرمان تيبون أحد مناضلينا، حاج سماعيل، على الذهاب إلى تونس، ليخبر مسؤولينا هناك بالاتصال المقيم مع الحكومة الفرنسية وإرادة هذه الأخيرة بلقاء مبعوثين رسميين تكلّفهم القيادة العليا للأفان. لم نكن نعرف بأننا وضعنا بمبادرتنا تلك أوّل وتّد للسيرورة التي ستؤدّي إلى اعتقالنا، ياسف وأنا، دون أنْ يعلم مسؤولونا في تونس باتصالنا مع الحكومة الفرنسية. كما لم نكن نعلم أنّ الاتصال المباشر مع جرمان تيبون سينقذنا، ياسف وأنا، من التعذيب والحكم علينا بالإعدام.

• محاكمة جميلة، دحمان، غاني، والآخريين

منذ احتلال فرنسا للجزائر، وبالأخص من 1881 وإلى غاية 1944، خضعت هذه الأخيرة لنظام قضائي خاص. يُخضع قانون « الأنديجينا » أولئك الذين ينعتهم بـ « الأنديجان » إلى أحكام انضباطية عقابها السجن، ينطق بها أعوان إدارة البلديات المختلطة، ردعا للمخالفات التي لا يرتكبها إلا الأهالي، وعلى سبيل المثال : « الجرأة على النظر في عيون السيّد الوالي ».

وإذا حدث وارتكب الأهالي مخالفة إجرامية، فلا يُحالون على محكمة الجنايات، وإنما على محكمة تتشكّل من قاضٍ ومساعدين، والذين يطبقون إجراء « حالة التلبّس بالجريمة »، دون أية تحريات مسبقة. زيادة على هذا، وقبل أن يُحالوا على هذه الهيئة القضائية، كان الأهالي يخضعون طبعاً إلى

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

« السؤال »، كما أوضحه التقرير الذي أعدته « لجنة التحقيق حول التعذيب » التي أنشأها فرنسوا ميتران، وزير الداخلية، في جانفي 1956، تحت ضغط جزء من الصحافة الفرنسية : لومانيتي، لكسبريس، تيموانياج كريتيان، وفرانس أبسارفاتور. لقد أكد تقرير اللجنة « أن جميع مصالح الشرطة والدرك والشرطة القضائية وشرطة الاستخبارات العامة تستعمل، بمستويات متفاوتة، خلال استنطاقاتها للموقوفين، الضرب وحوض وأنبوب الماء والكهرباء ». ويؤكد التقرير ما قاله أعوان الشرطة للجنة بأن « تلك الوسائل المستخدمة، ولا حتى الضرب، ليس له فعالية كبيرة في هذه البلدان حيث يملك الأشخاص مقاومة عجيبة لجميع الامتحانات من هذا النوع... » هكذا، وللتقليل من مقاومة الأهالي، خاصة أولئك الذين يواصلون الكفاح وينجحون في الحصول على مساحات جديدة لصالحهم، برغم الترسانة القضائية المفزوحة والوسائل المهينة المستخدمة، صادقت الجمعية الفرنسية، باقتراح من حكومة في مولاي ذات التوجه اليساري، على إجراءات قانونية جديدة. هكذا سيُطبق على الجزائر، المتعددة على الأنظمة القمعية الخاصة، ابتداءً من 1956، قانون « السلطات الخاصة » بشهرته السيئة، والذي سيسمح لجهاز التنفيذ بتسيير البلد بـ « مراسيم/قوانين » يوقعها رئيس المجلس، في مولاي، ووزير الدفاع الوطني، جورج مونوغي، ووزير العدل، فرنسوا ميتران. ولم يكن هذا الأخير، باعتباره محامياً، يجهل بأن تلك النصوص تخترق الدستور الفرنسي وتشكل نظام اللاقانون بامتياز.

وقد صادقت الجمعية الوطنية الفرنسية بالأغلبية في مارس 1956 - وهي بأغلبية يسارية، حيث كان الحزب الشيوعي ممثلاً بعدد كبير من النواب - على هذه النصوص التي ستسمح للجنرال ماسو بامتلاك سلطة الحياة والموت على كامل مقاطعة « الدزاير » الكبرى ابتداءً من جانفي 1957. وبهذا الإجراء

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

القضائي الجديد، ستحال السلطة التنفيذية على الولايات الثلاث التي تتشكل منها الجزائر إلى الوزير / المقيم « أمين سلطات حكومة الجمهورية الفرنسية ». فتّم اتخاذ إجراءات جديدة بهدف إعادة تنظيم القضاء في الجزائر، وسيسمح للمحاكم العسكرية بتعويض المحاكم المدنية .

ابتداءً من ذلك التاريخ، أمكن للمحاكم العسكرية أن تسجن مباشرة، ودون القيام بالتحريات القانونية الأولية، الأشخاص في حالة تلبّس ومشاركة في حركة ضد أشخاص أو ممتلكات، حتى وإن كانت هذه المخالفات قد تؤدي إلى الحكم بالإعدام . وقد وصف قانونيون مصدومون هذه الترسنة من القوانين بـ « إنكار للحق في الدفاع » . أصدر « بلد حقوق الإنسان » نصوصاً جوهرها إنكار المبادئ العامة التي تؤسّس لدولة القانون . وكان نقل القضاء المدني إلى القضاء العسكري يعبر عن مطلب عبّر عنه « السكان المدنيون الأبرياء » من فرنسيي الجزائر خلال ذلك « اليوم الرهيب » حسب في مولي، الذي استقبله الأقدام السود في الجزائر العاصمة برمي الطماطم على موكبه في فيفري 1956 . وقد أدّى إلى تراكم أدوار « المحاكم الدائمة للقوات المسلّحة » للجزائر وقسنطينة ووهران : سيقدم مئات المناضلين أمام هذه المحاكم لتصدر في حقهم أحكام متسرّعة . وكانت النتائج كارثية : ارتفاع مدهش لعدد المحكوم عليهم بالإعدام، ومرافقه المباشر، تنفيذ أحكام الإعدام بالمقصلة في كل من قسنطينة والجزائر ووهران . لنحكم على ما كتبه قاضٍ من وزارة العدل : « في البداية كنّا عند 7 من الذين ينفّذ فيهم الحكم بالإعدام، أخيراً وصلنا إلى 50 أو 60 » . في جانفي 1957، عشية إضراب الثمانية أيام الذي شتّه الأفلان، قرّرت حكومة في مولي إسناد سلطات الشرطة إلى الجيش، مثلما ينصّ عليه قانون « السلطات الخاصة » . يمكن إذا « لمعركة الجزائر » أن تنطلق . كلمة « معركة » هي كلمة مضلّلة، لأنّ ما سمّي بالمعركة، لم يكن في واقع الحال إلا

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

مضاعفة عمليات مدهامات الشرطة التي قامت باعتقالات حاشِدة وبالصدفة لعشرات الآلاف من الأهالي، والاستخدام الجنوني والشامل لجميع أنواع التعذيب كي يُجَبَّر المعذَّبون على « الكلام » وإعطاء المعلومات التي تسمح بمدهامات سريعة وفعّالة، واغتيال آلاف الأهالي خارج أية شرعية قانونية. كتب الكولونيل آرغو في 1999 : « إنّ وسائل ماسو هي التعذيب . فكان يقوم بتصفية الجميع، وحتى الأبرياء منهم . إنّ خليج الجزائر كان مقبرة بحرية » . وكان أولئك الضحايا عبارة عن « جمبريات بيجار » المشهورة » . وأضاف الكولونيل آرغو بصريح العبارة : « قلت بأنّ التعذيب كان غير مقبول، ومع ذلك استخدمناه وعلى نطاق واسع . ليس مهما أن يكون التعذيب مُحكم الاستخدام . حينما يكون الشخص مجرما، نقوده إلى ساحة القرية ونطلق عليه النار، كما كنا نفعل منذ قرن أو اثنين . ولم أشعُر يوما بالندم . ترأّست قطاعي لمُدّة سنتين . فقد أطلقنا الرصاص على 200 شخص . أما فيما يخصّ سُخْرة الخطب، فلا نعرف عدد المقتولين أبدا، وقد يصل عددهم إلى الآلاف، بل وعشرات الآلاف¹ » .

ولمواجهة انحراف القمع والتعذيب، ومواجهة السلطات الخاصة، أعطت جبهة التحرير الوطني تعليمة لمناضلينا تطلب منهم بالتزام « الصمت »، في حالة اعتقالهم، لمُدّة 48 ساعة، وهو الوقت الضروري الكافي لإعادة تنظيم شبكاتنا . ولقد فقد الكثير من الإخوة حياتهم تحت التعذيب قبل انقضاء الـ 48 ساعة، وبعد ذلك أيضا، ولكنهم لم يتكلّموا . ولمواجهة نقل القضاء المدني إلى القضاء العسكري، قرّرت لجنة التنسيق والتنفيذ ابتداءً من شهر ديسمبر 1956 إرسال نداء إلى مناضلينا الموقوفين أن يُظهروا أمام المحاكم التي يمثلون أمامها شرعية كفاحهم لتحرير أرضهم من المحتل الأجنبي، وتحويل

1. In *Histoire de la IV république : La République des tourmentes (1954/1959)*, Georgette El Gey, Paris, Fayard, 1992/2010.

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

جلسة المحاكمة إلى منبر في خدمة حرب تحريرنا الوطني . وللدفاع عن المناضلين الموقوفين، أنشأ الأفلان أول مجموعة من المحامين الجزائريين . وللأسف لم يتمكن هؤلاء من تحقيق الخطة الجديدة التي وضعتها لجنة التنسيق والتنفيذ لأن السلطة الفرنسية قامت باعتقالهم وسجنهم في مارس 1957، وقد تمت تصفية الأستاذ علي بومَنجل يوم 23 مارس 1957 . وبعد ذلك تمكنت المجموعة الثانية من المحامين التي شكلها جاك فرجاس بموافقة جبهة التحرير الوطني، بمناسبة اعتقال جميلة بو حيرد، من تطبيق هذه الخطة . وبالضبط، بمناسبة ما أسمته الصحافة : « محاكمة القنابل »، أثناء مثل جميلة بو حيرد، إلى جانب جميلة بوعزة وعبد الرحمن طالب وعبد الغني مرسالي وعبد الرحمن حميناد، أمام محكمة « الدزاير » في 11 جويلية 1957 . هذا هو، في خطوطه العريضة، وباختصار، الاشتغال المفضوح والجائر للقضاء الفرنسي المطبق على الجزائري في 1957 . لم تكن العدالة في الجزائر تلك السلطة المدنية المستقلة حيث يُعامل المكافحون الماثلون باعتبارهم متقاضين كبقية المتقاضين، لهم حقهم في الدفاع ومحاكمة عادلة ومضمونة وغير قابلة للنقض . بالعكس تماما، كانت العدالة خاضعة كلية للسلطة التنفيذية لدولة استعمارية، وتقدم نفسها كحليف لهذه السلطة الظالمة، وذراعها الأيمن، بهدف تبرير وجودها . وكان هدفها الإجرامي تخفيف كفاحنا من مناضليه، الذين كانوا يُعتبرون خصومًا يجب وضع حدّ لنشاطهم، وفي أسوأ الحالات كأعداء يجب القضاء عليهم .

ومن هنا، كانت المحكمة أقرب من مُضطرع الوحوش حيث الأسياد هم القضاة العسكريون، من قريبا من مدرّج الدروس في الحقوق الإنسانية . ماذا يبقى في هذه الظروف من خيارٍ أمام المكافحين الماثلين أمامها ومحاميهم ؟ إمّا أنهم يندرجون داخل منطق هذه المحاكاة الساخرة للعدالة وجوهرها

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الكولونيالي وهم يستخدمون جميع الوسائل الشرعية للخروج منها بأقل الأضرار. تلك كانت حالة أخت، اختارت لها عائلتها، وليس الأفلان، محاميها الذي رافع بجنون موكلته وعدم مسؤوليتها بغرض ترويض المحكمة والحصول على رحمتها، بلا جدوى ؛ ذلك أنه لم يتمكن من تجنب الحكم عليها بالإعدام. وقد اعتبر الأستاذ فرجاس هذا النوع من الدفاع بـ « دفاع التواطؤ ». وإما أنهم يندرجون داخل منطق القطيعة مع منطق هذه المحاكاة الساخرة، والقطيعة مع النظام الكولونيالي الذي تخدمه. ما يعني الاندراج داخل منطق كفاحنا التحرري لمواصلته، بطريقة أخرى، بتقاسم الأدوار بين المكافحين الماثلين ومحاميهم. يجب على الأوائل تحمل مسؤولية انتمائهم لجبهة وجيش التحرير الوطني، والإقرار بأفعالهم، والإعلان عن شرعية الكفاح التحرري وحتمية تحقيق هدفه المتمثل في استقلال الجزائر. يجب أن يحولوا المحاكم الفرنسية إلى منابر للتنديد بجرائم الاستعمار. ويجب على المحامين أن يقوموا بتعرية محاكاة العدالة الساخرة، وظلمها وجورها وانحيازها. بل أفضل من هذا، يجب أن يُظهروا أنّ العدالة الفرنسية المطبقة على الجزائريين هي جزء لا يتجزأ من النظام الكولونيالي الذي وقف ضده المكافحون الماثلون أمامها لتحرير بلدهم. ومن هنا، فإنّ هذه « العدالة » عاجزة عن محاكمتهم لأنه لا يمكن لها أن تكون في آن واحد قاضية ومتقاضية.

إنها استراتيجية القطيعة التي صمّمها وأعدّها وطبّقها جاك فرجاس أمام محكمة « الدزاير » العسكرية بمناسبة محاكمة جميلة بوحيرد إلى جانب الإخوة عبد الرحمن طالب وعبد الغني مرسالي وعبد الرحمن حَمِيناد وجميلة بوعزّة. إنّها أوّل محاكمة تُحدث القطيعة، في تعارض كلي مع محاكمات التواطؤ، حسب مفاهيم مصمّمها جاك فرجاس والتي قدّمتها الصحافة باسم « محاكمة القنابل ». ومن خلال وقائع الأحداث، اتّضح أنه من البداية، طبق

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

جاء فرجاس وقوثيرا وموتات، محامو جميلة بوحيرد وعبد الرحمن طالب وعبد الغني مرشالي، الاستراتيجية الجديدة وهم يتحاورون حول الإجراءات، ينشئون ويضاعفون في خلق المناوشات أثناء جريان المحاكمة، في صدامات ومعارضات مع القضاة. بهذه الطريقة، تمكّنوا من تعرية الطبيعة الظالمة لهذه « العدالة » المطبّقة على المكافحين المعتبرين كخصوم، بل أسوأ، كأعداء. وكلّما تقدّم المحامون في إيضاح تفاصيل خطّتهم، كلما اتّضح للعيان بأن محاكمة إخواننا وأخواتنا ما هي إلا مسرحية هزلية، تليق بما كان يقع في عهد محاكم التفتيش وإظهار عدم جدوى الحديث أمام هذه المحاكم الخاصة عن مفاهيم « الحريات الديمقراطية » في إطار استراتيجية الدفاع التي كانت ستعترف للمحاكم الفرنسية في الجزائر بشرعيتها في محاولة يائسة لترويضها. افتُتحت محاكمة جميلة يوم 11 جويلية 1957 في سياق اتّصف بتصاعد العنف. تحمّلت جميلة رمزية كفاحها حتى في مظهر ملابسها بإشهار ألوان العلم الوطني. كانت ترتدي تنورة بلون أخضر يانع، وقميصا أبيض بياض ناصع، وتحمل باليد مربعا من الحرير الأحمر القاني والذي كانت تشهره تارة كمروحة تتهوّى بها، وتارة أخرى كمنديل لتمسح به العرق الذي كان يتلألأ على جبهتها داخل قاعة الجلسات المكتظة والمختنقة بارتفاع الحرارة في ذلك اليوم الصيفي. لقد وصفت جميع الصحف المحلية لباس جميلة دون أن تعلق. ولكن الجمهور، الذي تشكّل في يومه الأوّل من عائلات الماثلين فقط، لم يُخطئ التقدير والتفسير.

أخضر، أبيض، أحمر، هي ألوان العلم الوطني على مرأى ومسمع الكولونيل « غردون »، محافظ الحكومة (وكيل الجمهورية) الرهيب، المشهور لكونه أعدّ « قائمة الاجراءات التي ستُتخذ في إطار السلطات الخاصة » والقائل بأنّه لا ينبغي للمناضلين الجزائريين أن يطمحوا إلى اكتساب قانون المكافحين، لأنهم

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

« كانوا وحوشا، بهائم شرسة »، والذين يجب « التخلّص منهم دون إرهاب المحكمة بالاعتبارات الأخلاقية من أي نوع كانت ». وعلى مرأى ومسمع الرئيس « روينار » الذي ترأّس في تلك السنة، 1957، المحكمة الدائمة للقوات المسلّحة لمدينة الجزائر واشتهر بصرامته وصلابته، وتُمثّل الأحكام بالموت التي أصدرتها المحكمة تحت رئاسته الكارثية 26 % من مجموع الأحكام¹ !! ».

لقد قبل كل من جميلة بوحيرد وطالب عبد الرحمن وعبد الغني مرسالي استراتيجيّة القطيعة من أجل الدفاع وهم يتحملون مسؤوليتهم ويؤكدون انتماءهم كأعضاء نشطين في جبهة وجيش التحرير، يقرّون بأفعالهم وكفاحهم والهدف الذي ينشدونه ألا وهو تحرير الجزائر واستقلالها. مع أنّ لا أحد منهم كان يجهل بأنّ هذه الطريقة تؤدي مباشرة إلى الحكم بالإعدام وبالتالي إلى المقصلة. لقد أُحيلوا على المحكمة بعد ثلاثة أشهر فقط من اعتقالهم، بتهمة « تجمع أشرار، المساس بأمن الدولة، القتل، تخريب بنايات بالمتفجّرات »، اعتمادا على محاضر الشرطة، التي لا يجهل أحد أنّ الاعترافات التي تھويها قد استُخرجت تحت التعذيب. ثم إنّ لا أحد يجهل أنّ الهدف من هذه المحاكمات هو إظهار « للسكان المدنيين الأوروبيين الأبرياء » أن الدولة الفرنسية قد استخدمت جميع الوسائل لحمايتهم وللقضاء على « الفلاقة ». استخدمت جميع الوسائل، بما في ذلك أبشعها، الحكم بالإعدام متبوعا بالتنفيذ.

وأخيرا، ومثلهم جميعا، لا أحد منا يجهل أنه خلال تلك السّنة، 1957، تضاعف تنفيذ الإعدامات بشكل مخجل. يعرفون كل هذه الأمور، ومع ذلك يقبل كل من جميلة وعبد الرحمن وعبد الغني، اتّباع خطّة القطيعة من أجل الدفاع، والجهل بأنهم مكافحون يدفعهم إيمانهم بقضية استقلال بلدهم، لأنها

1. In *Une drôle de justice, les magistrats dans la guerre d'Algérie*, Sylvie Thevenot, Paris, la Découverte, coll. L'espace de l'Histoire, 2001.

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

قضية شرعية وعادلة من الناحية السياسية والتاريخية، وأنَّ النهاية السعيدة آتية لا محالة، عاجلاً أو آجلاً، ومهما كان ثمن التضحيات الجسام التي سيقدمها شعبهم. لم يكونوا « مهووسين » ولا « لأمسؤولين »، مثلما حاولت وصفهم بعض الصحافة.

كانوا مكافحين مقتنعين، بشجاعة باسلة وخرقة، ومثلنا جميعاً، لم يكونوا يتوهمون بـ « عدالة » فرنسا المطبقة في الجزائر، بما في ذلك ما يخصَّ إخواننا وأخواتنا من أصول أوروبية. كانت عدالة جائرة، حليفة القمع الكولونيالي. لقد تبعنا كلنا، بقلوب خاشعة، حزينة، مصير الأخ « فرنان إفتون » الذي اعتُقل في 14 نوفمبر 1956 لأنه وضع قنبلة لم تنفجر وبالتالي لم تُحدث أية خسارة، لا في العتاد ولا في الأرواح. فقد مثل أمام المحكمة في 24 نوفمبر 1956 وحُكم عليه بالإعدام في اليوم نفسه، أي بعد عشرة أيام من اعتقاله ! وحدهم النازيون حققوا مثل هذا « الإنجاز » فيما يسمَّى بالعدالة المتسرَّعة !!!

ولقد رُفض الطعن الذي تقدَّم به أمام المحكمة العسكرية العليا، كما رُفض طلب العفو الذي قُدِّم أمام المجلس الأعلى للقضاء الذي ترأسه نائب رئيس المجلس، وزير العدل، فرنسوا ميتران. لقد تمَّ تنفيذ حكم الإعدام في حقَّ فرنون إفتون يوم 11 فيفري 1957، أي ثلاثة أشهر بعد اعتقاله. قبل أيام من إعدامه، نُفِّذَ الإعدام في حقَّ تسعة إخوان، ولحق بهم أربعة إخوان يوم 13 فيفري، ومناضل آخر يوم 15 فيفري، وآخر يوم 19 فيفري وآخر يوم 21 فيفري. أبداً لم تقطع المقصلة مثل هذا العدد من الرؤوس كما حدث في شهر فيفري 1957. كان الشهر الثاني من « معركة الجزائر »، وكان ماسو يعتمد على « العدالة » الفرنسية وجلاديهما كي يزرعوا الموت والرعب وسط المناضلين الموقوفين، وعائلاتهم وكامل السكان الأهالي. بين فيفري

مُذْكَراتٌ مُجَاهِدَة من جيش التّحرير الوطنيّ منطقة الجزائر المستقلّة

وجويلية 1957، ارتفع عدد ضحايا ماسو والسلطة الفرنسية و « عدالتها » إلى عشرات الآلاف .

ينبغي اليوم تقدير شجاعة جميلة بوحيرد وطالب عبد الرحمن وعبد الغني مرسالي على ضوء ذلك الوضع الرهيب والوعي الحاد بالأخطار المحدّقة بهؤلاء المناضلين الأشاوس . وهذه الشجاعة عملة نادرة، تتطلب إيمانا لا يتزحزح بقضية شرعية وعادلة مثلما كانت قضيتنا في ذلك الوقت . افتّحت محاكمة إخواننا وأخواتنا يوم 11 جويلية 1957 بحضور قوي للصحافة المحلية والفرنسية، بفضول اكتشاف « النساء الإرهابيات، منفذات العمليات الإجرامية، المتمثلة في تفجير الملك بار والكافيتريا والكوك أردي » وكذا مصمّمي تلك القنابل . من بداية الجلسة، رفضت جميلة بوحيرد المشاركة في النقاش، مؤكّدة أنها توجد في مقعد المتّهمين اعتمادا على تصريحات شخص، يُظهر، على ما يبدو، معالم الجنون . ولم تتفوّه بكلمة خلال الأربعة أيام التي دام فيها النقاش، باستثناء اللحظة التي انسحب القضاة للمداولة . وهنا، عبّرت عن « إيمانها بكفاحها التحرري، ببلدها وشعبها وكذا في مستقبلها المستقل » .

خاطب عبد الرحمان طالب المحكمة كي تقرّ بأنه ضابط في جيش التحرير الوطني، وذكّر بأنّ « بلده في حرب ضد فرنسا » وعبّر عن طلب وحيد : « ضرورة امتثال ضابط الجيش الفرنسي الذي أوقفه عند أسفل جبال البليدة أمام المحكمة » . وقد حذر أنّه لن يشارك في النقاش إذا رفضت المحكمة طلبه . وهكذا كان الحال طبعاً .

أما عبد الغني مرسالي، فقد كشف عن وضعه كعضو في جيش التحرير الوطني وهي نتيجة نضاله الطويل في خدمة القضية الوطنية منذ صغر سنه، دون أن يفقد هدوءه، وبوجهه ابتسامة خافتة دائمة . هكذا، فقد عبّر المتّهمون الثلاثة بقوة وبوضوح تام أنهم ليسوا « بهائم متوحشة »، ولا « مجرمين »

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

مثلما تصفهم الصحافة، ولكنهم وطنيون، مكافحون يدافعون – بالوسائل البدائية التي بحوزتهم – عن حق شعبهم في العيش حرًا في بلده المستقل .

انتهى اليوم الأول من المحاكمة في جوٍّ مكهرَّب، خلقتها المناوشات التي واجهت محامي الدفاع بالقضاة. لم تفهم الصحافة المحلية شيئًا من خطة فرجاس في إحداث القطيعة مع الطرق السابقة، مجدّدة ومربكة في آن، وردّت هذه المناوشات إلى « قلة تجربة المحامين الباريسيين الشباب ! ». صحيح أن جاك فرجاس يطبّق لأول مرة نظريته في « محاكمات القطيعة » التي ستجعل منه لاحقًا واحدًا من عمالقة الدفاع على المستوى العالمي . ومع ذلك، لم تتوانَ هذه الصحافة من التأكيد على الهدوء والثقة بالنفس التي يتمتع بهما المتهمون الرئيسيون، وبالأخص جميلة بوحيرد . وقد نَبّهت هذه التغطية الإعلامية السكان الأوروبيين المدنيين الذين كانوا إلى ذلك اليوم لا يهتمون بما يجري في المحاكم، مطمئنين من التزام « العدالة » في الدفاع عنهم وعن الجيش .

ولكن في اليوم الثاني تدفّق حشد من الأوروبيين، نساءً ورجالًا، يتزاحمون في القاعة غير الواسعة للمحكمة العسكرية في شارع « كافنيك » . لم يُخفِ هؤلاء فضولهم وكانوا يحدّقون في وجوه المُتَّهَمين وهم يشيرون إليهم بأصابعهم . وكانت دهشتهم في ذروتها حينما اكتشفوا فتاتين أنيقتين جميلتين، وكانت واحدة منهما تُظهر سكينه كبرى، تضحك بعفوية للملاحظات التي يعبر عنها هذا أو ذاك من المتهمين الآخرين . اكتشف الأوروبيون أنّ الفتاتين لا تطابقان تلك الصور الوهمية التي يغذّونها حول نساء الأهالي، وأنّ « الفاطمات » قد تحوّلن بقدرة قادر إلى « جميلات »، إلى فتيات يجمعن بين القناعات والالتزام الثوري، بين الثقة بالنفس والجمال . فدفعوا عائلات المتهمين إلى عمق القاعة، وهم يتوعدونها بالتهديدات والتعليقات التحريضية . ولم تجب العائلات على التهجّم المفضوح، بل واصلت وفي هدوء مهيب إرسال إشارات

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

التشجيع لأبنائها وبلغتنا، لغة العيون مرفقة بحركات مختلصة، لتنقل إليهم الأخبار المستجدة والمهمة. حينما أعلنت هيئة المحكمة استئناف الأشغال، واصلت جماعة المحامين الباريسيين - عبر نقاش حول الاجراءات - الكشف للرأي العام عن الطبيعة الحقيقية، المفضوحة من الجور، لـ « العدالة » المطبّقة على المكافحين الجزائريين. وكانت النتيجة أنّ جو المحكمة قد تحوّل إلى جو « تمرّدي » حسب ألفاظ جريدة نهار الغد .

بالفعل، فرض الجمهور الأوروبي نفسه داخل القاعة كطرف في المحاكمة، وكانوا يجيبون على جرأة المحامين الشباب بالصياح والشتائم والتلفظ بالتهديدات ضد هيئة الدفاع والمتهمين دون أن يتدخّل رئيس المحكمة لاستتباب الهدوء. فكانت الشتائم الأكثر عنصرية والأكثر تهديدا تتوجّه أولا إلى إخواننا وأخواتنا المتهمين، ولكن أيضا إلى المحامي الشاب جاك فرجاس. وفي لحظة من لحظات المحاكمة، حينما تعالت أصوات الفرنسيين المندفعين، يتقيأون حقدهم ويشوشون على كل تدخل من مرافعاته وهم يصفونه بـ « الصيني الصغير »، وأوصاف قبيحة أخرى، فردّ المحامي بحزم : « سيّدي الرئيس، هل تسمح لي بتذكيرهم أنّه حينما كان أجدادي يشيّدون القصور، كان ذووهم يأكلون البلوط ؟ » .

ولم يتحرّك الرئيس « روينار » كي يفرض النظام والهدوء داخل قاعة المحكمة. وفي مواجهة جمهور أوروبي بلغ لديه الحقد والهيجان ذروتها العنصرية الاحتمال، أعلن المحامون، جاك فرجاس وموتات ووثيرا، الانسحاب من القاعة، مؤكّدين أنّ السكينة المطلوبة لجريان محاكمة جيّدة غير متوفرة، ولكنهم لا يتخلّون عن الدفاع عن موكلتهم. أما هيئة المحكمة، فقرّرت مواصلة الجلسة وعيّنت فورا محامين آخرين كي يتولوا الدفاع عن المتهمين الثلاثة. وفي غياب الأستاذ فرجاس وجماعته، طالب محافظ الحكومة، بلا مفاجأة، بتسليط الحكم بالإعدام على جميلة بوحيرد وعبد الرحمن طالب وعبد الغني

مرسالي وعبد الرحمن حميناد وجميلة بوعزة. كما طالب بأحكام بالأشغال الشاقة مدى الحياة وأحكام بعشرين سنة سجنًا ضد أربعة متهمين آخرين. كما طالبت المحكمة الإعدام غيابيا في حق كل من ياسف سعدي وعمار علي وزهرة ظريف وحسبة بن بوعلي ومحمود بوحميدي والطفل عمر ياسف.

استقبل إخواننا وأخوتنا مرافعة الحق العام برباطة جأش، وبرغم ضربات رئيس الجلسة بمطرقته الخشبية، مال عبد الغني مرسالي، الجالس في الصف الثاني، نحو جميلة بوحيرد ودحمان كي يهمس لهما شيئا في الأذن، ما جعلهم يتسمون ويضمون الأيدي الثلاثة إلى بعضها البعض. وقد فهمت عائلاتهم تلك الحركة : موحدون في الحياة والكفاح، موحدون في الموت والتضحية. ستبدأ مرافعات الدفاع، وكل مرة حينما يحوم الموت داخل قاعة الجلسات، يخيم عليها صمت ثقيل وكئيب، يجمد الهواء. تسلل المحامي « موتات » ليجلس إلى جانب زملائه المكلفين لتعويضهم ليواجه القضية. رافع دفاعا عن عبد الغني مرسالي ثم غادر القاعة، فأخذ الكلمة بعده المحامي « لايني »، الذي كلّفته المحكمة للدفاع عن جميلة بوحيرد. كان نزيها، فبدأ مرافعته قائلا : « الأمر الحساس في وضعيتي أنني لم أبادل مع هذه المرأة التي سأرافع في حقها لا نظرة ولا حركة ولا موافقة ولا استهجان. فإننا غرباء عن بعضنا البعض ».

وكذلك فعل المحامي « حدّو » المكلف بالدفاع عن عبد الرحمن طالب، والذي ذكر أنه « سيرافع دون أن يفتح ملف موكله » وأنه « لم يتبادل معه ولو كلمة واحدة ». بقي دحمان وغاني وجميلة هادئين. ها هم يواصلون نضالهم في ميدان جديد بالتزام الصمت واللامبالاة والسكينة الظاهرة على قسمات وجوههم، برغم العنف المستشري لدى جميع أطراف تلك المحاكمة، وبرغم صراخ الجمهور الأوروبي الذي ينادي بإعدامهم. تتواصل الحرب في قاعة

مُذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الجلسات، ولم تتوان جريدة « لوفيغارو » من التأكيد في تغطيتها للمحاكمة بالكتابة أنّ القضاة « يحاكمون خصما ».

وقبل نهاية النقاش، عاد المحاميان فرجاس وثوثيرا إلى القاعة وهما يعلنان أنهما يريدان، قبل بداية مرافعتهما، أن تتأكد هيئة المحكمة من بعض الأحداث المهمة في إظهار الحقيقة.

وكان ردّ القاضي رفض طلب الدفاع. وهنا انتفض جمهور الأوروبيين، بوقاحة، يصرخون، يشتمون، ويهدّدون، ويزدحمون كما لو أنهم سيتهجمون على المحامين جسديا هنا، أمام رئيس المحكمة المتواطئ معهم برفضه إسكاتهم وإعادة الهدوء إلى القاعة. وأمام هيجان هذا الكم الهائل من الحقد والعنف، صرخ جاك فرجاس : « سيّدي الرئيس، هل نحن داخل محكمة عسكرية أم داخل تجمع للقتلة ؟ ». ما اعتبرته هيئة القضاة إهانة لها، فأصدرت إنذارا في حقه. وقد زاد هذا القرار من الهيجان الخطير للجمهور الأوروبي المتعطّش للدم والمستقر في هذيان فاضح للعنف القاتل. عندئذ، استنتج المحاميان فرجاس وثوثيرا الملاحظة الحتمية المتمثلة في استحالة مواصلة النقاش، وبالتالي استحالة مواصلة الدفاع عن موكليهما، فأعلنا انسحابهما نهائيا من المحاكمة، وقاما بعد ذلك بالتنديد بكل قوّتهما بـ « الطابع المفضوح لهذه العدالة التي لا تهمها قوانين الدفاع »، وإنما تبحث فقط عن « إضفاء الشرعية على الإعدامات الضرورية سياسيا ». وقبل أن ينزع فستان المحاماة، أذّر فرجاس هيئة القضاة : « ستبدأ المحاكمة الآن، سننقلها إلى أمكنة أخرى ».

وبعد ذلك، تحتم على قوات الأمن أن تتدخل بين حشد الأقدام السود المهيجين والمحامين كي يتمكن هؤلاء من مغادرة قاعة المحكمة الدائمة للقوات المسلحة. وهذا لم يمنع هيئة المحكمة من مواصلة محاكمتهم المفضوحة حيث كان جمهور الأقدام السود يتصرفون كطرف للضغط على القرارات التي

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

سُتخذ في حق المتهمين، وهم ما انفكوا يتلفظون بالشتائم وبالتهديدات ضد المتهمين، مرفقين كلامهم بحركات الأيدي كوضع الأصبع على الرقبة لتقليد فعل الذبح. وقد خيم صمت رصاصي حينما أخذ محافظ الحكومة الكلمة لإعلان مرافعته القاسية.

ثم توجه الرئيس إلى المتهمين، كل واحد باسمه، ليطلب منهم إن كانوا يريدون قول شيء في صالح دفاعهم قبل أن تنسحب هيئة المحكمة للمداولة. أعطى الكلمة لجميلة بوحيرد التي وقفت وقالت بهدوء: « جريمتي الوحيدة هي الحب الذي أكنّه لبلدي. نعم أحب بلدي وأتمنى أن أراه يتمتع بالحرية. ولا شيء يمنع من أن يصبح بلدي حراً، إن شاء الله ! ».

بدأ الأقدام السود يشتمونها بشتائم بذیعة، والآخرون يصرخون: « الموت ! الموت ! »، ويوهّمها الآخرون بأنهم سيقفون فوق المقاعد والحواجر الخشبية لينفذوا فيها حكم الإعدام بأنفسهم. وهنا، أخيراً، تدخل رئيس المحكمة مهّداً بالاستعانة بالقوات العمومية لاسترجاع الهدوء إلى القاعة. أما عائلات المتهمين، فكانت جالسة، إزاء بعضها البعض، أبصارها باتجاه أبنائها المحبوسين، في محاولة منها لتنقل إليهم القوة والطاقة اللازمة ليوصلوا كفاحهم. ثم نادى الرئيس على دحمان: « المتهم طالب عبد الرحمن، هل لديك أقوال تضيفها لهيئة الدفاع ؟ ». خيم الصمت من جديد.

وقف دحمان ببطء، مسح القاعة ببصره – ربما تعرّف على أمّه، لالة يامينة –، وبعد ذلك نظر إلى الرئيس وقال: « سيدي الرئيس، أنا ضابط في جيش التحرير الوطني، ونحن في حرب ضد فرنسا. فمهما كان الحكم الذي ستصدرونه في حقي، وإن كان الحكم بالإعدام، فلن يغيّر في الأمر شيئاً. ستكون الجزائر حرة ومستقلة مهما طال الزمان ». خيم صمت ثقيل على القاعة. الأقدام السود أنفسهم بدوا مصدومين وفقدوا أصواتهم. ثم جاء دور

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

غاني ليناديهِ الرئيس : « المتهم مرسالي عبد الغني ، هل لديك أقوال تضيفها لهيأة الدفاع ؟ » .

وقف غاني مهيبا بقامته الطويلة وبشرته الشقراء وعينيه الشفافتين ، نظر باتجاه العائلات ، ابتسم لها بملء شفثيه ، ثم دار نحو الرئيس وقال ، هو السَّكوت في العادة : « إنَّ شعبي في حرب ضد فرنسا . وبصفتي كجزائري ، فلم أقم إلا بواجبي » .

أخيرا ، حتى جميلة بوعرّة ، التي عيّنت لها عائلتها محاميا خاصا ، رافع « بجنون » موكلته ، قالت : « ما قمت به كان حبا في وطني » . حينما انسحبت هيأة المحكمة للمداولة ، غادر الأقدام السود المكان في صمت . وحدها عائلات المتهمين بقيت داخل القاعة الكئيبة ، غير المضيفة بالقدر الكافي ، النساء في جهة ، والرجال في جهة أخرى ، ينتظرون الحكم النهائي . كانت هناك أُختي ، خالتي باية ، لالة يامينة ، لالة ربيعة ، أمّ غاني . كنّ يتساندن ويتآزرن ، وتحاول كل واحدة أن تنفث قدر ما استطاعت القوة والشجاعة لأبنائهنّ كي يواجهوا القدر المحتوم . من حين لآخر ، كانت واحدة منهن تكسّر الصمت لتعلّق بصوت خفيض على بُغض محافظ الحكومة ، وحقد وعنف الأقدام السود ، أو لتهمس للأخريات مسار وخصال ابنها المتّهم . كانت لالة يامينة تقول كم هي فخورة بابنها دحمان الذي سمح له ذكاؤه الخارق وإرادته الفولاذية بالنجاح في دراسته دون مساعدة أحد . وقد ختمت جميعهن ، في خشوع ودعاء ، بأنّ أبنائهن هم الآن « تحت الرعاية الإلهية » ، دون التوقف عن الدعاء بأنّ يمنح الله لهنّ جميعا قوة الصبر لتلقي الحكم في هدوء وكرامة . حينما رنّ جرس دخول القضاة إلى القاعة ، ارتجفت أوصالهن وشحبت وجوههن . ومثلما حكّت لي أُختي فيما بعد « رغم أننا كنا نعرف مسبقا طبيعة الأحكام ، إلا أننا لا نتعوّد أبدا على أنّ مآل أبنائنا هو الموت المحتوم » .

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

دخل أعضاء هيئة المحكمة، بقسمات وجوههم الوقورة وبذلهم العسكرية الشاهرة لمختلف النياشين، والتحقوا بأماكنهم، وجذبوا الكراسي للجلوس. ثم وبمطرقة الخشبية، ضرب الرئيس ضربة حادة على المكتب وأعلن افتتاح الجلسة. وبعد ذلك، أخذ الكلمة لفترة طويلة، أعطى أرقاما، ذكر أسماء المتهمين الواحد بعد الآخر. ولكل واحد منهم، قرأ الأسئلة الخمسة التي طرحتها المحكمة، وأجابت عنها بـ « نعم ». كانت القراءة طويلة ومملة، داخل قاعة يخيم عليها صمت مطبق، يحوم داخلها الموت في ترقب كئيب. أخيرا، توجه الرئيس نحو المتهمين وطلب من كل واحد منهم أن يقف.

« المتهمة جميلة بوحيرد، وقوف ! ». وقفت جميلة، مستقيمة كجذع نخلة، هادئة، ساكنة وجميلة مثل الحرية. بدأ الرئيس بقراءة الأسئلة الخمسة التي طرحتها المحكمة وأجابت عنها بـ « نعم ». ثم أعلن الحكم الصادر في حقها : الإعدام. فجلست المتهمة بوحيرد بهدوء، دون اهتزاز ولا حراك.

وبعد ذلك، جاء دور جميلة بوعرّة، دحمان، ثم غاني. تلقوا الحكم بالإعدام دون إظهار أي شعور، تقريبا في لامبالاة. فواصل الرئيس قراءة حكمه الطويل، يؤكد على الأحكام التي صدرت في حق المتهمين.

لقد نزلت الأحكام بالموت على إخواننا وأخواتنا كشفرة موسى حادة داخل قاعة مثقلة بصمت كئيب كما لو أنها تسخر من تلك العائلات العاجزة أمام هذه الآلة القضائية الكولونيالية الجائرة والقاسية، القاصمة والقاتلة حتما. وخلال كامل خطاب رئيس المحكمة، لجأت العائلات إلى الدعاء والخشوع، ليس من باب وهم ما حول مصير أبنائها، ولكن بهدف استجماع كامل القوة والطاقة والصبر على مواجهة الحكم المرعوب والمعلوم مسبقا بكرامة وعزّة نفس.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

هكذا عندما نزلت الأحكام بالموت، أحاطت خالتي باية بذراعها لالة يامينة، وضمت أختي إلى صدرها لالة ربيعة. في هدوء وحشمة وعزّة نفس، تقاسمن آلامهن الموحجة، وتآزرن وتشجّعن. في حين كانت النساء غارقات في أوجاعهن، في وضعية يأس وتضامن وخشوع، اهتزّت أجسادهن تحت وقع صراخ رئيس المحكمة : « المتهم بوحيد ! توقف عن الضحك ! ليس الوقت ولا المكان للضحك ! ». فنظرن إلى زاوية جلوس المتهمين ليشاهدوا جميلة منحنية على دحمان وتحيط غاني بذراع. كان ثلاثتهم يضحكون ! انبثق هدير صام من وسط صفوف الأقدام السود وتعالّت الشتائم الحاقدة باتجاه جميلة. يكون الرئيس « روينار » قد أحسّ بالخلج من هذه العنصرية البهيمية والبذاءة المتوحشة لهؤلاء الفرنسيين الذين من المفروض أنهم جاءوا لـ « تمديننا »، لأنه مباشرة رفع صوته للمطالبة بالصمت مهّداً بإفراغ القاعة، ثم واصل قراءة أحكامه المقبرية، بوتيرة صوته الرتيب. ولكن لماذا غرق المتهمون الثلاثة في الضحك، وفي ذلك الوقت العصيب ؟ عرفتُ السبب فيما بعد، عندما التقيت بأختي في الكفاح، داخل السجن.

في انتظار ذلك، كنا في 14 جويلية 1957 (ذكرى تاريخ معركة « لا باستي » لوضع حدّ للملكية المطلقة في فرنسا !)، عند المساء، وأختي التي اعتبرها أفضل محقّق على وجه الأرض، تروي لنا وقائع تفصيل جلسة اليوم الأخير ونهاية المحاكمة، مثلما كانت تفعل كل مساء منذ 11 جويلية. سكّنت لفترة وجيزة. لم تكن إحدانا قادرة على استئناف المحادثة لفرط الحزن الذي انتابنا وكنا على قاب قوسين أو أدنى من الإجهاش بالبكاء. تجنّبنا النظر إلى بعضنا البعض، مُنشغلات بشرب جرعات ماء كي نبلع معها دموعنا وتسريح حلوقنا الجافة. وقف عليّ وصعد إلى السطح، ربّما ليطلق العنان هو أيضا لآلامه العميقة. كنت متأكّدة أنّه عاش في أعماقه اعتقال جميلة كنتيجة هفوة

ينسبها إلى نفسه، ناسيا أنه لم يكن إلى جانبنا خلال تلك الصبيحة المشؤومة التي جُرحت فيها أختنا واعتُقلت .

يا له من أخ لم تلده أمي، منَحته لنا حياة الكفاح، والذي سيخطفه منّا الموت، المرادف عندنا لفرنسا الكولونيالية، بعد أشهر قليلة فقط، بفظاظة، وبشكل نهائي ! أما فيما يخصني، فقد سحقتني الصدمة، ولم أصدق بعد بأن جميلة وغاني ودحمان سيموتون. في ذلك المساء، ويا للغرابة، كانت لفظة « الموت » فارغة، بلا لحمة حقيقية. كنت أنكر الواقع وأرفضه، ورغم أنني عشت فقدان كثير من الإخوان، وعلى دراية تامة بما تقدر على فعله فرنسا الاستعمارية في مجالات الإجرام المتعددة والمتنوعة في حق شعبنا ومناضليها. هل كانت نتيجة ذلك الشعور ما اقترحه المحامي الشاب جاك فرجاس من استراتيجية للدفاع، استراتيجية القطيعة، الجديدة وغير المسبوق إليها، والتي تُطبق لأول مرة ؟ أظن أنّ الأمر كذلك. وكانت أول نتيجة لتلك الاستراتيجية، وخلافا لجميع المحاكمات السابقة التي واجهتنا بالسلطة الفرنسية - محاكمات متسرّعة لا تدوم أكثر من نصف يوم -، فقد دامت محاكمة جميلة أربعة أيام. إنها سابقة لم تحدث أبداً ! النتيجة الثانية هي التغطية الإعلامية المكثفة. كنت متعودّة على قراءة كل ما تنشره الصحافة المحلية والفرنسية، فاندعشت حقاً، وابتهجت، بالكم الهائل من التغطيات الصحفية. لقد نجح إخواننا وأخواتنا، برغم وضد كل العوائق، على نقل صورة لحرب تحررية وطنية يخوضها شعب ضد قوة استعمارية أجنبية، ولمكافحين أشاوس، بأهداف عادلة وشرعية، تسكنهم عزيمة لا تقهر وقوة إرادة الانتصار. فقد أبعادنا تلك التغطيات عما تعودناه من ألفاظ نابية كـ « البهائم » و « الإرهابيين » و « الفلافة »، التي ما فتئت ترددها بعض الصحف. وحقاً، لم يكن ممكناً لهذه الصورة الجديدة أن تظهر إلا بفضل استراتيجية القطيعة التي بادر إلى تطبيقها المحامي الشاب جاك فرجاس. أخذت أختي الكلمة من

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

جديد لتخبرنا بأنّ صباح أمس، في الوقت الذي كانت المحاكمة جارية على قدم وساق، بعث فرجاس شابا ليقودهما، هي وخالتي باية، خارج المحكمة. فطلب منهما أن تثقا فيه، وطمأنهما أنّ جميلة وافقت على استراتيجية الدفاع. ثمّ التفت إلى خالتي باية، وضع يده على كتفها، وقال: « سيحكم عليها بالإعدام، تعرفين ذلك؟ ولكن، إن شاء الله، لن يحدث لها شيء، ألتزم بذلك ». أجابت خالتي باية: « إنها مثل بقية الإخوان والأخوات. لن يحدث لها إلا ما كتبه الله لها. وأنت يا ابني، أكرمك الله، لأنك تصرّفت كمجاهد ». أقسمت أختي أنّها رأت عينيّ المحامي فرجاس تطفحان دموعا في لحظة افتراقهم.

طرحت حسيبة السؤال الذي كان يحرق شفثيها: « والأخوات؟ والإخوان؟ كيف تصرّفوا لحظة مغادرتهم القاعة؟ » أخبرتنا أنّ عبد الرحمن حميناد، الذي طالب المدعي العام بحكم الإعدام في حقّه، حُكم عليه في الأخير بالسجن المؤبد والأشغال الشاقة. عند سماعه للحكم، أخفى وجهه بين يديه. « هل كان يضحك أم يبكي؟ لا أعرف », قالت لنا أختي.

بعد سنة من ذلك التاريخ، في حين كنا معتقلتين في سجن « بو », روت لي جميلة بأنّ أخانا عبد الرحمن حميناد غطى وجهه مصدوما لأنّ جميلة حُكم عليها بالإعدام فيما نجا هو بجلده. كان يرى بأنّه أولى بالموت من جميلة. كما شرحت لي سبب ضحككتهم الجنونية التي أثارت غضب الأقدام السود ورئيس المحكمة. لقد لاحظت أنّ هذا الأخير قد طرح للمحكمة خمسة أسئلة تتعلق بحالتها، وثلاثة لدحمان، وسؤالين فقط لغاني. وعند كل سؤال، يقول أنّ المحكمة أجابت بـ « نعم », فتحكم عليه المحكمة بالإعدام. استنتجت، كي تخفف من وطأة المأساة، أنّه حُكم عليها بالإعدام خمس مرات، ودحمان ثلاث مرات، وغاني مرتين. عندئذ، مالت نحو دحمان وغاني وشرحت لهما بأنّ

العدوّ كرسها مجاهدة أكثر منهما، وبتلك الصفة، يجب عليهما الطاعة لها والاحترام الكاملين. وفي نفس الوقت، سألتها إن كانت ستُقطّع لحظة الإعدام إلى عدد يساوي عدد الأحكام المنطوقة في حقها. فتضاعف ضحكهم عندما شرح لهم دحمان بأنّ الأخ حميناد يبكي لأنّه لم يُحكم عليه إلا بالأشغال الشاقة على مدى الحياة، وليس بالموت مثلهم. أضافت جميلة: « أتصوّر أن محافظ الحكومة، المستقيم قرب مكتبه، والذي كان ينظر إلينا، تكون قناعاته بأننا بهائم، ولسنا بشرا، « بهائم متوحشة » مثلما يحلو له تكرارها، قد تدعّمت فعلا. يجب تدعيم الخرافة ! ». وبعد صمت وجيز، واصلت جميلة بصوتها الذي كادت تخنقه الدموع الطافحة في عينيها: « لقد غادرنا القاعة ونحن نشهر في وجه الأقدام السود الحاقدين إشارة الانتصار، وقبل أن نفرق قَبَلنا بعضنا بعضا نحن الثلاثة، لأننا كنا مقتنعين بأنه لقاؤنا الأخير، وأننا لن نلتقي مرة أخرى إلا في الآخرة ». أضافت وهي تكاد تجهش بالبكاء: « وآخر صورة أحتفظ بها لدحمان، هي ابتسامته حينما جرّه الحراس، فالتفت إليّ في حركة وداع أخيرة بيده. كان حزين الوجه. إنها النهاية. ثم نُقلنا، جميلة بوعزة وأنا، مقيدتي الأيدي والأقدام، داخل شاحنة « الفورغون » الصغيرة، ما سمح لنا برؤية شوارع « الدزاير » تسرح أمام أعيننا، عبر الزجاج والشبّاك الحديدي الذي يحميه ». أضافت جميلة: « أحتفظ بذكرى تلك الشاحنة وهي تتدحرج ببطء، كما لو أنهم أرادوا لنا أن نقوم بدورة وداع لشوارع الجزائر. ولم تبد لي مدينتي أجمل وألمع ولا البحر أزرق يتلأأ في بهائه، كما في ذلك اليوم ».

سلكت شاحنة « الفورغون » شارع واجهة البحر واتجهت نحو ساحة الحكومة للالتحاق بسجن بربروس بباب جديد، عبر شارعِي « فُردان » و « مارينغو » على بعد أمتار قليلة من ضريح ومسجد سيدي عبد الرحمن.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

كنت أنظر إلى قَبب المساجد البيضاء، المحاذية للسلالم المؤدية إلى السَّمَكة، تتقدّم نحوي. تمكّن لي أن أرى، في تلك الساعة التي تكون فيها ساحة الحكومة فارغة، الزقاق المؤدي إلى جامع كتشاوة والقصبة بتلك الحواجز الأمنية التي تعوق السير. في تلك اللحظات، اعتراني شوق قبض قلبي وجعل الدموع تطفح من عيني وأنا أرى جامع ليهود وشارعي راندون ومارينغو بألف رائحة طيبة، وجميع أزقة مدينتي العتيقة، التي تحييها وتنشطها حشود من النساء والرجال والأطفال، يكررون حركات أجيال كاملة قبلهم وينقلون أقوالهم، يتحدثون بها الزمان والعدو. تسرح القصبة أمام بصري في تلك الأمسية وتلك الشاحنة التي تقودني إلى السجن، وعلى كنتفي حكم قضائي ثقیل. أبداً، لم أرَ قصبتي هادئة، معتزة بنفسها وماضيها، وواثقة من مستقبلها، كذلك اليوم. وقد دعم ذلك المشهد ما كنت أحمله بداخلي عنها، وهي أنها ستنال حررتها، عاجلاً أو آجلاً. كنت أنظر إلى مدينتي وأقول لها: « نعم، تستحقين أن نضحى بحياتنا من أجلك ». وكنت أقول أيضاً: « املئي عينيكَ وقلبك بهذا الجمال وهذه العظمة. هكذا، وقبل المضي نحو المقصلة، في اللحظة التي ستضعين رأسك على قاعدتها، ستستحضرين هذه الصور وهذه الأنوار وهذا الجمال، وستأخذينها داخل قلبك ورأسك ». سكتت جميلة لمدة طويلة. أعرف أننا كنا نفكر معاً، هي وأنا، في أخينا دحمان، طفل القصبة الآخر، الذي نُفذ فيه حكم الإعدام في أبريل 1958. هل تمكّن من ملء عينيهِ وقلبه ورأسه بجمال مدينته خلال سفره الأخير باتجاه سجن بربروس وحي المحكوم عليهم بالإعدام، كي يُمنح ذات صباح، للمقصلة ولجلادي فرنسا كي يُقطع رأسه، ويُمنح قربانا لحرية واستقلال بلده ومدينته اللتين أحبهما إلى حد التضحية بأعز ما يملك، ألا وهي حياته ؟

ثم وبصوت خفيض، واصلت جميلة : « حينما دخل « الفورغون » ساحة سجن بَرَبُوس، نقلنا الحراس والحارسات إلى ساحة جناح النساء. وهنا تركونا تحت مسؤولية الحارسات. فجأة، وفي صمت تلك الليلة المقمرة، سقط صوت رجل من السماء ونادى باسمي. رفعت رأسي أبحث عن مصدر الصوت وفهمت : إنّ الإخوة الذين تابعوا المحاكمة والذين كانت نوافذهم تطل على تلك الساحة الصغيرة، انتظروا وصولنا. أجبتُ وأنا أغني بأعلى صوتي : « تضحيتنا للوطن خير من الحياة ». وفي هدوء ليلة جويلية الدافئة، ارتفع نشيدنا « من جبالنا طلع صوت الأحرار ينادينا للاستقلال » تحمله آلاف الأصوات، أصوات المساجين أولاً، ثم، وبعد ثواني قليلة، رجع الصدى من باب جديد، وبعد ذلك من كامل القصبة. ولا يمكن لحواجز المظليين بأشواكها الحديدية المسننة أن توقف ذلك الصوت الجماعي الراعد وتلك الزغاريد الساقطة كشلال من النجوم، يرعد الأوصال ويثلج الصدر، ويحيي الأمل في مستقبل جزائر حرة ومستقلة قريباً إن شاء الله. وبعد ذلك خيم الصمت، وقادتنا السيّدة يوركا، الحارسة المداومة، إلى زنزانة تقع في عمق القاعة الكبرى التي تفتتح على المراقد الأربعة التي تحوي عشرات الأخوات السجينات. كنّ ينتظرننا، فاستقبلننا بحفل مدوّ من الزغاريد، أجمل زغاريد سمعتها في حياتي. أرادت كلُّ أخت أن تمسنا، أن تقبلنا عبر قضبان الأبواب الحديدية. كنا، جميلة بوعزّة وأنا، نركض من باب مرقد إلى آخر، نشدّ الأيدي الممتدة عبر القضبان. كنا نبكي ونضحك معاً. بفضل تلك الأخوات، فقد الموت مظهره الكئيب : أصبح تلك اللُّحمة التي سمحت لشعبنا بأن يواجه المحتل بمقاومة شرسة وإرادة في الحرية أصلب من جميع قضبان سجون العالم » .

هذه هي القصة التي روتها لي جميلة عن أمسياتها الأولى بعد الحكم عليها بالإعدام، بينما كنّا سجينات في سجن « بو » في خريف 1958. ولكننا، نحن

مُذْكَراتُ مُجَاهِدَةٍ مِنْ جَيْشِ التَّحْرِيرِ الْوِطْنِيِّ مِنْطَقَةُ الْجَزَائِرِ الْمُسْتَقْلَةِ

لا نزال في أمسية 14 جويلية 1957 وأخيتي تجيب على حسيبة التي أرادت أن تعرف كيف غادر إخواننا وأخواتنا القاعة بعد نهاية محاكمتهم المشؤومة . حينما أعلن الرئيس « روينار » اختتام الجلسة وأمر الحراس بأخذ المساجين ، غادر جمهور الأقدام السود القاعة في صمت مريب ، في الوقت الذي كان إخواننا وأخواتنا يشهرون إشارة الانتصار بأيديهم . التفت المحكومون نحو عائلاتهم ، وبعثوا لها التحيات الحارات والقبل والابتسامات لتشجيعها . صاحت جميلة : « سلّموا على جميع أفراد العائلة ! » ، وبعد ذلك أضافت بصوت مرتفع : « تحيا الجزائر ! » .

• لهم « ماريانهم » ، ولنا « جميلتنا »

كانت لديّ كثير من الأسئلة أردت طرحها على أخيتي ، ولكنني امتنعت ، لأنّ الوقت كان متأخرا فقررت قضاء الليل معنا . كانت متعبة لأنها قضت أربعة أيام وأربعة ليالٍ تكتشف عالما كان مجهولا لديها قبل ذلك ، عالم « العدالة » الفرنسية وجهاز القمع الكولونيالي المتمثل في جهاز القضاء ، المسؤول عن نفي وموت وسجن عدد لا يحصى من المناضلين والمكافحين .

في الغد ، استيقظت مبكرا للالتحاق بالإخوة الذين استيقظوا قبلي وسبقوني إلى قراءة الصحف . انقضت على جميع الجرائد ، وأنا أحتسي قهوتي ذات النكهة القوية ، ففرقتها إلى قسمين : اليوميات الجزائرية خصصت صفحاتها الأولى كاملة لـ « محاكمة القنابل » ، وأعلنت البعض وبحروف بارزة أحكام الموت الأربعة ؛ بينما ركزت الأخرى على « حُكم إعدام الجميلتين » . ولكن الجرائد جميعها تهجّمت على المحاميين فرجاس وقوثيرا .

وخلافا للجرائد المحلية ، ركزت الجرائد الفرنسية على طابع المحاكمة غير المسبوق ، خاصة بحضور الفتاتين المتهمتين بـ « أعمال إرهابية » ، واستراتيجية

الدفاع التي أنشأها المحامي فرجاس . كتبت جريدة « لوموند » بأن هذه المحاكمة هي « أهم قضية عرفتھا المحكمة الدائمة للقوات المسلحة لمدينة الجزائر » .

زيادة إلى أن الصحافة الباريسية اكتشفت لأول مرة وجوه فتيات جزائريات مجنّدات في الكفاح المسلّح داخل المدينة باعتبارهن واضعات القنابل، ولكنها ذهلت أيضا بالعنف الذي واجه المحامي فرجاس وزملاءه بهيئة المحكمة وبجمهور الأقدام السود الحاقدين، المنادين بالثأر . بالفعل، جاء هذا الجمهور بأعداد كبيرة ليرى صورة « الفاطمة التي تحوّلت إلى إرهابية »، فارتبك هذا الجمهور باكتشاف، في جميلة بوحيرد، امرأة جميلة وهادئة – تتحمّل كلية وبسكينة حركاتها وكفاحها وانتمائها لجهة وجيش التحرير – بثقة نفس وعزم لا نظير لهما . الشيء الذي جعل الأقدام السود ينتفضون ويعبرون أكثر عن عنصريتهم البغيضة، ما جعل جريدة « لوموند » تكتب : « كانت تُظهر قوّة معنوية لا حدّ لها تجعل منها روح الإرهاب ! » .

إنها بداية أسطورتها . كانت جميلة (الوجه والجسد والاسم) وبوجه حق، أيقونة الشعوب المكافحة من أجل تحرّرها من نير الاستعمار عبر العالم، والمادة / الرمز للحقد الدفين لجميع أصحاب الأنظمة الاستعمارية عموما و« الجزائر الفرنسية » خصوصا .

ابتداءً من ذلك التاريخ، أصبح للجزائر المكافحة من أجل استقلالها اسم ووجه : جميلة !

قلت لحسيبة التي التحقت بنا : « يا له من فأل جميل ورائع » . أجابت : « ما هذا إلا إحقاق الحق لصالح نساء بلدنا، لتضحياتهن وتجنّدهن الصادق » . وبعد مناقشة طويلة، اتفقنا على أن هذه المحاكمة منعطف حاسم في كفاحنا، ذلك أن جميلة قبلت استراتيجية الدفاع التي اقترحها فرجاس، بشجاعة ووعي سياسي كبيرين . وفي نفس الوقت، توقعنا أن يلجأ ماسو، ومعه السلطة

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الفرنسية، إلى مضاعفة شراستهم، ليس فقط ضدنا، بل وأيضا ضد المحامين الباريسيين .

وقد سجّلت الصحافة الباريسية أنّ عنف الأحداث بين الدفاع من جهة وبين القضاة والأقدام السود من جهة أخرى صعب من مواصلة جلسة المحاكمة، بل وجعلها مستحيلة . كما أوضحت أنّ أولئك الماثلين للمحاكمة لم يُعاملوا كمتقاضين، وإنما « كخصوم »، كأعداء يجب القضاء عليهم . في ظهيرة اليوم التالي من المحاكمة، وصل سي مراد وأختي، وقد أطلعتنا هذه الأخيرة عن أخبار لقائها برفقة خالتي باية بالحامي فرجاس قبل عودته إلى باريس . شرح لهما أن « المحاكمة الحقيقية ستبدأ الآن » وأنه سيعلن للعالم أجمع جميع الجرائم والاختراقات القانونية التي قامت بها فرنسا في الجزائر .

وقد طمأن خالتي باية حول مصير ابنتها، متعهداً بأنّه سيقوم بالمستحيل كي لا ينقذ فيها حكم الإعدام . ولكن خالتي باية، المؤمنة بالله، ببلدها وبعдалة وشرعية كفاح ابنتها، كرّرت له ما سبق أن قالت له، وهو أنّ طبيعة الحرب التي يؤديها شعبنا ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم تقتضي منا التضحيات الجسام، وأنّ ابنتها هي واحدة من المجاهدين والمجاهدات الذين سيقدمون حياتهم قربانا لتحرير هذا البلد العزيز . وشكرته عمّا فعله من أجل الدفاع عن ابنتها وأنها ستسلم أمر ابنتها لإرادة الله ورحمته الواسعة . وقد حكّت لنا أختي أنّ الأستاذ فرجاس كان ينظر إلى خالتي باية ويستمع إليها بعناية، ولاحظت أنّه، وتماما كما حدث في لقائهما الأخير بالمحكمة، كادت عيناه تطفحان بالدموع . طبعاً، لم يكن أحداً يتصوّر أنّ هذا المحامي الشاب الذي أسّسته بـ « الخطأ »، ذات صباح من أيام أفريل في وقت كنت فيه يائسة وقلقة على مصير أختي جميلة، الجريحة التي اعتقلها المظليون، سيتجنّد جسداً وروحاً في الكفاح الذي نخوضه، وأنه سيكشف ويفضح، دون هوادة وبعزم وإصرار، الجرائم

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

التي ارتكبتها فرنسا في الجزائر. فبفضل استراتيجية القطيعة، أنقذ عشرات المحكوم عليهم بالإعدام، ولم تكن مهمته الرهيبة هي مرافقة أحد إخوته إلى المقصلة. أصبح وإلى الأبد أخانا جاك منصور فرجاس، الذي لم يستسلم برغم التهديدات، وبرغم الاعتداءات الموجهة ضد شخصه. وسيُخبرنا المستقبل بمصير عملاق الدفاع القضائي العجيب الذي أصبحه جاك فرجاس.

ولكن في ذلك اليوم الذي تلا محاكمة جويلية 1957، لم يكن أملنا كبيرا، باستثناء أخينا الكبير، سي مراد، النقابي الذكي والحصيف، مسؤول ونائب ياسف. طلبنا رأيَه في المحاكمة، فقال: « يبدو جليا أنّ هذا المحامي الشاب مناضل مضاد للاستعمار. يملك قناعات قوية وصقل استراتيجيته الخاصة المتمثلة في تحويل المتّهم إلى متّهم. أنا متأكد أنّ صوته سيحدث زوبعة داخل فرنسا، كما أنني متأكد أنه لو نقترح عليه الانضمام إلى « المنظمة »، سيقبل دون تردد. فعلاً، إنّه مناضل جبهة التحرير الوطني ». ولكن، وبعد مرور لحظات الابتهاج التي تركها في نفوسنا تقرير أختي وتحليلات هؤلاء وأولئك، استولى علينا القلق من جديد، حتى وإن لم نُفصح عنه. الواقع الصعب أمامنا يلاحقنا عند كل لحظة. عشية أمس، قضت جميلة، والأخوان غاني ودحمان ليلتهم الأولى كمحكوم عليهم بالإعدام. كنت أعرف أنّ بجناح الرجال في سجن بربروس، تمّ تخصيص جناح لـ « الموعودين » للمقصلة، وأنّ غاني ودحمان لن يكونا الوحيدين. كنت أعرف أنهما سيققتسمان انتظار الموت مع الآخرين، في تضامن أخوي قوي. ولكن الجميلتين كانتا المرأتين الأوليين اللتين حُكِم عليهما بالإعدام. هل يوجد جناح خاص بهما؟ هل سجننا منفردتين أم داخل زنانة واحدة؟ كيف ستعيشان لحظات انتظار الموت؟ ارتعدت أوصالي، فانفجرت كل الدموع التي تمكنت من كتمها في الأيام الأخيرة. لجأت إلى السطح، في مواجهة البحر، وبدأت أدعو الله وجميع الأولياء الصالحين كي ينقذوا أخواتي وإخوتي من المقصلة المهيبة.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

اليوم، وبعد 56 سنة، وبعد وفاة أخي جاك منصور فرجاس، أشعر بواجب تجاهه وتجاه شبيبتنا، وبالأخص أولئك الذين يحلمون بممارسة مهنة المحاماة، أوكد على المنعطف الحاسم الذي شكّلته محاكمة جميلة في تاريخ استراتيجيات الدفاع على مستوى سَلَم الإنسانية. خاصة وأنّ هذه المحاكمة كانت مثالا على أكثر من مستوى، ولم تكن كذلك إلا بفضل استراتيجية القطيعة التي أنشأها المحامي جاك فرجاس. حينها اكتشف الرأي العام المحلي والفرنسي والعالمي أنّ النساء الجزائريات كنّ جزءاً لا يتجزأ من كفاحنا التحرري، وأنهنّ كنّ منتميات إلى جيش التحرير الوطني، حسب قدراتهنّ ودرجة تجنّدهنّ، بما في ذلك داخل المدن. بالفعل، قبل أقل من سنة من ذلك التاريخ، خصّصت الصحافة الكولونiale أولى صفحاتها لاعتقال ثلاث جنديات شابات خلال اشتباك في الأطلس البليدي، يتعلّق الأمر بثلاث طالبات رائعات من الثانوية، اللواتي تكفّلن بالمستشفى العسكري المؤسّس في الجبال : حورية بازي، مريم بلميهوب وفضيلة مسلي، وقد نشرت صورهن، ثلاث فتيات جميلات بالبذل العسكرية، وهن ينظرن بثقة نفس وحزم إلى جيش العدو والصحافة. ولكن اعتقال ومحاكمة الجميلتين كشف أنّ المرأة التحقت أيضا بصفوف الفدائيين، الضرورية لحرب المدن، هؤلاء « المتطوعون إلى الموت » الذين يسميهم الأوروبيون « إرهابيين ».

إنّ استراتيجية فرجاس في المحاكمة، وهجوم الصحافة الكولونiale ضده، منحت للجزائر المحاربة أيقونتها وللجزائر التي كانت قاب قوسين أو أدنى من الاستقلال طوطمها الأنثوي في رمز جميلة. لهم ماريانهم، ولنا جميلتنا. بالنسبة لفرنسا الكولونiale، كانت جميلة هي « روح الإرهاب » ؛ أما بالنسبة إلينا وإلى جميع الشعوب الحبة للحرية، أصبحت روح التحرر ورمز الجزائر المكافحة، الجميلة المتمردة. وقد تدعّمت هذه الصورة/الرمز بوجود مناضلتين باسم « جميلة »، حُكم عليهما بالإعدام، كما حُكم بالإعدام

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

غيايبا على مكافحتين آخرين من منطقة الجزائر المستقلة وهما حسيبة بن بوعلي وزهرة ظريف .

لقد تمتّ تعرية فرنسا وماسو و « معركة الجزائر » التي يتغنون بها، أمام العالم : كانوا يطلقون مئات الآلاف من العساكر المدجّجين بالأسلحة الفتاكة ضد نساء وفتيات، ذنبهن الوحيد حبهن لبلدهن إلى حدّ الكفاح من أجل تحريره .

لقد بيّنت استراتيجية فرجاس أنّ « المحكمة الدائمة للقوّات المسلّحة » كانت محكمة تعسّفية، وبالضرورة غير مؤهّلة لمثل هذه المحاكمات، لكونها محكمة قوّة استعمارية . كما سمحت بسقوط أقنعة وسائل الإعلام المحلية، إعلام « السكان الأوروبيين المدنيين الأبرياء »، إعلام الأقدام السود الذين ظهروا على وجوههم الحقيقية مقابل الإعلام العالمي . وقف الحامي فرجاس، العنيد، السريع البديهة، المربك، المعجون بالأنفة، إلى جانب قضيتنا بالدفاع المتين عن عدد من مناضلينا المحكومين من طرف المحاكم الفرنسية .

ومن أجل هذه القضية، راح بلا تعب ولا كلل يبيّن إنكار القضاء الفرنسي لأبسط حقوق الحياة للجزائريين، موجّها خطابه إلى الإعلام العالمي وإلى الفرنسيين الذين عاشوا الطرق القضائية الجائرة المتسرّعة لألمانيا النازية، والذين عانوا من التعذيب والقمع ورأوا رفقاءهم يختفون في « سخرة الخطب » . وقد واجه أخونا منصور، بشجاعة وتضحية خارقة، جميع شرطة فرنسا والجيش الفرنسي وقادته، العائدين بهزيمة من ديان بيان فو ومن قناة السويس، والذين يفتخرون بتنظيرهم « للحرب الثورية المضادة » كي يقضوا نهائيا على المكافحين الجزائريين .

كما أنه واجه « اليد الحمراء » التي كانت تنشط في كل مكان، حفاظا على كرامته وهيبته في وقت لم تكن فيه ظروفه المادية دائما على ما يرام . كان جاك منصور فرجاس أخانا في القناعات المضادة للاستعمار، أخانا في

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

الكفاح التحرري والإيمان القوي بالنصر مهما كلفنا من تضحيات جسام في الأرواح والممتلكات . لهذا اختار اسمه الجزائري « منصور » .

كان الأستاذ فرجاس شخصا حنوناً، بحساسية مفرطة وثقافة عظيمة، وكنا نجد لديه، في حالة مصيبة قوية كاعتقال أو فقدان أخ لنا، كل المواساة والتعاطف اللازمين . ياله من حظ كبير أن نملك في صفوفنا هذا المحامي اللامع الذي بفضلله استولت الحرية والكرامة الإنسانية على فضاءات جديدة ضد الظلم والاستعباد . حدث لي أنّ شعرت بحسرة لأنّ فرجاس لم يلتقِ ببن مهدي وعبان رمضان . كانوا سيشكّلون ثلاثياً متفجّراً بلا شك ! وبالمعنى الأصلي للكلمات .

• ديبّح شريف : عملاق باسم سي مراد

ابتداءً من شهر جوان 1957، تعوّدتُ عند كل ظهيرة على الالتحاق بسي مراد، في مخبئه بـ 14 شارع النيل، كي نعالج معا البريد الضخم وكتابة الأجوبة والملخصات والتقارير، قبل تقديمها لـ « الخو » . فمنذ إعادة تنظيم منطقة الجزائر المستقلة، كُلف سي مراد بالإشراف على القسم السياسي والإداري . بهذه الصفة، كانت ترد إليه جميع التقارير، خاصة تلك التي تأتي من مختلف المسؤولين المكلفين بلجان الاستخبارات، من اللجنة السياسية، من التجنيد والتأطير والتوجيه . كنا نعالج معا تلك الملفات، ونجيب عن رسائل مختلف المسؤولين، ونعدّ ملخصاً لصالح ياسف، رئيسنا السياسي والعسكري .

وفي بداية شهر جوان، وجدت سي مراد كعادته، هادئاً يواجه الأحداث ببرودة دم مدهشة، بقناعاته التي لا تتزعزع، وبالأخص تلك المتعلقة بالنهاية القريبة لفرنسا كقوة استعمارية . كان رجلاً مستقيماً وصارماً، ببعد إنساني عميق يجعل منه كائناً حسّاساً جداً لآلام الآخر، مهما كان .

في ذلك الصيف الذي سنشتغل فيه معا كثيرا، فهمت سبب التحفظ الشديد الذي يظهره سي مراد في مناقشاتنا مع سي محمد حول مؤلفين أو فاعلين سياسيين تركوا آثارهم في تاريخ الغرب. ذات يوم، وأنا أجيب على مختلف الرسائل، انزلت ورقة من ظرف، أخذتها وقرأت محتواها؛ كان جوابا من سي مراد على رسالة أحد المناضلين، وقّعها بيده. اندهشت من حروف الكتابة الطفلية. أرجعتها بسرعة داخل الظرف، ولكن سي مراد رأي. كان نبها، فقال لي ببساطة: « إذا كنت أنت خريجة جامعة الجزائر، أنا خريج جامعة نقابة « السي جي تي » لمصنع رونو للسيارات »، فانفجرنا بالضحك. لسي مراد حسّ مزاح قوي إلى حدّ السخرية الذاتية. ففهمت أنّه تعلّم الفرنسية التي يجيد الكلام بها في دروس محو الأمية التي تنظّمها نقابة السي جي تي حينما كان عاملا نقابيا في فرنسا. كما فهمت لماذا يصّر دائما أن أقوم بكتابة البريد، حتى تحت إملائه. كان يحرص أن يكون البريد مكتملا في المحتوى والشكل.

بعد ذلك بشهور، التقيت في السجن بمناضلة وقامت بيننا صداقة متينة، فابي جيميناز: يذكّرني كل شيء فيها بسي مراد. تتمتع بهدوء مماثل لمجابهة الوضعيات الأكثر صدامية، ونفس الصرامة المعنوية، ونفس الخجل في التعبير عن عواطفها ونفس العزيمة في التزامها الثوري. ذات يوم، سلّمت لي رسالة بعثتها لأبنائها كي أسلّمها بدوري إلى المراقبة العامة التي بدأت تجمع الرسائل. وأثناء نزولي عبر السلالم لأضع الرسالة، ألقيت نظرة عابرة إلى العنوان المكتوب على الظرف... لم أصدّق عيني: كانت تحت بصري كتابة سي مراد، المتوفى منذ سنتين تقريبا!!! ضبّبت الدموع بصري وأرجعتني إلى صائفة 57، حينما كنت أقضي نهايات الظهيرة وبدايات السهرة في العمل مع سي مراد، أتناقش معه حول المشاكل المطروحة في الرسائل التي كنا نتلقاها يوميا، ثم ندرسها ونتصوّر الأفعال التي سنباشر بتنفيذها كي نواجه ونُفِشَل

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التّحرير الوطنيّ منطقة الجزائر المستقلّة

آلة الدعاية الكولونيالية، قبل أن نقدّمها للقائد الكبير ياسف . في تلك الفترة، فكّرنا في تأسيس منظمة للنساء تحت رعاية جبهة التحرير الوطني، ولكنها مختلفة عن منظمّتنا السياسية والإدارية .

وكان هدف هذه المنظمة التنديد العلني بالاعتقالات التعسفية الواسعة، وبآلاف الاختفاءات، وبالتعذيب الرهيب وبجميع أنواع القمع الوحشية التي يمارسها النظام الكولونيالي وجيشه ضد شعبنا . فاقترحُ أن تكون أوّل حركة لهذه المنظمة هي مظاهرة عمومية كبيرة، تجنّد أكبر عدد ممكن من النساء، كلّهنّ ملحقّات بالحايك الأبيض، واللواتي سيمشين بصمت من ساحة الحكومة باتجاه ولاية الجزائر .

وبدا لي هذا الشكل من الحركة الوسيلة الأكثر صحبًا لجلب الانتباه، خاصة على مستوى الرأي العام العالمي . ومن جهة أخرى، إذا أخذنا الوقت الكافي لتنظيم هذه المظاهرة وأعدناها بالشكل اللائق، ستحمّس بلا شك نساءنا ونجعلهنّ أكثر قربا وتمسّكا بجبهة التحرير الوطني، مع إعطاء قاعدة جديدة لكفاحنا التحرري .

دعم سي مراد الفكرة وطلب من مسؤولي مختلف القطاعات بتجريبها، كل في محيطه . وجاءتنا أجوبة كثيرة، وتقرّر أخيرا تغيير نوعية التظاهر، من مظاهرة عبر الشوارع، والتي يسهل قمعها، إلى وقفة احتجاجية أمام الولاية . ابتداءً من تلك اللحظة، جنّدنا جميع المسؤولين السياسيين والإداريين لمختلف القطاعات لتحقيق هذا الغرض . على كل مسؤول أن يسجّل داخل قطاعه أسماء وعناوين العائلات التي تعرّضت للقمع، مع قائمة للأشخاص الموقوفين أو المسجونين أو المفقودين، واسم امرأة من كل حيّ يمكنها أن تتصل بالنساء وتجنّدهن، وكذا المعلومات التي تخصّها شخصيا . وبعد أن أعددنا قائمة النساء اللواتي تطوَّعن أو اقترحن لتولّي

المسؤوليات، مع شرط الالتزام والتحفظ، اتفقنا على جمعهم حسب القطاعات كي نخبرهم، دون الكشف عنها، بأننا نفكر في حركة كبيرة، ثم نستمع إلى رأيهم واقترحاتهم لإقناع وتجنيد النساء. كما اتفقنا معهن عن الشروط التي يجب التزامها كي تنجح حركتنا ومنع السلطة الفرنسية وشرطتها ومخبريها من تكسيروها.

أما الاجتماع، فتركنا حرية تحديد تاريخه للأخ عبد الرحمن بن حميدة، بالتعاون مع مسؤولي القطاعات، فهم الأقرب إلى تثمانين مناسبة وإمكانية انعقاده. كان الأخ بن حميدة طالبا في المدرسة الفرنكو إسلامية لمدينة الجزائر، غير معروف عند مصالح الشرطة الفرنسية، ومسؤولا سياسيا وإداريا، ونائب سي مراد. كان كل هذا العمل مكتملا للعمل الذي كلّفني به ياسف لإعداد ملفات ضحايا القمع الفرنسي، الضرورية للمحاكمات والحملات الإعلامية التي أطلقها المحامي جاك فرجاس. وكانت ترد إلى مخبئنا بـ 14 شارع النيل أطنان من الأخبار الدقيقة والتمينة. كان العمل ضخما، نزرح تحت الكم الهائل من الوثائق والأوراق، ولكننا كنا نشتغل في مرح وحيوية لا حدّ لهما، لأنّ الملفات المخصصة للأستاذ فرجاس كانت مُحكّمة ودقيقة، وسنرى أخيرا ميلاد مواجهة فعلية لدعاية ماسو وأكاذيبه، في مواجهة قوية مهيبة جميلة وغير متوقعة بتلك الفعالية. من بداية شهر جويلية، باشر بن حميدة انتقاء النساء المسؤولات عن الأحياء والقطاعات وقدم لسي مراد أسماءهنّ، مع المعلومات المتوفرة لديه عنهنّ وعن عائلاتهنّ. كما اقترح تواريخ للمظاهرة، اعتمادا على اقتراحات قادة القطاعات السياسيين والإداريين.

ولكن سي مراد كان يرفض التسرّع في العمل ويشترط صرامة كبرى وجديّة في التحليل، وبالأخص الحذر الشديد. كان يكرّر دوما أنه لا ينبغي كشف

مُذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

طبيعة وتاريخ الحركة إلا في آخر لحظة ممكنة، ما يعني تنظيم الاجتماع قريبا جداً من تاريخ إجراء المظاهرة. وخلال ذلك الصيف، تعلّمت كثيرا وأنا أشتغل مع سي مراد. كنا نتناقش كثيرا حول الوضع السياسي العالمي والوضع العام لبلدنا، ونحلّل تطوّر الرأي العام العالمي والفرنسي داخل فرنسا حول قضية استقلال بلادنا. علّمني تفكيك شفرات الإعلانات، وكشف المسكوت عنه في بعض المقالات الأساسية، وكشف الأهداف الخفية للمشاريع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

كان مُعلّمي الكبير في المسائل المتعلقة بالتنظيم، بتسيير العلاقات مع المناضلين، وتجنيدهم، وتأطيرهم. ولكن سي مراد كان يفاجئنا دوما بحسه المازح، بحيث كنا ننفجر في ضحك جنوني دون أي تحضير ووسط جدية صارمة، في ذلك المخبأ الذي يخيم فيه الصمت، والذي تسيّر شؤونه الداخلية امرأتان عانستان صارمتان، واللذان انتهى بهما المطاف إلى كفالة سي مراد. يبدو أنّ هذا الأخير تمكن من ترويضهما بفضله سكوته وتحفظه وألف عناية وعناية لا يحسن أدائها إلا هو. وعند عودتي إلى شارع كاطون، أحكي لحسية عن سي مراد الذي اكتشفته حديثا، ويبدو أنّها تعرفه جيّدا، لأنها سبق أنّ اشتغلت معه، لمدة شهر، في مخبر صناعة القنابل لدرب غرناطة. من حين لآخر، كانت ترافقني إلى 14 شارع النيل، وعندما ننهي عملنا، يلتحق بنا محفوظ. فنقضي نهايات السهرة نلعب الورق – البيلوت – أو الدومينو، ونحن نتحمّس للمستقبل الذي لا يمكن إلا أن يكون سعيدا تحت شمس الاستقلال، ونادرا ما كنا نستحضر الماضي. وكان سي مراد وحسية يعودان، من حين لآخر، إلى وقت قريب، وقت مخبر القنابل. وفي تلك الفترات تكون الذكريات ثقيلة، أليمة لأنها تحيلنا إلى أصدقائنا الذين قُتلوا مثل سي محمد وعمي مصطفى، أو مسجونين مثل طالب عبد الرحمن وعبد الغني مرسالي وجميلة.

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

كان سي مراد يبسط لنا كنوزا من الحجج كي يرفع من معنوياتنا، ويقوّي من عزيمتنا ويحثّنا على عدم الاستسلام بالحزن واليأس. لا يفتأ يذكرنا لماذا قُتل وسُجن إخواننا، والواجب المقدّس لمواصلة كفاحنا التحرري وعمل المستحيل لتوفير الوسائل الضرورية لتحقيق الهدف المنشود. أخبرني سي مراد بأنّ لدينا مشاكل عويصة في التموين بالمواد المتفجّرة وأنّ مخزوننا يقرب على الانتهاء. ومع ذلك، كان يبدو متفائلا، مذكّرا إيانا بأنه وبرغم الحرب الشاملة التي تخوضها فرنسا ضدنا، وبرغم عدم توازن الوسائل الحربية، إلا أنّ « الأفلان يوجد في كل مكان، في الشمال والجنوب والشرق والغرب، وفي كل المدن والقرى والأرياف والجبال، وليس بالجزائر فقط ولكن داخل فرنسا أيضا. وستعيش فرنسا فعلا حربها من دانكرك إلى تامنراست، حتى تتحرّر الجزائر. إن مستقبل الاستعمار في المقبرة ! ».

ذات يوم، وأنا أعالج البريد، حركتني رسالة وخلقت في نفسي حزنا كبيرا. بعثها عقيد من الولاية الثالثة إلى الأخ ياسف، يلتمس فيها مساعدة من مسؤولنا السياسي والعسكري كي يساعده على التخفيف من الوضعية الصعبة التي يعيشها الجنود الذين لم يجدوا شيئا يسدّون به رمقهم، باستثناء الأعشاب التي تنبت في الجبال. طلب منه إن أمكن له أن يرسل كمية من المواد الغذائية الأساسية أو الأموال الضرورية لشرائها. ووصف عقيد الولاية الثالثة الوضعية بالكارثية، خاصة منذ مرور فرق بيجار وجان بيار ومجرمي الحرب الآخرين.

حينما أخبرت سي مراد، أملى عليّ مشروع جواب نقدّمه للخوا، ثمّ تكفّل بشرح لي مرة أخرى أهمية منطقة « الدزاير » المستقلة : « إنّ منطقة « الدزاير » المستقلة هي القاعد الخلفية لولاياتنا القريبة والصندوق الراجع للصدى الثمين لحرب التحرير الوطني. لهذا السبب يجب على هذه المنطقة

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

أن تشتغل دوما وأن تكون واقفة. وهنا أكثر من أي مكان آخر، يجب أن نتصرف بحيث، إذا سقط لنا أخ، يعوّضه اثنان في أقرب وقت ممكن. ولا يتم هذا دون عمل جبار في التوعية والتجنيد والتأطير، دون كلل ولا تعب...». هكذا كانت طبيعة سي مراد، لا يبخل أبدا عن إعطاء جهده ووقته، فكان معلّما وأخا، يعيد الشرح مرارا وتكرارا، كي لا يتسرّب اليأس إلى نفوسنا. وكي لا نزعج مضيفينا ولطمأنة عمّتيّ محفوظ، كنا نشغل داخل المخبأ الذي بناه عليّ لابوانت. كان واسعا ومغطى بحصير كبير من الحلفاء. وكانت الفراشيات المبطّنة تتكدّس الواحدة فوق الأخرى، ونستخدمها للنوم حينما نسهر مع العمل جزءا كبيرا من الليل. وكان المخبأ مُضاء بشكل جيّد بفضل خيط مرتبط بالنظام الكهربائي العام. ذات مساء، وقد كنت متعبة جدا بعد كتابة دامت ساعات طويلة، بحيث أحسست بألم في عينيّ وفي أصابعي، وفي وقت كنا نستعدّ للنوم، كل واحد في ركنه، فتكلّم سي مراد - دون أن يتخلّى عن جديته كما لو أنه يتحدّث عن أمر عاديّ - وأعلن أنّه يحسّ بـ «عاطفة خاصة» تجاهي، وإنّ كنت أقاسمه تلك العواطف، سنخبر عليّ والخو ثم سننزوّج. كانت الصدفة مفاجئة وقوية بحيث لم أتمكن من إعطاء معنى للكلمات التي وصلت أذنيّ. كنت دخلت إلى الكفاح كما نعتقد دينا، بحيث رنّت الكلمات في أذنيّ كتجديف خطير أحدث انقطاع الحركة في مخي. كنت عاجزة فكريا وجسديا عن النطق بأيّ صوت، وتشكيل أية كلمة، لم يعثر عليها ذهني المحترق، المشلول. عندئذ، أدت له ظهري، وضعت فراشية على الأرض في زاوية مقابلة لزاوية أخي في الكفاح، أعددت سريري بحركات فظة ونمت ككتلة ثقيلة، مقابل الجدار والوسادة على رأسي، وإلى غاية الصباح. وعندما طلع النهار، ذهب دون أن أقسم معه لا قهوة ولا كلمات.

عند وصولي إلى مخبئنا في شارع كاطون، تذرّعت بالعمل الثقيل للبحث والتفكير الذي تطلّبه منا مشروع تأسيس منظمة نسائية، كان عليّ تصوّر

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

وتسطير الأهداف وكذا نشاطاتها المتعددة. والتمست من « الخو » أن يعفيني لبعض الوقت من العمل مع سي مراد، وستعوّضني حسية التي لم أخبرها بما جرى. وهو ما حدث. بعد أيام قليلة، تقرّر عقد اجتماع طارئ في بداية الظهيرة في منزل يقع بدرب نسيت اسمه. كلّفني الخو بإخبار سي مراد وقيادته إلى مكان انعقاد الاجتماع، فذهبت إلى شارع النيل، أبغلت الرسالة، وتصرفت معه ببرودة ظاهرة. وبعد ذلك خرجت، وتبعني سي مراد على بعد خطوات، تطبيقا للتعليمات المنصوص عليها في مثل تلك التحركات، كي نتجنّب الدوريات العديدة التي تجوب القصة باستمرار. وعندما دخلنا الدرب، أسرع خطاه، ناداني كي أبطئ مشيي وانتظاره. عندما وصل إليّ، قال لي : « يا اخْتُو ! أنا آسف جدا ونادم عما بدر منّي في ذلك المساء. أعتذر منك بصدق وأطلب منك أن لا تحملي المسألة أكثر مما تستحق. أنا أصرّ فعلا على أن نحافظ على علاقتنا الأخوية نقية طاهرة ». كان سي مراد متأسفا بصدق وينتظر قبول اعتذاره. ولكنني كنت شابة وغير ناضجة كي أحسن منح الحركات أو الكلمات التي تقدّر الاعتذار الصادق. لم أكن أعرف أنّ الصداقة والأخوة تستحقان الغفران. الأسوأ أنني لم أكن أعرف أنّ ذلك اللقاء كان الأخير بيننا، فبعد أيام قليلة، يُقتل سي مراد إلى جانب رامل، بعد يوم من معركة بطولية ولكنها غير متساوية بينهما وبين فرق بيجار، جان بيار، يساندها الطيران والمدفعية الثقيلة. منذ ذلك اليوم، فهمت أنّ الصداقة الأخوية هي أجمل هدية يمكن للحياة أن تقدّمها لنا، وأنّها تستحق كل عنايتنا، كل مراعاتنا، وكل الغفران الممكن.

● مقتل رامل وسي مراد

في 11 أوت، أخبر كل من رامل (عثمان حاجي) وسي مراد (دبيح شريف) الخو بأنهما قد نجيا بأعجوبة من قبضة المظليين الذين حاصروا الحيّ

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

بالأمس في حوالي الساعة الثانية زوالاً، وبدأوا يغلقون جميع المنافذ والأزقة .
وبما أنّ الجميع على دراية تامة بأنّ الجيش الفرنسي يقوم في كل ساعة من الليل
والنهار بالمداهمات وتفتيش المنازل، فكانت اليقظة القصوى قانوناً صارماً
يلتزم به المناضلون. فبفضل هذه المراقبة الصارمة ومساعدة السكان الذين
قادوا هروبهم عبر السطوح، تمكّنا من الالتحاق بمخبأ آخر. وقد أوضح الأخوان
في تقريرهما أنّهما نظّفا المنزل من كل أثر لإقامتهما وأخذاً معهما القنابل
الأخيرة. ومع ذلك، أكّدا أنّهما يجدان صعوبة للعثور على أماكن أخرى
للاختفاء ؛ ليس لأنّ سكان القصبة يرفضون إيوائهما، ولكن لأنّ الغالبية
الكبرى من المناضلين والمتعاطفين قد تمّ اعتقالهم وسجنهم، فأصبحت منازلهم
« محروقة »، أي يعرفها المظليون، فيراقبونها، بل ويدهمونها ويفتّشونها
باستمرار. لذلك، التمس الأخوان من « الخو » أن يساعدهما على إيجاد
مأوى آخر. فوعّد قائدنا السياسي والعسكري بحلّ المشكلة عن قريب، علماً
بأنه، هو أيضاً، يعاني من نفس الصعوبات .

في هذا الشهر من أوت 1957، كانت الحرارة خانقة، خاصة بالليل . فمِنذ
استقرارنا في 4 شارع كاطون، بمنزل سي مصطفى، قرّر الخو بأن نقضي ليلينا
داخل المخبأ الذي أعده عليّ لابوانت لأمن مضيفينا . ولكن المخبأ كان ضيقاً
والدخول إليه صعباً للغاية . ينفّث على رواق من أروقة الحَوْش، وكنا ندخل إليه
عبر إحدى النوافذ الصغيرة التي تصلح لتهوية الغرف . عند المساء، نختبئ،
الخو، عليّ، حسيبة، عمر الصغير، وأنا، نجلس الواحد إزاء الثاني، مشدودين
إلى بعضنا البعض مثل السردين، سيقاننا لاصقة بصدورنا، وحينما ينهكنا
التعب، نحط رؤوسنا على ركبنا، آملين أن ننام قليلاً . كانت الحرارة تخنقنا
ونتصبّب عرقاً من الرأس إلى القدمين . وفي الصباح، عندما نلتحق بالغرف
المتروكة تحت تصرفنا، كنا نتقدّم كالأشباح، الأجساد مفكّكة، النظرة تائهة،
يحاول كل واحد منا أن يظهر بمظهر لائق .

ذات صباح، عند نهاية شهر أوت، في حين كنا نستيقظ شيئا فشيئا، بعد الدوش بالماء البارد والقهوة الساخنة، دخل علينا سي مصطفى، إلى الغرفة التي كنا مجتمعين بداخلها، فبدا مهموما جدا. جلس، تناول فنجان قهوة وقال بصوت أراده قويا : « يبدو أنّ المظليّين يُحضّرون محاصرة القصبّة » .

حاول « الخو » أن يعرف إن كان الأمر يتعلق بمحاصرة الحي أو كامل المدينة العتيقة. شرح سي مصطفى، وهو الذي يملك محلا تجاريا مقابل شارع راندون وسوق « لا لير »، بأنه لاحظ حركة متواصلة لسيارات « الجيب »، وبالأخص حركة المارّة المتوجّهين نحو وسط القصبّة. صعد محمود إلى السطح لمراقبة الضواحي. كانت طائرات « الهليكوبتر » تحلق في ارتفاع منخفض، ما يؤكّد أنّ أمرا خطيرا يُدبّر. وعندما كنا نلتحق بمخيئنا، خرج محمود للاستعلام، ثم عاد بسرعة ليؤكد أنّ جيشنا من المظليين والزواف يسدّ كامل منافذ القصبّة السفلى المحاصرة، مجبرين الناس الآتين من شوارع « لا لير » والديوان وبوتان على التوجّه نحو وسط المدينة العتيقة. فجأة، ارتفع هدير مرعب لهليكوبتر تطير فوق السطوح مباشرة، ودوي الرصاص يملأ السماء والمنزل. صعدنا كلنا إلى السطح. وكذلك فعل جميع سكان المنازل المجاورة.

نظرنا إلى الجهة التي انبعث منها دويّ الرصاص. بعد قليل، ارتفعت الإشاعة فوصلت إلينا : « رامّل وسي مُراد محاصران ! ويواجهان المظليين بالرصاص ! ». وسنشهد عاجزين خلال ساعات، بدت لنا دهرا، على القضاء على أخويننا اللذين يواجهان، كما سنعرف بعد ذلك، أرمادا من العساكر المدجّجين بالسلاح، يقودهم الضباط الدمويون « ليجي وشابان ولونوار » من الفيلق الثالث، والعقيد جان بيار، تسانداهم طائرات الهليكوبتر والدبابات الخفيفة. كنا على علم بأنّ أخويننا لا يملكان إلا القليل من الذخيرة، ومع ذلك سيصمدان لساعات طويلة، وسيُفشلان هجمات المقات من المظليين. وحده رامّل يملك رشاشا من نوع « ستاين »، تعود صناعته إلى الحرب العالمية الثانية،

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحْرِير الوطَنِيّ منطقة الجزائر المستقلَّة

بعدد قليل من الملاقم. أما سي مراد، فلا يملك إلا مسدسا ب 45، وحسب الخو، قنبلتين تقليديتين أو ثلاث، وبعض القنابل اليدوية.

هكذا تفعل فرنسا وجيشها، فبعد هزيمتها النكراء في واتيرلو، وبعد عارها الذي لن يمحي في سيدان، وبعد استسلامها في جوان 1940، وبعد إهانتها في ديان بيان فو ثم في السويس، تحاول غسل شرفها بمحاصرة مكافحين من أجل الحرية، في منزلهما، في بلدهما، مذبَّنين لأنهما أرادا استقلال وطنهما. بهذه الطريقة، يطمح الجنرال ماسو غسل عاره منذ واترلو. يخوض معركته في الجزائر، والتي اتَّخذت هيأتها في 27 أوت 1957 في شكل حالة حصار صغرى داخل حالة حصار كبرى ضد رامل وسي مراد، مكافحين بطوليين من أجل تحرير وطننا.

أما فيما يخصنا، فكنا نشهد، بقلوب منقبضة، وغيظ دفين، عاجزين، معركة أخوينا اللامتناهية. لم نكن نملك لا الرجال ولا الأسلحة، كي نسعفهما، زيادة إلى أنَّ جميع المنافذ كانت مغلقة. يحاصر حيَّهما مئات العساكر بأسلحة فتاكة. أُجبر السكان المحيطون بمنزلهما على البقاء داخل ديارهم، بل بداخل الغرف. وكانت أبواب المنازل تحت الحراسة الشديدة للعساكر المستعدين لتفجير كامل القصبة، كما كانت جميع السطوح محروسة وعليها العشرات من العساكر أيضا. ومع ذلك، وبرغم هذا العدد المهيب والمرعب من وسائل الحرب والدمار المنتشرة في كل مكان، تمكَّن الأخوان من أن يكتبوا بدمائهما ملحمة لا تقل عن الملاحم التي كانت ترويها لنا أمهاتنا عن سيدنا علي¹ أو صلاح الدين الأيوبي².

1. Ali, gendre du prophète (QSSL), connu pour son courage légendaire.

2. Salah Eddine Al Ayoubi, grand combattant ayant libéré Al Qods-Jérusalem, des croisades venues d'Occident pour l'occuper.

لم يكن سطح 4 شارع كاطون بعيدا عن الجحيم الذي يواجهه الأخوان رامل وسي مراد. كنا تحت الشمس الحارقة، نتابع عن بعد المعركة اللامتوازنة التي يخوضها الأخوان، كنت أتصوّرها كما لو كنت معهما، هادئين، عازمين، يتحكما في رباطة جأشهما، وبذكاء خارق. ذكاء التفكير والحركة. أعرف أنهما سينسّقان دون حاجتهما إلى الكلام، يقتصدان الحركة والكلام والوسائل، كي يعوّضا ندرة الذخيرة، كي يقتسما في العزّة والأخوة مصيرهما الحتمي المشترك، فيواجهان بشرف الموت الذي يحاصرهما. كنت أعرف شجاعتهم العجيبة، الخارجة عن المعايير المتداولة، تلك الشجاعة التي تبعثها في الجسد القناعات القوية، وكذا التجنيد الشامل لخدمة قضية مقدّسة ألا وهي تحرير الوطن من المحتلّ الأجنبي، الوعي الحاد والدائم للرهانات ومعنى كل حركة والصفاء الذهني بأنّ الموت، في ذلك اليوم، يضرب ليأخذهما حتما ومؤكدا في ذهاب عنيف ولكنه لا رجعة فيه. هكذا، في الوقت الذي كنا نشهد عاجزين موت أخويننا، عاد إلى ذهني تفكير أمّي عندما رأت صدفة عليّ لابوانت وسي عثمان (رامل) واقفين، جنبا إلى جنب، فقالت بإعجاب : « لا إله إلا الله ! صحابة رسول الله ! » .

حدثت هذه الواقعة قبل أشهر قليلة، في دهر آخر، في درب لافوازي حيث كان يقيم رامل وسي مراد، والتحق بهما عليّ لابوانت في ذلك اليوم. جاءت أمّي إلى القصبة تزورني برغم مرضها. قادها الإخوة إلى درب لافوازي حيث ذهبّت برفقة حسيبة، لنتنظر وصولها، ووجدت أختي في عين المكان. وصلت أمي وبدأ العناق والقبل وتبادل التحيات والأخبار، بحماس فياض، فبقيت أمّي في حايكها الأبيض ورفضت نزعه. أحطناها حسيبة وأنا، وحاولنا، ما استطعنا، إضفاء الحيوية على اللقاء. بقيت أمّي ساكنة، تنظر إليّ حيث قرأت اللوم في عينيها. وبدأت أتملّص من نظرتها اللائمة خلف ثرثرة

مُذْكَراتُ مُجَاهِدَةٍ مِنْ جَيْشِ التَّحْرِيرِ الْوُطْنِيِّ مِنْطَقَةُ الْجَزَائِرِ الْمُسْتَقْلَةِ

لم تتعرّف عليها أمّي . فجأةً، دخلت علينا أختي في الغرفة التي كنّا نجلس بداخلها، وطلبت منّي ومن حسيبة أن نلتحق بالمخبأ بلا تأخير. لقد سدّ المظليون الدرب وهم يقتربون من المنزل عبر السطوح.

شحب وجه أمّي فوقفت في اللحظة نفسها التي وقفنا فيها، حسيبة وأنا. كان قلقها بادياً للعيان . وفيما غادرت حسيبة الغرفة بسرعة، فضّلت البقاء مع أمي لبضعة ثوانٍ كي أطمئنّها، فقلت لها بأن المظليين لن يتمكنوا من العثور علينا أبداً. وقالت أختي بغرض مماثل : « يا لآلة سعيدة، ابتئتك مجاهدة حقيقية . سترين كيف ستختفي عن أنظار المظليّين » . يبدو أنّ أمي انزعجت من كلام أختي فردّت عليها بجفاء : « أعرف جيّدا ابنتي . أنجبتها وربّيتها . وأعرف جيّدا بأنّ ليس لديها قدرة التحوّل إلى نبتة أو حيوان ! » . فكانت تشير إلى الخرافات الشعبية التي تصبغ على المجاهدين صفات وقدرات فوق إنسانية . ولكن خبطات المظليين تعالت على باب الدخول وباب السطح، ولم يكن لي الحق في توريث إخوتي وأخواتي في وضع خطير، فأسرعت إلى الالتحاق بالمخبأ . أدركت أنّ أمّي قلقة للغاية، فعدت أدراجي لأقبلها وأدخل إلى قلبها شيئاً من الطمأنينة . تبعني أمّي إلى غاية عتبة الباب، فرأت أمامها رامل وعليّ لابوانت واقفين، وفي يد كل منهما بندقية رشاش . ويبدو أنها ذهلت بالقوّة الهائلة والعزم اللذين ينبعثان من شخصيتهما، وكذا إشعاع الابتسامة المنيرة التي رفرت على شفاههما، وخفّتهما وثقتهما المطلقة في النفس ؛ لأنّها صاحت بعفوية : « لا إله إلا الله ! صحابة رسول الله ! سيدنا عليّ وصلاح الدين ! » . وقد ذكّرها الأخوان بالوجوه الكبرى لتاريخنا . بعد انسحاب المظليين، وجدت أمّي أكثر هدوءاً وطمأنينة، وقد تخلّصت من حايكها، برغم غطرسة العساكر الفرنسيين الذين تلتقي بهم لأول مرة في القصة.

في الـ 27 من أوت 1957، قاومَ رامل وسي مراد المظليين ببسالة نادرة، وقد حبسَ أنفاس جميع سكان القصبة وكامل السلطات المدنية والعسكرية. كان عليّ لابوانت يذرع السطح كأسد في قفص. كان يكرّر جملة موجّها كلامه إلى « الخو » : « ربّما استطعنا إلهاءهم لبعض الوقت ؟ ». ولكنه كان يعرف، مثلنا جميعا، بأننا لا نستطيع فعل شيء لمساعدة أخويننا، ورغم مقتنا لهذا العجز الذي يشلنا. فلا نستطيع إلا الدعاء لهما بالنجاة، كما يفعل جميع سكان القصبة الذين يدركون جيّدا خطورة الوضع، ومع ذلك لا يتوقفون عن همس الدعاوى لهما بالنجاة، وإن بحدوث معجزة. فبقي السكان لساعات طويلة يترقّبون فوق السطوح، تحت شمس أوت اللاهبة، العيون لاصقة باتجاه مصدر الرصاص، يشدّون أنفاسهم ويتوسّلون إلى المولى لإنقاذ المجاهدين البطليّين. ولكن برغم هدير طائرات الهليكوبتر على ارتفاع منخفض الذي يصمّ الآذان، كان دويّ الرصاص يصلنا بوضوح، مما يجعل عجزنا عصيّ الاحتمال، والظلم بعدم توازن القوى المتصارعة شنيعا، قاسيا. لم يتحمّل عليّ الموقف. فكان يصيح : « هذا الوابل من الرصاص أعرفه، إنه صادر من رشاش « ستاين » الذي يملكه عثمان (رامل). يكون قد أسقط منهم الكثير، الكلاب ! ». وبعد لحظة صمت، يصيح ثانية : « هذه قنبلة يدوية، يا خو ! هل يملكان قنابل كثيرة ؟ ».

حينما كان عليّ يتكلّم أو يسأل الخو، كنتُ أرغب في أن يصمت كي لا يفوتني أيّ صوت يصدر من « هناك ». ولكن حينما يسكت لمدة طويلة، يعتريني القلق، ويعني سكوته عندي موت الأخوين. إلهي، كم هي قاسية تلك اللحظات التي يموت فيها أعزّاء لنا ! إلهي، كم هو قاسٍ على نفوسنا المتوتّرة ظلم ظروف موتهما ! ظلم يُمزّق القلب ويُحدّث فيه شرخا لا يندمل أبدا. فجأة، خيم صمت رهيب على كامل القصبة. ابتعدت طائرات

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

الهليكوبتر دون أنْ نحسّ بها فيما كنا نتابع دوي الرصاص والقنابل، في محاولة يائسة لفك هوية مصدرها. وبعد ذلك، نزل علينا صمت جنائزي دام طويلا. تبادلنا، حسيبة وأنا، النظرات الحزينة وأجهشنا بالبكاء. كانت الدموع تنهمر على صدورنا كشلال من المياه. بكينا أخوينا لأننا أدركنا يقينا بأنهما قُتلا.

بكينا ظلمَ القدر الذي أراد، في ذلك اليوم، أن ينتصر أشخاص أذلاء، مثل ماسو ومظليليه، على رجال شجعان وبواسل مثل رامل وسي مراد. انسحبت الدبّابات التي سدّت الطرق لساعات طويلة. كما التحق العساكر بشكناتهم، وشيئا فشيئا، بدأ الناس يحتلّون أزقة وشوارع القصبة ويستخبرون عمّا حدث. أرسل الخو محمود وربما مناضلين آخرين للتحقيق حول ما وقع بالضبط. ها هي الرواية التي عدّها الأخ الأكبر أقرب إلى الحقيقة : كان عون اتّصال الأخوين رامل وسي مراد فردا من أفراد العائلة التي تؤويهما. خرج هذا الأخير من بيته كعادته كل صباح، فأوقفه رجال « الزُّروقة » قرب درب غرناطة، في حوالي الساعة العاشرة. أدخلوه إلى سقيفة منزل وأشبعوه ضربا. بعد لحظات، وصلت دورية من المظليين وجروّه بدمائه إلى غاية سيارة « الجيب » المتوقفة في شارع راندون. كان الأخوان يجهلان اعتقاله، وكذا خضوعه للتعذيب الشنيع. شيئا فشيئا، تمّت محاصرة القصبة.

تفاجأ رامل وسي مراد بغلق حيّهما واحتلال المظليين السطوح والأزقة المجاورة. حاول الأخوان الخروج من البيت دون نجاح. درسا الوضع وأدركا أنّه ليس لهما حظ في النجاة، فقرّرا المقاومة وإحداث أكبر خسارة ممكنة في صفوف المظليين، وربما قتل الكولونيل بيجار نفسه، قبل أن يُقتلا. نادى سي مراد على المظليين من الكوة الصغيرة لمخبئتهما في الطابق الأول للمنزل

الذي يفتح على درب « سان فانسان دي بول » والذي كان يعجّ بالعساكر المدجّجين بالسلاح، فأخبرهم بأنّه وصديقه قد قرّرا الاستسلام، ولكنهما يريدان الحديث مع ضابط بنفس رتبتهما¹، ليخبراه بشروط استسلامهما.

وقد تقدّم عدد من الضباط الفرنسيين وأفصحوا عن أسمائهم ورتبهم، وأنهم مستعدون للتفاوض. ولكن سي مراد أصرّ أن يخاطب الكولونيل بيجار. وصل هذا الأخير وأخبره سي مراد بأنه سيبعث إليه شروط الاستسلام؛ وإذا قبلت، يجب أن يوقعها الكولونيل بيجار بيده. كلمة ضابط من الجيش الفرنسي! كان درب « سان فانسان دي بول » يعجّ بالعساكر الفرنسيين؛ أرمادا من الجنود يحيطون بضابطهم. رفعوا رؤوسهم باتجاه الكوة الصغيرة، يتابعون النزول البطيء لقفة صغيرة مربوطة بحبل تحتوي على « شروط استسلام الخارجين عن القانون ». كان الضباط الفرنسيون مستعدين لتوقيع أيّ شيء – لا تلزم أقوالهم إلا الذي يصدّقها –، المهم هو استسلام ضابطين من جيش التحرير الوطني للجيش الفرنسي.

في آخر لحظة، تفتّن أحد ضباط العدو، الكولونيل جان بيار، للفتح الذي كانوا سيقعون فيه. فوجد الفسحة الكافية لدفع الكولونيل بيجار بقوة جانبا قبل أن تنفجر القنبلة – المخفية داخل القفة والتي ضبط سي مراد توقيت انفجارها – وسط العساكر الفرنسيين. هذا ما أوردته الصحف نهار الغد. ياله من ماكر سي مراد! كيف جاءته فكرة بعث قنبلة داخل القفة على اعتبار أنّها « شروط الاستسلام » وضبطها بحيث تنفجر في الثانية التي تصل إلى مستوى الضباط وعساكر العدو، أولئك الذين كانوا رافعي الرؤوس باتجاه الكوة الصغيرة، ينتظرون « الرسالة الحاملة لشروط الاستسلام »، ويسخرون

1. وكان الأخوان، سي مراد ورامل، برتبة عقيد في جيش التحرير الوطني.

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

من « بلادة » هؤلاء « الخارجين عن القانون » الذين يريدون التفاوض مع ضباط « الجيش الفرنسي العظيم » !

تخيّلته هادئاً وعازماً، وهو يعدّ الثواني من أحد أروقة الطابق الأول، الثواني الكافية لإنزال القفة إلى غاية رؤوس العساكر والضباط الفرنسيين. تخيّلته وهو يبتسم داخل شاربيه طوال الوقت الذي كانت فيه القفة الحاملة للقبلة تنزل رويدا رويدا باتجاه هدفها المسطرّ بإحكام، كإجابة على قهقهاتهم الساخرة، المزدرية. فانفجرت قفة سي مراد الصغيرة، وكانت « الأضرار جسيمة » حسب المصادر العسكرية الفرنسية. أضرار جسيمة ؟ أضرار قليلة ؟ المهم في العملية أنّ الرسالة التي بعثها الأخوان البطлан الشهيدان إلى شعبنا هو أنهم سجلوا بدمائهم، هذا الخبر الذي لا ينضب ولا يُمحى، واحدة من الأحداث التي ساهمت في تحرير البلد من نير الاستعمار. وقد تلقّى شعبنا الرسالة برغم الآلام والخطر الدائمة التي سلّطها عليه النظام الاستعماري، ففهمها وأذاعها وضخّمها بوسائله الخاصة، وهو يستلهم منها الافتخار والمجد والأمل والطاقة لمواصلة المقاومة إلى النصر. كانت رسالة الأخوين بسيطة، واضحة كما كانت شجاعتهم : « إن جنديّ جيش التحرير الوطني لا يستسلم. يكافح إلى حدّ الانتصار أو الموت »، تطبيقاً لنشيدنا المقدّس : « تضحيتنا للوطن خير من الحياة ».

بعد انفجار القبلة، قرّر رامل الخروج ومواجهة الجيش الفرنسي ورفيقه الوفي، الموت. في نزوله نحو باب الخروج، جرح وقُتل الكثير. واصل تقدّمه وهو يطلق رصاصاته الأخيرة قبل أن يتلقّى وابلاً من رصاص العدو. ويقول شهود عيان أنّه، وبرغم أنّ جسده كان مدرّوزاً بالرصاص، إلا أنه تقدّم بخطوات أخرى ورشّاه بيده، قبل أن يسقط أرضاً بكامل طوله كجذع نخلة، دون طي. أما سي مراد، الوفي لصناعة القنابل التي دأب عليها منذ شهور، فقد

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

احتفظ بوحدة أخيرة، ضبطها وألصقها ب صدره، كي ينفجر معها وسط العسكرين. خرج ولكنه استقبل بوابل آخر من الرصاص الذي لم يتوقف إلا بعد أن انفجر.

كنا لا نزال على سطح منزل 4 شارع كاطون في نهاية تلك الظهيرة المقيمة من 27 أوت 1957، حينما نزل صمت جنائزي على كامل القصة، ليعلن استشهاد الأخوين. وبرغم الحرارة الضاغطة ودموعنا المندرة الآتية من عمق التاريخ، منذ 1830 وبداية مآسينا، لم أمتنع جسدي من الارتعاش، فصرخت كما لو أنني أريد لمس الواقع القاسي : « مات الأخوان ! مات الأخوان ! ». أحرصنا مقتل أخويننا. كانت كآبتنا عظيمة، بحيث، وبشكل غريب، غرقت في نوم عميق بمجرد التحاقنا بمخبئتنا الضيق، ورأسي على ركبتي. أيقظني صراخ مُرعب شدني إليه كما لو أنه صدر من أحشاء الأرض. قضيت لحظات قبل أن أعني ما يحدث حولي. فجاء صوت الخو، يقول : « علي ! علي ! استيقظ ! ». تبعه صمت دام لحظات طويلة، تلاه صوت علي : « باسم الله ! باسم الله ! الحمد لله ! لم يكن إلا حلمًا ! يا لطيف ! ». مد له الخوطاس ماء ليشرب وقرر أن يغادر جميعا ذلك المخبأ ونلتحق بالسطح كي نستنشق هواءً نقيًا وننخلص من الحرارة الخانقة. يا له من تحرر !

بعد ذلك بقليل، حكى لنا علي تفاصيل كابوسه : « رأيت نفسي وأنا محاصر من قبل المظليين. وعندما بدأت أطلق الرصاص، لم تخرج من فوهة بندقيتي رصاصات، وإنما قذائف من الدماء ». بالتأكيد، كان حلمه مرتبطًا بشكل مباشر بمقتل سي مراد ورامل. اعترت جسدي قشعريرة، وأنا أتساءل كيف يمكنني مواساة علي الذي كان يتعذب كثيرًا، لأنه لم يعد يحتمل رؤية إخوانه يقتلون دون أن يقدر على مساعدتهم. وليس لنقص في شجاعته طبعًا. أحطنا، حسية وأنا، كتفيه بأذرعنا، وقلت له : « أتعرف يا علي، إن

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الشجاعة هي أيضا القدرة على فرض مسار يناقض مبادئنا حينما تقتضيه الظروف القاهرة ومستقبل كفاحنا. أنت تعرف جيدا بأن المظليين سيكونون سعداء لرؤيتك ميتا إلى جنبهما، عثمان وسي مراد، حتى ولو رأوك تُسقط المئات منهم ». لم يتمكن من التلفظ إلا بكلمة « يا أخوتو ... » وطفق يبكي، طويلا، دون أن يتمكن من إيقاف انهمار دموعه .

أظن أننا، في تلك الليلة، وفوق ذلك السطح، كان كل واحد منا يحس بداخله أنّ مقتل رامل وسي مراد كان ينذر بأحداث عصبية، رهيبة. كان عليّ يفقد فصاحته الطبيعية شيئا فشيئا، ويظهر علامات نفاذ الصبر ضد هذا « الجمود » المفروض علينا منذ أيام، وعبر عن إرادته القوية باستئناف الحركة المسلحة ضد العسكريين وقوات القمع، خاصة داخل المدينة الأوروبية. كان بدون شك سيندفع وينساق خلف ميله الطبيعي : التصادم ومواجهة العسكريين الفرنسيين، لولا العلاقات القوية التي ربطها مع « الخو » الذي تمكن من ترويض عنفوانه. ولم تُخف حسية، برغم تحفظها الطبيعي، حزنها الكبير ولا دموعها. فمنذ لجوئها إلى القصبة، كانت تحت حماية سي مراد، في مجموعة المخبر، ابتداءً من أكتوبر 1956. لقد رافقت سي مراد بقضاء أيام طويلة تشتغل برفقته. من هنا، نشأت علاقات تواطؤ قربت بينهما كثيرا. كانت حسية في حياة أخرى مرتبطة ارتباطا لاصقا بأبيها، فوجدت في سي مراد نفس الهدوء الراعي الذي تحبّه كثيرا عند السيد بن بوعلي. بطريقة ما، إنها تفقد أباهما الثاني. من جهتي، كانت أحاسيس الخجل والندم تقضم أحشائي، لأنني توقفت عن العمل مع سي مراد بعد إعلانه لي بأنه « يحسّ بعاطفة تجاهي »، دون أن أقدم له أيّ تفسير. وكنت نادمة جدا لأنني لم أشعره بأنني أقبل اعتذاراته في آخر لقاء لنا. يمكن لكل ذلك أن يكون قد أثر فيه كثيرا. وكان ندمي موجعا لي كثيرا خاصة وأنني أكنّ له شعورا أخويا

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

قويا، وإعجابا ببرودة دمه وشجاعته وقدرة تحليله للأوضاع وطاقته في العمل، وبالأخص بتلك النظرة الساخرة التي يلقيها على نفسه، وتسامحه الكبير. أجرؤ على أمل أن أحظى بحلمه وتعاطفه من المكان الذي يتواجد فيه الآن.

لا تبحثوا عن آخر ضريح لجسد دبيح شريف، المدعو سي مراد، إنه في قلوبنا إلى الأبد. أما أخونا الثاني، عثمان حاجي، المدعو رامل، توأم عليّ، فإنه أظهر عزمًا لا يتزعزع، وتجنيدًا بلا أي ثغرة، وشجاعة متسامية. وكنا نمازحه دوماً، كلما كنا بصدد مباشرة عمل ما : « يجب أن تكون دوماً أوّل من يواجه العدو كي تكفّر عن أخطاء أجدادك الأتراك، الذين عاثوا فساداً في شعبنا، وتمحو عار دايلك الذي سلّم البلد للفرنسيين ». وقد ضحّى بحياته في 27 أوت 1957 كي يتحرّر شعبنا وينال بلدنا استقلاله. ليس بوصفه من أحفاد الأتراك، وإنما كسلف شرعي ومنير للجزائريين الأحرار المستقبليين.

كان الخو يتألّم بصمت. لم تكن رتبته داخل المنظمة ومسؤولياته لتسمح له بأن ينساق خلف عواطفه مهما كانت قوة آلامها. ولكننا نعرف أنه يفقد مع موت الأخوين أكثر من أخوين مسؤولين. إنه فقد شيئاً من ذاته وعمودين رئيسيين من منطقة « الدزاير » المستقلة.

• حوصلة مآتمية : حلم حسيبة بن بوعلّي المنذر

كانت ليلة 27 إلى 28 أوت 1957 ليلة مآتمية حقيقية بالنسبة لمجموعتنا الصغيرة التي فقدت خلال النهار عمودين من منطقة « الدزاير » المستقلة، سي مراد ورامل. مباشرة بعد غروب الشمس، وتجنباً لمزيد من الخطر على مضيفينا، صعدنا إلى مخبئنا حيث تراكمنا وسط ذلك الفضاء الضيق والحرارة الحارقة، في جوٍّ من الحزن الكئيب. فعاش عليّ كابوسه الذي جعله يطلق تلك

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الصرخة المرعبة التي أيقظتني، قبل أن يَأْذَنَ لنا الخو بالصعود إلى السطح. كانت الساعة تقارب منتصف الليل أو أزيد قليلا، والقصبة ترزح تحت ليلة ثقيلة يزيدُها الصمت كآبة، رغم خلّوها التام من الدوريات العسكرية التي غادرتها بعد أن زرعت الموت والدمار وسط السكان، ذلك الموت الذي ما فتئت هذه الجيوش الاستعمارية تزرعه وسط هذه الأرض المسلوقة. وفي تلك الليلة من 27 إلى 28 أوت 1957، كان الموت يحوم بظلاله، ثقيلًا، مهدّدًا. وكنا منهارين ومنهكين على أرضية ذلك السطح، ساكتين، تائهين من اليأس، لا يزال فقدان أخويننا في تلك الظروف الجائرة. انزوى يأسف في ركن داخل عزلة قائد لا يمكنه التعبير الصريح عن حزنه المتعاضم. بينما أعطينا، حسيبة وأنا، العنان للبكاء، نستمع إلى عليّ يحكي لنا بهمس وقائع كابوسه. وبعد ذلك غادرنا، وابتعد هو الآخر إلى ركن منعزل يجتر آلامه وحزنه من فقدان أخوين عزيزين، رفيقين من ساعات الكفاح الأولى. وقد هدّنا، حسيبة وأنا، ذلك الصمت الذي هدّ القصبة بأكملها، فغرقتنا في نوم مضطرب، كل واحدة في المكان الذي تمدّدت فيه.

عند الفجر، هزّنا عليّ : « انهضنا. انزلا إلى الغرفة. الرطوبة هنا شديدة جدا. ستمرضان ! ». استيقظت حسيبة النائمة إلى جانبي وهي تُلقِي النظرات التائهة كما لو أنها تتساءل عمّا نفعله هنا فوق السطح. كانت الساعة حوالي الرابعة صباحًا، ساعدتُها على النهوض وذهبنا نواصل ليلتنا داخل الغرفة التي نقيم فيها أثناء النهار. أيقظتني أصوات المنزل، ولم تكن حسيبة إلى جانبي. كنت أحسّ بصداع قوي في رأسي وتفكّك في أطرافي، وآثار حرق في عينيّ من كثرة البكاء. عثرت على حسيبة في حمّام الدار وهي ترمي على جسدها الماء البارد، ففعلت مثلها، ثم ذهبنا لتناول القهوة لطرد الدوخة وإنعاش الجسد المنهك. فبدأت حسيبة تروي لي الحلم الذي رآته في تلك الليلة، ولا تزال

آثاره بيّنة على قسمات وجهها، وهي تمسك بفنجان قهوة بين راحتي يديها المضمومتين، وعيناها الجميلتان تمتلئان حزنا وصوتها يكاد يكون هامسا : « كنت لا أزال داخل حلمي حينما هزّني عليّ . قضيت ثواني عديدة كي أعني جيّدا محيطي الجديد . ومثلما تعرفين، فأنا لا أعرف من غرفتك الجامعية إلا ما حكيتّه ووصفّته لي . تصوّري أنّني في حلمي ذهبت إلى الحيّ الجامعي وتوجّهت إلى غرفتك وأنا أعرف أنك غائبة عنها، كي أستريح . حينما فتحت الباب، تفاجأت بوجود سي محمد يجلس إلى مكتبك، رأسه يتكئ على راحة يده، ومرفقه على الطاولة . تبعني بعينيّه، وابتسم لي بنفس الابتسامة المليئة بالفخر والتأثر التي وهبنا إياها يوم شكرنا واحتفى بنا نحن الأربعة، سامية وجميلة وأنت وأنا . فدخلت الغرفة، وفي اللحظة التي أغلقت الباب، رأيت رامل وسي مراد ودحمان، يقابلون سي محمد، ويجلسون على سريرك . خفق قلبي من الفرح . رحّبوا بي، وناداني سي مراد وقال وهو يربت براحه يده على الفراغ الذي كان بينه وبين دحمان : « تعالي اجلسي هنا، بيني وبين دحمان . إنّه مكانك، احتفظنا به لك » . فجلست وأحاط دحمان بكتفي وقال بضحكة هادرة : « رايح يوقّع الزبل يا اختو ! » . في تلك اللحظة، هزّني عليّ ليوقظني . ولكنني أعرف أنّه حلم مُنذر . »

كنت أعرف العلاقة الشبه أبوية التي تربط حسيبة بسي مراد : أخذها تحت جناحيه الراعيين وساعدها على الاندماج داخل مجموعة مَخبر صناعة المتفجرات . وبما أنّني أعرف أيضا علاقتها بدحمان : إذ كان الاثنان، حسيبة ودحمان، خبيرينا في شؤون المتفجرات، وكنا جميعا نفتخر بمهندسينا البارعين . لم تكن تبكي، ولكنني رأيت في نظرتها وميضاً أفرعني، كما لو أنه خضوع هادئ لَقَدَرٍ مأتني . فاندفعتُ أهزّها وأشرح لها الوضع الصعب الذي نعيشه، وألومها على انسياقها خلف الوسواس المدمرة : « اسمعي يا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

اخْتِي حسيبة، إنّ الموت يحوم حولنا منذ شهور عديدة، لم يكن إلى جانبنا فقط، وإنما عايشناه في أجسادنا وأرواحنا كتجربة جماعية. أمرٌ عاديّ بالنسبة لمكافحين. نحن في حرب وشعارنا « الانتصار أو الموت ! ». فرغم فقدان إخوة وأخوات بأعداد لا تحصى، وقد عشنا مقتل سي محمد وعمي مصطفى وعرباجي وزينزّر، وغيرهم. وقد استطعنا في كل مرة أن نتجاوز الحنّ ونواصل الكفاح، وهو الشيء الذي ينتظرونه منا. لذلك، من فضلك، ارمِ هذه الوسواس من رأسك، ولا تجعلني حلما يهزمك ؛ ما رأيته ليس إلا حلما ! أمر طبيعي أن تحلمي بسي مراد ورامل في الليلة التي تلي مقتلهما ». سكتتُ لأنّ الدموع خنقتني. حافظت حسيبة على هدوئها، وقالت بصفاء ذهن أرعيني : « لستُ منهارة ولم أفقد الأمل في مواصلة الكفاح. أردت فقط أن أتقاسم معك قناعة تراودني دوما : إنني سأموت قريبا. أنتِ تعرفين جيّدا أنّه في تفسيرنا للأحلام، إذا رأى شخصٌ أمواتا يعرفهم، فجاءوا يبحثون عنه، أو احتفظوا له بمكان إلى جانبهم، هذا يعني أنه سيلتحق بهم قريبا، أي أنه سيموت. هذا كل ما في الحكاية ». بلا تفكير، قلت لها باندفاع : « ولكنك قلت أنك جلست بين دحمان وسي مراد. ودحمان بالسجن، لم يمت بعد ». شدتني حسيبة، صغيرتنا ولكنها حكيمتنا، من الكتفين وقالت بصوت خافض، أقرب إلى الهمس، ولكنه هادئ، واضحة حدّا لهذا الحوار السريالي : « نعم، دحمان في السجن، ولا تنسَي أنه محكوم عليه بالإعدام. إذا كنت تعتقدين بأنهم سيغفرون له إنشاء مخبر للقنابل، وأنه خبيرنا الرئيسي والكيميائي البارع في صناعة القنابل التي بدونها ما كانت الحرب تنتقل إلى المدينة الأوروبية، فأنت مخطئة على طول الخط. طبعاً أتمنى لدحمان عمرا مديدا، ولكن الأهمية التي كان يحتلها داخل منظمنا العسكرية تجعلني أخشى عليه الكثير. في الحقيقة، يقول حلمي بأنّ إخواننا الشهداء جاءوا يبحثون عني وعنه في وقت

واحد . « أحسست بالغباوة وأنا أجيبها بمثل شعبي : « كل شي بالكتاب ، اللّي يعيش يشوف ! » . وقد ذكرّني هذه الصيغة الشعبية المعبرة عن العجز إزاء نوائب الدهر بمقطع أغنية مشهورة كانت تردده سامية في 1955 : « اللّي كان يكون » . فتساءلنا عن مصير أختنا سامية التي لم يأتينا عنها خبر منذ نهاية 1956 . كنا نعرف أنها تزوّجت ابن عمّها أنيس في 24 ديسمبر 1956 ، كما نعرف كلمة التهنئة التي بعثها إليها الأخ ياسف : « نار الفرح هذا هو هديتنا بمناسبة زواجك » ، وهو يشير طبعا إلى التفجيرات التي نفّذتها المنظمة في مساء « النوال » ذاك . كنا نعرف بأنها ستلتحق بزوجها الذي كان يواصل دراسته في فرنسا . أين اختفت ؟ ما هي وضعيتها الآن ؟ كيف عاشت مقتل جميع الإخوان في الشهور القليلة الماضية ؟ تصوّرنا طبعا أنها ستكون حزينة لأنها كانت بعيدة عن ساحة المعركة ، وأنها تتألم بقساوة من خسائرها المتتالية . أخبرنا الخو ، وهو العارف بكل شاردة وواردة تحدث في مدينة الجزائر ، أنّ منزل والدَي سامية قد تعرّض للمداهمة والتخريب بعد أنّ تعرّفت مصالح الأمن الفرنسية عن هوية واضحة قنبلة الكافيتريا . من حسن حظها أنها لم تكن بالمنزل ، ولكن المظليين خربوا الدار الجميلة لشارع صالفاندي ، واضطرّ القاضي لخضاري برفقة زوجته لآلة زهور إلى اللجوء إلى المغرب أو إلى تونس . ولن تعرف حسيبة أبدا ما عرفته عندما التقيت سامية ، بعد خروجي من السجن ونقلي إلى تونس ، في ماي 1962 . بالفعل ، كان لي الحظ السعيد باللقاء من جديد بصديقتي وأختي سامية ، وزوجها أنيس وماما زهور والأب لخضاري . فحكّت لي سامية كيف تهجّمت السلطة الاستعمارية على والدَيها ومنزلهم وأثائه وهم يكتشفون أنّه بيت « إرهابية الكافيتريا » . شرحت لي أنها لم تبق مع أنيس إلا بضعة أسابيع في فرنسا قبل اختيار الاستقرار بتونس . ثمّ كلّمتني عن عبّان رمضان الذي كان لها الشرف بأن تعرّفت عليه وعاشرته ، وحكّت لي

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

كيف كان عبان العظيم يفضل دوما الإقامة في شقة سامية وزوجها المتواضعة في تونس. كان عبان يتناقش معها كثيرا، كما أنه يقرأ ويكتب كثيرا أيضا. قالت لي بأنه فعلا كان عبقريا حقيقيا له نظرة مستقبلية منيرة، وقد ذكرها بسي محمّد بنظرته المتسامية وتحليلاته اللامعة والصارمة، ومواقفه الصائبة، الشفافة والتي لا تقبل النقض، ولكنه بدا لها حزينا ومتشائما في اللحظة الأخيرة التي استقبلته في بيتها. كان ذلك عشية ذهابه إلى المغرب حيث تمّ، للأسف الشديد، اغتياله من قبل إخوانه في الكفاح، في أوج فترة السباق المقيت من أجل السلطة.

ولكننا كنا في يوم 28 أوت 1957، وقمنا، حسيبة وأنا، بعفوية، بحوصلة حقيقية لأعداد الموتى والمسجونين من مجموعتنا. أدركت أنّ أغلبية إخوان وأخوات مجموعتنا الرائعة هم في عداد القتلى أو المسجونين والمحكوم عليهم بالإعدام، أو ضمن أعداد المفقودين. ولم يبقَ ضمن « الأحرار » إلا أربعتنا : ياسف، وعلي، وحسيبة، وأنا. وأضفت لأختي حسيبة : « ولا ننسى عليلو المسكين، ولكن الشقي في وضعية أسوأ من الموت. لقد دمّره التعذيب، وهو يتيه نصف مجنون في القصبة، ممقوت إلى الأبد، في حين كان محبوبا جدا قبل اعتقاله وإخضاعه إلى التعذيب الشنيع وإدماجه ضمن فرق رجال « الزروقة » الخائنين ».

بعد صمت طويل، قالت حسيبة : « قبل أن ألتقي بكما، أنتِ وسامية، عند لالة في منزل بلحفاف، سبق لي أنّ رأيتهما ذات يوم وأنا أخرج من حانوت « لاكونفولاسيون ». كنتما تدخلان وأنا خارجة. فهمتُ حينها أننا نشتغل مع نفس المسؤولين : بوعلام أو صديق، وعبد الله الشاب، المدعو مراد الصغير. أتعرفين أنه هو الذي أنقذ حياتي يوم انفجر مخبر الأبيار، حيث توفي رشيد كواش ؟ يا له من فتى رائع ! أشتاق إليه كثيرا. يكون هو

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

وبوعلام قد التحقا بالجلال . سيطيل الله في أعمارهما، إن شاء الله . أنت لم تعرفي مجموعة بئر خادم ومجموعة الأبيار، أشخاص رائعون، مات أغلبهم أو اعتُقل . أنا متأكدة أنك كنتِ ستنسجمن جيداً مع الأخوان تمسيت، مناضلان خارقان، ملتزمان، متضامنان، وغريبان أيضاً، أحدهما طبيب . إنهما في السجن وأتمنى أن لا يعرفا مصير أخينا فرنان إفتون . هل تتصورين الكارثة ؟ عمي مصطفى، سي مراد ورامل، قُتلوا؛ وجميلة ودحمان وعبد الغني في السجن ومحكوم عليهم بالإعدام . ستكون أعجوبة إن نجوا من تنفيذ حكم الإعدام عليهم ! وخاصة دحمان، روح ومهندس مخبر درب غرناطة . أخاف أن لا ينجو من المقصلة . أشعر بالرعب وأنا أقول هذا الكلام . ولكن الحلم جاء ليؤكد مخاوفي . أنا مؤمنة، وأرى نفسي ألتحق قريباً بالإخوان في الآخرة . ولكن لا تقلقي، لم أستسلم بعد . وأنا مستعدة لمواجهة ماسو شخصياً، بشرط أن يكون معي عليّ ليطلق الرصاص، وعمر الصغير ليقودني بين أزقة القصبة . وأختي العصى الترويض، وثرثرتها وحيلها كي تحل جميع المشاكل، وأطبقها اللذيذة وشهادة القبطان شابان لتحمي بيتها من مدهامة المظليين . يجب على أختي أن تبقى دوماً إلى جانبي . ثم انفجرت بضحك ساخر مزق قلبي . بقيتُ خرساء، لأن الرد الوحيد الذي تبادر إلى ذهني : « ما دامت هناك حياة فالأمل موجود » ليست مناسبة ولا تفيد في شيء . واصلت كما لو أنها تخاطب نفسها : « الموت، الاعتقالات، المنازل المخربة، تلك المنازل المنيرة بألوانها المتألعة تحت الشمس، الأفراد والعائلات المدمرة، المفقودون، المعدومون، مصانع التعذيب . . . من سيقوم يوماً بإعداد حوصلة دقيقة لجميع هذه الجرائم ؟ هل تعرفين ؟ كان أحد الأخوين تمسيت يقول دائماً بأن كل شيء يوجد في جرائدهم، يكفي أن نعرف كيفية قراءتها . يجب الاحتفاظ بهذه الجرائد » . سكنتُ خوفاً من الانفجار بالبكاء، ذلك أن حسية

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

على صواب. ستموت إلى جانب عليّ وعمر الصغير ومحمود وقد مزّقهم الانفجار، موت عنيف حقا. خنقتني الدموع أيضا لأنني أعرف المعنى الذي تمنحه ثقافتنا للأحلام، وقد أرعبني حلم حسبية من اللحظة التي روته لي. جفّ حلقي لأننا هناك في الهضاب العليا أيضا، لدينا اعتقاد بأنّ الحوصلة المأتمية التي أعدّتها حسبية في ذلك اليوم تُعتبر خطاب وداع. يقول الناس عندنا : « كانت تودّع ». عمرها لا يتجاوز 19 سنة، نحيفة، وذكية ومجنّدة وشجاعة، ويا إلهي، كم كانت جميلة ! ذلك الجمال اللاواعي ! وعندنا أيضا يُقال في مثل هذه الحالات، إنّ لها جمال الآخرة. وكى أطرده هذه المعتقدات، عدت إلى حوصلتها وقلت لها بأنّ سي مراد شرح لي بأنّ كثيرا من الأخوات اللواتي لا نعرفهن يمكنهن بالسجون، واثنان منهن، قاصرات، محكوم عليهما بالإعدام. وأضفت أننا كنّا بلا خبر عن حبيب رضا، والإخوة بلحفاف، ولالة والجميلة زينب.

ولكن حسبية أصرّت في ذلك اليوم على إقامة حوصلة فعلية للوضع. فطمأنتني بقولها أنّ لالة، ربّة أسرة بلحفاف، امرأة لا تُقهر وأنها ساهرة على أحوال العائلة. أخبرتني أنّ عبد الرزاق بلحفاف، المدعو « الهُدْهُد »، يواصل نشاطه النضالي، ولكنّ الشرطة تبحث عنه. وختمت قولها : « إذا كان نافع بلحفاف قد اختفى نهائيا عن الأنظار، فلا يكون المسكين إلا ضمن المقتولين والمرميين في عمق خليج « الدزاير »، كغيره من آلاف الإخوة الآخرين. أمّا عبد الله بلحفاف وحبيب رضا، فلسنا ندري عنهما شيئا، يجب الاستخبار عنهما عند الخو أو عليّ. كما يجب أن نسألهما عن مصير كل من حورية، أرملة رامل، وخالتي زَغَلَة ودحمان صاحب الأسنان الذهبية. لقد اختزلنا إلى مربّع وحيد : الخو، عليّ، أنت وأنا. وتصوّري أننا بلا أسلحة ولا ذخيرة ولا قنابل، في مواجهة الأرمادا المبيدة لماسو ووسائله الفتّاكة ! سيكون الأمر

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

مثيرا للضحك لولا أنه دراماتيكيّ حقا . « خطفتُ خاتمتها من شفتيها ورُحْتُ أرْتَل أمامها الدرس الرائع الذي لقّنه لنا، جميلة وأنا، سي محمد حول معنى كفاحنا وأهدافه ووسائله، في غياب حسبية . غمرتني سعادة كبرى وأنا أسرد لها بالتفصيل مجريات المناقشة الراسخة في ذاكرتي مع بن مهدي عشية إضراب الثمانية أيام ؛ فرويت لها بأنّ رئيس لجنة التنسيق والتنفيذ قد ألغى مشروعاً كنا اشتغلنا على إعدادهِ أياماً وأياماً . وبما أننا لم نتفهّم سبب إلغائه للمشروع المهم في نظرنا، شرح لنا كيف أنّ كفاحنا سياسيّ بالدرجة الأولى . تكمن الخطورة في كوننا نعتقد أنّ كفاحنا عسكري : « ذلك أنّ فرنسا العتيقة وجيشها، وريث جيش نابليون، ستسحقنا، في حالة المواجهة العسكرية الصرفة، كما لو كنا حشرات لضالة وسائلنا » .

وقد شرح لنا أنّ كفاحنا المسلّح لا يكتسي دلالتة وفائدته الحقيقية إلا إذا أُخضع إلى الهدف السياسي، « يجب جرّ فرنسا إلى الحقل السياسي، وهنا سنَهزمها لا محالة » . وقد ألحّ على التكرار بأننا لسنا قتلنا مثلما يروّجه ماسو . وختم بن مهدي قوله : « نحن مكافحو جبهة وجيش التحرير، تدفعنا قضية عادلة تاريخيا وشرعية سياسيا : تحرير بلدنا وشعبنا من الاحتلال الأجنبي » . ثمّ أوصانا بقراءة أرضية مؤتمر الصومام التي تشرح جيّدا أهدافنا السياسية . وفي هذا المستوى من المناقشة، طرد وميض الحياة الخضوع من عيني حسبية الجميلتين، فطلبت مني وثيقة الصومام لتقرأها بدورها . وكي أخفّف عنها قليلا، رويت لها، كحبة كرز فوق كعكة حلوى، الحادثة التي طلب فيها منّي سي محمد أنّ أعير له كتابا للقراءة، وكيف ذهبت إلى المكتبة الوطنية واخترت له كتابا ضخما في القانون وتسيير مؤسسات الدولة، في حين كان هو بحاجة إلى رواية يتسلّى بها في أوقات فراغه .

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أحتفظ في أذنيّ بقهقهة أخينا عليّ الرنانة وصورته وهو يتقدّم نحونا ويسأل : « احكوا لي ! من الصباح وأنتم تحاجيؤ وتفكّوا ! ». أجبته بأننا كنا نستذكر سي محمّد رحمه الله، يوم احتفى بنا وكرّمنا، جميلة، سامية، حسيبة وأنا. إنه من أجمل أيامنا، وأكثره تأثيرا علينا. لقد وصل سي محمد مصحوبا بالحو وعليّ، وفاجأنا بالقول أنّه جاء يؤدي مهمة كلّفته بها لجنة التنسيق والتنفيذ. أعطاه يأسف طردا صغيرا، ثم فتح الغلاف بحركات بطيئة، وبعناية ظاهرة، ثم قال بنبرة رسمية جادة : « إنها ميداليات الاستحقاق الأولى للجيش الوطني الشعبي ». أحسست بالدموع تطفح إلى عينيّ من كثرة التأثر والفرح، ومع ذلك قلت مندهشة : « ميداليات ؟ هل لجيشنا ميداليات ؟ ». فقدّم لنا واحدة كي نتأملها. كانت مستطيلة الشكل، 5 سم على 3، ضُربت في معدن بلون الفولاذ المذوّب، وتحمل بوسطها شكل العلم الوطني، مرصّعا أو مرسوما. كنا في نهاية ديسمبر 1956، أو بداية جانفي 1957. حينما أعطاني سي محمّد ميداليتي، كدت أطير من الفرح، وفكّرت : « إنها أحلى وأجمل حلية في حياتي ! ». وكذلك فعل مع الأخوات، سامية جميلة وحسيبة، وهو يوصينا بأن لا نظهرها إلى أحد وأن نخفيها في مكان سرّي. فعشنا أربعتنا لحظات سعادة لا نظير لها، عصية الوصف، سعادة قصوى، امتيازاً خلق بنا في السموات السبع، فكان التأثر قويا إلى حدّ امتلأت عيوننا بدموع الفرح والامتنان والعرفان، فضحكنا وتبادلنا المزح مع الحو وعليّ، كالأطفال تماما. لا أنسى أبدا وجه سي محمّد يقابلنا وينظر إلينا مبتسما، وعيناه تلمعان كما لو أنهما مبللتان، وتلك النظرة العطوفة، المسلية، المتأثرة، الحنونة، الأخوية، ويا إلهي، كم كانت فخورة، تهدّ الجبال ! وكان الحو وعليّ يقفان كجنديين في الاستعداد، ساكتين وجادّين كأنهما في محفل رسمي. وكان المحفل رسميا فعلا، رغم الحياة السرية والصعبة التي كنا نعيشها.

وكانت صديقتي وأختي سامية، المتوفاة في جوان 2012 قبل كتابة هذه المذكرات، تتذكر دوماً ذلك اليوم وتلك اللحظات كلحظة « ولادتها الجديدة ». لتنمّ قريرة العين في جنّة الرضوان . وبدورها تتذكر جميلة بوحيرد، والتي أشكرها من صميم قلبي لكونها استجابت لجميع طلباتي خلال كتابة هذه الشهادة الطويلة وساعدتني كثيرا على إعادة تشكيل الأحداث التي عشناها معا، نعم تتذكر جميلة ذلك التاريخ بتأثر لا يوصف، معتبرة أنّ تلقيها لتلك الميدالية التي سلّمها لها سي محمد، العربي بن مهيدي، بيده هو، « تتويج ملكي في أجمل مملكة : مملكة الشهداء والمجاهدين والصدّيقين ». وقد سألتها أثناء استذكارنا لذلك اليوم عن مصير تلك الميداليات الأربع الأولى التي ضربها جيش التحرير الوطني . ذكرّني أنها سلّمتها لعليلو، قبل غرقه، كي يضعها في مكان آمن، يستحيل العثور عليها . طمأنها بأنه خبأها داخل جدار في منزل بالقصبة لا يعرفه إلا هو، ووعد بتسليمها إياها عند الاستقلال. للأسف الشديد، لقد قرّر ماسو وتعذيبه الوحشي مسارا آخر لأخيـنا عـلـيلـو .

أحيانا، أجد نفسي أحلم بأنّ أبناءنا، أولئك المهندسين اللامعين في صيانة التراث، وقد رأيت ووقفت على عملهم الرائع في دار عبد اللطيف بالعاصمة وفي تلمسان، سيعثرون يوما على هذه الميداليات أثناء إعادة صيانة القصبة، قلعة المقاومة والكرامة والشجاعة، وحصن الحرب التحريرية . لم لا ؟ شبابنا هم أيضا مرتبطون بهذه الأرض، وفخورون بجيش التحرير الوطني وبن مهيدي، مثلنا تماما . ولا يجب أن ينسوا أنّ هذه المستطيلات بذلك المعدن الخشن ترمز إلى الآلام التي عاشها شعبنا منذ احتلال بلد أجنبي لأرضه والتضحيات الجسام التي قدّمها لاسترجاع كرامته وحرّيته . كما لا يجب أن ينسوا أبدا أنّ الحرية والكرامة لا تتعايشان إلا مع الاستقلال والسيادة الوطنية .

الفصل التاسع

اعتقال زهرة ظريف

• اللقاء الثاني مع جرمان تيّون

وقع اللقاء الثاني مع جرمان تيّون في 09 أوت 1957. لم يدم أمل التزام السلطات الفرنسية العليا بتعليق تنفيذ أحكام الإعدام في حق إخواننا، والذي أبلغته السيدة تيّون في جويلية، إلا الوقت الضروري لتحريك وتجهيز المقصلة. بالفعل، ففي تاريخ ما بين 24 إلى 25 جويلية 1957، جاءت عدّة إعدامات لتُحزّن العائلات الجزائرية أكثر فأكثر، والتي جعلتنا نلغي التزامنا بتوقيف وضع القنابل في الأماكن العمومية بداخل المدينة الأوروبية. للأسف الشديد، كان ردّ فعلنا متسرّعا وفاءً منا للعهد الذي أعطيناه لشعبنا ؛ لذلك، فابتداءً من النهار الموالي، عند الظهيرة، وضع فدائيونا قنابل عديدة في أماكن مختلفة دون تحضير جيّد ومحكم للعمليات، بحيث انفجر بعضها محدثا أضرارا مادية فقط، فيما تمكّن العدو من تفكيك البعض الآخر قبل أن تنفجر. ومع ذلك، حتى وإن لم نكن راضين كل الرضا عن نتائج عملياتنا، وبالأخص في نظر الأخطار التي لحقت بمناضليننا، قدّرنا أننا التزمنا بوفائنا للعهد الذي أعطيناه لشعبنا الذي فهم جيّدا أنّ منظمتي جبهة وجيش التحرير لا تزالان نشطتين ومكافحتين. كما لم يخفَ عن العدو أنّ « منطقة الجزائر المستقلة »

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

تحتفظ بقدرتها على إلحاق الضرر في صفوفه، وأنّ طرق كفاحها تضاعف إيماننا في شرعية قضيتنا وفي قدرتنا على إفشال خططه، عوض تحطيم معنوياتنا ووضع حدّ لكفاحنا.

في 08 أوت، أخبرنا « الخو » بزيارة جرمان تيّون نهار الغد. في 09 أوت، عند بداية الظهيرة، قاد الأخ عليّ بوزوران زائرنا عند أختي، في 3 شارع كاطون، حيث كنّا ننتظرها، ياسف، حسيبة، عليّ وأنا. بدأ اللقاء في جوّ مُخرج ظاهر، خُففت منه أختي التي أحسنت الاستقبال كرّبة بيت ناضجة. ثمّ تبادل الخو وجرمان تيّون معلومات وتعليقات حول القنابل التي انفجرت في اليوم الموالي لاستئناف تنفيذ أحكام الإعدام. عند استقباله لها، قال الخو بتصنّع: « علمت أنّك كدت أن تكوني ضحية إحدى قنابلنا ؟ ». أجابته ببرودة: « لو أحدثت قنابلكم ضحية واحدة، لما كنتُ حاضرة الآن أمامكم ». صدمتني نبرة صوتها وطريقة تعبيرها أكثر من جوابها. وجدت فيها شيئا من العجرفة التي عودنا عليها الأوروبيون: خليط من اليقين المتعالي والتعاضم، بمجرد بدء التحوار معهم. أردت أن أُلقي في وجهها بكامل « الاغتيالات القانونية » المرتكبة، والرؤوس المقطوعة باسم حقوق الإنسان؛ ولكن « الخو » ثبّط اندفاعي بنظرة، فغادرتُ الغرفة منزعجة. رفضتُ أن تُنصّب هذه السيّدة نفسها ملقّنة لدروس في السلوك الحسن وبنوع من الأبوية، بذريعة تعاطفها مع شعبنا الغارق في بؤس عميق ومتعدّد الأشكال بسبب بلدها هي. لجأت إلى المطبخ، حيث تبعثني أختي واقترحت عليّ قهوة وهي تذكّرني بمثل شعبي: « اليد اللي ما تقدّرش اتعضّها، بوسّها ». وكانت صائبة. حينما عدت إلى الغرفة، كان النقاش في أوجّه؛ ويتعلّق الأمر بتونس وباريس والأخ كمال (الباش عادل حاج سماعيل)، إلخ. كانت عينا ياسف تلمعان وهو ينظر إلى جرمان تيّون ساهيا. وإلى جانبه، كان عليّ منتبها ويهزّ رأسه من

حين لآخر، علامة الموافقة. وكانت حسيبة تجلس إلى جانب زائرتنا، بوجه مغلق، مستقيمة الظهر، بساقيها المرتفعتين، وهي تجذب بعفوية أسفل سروالها كي تبقى مغطاة، وتحيل نظرها الأزرق من ياسف إلى السيدة تيّون. وبعد أن استمعت قليلا إلى نقاشهما، فهمت أنّ الحكومة الفرنسية قد «تراجعت مؤقتا» عن فكرة تعليق تنفيذ أحكام الإعدام تحت تأثير ضغوطات بعض الأوساط النافذة في فرنسا والجزائر وداخل الجيش، ولكنها تأمل في إقامة اتصال مع قادتنا السياسيين والعسكريين لتبادل وجهات النظر التي يمكن أن تؤدي إلى مناقشات معمّقة حول موضوعات محدّدة. نظرت إلى ياسف، وقرأت في عينيه ابتهاجا كبيرا، فهمت سببه. كانت لدينا حاجة حيوية ومستعجلة لإعادة الاتصال مع إخواننا الكبار في تونس، وها هي زائرتنا تمنح لنا الفرصة السانحة. وتحت ذريعة إخبارهم بموضوع التبادل مع جرمان تيّون، يمكننا إخبارهم أيضا بالوضع الحقيقية والمحدّدة لمنطقة الجزائر المستقلة منذ اغتيال سي محمد، وعرض التقييم المضبوط لحاجاتنا، وبالأخص في وسائل الكفاح. اختار ياسف وجرمان الأخ كمال ليقوم بمهمة الاتصال مع الإخوة الكبار في تونس، واتفقا على أن يلتحق كمال بباريس أول الأمر، بعدما تتلقى السيدة جرمان الموافقة من الحكومة الفرنسية. وبعد ذلك، اتفقا على أنّ السفر من باريس إلى تونس ستنظّمه محدّثتنا. وبعد ذهاب السيدة تيّون، أطلقنا العنان لفرحتنا. كنا متأكّدين أنّه بإخبار الإخوة في تونس بالوضع الكارثية لمنطقة الجزائر المستقلة، سيسرعون إلى إرسال الإمدادات الضرورية. فكُلّفتُ فوراً بتحضير التقرير المرجو بمساعدة سي مراد. فباشرنا بإقامة إحصاء دقيق ومفصّل للوضع في مدينة الجزائر الكبرى، بالتأكيد على أنّ الجيش الفرنسي قد دمر وفكّك المنظمة السياسية والعسكرية وأحدث شرخا وتمزقا في الجانب الاجتماعي. وشرحنا أنّ إعادة تنظيم الشبكة السياسية العسكرية هي بصدد التفعيل ولكنها تتقدّم ببطء نظرا للوسائل الضئيلة التي بحوزتنا. كما

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أخبرناهم أننا أطلقنا حملة تنديد بالطرق النازية التي يخضع لها المناضلون المعتقلون، وكذا السكان، ولكن هذه الحملة تصطدم هي الأخرى بقلة الوسائل التي نملكها والتي تحدّ حتما من فعاليتها. وختمنا التقرير بإحصاء مفصل لجميع احتياجاتنا في العتاد العسكري، ووسائل الاتصال والموارد المالية. بالفعل، كانت شبكات جمع الأموال هي أول من سقطت، باعتقال مساهميتها والعاملين داخلها، مما قلّص من مواردنا المالية بشكل رهيب، في وقت يعيش السكان هم أيضا وضعية مزرية.

• الأخطاء الأربعة القاسمة

عندما انتهينا من التقرير، قرّر الخو إعادة كتابته كي لا يشكّ أحد في أصالة الوثيقة، ذلك أنّ الإخوة الكبار في تونس يعرفون كتابته. ومع ذلك، ليس إخوة تونس هم وحدهم الذين يعرفون كتابة الخو، يعرفها أيضا العقيدان الفرنسيان ترينكيي وفودار ومصالحهما ؛ لهذا، اعتبرت دوما أنّ الخطأ الأول الذي ارتكبناه، مخترقين قواعد الأمن الصارمة، يكمن في قبولنا أن يُعيد يأسف نسخ التقرير قبل إرساله إلى تونس. بدون هذه الكتابة المعروفة، كان يمكن لكمال – الذي سيُعتقل فيما بعد – أن يُنكر بسهولة معرفته بقائد « منطقة الجزائر المستقلة ». ولكنني سأروي تفاصيل هذه الفترة الحرجة في حينها. تقررّ سفر الأخ كمال إلى باريس في 25 سبتمبر 1957، وقررّ « الخو » تنظيم جلسة عمل أخيرة عند أختي في 3 شارع كاطون. وقد أُخبر كمال بأنّه سيقضي الليلة معنا بسبب حظر التجول المفروض فعليا على القصبة ابتداءً من التاسعة ليلا. إنّ قرار عقد الاجتماع في المنزل الذي نختفي فيه وإيواء كمال أثناء الليل، حتى وإن كان مناظلا، سيتسبّب في خسارتنا لاحقا. إنّهُ خطؤنا الثاني. في 23 سبتمبر، ومثلما اتفقنا، وصل كمال في بداية الأمسية. كان

اعتقال زُهرَة ظريف

ذلك اللقاء أوّل تعارفنا المباشر به . كان بقامة متوسطة، متينَ البنية، وبعينين كبيرتين جاحظتين نوعاً ما . أكيد أنه كان يضع قدميه لأوّل مرّة في منزل أصيل للقصبّة، تحيل هندسته وتهيّئته الداخلية وطريقة تأثيثه إلى الأزمنة البعيدة لما قبل الاستعمار الفرنسي . فقد أطل نظره، خلّسة وبإعجاب خجول، على العناصر الهندسية المعمارية . بمجرّد أنّ تناول الكلمة، عرفت أنه من منطقة بوسعادة . كانت نبرته الغنائية نبرة ناس بوسعادة، تماماً مثل مراد الصغير . يكون كمال (الباش عادل حاج سماعين) ينحدر من قبيلة قوية من هذه المنطقة من الهضاب العليا، التي أنجبت العلماء والقضاة والباشا آغوات . اعتبرت أنه الشخص الملائم للمهمة التي اتفقنا عليها مع السيّدة جرمان تيّون، الرجل المناسب لإقامة الاتصال مع المسؤولين الفرنسيين ونقل رسالتهم للإخوة الكبار في تونس . دون أن ننسى أنّ الخو كلّفه أيضاً بإخبار الإخوة في تونس وبطريقة شفهيّة عن مسار وكيفية إدخال العتاد العسكري الذي كنا بحاجة إليه . كنت منشغلة بتعداد الجوانب الإيجابية في شخص كمال، وكنا نستعد لتناول العشاء، حينما تدرجت أخيتي عبر السلال، آتية من السطح حيث كانت تراقب الحركات المشبوهة . دخلت علينا لاهثة وأخبرتنا بأنّ فرقة من المظليين تتقدّم وتحاصر الحيّ الذي يتواجد فيه المنزل . وأضافت أنّ العساكر يقفزون من سطح إلى آخر باتجاه 3 شارع كاطون . وكنا نعتقد أنّ مخبأنا آمن، فلا يعرفه إلا أربعتنا، الخو، علي، حسيبة وأنا، زائد أخيتي والأشخاص الراشدين الذين يسكنون معها . وكانت العائلة التي تؤوينا في 4 شارع كاطون تجهل أين نتوجّه حينما نغادر منزلهم . زيادة إلى أنّ مخبأنا يصعب العثور عليه، ذلك أنّ عليّ بناه بذكاء وكيفية مموّهة بدقة كبيرة . لقد حوّل « السدّة »، الجزء المكوّن لغرفة الطابق الأرضي إلى مخبأٍ ندخل إليه عبر كوة صغيرة في أعلى السلال، لا يُرى بالعين المجردة . إنّ المشكل الوحيد المطروح هو وجود كمال، الغريب عن الدار

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وعن جماعتنا، حتى وإن كان مناظلاً. أولاً لأن قواعد الأمن تُحتم علينا أن لا نُعرفه على مكان المخبأ. ليس لنقص في الثقة، وإنما لمعرفةنا بالوسائل الرهيبة للتعذيب المطبقة حتماً على كل معتقل والتي تُنطق الأبكم. زيادة إلى أن مصالح ماسو أصدرت منذ شهور قليلة قانوناً يجبر أهل القصبة على إخبار محافظة الشرطة بوجود أي شخص غريب جاء يقضي الليلة عندهم. طبعاً، لم تُخبر الشرطة بوجود كمال لأسباب نضالية معروفة. في الوقت الذي كان المظليون على وشك اقتحام المنزل، فكّرتُ بأننا أمام خيارين ممكنين : إما أننا نبعث كمال إلى غرفة أخرى، وتساعدنا أختي على الولوج إلى المخبأ. فلا يعرف كمال أبداً أين يوجد المخبأ، لأن المظليين سيقودونه حتماً إلى ثكنتهم للتحقيق معه ومعرفة سبب وجوده هنا. وإما اللجوء إلى المخبأ برفقة كمال، ما يمثل اختراقاً لقواعد الأمن وخطورة أكيدة عليه، وخطورة علينا في حالة اعتقاله لاحقاً. وكان علينا اتخاذ القرار بسرعة، وكنت مقتنعة بأن « الخو » لن يخترق قواعد الأمن. اعترائني قلق كبير وأنا أرى تردد « الخو » في اتخاذ قراره. سألني بالنظر. اقتربت منه وهمست له : « يا خو، سيعتقد المظليون ببساطة أنه (كمال) صديق أختي ؛ وهذا شيء عادي بالنسبة إليهم ». وكنت مقتنعة بأنه من السهولة بمكان أن نمرّر فكرة أن كمال هو « صديق » أختي، أرملة لا تزال في ريعان الشباب والجمال. وكنت مقتنعة أن « الخو » سيقبل اقتراحي، ولكنه ردّ عليّ ببرودة : « من المستحيل تشويه سمعة أختي والمساس بشرف سي مصطفى رحمه الله ! ». التفت نحو أختي وطلب منها أن تحضر نسخة من المصحف الشريف، فنفذت طلبه في سرعة البرق. بعد ذلك، طلب الخو من كمال أن يضع يده على المصحف ويُقسم بأنه سينسى المنزل الذي نتواجد به وكذا مضيافته؛ وبأن لا يُفشي سرّ هذا المكان مهما كانت الظروف. ذهلت ! ولكن كمال، الذي يبدو أنه لم يفهم سبب هذا القسم المفاجئ لأنه يجهل

كل شيء عن ظروف التنقل القاسية التي نعيشها في حياتنا السرية والخطورة المحدقة، فعل ما طلب منه ياسف بهدوء ودون تساؤل . وكانت أختي تحثنا على التحرك والاختفاء بسرعة، لأنّ المظليين بدأوا يخبطون على الباب وسيكسرونه عند تأخير بسيط . فالتحقنا بمخبئنا برفقة كمال، مستخدمين السلم الطويل الذي سحبه أختي مباشرة بعد نزولنا إلى المخبئ . وبمجرد دخولنا، أعدنا الصفيحة الإسمنتية الثقيلة إلى مكانها لتغطي المدخل الأعلى . ثم أرجعنا العمود الحديدي الذي يشدّ الصفيحة الإسمنتية إلى الجدار المحاذي للفتحة .

هكذا تصبح الصفيحة-الغطاء مُحكمة الغلق بحيث يصعب على نظرة غير عارفة أن تشكّ في وجود فتحة بالجدار . كما أنّ ذلك النظام يضمن إخماد الطنين : إنه نظام عازل للحرارة كما يقول المختصون في الديناميكية الحرارية . ولكن للأسف كان هذا خطأنا الثالث والذي سيسلّمنا إلى مظليي الكولونيلين ترينكيي وقودار، الأيدي والأقدام مربوطة، في الـ 24 ساعة الآتية . ذلك أننا لو لم نكشف المخبئ للأخ كمال، لم يكن ممكنا للمظليين بأن يكتشفوه بأنفسهم . ولكن التعذيب أرغم أخانا كمال على « الكلام » . لم أحكم أبدا على فعله، رافضة أن أنزع التهمة عن المظليين وطرقهم الوحشية في الاستنطاق والخائن فاندريش، المدعو صافي . كنا في 23 سبتمبر مساءً : أحسنا أننا، الخو، كمال وأنا، في أمن كلي داخل مخبئنا . فمن جهة، كان مخبؤنا عصي الاكتشاف، ومن جهة ثانية كان بيت أختي محميا بالوثيقة التي تحمل طابع وتوقيع القبطان شابان، والتي تشهد أنّ أختي كانت واحدة من « أعوانهم » الذين يجب مساعدتهم وحمايتهم .

وقد سبق لي أن حكيت كيف صُممت وطبقت هذه الحيلة، وكيف حمّتنا خلال أشهر، بما في ذلك تلك اللحظات الرهيبة التي تلت مقتل الأخوين سي مراد ورامل . كان المظليون بالدار والحبي، وكنا ننتظر بصبر نهاية العمليات،

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

يُغرقنا ظلام دامس في عتمة مطلقة. وبدأ الخو يهمس في أذن كمال، ربما كان يشرح له أسباب إخضاعه إلى القَسَم قبل أن يكشف له وجود ومكان المخبئ. أما فيما يخصني، فكنت أحسّ بالاختناق في كل مرة نتخندق داخل ذلك المخبئ. فكنت أجد صعوبة في التنفس بمجرد غلق الصفيحة الإسمنتية، لأنّ ظلام المكان يذكرني بالقبر. لا شعاع ضوء ولا طنين، وحتى الهواء أحس به فقيرا من الأكسجين. وكنتُ أجدُ دوما صعوبة في السيطرة على الهلع الذي ينتابني عندئذ. أحاول ضبط خفقات قلبي، والتي أسمعها وأحس بها على مستوى رقبتي. كنت أحس بنفسي خارج عالم الأحياء. في ذلك المساء، بدا لي الأخوان الخو وكمال كما لو أنهما كائنان غير واقعيين. وقد خففت همسات الخو قليلا من رُهاب الانغلاق الذي يعصر أحشائي، وأغرق في موقف ذهني للخضوع لم أعرفه من قبل. وفهمت بعد ذلك بفترة طويلة أسباب ذلك الموقف الذهني. في عمقي، كنت مقتنعة بأنّ الأخ كمال لن يفهم شروح الخو لأنها تحيل إلى واقع لا نفهمه إلا بالمعايشة والتجربة. كيف يمكن لباش عادل الذي لم يعايش الموت أبدا، ولا التعذيب والأسلحة ولا القنابل والاعتقالات، أن يفهم ما يقول له ياسف؟. كيف يمكن لأخي كمال الذي لم يعيش أبدا حياة مطارد، حياة ترقّب دائم للخطر، حياة من تبحث عنهم قوات الأمن وتطاردهم من دار إلى دار، كيف له أن يسمع حقا ما يحاول أن يشرحه له « الخو »؟ كيف يمكن لكمال الذي لم يعيش تقاسم شقاء وعذاب ليلة 2 إلى 3 فيفري أن تكون له فكرة عما يكونه التعذيب ونتائجه على الأجساد والكائنات والإرادة البشرية؟ لا، كمال لا يعرف ولا يمكن له أن يفهم، بأية طريقة كانت. كنت مقتنعة أنّ بعض المواقف في حياة الكائنات البشرية لا يمكن إدراكها ولا فهمها إلا بالمعايشة والتجربة. وكانت حياة كمال وتجربته مختلفة كلية عما كنا نعيشه ونجرّبه.

لهذا، قلّدت وضعيّة حسيّية المحبّة، فجلست مضمومة الساقين المطويّتين، ألصقت ركبتيّ إلى صدري، وضعت عليها رأسي، ورحت أتنفس ببطء وانتظر لحظة الإفراج. وقد انتابني إحساس كئيب بأن حياة كفاحي ستنتهي بداخل ذلك المخبأ. أخيراً، جاءت أختي وأفرجت عن كرنا. كان النهار قد طلع. ولم يشعر أحدنا بالرغبة في الراحة أو النوم. بالعكس، كنت أحس برغبة عارمة في أن أتحرّك وسط عالم الأحياء، أن أعود إلى « الحياة العادية »، أن أستعيد الحركات اليومية البسيطة لناس لم تكن حياتهم مؤجّلة بمرسوم من الجنرال ماسو. آه ! ما أبعد تلك الأيام الصيفية الطويلة، الرتيبة، بحرارتها المرتفعة، خلال العطلة في فيالار، قريتي الصغيرة بالهضاب العليا ! وكان مخبؤنا يجعل تلك الذكريات جميلة، يمسّحها إلى لحظات رتيبة لحياة سعيدة، طبيعيّة، تسري على إيقاع الفصول. ولكن الذكريات الجميلة، والحنين إلى الماضي السعيد، هذا الشعور المضللّ، خطيرة على شخص في وضعي. لذلك، فكنت ألفظها جانباً، أهزّ جسدي بقوة، وأقرّر أن أعيش « في كليّتها » ذلك اليوم من 24 سبتمبر، وقد بدأ فجره يطل علينا لطيفاً، تعطره روائح الياسمين والنسمة البحرية الآتية من خليج الدزاير إلى القصبة، ابنته المفضّلة، مع أن العساكر الكفرة يغتصبونها ويعيقون حياتها يومياً. الشيء الذي ينفث فيها الرغبة والإرادة والشجاعة للوقوف بحزم والمقاومة ضد المحتلين، ومحاربتهم والتغلب عليهم ورميهم إلى الضفة الأخرى. كان حيننا ينظّف نفسه من إهانات المظليّين الذين غادروه أخيراً، فيما لا تزال بقية أزقة المدينة العتيقة تغرق في غفوة خفيفة. فجأة، وسط ضجيج وأصوات النساء اللواتي ينظفن الأرضية بسكب دلاء الماء لحو آثار مرور القوات المحتلة، بدا لي أنني أسمع صدى نسمة البحر وهي تخاطبنا : « انهضوا ! كافحوا ! وستنالون مجدّ الشرف والحرية في نهاية الكفاح والتضحيات ! ». نزلت مباشرة، وطلبت من أختي أن تتركني أعدّ فطور الصباح. وداخل نشوة

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

قصوى، وجدت مرة أخرى تلك الحركات البسيطة في سحب الفناجين وتحضير الصينية وملء السكرية وإلقاء القهوة المطحونة داخل الماء المغلي، ومراقبة الغليان لتفادي فيضانه، ومراقبة الحليب فوق النار... فبعد الانغلاق الشاق وكوابيسه داخل المخبأ، أنعشتني هذه الحركات البسيطة وأعادت إليّ معاني الحياة. رغبت في الغناء، ولكنني تذكّرت دروس لالة في السلوك المثالي والمنظّر من مجاهدة، فامتنعت. فاستحضرتُ لالة، عزيزتي لالة، وزينب الحنون الجميلة، وعائلاتهما الرائعة، إخوتنا في الكفاح عبد الرزاق، نافع، أمقران، عبد الله، وكل أفراد عائلة بلحفاف، السخية والمضيافة والمتضامنة، والملتزمة كلية، بالرجال والنساء والممتلكات، في خدمة قضيتنا، فغمرتني نشوة أخرى أثلجت صدري، فابتسمت عرفانا لجميع هؤلاء. سألتني أختي عن سبب ابتسامتي الباهتة، فحكيت لها حصص أداء الصلوات خلف لالة، إمامنا الرائع؛ فضحكنا معا، ناسيتين أنّ رجلا غريبا عن الدار، كمال، يمكن أن يسمعنا. فلتذهب نصائح لالة العزيزة إلى سلّة المهملات، فكنا، دون الإفصاح عنه، سعيدتين لأننا نجونا مرة أخرى من مخالب المظليين. عطّرت رائحة القهوة كامل الدار، فتناول الخو وكمال فطورهما الصباحي في صمت، بينما لم نكفّ، أختي وأنا، عن الثثرة والضحك كما لو أننا التقينا بعد فراق طويل. ربّما كنا بحاجة إلى خلق وهم حياة طبيعية، ولو لبضعة ساعات، لبضعة دقائق. على كل حال، كنت سعيدة بإحساسي بالحياة تسري في جسدي وروحي، بعد ليلة من الانغلاق الشاق داخل المخبأ. كنا نريد توقيف الزمان لتحويل لحظة المرح تلك إلى لحظات خالدة. بعد ذلك بفترة طويلة، وأنا بالسجن، تذكّرت تلك اللحظات وأقنعت نفسي بصواب مثل شعبي من عندنا، يذكر عادة في مثل هذه الحالات « حتى الموت تعطي الراحة ». ولكن ليس ماسو ومظلييه : أبدا.

اعتقال زُهرَة ظريف

بعد ذلك بشهور وأنا بالسجن، ما فتئت ألوم نفسي على عدم الفهم بأنّ تلك اللحظة النادرة من الجبور والمرح كانت تنذر بوقوع أحداث مأساوية. لم ينتبه الخو، ولا أختي، ولا أنا، بأنّ تلك اللحظة التي جمعتنا عند الفجر بأخ غريب لم تكن لائقة ومنضبطة مع قواعد واحتياطات الأمن في حياة عمودها الريب والترقب. كما لم يلاحظ أحد منا، نحن الثلاثة، المعجونين في ثقافتنا التقليدية، أننا، أختي وأنا، خرجنا من تحفظنا الطبيعي وكتماننا العادي لنشر ونضحك ونمزح ناسيتين أنّ هذا الأخ الغريب عن الدار، يلقانا لأول مرة. كان من المفروض، واحتراما لقواعد الأمن التي نطبّقها في حياتنا بصرامة، أن ننفض، مثلما فعل الخو مرارا وتكرارا في مناسبات وأماكن أخرى حينما يستهدفنا الخطر، ليقول: « يجب مغادرة هذا المنزل وهذا الحيّ فوراً ! ».

ولكننا فعلنا العكس تماما، بحيث بقيت فيما بعد ألوم نفسي على عدم قدرتي على فك تلك الشفرات، وبأنّ تلك اللحظات التي أطلقنا العنان لـ « هبالنا »، مثلما يقال عندنا، كانت في حقيقتها إشارة وداع للقصة ودار أختي والحرية – حتى وإن كانت محدودة ومعرّضة للخطر دوماً –، وللخو وأختي وعززيّ عليّ وحسيبة اللذين لن أراهما أبداً. إنه آخر فطوري الصباحي في القصة إلى غاية جويلية 1962. قضيت خمس سنوات من الاعتقال والانغلاق قبل أن أجد نفسي، يتيمة الأمّ ويتيمة الكثير من أخواتي وإخواني في الكفاح الذين سقطوا شهداء، مقابل مائدة وصينيتها النحاسية المزينة بأنواع الحلويات، في مدينتنا العتيقة المخربة، المعذبة، ولكنها محرّرة بفضل دماء أبنائها. وكنا لا نزال في صبيحة 24 ديسمبر 1957، أحرارا، نذوق طعم فطورنا الصباحي بعد ذهاب المظليين السفاحين. كنت أعيش تلك اللحظات اللذيذة، ولم أنتبه إلى حالة « الخو » المتعبة، بوجه مكفهّر، بحمّى قاصمة وصداع في الرأس عصيّ الاحتمال. فحثّته أختي بأنّ يصعد إلى غرفته ويستريح قليلا.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

رفض منتظرا أن ينهي نسخ التقرير المهم التي سُبِّعَتْ إلى تونس. ومثلما اتفقنا، كان علي كمال أن يسافر إلى باريس في نهار الغد، حيث تنتظره جرمان تيّون. وقبل أن يفارقنا، ذكره « الخو » بالتعليمات : عدم نسيان التأكيد عبر البريد الذي يحطّه في ظهيرة ذلك اليوم على الخامسة بأنّ شروط السفر متوفّرة. وضع كمال الوثيقة الثمينة وسط ملفات عمله، وغادر المنزل. وبعد ذلك، التحق الخو، وهو في وضعية سيئة للغاية، بغرفته التي تطل على 4 شارع كاطون، حيث يوجد عليّ وحسبية. في اللحظة التي ناولته أختي بعض الأدوية التي طلبها منها، وقد أدركت خطورة حالته. كانت درجة حرارة جسمه 40 درجة، ويشعر بوهن يهدّد جسده منذ بضعة أيام، وأوجاع عنيفة في الرأس، مع صعوبة في ابتلاع الأكل. وها هي أختي تتحوّل إلى ممرضة تفحص حلقه وتجويف فمه، فقرّرت إخضاعه إلى معالجة بالأعشاب التقليدية، آملة أنّ تقضي على التعنّن المرئي بالعين المجردة. فتركّتها تبلّل رأسه ويديه وساعديه وقدميه بسائل الخلّ، وتشربه أخلطة عشبية تملك هي وحدها أسرارها، وذهبت لإخبار حسبية بأنّ ياسف مريض. بعث عليّ بأدوية وأخبرنا بأنه سيقوم بالمستحيل لإيجاد طبيب ثقة يأتي لكشفه، كما أمر بأن يلتزم الخو الفراش، مؤكّدا أنه وحسبية سيلتحقان بنا عند الثالثة أو الرابعة من صباح الغد، في الوقت الذي تقل فيه الدوريات.

خلال ذلك اليوم، تبادلنا، حسبية وأنا، الكلام مرات عديدة من مكانينا اللذين يفصلهما شارع كاطون. وحدها الأصوات تُسمع. كانت حسبية مختفية عن الأنظار خلف مشربية نافذة السالام المؤدية إلى الطابق الأول لمنزل 4 شارع كاطون، فيما كنت خلف مصراعي نافذة منزل أختي التي تقابلها، انطلاقا من الغرفة التي كان « الخو » المريض، في نصف غيبوبة، ممددا فيها يتلقى العلاج التقليدي من أختي. في ذلك اليوم، لم يقتصر الكلام عن

صحة أختينا أو عن نشاطاتنا النضالية، وإنما تجاوز هذه الأمور الآنية إلى الحديث عن منطقتينا وعائلتينا، لنكتشف بعض الروابط القديمة التي توحد العائلتين. يمتد سهل الشلف، مسقط رأس حسيبة، إلى غاية سفح جبال الوُشريس، الذي يطل جبل منه على السُهوب العليا لمنطقة السُرسو، مسقط رأسي. وقد قُربتنا تلك المحاورات العفوية عبر النافذتين أكثر من ذي قبل. واحتفظ وإلى اليوم في أعماقي بصوت حسيبة الرنان وبضحكاتها وبحكاياتها الطريفة المليئة بتفاصيل صغيرة حول عائلتها، هي التي عودتنا على تحفظ يقاوم أصعب الامتحانات برغم صغر سنها. كما احتفظ أيضا وبالأخص بذلك الحضور – الغياب لحسية والالتزام الذي اتخذناه على أنفسنا بالتقصي لدى عائلتنا للتأكد أو لإلقاء الضوء على بعض النقاط الغامضة، ولم نكن ندري ما يخبئه لنا القدر، وبأن ذلك الحوار الحميمي الطويل هو استهلال لفراقنا الأبدي. فزيادة على تبادل الحديث المتقطع مع حسيبة، كان يومي ذاك، آخر أيام « حريتي » تحت الاستعمار، عاديا، نشيطا ومكثفا، مثلما يمكن لامرأة في القصبة أن تعيشه. فساعدت أختي على أداء الأشغال المنزلية المتعددة والاعتناء بالأطفال بحيوية وحبور، كما قضيت فترة وجيزة مع « يما » في الطابق الأول. كانت عجوزا مسنة، وتجد صعوبات جمة في التحرك، فتقضي أيامها جالسة، صبورة، تنشغل بتحريك حبيبات سُبحتها، تتحدّى الزمان والموت. وجدّتها وأحفادها يحيطونها، وهي تجتهد لإسكات الباكي منهم والجواب على طلبات أحدهم. جلسْتُ بقربها على « الهَيْدورة » (جلد الكبش) السميكة واستمعت إليها وهي تذكر بمتعة منطقتها بجيجل – كافالو، بجمال شواطئها البحرية وجبالها الشاهقة. حدّثني عن الأعراس الماضية في جيجل والقصبة وبلكور، كما ذكرت ابنها الشهيد عمّي مصطفى وحفيدتها المسجونة جميلة، المحكوم عليها بالإعدام. فكانت تجمع بين الأفراح والأتراح، كما لو أنها تتحدّى النسيان، وتبعد الشقاء وتروّض الآلام والأحزان.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

وكنت بين الفينة والأخرى أنزل لأتقصى عن حالة « الخو ». كانت حالته تتدهور، ورفضت حرارة جسده العودة إلى مستواها الطبيعي. في المطبخ، كانت أختي تحضر عشاء فاخرا : السفيرية وشباح السفرا. ساعدتها وأنا أسأل عن سبب إعداد هذا الطبق الملكي : هل تنتظر مجيء أفراد عائلتها ؟ وهل قرّر عليّ وحسيبة الالتحاق بنا قبل الموعد المقرّر ؟ فردّت والابتسامة ترفرف على شفثيها : « وهل لا نستحق، أنت وأنا، عشاءً فاخرا ؟ »، ثم خرجت. أنهيت ترتيب الأواني بالمطبخ، حين عادت تحمل مجموعة من المناديل ومناشف الحمام، نظيفة ومطوية بعناية. طلبت منّي أن أتبعها إلى الحمام حيث سخّنت الماء وتركتني هناك، وهي توصيني بمناداتها قبل خروجي لتغسل لي ظهري بـ « الكياسة » وتدلّكه قليلا. طوبى لي ! سأخذ حماما حقيقيا وإن كانت غرفته صغيرة إلى حدّ تذكري بمنمنمات محمد راسم. تمدّدت على البلاط الساخن، بمربعاته الخزافية القديمة، وعليه رسومات أزهار صفراء على عمق أزرق، والكل يشكّل سجادا من الأزهار أو حقلا ربيعيا. فقضيت حوالي ساعة من الحبور. عند الخامسة والنصف زوالا، وصل البريد اليومي، جاء به عمر الصغير، بعثه إلينا عليّ. فتحتة ولاحظت فورا غياب رسالة كمال (حاج سماعيل)، والتي كان من المفروض أن يضعها في صندوق بريدنا. الظرف صعب، صعب جدا. ذهبت إلى الغرفة التي ينام فيها « الخو »، فهزّزته وأنذرتة لأنّ غياب بريد في وقته المحدّد ينذر بالخطر. سألته عن الاجراءات المستعجلة التي ينبغي اتخاذها، فردّ عليّ : « أخبرني عليّ، وقولي له بأنّ يبقى يقظا »، ولكنه كان واهنا جدا، فعاد إلى نصف غيبوبته، وأظن أنه لم يدرك جميع تفاصيل الخبر ومستتبعاته الخطيرة. هزّزته من جديد وكرّرت له بأنّ كمال لم يبعث لنا برسالة مثلما اتفقنا حول تأكيد أو إلغاء سفره إلى باريس. ولكن الخو أجاب بتلعثم صعب : « لا تقلقي. لم يتعوّد كمال على

حياة السرية وانضباطها الصارم. لا يمكنه أن يدركها ». ثم غرق من جديد في نصف غيبوبة أبعدهه كلية عما نحن فيه. لم يطمئن قلبي، لأنني أعرف جيداً أنّ غياب بريد منتظر يشكل خطراً فعلياً على أمننا، كما كنت مقتنعة بأنّ الخو، لو لم يكن مريضاً في تلك الحالة، لأمر فوراً أنّ يغادر المكان والحي. أخبرنا عليّ وحسيبة، فأكدّا لنا أنهما سيلتحقان بنا عند الفجر. لماذا لم ألح عليهما؟ لماذا لم أصرّ على الإصرار لديهما لأؤكد قلقي وخطورة الوضع؟ لماذا لم أحدثهما عن وساوسي وشكوكي التي كانت تضغط على صدري وتخنقني خلال طوال تلك السهرة؟ وعوض ذلك، كتبت مخاوفي ودفنت إشارات الإنذار في أعماقي، والتحقت بمكاني بمجرد ذهاب عمر الصغير، بقرب أختي ويّما والأطفال، حول مائدة قهوة الظهيرة. كان شعري لا يزال مشدوداً في منديل « البنيقة » وبرغم قلق صام يقضم أحشائي، إلا أنني شربت قهوتي المسائية بمتعة، وضحكت لمزح أختي وهي تهدئ أو تشاكس أولادها. وكان هذا الاستخفاف بغياب رسالة من كمال خطأنا الرابع والذي أدى حتماً إلى اعتقالنا، بعد ساعات قليلة فقط، في 25 سبتمبر 1957 على حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الزوال. عادت أختي إلى انشغالها المنزلي، ويّما إلى سبحتها والأطفال إلى ألعابهم، فقرّرت الغرق في شغلي المتقدّم المتعلق بتحضير مظاهرة النساء في مدينة الجزائر، والتي باشرناها قبل مقتل سي مراد، بهدف التنديد بالتعذيب والاختفاءات والإعدامات. كان عليّ أن أصنّف قوائم النساء المنشطات للمجموعات وفق كل حيّ من أحياء العاصمة، وإعداد رزنامة اللقاءات معهن، والنقاش حول هذه المسائل مع الأخ بن حميدة، المسؤول السياسي الجديد لمنطقة الجزائر المستقلة، قبل أن أعرض المشروع على « الخو ». كنت أعمل في الغرفة التي ينام فيها بتلك الحمى التي أنهكته والتي لم تتأثر بأي علاج. بعد العشاء، أنامت أختي أطفالها والتحقت بنا.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

كنا جالستين على الفراشيات المبطنة، نتبادل أطراف الحديث بهمس كي لا نوقظ ونزعج المريض، حينما ارتفع صوت رجل في الخارج، وسط الدجى، وغير بعيد عنّا. كان الصوت يتوجّه إلى المجاهدين للتنويه بكفاحهم، وبعد ذلك للتنديد بالخائنين من أمّة سيدنا محمّد. فاستمعنا إلى الصوت كما لو أنه يخاطبنا. فقفزت أختي إلى النافذة وألقت نظرة فاحصة للحظات طويلة. عادت بعد ذلك وهي تغمغم : « إنه شخص يتكئ على جدار الحمام العمومي، هناك غير بعيد عن منزلنا. بدا لي كما لو أنه يعرف بأنكما هنا وأنه يخاطبكما... ». كان الصمت مخيما وسط دياجير الليل، فوحده الصوت المنذر المحذّر يكسّره من حين لآخر، يرتفع ليطلب من الأولياء الصالحين أن يحمي المجاهدين من الخونة. فقرّرنا تجاهله، مقتنعين أنّ الفعل لا يكون إلا تحريضا من أولئك « الزروقة ». هل كان هذا أيضا نذيرا آخر قررت تجاهله، بوعي مني أو بغيره ؟ لن أعرف الجواب أبدا، حتى وإن بدا لي بعد سنوات من ذلك وأنا بالسجن أنني كدت أتعرف في صوت ذلك الشخص وفي تلك الليلة على صوت عليلو، عليلو المسكين، الشقي، الذي مسخه التعذيب الوحشي إلى فزاعة هالكة. فهل هو الذي حاول إنذارنا في تلك الليلة ؟ لم يكن ذلك ليدهشني. ولكننا قررنا، أختي وأنا، تجاهل ذلك الصوت المنذر، المحذّر، لنواصل حديثنا بصوت هامس.

• الاعتقال

التحقت أختي بغرفتها في الطابق الأول في حوالي منتصف الليل ونصف. أطفأت الضوء وتمددت بمتعة على الفراشية وأخفيت جسدي داخل الإزار النظيف والمعطر. لم يحدث لي أن نمت داخل أغطية نظيفة وعلى فراشية مبطنة منذ فترة طويلة. ليلة أمس فقط، قضيتها جالسة داخل المخبأ وتحت

حرارة خانقة. فتذكرت حسيبة المسكينة التي تكون منكمشة داخل مخبأ 4 شارع كاطون. فغرقت في نوم عميق، عميق جدا، بحيث حينما فتحت عيني بعد ساعات قليلة، أصبت بالهلع. كنت لا أزال داخل حلمي وأختي منحنية بقربي، تهزني دون أن أعرف عليها. كنت ألمح امرأة سمراء تفتح وتغلق فمها دون أن يصلني أي صوت. نظرتُ بذهول حولي، لا أعرف أين أوجد تدقيقا. كنت لا أزال في حلمي، داخل مزرعة جدي حاج عبد السلام، وكنت واقفة وسط سهل شاسع بلون الآجر، ووجهي باتجاه ربوة تنتصب بعيدا، وعلى ذروتها، يتقدم ببطء عمي العجوز، الشيخ سيد أحمد، يمد ذراعه باتجاهي في حركة واسعة، فيما كان يصلني صوت صام يخاطبني : « اذهبي ولا تخشي شيئا. عليك السلام. لا تخشي شيئا ابنتي. اذهبي. رافقك السلام والعناية الإلهية ! ». أخيرا تمكنت هزات أختي من إخراجي من حلمي العميق وأرجعتني إلى الواقع. كانت تتوسلني كي أنهض وأختفي بسرعة داخل المخبأ لأن المظليين يوجدون في السطح وسيكسرون الباب ويدخلون بعد لحظات. كانت تهزني بيد وبالأخرى تذرّ الفلفل الأكل على السجاد الذي وُضعت فوقه الفراشية. كانت كومة من الألبسة المبللة تنتظر إلى جانبي كي توضع فوق الفراشية، لتخفف من الحرارة التي ستركها جسدي عند مغادرتي المكان. قفزت وأنا أصبح : « والحو ؟ ». أجابت : « إنه داخل المخبأ. إجري، إجري، سيكسرون الباب ! ». جمعتُ الوثائق القليلة التي كانت بقربي وجريت. بمجرد أن تسلّقت آخر القضبان، سحبَت أختي السلم، أرجعته إلى مكانه في الحمام، وذهبت تفتح الباب، وبيدها شهادة القبطان شابان الذي من المفروض أن يحميها ضد المdahمات المتكررة للمظليين والقوات الأمنية الأخرى. عندما دخلتُ المخبأ، أرجعتُ الصفيحة الإسمنتية وأحكمتها بالقضيب الحديدي وجلستُ تحت البطانية. كان الحو

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

ممددا وفي حالة يرثى لها. انكمشت على جسدي وأسندت ظهري إلى الجدار، منتظرة مجيء أختي لتنقذني من تلك الدياجير العميقة التي تخنقني. خيم صمت طويل بالدار، فاعتقدت أنّ شهادة القبطان شابان قد أتت بمفعولها المنتظر. فجأة، ارتفع صوت قوي واخترق جدران مخبئنا السميكة والعازل للصوت، وهو يردّد: « ياسف ! ياسف ! نعرف بأنك هنا ! ». هزّني شحنة كهربائية من الرأس إلى القدمين لأتأكد من أنني لست واهمة، ولست في حلم جديد، فألصقت أذني إلى خيط الفتحة. فارتفع الصوت أكثر دويًا من السابق، يكرّر: « ياسف ! ياسف ! نعرف بأنك هنا ! سلّم نفسك ! ليس لك أي حظ للنجاة ! ». بلا أدنى شك، كان مظليّ يخاطب الأخ الكبير الممدّد، في نصف غيبوبة. فقرّرت أنّ أتشبّث بأمل واهم بأنّ المظليين حقا بالدار، ولكنهم لا يعرفون مكان المخبئ، فكّرت أنّ لديهم معلومات غير دقيقة، ويبحثون عن التأكّد منها. كما فهمت أنّ شهادة القبطان شابان لم تنفع هذه المرّة في حماية الدار من المداهمة والتفتيش وفكّرت أنّ المظليين سيعتقلون أختي مرة أخرى، وستعذّب من جديد، وبرعب هذه المرّة بسبب حيلتها وعدم التزامها باتفاقها معهم. وختمت تفكيري بالزامية التظاهر بالموت وعدم التحرك والإجابة على النداء. ولكن الصوت تعالى مرة أخرى: « ياسف ! ياسف ! نعرف بأنك هنا ! سلّم نفسك ! ليس لك أي حظ للنجاة ! ». فأدركت فورا الفرق الواضح بين مداهمات المظليين في المرات السابقة حيث يعودون فارغي الأيدي، ومداهمتهم الحالية. فاقتربت من « الخو »، هزّته: « خُو ! خُو ! انْهَض ! المظليون ينادونك. يعرفون بأنك هنا ! ». كان الخو لا يزال تحت الحمى المرتفعة، فانتصب قليلا، وأسند ظهره للجدار، ووضع ملقما داخل رشاشه وبقي ينتظر دون حراك. كانت العتمة مطبقة داخل المخبئ. من جديد، خيم الصمت علينا. ربّما غادر المظليون المكان، وأخذوا معهم أختي،

المسكينة ؟ كان الصمت سميكا، نكاد نلمسه، والظلمة مهددة أكثر من أي وقت مضى . فجأة، انهارت ضربات قوية على واجهة الجدار . فمن خلال دويّ الحَبْط والهَزَّات، كان واضحا أنّها ضربات وتد ومطرقة حديدية . كان المظليون يباشرون تكسير الصفيحة الإسمنتية التي تسد فتحة مخبئنا، وهو الدليل القاطع بأنهم لا يعرفون الدار التي نقيم فيها فقط، وإنما مكان مخبئنا أيضا . ولكن كيف ؟

لم أجد الوقت الكافي للتفكير في المسألة . ابتداءً من تلك اللحظة، أيقنت بأننا سنموت . إنها النهاية . فبعد سي مراد ورامل، حان دورنا . سنموت، ولكن بطريقة أخرى، لأننا حوصرنا كجرذَين داخل دهليز، وليست لدينا إمكانية إقامة معركة أخيرة، لأنّ مخبئنا كان معلقا فوق قفص السلالم من جهة داخل الدار . كنت متأكدة أننا سنُجَبَّر على انتظار الموت، ونحن على تلك الحالة، موت قد يختلف عن أشكال أخرى سمعنا عنها . ولكن لي مهمة مستعجلة، أساسية، يجب عليّ أدائها : إتلاف جميع الوثائق، وبالأخص قائمة النساء التي أعددناها منذ شهر جويلية بغرض إقامة تلك المظاهرة النسائية المنددة بالتعذيب . لم يكن ممكنا أبدا أن تقع تلك القائمة في أيدي العدو . تقع الضربات على آذاننا بدويّ أكبر . الظلمة مطبقة داخل المخبئ، فبدأت أتلمس بأصابعي الأرضية كي أجمع ما أستطيع من أوراق . إلهي، كم كانت الظلمة عمياء ! فلمست يدي شيئا صلبا، تحسسته : إنها قنبلة يدوية . فرحفت نحو « الخو » ولمست خدّه، كان يحترق حرارة، ثم همست في أذنه : « هات يدك، لقد وجدت قنبلة يدوية ! » . وضعتها في راحة يده، وأنهيت جمع جميع الأوراق التي تمكنت من ملامستها . تواصلت الضربات القوية المتواترة على الصفيحة الإسمنتية . وكنا، الخو وأنا، نتكئ على جانبي الصفيحة—الغطاء التي لا يبدو أنها تنزعزع . ففكرت في أخي عليّ ومهارته في مهنة

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

البناء. ربّما سيتمكن من إنقاذنا مرّة أخرى ؟ ليست المرة الأولى التي نتواجد فيها في موقف خطير بل ويأس. غمرني أمل جنوني، أمل مستحيل، وطرد الرعب التي انتابني منذ بداية تكسير فتحة المخبأ ؛ فهدأت، وتابعت بصفاء ذهن إيقاع الضربات، وأنا أردّد مقولة خالتي باية « رانا في عناية الله ». بمجرد أن شُتّت الصفيحة الإسمنتية واخترق الوتد سمكها، جذبنا القضيبي الداخلي وحركنا الصفيحة قليلا، فأرسل الخو القنبلة اليدوية. انفجرت وسط عساكر المظليين الذين كانوا متجمّعين في أدراج السلالم، واختلط الصراخ بالرصاص الذي أطلقه الخو. انتشر الهلع والصراخ في الأسفل، تصادمت الأصوات، تقاطعت النداءات، ارتفع الأنين وصراخ الآلام، ودويّ وقع الأحذية الخشنة والركض والازدحام... أشعلت النار في كومة الأوراق. ارتفعت الشعلة وأضاءت المكان. ما سمح لي برؤية الخو الجالس، وظهره إلى الجدار المحاذي للفتحة، يشدّ بندقية الرشاش بين ساقيه المطويتين. ظاهريا كان في وضعية صحية متدهورة، فبدا أنه غاب عن الوعي بعض الشيء. أعجبت بمقاومته، فبرغم حالته الواهنة، وجد الطاقة ليخوض معركة أخيرة كي لا يكون موتنا مجانيا. أخذت الرشاش، ووضعت الفوهة على ضفة الفتحة، مكشوفة من الخارج، بحيث أصدّ المظليين عن رمي قنبلة يدوية إلى داخل المخبأ. موقّعت نفسي أمام الفتحة، الرشاش في يدي، أحاول معرفة ما يحدث في الأسفل، بوسط الدار. فبعد الصراخ والنداءات والازدحام، خيم الصمت من جديد، ثقيلًا، مقلقا. سمعت الخو يطلب منّي إطفاء النار. الدخان يخنقه. ولكنني قرّرت عدم الاستجابة لأمره، وترك النار تعمل عملها إلى غاية إتلاف الوثائق كلية، وبالأخص قائمة الأسماء. على كلّ، كنا على شفا حفرة من الموت.

حيرني طول الصمت. فكّرت أنّ المظليين ربما غادروا المنزل ليسمحوا لخبرائهم بوضع القنابل التي ستفجّر المخبأ وما يحوي. لم تكن لديّ أية فكرة

اعتقال زُهرة ظريف

مضبوطة عن الطريقة التي سيسلكونها. فبدأت أدعو الله أن لا يفجروا كامل الحيّ. مسكينة قصبتي ! لقد عذّبتها السلطة الكولونيالية وخزّبتها مرارا وتكرارا. ستُخرب وتُدَمّر كل هذه المعالم التاريخية الجميلة، إلى الأبد وبلا ندم ولا حسرة. فهم يكرهون القصة كما يكرهون أهلها.

ذهب تفكيري إلى حسية وعليّ. كيف سيكون مصيرهما إذا قرّر المظليون إخلاء جميع المنازل من قاطنيها لتفجيرها ؟ هل سيبقيان داخل المخبأ وينفجران مع جدران المنازل ؟ هل سيتمكنان من الاختفاء والنجاة ؟ يمكن لحسية أن تتسلّل وسط النساء حيث يقمن بحمايتها وإيصالها إلى مكان آمن. ولكن ما مصير عليّ ؟ كنت متأكّدة من أنه لن يتردّد من استعمال السلاح للدفاع عن نفسه، ولكن أيضا للتدخل في محاولة لإنقاذنا. ربّما سنقتل جميعا ؟ كنت منهمكة في دعائي كي يحفظ الله حسية وعليّ ويمكّنهما من مغادرة الحي وتغيير المخبأ تطبيقا لقواعد الحياة السريّة، حينما لاحظت أن النار انطفأت.

• الخائن حسان فاندريش، المدعو زروق، ثم صافي !

كنت بصدد أن أطلب من الخو أن يأخذ مكاني كي أتمكن من تأجيل الشعلة حينما أُرعد أوصالي صوت قوي : « ياسف ! سلّم نفسك ! انتهى كل شيء ! أنت وحدك الآن ! لقد استسلم جميع إخوانك ! صافي معنا، صافي في صفنا ! ». أحنيت رأسي قليلا في محاولة مني لرؤية الباب المنفتح على الفناء، فصرخت : « كذابون ! لستم إلا كذّابين ! نعرف طرقكم ! نعرف منهجيتكم في التضليل ! دمويون ! قتلة ! ». ولكن الصوت تعالى من جديد، يخاطب الخو دائما : « ياسف ! صافي في صفنا ! إنه معنا الآن، إلى جانبنا ! ». أحنيت رأسي على الخو وصرخت : « خُو ! خُو ! أسمع ؟ لقد تمّ توقيف صافي. إنه هنا ». وفكرت في نفس الوقت : « ولكن صافي لا

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

يعرف المنزل ! ». ولم أتمكن من فكّ هذه الإشارات، الآتية من العقل والقلب معا. أَحْنَيْتُ رأسي ثانية في محاولة لرؤية أسفل السلالم ومعرفة مصدر الصوت، وصرخت : « صافي ! صافي ! هل صحيح ما يقوله ؟ هل أنت هنا ؟ هل اعتقالوك ؟ ». لم يحدث أن التقيت بصافي. ولكنني كنت أعرف، منذ مقتل رامل وسي مراد، أنّ قائد ريش، المدعو زروق، ثم صافي، قد خلف الأول في منصب المسؤول العسكري لمنطقة الجزائر المستقلة، فيما تولى بن حميدة المسؤولية السياسية. أجابني صوت متردد : « نعم، أنا هنا ». ولكنني رفضت التصديق، رفضت البدهاة والحقيقة العسيرة الاحتمال، فصرخت : « عذّبوك ! الأنذال ! النازيون ! عذّبوك ! ». أجابني الصوت الأوّل بهدوء : « إنّ هنا بمحض إرادته. ياسف، إنّ صافي معنا. لقد أدرك أنّكم ضلّتموه ! ». اشتطت غضبا، يجروون على الكذب بأنّ إخواننا يلتحقون بصفهم بمحض إرادتهم ! استأنفتُ صراخي : « جلادون ! نازيون ! قتلة ! صافي، صافي، تقدّم، أظهر نفسك لأراك ! ». فوصلني صوت صافي، مترددا، كرصاصة في القلب : « لا أستطيع، لا أستطيع. أخاف من الأخ... ». ذهلتُ، صدمتني الحقيقة المرعبة، فصرخت في وجهه بلهجة ساخرة : « ولماذا لم تخش « الخو » عندما بعّته للعدوّ ؟ أيّها البيّاع القدر ! ».

كنت في مواجهة الحقيقة القاسية، العسيرة الاحتمال : مسؤولنا العسكري خائن ! يسّلمنا إلى ماسو ونحن مقيّدو اليدين والقدمين. ولكن ماذا يعرف عن « المنظمة » ؟ هل يعرف أين يوجد عليّ وحسيبة ؟ أكاد أجنّ من الحيرة والقلق. وفجأة تذكّرت المشهد، عندما كنا في مخبأ 4 شارع كاطون، والخو يتدحرج عبر السلالم باتجاه باب الدخول لاستقبال محمود، عون اتصّلنا مع صافي، ويأمره بالخروج فورا والعودة من حيث أتى لأنّ رجلين، يلبس أحدهما قميصا، تبعاه إلى غاية مدخل الدار. كان الخو متأكّدا مما يقول، لأنّه قضى

اعتقال زُهرة ظريف

كامل ظهيرة ذلك اليوم أمام المشربية المطلة على جامع ليهود وشارع راندون، يراقب المارة وحركاتهم. كان محمود عائدا من أحد صناديق بريدنا، ولاحظ الخو أنَّ شابين يقتفیان خطاه، وعلى إيقاع مشيه، وتوقفا عندما دار محمود باتجاه مخبئنا. للأسف، عندما خرج محمود، كان الرجلان قد اختفيا عبر السلالم التي تؤدي من جامع ليهود إلى شارع بوتين. كان محمود مناضلا نزيها وملتزما، ولكنه حديث العهد بالنضال، ولا يتعدى عمره 19 سنة، ويجهل كل شيء عن فن المتابعة. أتذكر جيّدا سحنة « الخو » الحائرة في ذلك اليوم إثر ذلك الحادث، وقراره الفوري بمغادرة المخبئ في أقرب الآجال. وقد همست حينها لحسيبة : « ها هي طبيعته المتحرّكة تتغلّب عليه ! لن نجد أفضل من هذا المخبئ ! إننا على علم بأدنى حركة للمظليين بمجرد مباشرة تنقلهم ». ولكن الخو كان على صواب. حدث هذا منذ أيام معدودة فقط، دهر بأكمله.

كنا في 25 سبتمبر 1957 عند الفجر، محصورين داخل مخبئ منزل الثالث من شارع كاطون الذي يعجّ بالمظليين. فجأة، اعتراني الخرس والألم وأنا أكتشف خيانة صافي، وحاولت قياس مدى اتساع الكارثة : لقد كنا منذ أيام في اتصال مباشر مع مصالح الجيش الفرنسي عن طريق وساطة الخائن فاندريش، المدعو زروق، ثم صافي ! كان الخو ساكتا. هل سمع حديثي مع الخائن ؟ من جديد، ارتفع الصوت الهادئ : « ياسف ! ياسف ! لقد تركك الجميع ! كمال ! إنّ كمال هنا ! إنه إلى جانبنا ! ». أحنيت رأسي وصرخت : « كذابون ! نعرف طرقكم التضليلية ! كمال ! كمال ! تكلم ! هل صحيح ما أسمع ؟ أجب ! ». سمعت صوتا، ولكنّه ضعيف بحيث لم أتبين نبرته. صرخت من جديد : « كمال ! إذا كنت هنا، أريد أن أراك، اصعد ! ». كان رأسي على شفا حفرة من الانفجار. كان كمال معنا ليلة أمس، مساء 23 سبتمبر. لقد

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

غادرنا في الصبيحة الموالية على الثامنة صباحا. كيف أمكن لقوات الأمن أن تعتقله؟ أين؟ ومتى؟ بعد ثوانٍ قليلة، ظهر كمال في أدراج السلاالم، يتقدّم بصعوبة، يلتصق بالجدار؛ إنّه هو فعلا. يا إلهي! في أية حالة!! كان وجهه منتفخا، ومقلة إحدى عينيه تكاد تخرج من محجرها: وهو يُسندُها بيده! كابوس! رعب! لم أمتنع من الصراخ لأعبر للمظلّيين كلّ غيظي من وحشيتهم، وقساوتهم وبالأخص نفاقهم: « طبعاً! الفرنسيون لا يعذبون، إنهم آباء حقوق الإنسان ويصفون أنفسهم بدعاة الإنسانية ويندّدون في أفلامهم ببهيمية النازيين. إنها لمسخرة تثير الضحك! ». رفع كمال وجهه، أو ما تبقى منه، باتجاهي. كان كيانه كلّه ذعرا وهلعا ورُعبا. صرخت: « تكلم كمال! قل ما فعله لك هؤلاء الوحوش! القتل! ». لا شيء يمكنه إسكاتي. امتلأت غيظا وعجزا، فاخفتي كل إحساسي بالخوف فأردتُ أن أواجههم بما أملك. ولكن كيف؟ بحثت بداخلي عمّا يمكن أن يصيبهم بقساوة أقوى من الرصاص، فصرّخت في وجههم بكل الغضب الذي بداخلي: « نعم، سنكون أحرارا، سواء أردتم ذلك أم لا! سنخرجكم من بلادنا! نعم، ستكون الجزائر حرّة، رغما عن أنوفكم وترسانتكم العسكرية! ». لم تكن لديّ إلا كلماتي لأكافح بها، لمواصلة كفاحي، وإزعاجهم حتى بعد موتي. لذلك، فلم أتوقف عن الكلام، عن الصراخ، ذلك أنني كنت أفكر بأنّ صوتي، بهذه الطريقة، سيرنّ في رؤوسهم، ولا يمنح لهم أدنى ثانية للراحة، فكنت أكرّر بلا كلل: « نعم، ستكون الجزائر حرّة، مستقلة! ». اختفى كمال عن نظري وعاد الصمت يخيم من جديد على المكان، ثقيلًا، مهدّدا.

بقِيْتُ واقفة مقابل الفتحة، وفوهة بندقية الرشاش موضوعة دوما على ضفتها. انطفأت النار كلية، وحدها رائحة الورق المحترق تخلق بفضاء المخبأ. وقف الخو، تسمّر إلى جانبي، دفعني ليأخذ مكاني ويمسك برشاشه. فقرّرت

الجلوس . أسندت ظهري إلى الجدار المحاذي للفتحة، في وضعية حسيبة، ساقِيّ لاصقتان بصدري، أحطتهما بذراعيّ ووضعت رأسي على ركبتِي . بدّت لي وضعية حسيبة المحبّبة الوحيدة التي تمنح الفرصة لجسدي كي يحافظ على كرامته في حالة تفجير المخبأ : سيوجد منكمشا على نفسه . استرجعت رباطة جأشي بهذه الفكرة الحمقاء، ورحت أسوي جلوسي، وأجذب على أطراف السروال لتغطية ساقِيّ، وبدأت أنتظر الموت . نطقت بالشهادتين، وسلّمت نفسي وروحي للرعاية الإلهية، كما استعنت بكامل أجدادي وأوليائنا الصالحين . ثم حضرني آخر حلم رأيته وعكّر انتظاري الموت . فبدأت أردّد ما كنا نقوله، سامية وأنا، في بداية تجنّدنا « ليست حياتنا أفضل من حياة زبانة »، وأكملت : « ليست حياتي أفضل من حياة سي محمد وعمي مصطفى وسي مراد ورامل ... » . أعدت نطق الشهادتين . سافر تفكيري إلى والديّ وإلى جميع الأضرار المعنوية التي ألحقتها بهما . طلبت المغفرة من أمي التي عرفت أنها مريضة جدا . لم أتمكن من التركيز الدقيق لانتظار الموت . أردت منه أن يخيفني، أن يشلّ حركاتي، أن يخدّرني كي لا أحسّ بشيء . وعوض ذلك، راح ذهني يتبعثر من ذكرى والديّ إلى حسبة وعليّ، إلى كمال وآثار العذاب القاسي على جسده وروحه . تساءلت : « ولكن كيف، وأين تمّ توقيفه ؟ من أوشى به ؟ » . ثم طردت جميع تساؤلاتي، وحاولت التركيز من جديد على موتي المقبل . كنت أنتظر الموت، فبدا لي غير واقعي، كما عبّر عنه جورج سامبران : « لم أتمكن من تصور ذلك الموت القريب مني، المحتمل جدا، كواقع ضروري . الآن في هذه اللحظة، كان من المفروض أن ينقضّ عليّ الموت، ولكن الذي حدث هو العكس تماما، فبقي بعيدا عني، كشيء أو حادث غير قابل للإنجاز، كما لو أنه شيء يمكن التفكير فيه، ولكنه غير قابل للتحقيق » . كان رأسي فوق ركبتِي، أغمضت عينيّ في جهد كبير للتركيز والدعاء الذي سيرافقني نحو موتي المحتمل .

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

فجأة، أرعدني صوت أُخيتي وصراخ رضيع قريب جدا مِنِّي . لم أصدق أذني، ففتحت عيني، رفعت رأسي وبقيت أترقب. ماذا تفعل أُخيتي، ورضيعها بين ذراعيها، وهي جاثمة فوق السلم ؟ وصلني صوتها الذي أعرفه جيّداً بوضوح وشفافية. كانت مستعجلة وتخطب « الخو »، مرّدة مرات عديدة جملة مفادها « أنّهم » قرّروا تفجير الدار والحي إنّ رفضنا الاستسلام، كما « أنّهم » لا يريدون خسارة بشرية إضافية في صفوفهم، لأنّ بعض عساكرهم، ومنهم واحد برتبة عقيد، قد أصيبوا بجروح إثر انفجار القنبلة اليدوية التي رماها الخو عليهم، وكذا الرصاصات التي أطلقها تجاههم.

إنها فعلاً أُخيتي، وصوت أُخيتي، ولكن الكلمات التي وصلتني ليست كلمات أُخيتي. أعرف جيّداً شجاعتها وعزمها وبرودة دمها، والتي أظهرتها مرارا وتكرارا. في لمح البصر، فهمت أن الرسالة الحقيقية التي تريد إيصالها للأخ، تنقلها بعينيها وبإيماءات وجهها. لذلك رفعت رأسي لأقرأ في تعابير وجهها، وفي حركات عينيها وومضات نظرتها، رسالتها الحقيقية، رسالتها الخرساء. وفهمت. كان وجهها، كانت عيناها، تذكّرنا بوضوح بأنّ عليّ وحسبية يوجدان في المنزل المقابل، وأنهما معرّضان للموت الحتمي إنّ رفضنا تسليم أنفسنا. كانت أُخيتي ترفع من أجل أن يسلم « الخو » نفسه لأنّ بقاءه على قيد الحياة واجب لمواصلة الكفاح، وضرورة للحفاظ على حياة المكافحين (وكانت تشير بإيماءات عينيها إلى الدار المقابلة حيث يوجد عليّ وحسبية وعمر الصغير). في لحظة، سألته بنبرة لوم : « ماذا أفاد موت مصطفى وسي محمّد ؟ أنا متأكّدة أنّه لو كانا على قيد الحياة، لكانت الأمور ستتطوّر بشكل مختلف ». ألحّت، رافضة حتمية الموت، مبعدة إياه بشراسة ! التزم الخو السكوت. وجّهت كلامها إليّ، ولكنني رفضت أن أنظر في عينيها، أن ألتقي بنظرها اللامعة، الغاصة بالحياة برغم الألم الذي ينبعث منها. رفضت

لقاء بصرها لأنني لم أكن أريد أن تخرجني من انتظار نهايتي، ثم إنني كنت سأخيب ظنها لأنني اخترت وانتهى الأمر. اخترت الموت خوفا من التعذيب، خوفا من إذلالني بواسطة التعذيب، خوفا من أن أعيش بقية حياتي في عار عدم القدرة على « الصمت »، عدم القدرة على مقاومة التعذيب والجلادين و « تقيء » كل ما أعرفه عن الكفاح والمنظمة. أدت بصري والتزمت الصمت بدوري. كنا في وضعية مأساوية، يائسة، في وقت استسلمت فيه لانتظار موتي المحتمل، فأدركت العزلة القصوى التي يعيشها الخو باعتباره قائد « منطقة الجزائر المستقلة »، وهو أمام مفارقة رهيبة، الشيء الذي مزق قلبي. كان يأسف، باعتباره قائدا يملك إحساسا حادا بمسألة الشرف، يرفض تسليم نفسه للعدو، وما رمي القنبلة اليدوية وإطلاق الرصاص على المظليين إلا الدليل القاطع على موقفه الرافض للاستسلام. ولكنه كقائد سياسي وعسكري لجهة وجيش التحرير، لمنطقة الجزائر المستقلة، يحتم عليه الواجب المقدس الحفاظ على حياة إخوانه المكافحين وحياة شعبه. أما حسيبة، صغيرتنا، وعمر الصغير، ملكنا، فكنت على يقين بأن الخو سيقدم حياته قربانا لحياتهما. فلم أقدر على فعل شيء لحل هذه المعضلة العويصة التي تنطرح أمامه، ففكرت أن هذا هو مصير القادة في ظروف قصوى تتشكل من رهانات الحياة والموت : عزلة قصوى. نظرت إليه كي أنقل إليه ببصري، مرة أخرى - ربما الأخيرة ؟ - امتناني وعرفاني للمعركة الأخيرة التي خاضها، وتمكن من جرح مظليين، منهم عقيد، مثلما قالت لنا أختي من فوق السلم، في محاولة منها لتذكره أن الناس لن يقولوا بأن يأسف قائدنا مات دون مقاومة. استسلمت للعجز، ومنعت نفسي من التدخل بين التبادل السريالي بين أختي والخو، فأعدت وضع رأسي على ركبتي اللاصقتين بصدري وجذبت أطراف سروالي النسائي لأغطي ساقي جيدا. أحطت ركبتي بذراعي وشدتهما بقوة وأغمضت عيني

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

من جديد وانتظرت نهايتي القريبة وأنا أردد : « الشهادة ! الشهادة ! اقرئي صورة الإخلاص ! ستلتحقين بسي محمد وسي مراد ورامل ... » . كنت مستعجلة للخلاص ولكن الموت رَفَضَ أن يأتي . وعوضه ، ساد صمت ثقيل ، يخيم على المخيل والمنزل ، طارداً صوت أختي . لا أعرف كم من مرّة صعدت أختنا في الكفاح ومضيفتنا إلينا ونزلت . كنت منغمسة إراديا ومُحطّمة في دعائي الصامت .

سمعتُ صوت « الخو » فرفعت رأسي وانتصبت . قال لي بأنّ علينا أن ننزل ، بأنّ عليّ أن أنزل ، الآن ، فوراً . كرّر بأنه عليّ أن أتفهّم موقفه جيّداً . عرفت إلى ماذا يشير (الحفاظ على حياة حسيبة وعليّ) ، ولكنني لم أستجب لأمره . كيف أشرح له أنّ خوفي من التعذيب أقوى وأرعب من خوفي من الموت ؟ كيف أشرح له بأنني كنت مثله على وعي بالخوف من الموت ، لأنّ انتظار الموت يؤدي حتماً إلى الرعب منه ؛ ولكن التعذيب يدمّر أكثر بكثير من الموت . هزّني وكرّر : « يجب أن ننزل . اهبطي فوراً ! » . اقتربت من الفتحة ، أخرجت رأسي ثم تخطيت حافة النافذة الصغيرة ووضعت قدمي على قضيب السلم ، ينتابني إحساس رهيب بالعار وأنا ذاهبة بنفسي نحو جيش العدو . عندما وصلت إلى آخر درجات السلم ، اضطرت إلى القفز لأنّ هناك مسافة قصيرة بين آخر درجاته والأرضية . وأثناء ذلك ، سقط منّي المسدس الصغير 6.35 الذي أحفظ به دوماً معلّقا على المطاط الذي يشدّ سروالي الداخلي . وفي ذلك الصمت ، رنّ المسدس على الأرضية المبلطة بدويّ مسموع ؛ فحضرت منذهلة لهروب المظليين وارتمائهم أرضاً ، بعد أن كانوا متجمّعين في ردهة السلالم ، فقد أرعبهم دويّ المسدس المرتطم على الأرض وركضوا يحتمون . ندمت على عدم امتلاكي قنبلة يدوية ، وأمام هذا المنظر المذهل ، قلت ساخرة : « هذه هي شجاعة الجيش الفرنسي العظيم ؟ تهربون

أمام رنة مسدّس صغير واقع على الأرض ؟ وأمام امرأة غير مسلّحة ؟ . لم أكمل جملتي حتى وجدت نفسي محاطة بالمظليين، يشدّونني بقوة ويدفعونني باتجاه الفناء المضيء بقوة. أعمتني المصابيح، ولم أُميّز ملامح الوجوه، ولكنني اندهشت من أهمية الترسانة المعدّة لاعتقالنا أو القضاء علينا. صحيح أن الصيد كان ثميناً، فليس أقل من قائد منطقة الجزائر المستقلة شخصياً، ولكن ضخامة الوسائل المستخدمة في مقابل وسائلنا المنعدمة صدمتني وأمدّني إحساساً بأننا حبة رمل مقابل زوبعة. استرجعت رباطة جأشي، وفكرت بأنه يجب عليّ أن لا أفشل وطلبت منهم ببرودة الصعود إلى الطابق الأول لتغيير ملابسني. أردت استبدال لباس المرأة الدزيرية القابعة بالبيت بلباس الخروج، لباس المدينة، كي أحافظ على مركزي كمكافحة في جبهة وجيش التحرير، وفخورة بذلك. ليحدث ما يحدث. اندهشت لقبولهم طلبي بسرعة. فقد أحاطني مجموعة من المظليين كما لو أنه بإمكانني الهروب، ودفعوني إلى الطابق الأول. سبقتني أختي وحضّرت لي لباس التبديل : تنورة وصدارية بلا أكمام. صرخت في وجه المظليين كي يخرجوا ويتركوني أغير ملابسني. خرجوا وأغلقت الباب لأرتدي بذلتي الجديد. وكانت يماً كعادتها جالسة على « الهَيْدُورَة » السميكة، تحرّك كريات سبحتها، وحده وجهها القرمزي يظهر تأثرها. اتّجهت نحوها وقبّلتها مرات عديدة وأنا أطلب منها أن تسامحنا عن الأضرار التي تسببنا في إلحاقها بهم. مرّرت أصابعها على شعري القصير وتمتمت آيات قرآنية، ثم قالت لي : « أنت مجاهدة أكرمك الله، ولا ينبغي أن تخافي من أحد، سوى من الله تعالى ». ضممتها مرة أخيرة بين ذراعيّ، ثم ارتديت ملابسني الجديدة وانتعلت حذائي. ثم التفت نحو اليتامى الخمسة، ضممتهم إلى صدري، قبّلتهم، وطلبت منهم أن يكونوا أقوياء، وشجعان. كنت أعرف أنّ أهمهم، أختي، ستُسجَن لا محالة. ثم التحقت بالباب وغادرتهم. قيّد المظليون معصميّ ودفعوني باتجاه الفناء.

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

• في مكتب فودار

فوجدت نفسي وسط رهط من المظليين يدفعونني باتجاه سيارة « جيب » متوقفة عند مدخل شارع كاطون .

كان « الخو » جالسا ومقيّد المعصمين مثلي . اتّخذت مكاني إلى جانبه واتكأت على كابينة السائق . بدأت الشمس تشرق حينما انطلقت سيارة « الجيب » . نظرت إلى شارع كاطون يبتعد ، ومعه رقم 4 حيث يوجد عليّ وحسبية ؛ الوحيدان اللذان يتمتعان بالحرية من بين جميع أفراد مجموعتنا الرائعة . أكيد أنّ فودار وترانكيي لن يتركا أختي حرّة طليقة بعد الذي حدث . سيواصل عليّ وحسبية الكفاح وسينشّطان منطقة الجزائر المستقلة ، وسيعملان على إحياء كفاحها وتدعيمه . سيغادران مخبأهما بمجرد علمهما باعتقالنا تطبقا لقواعد العمل السري . ولكن كيف سنوصل لهما الخبرين الأساسيين : اعتقال كمال وبالأخص خيانة صافي ؟ إلهي ساعد عليّ على تغيير كل شيء ، بما في ذلك المسؤول العسكري ! صافي الخائن ! حينئذ تبادرت الفكرة إلى ذهني ، فاقتربت من الخو ، وتظاهرت بمسح وجهي بيديّ وهمست له : « عليّ وحسبية صعدا إلى الجبل » . سعل الخو وكان السعال بمثابة الموافقة .

وفيما كانت سيارة « الجيب » تتدحرج بسرعة ، تنعطف لتسلك شارع « لالير » ، واصلت : « أنا لست من القصة . أتنقل دوما برفقة مرشد لا أعرفه . اشتغلت كعون اتصال وكاتبة . وكنت أنفّذ جميع الأوامر التي أتلقها في إطار قواعد العمل السري الصارم » . وافق الخو بسعال آخر . نظرت إلى شارع « لالير » ، ودّعت ساحة الحكومة ومعدنتي جامع كتشاوة ، وأنا أتذكّر مغامرة دحمان البطولية ، والذي لا أعرف عن مصيره شيئا . نظرتُ بعينين مبللتين بالدموع إلى القصة التي أصبحت مدينتي العزيزة إلى قلبي ، هي

اعتقال زُهرَة ظريف

التي استقبلتني بالأحضان، ومنحتني بلا حساب تراثها وروائعها وجمالها وجمال أطفالها وضيافتها وضيافة أهلها، هي التي كشفت لي ما معنى الأُخوة، وماذا يمكن للتضامن أن يشيّد من إنجازات. لقد وصلت إليها قبل سنة تقريبا، وأغادرها اليوم سجيّة المظليين ومقيّدة المعصمين ومع ذلك أحس أنني أغادرها وقد اغتنيت كثيرا وتعلّمت كثيرا خلال إقامتي بها. ذلك أنّ القصة سمحت لي بمعايشة سي محمّد، الخو، عليّ، جميلة وعائلتي بوحيرد وبلحفاف، حسية، طالب، غاني، سي مراد، رامل، أختي، محمود، حبيب رضا، خالتي زغلة، دحمان، عمر الصغير، وجميع تلك الكنوز البشرية وقلوب ذهبية أخرى كثيرة، والتي مازالت تغذيّني حتى وإن فارقت الحياة منذ عهد طويل. كنتُ أعرف قبل ذلك ضيافة وعظمة روح شعبنا ومعنى الكرامة عنده. ولكن القصة كشفت لي سخاء فقراء شعبنا، وشجاعتهم الدائمة وغنى قلوبهم، أرحب بكثير من عوزهم.

كنت أجهل إلى أي مصير تقودني سيارة العدو، ولكنني في تلك اللحظة، شكرت بصدق وخشوع الله وإخوتي وأخواتي في الكفاح، أمي وأبي، وتنظيم « منطقة الجزائر المستقلة » الذي جعل القصة، الرحم / المختزل لشعبنا، تتكفل بي وتؤويني وتسمح لي بالمشاركة في ملحمة تحرير شعبنا. كانت الرحلة قصيرة، فتوقفت سيارة « الجيب »، وقفز المظليون وانتظموا بحيث شكلوا دائرة بشرية منيعة حولنا، ثم أدخلونا إلى عمارة ذات عمران موريسكي. دفعونا عبر سلالم، وبخطى سريعة. قطعنا أروقة عديدة قبل أن ندخل مكتبا واسعا حيث يجلس رجل خلف طاولة عمل، يرتدي بذلة عسكرية؛ سأعرف فيما بعد أنه الكولونيل فودار. لم أطل بصري عليه لأنّ سبورة صغيرة موضوعة على محمل خشبي لفتت انتباهي، فكان تحت بصري المخطط الإجمالي لمنطقة الجزائر المستقلة. وفي أعلى السبورة، انفصلت جملة « منطقة الجزائر

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

المستقلة « بحروف بارزة. وتحتها، كتبت أربعة أسماء : ياسف سعدي، علي عمار المدعو علي لابوانت، زهرة ظريف، حسيبة بن بوعلي. مسحت السبورة بعينين مذهلتين، وفهمت أنّ الخانة التي تحوي مسمارا مثبتا فوقها يعني موت المكافح أو اعتقاله. خانات قليلة جدا بلا مسامير ! فقدّرت مدى الكارثة التي سقطت على مجموعتنا.

خاطب قودار الخو الذي لم تجذبه السبورة، فلم أسمع كلامه. كنت أنتظر كي يقوم من مكانه ويسمّر خانتَي اسمينا، ليخرجنا من « منطقة الجزائر المستقلة »، ويوقع حكم إعدامنا. أحتفظ بذكرى مضيّبة عن تلك اللحظة حيث كان أعداؤنا يتهجون ويظهرون بلا تواضع رضاهم باعتقال ياسف، قائد المنطقة المستقلة.

الغريب أنّني لم أكن خائفة. انتابني إحساس بالانهيار والتدمير. إلى اليوم، مازلت أرى تلك اللحظة كأكبر إهانة تلقّيتها في حياتي. ليس بسبب اعتقالي، وإنما لأنّ إيقافي قد تمّ إثرّ خيانة واحد من مجموعتنا. بالفعل، كان « قودار » يتمتع بانتصاره جهرا ويحكي أماننا وأمام ضباطه وجنوده كيف أنه أملى على حسان فاندريش (المدعو زروق حينها) الجواب على الرسالة التي بعثها إليه ياسف سعدي بعد مقتل سي مراد ورامل. كما علمت، بداخل مكتب قودار وعلى لسانه، أنّ حسان فاندريش هو الذي مكّنهم من تحديد مخبأ أخويننا سي مراد ورامل، وقتلهما. كان قودار منتشيا بانتصاره، وراح يحكي بأنّ اعتقال وتعذيب عون اتصال رامل مع زروق في 27 أوت صباحا كان بمثابة مسرحية هدفها حماية دسيسهم حسان فاندريش، وهم يعلمون أنّ ياسف سعدي سيقوم بتحقيق لمعرفة الكيفية التي أدّت بالمظليين إلى تحديد مخبأ دبيح وعثمان. فحكى قودار ضاحكا كيف جاءته فكرة تغيير اسم « زروق » المستعار لحسان فاندريش، وشرح كيف أملى الرسالة على الدسيس

اعتقال زُهرة ظريف

زروق الموجهة إلى ياسف سعدي، مؤكدا فيها على « حزنه العميق بفقدان أخوين بطلين »، وأنه يلتزم بمواصلة الكفاح، فأعلن للخو أنه سيجمل لاحقا اسم « صافي » كي يضلّل العدو. شربت سمّ الشوكران إلى حدّ الارتواء ! وبعد ذلك، سأل قودار الخو بسخرية واضحة أين « فقد حارسه الشخصي الأمين علي لابوانت ». فردّ الخو بطلاقة : « لقد التحق عليّ وحسيبة بالجبال منذ فترة طويلة ». فجأة، انتابني خوف لفكرة أن يتصل عليّ وحسيبة من جديد بصافي، لأنّهما لا يعرفان شيئا عن خيانه، وليست لدينا أية وسيلة لإخبارهما. أختي هي الوحيدة التي كانت قادرة على إخبارهما ولكنها الآن في أيدي المظليين. لن يغفروا لها أبدا ما قامت به لتضليلهم بحيلة شهادة القبطان شابان. استحضرت صورة أختي وهي تعود إلى بيتها بعد قضاء 24 ساعة في مقر الجلادين، ومع ذلك لم تنهزم، بل استأنفت الكفاح كما لو أنّ شيئا لم يحدث .

ألقيتُ نظرة حولي، فاندھشتُ للعدد الهائل من العسكريين بالرتب المختلفة، من مظليين ومن هيئات أخرى، كلهم مدججون بالسلاح، بنادق رشاشة وقنابل يدوية معلّقة على أحزمتهم. إنّ هذا الانتشار الوقح للقوة الفظة لمواجهة مناضلين، لا أظن أنّ العدوّ يجهل حالتهم المادية الهشّة بفضل الخائن صافي، لم يثبط عزيمتي أو يسحق إرادتي، وإنما ضاعف عزمي وأعاد إليّ افتخاري الذي تزعزع بقوة قبل دقائق معدودة بسبب خيانة واحد منّا، وكان قودار منتشيا أماننا كشخص فظ وغير مؤدّب. ثمّ طلبوا منا الوقوف والاستعداد للخروج، فيما تحرّك رهط العسكريين حولنا كما لو أننا نتجه نحو ميدان المعركة. في الوقت الذي كنا، الخو وأنا، نتقدّم بين صفّين من العساكر، صادفتُ نظرة تحدّق في ملامحي بالحاح، وعوض التظاهر بعدم الانتباه، نظرت إلى صاحبها بصراحة وثبتت بصري في وجهه أنا أيضا :

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

إنه زوج مارثريت، صديقة السيّدة « كو » الحميمة، واحدة من مراسلاتي في سنوات الثاوية، والتي اختفيت عندها في شارع طُنْجَة، مباشرة بعد أن وضعت القنبلة في مقهى الملك بار. كانت السيّدة « كو » تدير فندقا يقيم فيه والداي حينما يأتیان إلى مدينة الجزائر. ومع مرور السنوات، قامت بين الطرفين صداقة. ابتداءً من انضمامي إلى جبهة التحرير الوطني، حدث لي أن ذهبت إليها من حين لآخر أقتسم معها غداء أيام الآحاد، خاصة حينما تدعوني مؤكّدة أنّ مرغريت وزوجها الكولونيل سيشاركاننا الجلسة. ينتمي الكولونيل إلى قيادة الأركان، فكنت أستغل الفرصة لأوجّه النقاش حول موضوع « أحداث الجزائر ». كنت أطرح أسئلة فتاة تجهل كل شيء عن الحياة العسكرية. وبعد ذلك، أقدم تقريرا مفصّلا للإخوة عن أجوبة الضابط الفرنسي. تبادلنا النظرات الصريحة، العين في العين، ولا أحد حاول التملّص. أظن أننا كنا نقتسم الاعتقاد الواحد : لا يمكن للعلاقة بين المهيمّن والمهيّمّن عليه أن تتحوّل إلى صداقة حقيقية. إن اختياره واختياري مآلهما المواجهة حتما. كان يقوم بواجبه، كما كنت أنا أيضا أقوم بواجبي تجاه بلدي. أخيرا خرجت من الأخدود البشري الذي حاصرني بداخله العساكر لأجد نفسي أمام ضوء قويّ أعمى بصري. قضيت ثواني عديدة لأدرك أنها أضواء آلات تصوير المصورين والصحفيين. كان ردّ فعلي فوريا : يجب أن أجابهم بكرامة وعنفوان. استحضرت صورة سي محمد، المقيّد المعصمين، وساعدتني على تشكيل موقف. فانتصبّت ونظرتُ إليهم بجرأة، باحثة عن تمرير رسالتي : « نحن مكافحو جيش التحرير الوطني، وفخورون بذلك، نحن أعداء عالمكم المتعجرف. و لن تقضي علينا قوّتكم مهما كانت جبارة ومدمرة، وستعيش الجزائر الحرة والمستقلة برغم جميع الرافضين وضدهم ! ».

• في السرية داخل فيلاً الناظور

بعد قليل، حشروني في شاحنة نقل المساجين، ليس بها إلا كوتان صغيرتان في البابين الخلفيين تدخلان قليلاً من النور. كان الوقت نهاراً، وكنت مقيدة المعصمين، يحيطني مظليون مدججون بالأسلحة. فكّرت أنّ فودار يتسلّى بتخويف نفسه. كانت الشاحنة تجري بسرعة عبر الشوارع الفارغة، وتعرّفت على المسلك بسهولة: تجاوزت الشاحنة المفترق الذي ينطلق منه شارع « صافورنيان دي برازا »، ثمّ توجّهت نحو « لاغيدوت ». فجأة توقفت في صرير حاد للعجلات أمام عمارة مقابلة لثانوية فرومانتين التي قضيت بها سبع سنوات من شبابي الأول والتي تعرّفت عليها: « فيلاً الناظور ». كنت أعرف اسمها ولكنني أجهل أنها ألحقت بمصالح الجيش. اعتبرت أنّ اختيار مكان اعتقالني كإشارة من القدر، فأولت الإشارة لصالحني. إلى اليوم، حدث لي ثقب أسود، فلا أتذكر كيف وجدت نفسي في غرفة يديرها مصباح ضعيف معلق في السقف، فغمغمت: « إنّه مصباح أعمش ».

انغلق الباب خلفي. وبعدها تأقلمت عينايا مع الضوء الخافت، رأيت فراشية على الأرض في الزاوية اليمنى. كنت متعبة بعد 36 ساعة بلا نوم، ومنهكة بعد ما حدث لي في الليلة الماضية من أحداث مفاجئة وعنيفة. ولكن خيانة صافي أكثر الأحداث التي هزّت كياني. فتمددت على الفراشية المريبة، تعتريني أحاسيس متناقضة، وشلال من الأسئلة أولّها لغز اعتقال كمال الذي غادرنا في 24 سبتمبر صباحاً ليلتحق بمكتبه بمحكمة « الدزاير ». خارج مجموعتنا الضيقة، كان عليّ بوزوران وحده يعرف لقاءنا: ربّما يكون قد تمّ توقيفه وتعذيبه مباشرة بعد أنّ رافق كمال إلى 3 شارع كاطون؟ ولكن ذلك لا ينطبق مع المعطيات الأخرى، لأنّ الجيش داهم بيت أختي حيث كنا، وبقي بها إلى غاية الفجر وعاد دون أن يتعرّف على مخبئنا الذي كنا نختفي بداخله، الخو وكمال وأنا.

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

تشوّشت أفكارِي ووصل تحليلي إلى درب مسدود. أعمتني خيانة صافي المدمرة بعنفها الساطع، فأرعدت أوصالي. أحسست بألم جديد يَقْضِم أحشائي : وجع متميّز لخيانة لا تصدّق بسهولة. إنّ تميّزها لا يرتبط بقوّتها، ولكن أيضا بمدى انتشار نتائجها المدمرة للعالم والكائنات. إنّ هذه الخيانة تدمّر المعالم واليقينيات الضرورية للحياة والثقة في الجنس البشري، بما في ذلك شخصي أنا. فهمت لماذا كان فودار ينتشي بانتصاره أمام الأخ ياسف وأمامي، وهو يكشف لنا كيف سلّم له الخائن صافي رامل وسي مراد. أراد تدميرنا، أي تخريب إنسانيتنا، بمثل هذه التصريحات أكثر مما يفعله بالتعذيب. وفي هذا المستوى من تحريك همومي، وجدت نفسي أكرّر نفس حركات سي محمد، يوم اكتشف صوت نائبه بن علاّ الحاج في الإذاعة وهو يحرض السكان على الابتعاد عن جبهة التحرير الوطني ليلتحقوا بالجيش الفرنسي. قرصت ساعدي وأنا أفكر في قدرتي على المقاومة، وفي قرص السيّانور الذي ليس عندي والاستنطاق العضلي الذي ينتظرني. حول ماذا سيسألونني ؟ إنهم لا يجهلون شيئا عن خطة منطقة الجزائر المستقلة بفضل الخائن صافي. سيسألونني عن مكان وجود عليّ وحسيبة ؟ ولكن صافي النذل يكون قد شرح لهم قواعدا : يكون عليّ وحسيبة قد غيّرا مخبأهما. ثمّ إنّ الخو صرح لهم بأنهما في الجبل. إنّ لم يستأنفا الاتصال بسرعة مع صافي، سيبتلع المظليون إجابة ياسف بسهولة. إذاً يعود الأمر إلينا، الخو وأنا، أن يتشبّث كل منا بهذا الخبر المزعوم. فبدأت أردّد بطريقة ابتهاج كما لو كنت أرتل آيات قرآنية : « عليّ وحسيبة في الجبل. الدليل ؟ عندما تمّ اعتقال ياسف، لم يكن عليّ إلى جانبه ». وكان ترتيلي غير الديني يستجيب لرغبتني العصيّة المقاومة لإعداد نفسي للجواب عن أسئلة الاستنطاق القريب. ولكن الكلام تحت التعذيب يؤرّقني، يسكنني. فقرّرت مقاومة كل أحاسيس الخوف باستحضار إرادتي وعقلانيتي

اعتقال زُهرَة ظريف

ويقينني بأنّ قودار سيفشل في تدميرهما. كان اليقين الأكثر صلابة هو أن حسيبة وعليّ يكونان قد غادرا مخبأهما. ولكن صعوبة العثور على مخبأ آخر عاد ليحيرني من جديد. وفي هذا المستوى من التمرين الإرادي لذهني، وجدت نفسي أتمنى كما يتمنى الغريق، بأنّهما سيخرجان من « الدزاير » ويلتحقان بالثورة في الجبال. ولكن كي يغادرا « الدزاير »، سيضطران إلى الاتصال بالхائن صافي. وتنغلق الدائرة عليّ، تخنقني، تطرد كل عقلانية من ذهني وترميني في الهوموم اللاهبة من جحيم الخيانة.

فكّرت بقوة في « يَمّا » وخالتي بايّة وصيغتهما المتكرّرة « راهم في عناية الله »، فهدأت قليلا دون أن أتخلّص كلية من هاجسي. فاستأنفت ترتيلي : « حسيبة وعليّ في الجبل . . . »، في محاولة تصوّر نفسي أمام جلادي، وأنا منكمشة فوق الفراشية، أحسّ بألم في أطرافي، فخفت من الإغراق في النوم، لم أكن أريد أن يفاجئنا المظليون بدخولهم الفظ ليجروني إلى الاستنطاق ويجدونني نائمة كما لو أنني في منتزه سياحي. فقرّرت الجلوس واستكشاف زنزانتني. لقد تعودّ بصري على الظلمة الشفافة. فلاحظت نافذة ومصراعَيْها الخشبيين المغلقين. فجأة، انطلقَ شَكل أطلتُ التحديقَ فيه. مرّ وقتٌ وجيز قبل أنْ أتمكن من الاكتشاف بأنّ الشبح شخص جالس على كرسي. إنه عسكري بلا شك، عسكري يحرسني. وكان ردّ فعلي أنْ انزويت أكثر في ركني الذي على شكل زاوية قائمة وبدأت أطيل فيه النظر بريب وخوف. ولا أعرف كم قضيت من الوقت على تلك الحالة، أراقبه وهو لا يتحرّك. كان الوقت طويلا ذلك أنني نمت. وعندما استيقظت هلعة، كان لا يزال داخل الزنزانة، ولكنه كان قد وقف وراح يمشي من جدار إلى آخر كما يفعل حيوان داخل قفص. تفاجأتُ بنظرته الحاقدة وقدرت التهرب منها بانزوائي أكثر في ركني المظلم، متخذة هيئة حسيبة المفضلة، رأسي باتجاه الجدار، موضوع على

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

ركبتي المضمومتين إلى صدري. لقد فقدت مفهوم الزمن، فلا أعرف كم من ساعات مرت منذ وصولي، ولا إن كنت في الليل أو في النهار. إلى اليوم، لا أتذكر إن كنت قد أكلت أو شربت أو ذهبت إلى المرحاض. لم أحتفظ في ذاكرتي إلا بصراخ طويل وأنين يأتيني من بعيد، ربّما تخيلتهما من قوة انتظاري للاستنطاق؟ أتذكر أن الباب كان يفتح بين الفينة والأخرى وأن رجلا كان يقف في العتبة. وكنت متأكدة أنه ينظر إليّ، ولكنني لم أكن أنظر إليه. على كل، قرّرت أن لا أفتح عيني، أن أسدّ عليهم المنفذ إلى بصري كي أمنعهم من قراءة همومي وأسبابها، خاصة وأني لا أُميّز شيئا من المكان الذي كنت أتواجد فيه.

فجأة، انفتح الباب على مصراعيه، كاملا، ودخل عسكري بقي ينظر إليّ لفترة بدت لي طويلة، ثم تقدّم وقدم نفسه: « القبطان دي لابوردوناي »، في اللحظة التي وقف فيها الحارس يؤدي له التحية العسكرية. فتحت عيني واستطعت رؤيته. فكّرت دون أن أجيبه: « ماذا يريد مني؟ هل هي البداية؟ ». ثم واصل: « ربما يمكن لنا أن نتحدّث؟ ». وخلف سكوتي، رنّ جرس الإنذار الذي بداخلي وقال لي: « احذري! إنها عملية إغراء! ». فانطلق القبطان في حديث عن فرنسا وعظمتها وضرورة إيقاف هذه الحرب « الأخوية » (!). تلك الدعاية التي ما فتئت مكبرات الصوت تجترها وهي تجوب أزقة القصبة، الشيء الذي تغيّر هو أنها جاءت على لسان ضابط باسم متميّز نوعا ما. استمعت إليه دون إرخاء شدّ أسناني وأنا أفكر: « يا إلهي! سوف يجربون عليّ كل الطرق ». ولم يثن موقفي من عزمته، لأنّه حثني على « فتح حوار صريح، في سكينه وهدوء... ». أتذكر أنّ رغبة صفعه غمرتني فجأة، لأنني وجدت كلمتي « سكينه وهدوء » وقحتين على لسان قبطان من جيش احتل بلدي، ويبقيني سجين. ثم إنني لم أكن هادئة، وهذا من حقي

أن لا أكون، ذلك أن الخائن صافي يمكن أن يقود المظليين إلى غاية مخبأٍ عليّ وحسبية بمجرد أن يستأنف هذان الأخيران الاتصال به . ولأنني كنت أنتظر حصّة استنطاقي ؛ لم أفعل شيئاً، ولم أقل شيئاً، وقد صغت دعاءً صامتا : « ليخرج من هنا ! » . وعوض ذلك، تكلم بلا توقف إلى حدّ بعث في نفسي الرغبة في التمدّد وغلقت عينيّ وتركه يتحدث للجدران، ولكن واجب الحفاظ على رتبتي كمكافحة في صفوف جيش التحرير الوطني منعني من تحقيق رغبتني، وبقيت في مكاني أحدّق فيه بنظرة باردة ومتعالية . أخيرا، سكّت، وانصرف بعد أن تأكّد أن كلامه لم يحرك في نفسي ساكنا .

وبعد ذلك اللقاء السريالي مع القبطان « دي لابوردوناي »، احتلّ غرفتي - الزنزانة نفر كبير من المظليين . أمرني أحدهم بالوقوف والخروج معه، فوقفت ووضعت يديّ على تنورتي كي أسويها، ثم مرّرت أصابعي على شعري كي أسرحه قليلا . أعادوا قيد معصميّ . حاولت عند اجتياز عتبة الباب أن أحدّد موقعي داخل الفيلا، ولكن رجالا غلاظا أحاطوني ودفعوني نحو الأمام فمنعوني من رؤية أي شيء . أركبوني شاحنة « فورغون » كانت أبوابها الخلفية مفتوحة وتغطي مدخل الفيلا . أحاطوني، غلقوا الأبواب وانطلقت الشاحنة .

• في مواجهة ترانكيبي

لم أعرف أيّ يوم كنّا . مددت رأسي عبر الكوّتين المسيّجتين كي أحدّد معالم الوقت . وحسب سطوع النور وميل أشعة الشمس والحرارة، استنتجت أنّ ظهيرة ذلك اليوم في منتصفها، فتساءلت إلى أين يأخذونني ؟ إلى الاستنطاق بلا أدنى شكّ . لم يكن عدد المظليين وترسّانة أسلحتهم يبشّران بلحظات هادئة . ولكنني كنت متعبة، يائسة، وقد هدّني انتظار الاستنطاق، بيّد أنه انتابني إحساس بالراحة لفكرة أنني سأواجه أخيرا أولئك الجلادين وأنهى هذا

مُذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

القلق الذي ينخر أحشائي. فاستأنفت ترتيل لازمتي الملحة : « حسية وعليّ عند المجاهدين في الجبل وأنا لا أعرف القصة » ، وأنا أبقى بصري لاصقا في الكوّتين، عازمة على ملء عيني ورأسي وقلبي من أطراف « الدزاير » التي تعرض نفسها عليّ. أهمس جُملي التي سأواجه بها الجلادين وأنا أختلس بالنظر أطراف اخضرار، وأجزاء من زرقة السماء وهي تترقب البحر. تعرّفت على الجدران البيضاء لقصر الصيف، والسان جورج والباردو والجامعة والبريد المركزي والسكوار بريسون والبحر. توقفت شاحنة « الفورغون » أمام عمارة، سأعرف فيما بعد أنّها قصر بُروس، والذي سيتحوّل عند الاستقلال إلى مقر جبهة التحرير الوطني وسيترأسه رابح بطاط زوجي اللاحق...

ولكنني كنت في خريف 1957، داخل الفورغون، يحيطني مظلّيون. أنزلوني بفضاظة وبخطى سريعة، ثم أدخلوني بالقوة عبر الأروقة إلى صالة واسعة وأغلقوا الباب خلفي. كانت الشمس تتسرّب من نافذة واسعة تقابل الباب الذي وقفت قربه. رقت أهدابي من فرط قوة النور، وبقيت هناك وأنا سعيدة بإحساس كل تلك الشمس على وجهي، وحرارتها ونورها الساطع، وقد تخلّصت من القيد الحديدي الذي يشدّ معصميّ. تأقلمت عيناّي بسرعة مع النور الدافئ والمريح ففكرت بالتوجّه نحو النافذة حيث طاولة عريضة وطويلة عند أسفلها، أشبه بطاولة لعبة البليّار. فجأة، أحسست بحضورٍ داخل القاعة. أدّرت وجهي نحو اليمين، ويا لها من معجزة ! الأخ ياسف هنا جالس على مقعد، وابتسامته المتميّزة تنير وجهه. كان لقاؤنا في مستوى همّنا المشترك، المتجمّع منذ اعتقالنا. كنا نتكلم في آن واحد، ونتساءل عن طبيعة المعاملة التي قوبل بها كل واحد منّا، ملاحظين أنّ لا أحد منا خضع للتعذيب. ومن عينيّ، سألتته عن أسباب حضورنا المشترك بهذه القاعة، فأجابني بواسطة عينيه أيضا بأنه يجهل السبب. فبقينا وقتا طويلا

جالسين جنباً إلى جنب، ساكتين، لأننا كنا نعرف أننا محل مراقبة. عادت إلى ذهني روايات الجُوسسة، فمررت يدي تحت المقعد وعلى الجدار بحثاً عن قفل تصنّت أو مرآة... لا شيء في تلك الأماكن. نهضت وقررت أن أذرع الصالة ذهاباً وإياباً، وأذهب إلى النافذة الكبرى التي كانت تجذبني كمغناطيس، متأكّدة أنها تنفتح على القصبة السفلى. اتجهت ببطء نحو بئر النور، منتشية لفكرة أنني سأرى شخصاً صديقاً، وفي جميع الحالات، سأكون سعيدة بملء عيني من مشاهد الشارع. تقدّمت على أطراف أصابع القدمين، وأنا أنظر حولي، منتظرة سماع صوت يأمرني بالعودة إلى مكاني، حينما لفت انتباهي صورة جريدة موضوعة على الطاولة. هل قطعوا بنا كامل شوارع الدزائر لهذا السبب، لهذه الجريدة الملقاة على الطاولة؟ لا يمكن للسبب إلا أن يكون أساسياً. فكّرت فوراً في عليّ وحسيبة وبدأ قلبي يدق بقوة. اقتربت من الجريدة المفتوحة في وسطها، وعلى صفحتيها الرئيسيتين، كتب عنوان بحروف بارزة: « كيف نُعذّب في الجزائر »، متبوعاً بملف حقيقي. بدأت أقرأ بسرعة، خوفاً من أن يقاطعني أحد. تعرّفتُ بسرعة على التقرير الذي أعدّناه وأوصلناه إلى الإخوة في تونس حول مختلف وسائل التعذيب التي استخدمها الجيش الفرنسي بهدف تدمير كفاح شعبنا التحرري. بعثناه لمسؤولينا الكبار بلا أمل كبير في وصوله إليهم. ناديت ياسف للاقتراب مني، دون أن أبعد بصري عن الجريدة كي يقاسم فرحتي والسعادة التي غمرتني وأنا أقرأ المعجزة التي تحدث أمامي. ففي حين كنت ومنذ شهور عديدة أعتقد أننا نخوض كفاحنا في عزلة قاتلة، مقطوعين عن العالم، ها أنا أقف على الدليل الحيّ، والذي ملأنا حبوراً، بأننا لم نكن أبداً في عزلة ولا مقطوعين عن قادتنا الكبار. فلم تمنعني قراءتي السريعة من التعرّف على جُملي وأسلوبِي وصيغ سي مراد الصادمة: كان كل شيء داخل الملف، بما في ذلك العناوين

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الفرعية. فأدرت الجريدة على صفحتها الأولى كي أتعرف على عنوان هذه الجريدة التي كانت لها الجرأة لنشر ملف موثق وباتهامات ثقيلة ضد عدونا. اعتقدت أنني واهمة أو أمام سراب، ذلك أنّ حروفا أخرى بدأت ترقص أمام عيني لتشكل اللفظة الساحرة : **المجاهد** ! فبدأت أهزّ ياسف « خُو ! خُو ! أترى ماذا أرى ؟ أصبحت لدينا جريدة « حقيقية » ! نحن أيضا، لنا جريدة حقيقية، مثلهم تماما ! ». أظن أنني كنت في حالة انتشاء فعلي. إنّ آخر أعداد وثيقتنا الإخبارية والتي كان لي حظ لمسها وقراءتها هي عبارة عن أوراق بسيطة مكتوبة على آلة رونيو. أما الآن، فلنا جريدتنا الحقيقية مثل أي دولة أخرى، بالحجم والورق وطريقة طباعة الحروف. كنا واقفين جنبا إلى جنب، وتقرأ عيوننا بلهفة وتنتقل من عنوان إلى عنوان ومن صفحة إلى صفحة. لم أتوقف عن الكلام والتعليق وأنا أتصفح كامل موضوعات الجريدة : « خُو ! أترى ؟ أتقرأ ؟ توجد أخبار عديدة حول الجبهة الخارجية، انظر، توجد أخبار عن العمليات التي نفّذها مكافحونا في المدة الأخيرة في الجبهة الداخلية ! ». كان الخو يقرأ بهدوء، وتركني في هذيان. أظن أنني عشت في تلك اللحظة ما سيعيشه أهلي في 5 جويلية 1962 : كنت منتشية لأن « المجاهد » في شكله كجريدة حقيقية حديثة، يجسد اليقين الذي سكنني ولن يغادرني أبدا : استقلال بلادي الحتمي. بل أكثر من هذا، إنّ جريدة « المجاهد » تجسّد في نظري الدولة الجزائرية، الحاضرة من الآن. فنفضت من ذاتي قودار وقهقهاته الساخرة، كما نفضت خوفي وهمومي المتعلقة بالاستنطاق. إن وجود « المجاهد » حوّل كل خوف إلى لا شيء. فعشت لحظة حرية قصوى، مهما بدت غير معقولة من زاوية رؤيتنا اليوم.

فجأة، تعالى صوت حاد، مُقرف، وصدّع أذني. التفّت إلى وجهته. كان رجل قصير القامة، محزّم في بذلة متكاملة، والصدر مزين بالميداليات

والاستحقاقات الثلاثية اللون، يتقدّم نحونا بخطوة مستقيمة. فكّرت : « تنقصه عصا في اليد وتكتمل لوحة النازي ! ». توقف غير بعيد عنا، ثم أشار بأصبعه نحوي، وصرخ : « إنك أنت. إنك أنت، أليس كذلك، أنت التي كتبت هذا النسيج من الأكاذيب ! ». أدركتُ فوراً أنه يشير إلى المقال الطويل حول التعذيب. فقد صدمتني هذه العجرفة، فأجبت : « تتحدّث عن المقال حول الوسائل التي تستخدمونها لتعذيبنا ؟ وتجروّ على القول بأنّ ما جاء في هذا المقال أكاذيب، لي أنا، ولنا نحن ؟ ». كنت مصدومة حقاً. التفتّ نحو الخو، واتخذته شاهداً على قلبي : « أسمع ؟ أسمع ماذا يقول ؟ يقول لنا نحن بأنّ ما جاء في المقال ليس صحيحاً ! ». عاد يشير إليّ بأصبعه وبعنف فصرخ : « إنك أنت ! أنت الكائن الخطير ! الملك الأسود ! أنت التي انحرفت به ! ». نظرتُ إليه بذهول، مندهشة لسماعي ضابطاً سامياً للجيش الفرنسي يتكلّم بهذه الطريقة المبتذلة، يطلق أحكاماً لا تليق إلا بأشخاص متخلفين عقلياً. فلاأُتني امرأة، لا يمكن إلا أنْ أكونَ الشيطانَ، « الملك الأسود » !!! خشيت أنْ أكتشف في نفسي القدرة الشريرة التي نسبها إليّ، فرحت أحدث ياسف : « أسمع ؟ أسمع ماذا يقول ؟ ». فحدّقت فيه وأنا أتساءل إنْ كان حقاً يفكّر فيما يقول أم يحاول فقط إرباكي وتخطيط معنوياتي قبل أن يبدأ استنطاقي. واصل بصوته الحاد، القبيح وبحقد شلّ جسدي : « في بلدي، هناك مثّل يقول « كل واحد يجد يوماً حذاءً على مقاس قدمه ». لم أكن أعرف هذا المثل ولكنني فهمت قصده : في ذلك اليوم، كان يقابلني « أستاذي »، ذلك الذي سيسحقني ويحوّلني إلى غبار. ارتعدت أوصالي لأنه يملك الهيكل القادر على تنفيذ توّعه. لم أشكّ في قسوته ولا في صاديته المتأنقة. لم أكن مخطئة. يقابلني الكولونيل ترانكيي، الأسوي مثلاً يسميه أصدقائه. لقد قتل الكثير في آسيا، في الهند الصينية بالأخص. كل

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

هذه الأخبار، سأتعرف عليها لاحقا. واصلت النظر إليه بذهول. فصرخ في وجهي بغیظ مخيف : « لقد خدعت شعبا بأكمله ! أنتِ المسؤولة ! المسؤولة الحقيقية ! ». أرعبتني الصورة التي قدّمها عني، فبدأ لي أنني في محاكمة بسبب السحر في قلب عصر التفتيش القروسطي مثلما قرأت عنها في كتب التاريخ. تحكمت في خفقات قلبي وقلت له : « أنا، أخدع شعبي ؟ طيب ! تعالى معي إلى القصة. لنقدّم أنفسنا، أنا وأنت، دون حراسك وعسكرك. وسنرى كيف يُستقبل كل واحد منا ». لقد زادت ملاحظتي، الوحيدة التي تبادرت إلى ذهني، من تهيجيه ومضاعفة حقه الموجه خصيصا ضدي. فقال في نبرة نشتم منها كل القسوة التي يكنها ضدي : « لو كنت القاضي الأعلى، سأحكم عليك، وحدك أنت، بالإعدام ». وبعد ذلك أدار عنا وجهه في حركة عسكرية محكمة، واتجه بخطوة ثابتة نحو باب منخفض، محفور وسط الجدار، والذي لم نلاحظ وجوده، واختفى.

تركتني عنجهية الكولونيل ترانكيي بلا صوت. لم أتصور أبدا أنه يمكن لي أن أثير عند الآخرين حقدا بهذه القسوة. فكّرت بأننا، نحن جميعا، الإخوة والأخوات، وبرغم الحرب التي نخوضها ضد عالم ترانكيي، إلا أننا كنا عاجزين عن الشعور بمثل هذا الحقد. بقينا، الخو وأنا، صامتين، واقفين أمام الطاولة التي تنتشر فوقها جريدة « المجاهد », وغرقت ثانية في قراءة جريدتنا، بحثا عن الدفء الأخوي لأهلي، كي أظهر نفسي من هذا الحقد وهذا الغضب اللذين رمتني بهما صادية الكولونيل. استرجعت رباطة جأشي بفضل تلك التقارير عن العمليات العسكرية التي قام بها جيش التحرير الوطني، منطقة بمنطقة، أسبوعا بعد أسبوع، ما أعطاني قوة جديدة وأثلج صدري، ففكّرت بزهو : إلى الجحيم جميع « ترانكيي » العالم ! يحيا جيش التحرير الوطني !

اعتقال زُهرة ظريف

وحينما جاء عسكري يستدعيني لاتباعه، كنت لا أزال على تلك الحالة النفسية المرتفعة. قَبِلْتُ أخي قبل فراقه وأنا أهمس له : « إن شاء الله، سيحمي الله إخواننا ». طبعاً كنت أفكر في حسيبة وعليّ، وقد فهم قصدي. أدخلني الحارس إلى مكتبٍ حيث رأيت الكولونيل الذي وعدني قبل قليل بالموت وهو يجلس إلى طاولة عمل. كان مستقيماً في جلوسه مثلما كان عليه في وقوفه. أشار إليّ بالجلوس على الكرسي الذي يقابله، ثم مدّ لي ورقة وقلماً، وأمرني بأن أدوّن ما هي نشاطاتي في صف جبهة وجيش التحرير. لم أتحرك لأنني لم أفهم أين يريد أن يصل. وعندما لاحظ جمودي، أعاد صياغة أمره صارخاً. أحسست به متوتراً، وغارقاً في غضب دفين، وهو يشهر هيئة خيبة أمل واضحة تتناقض مع نظراته الحاقدة، القاسية. إلى اليوم، تعتريني رجفة وأنا أتذكر تلك اللحظات. كان كيانه كله يتنفس غضباً مكتوماً، وجسده يشع عنفاً عصيّ الكتمان. صرخ مرة أخرى، فانصعت لأمره. أولاً شرحت بالتفصيل أسباب تنجيدي في صفوف جيش التحرير الوطني، وبعد ذلك عرضت المهمات التي أسندت لي : الأمانة، النقل، الاتصال، توزيع المناشير، مساندة السكان. أخيراً، حدّدت أنّ نشاطي وقع بالقصبة، مع الإشارة إلى أنني أجنبية عن المدينة، وكنت دوماً أسير برفقة مرشد لا أعرفه نظراً لقواعد العمل السري. أما بالنسبة للمجموعة التي اشتغلت معها، فأعطيت أسماء المكافحين المتوفين أو المعتقلين أو المحكوم عليهم بالإعدام : جميلة، دحمان، غاني، سي مراد، رامل، وطبعاً ياسف الذي تمّ اعتقاله برفقتي. أخذ الورقة التي وقّعتها، وأعطها للعسكري الذي يقوم مقام كاتبه، ثم سرّحني. هذا كل ما في الأمر.

بقيت حائرة من سلوك الكولونيل ترانكيي، وأنا جالسة في شاحنة الفورغون التي أعادتني إلى مكان حجري. ماذا يُفهم من موقفه ؟ لم يخضعني إلى

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

الاستنطاق لأنه تركني سيّدة لما سادّونه على تلك الورقة، ولم يبحث حتى عن قراءة ما كتبتّه. بكل تأكيد، لم يكن بحاجة إليّ كي يستخبر. وحينما التحقت بغرفتي، زنزانتي المظلمة، في فيلا الناظور، كنت لا أزال مضطربة وتحيرني أسئلة كثيرة. الشيء الوحيد الذي كنت متأكّدة منه هو أنّ تلك الظهيرة التي أجهل يومها توشك على نهايتها، وأن الجيش الفرنسي يريد إبقائي في السرية بلا أدنى إمكانية اتصال مع الخارج، ذلك أنّ حارسا يلازماني دوما. وتصورت أنّ هناك عسكريين أو ثلاثة يتداولون على حراستي كما لو أنّه كان بمقدوري الهروب.

وقد بدت لي أسباب إبقائي في السرية التامة واضحة : لا ينبغي بأي حال من الأحوال أن يُخبر عليّ وحسبية بالخيانة المخزية التي ارتكبتها ضدنا فاندريش المدعو صافي، المسؤول العسكري لمنطقة الجزائر المستقلة. وفي هذا المستوى من التفكير، تساءلتُ إن كان فودار ورجاله – في غبطة اعتقال ياسف سعدي، قائد منطقة الجزائر المستقلة، المبحوث عنه من قبل جميع شرطة فرنسا ونافار – لم يرتكبوا خطأ تكتيكيا وهم يعرضوننا أمام الصحافة المحلية والعالمية، ابتداءً من صبيحة 25 سبتمبر. إعادة مسلسل بن مهدي مع ياسف ؟ بلا أدنى أهمية بالنسبة للأهداف التي يريدون تحقيقها، لقد تطور واقع الميدان في غير صالحنا. زيادة على أنه ليس للخو ما يعلمهم، لا عن إيديولوجية الثورة، ولا عن منطقة الجزائر المستقلة ووسائلها الضئيلة. لقد أمّدت لهم خيانة صافي بكل شيء، إضافة إلى تعذيب كمال. كما كانوا يمتلكون التقرير المفصل الذي أعدناه للإخوة في تونس والذي نسّخه ياسف بيده كشهادة أصالته. وحدهما عليّ وحسبية ينقصان لجوائزهم. لقد أعلن الخو لفودار في صبيحة اعتقالنا : « لقد التحق عليّ وحسبية بالجلال منذ فترة طويلة ». وأدركت فجأة أنّ فودار لم يصدّقه، وإلا لماذا يبقينا في السرية ؟

اعتقال زُهرَة ظريف

و كنت متأكّدة بأنّ الخو هو أيضا في مكان منقطع عن العالم، مثلي تماما. ولم يكونوا في حاجة إلى تعذيبنا لأنّ خيانة صافي وضعت بين أيديهم « منطقة الجزائر المستقلة »، وتنظيمها العسكري، وحالة قواتها الحقيقية وكذا قواعد اشتغالنا. يعرفون أنّ أختنا وأخانا يكونان قد غيّرا مخبأهما. ولم يبق لهم إلا انتظار أن يعيد عليّ وحسيبة ربط الاتصال مع الخائن فاندريش المدعو صافي، ما يعني الاتصال مع القبطان آلير، الكولونيل ترانكيي، والكولونيل قودار. إذا لماذا قدّمونا للصحافة ؟ أظنهم فعلوا ذلك لتحقيق ثلاثة أهداف على الأقل : واحد : التأكيد على حقيقة « معركة الجزائر » لماسو، واستعراض القوة المزعومة للجيش الفرنسي الذي تمكّن من « إيقاف ياسف سعدي، القائد الإرهابي الكبير »، العدوّ الأول « للسكان المدنيين الأبرياء الأوروبيين »، وجميع مصالح ماسو وروبير لأكوست. اثنان : طمأنة الكولون و « السكان المدنيين الأبرياء الأوروبيين »، المتعطشين للاعتقالات والإعدامات والرحم ودماء الأهالي، ولكنهم مرعوبون من سماع نطق اسم ياسف سعدي أو عليّ لا بوانت. ثلاثة : تدمير الأسطورة الحيّة، لدى سكان الأهالي، التي يمثلها ياسف سعدي، الرجل الذي استحال القبض عليه والذي تجرّأ على ضرب قلب المدينة الأوروبية، والذي طهر مدينته العتيقة من « المافيا » التي كانت تقيم بها، قائد « منطقة الجزائر المستقلة » الذي يساند الأرملة واليتيم، المسؤول صاحب الحكمة والسخاء والشجاعة المعترف بها لدى ذويه. وكان واضحا أنّ مصالح ماسو الدعائية ستستغل لصالحها أفضل استغلال اعتقال الخو.

ومع ذلك، ومن المكان الذي أنا فيه، كنت أعرف أنّ جميع جهودهم في هذا الميدان مآلها الفشل الذريع مسبقا. إنهم العدوّ. العدوّ بمعانيه المتعدّدة : السياسية، العسكرية، الثقافية، والدينية. العدوّ الأنطولوجي. عدوّ شعبنا وأرضه ورسوله. كلامه كفر، وحضوره دنس، وأفعاله نبش. ولكن عمى

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

السلطة الكولونيالية وجيشها لا يسمح لهما بالإمساك بهذه المعاني الأساسية . وفي هذا المستوى من التفكير، غمرني امتنان دافئ تجاه شعبنا وقدرته على مقاومة أوهام العدو قبل أن يُصعق بألم الخيانة يقوم بها أفراد من لحمته . أَلَمْ لا يضاهيه أَلَمْ آخر . كما لو أنّ زلزالا عنيفا انفجر بداخل صدرك، يسحقك ويسحق العالم الذي يحيطك . أعرف بأنه سبق لي أن عبّرت عن هذه الفكرة ولكن ألم الخيانة يقض مضجعي، ولا يزال يوجعني إلى اليوم، مقتنعة بأنه لولا خيانة صافي النذلة، لما عرف كل من عليّ وحسبية وسي مراد ورامل وعمر الصغير ومحمود ذلك الموت المرعب . ومثلما سأعرفه لاحقا، فإنّ خيانة فاندريش أدّت به إلى ما هو أبشع، ذلك أنّ القبطان آليز، والذي كان نائما له تقريبا، أمر بقتل حارس من القوات الإقليمية كان يُرعب سكان بوزريعة بأمر من ياسف !!! فقط كي لا يوقظ شكوك الخو في ما يتعلق بخيانة مسؤوله العسكري، فاندريش الخائن، المدعو صافي .

فكنت لا أزال في زنزاني في فيلا الناظور، أجهل تاريخ اليوم الذي كنت فيه، أتألم من ذاتي ومن عالمي المخزّب . لذلك قرّرت التشبث باليقين الوحيد الذي بقي لي : إنّ هدف عزلي وإبقائي في السرية التامة، يحرسني عسكري يقيم معي داخل الزنزانة، وفي جميع أوقات الليل والنهار، هو عدم إفشاء خيانة صافي، ذلك الذي سيعيد الاتصال بحسبية وعليّ . وكان مصيرهما يقضّ مضجعي، خاصة أنني شبه مقتنعة بأن الضباط فودار وترانكيي وآليز لم يعيروا أدنى اهتمام لتصريحنا العفوي الذي يؤكّد بأنّ عليّ وحسبية في الجبال . فكّرت في أختي حسبية وأخي عليّ، محاولة تصوّر ما يكون قد حدث لهما . أعرف أنّ اعتقالنا يكون قد أثار عند عليّ إحساسا بالذنب المتولّد من ندمه بعدم الالتحاق بنا . أعرف وفاء ونزاهته، كما أعرف اندفاعه ونفاد صبره حينما يتعلق الأمر بمواجهة العدو، وكتبته بسبب الضرورة القصوى

اعتقال زُهرة ظريف

التي تجبره على البقاء في أغلب الأحيان مختفيا كي لا يقع في شباك رجال ماسو. إن معرفتي هذه بعليّ لا تبشّر بالخير. فغيّرت وجهة تفكيري نحو حسيبة، متسائلة إلى أيّ حدّ يمكنها كبح جماح عليّ كي لا يعيد الاتصال ثانية بصافي.

وكنت مقتنعة بأنّ فودار وترانكيي وآلير ومصالحهم لا يجهلون شيئا عن المظهر السيכולوجي لعليّ، ولا عن إقدامه وذكائه اللذين جرّبهما خلال معارك عدّة ضد الجيش الفرنسي. وكنت متأكدة أنّ الجميع يخشى مواجهته، وفي حالة اكتشاف مخبئه، فلن يتصوّروا استراتيجية أخرى غير تدمير الدار التي تؤويه. ولن يهتمهم الحي ولا سكان الحيّ، لأنهم سيرفضون تكرار المعركة التي واجهتهم برامل وسي مراد. وستتذكّر القصة طويلا بأنّ الأخوين الشهيدين قاوما المظليّين ببسالة خلال ساعات طويلة. كما كنت مقتنعة بأنّ ماسو وفودار وجيشهما يجهلون بأنّ سي مراد ورامل في عيون شعبنا لم يموتا، وإنما هما حيّان عند ربهما يُرزقان، وهما الآن في جنة الرضوان. وكنت مقتنعة أيضا بأنّهم لن يقبلوا أبدا مواجهة المخيف عليّ لابوانت، حيث تحوّل إلى أسطورة في عيون أهلنا، بفضل ذكائه وتجنّده الكلي وقوّته الهادئة. فبدأت أدعو بكل كياني أنّ تجد حسيبة المبررات التي تؤدي بعليّ إلى إقرار وقفة بقطع كل اتصال مع الخارج، بمن فيهم صافي. دعوْتُ بخشوع صادق، مقتنعة بأنني إنّ وضعت في دعائي ذاك كل قواي وقلبي وخشوعي، فإنه سيصل لا محالة إلى أختنا الصغيرة.

● مقتل حسيبة وعليّ ومحمود بوحميدي وعمر الصغير

مكثتُ مُحبطة في ظلمة زنزانتي، بعيدة عن كل واقع، غريبة عما يسجّله ذهني من تأوهات وصراخ مدوّ، وانتظرت. ماذا كنت أنتظر؟ ومنذ متى؟

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

لا أعرف . ذات ليلة أو يوم، لست أدري، تجمّدت ساقان طويلتان إلى جانب رأسي، في حين كنت متمددة على الفراشية فوق الأرضية الإسمنتية . فوُضِعَت ورقة من كراس مدرسي إلى جانبي . فهمت فوراً دون حتى أن ألمس الورقة . ترك القبطان « دي لابوردوناي » الباب مفتوحاً على مصراعيه، فخفف ضوء خافت من ظلام الصالة . كانت الورقة تحت عينيّ، فتعرّفت على كتابة حسيبة . لقد أعاداً ربط الاتصال مع الخائن فاندريش ! قرأت الرسالة المبعوثة إلى « الأخ صافي » !! أدركت أنّني أرى بعينيّ الدليل القاطع بأنّ عليّ أعاد الاتصال بصافي، وبالتالي بمصالح الاستخبارات للجيش الفرنسي، إذن بالموت الحتمي !!! التصقّت جملة في ذهني ولن تغادره أبداً . أخبر عليّ وحسيبة « الأخ » صافي : « ننتظر أن يُسجّن الأخ والأخت، ثم نقيم لهم عرساً حقيقياً في الدزاير » . لقد انغلق الفخّ الذي نصبه ماسو وفودار وترانكيي وكلبهم الناخر فاندريش حول حسيبة وعليّ . بدأت ورقة الكراس المدرسي تحرق يديّ وعينيّ . عذّبني عجزني . رغبتُ في الصراخ ولكن لا صوت خرج من حلقي . رغبتُ، كما جرت العادة عندنا أثناء الجنائز في الهضاب العليا، في البكاء على الطريقة القديمة وأنا أنشد في وجه القبطان الوقح شجاعة عليّ، وبطولته العسكرية، وسخاءه الكبير وقلبه الذي يسع الجميع . رغبتُ بقوة أن أصرخ داخل هذه الزنزانة كم كان عليّ عادلاً وطيباً، وكم كان يحب الحياة والجزائر . كم رغبت أن أصرخ في وجه العالم، كيف انصهر عليّ جسداً وروحاً وبلا حساب في كفاح التحرير، من اللحظة التي أدرك فيها مشروع الاستعمار الفرنسي لتدمير شعبه . رغبت في البكاء على طريقة أهلنا، بجهر، على الموت الحتمي لفارسنا المغوار، البكاء على المعركة التي رفض الجبناء خوضها معه، المعركة الوحيدة التي أُرعبتهم حتى قبل مباشرتها، وقد ردّم أخي تحت أنقاض منزل دون أن يتمكن من إطلاق العنان لسلاحه كي يقول كلمته الحاسمة .

وحسبية، آه على حسبية ! إلهي ! حسبية صغيرتنا، حسبية أختنا العزيزة. رغبت في الصراخ باسمها كي يسكن ضمير قتلتها إلى الأبد، أن أصرخ بجمالها، أصرخ بوفائها الكلي للكائنات ولتحرير وطننا المغتصب والمقيّد. رغبت في الغناء، نعم، رغبت في رفع عقيرتي بأعلى صوتي لأتغنى بأناشيدنا الجنائزية في مجد مهارتها وذكائها ومثابرتها وشجاعتها التي لا يضاهيها إلا حنين شخصيتها وصغر سنّها : لم يتجاوز عمرها 19 سنة. ولكن الأصوات رفضت الخروج من حلقي المنقبض بذلك الصفاء المرعب بأنها النهاية الفعلية لأختي وأخي مرسوم من السفاح ماسو وخيانة فاندريش، المدعو صافي. وبعد ذلك، وجدت نفسي أتأوّه في لغتي، مكرّرة : « وَعَلاش ؟ وَعَلاش يا حسبية ؟ » كم تمنّيت أن تنجح أختي الصغيرة في ترويض اندفاع عليّ بإعادة ربط الاتصال مع الخائن صافي. أكيد أن الأمل كان بدون جدوى. انكملت داخل الظلمة الضاغطة، واتخذت وضعية حسبية المحبّبة، مع اليقين أن أخي وأختي، الناجيين الوحيدين من جماعتنا إلى حدّ تلك الساعة، سيُقتلان، إن لم يكن سفاحو ماسو قد نفّذوا فيهما حكم الإعدام. لا أعرف كم بقيت في تلك الوضعية، محبّطة ومنهارة، أنتظر إعلان موتهما. وكانت جملة « سَيُقتل عليّ وحسبية » تتردّد في ذهني كإلزام مرعبة، فذرفت دموعاً حارقة، متدفّقة، انبثقت من عمق السنوات وبلّلت ركبتيّ المضمومتين إلى صدري.

إلى اليوم، لم تبقَ بذهني أية ذكرى عما وقع لي بين اللحظة التي اكتشفت فيها كتابة حسبية على تلك الورقة من الكراس المدرسي - كتابة عالية وواسعة - وبين ذلك النور الساطع الذي أجبرني على رفع رأسي وفتح عيني. كان ملك الموت، القبطان دي لابوردوناي يمدّ لي جريدة. فهمت ورفضت أخذها. كانت رؤية تجسيد موت عليّ وحسبية بالحروف المطبوعة

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

عصية الاحتمال لديّ. أردت الاحتفاظ بهما حيّين في ذهني، مثلما تركتهما في 4 شارع كاطون، يوم 23 سبتمبر. بل أفضل، مثلما عشت إلى جانبهما معاركنا الرائعة، وتضامننا العجيب، تحيطنا الأخوة الدافئة والحامية لسي محمّد وعائلتي بوحيرد وبلحفاف وياسف وسي مراد وغانى ودحمان ورامل، ... فارتفعت قهقهة عليّ الرنانة بداخلي في الوقت نفسه الذي ارتفع بداخل قلبي صوت حسيبة الدافئ وهي تحكي لي آخر حلم رآته في منامها حينما جاءها سي محمد وسي مراد ورامل ليعلنوا لها أنهم حجّزوا لها مكانا إلى جانبهم. كان حلما استشرافيا مع أنني كنت قررت تجاهله كي أغالب القدر المشين. بقي ملك الموت يشدّ جريدته وأنا أرفض أخذها. شددت رأسي بيديّ، ثم رحت أتمايل من الأمام إلى الوراء، دون مراقبة، وأخبط ظهر رأسي إلى الجدار وأنا أتلو الصلوات اللامتناهية، يؤلمني يقين مقتل أخي وأختي. رفّضت النظر إلى الجريدة، ولكن الكيفية التي قتله بها جيش العدو فرضت نفسها عليّ كما لو كنت حاضرة. كنت أعرف جين وخيانة الضباط الفرنسيين، لذلك كنت متأكّدة أنهم سيفجّرون المنزل الذي اختبأ فيه عليّ وحسيبة، بعد أن يفرغوه من سكانه في صمت كبير استعدادا للمباغطة الجبّانة. كما كنت متأكّدة بأنّ عليّ، لو تطفّن لاقترب المظليين من مخبئه لخرج عليهم شاهرا رشاشه ولأطلق عليهم الرصاص دون اكرثات لعددهم ولعجزه عن النجاة من رصاصهم وقنابلهم. فقد سبق لي أن رأيته يفعل في « دار السجور ». لم يكن عليّ من الرجال الذين يبقون مكتوفي الأيدي وينتظرون الموت، داخل مخبأ ضيق مظلم.

بعد أيام طويلة، حينما حوّلت إلى سجن بربروس، علمت أنّ محمود بوحميدي، عون الاتصال بين ياسف وصافي، وقريب صاحب المنزل الذي أوانا في 4 شارع كاطون، وكذا عمر الصغير، ابن أخ ياسف، كانا موجودين

اعتقال زُهرَة ظريف

إلى جانب عليّ وحسيبة. ماتوا جميعهم مُمزّقين بالتفجير الرهيب. لم أتذكر موتَهما إلا حينما التقيتُ بجميلة في السجن، وهي التي أخبرني أنّ جناحا كاملا من القصة تمّ تفجيره مع أختنا وإخواننا، وقد تسبّب الانفجار في قتل حوالي عشرين مدنيا أبرياء من نساء وأطفال ورجال وشيوخ، وهم نيام في أسرّتهم لا يدرون شيئا عن هذه العملية الدنيئة، دون احتساب عدد الجرحى الذي لا يُعد. أتمنى أن يتفهّم الناس اليوم لماذا ينتابني غضب أسود في كل مرة أسمع فيها شخصا يتحدث عن القصة ويتجاهل الجرائم التي ارتكبتها الجيش الفرنسي ضد أبنائها، ضد عمرانها، وضد إقليمها. وليس فقط خلال فترة « معركة الجزائر » القاسية. ولكن التدمير بدأ في 1830، حينما سحق الجنرال دي بورمون الأماكن - الرمز للسلطة والدين : قصر الجينية ومسجد السعيدة، بحيث تحوّلت إلى أنقاض مدفونة تحت ساحة الحكومة التي يتبخر الجنرال السفاح فوقها منتصرا على حصانه.

أتمنى من كل قلبي أن تعلّم جامعاتنا ومدارسنا في الهندسة المعمارية الحقيقة، كامل الحقيقة، حول « عمل » التخريب والتدمير المُبرمج والحو العمدي وتحريف تراثنا الثقافي والتاريخي. وتمكّن المعرفة الدقيقة بهذه الإبادة الثقافية الطويلة التي دامت 132 سنة بتحسيننا ضد تكرارها. يمكنني التأكيد بأنّ الأرشيف موجود. القليل منه يوجد عندنا. أما الباقي ففي مكتبات فرنسا. هذه معركة أخرى يجب على الجيل الجديد أن يخوضها : استرجاع أرشيفنا ملء فراغات ذاتنا الجماعية التي خرّبها الاستعمار، لنتمكن من تأسيسها وترميمها كاملة. كتب مولود معمري في هذا الشأن : « عند استرجاع الاستقلال، كسّرت بلدان إفريقيا وآسيا الحجاز الذي يفصلها عن ذاتها. أخيرا، استرجعت هذه الشعوب هويتها، ولكنها هوية بلا معالم واضحة، لأنّ الاستعمار عمل طويلا وبمنهجية على تأليبها على نسيان تلك المعالم، بل وعلى احتقارها ». (فجر المنبوذين).

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

• وفاة أختي وإخواني مثلما ذكرتها الصحف الكولونiale.

أعترف اليوم بأن ذلك النهار أو تلك الليلة من خريف 1957، في الوقت الذي كنت محجوزة في السرية التامة بزنزاتي بفيلا الناظور، رفضت أخذ الجريدة التي أمدها لي ذلك الوسيط الجنائزي، القبطان دي لابوردوناي. رفضت النظر إلى الجريدة، وقراءة موت حسيبة وعليّ، حتى حينما رماها على الأرض إلى جانب رأسي. لقد دام هذا الرفض لقراءة ما كتبه وقاله القتلة وجرائدهم لمدة ست وخمسين سنة. ولم أقرّر تصفح الصحافة الكولونiale في أرشيف مكتبتنا الوطنية إلا في 2013، حينما باشرت العودة إلى تلك المرحلة من ثورتنا لأحكي كيف واجه شعبنا في القصبة، ومناضلونا ومناضلاتنا وفدائيونا وفدائياتنا الجيش الفرنسي والشرطة الكولونiale. فبعد ست وخمسين سنة، كانت قراءة مقتل حسيبة وعليّ ومحمود وعمر الصغير عذابا لا يطاق، وأنا أتصفح جرائد « ليكو دالجي » و « لاديباش كوتيديان » و « جورنال دالجي ». إن الشيء الأول الذي لفت انتباهي هو الحقد الذي كان يكنّه العساكر الفرنسيون، وكذا صحافيو الجرائد الكولونiale، تجاه أختي وأخواتي، حتى وهم أموات. صدمني هذا الإصرار الذي أظهره لنيش جسد عليّ الممزق على طول الصفحات، وبعث في نفسي اشمئزا لا نظير له. ما أحزنها وأقرفها من صورة لهؤلاء الذين زعموا أنهم جاءوا لتحضيرنا !

إلى اليوم، يحزنني ويجرحني بعمق نيش تلك الجرائد لجسد عليّ، وذلك بعرض ساقيه العاريتين في أمل بشع ولكنه بلا جدوى لتحطيم هالته لدى ذويه، حتى بعد موته. وما يهدّئني ويخفف من كربتي هو اعتقادي الراسخ بأن عليّ، مثل حسيبة ومحمود وعمر الصغير، يعيش في قلوبنا كبطل لا ينهزم أبدا. ومع ذلك، وبعد 56 سنة، سمحت لي تلك الجرائد بملء بعض الشغرات حول مقتل هؤلاء الأغزاء إلى قلبي. فعرفت أن عليّ وحسيبة قد غادرا

اعتقال زُهرة ظريف

مخبأهما في 4 شارع كاطون حيث تركناهما، بعد يوم من اعتقالنا، أي في 26 سبتمبر 1957. هكذا، فإنهما قد طبقا قاعدة من القواعد المقدسة لحياتنا السرية : القطيعة فورا مع كل ما يعرفه الشخص المعتقل عن « المنظمة ». كما عرفت أيضا أنهما وجدا مخبأ في 5 شارع عبدramس، مخبأ كنت أجهل وجوده قبل اعتقالني. وقد غطت الصحف بخطوط عريضة الندوة الصحفية التي عقدها الكولونيل فودار، يوم إعلان « اكتشاف جسدي عليّ وحسية الممزقين »، يوم الجمعة 11 أكتوبر 1957، أي أربعة أيام بعد الانفجار العنيف الذي هز القصبه في ليلة 7 إلى 8 أكتوبر.

ذكرت الجرائد بأن الانفجار كان بقوة كبيرة بحيث سمع دويه في أحياء بعيدة مثل حسين داي والقبّة. بدأ الكولونيل فودار بالتأكيد على الدور الحاسم الذي لعبته مصالح الاستخبارات في تحديد المخبأ الذي كان يتواجد بداخله عليّ وحسية. أعلن أنه « بمجرد انتهاء شهر سبتمبر، كان ضابط الاستخبارات يملك خيطا متينا، سمح له بتحديد تقريبي لمخبأ عليّ لابوانت في خريطة للقصبه. كان الخبر أكيدا بحيث لم تنقصهم إلا تفاصيل صغيرة. وقد تمّ تجنيد جزء كبير من الفيلق الذي كان في تأهب دائم. في مساء السابع من أكتوبر، تحصّل القبطان آير على التفصيل المنتظر : كان عليّ لابوانت في 5 شارع عبدramس في مخبأ بالطابق الأول ». (في جريدة « جورنال دالجي » ليوم الجمعة 11 أكتوبر 1957). وخلال ندوته الصحفية، أكّد الكولونيل فودار : « نحن الذين هجمنا على « عليّ لابوانت » المتخندق في مخبأ مغلق تماما، وقد تمّ قفل مدخله من الداخل. وكى نشل حركته، استخدمنا كمية قليلة من البلاستيك لندمر جدار المخبأ. وحدث أن كان بداخل هذا الأخير خزان من المتفجرات التي أحدثت، عند انفجارها، خرابا كبيرا في العمارات المجاورة ». (جورنال دالجي، الجمعة 11 أكتوبر 1957).

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

في ذلك الإعلان، أتى الكولونيل فودار بالدليل القاطع بأن المظليين هم الذين فجّروا المنزل - المخبأ الذي لجأ إليه عليّ وعمر، وأنهما كانا إلى جانب محمود وعمر الصغير. وقد أكّد الكولونيل السفاح بأن المظليين قد قاموا بإفراغ المنازل المجاورة من سكانها. (لاديباش كوتيديان، الأربعاء 9 أكتوبر 1957). ومثلما كنّا نفعل في 4 شارع كاطون بعد العشاء، لقد صعد عليّ وحسيبة ومحمود وعمر الصغير إلى المخبأ المغلق، على حسب شهادة فودار، كي لا يعرضوا حياة السكان إلى الخطر في حالة مداهمة المظليين للمنزل ليلاً. وقد حاصر هؤلاء القتلة جيّداً منزل 5 شارع عبدramس في ليلة 7 إلى 8 أكتوبر، ليس من أجل التفتيش واعتقال عليّ وحسيبة، وإنما للقتل وللتدمير. يكون هؤلاء القتلة قد احتلوا المنزل وضواحيه ليلاً، في صمت كليّ، وبالمئات، وأجبروا السكان على الخروج بلا ضجيج. كان هذا الجيش من الجبناء يخشى مواجهة عليّ واحتاط كلية لتفادي المواجهة، لأنه على دراية جيّدة بأن « عليّ » لن يستسلم بدون مقاومة، وكان سيخوض معركة حتى وهو يعرف بأنه سيقتل، فيباشر بقتل عدد منهم قبل استشهاده. تماماً مثلما فعل سي مراد ورامل يوم 27 أوت 1957. وبعد إفراغ المنزل في صمت مطبق، وربما قبل ذلك، قام الجيش الوريث لبيتان وحلفائه النازيين بوضع المتفجرات الثقيلة عبر جدران المنزل وهم يعرفون أنّ الانفجار سيدمر الحيّ بأكمله. وهو ما حدث فعلاً. إنّ « كمية قليلة من البلاستيك » لا تقتل 20 شخصاً (العدد الذي أعلن عنه فودار والذي يجب مضاعفته على أقل تقدير) ولا تدمر حيّاً بأكمله. إنها أقوال واضحة القنابل والعارفة بمفعولها. ولتبرير ضخامة الأضرار التي أحدثها التفجير في الأرواح والجرحى وتخريب الممتلكات، فعل فودار كما يفعل جميع الجبناء، فأشهر الصيغة المقرّفة: « لسنا نحن، إنما الآخرون » ذلك أنه صرّح في ندوته الصحفية بأن « خزاناً من المتفجرات » كان بداخل المخبأ فتفجّر وأحدث

اعتقال زُهرة ظريف

أضرارا جسيمة. ومثلما سبق أن شرحت، فلا يمكن لثودار أن يجهل، بفضل الخائن فاندريش، أننا كنا نفتقد إلى الأسلحة والقنابل والذخيرة. ابتداءً من 24 سبتمبر واعتقال ثم تعذيب كمال إلى حد الموت، كان بحوزة ثودار وترانكيي وآلير التقرير الذي يتحدّث عن نقصنا الكبير في وسائل الكفاح، وفيه نطلب من الإخوة في تونس الإسراع في إمدادنا بالمساعدات اللازمة لتمكيننا من مواصلة الكفاح. لهذا السبب، أخذ ياسف على عاتقه لقاء جرمان تيبون للمرة الثانية برغم الخطر المحدق بنا، الأمر الذي كشف لكمال مخبأنا في 3 شارع كاطون. ومن جهة أخرى، وصف ثودار وجرائده المخبأ الذي قُتل فيه عليّ وحسيبة ومحمود وعمر الصغير على أنّه « مخبأ مغلق بعلو متر واحد على مترين طولا ». كيف يمكن لهذا المكان الضيق أن يحتوي على متفجرات، في حين كان أربعة أشخاص يتزاحمون بداخله بصعوبة كبيرة ؟ في الحقيقة، وحده عليّ كان يملك رشاشه من نوع مات 49 وملاقمه. وربما كانت معه قنبلة يدوية أو اثنتان، لست متأكّدة. كنا فعلا بلا وسائل الكفاح.

كان ثودار يكذب جهارا نهارا بلا خجل، مضيفا الخزي للجريمة. ومثلما يحدث مع جميع الكذّابين، نسي بأنه قرأ على الصحفيين خلال ندوته مقاطع من الرسائل التي بعثها عليّ إلى شخص رفض الكشف عن هويته. وذلك الشخص ليس إلا الخائن فاندريش، المدعو صافي، والذي كان عليّ يجهل خيانتة العظمى. بعد أيام قليلة من اعتقالنا وإبقائنا في السرية التامة – وكنا، ياسف وأنا، الوحيدَين اللذين بإمكانهما تحذيره من خيانة صافي –، قام عليّ بربط الخيط من جديد بصافي وأعطى له التعليمات اللازمة. في واحدة من الرسائل التي بعثها عليّ إلى الخائن فاندريش، وقد نشرت الصحف مقتطفات منها، يعترف أخونا بأنّ « المنظمة السياسية والعسكرية قد تمّ تدميرها ». وقد أنهى رسالته بهذه الكلمات « لا تحشّوا شيئا. سنتلقّى الأسلحة قريبا » (« جورنال الدلجي »، 11 أكتوبر 1957 و « لاديباش كوتيديان »، 11 أكتوبر 1957).

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

اليوم، وكما كنت في زنزانتني لفيلا الناظور، منقطعة عن العالم الخارجي، أصل إلى النتيجة نفسها وقد أكدتها صحف العدو التي قرأتها بعد 56 سنة من وقوع الحادثة. للقضاء على عليّ الذي كان المظليون يخافون منه وهم يعرفون أنّهم لن يتمكنوا من قتله دون خسائر جسيمة في صفوفهم، لم يتردد ماسو وفودار وترانكيبي عن تفجير المنزل بأكمله، بل الجزء الكبير من الحيّ. إنّ الضحايا من الأموات والجرحى هم سكان 7 شارع عبدramس و5 درب سيلان، فيما كان المظليون يختبئون بعيدا في الشوارع المحاذية. تؤكد هذه العملية على عنف التفجير وقساوة الجيش الفرنسي. ولكن موت عليّ الذي تمزق جسده لم يشف غليل فودار وجلاوزته في الانتقام. ذلك أنه صرح في تلك الندوة الصحفية: « يجب تدمير أسطورة عليّ لابوانت... ». لقد منعه ازدراؤه وعنصريته العميقة تجاه شعبنا وحقده الأعمى من الإدراك أنّ تصريحه يمنح قيمة أكثر للمكافح والقائد عليّ لابوانت. ليس في عيوننا فحسب، ولكن أيضا في عيون العدو. استخدمت المصالح البسيكولوجية للجيش الفرنسي جميع الوسائل من أجل « تدمير أسطورة عليّ لابوانت »، وإحباط معنويات شعبنا وإبعادها عن جبهة التحرير وكفاحها التحرري، وهي عمياء ولم ترّ الزحف الحتمي للتاريخ يقرع طبول نهاية الاستعمار. وقد أغرقوا القصة المسكينة وأحياء الأهالي بآلاف المناشير التي كانت تفاهتها تثير ضحكنا، لولا الحرب الظالمة التي يخوضونها ضدنا. وقد نشرت الصحافة الكولونيالية محتوى هذه المناشير، أقدم بعض أمثلتها: « مات عليّ لابوانت... يعاقب المجرم دوما... لقد خسر الأفلان حربه... استخبروا، وضعوا حدا للرب الذي يفرضه عليكم » (جريدة « ليكو دالجي »، 11 أكتوبر 1957).

وقد ردّ الشعب الجزائري الذي يحرقونه والأفلان الذي اعتقدوا أنهم قضوا عليه نهائيا بنقل حرب التحرير الوطني إلى قلب فرنسا، بعد أقل من سنة،

اعتقال زُهرَة ظريف

ليحققوا نبوة بن مهدي لقتلته في فيفري 1957، والتي ذكّرني بها سي مراد خلال صيف نفس السنة كي يحمّسني : « ستعرف فرنسا الحرب من دنكارك إلى تمّراسنت ». بالفعل، فابتداءً من شهر أوت 1958، نقل الأفلان الحرب إلى إقليم العدو، بالقيام بمجموعة اعتداءات مشهدية يستهدف بها منشآت عسكرية واقتصادية كمصانع الأسلحة ومطارات الجيش الفرنسي، ومخازن المحروقات ومصانع التكرير، كما استهدف مكافحونا ومكافحاتنا الأعوان العسكريين ورجال الشرطة ومتطرفي الجزائر الفرنسية ونواب مسلمين خائنين لوطنهم (أمثال عليّ شكّال...). لأول مرة في تاريخ محاربة الاستعمار، ينقل الشعب المستعمر، الشعب الجزائري، حربه التحررية إلى إقليم البلد المستعمر. وقد أعطى هذا الشعب الذي ظلم واحتُقر كثيرا الردّ الحاسم لأنصار « الجزائر الفرنسية » في يوم 11 ديسمبر 1960 في الجزائر العاصمة. فتدفّق سكان الأحياء الشعبية كزوبعة عاصفة على شوارع المدينة كي يقولوا بأنّ بن مهدي وسي مراد ورامل ودحمان وعليّ وحسبية وجميع الآخرين لم يموتوا. تدفقت أمواج بشرية من النساء (كثير من النساء) والأطفال والشباب من تلك الأحياء الشعبية الفقيرة التي عانت الويلات، على المدينة الأوروبية، بأبديّ فارغة، ووجوه عارية وأصوات جمهورية لتصرخ في وجه الجيش الفرنسي وحكومته ارتباطها بجهة التحرير، مثلها الوحيد، والتعبير عن رغبتها التي لا تُقهر في العيش حرة مستقلة. في ذلك اليوم، رُفعت الأعلام الوطنية عاليا، ترفرف في سماء الجزائر، مبشرة بالاستقلال القريب.

في أكتوبر 1957، إنّ ما سمح لي بأنّ لا أغرق في اليأس وأنّ أستعيد جميع آمالي وأحتفظ بها مؤجّجة بكياني هو الاعتقاد الراسخ بأن مقتل عليّ وحسبية المأساوي لا يعني أبدا نهاية كفاحنا التحرري، والإيمان العميق بأنّ أخوات وإخوان آخرين سيحملون مشعل الثورة من جديد، وتصورتهم يعيدون

مُذَكِّرات مُجَاهِدَة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

تأسيس تنظيم « منطقة الجزائر المستقلة » بطريقة مغايرة لأنهم يعرفون كيف دمرته مصالح الجيش الفرنسي لتفادي الأخطاء التي وقعنا فيها .

• البحث عن أجوبة لأسئلتني الواخزة

نُقلت إلى سجن بربروس في 14 أكتوبر 1957 في ظهيرة مشمسة، قبل أن أقضي برفقة أخوات عديدات حوالي خمس سنوات في سجون فرنسا . وخلال كامل سنوات الاعتقال تلك، سكنني سؤال واخز : لماذا لم نُخضع، ياسف وأنا، إلى التعذيب المشين الذي كان المظليون يمارسونه على جميع المساجين في تلك الفترة ؟ لم يقنعني التفسير المتمثل في كون قودار وترانكيي اكتفيا بمعلومات الخائن صافي واقتنعا بأننا لن نضيف إليهم شيئا . ذلك أنني كنت أعرف الحقد الأعمى والضرارة الجنونية التي تحرّك جميع مصالح الجيش العاملة بالذراير للبحث عن ياسف باعتباره قائد منطقة الجزائر المستقلة . كما أعرف بأنهم لو استطاعوا أن يخصّصوا له موتا مثل موت عليّ وحسيبة، لفعلوا دون أدنى تردّد . زيادة إلى أنّ « السكان المدنيين الأبرياء » الأوروبيين كانوا سيرجمون ياسف وعليّ ويمزقون جثثيهما لو سلّمنا لهم، مثلما فعلت في عمق الجزائر مع مكافحين آخرين . إذا لماذا هذه المعاملة المتميّزة للمظليين تجاهنا ونحن بين أيديهم ؟

وأنا بداخل السجن، وصلني تفسير آخر وجدته أكثر إقناعا، وقد تأكّدت منه بعد سنوات عديدة : التدخل السريع والقوي لجرمان تيون بمجرد علمها باعتقالنا هو الذي أدّى بالسلطة الكولونيلية إلى هذا التعامل الخاص، وكانت عائلة أختي قد رمت بكل شكوكها على جرمان تيون باعتبارها هي التي أفشت عنوان مخبئنا . وأظنّ صادقة أنّ هذه الشكوك كانت تهمة عصيّة الاحتمال لدى مقاومة أصيلة تعرف في لحمها بشاعة الوشاية . لا ننسى بأنّ

اعتقال زُهرَة ظريف

النازيين اعتقلوها ورموها في محتشدات رافنسبروك إثر وشاية . يعود الفضل في نجاتنا، ياسف وأنا، وعدم إخضاعنا للتعذيب، إلى هذه المقاومة . وأعبر اليوم عن امتناني واعترافي الدائمين لها ولعائلتها على هذا الفعل النبيل .

وللأسف الشديد، انتشر تفسير آخر على شكل اتهام خطير ذاع وشاع داخل سجن بربروس . وكان هذا الاتهام خطيرا ومخزيا، لا يؤدي بنا إلى الانتحار أو الجنون فحسب، وإنما هدف إلى تدميرنا والقضاء علينا حتى بعد موتنا . وقد كانت المصالح السيكلوجية للجيش الفرنسي وراء تلك الإشاعة، ولهذه المصالح أعوان كثر في السجون، وحتى بين النساء في بربروس . نكون، ياسف وأنا، قد كشفنا عن مخبأٍ عليّ وحسب ! وحدهم ترانكيي وفودار وآلير يمكنهم تصوّر مثل هذا الخزي ! إنها وسيلتهم المفضّلة لتدمير الأساطير الحية مثل ياسف، والمتوفاة مثل عليّ . لندقق في هذا الاتهام القاتل . ماذا يمكن أن يتعرف المظليون من معلومات جديدة لم يكشفها لهم الخائن صافي ؟ لقد سلّم لهم صافي جميع المعلومات، وعند اعتقالنا لم يبق لهم إلا عنوان مخبأٍ حسبيّة وعليّ لابوانت . لقد تركناهما، ياسف وأنا، يوم 25 سبتمبر في 4 شارع كاطون، ونحن على علم بأنهما سيغيّران المخبأ حتما . وقتلا في مخبأٍ آخر، 5 شارع عبدرامس، العنوان الذي نجهله تماما . وأضيف أنّ مخبأ 4 شارع كاطون لم يخضع أبدا لتفتيش المظليين لأننا، ياسف وأختي وأنا، لم نتحدث عنه أبدا .

وقد كتب مولود معمري الكبير بحق : « إنه مسعى الخصم أيضا، (...) وفي جميع الوثائق حيث حاول دوما تشويهنا، ولكنه يسهل علينا خرق هذا القناع لكشف الحقيقة أخيرا، حقيقتنا » (فجر المنبوذين) .

ولكن للأسف الشديد، وُجد « مؤرّخان » ابتعدا عن واجبهما الأكاديمي ولم يبحثا عن « خرق القناع لكشف الحقيقة »، بنشر وثيقتين ليس للخصم وإنما

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

للعُدوّ الذي كانت مصالح الاستخبارات الفرنسية تمثّله. وتمثل هاتان الوثيقتان رسالتين مزعومتين كنتُ قد بعثتهما إلى حسبية لأطلب منها أن « تسلّم » نفسها : الأولى مؤرّخة في منتصف سبتمبر 1957 والثانية مؤرّخة في 18 سبتمبر 1957 (جبهة التحرير الوطني : وثائق وتاريخ). ولكنني لم أكتب أبدا تلك الرسالتين لحسبية. في منتصف سبتمبر، وفي 18 سبتمبر وإلى غاية اعتقالني صبيحة 25 سبتمبر 1957، كنت أعيش مع حسبية. لماذا أكتب لها رسالة ؟ زيادة إلى أنّ تصديق هذا التركيب الإجرامي، يعني أن صاحبها يجهل طبيعتنا، حسبية وأنا. كنا جنديّتين في منطقة الجزائر المستقلة، واحدة صانعة القنابل، والثانية واضعتها في أماكن عمومية. لقد اخترنا، مثل الأخوات الأخريات، أن نكون متطوعات للموت، وليس للاستسلام. أقبل وأتفهّم أنّ عدوّ الأمم يحاول تدميرنا حتى بعد موتنا : كانت هذه إحدى وسائل حربه الشاملة ضدنا. ولكنني لا أفهم مسعى وأهداف هؤلاء الذين يرددون اليوم مثل هذه الأكاذيب ضدنا. وقد ذكرتني هذه الحادثة الحزنة، وهي أقلّ مأساوية من فقدان أختي حسبية، بحقد وتهديد وشراسة ترانكيي في اليوم الذي اعتُقلتُ وتوعّدتني بالإعدام. قال والغيظ يملأ كيانه : « لو كنت القاضي الأعظم »، هو الكاثوليكي الملتزم، نسي أنّ هذه الوظيفة خاصة بالله الواحد القهار، والذي اختار تكذيبه. ولكن لم يمنعه ذلك من فَبَرَكَة وثائق مزيفة استخدمها آخرون دون معرفة الهدف المخزي من وضعها. الله رحيم ! وقلبي أيضا.

سؤال آخر حيرني طوال سنوات اعتقالي يتعلّق بظروف اعتقال الأخ كمال (الباش عادل حاج سماعيل) بعد ذهابه من 3 شارع كاطون صبيحة 24 سبتمبر 1957.

بعد سنوات طويلة، أيام الاستقلال، علمتُ أنّ قريبته فاطمة حمديكان، تلميذة وصديقة جرمان تيون قد اعتُقلت هي الأخرى وعُذّبت إلى حدّ

اعتقال زُهرَة ظريف

الموت . كما عَلِمْتُ أَنَّ الأخ عَلِيَّ بوزوران، عون اتصالهم مع ياسف، قد نجا من الوقوع في مخالب المظليين وتمكّن من الالتحاق بالجبال . التقيت به بعد إطلاق سراحه ونقلي إلى تونس في ماي 1962 . في خضمّ ابتهاج انتصارنا، وفي حماس الاستقلال الذي تحصلنا عليه أخيرا، فقد طردنا إلى أعماق ذاتنا سنوات النار والدم : كانت الثمن الذي دفعناه لاسترجاع كرامتنا . بلا تشاور مسبق، قرّرنا النظر إلى المستقبل، وتجنيد كامل قواتنا لإعادة إحياء أمتنا، وبناء بلدنا المخرب بالغیظ والنار والنابالم والحد، تشييد دولتنا الفتية، إعادة حرية وحقوق شعبنا المسلوبة منذ زمن طويل .

لذلك لم نذكر الماضي إلا لاستحضار ذكرى أولئك الذين اشتقنا كثيرا إلى رؤيتهم . وكى لا نكتب لذكرهم، فضّلنا الاحتفاء بهم كما لو أنهم أحياء . فتذكرنا اللحظات القوية، السعيدة، التي عشناها معا . ومن جهة أخرى، وربما لأننا عشنا في السرية طويلا وطبقنا قواعد انضباطها الصارمة في كل اللحظات، نتحوّل إلى مناضل سري لمدى الحياة . لا نطرح أسئلة ولا نجيب على أسئلة الآخرين . بدون تلك القواعد، لا يمكن لأي كفاح تحرري أن ينجح .

حينما قرّرت تأليف هذا الكتاب، أجبرت نفسي على التخلي عن طبيعتي الثانية والاتصال بعائلة بوحيرد، وبالأخص جميلة وأطفال أختي، واسمها الحقيقي فتحة حطالي، أرملة الشهيد مصطفى بوحيرد، المتوفاة منذ بضع سنوات . أردت أن يساعدوني على إعادة تشكيل كل لحظة عشناها معا في القصة . كما اتصلت بعليّ بوزوران الذي روى لي كيف اعتقل كمال في 24 سبتمبر 1957 . واتصلت أيضا بأخ أختي، جمال حطالي، الذي يشتغل حاليا في « مكتبة العالم الثالث » . كان عمره 12 سنة في 1957 وقد كان شاهدا على اعتقاله مع ياسف في منزل أخته يوم 25 سبتمبر 1957 عند الفجر، لأنّه كان موجودا . أعطاني جمال حطالي الجواب على السؤال الذي

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

لم يفارق ذهني : لماذا لم يتهجم عليّ المظليون في حين قال لي الكولونيل ترانكيي بأنني لا أستحق إلا شيئا واحدا : الموت . ها هي قصة جمال حطالي في 2013 : « كان عمري 12 سنة في 1957 ، حينما استقرت أختي الكبرى فتيحة حطالي ، أرملة بوحيرد ، برفقة أطفالها الخمسة الصغار وحمايتها في دُويرة صغيرة بـ 3 شارع كاطون ، بعد اغتيال المظليين لزوجها مصطفى . كانت تسكن القصبة ، غير بعيدة عن أهلي الذين كلّفوني بالذهاب للإقامة معها كي أهتم بكل الانشغالات المرتبطة بالخارج ، ومرافقتها في تنقلاتها ومساعدتها على التكفل بأطفالها . حينما جاء ياسف سعدي وعليّ لابوات لأول مرة إلى المنزل ، ترقبتهما خلف ستار الغرفة المقابلة للغرفة التي كانت أختي تستقبلهما فيها . كان عمري 12 سنة ، ولكن مثل جميع أطفال القصبة ، لا أحلم إلا بتقليد رامّ وعرباجي وعليّ لابوات وياسف ، وكنت سأقبل الموت من أجلهم . رأيتك أنت أيضا وحسيبة ، أول مرّة جئتما إلى 3 شارع كاطون . أظنك تذكّرين جيّدا ، عندما كان عليّ يبني المخبأ وكنتما تأتيان من حين لآخر لمساعدته ، كنت أنا حاضرا دوما معكم . كنت أنقل قطع الآجر من الأسفل ، قرب غرفة غسيل الملابس . في ذلك المساء الذي اعتقل المظليون أختي وأخذوها معهم إلى ثكنتهم ، وأنتم جميعا ، ياسف وعليّ وحسيبة وأنت ، صعدتم للاختفاء داخل المخبأ ، أنا الذي ذهبت عبر السطوح لإيقاظ أبي (ديدي العربي) لأخبره باعتقال أختي . فجاء معي ، دائما عبر السطوح ، كي لا يتركني وحدي مع أبناء أختي الخمسة المساكين . وعندما وصلنا إلى الدار ، قلت لأبي أن المجاهدين والمجاهدات يوجدون في المخبأ فأخبرته بالمكان . تذكّرني : هو الذي جاء لتحريركم وإخباركم باعتقال أختي . وبعد ذلك ، غادرتم المنزل فوراً » . تذكّرت جيّدا تلك الحادثة ، ولكنني أوقفته لأسأله إن كان حاضرا بالبيت في ليلة 24 إلى 25 سبتمبر 1957 في لحظة اعتقالنا . أردت

أن يحكي لي ماذا حدث حينما كنا داخل المخبئ. « نعم، كنت في البيت ليلة 24 إلى 25 سبتمبر وكنت شاهدا على اعتقالكما. في حوالي الثانية صباحا، كنت أنام مع أبناء أختي ويمّا في غرفتها حينما جاءت أختي توقظني لأنّ المظليين يحتلون السطح ويخبطون بعنف على الباب. قمت وتبعتها إلى الغرفة التي تنامان فيها أنتِ وياسف. ساعدت أختي ياسف على الالتحاق بالمخبئ، وفي الوقت الذي كانت توقظك، بعثتني لآتيها بالملابس المنشورة في وسط الدار. كانت لا تزال رطبة وكان عليها أن تبرّد سريرك وسرير الخو. وبعد ذلك، صعدت أختي إلى المخبئ وتبعتها لفتح باب السطح. ولم أفارقها خلال كامل فترة تواجد المظليين بالدار : كان لديّ إحساس بأنني سأحميها. بمجرد فتح الباب، احتل رهط من المظليين، أصحاب البيريهات الخضراء، قفص السلام، في حين كانت أختي تشهر ورقة وهي تصرخ : « توقفوا ! توقفوا ! أين رئيسكم ؟ ». فخطف أحد المظليين الورقة من يديها في الوقت الذي ضربها بصفعة قوية إلى حدّ أسقطها على درجة من السلام. كان يصرخ : « أيتها القذرة ! ستدفعين الثمن غاليا ! ». بعد ذلك احتلوا كامل الدار، من السطح إلى الفناء ودخلوا إلى جميع الغرف وبدأوا يفتشونها تفتيشا دقيقا. حركوا الأثاث من أماكنها، أفرغوها من محتوياتها، دققوا النظر في واجهات الجدران... كما قاموا بتنصيب حراس أمام كل باب، وفي السلام، وفي الفناء، وعلى السطح... كان عددهم كبيرا جدا وملؤوا الدار التي كانت صغيرة، دويرة، وأظنّك تتذكّرينها جيّدا. في لحظة ما، أخذوا أختي إلى الغرفة التي نمت بداخلها. خفت كثيرا على أختي وانزويت قرب النافذة التي تنفتح على رواق الفناء. ومن هناك كنت أسمع كلّ شيء. سألوها : « أين يوجد ياسف ؟ ». أجابت بأنها تجهل مكان تواجده. فشتموها وضربوها وردّوا بأنهم يعرفون بأنّ ياسف يوجد بهذه الدار، فردّت : « ابحثوا عنه

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

أنتم ». وكنت أجري خلف تنقلات المظليين الذين استبسّلوا في تعذيب أختي، ولاحظت أنّ بين المظليين يوجد رجال من فرق « الزروقة »، والذين أعرف بعضا منهم. كان المظليون يصعدون وينزلون. فجأة، سمعت دويّا في قفص السلالم أحدث هلعًا كبيرًا في صفوف المظليين الذين تراكموا هناك في أسفل السلالم. اندهشت وأنا أراهم يهربون، يتزاحمون ويتدافعون الواحد مع الآخر لأن الباب كان ضيقًا ومنخفضًا ولا يسمح إلا بمرور شخص واحد. كانوا مرعوبين وركضوا يختفون في الفناء؛ لجأ بعضهم للاحتباء بداخل الغرفتين. كنت أراقبهم، وأنا أخرج من المطبخ المجاور لقفص السلالم، فرأيت المظليّ الذي صفّع أختي عند الدخول، يمسك أختي من الرقبة بيديه الملطختين بالدماء. صرخ مظليّ: « الكولونيل جان بيار مجروح! أسرعوا! أسرعوا! ». تسارع الكثير منهم لمساندته. أمر أحدهم بأخذه إلى الغرفة فمدّوه على الفراشية التي كنت تنامين عليها قبل لحظات. فكّرت: « سيلطّخ دمه فراشية الأخت المجاهدة ». ثمّ تدخّل مظليّ كان وجهه مُحاطًا بطوقٍ ينطلق من الصدغين إلى الذقن، مربع الجسم. كان هادئًا، فأمر بإحضار نقالة لأخذ الكولونيل الجريح. كان هناك جرحى آخرون وبدأ لي أن واحدا منهم قد مات عندما وصلوا إلى أسفل السلالم المؤدية إلى شارع كاطون. حاولت التسلّل بينهم لأذهب بقرب أختي حينما أمسكني رجل من « الزروقة » وهو يجذبني من كمّ سترتي. تعرفت على عليلو عندما جلسنا على درج من السلالم المؤدية من باب الدخول إلى الفناء. كان يضع يديه على وجهه ويبكي طوال المدة التي كنت أستمع إليه. حكى لي أنّه في اليوم الذي جاء فيه إلى 3 شارع كاطون ببذلة فرقة « الزروقة »، وكان في مهمة حراسة ومراقبة، فلاحظ مواد البناء الموضوعة في الفناء، ففهم أنّ ياسف وعليّ كانا بالدار وأنهما بصدد بناء مخبأ جديد. قال لي بأنه لم يفش الخبر أبدًا. وذكرني بالتفتيش الرهيب

اعتقال زُهرَة ظريف

التي قام به المظليون في سوق الجمعة في القصبة السفلى خلال الصيف . كان يبكي ويحكي ، فاعترف لي بأنه أفشى للمظليين بأن عليّ وياسف قد اختبأ في سوق الجمعة لتوقيف التعذيب الشنيع الذي كان يمارس عليه . فكرّر وهو يبكي : « كنت أعرف أين كانا يختفيان ولكنني لم أخبرهم بالمكان أبدا » . كنت أستمع إليه في صمت لأنني كنت خائفا منه . لم أكن أعرف ماذا كان يريد مني » .

وفي هذا المستوى من قصة جمال ، سألته عن الخائن الحقيقي ، فاندريش حسان المدعو صافي . فأجابني بأن كثيرا من رجال فرقة « الزُرُوقة » كانوا متواجدين بالدار في تلك الليلة ولكنه لم يعرف إلا لاحقا بأن أحدهم هو المدعو صافي . في المقابل ، لاحظ أنّ كمال كان في وضعية سيئة جدا ، وأنه يقف بصعوبة ويتكئ باستمرار على جدار أو عمود . أضاف جمال بأنه يجهل ما وقع في قفص السلالم بعد الانفجار . ومع ذلك فقد تبع أخته عندما « بدأت المفاوضات بينكم وبين القبطان آكير ، رجل الطوق الذي يغطي نصف وجهه » . قال جمال : « القبطان آكير شخص هادئ للغاية ، أقل عنفا من الكولونيل جان بيار ، وهو الذي عوضه بعد أن جرح هذا الأخير ونُقل خارج الدار . أنا متأكد من أنّ الكولونيل جان بيار كان سيفجر كل شيء لو لم يُجرح ويجلى . كان عنيفا ، قاسيا ، فظا وعديم الصبر . سعدت أختي لتتكلم معكم ، وابنتها الأخيرة بين ذراعيها ، ثم نزلت تتفاوض مع القبطان آكير ، وعندما لم تجده داخل الغرفة التي استُنطقت بها ، تلك التي كنتم ، أنت وياسف ، تقيمان بها ، دخلت واقتربت من النافذة وصاحت بملء فيها : « كل شيء على ما يرام ! كل شيء على ما يرام ! » . ثم أغلقت النافذة وذهبت للبحث عن القبطان آكير . وقد قامت أختي بهذه العملية مرات عديدة . كنت أنظر إليها تفتح النافذة وتصيح بجملتها ، وأتساءل إن لم تكن قد أصيبت بالجنون » .

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

فشرحتُ لجمال بأنّ أختي كانت، خلافاً لاعتقاده، ذكية وشجاعة. ذلك أنها حينما كانت تفتح النافذة وتصيح « كل شيء على ما يرام » ثم تغلقها، فكانت تخاطب عليّ وحسيبة اللذين يوجدان في الدار المقابلة، 4 شارع كاطون. كانت تريد طمأنتهما عن حالتنا، خائفة من تهور عليّ ووفائه لياسف، وقد يحاول التدخل لمساعدة قائده وهي عملية انتحارية صرف. عجيبة أختي بهذا الذكاء الخارق، وتلك الشجاعة ورباطة الجأش ! ولكن جمال لم يكن يعرف بأن منزل 4 شارع كاطون كان مخبأنا أيضاً، وأنّ عليّ وحسيبة يوجدان به. استأنف قصته : « حينما وصلت إلى الفناء الذي كان يعجّ بالمظليين وصعدت إلى الطابق الأول، يحيطك العساكر، تبعثُك. رأيتهُك تدخلين غرفة يَمّا، وتخرجين وقد غيّرتِ ملابسكِ، ثم أخذوك معهم. لم أرَ ياسف. ولكن بمجرد أن خرجتما، أمر المظليون أختي بمتابعتهم. كانت محل اعتقال هي أيضاً. وقد سُمح لها بأنّ تُصعد إلى حماتها لتوصيها بالاعتناء بأطفالها الخمسة في غيابها. دخلتُ خلفها إلى غرفة يَمّا. أغلقت الباب، وجرتني وهي تمسكني بعنف من صدر سترتي. فأدخلت يدها في بطانة السترة وأجلستني بجانب يَمّا. فأفقت أُمّامي، يحيطها أطفالها، وهمست في أذني : « احذر ! لقد وضعتُ ورقة داخل بطانة سترتك. ابقَ بجانب يَمّا ولا تتحرك. إنّ هذه الورقة مسألة حياة أو موت. لا تعطِها إلا لأبي. وقُل له بأنّ يبعث برقية في أسرع وقت إلى الاسم والعنوان الموجود في الورقة. قل له أنّ لا يغيّر شيئاً من نص البرقية المكتوب على الورقة. إنّها مسألة حياة أو موت. إذا تكلمت أو ضيّعت الورقة، سأموت، وسيموت الأخ والأخت وأنت أيضاً ستموت إذا وجدوا الورقة عندك ». كانت تكلمني وتداعب طفلاً من أطفالها، وتأخذ الثاني على ركبتيها... ثمّ انحنّت على يَمّا وكلمتها في أذنها وهي تقبلها. عندما وقفت، قالت لي : « لا تتحرك، ابقَ بجانب يَمّا ! ».

اتجهت نحو الخزانة، أخذت حايكها، لفت به جسدها، ربطت عجارها جيّداً وخرجت دون أن تلتفت إلينا. أحاطها المظليون وأخذوها معهم. حينما عاد الهدوء إلى الدار، قالت يماً بصوت رزين : « اذهب وآتيني بضروريات الخياطة في الأسفل وعد لتجلس بقربي ». فعلت ما طلبته مني، ثم أخذت سترتي وبدأت تخطط البطانة لتخفي الورقة بداخلها. حينما جاء أبي حوالي الساعة الثامنة أو التاسعة، وكنتما قد اعتقلتما عند الفجر، انتظرتُ ليكون وحيدا فانزويت معه في المطبخ ورددت له ما قالته لي أختي كلمة بكلمة وكشفت له مكان إخفاء الورقة. فقام أبي بهدوئه المعتاد بفك الخيط وأخرج الورقة واختفى في المرحاض. بقي بعض الوقت معنا، لعب مع الأطفال وهو يطمئنهم على أمهم، ثم أعلن ليماً بأنه سيطلب من أمي أن تأتي لتقيم في منزل ابنتها لتهتم بالأطفال. أخبر المظليين الذين لا يزالون يحرسون الدار ثم فارقنا .

وفي هذا المستوى من القص، قال جمال بأنه علم لاحقا بأن تلك الورقة التي أخفيتها أختي داخل بطانة سترته هي تلك التي أعطيتها أنا ليماً حينما صعدت عندها لتغيير ملابسها وقد كلّفَتْها بأن تعطيها لأخته. أجبته بأنني لم أعطِ أية ورقة ليماً. ولكن جمال ألحّ مقتنعا بذلك : « تكونين قد نسيت، لقد مرت 56 سنة ! حاولي أن تتذكّري، إنها برقية موجهة إلى جرمان تيون ! ». قلت بإلحاح : « برقية إلى جرمان تيون ؟ أكرر بأنني لم أعطِ أية ورقة ليماً ولا برقية موجهة إلى جرمان تيون ». عند تلفظي بالكلمات الأخيرة، قفرت إلى ذهني، بمثابة رؤية، الإجابة عن السؤال الذي ما فتئ يحيرني طوال الـ 56 سنة الماضية : لماذا نجونا، ياسف وأنا، من الاستنطاقات الفظة ومن التعذيب ومن المعاملات السيئة، المألوفة جدا في تلك الفترة، يمارسها المظليون على جميع المعتقلين. لماذا تركوا ياسف على قيد الحياة وهم يكرهونه أكثر من غيره باعتباره قائد منطقة الجزائر المستقلة، وما فتئوا يبحثون عنه بشراسة كـ « مجرم

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلّة

دموي «، في الوقت الذي قتلوا فيه بن مهيدي بعد أن نُوِّهوا بشجاعته وهيبته
وبُعد نظره ؟

بعد 56 سنة من اعتقاله، أخيرا وجدت الجواب عن أسئلتني المحيرة، وداخل
مكتبة (آه ! كم أنقذتني الكتب التي أعزّها !) وبفضل طفل عمره 12 سنة،
جمال حطالي في 1957. هذا ما يكون قد حدث. في الوقت الذي كنا،
ياسف وأنا، داخل المخبأ، حينما كانت أختي تتفاوض مع الخو في محاولة
منها لإقناعه بأن يسلم نفسه، يكون قد استغل هذه الفرصة ليعطي لها ورقة
كتب عليها رسالة لجرمان تيون واسمها وعنوانها. وهذا ما يفسر ذهاب
أختي وإيابها ومحادثاتها الهامسة مع الخو، وقد كنت حينها جالسة في
وضعية عزيزتي حسيبة أنتظر الموت وأكثر من الدعاء. قام العبقري ياسف
بخط البرقية وكذا اسم وعنوان جرمان تيون وأعطاهما خلصة لأختي التي
يعرف رباطة جأشها وشجاعتها وتجنيدها ووفائها. أنا متأكدة بأن ياسف يكون
قد شرح لها طريقة إرسال البرقية. يعرفها قادرة على إخراج رسالته دون أن
يتفطن لذلك مظليو ماسو. يا له من قائد فذ ! اقتنع بأن اعتقالنا كان محتوما،
فاستخدم آخر ورقة كانت بيده. فقد قرّر مواصلة الكفاح، وإفشال استراتيجية
الإبادة التي انتهجها ماسو، وذلك بتجنيد مقاومة سابقة للنازية، التي عرفت
الاعتقال في محتشدات الموت، والتي لا يمكن أن تقبل باتهامها أن تكون
وراء اعتقالنا، ولو بطريقة غير إرادية. كنت بداخل المكتبة أبتهج أمام وضوح
الجواب وشفافيته، ولكن جمال ألح كي أقوم بجهد تذكري لأستعيد اللحظة
التي « أعطيت فيها الورقة ليّما كي تعطيها لأختي ». بهدوء، شرحتُ
لجمال أن هذا يدخل ضمن المستحيل لأنني لا أعرف عنوان جرمان تيون
وأني لم أشارك في محادثات ياسف وأختي. وعندما سألتها إذا كان يتذكّر
نص البرقية، جاء جوابه فورا : « جدّتي مريضة وفي خطر ». أما العنوان، فلا

اعتقال زُهرة ظريف

يتذكر منه إلا « سان ماندي ». وبمجرد تلقيها البرقية، عملت السيدة تيون على إخبار السلطات الفرنسية العليا كي لا يحدث لنا شيء. وهكذا كان الحال، وأنا أكرر امتناني الأبدي لهذه السيِّدة النبيلة، وكذا لياسف، وجمال، ويّما، وأختي، وديدي العربي أيضا. فبفضل جرمان تيون، يكون كل من لاكوست وماسو وفودار وترانكيي قد تلقوا أمرا بعدم إلحاق أي ضرر بنا. وهذا ما يفسّر الضغينة التي قابلني بها الكولونيل ترانكيي والحقد الفظ الذي تعامل به هو ورجاله على تمزيق جسديّ عليّ وحسيية. تطلّب بحث أربعة أيام وسط الأنقاض لاكتشاف جثتيهما. وسألت جمال عن الكيفية التي تمّ بها إرسال البرقية، فقال : « عندما غادرنا أبي في تلك الصبيحة، ذهب أولا إلى منزله ليخبر أمي عن اعتقال ابنتها. انتظر أن تحضّر نفسها لتنتقل إلى منزل أختي بـ 3 شارع كاطون والاعتناء بالأطفال الصغار. ثم أخذ الوقت الكافي للذهاب إلى سوق راندون وشراء مواد غذائية وخضر وفواكه، وأوصلها إلى الدار. ثم غادرنا ليذهب إلى مقهى حيث تعود ارتياده في السكوار بريسون. كان المقهى يقع مقابل مقر الجمعية الوطنية ومكتب بريد النواب، والمفتوح للجمهور والذي يفتح على شارع سترازبورغ، المتعامد مع شارع الواجهة البحرية. إذاً، كان بإمكان أبي أن يراقب مكتب البريد من مكانه بالمقهى. انتظر وقت الغداء، في حوالي منتصف النهار، استعداد المكلّفة بالخدمة البريدية لترتيب مكتبها للخروج، فأسرع إلى الشباك، بسحنة مضطربة، وهو يمدّ لها نص البرقية متوسّلا : « من فضلك سيّدي، أمر عاجل، عاجل جدا، مريض خطير ». وعندما قرأت الموظفة نص البرقية، قبلت بأن تبعته في الحين للعنوان المعين. إنّ سحنة أبي المضطربة، زائد استعداد الموظفة للخروج وتناول غداءها، أدّى بهذه الأخيرة أن لا تطلب بطاقة هوية أبي مثلما تشترطه احتياطات الأمن. اكتفت بصيغة « محمد بن محمد الساكن برقم (خيالي) من

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

شارع الباب الجديد «، الذي أعطاه لها أبي شفهيًا. وأظن أن السيِّدة جرمان تيون تكون قد أُخبرت في صبيحة اعتقالكما، حسب الشفرة المحددة سلفًا بينكما. بعد أيام قليلة، عند الظهيرة، جاء ثلاثة ضباط سامين إلى 3 شارع كاطون، جمعونا جميعًا في الفناء، أمِّي، يَمَّا، الأطفال، قريبة لنا وأنا. بقي الضباط الثلاثة يواجهونا وينظرون إلينا بصمت. أحاطني أمي بذراعها، فيما جمعت أحفادها الصغار، الواقفين أمامها، بذراع آخر. كلَّمنا بالفرنسية ذلك الذي كان الحارس الذي بقي أمام بابنا طوال تلك الأيام يناديه « حضرة الكولونيل » حينما كان يجيب عن بعض أسئلته. وكان أحد الحراس يترجم أقوال الكولونيل إلى العربية الدارجة، ذاك الذي كان يرافقني دوما حينما أخرج إلى السوق ويشترط عليّ التحدث بالفرنسية، حتى وأنا أخاطب التجار. قال لنا الكولونيل : « هناك برقية أرسلت من هنا إلى باريس. ولا يمكن أن تُرسل إلا من هذه الدار. ونريد أن نعرف من أرسل البرقية ». خيم صمت ثقيل بعد سؤاله. ثم استأنف كلامه : « لا تخشوا شيئًا. لا نريد أن نلحق بكم أي ضرر. نريد فقط معرفة من بعثها ». لم أكن خائفا لأنني لم أكن أنا باعث تلك البرقية، ولا أحد الحاضرين معي. بدأ الكولونيل يذرع الفناء دون أن يُبعد عينيه عنا. شدتني أمي بقوة فيما تراحم الأطفال وتشبثوا بسروالها. كانت يَمَّا منحنية، تتكئ بيديها على عصاها، وسبحتها معلقة بين أصابعها. قال الكولونيل : « لم نأت لعقابكم. نريد فقط تهنئة الشخص الذي بعث البرقية ». خيم الصمت من جديد. أخيرا، عادوا فارغي اليدين. التحقت أمي بالمطبخ، ويمَّا بغرفتها. واصلت اللعب مع أبناء أختي وأنا أهني نفسي وأبتهج لفكرة أن أختي لن تموت. لم يكن ممكنا أن أفشي السر لأحد، واحتفظت لنفسني فقط، وأنا طفل 12 من العمر، بفرحة معرفة أن أختي لن تموت ».

أشكر من صميم قلبي جمال حطالي لأنه سمح لي بملء فراغات ذاكرتي، وهو يعطيني أجوبة لأسئلة حيرتني طوال 56 سنة من حياتي. أشكره لأنه كان

اعتقال زُهرَة ظريف

موجودا في 1957، وعمره 12 سنة، وكان، على صورة الشهيد عمر الصغير، الممثل الجدير لأطفال قصبتنا العزيزة، الذين كانوا أبطالاً حقيقيين برغم صغر أعمارهم.

كما أبدى الأخ علي بوزوران، والذي أتمنى له صحة جيدة وعمرًا مديدًا، استعداداه الكلي في كل مرة استعنت به، لينيرني حول نقاط بقيت غامضة لديّ كالظروف التي أدت إلى لقائنا بجerman تيبون أو تلك التي أدت إلى اعتقال الأخ كمال (باش عادل حاج سماعيل). بفضلها، علمت أنّ كمال عندما غادرنا في صبيحة 24 سبتمبر 1957، التحق ببيته، بشارع « دي بوتّي ثوارس » قبل أن يلتحق بالمحكمة المحاذية لشارع جامع الجديد. حينما عاد كمال إلى بيته، وضع فوق أثاث عند مدخل الشقة التقرير المفصل الذي أعدناه كي يوصله إلى الإخوة في تونس. حدث أنّ واحدا من المناضلين من منطقة الجزائر المستقلة والذي كان محل بحث دؤوب من قبل الشرطة الفرنسية كان مقيما عنده في انتظار الالتحاق بالجناب. وقد تمّ توقيف هذا الأخير خلال اشتباك مسلّح فوّجه نحو مصالح ماسو في الجزائر العاصمة، فتمّ تعذيبه، وقاد المظليين في صبيحة 24 سبتمبر 1957 إلى شارع « دي بوتّي ثوارس » حيث شقة كمال. لم يفتش المظليون كثيرا. فوجدوا الملف على أثاث عند مدخل الشقة، التقرير الذي كتبه ياسف بيده وبه جميع المعلومات حول وضعية منطقة الجزائر المستقلة. تمّ اعتقال كمال في الحين، وخضع لأبشع تعذيب. وتعرفون بقية القصة.

وفيما تبقى من أيام، لم يقلقني اعتقالي ولا سجنّي لقراءة الخمس سنوات. كان هذا المال يندرج ضمن أخطار التجنيد والاختيار اللذين قمت بهما بإرادتي وحرية ضميري. إنّ ما يقلقني دوما، هو الخوف من أنّ الأحياء، وخاصة شبابنا، ينسون التضحيات الجسام التي قدّمها شعبنا، أن ينسوا بن

مُذَكِّرات مُجاهِدة من جيش التَّحرير الوطنيّ منطقة الجزائر المستقلّة

مهيدي، عبان رمضان، عليّ لابوانت، دبيح شريف، حسيبة بن بوعلي، وريدة مداد، عمر الصغير والآخرين. أن ينسوا الثمن الباهظ الذي دفعته الجزائر من أجل حريتها واستقلالها، ينسوا كيف سيدافعون عنها ويبعدون عنها الأخطار. ولكنني مطمئنة البال بعد الذي حدث في نوفمبر 2009 في الخرطوم. فبمناسبة مباراة لكرة القدم جمعت الفريق الجزائري بالفريق المصري، أوقفت الشرطة السودانية بعضَ المناصرين الجزائريين، لم يكونوا يحملون أوراق ثبوت هويتهم معهم، وحينما طلبت منهم التعريف بهويتهم، أعطوا قائمة بهذه الأسماء : مصطفى بن بولعيد، العربي بن مهدي، زيغوت يوسف، عبان رمضان، عليّ لابوانت، دبيح شريف، لوني أرزقي وأسماء أخرى من الشهداء. فمن قال بأنّ شبيبتنا تائهة ومضطربة الهوية ؟ إن هؤلاء الشباب هم الذين خففوا من هاجسي لأنني فكّرت حينها : « لو كانت معهم فتيات جزائريات، فأنا متأكّدة بأنّهن سينتحلن هويات حسيبة بن بوعلي ووريدة مداد ومريم بوعتورة ... ». إنه أجمل انتصار على هذه البهيمة المتوحشة التي تسمى الاستعمار.

إنّ أُملي الآن هو أنّ أملك الطاقة والقوة لأشهد، إزاء شبابنا، عن سنوات الاعتقال إلى جانب عشرات من الأخوات، وعن حبور الاستقلال، ثمّ عن عمل التشييد الصعب.

إن شاء الله، إنّ أطلال الله عمري.

تحيا الجزائر حرة مستقلة

المجد والخلود لشهادتنا الأبرار

الملاحق

شجرة أنساب زهرة ظريف

[illegible]

يا حميد القدر : يا حميد الرحمن :
 يا حميد الله : يا رازي ربي : يا رازي
 يا رازي الكبر : يا حميد الله : يا
 حميد بن الحسين : يا علي بن
 منت رسول الله : يا رسول الله
 يا حميد الخرم
 يا حميد الله : يا حميد الله :
 يا حميد الله : يا حميد الله :
 يا حميد الله : يا حميد الله :

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

REPUBLIQUE FRANÇAISE - GOUVERNEMENT GÉNÉRAL DE L'ALGÉRIE ENSEIGNEMENT SUPÉRIEUR MUSULMAN DIPLOME D'ÉTUDES SUPÉRIEURES DES MÉDERSAS MÉDERSA D'ALGER * الحمد لله وحده *	
Le Gouverneur Général de l'Algérie Ne le relevé des registres constatant que M. Drif Ahmed né au douar Meria (c.m. de Giarret) département d'Oran le 25 octobre 1909 a subi, avec succès, devant M. le Recteur et les Professeurs de la Médersa d'Alger, les épreuves prescrites par le décret du 25 juillet 1935, art. 1^{er}; Sur la proposition de M. le Recteur de l'Académie d'Alger; Donne, par les présentes, à M. Drif Ahmed le Diplôme d'Etudes Supérieures des Médersas, pour en jouir avec les droits et prérogatives qui y sont attachés par les arrêtés et règlements. Fait à Alger, le 23 DEC. 1935 19 Pour le Gouverneur Général Le RECEVU (Signature) Signature de l'Imprimant Delivré par le Recteur de l'Académie d'Alger, le 30 DEC 1935	* الجمهورية الفرنسية * ولاية بنوم الجزائرية * التعليم العالي للمسلمين * الاجازة الكبرى في العلوم العربية * مدرسة الجزائر نحن والي عموم الجزائريين بعد اطلائنا على نسخة من مضمون الدفاتر المتعلق به ان السيد ظريف احمد المولود في دوار كرويع من بعدة تيارت المندرجة تحت ولاية مستغانم يوم 23 من شهر جويلية عام 1909، الفصل 1 من الامر الدولي المؤرخ باليوم 23 من شهر جويلية عام 1935 بمقتضى المادة مدير مدرسة الجزائر ومدرستها ودار بالبحاج وبناء على ما عرضه رئيس القسم العلمي في الجزائر على السيد ظريف احمد المذكور بالاجازة الكبرى في العلوم المتناولة بالمدراس لانتعاج جميع الحقن والامتيازات المتعلقة بها حسب الترتيب الجاري والترايب الجارية سلم رئيس القسم العلمي في الجزائر هذه الوثيقة لتأشيعها حوري في الجزائر امضاء للبحاج

REPUBLIQUE FRANÇAISE - GOUVERNEMENT GÉNÉRAL DE L'ALGÉRIE ENSEIGNEMENT SUPÉRIEUR MUSULMAN DIPLOME D'ÉTUDES DES MÉDERSAS Médersa de Clemenc * الحمد لله وحده *	
Le Gouverneur Général de l'Algérie Ne le relevé des registres constatant que M. Drif Ahmed né au douar Meria (c.m. de Giarret) département d'Oran le 25 octobre 1909 a subi, avec succès, devant M. le Recteur et les Professeurs de la Médersa de Clemenc, les épreuves prescrites par le décret du 25 juillet 1935, art. 3, modifié par celui du 25 juillet 1935, art. 1^{er}; Sur la proposition de M. le Recteur de l'Académie d'Alger; Donne, par les présentes, à M. Drif Ahmed le Diplôme d'Etudes des Médersas, pour en jouir avec les droits et prérogatives qui y sont attachés par les arrêtés et règlements. Fait à Alger, le 2 JANV 1936 19 Pour le Gouverneur Général Le RECEVU (Signature) Signature de l'Imprimant Delivré par le Recteur de l'Académie d'Alger, le 45 JAN 1936	* الجمهورية الفرنسية * ولاية عموم الجزائرية * التعليم العالي للمسلمين * الاجازة الصغرى في العلوم العربية * مدرسة تلمسان نحن والي عموم الجزائريين بعد اطلائنا على نسخة من مضمون الدفاتر المتعلق به ان السيد ظريف احمد المولود في دوار كرويع من بعدة تيارت المندرجة تحت ولاية مستغانم يوم 23 من شهر جويلية عام 1909، الفصل 3 من الامر الدولي المؤرخ باليوم 23 من شهر جويلية عام 1935 بمقتضى المادة مدير مدرسة تلمسان ومدرستها ودار بالبحاج وبناء على ما عرضه رئيس القسم العلمي في الجزائر على السيد ظريف احمد المذكور بالاجازة الصغرى في العلوم المتناولة بالمدراس لانتعاج جميع الحقن والامتيازات المتعلقة بها حسب الترتيب الجاري والترايب الجارية سلم رئيس القسم العلمي في الجزائر هذه الوثيقة لتأشيعها حوري في الجزائر امضاء للبحاج

الملاحق

تعيين أحمد ظريف باش عادل

COUR D'EL-ANAM

REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

10 JANV. 1939

Extrait des minutes du Greffe de la Cour

d'El-Anam

Serment de DRIF Ahmed

Dafra et Wilaya dudit

Bachadel à Vieler

(ALGERIE)

COPIE

L'an mil neuf cent trente neuf et le dix janvier ;

Le Tribunal Civil de première instance d'El-Anam, réuni en audience publique où siégeaient Messieurs :

BAGARD, Président ;
PRUNETTI & KRAUTH, Juges ;

En présence de Monsieur DUPORT, Procureur de la République ;

Assisté de Maître MEYER, Greffier ;

A procédé comme suit :

Le Procureur de la République a exposé que par arrêté de Monsieur le Gouverneur Général d'Algérie en date du 6 décembre 1938, Monsieur DRIF Ahmed, Adel à Marengo, a été nommé en qualité de Bachadel à la Mahakma de Vieler ;

Et ledit DRIF Ahmed étant présent à la barre, il a conclu qu'il plaise au Tribunal recevoir le serment qu'il doit prêter pour exercer ses fonctions ;

Le Tribunal, faisant droit aux conclusions de Monsieur le Procureur de la République, a ordonné la lecture de l'arrêté sus-visé ; puis cette lecture faite par le Greffier, Monsieur le Président a donné lecture du serment légal ; Monsieur DRIF Ahmed debout, la main droite levée ayant répondu " JE LE JURE ", acte a été donné dudit serment et Monsieur DRIF Ahmed a été renvoyé à l'exercice de ses fonctions.

LE GREFFIER,

LE PRESIDENT,

POUR COPIE CERTIFIEE CONFORME

A L'ORIGINAL

Le Greffier en Chef.



الملحق 2

التنظيم النسائي لمنطقة الجزائر المستقلة (وثائق الجيش الفرنسي)

ORGANISATION FEMININE de la Z.A.A. (1)

ZONE NORD ALGEROIS

SECTEUR ALGER-SAHEL

2ème SECTION

N° I.722 / 2/C.S.

Conçue par YACEF, élaborée par DRIF ZOHRA, l'Organisation Féminine de la Z.A.A. voyait le jour au moment de l'occupation de ses auteurs:

- L'Organisation à réaliser avait été définie;
- Le Programme d'Action avait été tracé dans ses grandes lignes;
- Le recrutement des " SOEURS " d'encadrement avait été amorcé.

I. - CARACTERISTIQUES DE L'ORGANISATION DEVANT ETRE REALISEE -

- a) - Organisation totalement indépendante des autres réseaux (politique, militaire, liaisons et renseignements).
- b) - Organisation pyramidale : voir Annexes I et II.
- c) - Encadrement strict :

- " Dès le début, familiariser les Soeurs avec les règles d'une Organisation : DISCIPLINE et DISCRETION " (2).

- " Les différents groupes ne doivent pas se connaître " (2).

- " Les éléments de chaque groupe ne doivent, si possible, se connaître que sous le nom de : Combat " (2).

II. - PROGRAMME D'ACTION - (Texte de DRIF ZOHRA).

" J'avais insisté sur l'importance du rôle social de la femme. Voici quelles étaient mes idées :

A/ - Rôle social.

Essayer de contrebalancer l'action des S.A.S. voici comment :

... / ...

(1) - due à l'initiative de YACEF. Aucune organisation semblable n'existe ailleurs.

(2) - Citation de DRIF ZOHRA.

الملاحق

I) - Créer des équipes de femmes par quartier.

1er travail : Approche des familles - Recherche des familles nécessiteuses - Recherche de malades, etc....

2° travail : Aide aux familles.

2) - Créer des équipes d'assistantes sociales.

Soins aux malades; bref, tout ce qui est de leur ressort.

3) - Formation des gens dans tous les domaines.

B/ - Rôle dans l'organisation proprement dite.

1) - Secours aux familles de détenus.

2) - Renseignements dans tous les échelons.

3) - Verser celles qui étaient capables et nécessaires dans l'organisation parallèle (liaisons, transports, etc....).

Lorsque l'organisation serait sur pied, et que les militantes auraient un contact direct avec les femmes musulmanes, essayer d'organiser une " manifestation silencieuse " de femmes. Les femmes se seraient, un Vendredi par exemple, réunies sur la Place du Gouvernement, près de la Mosquée ou aux Cimetières, pendant 10 minutes, et se seraient séparées. Le sens de cette manifestation aurait été expliqué plus tard, par tracts, par billets aux journaux. Sens : protestation contre détention de prisonniers, condamnations à mort et exécutions. A l'origine, cette manifestation avait été prévue pour protester contre la condamnation à mort des deux DJAMILA.

C/ - Répartition des tâches -

Les trois cellules de chaque groupe sont spécialisées dans une tâche particulière :

- la première cellule s'occupe des secours aux familles et des soins.

- la deuxième cellule s'occupe de la propagande et de la détection des mouchards.

- la troisième cellule s'occupe du recensement des personnes et familles ayant eu des membres tués ou torturés. Constituer des dossiers pour chaque cas. Agents de liaison en cas de besoin pour les groupes armés.

.../...

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

D/ - Les cadres, à partir de l'échelon Groupe et jusqu'à l'Echelon Régional devaient servir de guides pour les manifestations futures..".

III. - RECRUTEMENT -

Le recrutement devait être progressif, commencer par celui des cadres et donner la priorité à la qualité (revêtir la forme d'une sélection).

Il avait été demandé aux cadres politiques et aux militants de fournir des noms de femmes susceptibles d'entrer dans l'organisation.

EL KHIAN, Commissaire Politique de la Z.A.A., avait détecté et pressenti quelques " Soeurs ", dont il avait fourni les noms à DRIF ZOËRA (1)

IV. - CONCLUSIONS -

- 1) - L'Organisation Féminine de la Z.A.A. en était à sa phase de démarrage. Stoppée par l'arrestation de YACEF et de DRIF ZOËRA, elle est susceptible d'être relancée ultérieurement.
- 2) - Une telle organisation constituerait aux mains des rebelles un moyen puissant pour maîtriser la masse populaire musulmane. A ce titre, elle mérite toute notre attention.
- 3) - Il y a lieu d'en observer les indices d'une renaissance éventuelle par une surveillance des rassemblements, occasionnels ou traditionnels, de femmes (cimetière le vendredi - jour réservé aux femmes dans les bains maures - marchés fréquentés à peu près exclusivement par les femmes - ex. rue Bentami le dimanche, etc....).

ALGER, le 2/10/1957

Le Colonel GODARD, Adjoint au Général Cdt la 10^e D.P.
et Cdt le Secteur ALGER-SAHEL

P.O. le Lt-Colonel M A R E Y

Adjoint :

SIGNE : M A R E Y

-
- (1) - L'O.R. du Sous-Secteur ORLEANS a reçu tous renseignements recueillis à ce sujet.

الملحق 3

التنظيم التراتبي النسائي (وثائق الجيش الفرنسي)

A N N E X E II

HIERARCHIE DE L'ORGANISATION FEMININE

La Cellule : Compte 5 femmes plus une " Soeur " responsable de cellule.

Effectif total : $5 + 1 = 6$

Le Groupe : Compte 3 cellules plus une " Soeur " responsable du groupe.

Effectif total : $18 + 1 = 19$

Adapté à un quartier d'habitations.

La soeur responsable du Groupe préside la réunion hebdomadaire; elle constitue l'échelon inférieur de responsabilité et de décision.

La Section : Compte deux groupes plus une " Soeur " responsable de la Section.

Effectif total : $38 + 1 = 39$.

Adapté au Secteur.

La " Soeur " responsable de la Section et les deux " Soeurs " responsables des groupes constituent une " Cellule " (Comité) de Commandement qui délibère sur les décisions à prendre à l'échelon secteur et sur les modalités d'exécution des ordres venus de l'échelon supérieur.

La Région : Compte trois sections (1)

(Féminine) Effectif total : $117 + 1 = 118$.

Adaptée à la Région Militaire et Politique.

La Zone : Compte les 3 Régions habituelles.

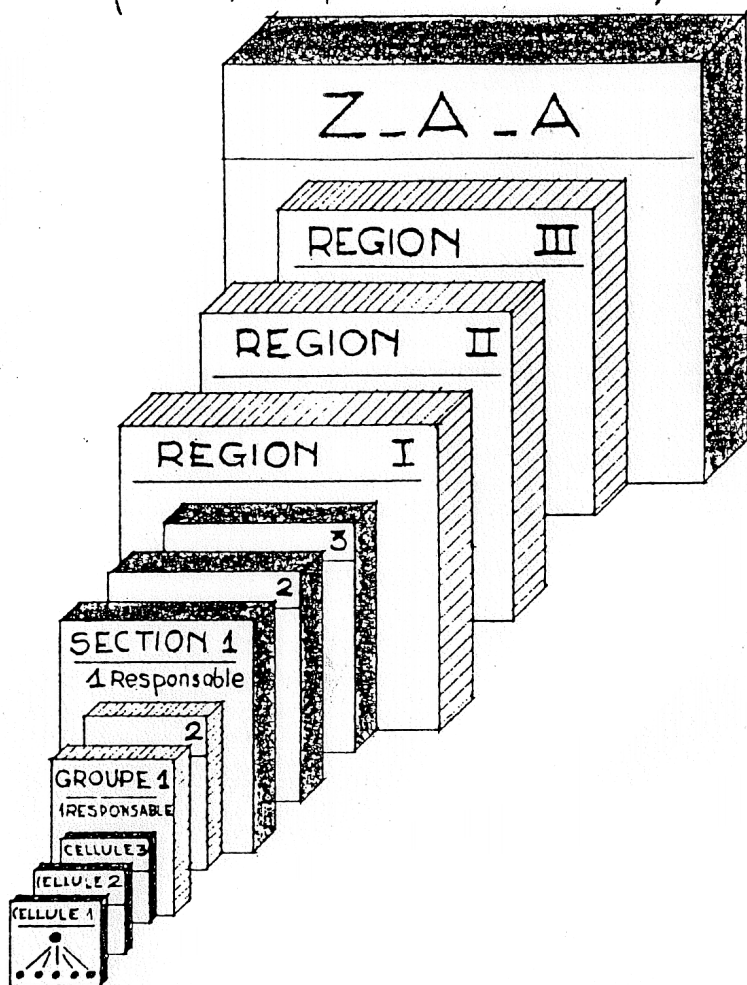
Effectif prévu : $354 + 2$ (Responsable zonale + adjointe).

(1) - Organisation théorique valable pour R I (3 Secteurs)

Non encore adaptée ni à R II (2 Secteurs)

ni à R III (5 Secteurs)

ORGANISATION FEMININE de la Z.A.A (Conçue par Driff ZOHRRA)



الملحق 4

مختصر لفقرات من الوثائق المكتشفة في 3 شارع كاطون (نص كتبه زهرة ظريف)

EXTRAITS DE FRAGMENTS DE DOCUMENTS SAISIS 3 RUE CATON.

(Textes rédigés par DRIF ZOHRA)

DOCUMENT N° 1 -

B) - FORMATION DES GROUPES -

Lorsque les groupes sont organisés, chaque groupe doit se réunir une fois par semaine. Les éléments de chaque groupe ne doivent, si possible, se connaître que sous le nom de combat. La réunion permet de répartir les tâches dans les quartiers dépendant de ses éléments.

Un autre point important : les réunions doivent apporter leur fruit pour tous. Chacune comportera une discussion de Tracts, de récentes émissions, un essai de vue sur la politique. Chaque responsable de groupe fera un rapport qu'il communiquera à son responsable.

C) - TRAVAIL - TACHES -

1) - Surtout social.

- Travail de propagande au sein des familles.
- lutte contre crainte du militaire.
- Travail social : (Formation d'équipes d'assistance sociales).

C'est au cours des réunions des groupes que seront signalés les nécessiteux, les malades, les " mouchards ". Arrestation, Tortures du quartier. La responsable sera chargée de communiquer ses renseignements.

2) - politique.

- Equipe de Secours - aux familles des militants.
- Equipe d'enquêtes sur Tortures. Vols. Action des militaires.
- Equipe Active, celles-ci selon leur

DOCUMENT N° 2 -

..... L'essentiel, dans la
c'est de familiariser les femmes avec l'organisation, la tenue de réunion une fois par semaine.

Comme activité principale, on peut suggérer la lecture et le commentaire d'un tract, les commentaires de Radio-TUNIS ou RABAT, ainsi que RADIO ALGERIE LIBRE.

Comme travail pratique, on peut se limiter au début à l'action de solidarité aux familles de Moudjahidines, aux enfants d'emprisonnés ou de disparus.

Un premier objectif politique serait l'organisation d'une " manifestation silencieuse " par le rassemblement à certaine heure du vendredi aux cimetières.

الملحق 5

تعليمه عمل داخلية أصدرها ماسو (تعليق على تعليمه ماسو)

10^e DIVISION PARACHUTISTE
ETAT-MAJOR - 2^e BUREAU
N^o 1416 J2
Cit :

NOTE DE SERVICE

Le Général Commandant la Z.N.A. et la 10^e D.P. remercie l'Aumônier parachutiste qui a pris la parole pour parler sur l'Action policière un jugement sans passion, libre et sans peur.

Il invite toutes les âmes inquiètes ou désorientées à l'écouter et souhaite que ses réflexions d'un prêtre, contribuent à éclairer ceux qui n'ont pas été formés à la rude école de la "guerre pourrie" d'Indochine et qui n'auraient pas encore compris qu'on ne peut lutter contre la "guerre révolutionnaire et subversive", menée par le Communisme International et ses intermédiaires, avec les procédés classiques du combat, mais bien également par des méthodes d'action clandestines et contre-révolutionnaires.

La condition sine qua non de notre action en Algérie est que ces méthodes soient admises, en nos âmes et consciences comme nécessaires et moralement valables.

Le déchaînement d'une certaine presse métropolitaine ne doit pas nous ébranler, il ne fait que confirmer la justesse de nos vues et l'efficacité de nos coups.

I. G. A. M. C. Secrétaire Général.

DESTINATAIRES :
DIFFUSION GÉNÉRALE EN ZNA
COPIE A :
M. le Général de C.A. d'ALGER
M. le Général de C.A. d'ALGER

Le Général de Brigade MASSU
Commandant la Z.N.A. et la 10^e D.P.

" Puisqu'il est légalement permis dans l'intérêt de tous de supprimer un meurtrier, pourquoi vouloir qualifier de monstrueux le fait de soumettre un criminel - reconnu tel par ailleurs ou déjà passible de mort - à un interrogatoire pénible... Faire souffrir passagèrement un bandit pris sur le fait... En venant à bout de son obstination criminelle, par le moyen d'un interrogatoire, obstiné, harassant et d'autre part laisser menacer des innocents que l'on sauverait si de par les révélations de ce criminel on parvenait à anéantir le gang, il faut sans hésiter choisir le moindre : " un interrogatoire sans sadisme et efficace ".

Le père Delarue, aumônier parachutiste égaré entre deux uniformes, a signé ce texte dominicain de très haute époque

→

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

A propos de la circulaire du Général MASSU.

Monsieur Maurice Patin, pourtant Président de la commission de défense des droits et libertés individuels, créée en Avril 1957 - cette commission était censée chargée de combattre les dépassements de la répression et d'informer utilement le gouvernement français des faits graves imputables à l'armée ou à tout autre auteur - n'a pas hésité à apporter dans le domaine répressif " toute l'aide en son pouvoir " .

Monsieur Patin, qui approuvait absolument le fond de l'affaire et celui de la circulaire dont il était avisé, voyant dans les possibilités de " faites " (et en particulier sur le plan international) un danger considérable, a tenu le propos suivant :

" Je comprend parfaitement votre angoisse. Je comprend parfaitement l'importance que revêt ce problème pour l'armée, mais pour Dieu, supprimer votre directive. Faites nous de bons dossiers, et suscitez même de faux témoins, je vous aiderai de toutes mes forces, mais supprimez, supprimez pour le ciel ! votre directive ".

(J.M. THEOLLEYRE, ^{dans son ouvrage} ~~page 134~~) PV34

Le Colonel Argoud rapporte cette déposition faite le 21 décembre 1960 au tribunal à l'occasion du procès des barricades.

Et cette " conscience " a veillé longtemps sur les innocentes victimes algériennes dont elle était soi-disant le suprême recours.

A propos de l'Indépendance de l'Algérie

Certaines gens avancent une théorie inadmissible et indémontrable : l'Indépendance de l'Algérie n'a pas été le fruit d'une lutte armée et révolutionnaire menée contre l'occupation coloniale, mais le résultat d'une politique d'oe à la magnanimité du Général DE GAULLE.

A ce propos, le Président de la Vème République a soutenu l'effort de guerre avec toutes ses implications, pendant près de cinq années pour aboutir à la seule solution possible selon le vœu et l'intérêt de son propre pays.

Ce dernier avouait dans sa lettre du 26 décembre 1959 que :
" malgré toutes les affirmations, promesses et illusions, l'ensemble de la population musulmane n'a pas du tout " basculé " de notre côté, ni en Algérie, ni dans la Métropole, ni à l'Etranger.
" A en croire les rêveurs ou les fumistes, il suffirait d'être les plus forts pour que les musulmans nous rallient. " " Quelle force supplémentaire nous faudrait-il donc pour qu'ils le fassent ? "

(J.R. TOURNOUX " Jamais dit ", pages 207-208.

الملحق 6

الصفحات الأولى للجرائد حول اغتيال عليّ لابوانت ،
وحسبية بن بو علي ، وأصدقائهما

devant rendre «
ponse à M. R. Co.
main soir au plus tôt,

Le Journal
d'Alger
15 FRANCS
Métropole : 20 fr

OCTOBRE 1957
NOUVELLE SEDE
N° 1330
17 ANS

HIER, A 6 HEURES 30
DU MATIN, RUE
DES ABDERAMES

M. PLEVEN EXPOSE LES OBJECTIFS AUX GROUPES Explosion dans la Casbah
trois immeubles détruits:

ALGERIE : loi-cadre similaire à celle de M. Bourges-Maunoury
le fédéralisme devant être la solution finale
FINANCES : pouvoirs spéciaux pour un an, stabilité effective
des prix et salaires, réforme fiscale, 200 milliards à trouver

Tout pays de
Union Française
aut préparer
s étapes d'une
nancipation plus
moins large...
aucun n'a intérêt à
ire un seul mem-
lar dans l'incommu-
claire M. Albert Sarraut
ident de l'Assemblée
l'Union Française
sa une information, ne peut s'

« Une république française fédérale
réaliserait une large
autonomie interne dans le
cadre d'une dépendance
à l'égard de l'ensemble »
écrit M. André François-Poncet dans « Le Figaro »

ER APRÈS-MIDI, SUR LA COLLINE DE BELFORT, A MAISON-CARRÉE

5 MUSULMAN
DONT 4 ENFANT
TUÉS PAR LE
EFFONDREMENT
Deux autres
habitants soi-
lèvement bless
QUATRE PAR-
DU 1^{er} R.E.
SONT ATTEIN-
L'Autorité militair
« C'est la déce-
verte d'une cac-
qui a provoqué
l'explosion ! »
d'une information, ne peut s'



Le Dépêche
Quotidienne d'Algérie

15 FR. ALGERIE
20 FR. METROPOLE

3^e Année - N° 2.948
Mercredi 9 octobre 1957
SUIVEZ DUNES

Trois éditions
quotidiennes

Provoquée par les sondages au choc
d'une « cache », par les « paras »

**L'explosion
d'un stock
de bombes terroristes
« souffle » trois maisons
dans la Casbah**

5 cadavres
et 4 blessés
dégagés
(jusqu'ici)
des décombres
Quatre militaires
blessés

Radio-Moscou:
Un deuxième
satellite
(plus perfectionné)
sera lancé
le 7 novembre

Sputnik se serait
tu hier matin

A 7 h. 14
« bébé-
lune » sera
sur Alger

Le violent explosion qui, hier
se petit jour, abîma un quartier
de la Casbah, fut entraînée par



La crise entre deux pôles

Pinay et Mollet



M. Roger Duchet : « Pinay au pouvoir ! »

A moins d'un « 3^e homme » choix de plus en plus difficile pour M. Coty

M. Coty a choisi M. Pinay pour remplacer M. De Gaulle à la présidence de la République. M. Pinay a été élu président de la République le 18 juin 1959. M. Coty a choisi M. Pinay pour remplacer M. De Gaulle à la présidence de la République. M. Pinay a été élu président de la République le 18 juin 1959.

LE MAUVAIS TEMPS DANS L'ALGÉROIS
50 normaliens et normaliennes ont vécu avec angoisse l'inondation du Centre Educatif d'El-Riath



ALI-LA-POINTE ET HASSIBA BENT BOUALI



BENT BOUALI DÉCOUVERTS DÉCHIQUETÉS

par l'explosion
Leurs corps ont été identifiés de façon indiscutable

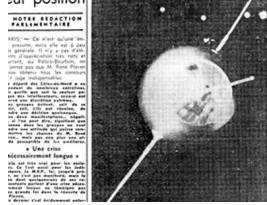


Le 1^{er} R.E.P. met ainsi un point final à l'histoire du terrorisme dans l'Algérois

Impression quasi générale malgré l'extrême discrétion des porte-parole des groupes :

VI. Pleven ne semble pas pouvoir obtenir les concours qu'il juge indispensables

es instances des partis irrèteront aujourd'hui sur position



Le satellite soviétique va interrompre ses signaux

L'ÉCHO D'ALGER

Un dépôt de bombes a explosé dans le repaire d'un dangereux tueur

trois maisons détruites cinq morts (M. Cherifi deux de ses filles et deux autres enfants) et huit blessés

D'autres cadavres seraient encore sous les décombres

Exploitant le succès du satellite soviétique KHROUCHCHEV menace : « L'U.R.S.S. »

APRÈS CELUI DE CHATEAUNEUF « L'ARM. AF. » lance à Maison-Carrée un nouvel ensemble de 170 logements

La première pierre a été posée hier par le colonel Jamilloux

INFORMATION EN PAGE 8



Sur la chaire de Belkacem, pendant l'élévation de M. Farouk Benkhrouja

فهرس الأعلام

أنيس (خطيب سامية) 233، 244، 250، 252،

559

أوصديق بوعلام 101، 103، 104، 105، 106،

107، 110، 560

أوصديق صليحة 101

أولامب (زميلة زهرة ظريف في الدراسة) 42

ب

بادوش سعيد 415

بارا روبير 189

بازي حورية 534

الباشا آغا 311، 312، 314، 315، 316، 319،

320، 332، 333، 356، 395، 397

بانكي كريفو 96

براسانس / كمال (ينظر : علي الهادي) 118

براهيمي ميلود 99

بِسْكَر حَفْصَة 98

بطاط رابع 7، 139، 606

بقادور زليخة 98

بلحفاف أمقران 311، 576

بلحفاف تَسْعِدِيت (لآلة) 12

بلحفاف عبد الرزاق 562

بلحفاف عبد الله 562

أ

آن (صديقة زهرة ظريف) 43

آيت علي (باشا آغا) 311، 315

أحمد (صديق عبد القادر ظريف) 310

أختيتي (ينظر : حطالي فتيحة) 345، 348،

349، 351، 371، 372، 379، 384، 423،

424، 426، 430، 431، 432، 433، 435،

436، 437، 438، 439، 478، 479، 480،

481، 482، 483، 484، 486، 487، 491،

499، 506، 522، 524، 525، 526، 532،

533، 534، 547، 548، 561، 568، 570، 571،

572، 573، 575، 576، 577، 578، 579،

580، 581، 582، 583، 584، 592، 593،

594، 595، 596، 597، 599، 601، 630،

631، 632، 633، 634، 635، 636، 637،

638

الأشرف مصطفى 298

أشباري 78، 79، 175

إفتون فرنان 561

الأم العبدونية 141، 144

أميدي فروجير 339، 340

الأمير عبد القادر 38، 48، 70، 110، 183، 232،

285

أندري مالرو 109، 124، 169، 190، 492

مُذَكِّراتُ مُجَاهِدَةٍ مِنْ جَيْشِ التَّحْرِيرِ الْوَطَنِيِّ مِنْطَقَةُ الْجَزَائِرِ الْمُسْتَقَلَّةِ

72، 74، 77، 80، 81، 82، 83، 84،	بَلَحْفَافٌ لَأَلَّةٌ 192
123، 124، 125، 135، 235، 493، 494،	بَلَحْفَافٌ نَافِعٌ 307
495	بَلَمِيهوبٌ مَرِيْمٌ 83، 534
بن عَلَّا الْحَاجُّ 400، 401، 402، 602،	بَلِيْسِييٌ بِيَارٌ 412
بن مَهْيَدِي الْعَرَبِي 17، 18، 274، 311، 312،	بن بَعَطُوشٌ 85
393، 399، 400، 401، 402، 410، 425،	بن بوعلي حسيبة 166، 255، 256، 257، 258،
565، 640	259، 260، 261، 262، 263، 266، 267،
بن يوسف 93	269، 270، 271، 272، 274، 275، 277،
بويغلة 48	278، 281، 297، 298، 305، 308، 312،
بوحميدي فطوم (خالتي فطوم) 493	315، 322، 323، 324، 325، 328، 331،
بوحميدي محمود 519، 618	344، 367، 368، 376، 379، 385، 387،
بوحيرد باية (خالتي باية) 19، 192، 304، 309،	396، 397، 414، 417، 422، 424، 425،
322، 326، 346، 349، 350، 369، 371،	426، 428، 430، 438، 440، 441، 445،
375، 379، 381، 382، 384، 385، 423،	448، 449، 450، 454، 458، 459، 460،
430، 431، 433، 439، 448، 522، 524،	461، 465، 467، 468، 469، 470، 473،
526، 532، 586	479، 481، 483، 486، 491، 492، 495،
بوحيرد جميلة 286، 308، 312، 413، 414،	499، 503، 526، 530، 535، 543، 544،
437، 511، 512، 513، 514، 516، 517،	547، 548، 550، 553، 554، 555، 556،
518، 519، 523، 531	557، 558، 559، 560، 561، 562، 563،
بوحيرد زغلة (خالتي زغلة) 460، 597،	564، 568، 569، 571، 575، 578، 579،
بوحيرد عزيز 350	583، 587، 591، 593، 594، 597، 598،
بوحيرد مصطفى (عمي مصطفى) 18، 345،	603، 606، 611، 614، 615، 616، 617،
349، 369، 378، 388، 389، 478، 480،	618، 620، 627، 628، 636، 640،
482، 483، 484، 485، 492، 561، 579،	
629	بن بولعيد 640
بوحيرد نذير 350	بنت بولنوار حليلة 22
بوحيرد الهادي 17، 18، 108، 109، 380، 381،	بن تَكُو مَهْدِي 308
382، 383	بن حمودة 85
بورقيبة الحبيب 93، 94، 299، 491،	بن حميدة عبد الرحمن 539
بورقيبة وسيلة 94	بن خَدَّة 337
بوزوران علي 496، 497، 499، 505، 568، 601،	بن زيان جلول 23، 25
629	بن سماعيل دونيز (ميمي) 54، 55، 57، 59،
بوشافة مختار 196	

فهرس الأعلام

حاج مولاي الطيب 22
 حاجي عثمان (رامل) 343، 420، 459، 462،
 466، 467، 477، 543، 545، 546، 547،
 548، 549، 550، 555، 557، 562، 588،
 602، 630
 حبيب رضا 18، 331، 356، 426، 427، 562،
 597
 حدو (المحامي) 519
 حسان (الأستاذ) 126، 127، 128
 حاجي عثمان (رامل)
 حطالي جمال 18، 629، 630، 636، 638
 حطالي فتحة 18، 294، 629، 630
 حطالي ليلي 482
 حَمْدِيكان فاطمة 496، 628
 حمود نفيسة 91
 حميناد عبد الرحمن 526
 حوحو رضا 49
 حورية 466، 534
 حَيْدَر أميناتو 185

خ

خالتي بَحْتَة 51
 خالتي زغلة (ينظر : بوحيرد زغلة) 414
 خالتي زهرة (ينظر : عمور زهرة) 381
 خالتي مالحة (ينظر : مزيان مالحة) 367
 الخطابي عبد الكريم 93
 الخو (ينظر : ياسف سعدي)
 خوْخَة 473

د

دانتون 162
 دانيال مين 304، 305، 360
 دبيح شريف (سي مراد) 18، 297، 536، 543،
 555، 640، 327، 328، 343، 344، 352،

لوضياف 277، 298
 بوطالب (باشا آغا) 356، 395، 397
 بوَعَزَة جميلة 360، 511، 522، 523، 527، 529
 بوَعْمامَة 183
 بوعباد محمود 87، 89، 90
 بوكارو (أو عمران) 362
 بومدين 22، 25، 31
 بومنجل 60، 492
 بيتان 52، 72
 بيجار 16، 343، 411، 510، 541، 543، 550،
 551

ت

ترانكيي 336، 605، 609، 610، 611، 613،
 627، 628، 630، 637
 تمسيت (الإخوة) 256، 257، 561
 تواتي أحمد 99
 توماس 59، 72، 73، 74
 تييون جرمان 493، 495، 567

ج

جاك منصور (ينظر : فرجاس) 511، 512، 513،
 517، 518، 520، 525، 533، 534، 535،
 539
 جان بيار 343
 الجنايديّة عائشة 51
 جوهر 120، 268

ح

حاج حَمُو 33
 حاج سماعيل (كمال) 496، 497، 498، 507،
 568، 571، 580، 628، 639
 حاج طاهر 25

مذكرات مُجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

زفارو 429، 432، 433	367، 414، 415، 417، 419، 420، 421
زميتي 53	424، 439، 454، 477، 532، 533، 536
زيغوت يوسف 377، 640	537، 538، 539، 540، 541، 542، 543
زينب 242، 562	546، 550، 551، 552، 553، 554، 555
	557، 561، 562، 569، 573، 581، 585
س	597، 598، 607، 611، 615، 622، 625
ستيب بيار 429	دحلب سعد 337
ستيب روني 429	دحمان (ينظر : طالب عبد الرحمن) 18، 323
سوستيل جاك 96، 100، 494، 498، 502	328، 331، 424، 453، 455، 458، 459
سيدي أمحمد بن عمر 22	460، 461، 462، 465، 467، 468، 492
سيدي عباس بن عمر 21، 25	507، 519، 521، 522، 523، 524، 526
سيدي عبد السلام 22	527، 528، 557، 558، 561، 596، 597
سي لخضر 256	611
سي مراد (ينظر : ديبح شريف)	دريزي محمد 48، 49، 52، 53
السيّدة « كو » 207، 208، 209، 214، 600	دودي ألفونس 308
ش	دوفال 78، 79
شبابان 482، 486، 487، 561، 573، 583، 584	دولارو 390
599	ديب محمد 67
شار روني 190، 405	ديدوش مراد 377
شولي بيار 99، 335	ديدي العربي 421، 424، 426، 430، 439، 480
الشيخ الحداد 59، 412، 484	481، 484، 630
الشيخ العربي التبسي 73	ديدي عمر 288، 294، 349، 351، 369، 384
ص	483
صالان راوول 335	ديغول 72، 78، 79، 493، 495، 506
ط	د
طالب عبد الرحمن (دحمان) 18، 195، 514	رامل (ينظر : حاجي عثمان)
540، 521	روبسيير 162
ظ	روبير لاكوس 125، 339، 344، 390
ظريف أحمد 22، 25، 140، 155، 231، 298	روينار 514، 518، 524، 530
583	ريموند بيشار 233، 234، 305، 313
	ز
	زبانه أحمد 140، 155

فهرس الأعلام

621، 622، 623، 624، 625، 626، 627،
630، 633، 634، 637، 640

عمارة رشيد 99

عمارة علي (عليلو) 292، 329، 330، 340،

367، 414، 417، 418، 422، 453، 456،

457، 458، 560، 565، 582، 632

عمر الصغير (ينظر : ياسف عمر)

عمران جميلة 304

عمّور زهرة (خالتي زهرة) 381

عمّور محمد 381

عمّي الطاهر 221

عويشات (فنانة) 356

ف

فَتّال مصطفى 131، 139

فَرّاج 140، 145، 148، 154، 155، 160، 165،

189

فرانسيس أحمد 60

فريدة (فنانة) 356

فضيلة الدزيرية 272، 356

فطومة (ينظر : مزيان فاطمة) 179

فكتور سرج 169، 190

فيشي 72

ق

قادر 45، 46، 47، 53، 95، 97، 99، 101، 138،

140، 144، 145، 147، 309، 310، 407،

517

ف

فابي جيميناز 537

فارسيا روزلين 28، 29

فارسيا لوركا 185

فارسيا (محافظ الشرطة) 53

ظريف حاج عبد السلام 21، 22، 583

ظريف زهرة (فريدة) 20، 29، 44، 87، 118،

127، 134، 158، 159، 162، 178، 181،

197، 244، 275، 286، 312، 598

ظريف سعدية 23

ظريف عبد القادر 307

ظريف ليلى 7، 60، 172، 236، 264

ع

عبّاس فرحات 73، 76

عبان رمضان 189، 337، 640

عبد الرحمن « البوليسي » 53

عرباجي 18، 352، 353

عزّوز 256

عطية فضيلة 360

علجية 120، 121

علي الهادي (براسانس / كمال) 17، 108، 109

عمار علي (علي لابوانت) 17، 167، 245،

246، 247، 253، 257، 258، 259، 260،

296، 274، 275، 277، 278، 292، 294،

306، 307، 312، 325، 327، 328، 330،

331، 345، 353، 354، 356، 362، 367،

376، 380، 385، 386، 396، 415، 421،

423، 425، 426، 428، 440، 441، 442،

443، 444، 445، 446، 447، 450، 451،

452، 453، 455، 456، 460، 462، 463،

469، 470، 471، 472، 475، 477، 479،

480، 482، 487، 500، 504، 520، 525،

543، 545، 548، 550، 554، 555، 557،

558، 562، 563، 568، 571، 577، 578،

580، 581، 586، 588، 592، 596، 598،

599، 602، 603، 605، 607، 612، 613،

614، 615، 616، 617، 618، 619، 620،

مذكرات مجاهدة من جيش التحرير الوطني منطقة الجزائر المستقلة

127، 135، 136، 146، 151، 152، 153،
156، 160، 163، 171، 173، 174، 178،
186، 202، 216، 217، 231، 232، 233،
248، 250، 559

لخضاري زهور (ماما زهور) 19، 70، 71، 74،
75، 78، 79، 110، 111، 135، 136،
151، 152، 159، 163، 172، 174، 176،
178، 189، 190، 191، 192، 194، 195،
198، 202، 212، 213، 215، 217، 219،
220، 221، 223، 224، 230، 232، 233،
235، 236، 242، 243، 244، 267، 268،
271، 284، 296

لخضاري سامية (نبيلة) 15، 17، 18، 43، 44،
45، 54، 55، 59، 60، 63، 64، 65،
66، 69، 70، 72، 74، 75، 77، 78، 80،
81، 82، 83، 84، 88، 89، 90، 91، 92،
98، 101، 102، 103، 105، 106، 107،
108، 109، 110، 111، 112، 114، 117،
118، 119، 120، 122، 123، 124،
126، 128، 129، 131، 134، 135،
136، 137، 138، 139، 140، 146،
151، 152، 153، 154، 155، 156،
157، 158، 159، 160، 162، 163،
165، 166، 167، 168، 169، 171،
172، 173، 175، 176، 177، 178،
179، 180، 181، 182، 183، 185،
186، 187، 188، 189، 190، 191،
192، 193، 194، 195، 196، 197،
198، 199، 201، 202، 203، 204،
209، 211، 212، 213، 214، 215،
216، 217، 218، 220، 221، 222،
224، 226، 227، 229، 231، 232،
233، 234، 235، 236، 239، 240،

فاندريش حسان 633

فروج جاكلين 16، 304

فروج جيلالي 304

فناسيا 39

فوثيرا 513

فودار 570، 596، 597، 598، 599، 601، 602،

603، 608، 612، 613، 614، 615، 621،

622، 623، 624، 626

فوسم (فنانة) 356

في مولي 122، 125، 508، 509

«كو» 207، 208، 209، 214، 600

ك

كاتب ياسين 67، 190، 295

كريم بلقاسم 277، 337

كزاغنيكي 85، 86، 87، 88، 91، 109، 189،

199

كشيدة عبد الله (مراد الصغير) 17، 156، 157،

158، 159، 160، 163، 166، 172، 174،

177، 189، 257، 286، 560، 571

كلثوم (فنانة) 356

كليمانصو 74

كواش رشيد (سي رشيد) 197، 202، 203،

204، 226، 560

كوتي روني 154

كوفاكس روني 161

ل

لابولارديير 310

لافايان 230

لافايارد 80، 99

لالة يامينة 521، 522، 524

لاليام 305

لخضاري (الأب) 15، 18، 43، 44، 70، 107،

فهرس الأعلام

ماندوز أندري 67، 100
 محفوظ 413، 416، 417، 419، 420، 421،
 540، 542
 محمد الخامس 93، 299
 مُحمدي حسينة 101
 مراد الصغير (ينظر كشيدة عبد الله) 156،
 157، 158، 159، 160، 163، 166،
 172، 174، 177، 189، 257، 286،
 560، 571
 مرسالي عبد الغني (غاني) 522
 مسلي فضيلة 534
 مِثلي (كاتب) 189
 مصالي الحاج 60، 73
 مصطفى صابر 99
 معزوزي محمد سعيد 312
 معمرى اعمر 415
 معمرى مولود 9، 67، 84، 619، 627
 المقراني 48
 موتات 513، 519
 مولان جان 72
 مولاي إدريس فرحات 47
 مونتيكيو 189، 191
 ميتران فرنسوا 508، 515
 ميمي (ينظر : بن سماعيل دونيز)
 ن
 نسومر فاطمة 48، 183
 نصيرة 413
 ه
 هجرس 12
 و
 وهيبة (فنانة) 356

242، 243، 244، 245، 247، 248،
 249، 250، 251، 252، 253، 254،
 255، 256، 258، 264، 266، 267،
 268، 269، 271، 274، 275، 276،
 277، 278، 279، 280، 281، 284،
 295، 296، 298، 300، 331، 404،
 493، 494، 557، 559، 560، 564،
 591، 565
 لخضاري مالك 74، 75، 76، 81، 106، 172،
 251
 لخضر براهيمى 63
 لومومبا باتريس 185
 لونوار 545
 لونيس محمد 99

م

ماثورين - يوباي 345، 395
 مارفريت (صديقة السيدة كو) 209، 600
 ماسو (جنرال) 16، 310، 336، 339، 341،
 342، 344، 351، 358، 359، 360،
 362، 363، 369، 373، 379، 387،
 389، 390، 392، 393، 394، 395،
 409، 411، 412، 413، 414، 417،
 424، 425، 429، 431، 440، 442،
 443، 446، 452، 453، 454، 456،
 457، 464، 465، 466، 475، 476،
 480، 487، 488، 490، 500، 508،
 510، 515، 516، 531، 539، 546،
 550، 561، 563، 565، 572، 575،
 576، 588، 613، 615، 616، 617،
 624، 636، 639
 ماسينيسا 48، 166
 ماكس لوجون 122، 411
 ماما زهور 70

مُذكرات مُجاهدة من جيش التّحرير الوطنيّ منطقة الجزائر المستقلّة

498، 500، 502، 507، 519، 536،
 543، 544، 545، 546، 549، 553،
 554، 555، 556، 559، 562، 564،
 568، 570، 571، 572، 573، 574،
 576، 577، 578، 580، 581، 584،
 585، 586، 587، 588، 589، 592،
 593، 594، 596، 597، 598، 599،
 601، 602، 603، 609، 610، 612،
 613، 631، 630، 636
 ياسف عمر (عمر الصغير) 306، 311، 317،
 343، 394، 396، 421، 425، 440،
 441، 442، 443، 445، 448، 449،
 451، 472، 473، 544، 580، 581،
 597، 618، 639، 640
 يَمّا (جدة جميلة بو حيرد) 19، 294، 369،
 423، 483، 579، 484، 485، 595،
 603، 634، 635، 638
 يوغورطا 166

ي

ياسف سعدي (الخور) 18، 181، 182، 188،
 191، 192، 194، 196، 205، 226،
 244، 245، 246، 247، 248، 258،
 259، 260، 267، 269، 273، 274،
 275، 276، 277، 278، 279، 280،
 281، 285، 286، 289، 296، 297،
 298، 300، 311، 312، 314، 315،
 317، 318، 320، 325، 327، 329،
 330، 331، 333، 337، 340، 348،
 349، 352، 353، 355، 356، 357،
 360، 362، 366، 367، 368، 386،
 393، 394، 396، 409، 412، 414،
 415، 417، 418، 419، 420، 424،
 425، 426، 427، 428، 430، 438،
 439، 440، 442، 444، 445، 449،
 454، 456، 457، 459، 461، 467،
 468، 472، 473، 475، 477، 479،
 486، 487، 491، 493، 495، 497،

الفهرس

- تشكرات 11
مقدمة 15

الفصل الأول في حضن العائلة

- أصولي وسلالتي الأبوية 21
سلالتي من أمّي 23
ما يخصّ أمّي 25
ما يخصّ أبي 30

الفصل الثاني اكتساب الوعي

- الثانوية 35
سامية، صديقتي، أختي 43
الكشافة الإسلامية، مدرسة الوطنية 48
الجامعة 60
البحث عن مفجّري أول نوفمبر 83

الفصل الثالث الاتصالات الأولى مع جبهة التحرير الوطني

- سكيكدة، أوت 1955 : مجزرة أخرى ضد الأهالي، منعطف آخر 95

101	بوعلام أو صديق : أخيرا الاتصال بجهة التحرير الوطني
108	اللقاء مع علي الهادي، المدعو كمال
111	مهماتنا الأولى كمناضلات بجهة التحرير الوطني
118	اللقاء مع مصطفى فتال، « الفنك »
130	اعتقال الفنك
136	إضراب الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين
139	جزء من الصيف في فيلار

الفصل الرابع في قلب العمل المسلح

151	الانضمام إلى المجموعات المسلحة
161	14 جويلية : محاولة « المتطرفين » لحرق القصبة
171	10 أوت 56 : اعتداء المتطرفين ضد شارع طيبة في القصبة
178	عندما أصبحنا متطوعات للموت
183	بين حياتنا وأمننا الجزائر، اخترنا أمنا
188	التحضير المجسد لأعمالنا الأولى في الكفاح المسلح
196	أخيرا وصل اليوم الحتمي : آخر أحد من شهر سبتمبر 1956
205	وها قد أصبحنا « مجاهدات حقيقيات »
213	لا نولد مكافحات، وإنما نصبح كذلك
221	السخط غير المنصف في تحقيقات الجرائد الكولونيالية
227	نقل الحرب إلى إقليم العدو
230	سانت أوجين بعد الملك بار والكافيتريا
233	ريموند بيشار، مناضلة شيوعية، تُتهم ظلما وبلا أدلة

الفصل الخامس داخل القصبة، في قلب المقاومة

237	أخيرا في القصبة

- 239 عند عائلة بَلْحَفَّاف والرائعة لآلة
- 244 لقائي الأول مع ياسف سعدي (الخو) وعَمَّار علي (علي لابوانت)
- 255 حسيبة بن بو علي تلتحق بنا في مخبأ بَلْحَفَّاف
- 259 مَسْخ حسيبة
- 264 عند عائلة بو حيرد، في 5 درب غرناطة
- 267 تعود سامية إلى سانت أوجين، وأبقى مع حسيبة عند عائلة بو حيرد
- 273 لقائي الأول مع بن مهدي
- 276 جميلة تلعب لعبة « يداس » مع سي محمد
- 279 « الخو » يكلفنا بمهمات أخرى
- 286 شجاعة جميلة بو حيرد الخارقة للعادة
- 298 تحويل الطائرة التي تقيل خمسة من قادتنا
- 302 نقل القنابل والأسلحة والبريد، مرافقة وإيواء المناضلات
- 305 أخي عبد القادر يزورني في القصبة

الفصل السادس

تدويل المسألة الجزائرية

- 311 الاعتداء المُلغى ضد الباشا آغا آيت علي
- 317 بن مهدي يشرح لنا أولوية السياسي على العسكري والداخل على الخارج ...
- 322 اختراق القواعد بالذهاب إلى السينما
- 325 كم كنا نحب الحياة !
- 329 توقيف لوني أرزقي وإعدامه
- 332 ربما سأتعرف على مذاق الموت
- 335 تسجيل المسألة الجزائرية لدى منظمة الأمم المتحدة
- 339 إلينا « إضراب الثمانية أيام »، وإلى ماسو « معركة الجزائر »
- 343 جانفي 1957، أول مداهمة للمظليين إلى منزل بو حيرد

الفصل السابع

إضراب الثمانية أيام

- 355..... تحضير إضراب الثمانية أيام
- 358 ماسو يحضّر الإضراب على طريقته
- 360 ويبدأ الإضراب : « الدزاير » مدينة ميتة
- 363 تجمعات من سطح إلى سطح
- 367 من 2 إلى 3 فيفري 1957 ، ليلة رهيبة في دار بوحيرد
- 373 تعذيب الناس في بيوتهم
- 386 مخبأ 5 درب غرناطة « محروق »
- 390 حوصلة إضراب الثمانية أيام : نجاح شامل

الفصل الثامن

اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلة

- 399..... اعتقال العربي بن مهيدي
- 408 اغتيال بن مهيدي
- 413 اعتقال جميلة بوحيرد
- 422 محاولة تهريب جميلة من مستشفى مايو
- 429 ضرورة وسرعة البحث عن محام للدفاع عن جميلة
- 432 محام شاب يسمّى « فرجاس »
- 440 ظهيرة تيه في القصبه
- 453 تكسير عليلو، تعذيب دحمان، وعليّ يواجه المظليين
- 455 التعذيب مدمر، أثناء، بعد، ودائما
- 458 عذاب دحمان
- 468 شجاعة عليّ لايوانت الخارقة وتضامن النساء الفعّال

472	مخبّان جديدان، 3 و4 شارع « كاطون »
476	النساء والجبّ
487	مجزرة زقاق فويان، ردّ فعل ونقص ملحوظ في مخزوننا من البلاستيك ...
493	اللقاء مع جرمان تيّون
507	محاكمة جميلة، دحمان، غاني، والآخريين
530	لهم « ماريانهم »، ولنا « جميلتنا »
536	دبيح شريف : عملاق باسم سي مراد
543	مقتل رامّل وسي مراد
555	حوصلة مأتميّة : حلم حسيبة بن بوعليّ المنذر

الفصل التاسع

اعتقال زهرة ظريف

567	اللقاء الثاني مع جرمان تيّون
570	الأخطاء الأربعة القاصمة
582	الاعتقال
587	الخائن حسان فاندريش، المدعو زروق، ثمّ صافي !
596	في مكتب قودار
601	في السرية داخل فيلا الناظور
605	في مواجهة ترانكيي
615	مقتل حسيبة وعليّ ومحمود بوحميدي وعمر الصغير
620	وفاة أختي وإخواني مثلما ذكرتها الصحف الكولونيالية.
626	البحث عن أجوبة لأسئلتي الواخزة
641	الملاحق
659	فهرس الأعلام

